المستذلون المهانون

فيودور دوستويفسكي

- Author : FyodorDostoevsky
- Title: Humiliated and Insulted
- Translated by: Essam Eddin Hefny
- Afaq's first edition: 2018
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- General Editor: Tarek Hashim

- المؤلف: فيودور دوستويفسكي
- العنوان: المستذلون المهانون
- ترجمة: عصام الدين حفني
- طبعة آفاق الأولى 2018
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المحرر العام: طارق هاشم

رقم الإيداع:
٢٠١٧ / ٩٣١٦
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977-765 - 097 - 7

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system، or transmitted in any form، or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

فيودور دوستويفسكي

المستذلون المهانون

رواية

ترجمة

عصام الدين حفني ناصف

مراجعة

محمد محمد القصاص

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

دوستويڤسكي، فيودور.

المستذلون المهانون - ترجمة: عصام الدين حفني ناصف

فيودور دوستويڤسكي

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2017

640 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 9316 / 2017

الترقيم الدولي 978 - 977 - 765 - 097 - 7

1 - الأدباء

2 - دوستويڤسكي، فيودور

القسم الأول

الفصل الأول

في مساء اليوم الثاني والعشرين من مارس عام أول، وقع لي حادث جدّ عجيب، فقد طوّفت طوال اليوم في المدينة أرتاد لي مسكنًا جديدًا، إذ كانت غرفتي القديمة رطبة وكان للسعال إذ ذاك فيَّ أسوأ الأثر، وقد كان من الخير لي منذ الخريف أن أستبدل بمسكني آخر، بيد أني لم أفعل حتى جاء الربيع. ولم أوفق في ذلك اليوم أيضًا لبغيتي؛ ذلك أني كنت أريد مسكنًا خاصًّا بي بدلًا من اكتراء جانب من مسكن مستأجر آخر، وكنت أريده رحبًا، ولو لم يشتمل إلا على غرفة واحدة. وقد كنت، بالبديهة، أبغي فوق ذلك أن يكن قليل الإيجار قدر المستطاع. وإنما كنت أريده رحبًا لأني لاحظت أن أفق التفكير يضيق بالمرء في المكان الضيق، يضاف إلى ذلك أني تعودت أن أقطع الغرفة جيئة وذهابًا حين أهيئ في ذهني القصص التي أضعها. وإني لأشعر حين أنعم النظر على هذا النحو فيما أعده من مؤلفات وأختط لها الخطط وأتروى في طريقة إنجازها، بلذّة دونها بكثير لذّة تدوينها بعد ذلك على القرطاس، ولم يكن ذلك عن إيثار للراحة، بل.. إني لأعجز حقًّا عن إبداء سبب لذلك.

كنت أجد نفسي منذ الصباح موعوكًا بعض الشيء، حتى إذا ما وافى المساء استبان لي أني مريض حقًّا، وأني لا بد أن أكون مصابًا بما يشبه الحمى. هذا إلى أني قضيت سحابة النهار سائرًا على قدمي فأضناني طول المسير. ولما أوشك الليل أن يجن، أو- على التحديد- قبيل الغسق، سرت في شارع ڤوسنسنسكي. إني أحب شمس مارس في بطرسبورج، ولا سيما ساعة مغربها حين يكون الليل شديد البرد شديد الصفاء، فلا يلبث الشارع حينئذ أن ينار كله دفعة واحدة فيغمره سنا يبهر الأبصار، وتأخذ المنازل كلها تتألَّق، فإذا بألوانها الرمادية والصفراء والخضراء خضرةً قذرة تخلع عنها منظرها الكئيب لمدة لحظة، ويمسي الناس كأنما أشرقت أرواحهم أيضًا في بهجة وتهلل شأن من استيقظ على شعور مفاجئ. وإن عالمًا يمسي في حلة جديدة ليوقظ في النفس أفكارًا جديدة.. فيا للعجب! كل هذا يستطيع أن يبعثه في قلب المرء شعاع واحد من أشعة الشمس.

بيد أن نور الشمس قد خبا وأخذ القرّ يشتد اشتدادًا مطردًا يقرس الأنوف، وابتدأ الظلام يخيم، فأوقِدت مصابيح الغاز في الحوانيت والمساكن. وحدث فجأة حين وجدتني أسير إزاء محل الحلواني موللر، أن وقفت مكاني وكأنما شددت إلى الأرض شدًّا، ورحت أصوّب بصري إلى الناحية الأخرى من الشارع وأنا أحس أني سأشهد على الفور شيئًا طريفًا غير معهود. وكان فعلًا أن أبصرت في تلك اللحظة، في الناحية المقابلة، الرجل الهرم يصحبه كلبه. وإني لأذكر إلى الآن، ذكرى لا تزال حية ماثلة، أن قلبي كان كأنما قد انقبض من شعور منغص لا أعرف له كنهًا.

لست نزَّاعًا- بطبعي- إلى الروحانيات، وإن إيماني بالهاجسات والنبوءات وكشف الغيب يكاد يكون معدومًا، ومع ذلك فقد وقع لي في حياتي- ولعله يكون قد وقع لكثيرين غيري- بضع حوادث لا أجد لها تفسيرًا. فلماذا شعرت، مثلًا، عندما واجهت هذا الشيخ الهرم، بأنه سيقع لي في الليلة نفسها شيء نادر الوقوع؟ وعلى كل حال فقد كنت مريضًا وما أكثر ما تخدع المريض مشاعره.

واقترب الهرم من محل الحلوى مقوس الظهر يسعى بخطوات بطيئة مكدودة وساقين متصلبتين حتى لكأنه يسير على عصوين، وكان يقرع طوار الشارع بعصاه قرعًا خفيفًا. وأذكر أني لم ألق في حياتي بعد ذلك مخلوقًا عجيبًا مثله لا يكاد العقل يصدق أنه مخلوق حقيقي. لقد سبق لي أن لقيته غير مرة قبل ذلك عند موللر، فكان منظره يحدث في نفسي كل مرة إحساسًا مزعجًا، فقامته المديدة وظهره المحدودب، ووجهه، وجه ذي الثمانين الذي يشبه وجوه الموتى، ومعطفه العتيق البالي الذي تهلهلت حواشيه، وقبعته المستديرة المنتفشة التي لعلها ظلت ما يُرْبِي على العشرين عامًا تغطي منه رأسًا أصلع طارت خصلاته إلا بقية في أرجاء جوانبه جاوزت لون الرماد إلى البياض الضارب إلى الصفرة، وحركاته الآلية التي كأنما تحركها عجلة إحدى الآلات، كان هذا كله يحدث في من يراه أول مرة أثرًا لا يُمحى.

وفي الحق أنه كان عجيبًا منظر ذلك الشيخ الفاني الذي أبلته السنون وتخلف عن جيله منذ عهد بعيد، وراح يهيم وحده بلا رفيق، وصار أشبه ما يكون بمجنون أفلت من حراسه. لقد لفت نظري بهزاله الذي لا

شبيه له، فجسده يكاد يكون خِلوًا من اللحم حتى ليتراءى للناظر وكأنه جلد على عظم، وترى حدقتيه الكبيرتين الخابيتين غائرتين في دائرتين سوداوين عميقتين تحدقان باستمرار إلى الأمام دون أن ينحرف نظرهما يمنة أو يسرة. وإني لواثق كل الثقة أنهما لا تميزان أية صورة مما تنظران، بل إنه وهو يصوبهما إلى أحد من الناس يظل مع ذلك سائرًا إلى الأمام لا يحيد عن سبيله كما لو لم يكن أمامه غير الفضاء، وطالما راقبت منه ذلك. لقد ظهر هذا الهرم في محل حلواء موللر منذ زمن قريب، وكان يصطحب كلبه لا يفارقه، ولم يكن أحد يدري من أين يقدم، على أنه لم تكن لدى أحد من المترددين على هذا المحل رغبة في أن يتصل معه بحديث، وهو نفسه لم يبدأ أحدًا بالكلام.

وأعملت فكري وأنا واقف في الناحية الأخرى من الشارع في صمت وهدوء أصوب نظري إليه في غير ميل أو انحراف، وقلت في نفسي: فيم يكلف نفسه مشقة الحضور إلى موللر كل يوم؟ ماذا يفعل هناك؟ وسرى فيَّ شعور غضب واستفزاز، ربما كان مبعثه ما أصابني من لغب وانحراف مزاج، وساءلت نفسي: فيم عساه يفكر؟ ماذا يجول بذهنه؟ بل أهو يفكر في شيء ما؟ لقد همد وجهه كل الهمود فلم يعد يعبر عن أي معنى. ثم كيف وقع له هذا الكلب البغيض الذي لا ينفك ملازمًا له، حتى كأنهما يكوِّنان وحدة لا تنفصم؟ حقًّا إن الشبه بينهما ليسترعي الأنظار.

وهذا الكلب التعس لعله أيضًا قد بلغ الثمانين من عمره، أو هو على الأقل يبعث في النفس هذه الفكرة. إذ إنه، أولًا، يبدو مسنًّا هرمًا على

غير ما اعتادت الكلاب أن تكون، وثانيًا، لأنه خيِّل إليَّ حينما رأيته أول مرة- ولا أدري لماذا- أنه كلب كسائر الكلاب، وإنما هو حيوان غير عادي قطعًا، يُكِنُّ شيئًا شيطانيًّا مسحورًا فكأنه عفريت في صورة كلب، يرتبط مصيره بخيوط غير مرئية بمصير سيده. وإذا رآه الرائي، اعتقد بكل سهولة أنه أكل أكلته الأخيرة منذ عشرين عامًا خلت، فقد كان هزيلًا كأنه هيكل عظمي أو- بعبارة أبلغ في التصوير- كأنه سيده. وكان شعره قد تساقط كله حتى انجرد ذنبه من الشعر تمامًا، ذلك الذنب الشبيه بالعصا، الذي كان يعقفه بين فخذيه وقد نكس رأسه وأرخى أذنيه الطويلتين حزنًا. الحقيقة إني لم أشهد طيلة حياتي من الكلاب منظرًا أكثر نكرًا من هذا الكلب. وكانا إذ يمشيان معًا في الطريق، السيد يتقدم والكلب الأعقد في أثره يظل يمسح معطفه بخطمه حتى كأنه لاصق به. وكانا في مشيتهما ومنظرهما يلوحان كأنهما يقولان لدى كل خطوة «إنا لهرمان، أجل إنا لهرمان! رباه ما أشد ما نال منا الهرم!».

وأذكر أنه جال بفكري ذات يوم أن هذا الشيخ الفاني وكلبه قد انسلَّا من إحدى صفحات قصص هوفمان التي أبدعت صورها ريشة جاڤْرني. وأنهما يجوبان العالم كأنهما إعلان متنقل لهذه الطبعة من ذلك الكتاب.

عبرت الشارع ودخلت محل الحلوى وراء الشيخ الفاني.

لقد كان مسلكه هناك غاية في الغرابة، حتى لقد كان موللر في الأيام الأخيرة يبدو مقطب الوجه في موقفه خلف نضد الحانوت كلما دخل هذا الضيف غير المرغوب فيه، فقد كان هذا الزائر الغريب الأطوار لا يطلب شيئًا البتة، بل يتجه توًّا صوب الركن الذي فيه المدفأة فيجلس

على كرسيه، فإذا اتفق أن سبقه أحد الزبائن بشغل هذا الكرسي، بدا عليه الذهول وظل واقفًا في مكانه بين يدي من احتلّ مقعده، ثم سار في ذهول إلى حيث النافذة في الركن الآخر فيختار له كرسيًّا يجلس عليه متخاذلًا، ثم يأخذ قبعته فيضعها على الأرض والعصا إلى جانبها، وبعد ذلك يتكئ على الكرسي بجميع بدنه ويظل جالسًا هذه الجلسة ثلاث ساعات أو أكثر لا يمسك بصحيفة ولا يتفوه بكلمة ولا ينبس بنأمَة، وإنما يحدق إلى الأمام بعينين محملقتين في نظرات بلهاء حزينة حتى لَيستطيع المرء أن يراهن على أنه لا يبصر ولا يسمع من كل ما يدور حوله شيئًا. وكذلك كان شأن الكلب فهو بعد أن يدور دورتين أو ثلاثًا يرقد محزونًا عند قدمي سيده، داسًا خطمه بين حذائيه، ثم يتنهد تنهدًا عميقًا وينبطح آخر الأمر على الأرض وقد امتد بدنه بلا التواء، ويظل طوال المساء على هذا النحو راقدًا بلا حراك كأنه ميت حقًّا. وكان يخيل للرائي أن هذين المخلوقين يظلان سحابة النهار راقدين في حالة الموت مدفونين في مكان ما، فإذا غابت الشمس هبَّا فجأة إلى الحياة لغرض واحد هو الذهاب إلى محل حلوى موللر، وبذلك يؤديان واجبًا خفيًّا لا يعلمه أحد. وبعد أن يجلس الهرم ثلاث ساعات أو أربع ساعات على هذا النحو، ينهض آخر الأمر فيتناول قبعته وينصرف غالبًا إلى منزله، حيث يوجد ذلك المنزل. وكذلك ينهض كلبه ويدخل ذنبه بين فخذيه ويطأطئ رأسه من جديد ثم يسير بتلك البطيئة سيرًا آليًّا وراء سيده. أما سائر زبائن المحل فقد صاروا آخر الأمر يتجنبون هذا الهرم ويتنحون عن طريقه، فلم يكن منهم أحد يرغب في الجلوس إلى جانبه كما لو كان يبعث فيهم التقزز والاشمئزاز.

أما هو فلم يكن يشعر بشيء من كل ذلك.

وأكثر من يختلفون إلى محل الحلوى من الألمان، كانوا يتواردون إليه من جميع أنحاء شارع فوسنسنسكي، وكلهم من أصحاب المصانع الصغيرة المختلفة، بين حداد وخباز ونقاش، وصانع قبعات وسروجي، أي جميع أصحاب الحرف على ما يفهم الألمان من هذه الكلمة. وهكذا كان كل المختلفين إلى المحل معروفين لدى صاحبه، وكان يجالسهم إلى النَّضد حيث يزدردون مقادير كبيرة من «البونش»، وتكون بينهم أحيانًا كلابه وأطفاله فيلاطفونهم ويداعبونهم. وكانوا جميعًا يعرف بعضهم بعضًا ويجل كل منهم صاحبه، وبينما يكون الزائرون مستغرقين في قراءة الصحف الألمانية إذ ترن على مسمع منهم، من مسكن صاحب المحل، مقطوعة «أوجستين المحبوبة» توقعها كبرى بنات رب المنزل، وهي فتاة ألمانية ذات شعر جَعْدٍ أشقر، أشبه ما تكون بفأرة بيضاء. وكذلك نغمة «الفالس» التي كان الزبائن ينصتون إليها في سرور وغبطة. وكنت لا أكاد أتخلف عن الذهاب إلى موللر في أوائل كل شهر لأقرأ ما يحضره من المجلات الروسية.

فلما دخلت هناك رأيت الهرم جالسًا إلى النافذة، والكلب- على عادته- متمدِّد قريبًا من قدميه، فجلست صامتًا في أحد الأركان وأخذت أسأل نفسي: «فيم مجيئي إلى هنا ولست أريد من هنا شيئًا البتة، ولا سيما أني منحرف المزاج، وكان عليَّ أن أذهب إلى المنزل في أقرب وقت فأحتسي الشاي وأنام؟ أحقًّا أنني ما جئت إلى هنا إلا لمراقبة هذا الهرم؟» وأخذ الغيظ يتولاني، وسألت نفسي: «ماذا يعنيني من أمره؟» ولكني لم

ألبث أن أتذكر ذلك الإحساس المريض الشاذ الذي أخذ يستولي عليَّ عندما وقع بصري عليه في الشارع منذ هنيهة، وأخذت أقول في نفسي: «وفيم يعنيني أمر هؤلاء الألمان المملين؟ ولم هذا الاضطراب الدائم حول لا شيء، ذلك الاضطراب الذي طالما لاحظته على نفسي في العهد الأخير، والذي يصرفني عن سلوك طريق الحياة بفطنة وسداد، وعن النظر إلى ما حولي بعينين ثاقبتين، وذلك ما لفت من زمن قريب نظر أحد النقاد الشديدي التعمق، حين تناول قصتي الأخيرة فحلَّلها وهو ساخط كاره؟» ولكني بقيت مع ذلك جالسًا أفكر مهتاجًا، على حين كانت صحتي تزداد اعتلالًا كل لحظة حتى أمسيت وليس في مقدوري أن أبرح الغرفة الدافئة، فأخذت «صحيفة فرانكفورت» وقرأت منها بضعة أسطر ثم غلبني النعاس، ولم يزعج نومي هؤلاء الألمان، فقد كانوا يقرأون ويدخنون دون أن يتحدثوا إلا قليلًا، مرة في كل نحو نصف ساعة على الأكثر، وبكلمات قليلة وصوت معتدل، عن خبر جديد من أخبار ألمانيا، وأحيانًا عن نادرة أو نكتة بارعة من نكات الماجن الألماني الشهير «زافير» ثم يعودون في كبرياء قوميّ مضاعف إلى الاستغراق في قراءتهم.

وبعد أن غفوت قرابة نصف ساعة أيقظتني رعدة شديدة من الحمى. وكان ذلك ولا ريب آخر وقت صالح للذهاب إلى المنزل، ولكن حجزني مرة أخرى عن الذهاب مشهد صامت حدث في الغرفة في تلك اللحظة؛ فقد ذكرت فيما سلف أن الهرم لا يكاد يرتمي على أحد الكراسي حتى يُثَبِّت نظره على نقطة ما، فلا يغير اتجاهه طول المساء. وقد أصابتني في

بعض الأحايين تلك النظرة المحملقة الخالية من التفكير والتي لا تميز شيئًا، فكانت تبعث فيَّ دائمًا إحساسًا بالضيق يكاد يكون غير محتمل، فكنت أبادر أسرعَ ما أكون إلى تبديل مكاني. واليوم وقع ذلك الهرم على فريسة أخرى، هي ألماني قصير بدين حسن البزة يلبس ياقة عالية مقواة بالنشاء، وله وجه أحمر لافت للنظر. وكان هذا الألماني- كما علمت بعد- قادمًا من خارج البلاد ويدعى آدم إيفانوفتش شولتس التاجر في «ريجا» والصديق الحميم لموللر، ولم يكن يعرف الهرم، وكذلك كان شأنه مع معظم الزبائن. فبعد أن قرأ قصة «حلاق القرية» في كثير من الاستطابة واحتسى في خلال ذلك بعض أقداح البونش، رفع رأسه اتفاقًا فأحس فجأة نظرة الهرم المحملقة مسددة نحوه فكاد يجن. لقد كان امرأً شديد الحساسية سريع الانفعال شأن أفراد «الطبقة العليا» من الألمان، ورأى من الشذوذ بل من الإهانة أن يُسدد إليه شخص ما نظره بقوة وفي غير حياء، ولكنه مع ذلك كظم غيظه وحول عينيه عن ذلك الجلف الجافي، وغمغم قليلًا ثم وارى وجهه ثانية وراء صحيفته، غير أنه لم يطق ذلك طويلًا، فما لبث أن استرقَ نظرةً ماكرة من فوق الصحيفة فإذا هو بتلك النظرة العنيدة وذلك التحديق الخالي من التفكير لا يزالان ينصبّان عليه. على أن آدم إيفانوفتش سكت هذه المرة أيضًا، فلما تكرر هذا الحادث للمرة الثالثة كانت الموجدة قد بلغت منه مبلغًا، ورأى واجبًا عليه أن يحتفظ بكرامته، وألا يسمح بأن تهان أمامه مدينة ريجا الجميلة التي يشعر ولا ريب أنه يمثلها، وأن ينال أحد من كرامتها بين يدي هذا الجمهور المحترم. فألقى بالصحيفة في ضجر ونفاد صبر

وضرب بيده على المنضدة وبدا مضطربًا من فرط شعوره بكرامته، محمرَّ الوجه احمرار النار من سورة البونش والإحساس بالإهانة. وأخذ هو الآخر يحدق في الشيخ المثير للشرّ بعينيه الصغيرتين الجاحظتين المشتعلتين من فرط الغضب. وبدا أن كلا الطرفين، الألماني وخصمه، يريد أن يتغلب على الآخر بقوة مغناطيسية نظراته، وأنهما ينتظران ليريا أيهما يذعن قبل الآخر فيغض من بصره. وقد لفت آدم إيفانوفتش إليه أنظار الزبائن كلهم بضربته على المنضدة وبمظهره المتحدي، فقطع كل منهم ما كان فيه هنيهة، وأخذوا جميعًا يرقبون الخصمين بفضول حقيقي صامت، وأخذ المشهد يحدث في النفوس أثرًا عجيبًا. على أن القوة المغناطيسية التي لنظرات آدم إيفانوفتش ذي الوجه الشديد الاحمرار، زايلها أثرها هذه المرة، وتابع الهرم تحديقه إلى وجه الهرّ شولتس- الذي خرج به الغضب عن طوره- أما هو فقد ظل على حاله وكأن لم يحدث شيء، ذلك أنه، دون ريب، لم يشعر البتة أنه أمسى هدفًا لأنظار القوم جميعًا، كما لو كان يقيم بأفكاره في القمر لا في الأرض.

وفي النهاية نفد صبر آدم إيفانوفتش فاندفع إليه في تشامخ وعتوٍّ، وصاح بصوت حادّ قوي وبملامح متوعدة: «لِمَ تسدد إليَّ نظراتك في غير انقطاع؟».

ولكن خصمه بقي في صمته كأنه لم يفهم السؤال، بل كأنه لم يسمعه.

وصحَّت عزيمة آدم إيفانوفتش على أن يخاطبه بالروسية، فصاح به في غضب شديد: «إني أسألك لماذا تحدِّق على هذا النحو؟» ثم قفز من

مقعده وقال متابعًا حديثه: «أنا ممن قدموا إلى البلاط، أما أنت فلا يلوح لي أن هذا شأنك».

بيد أن الهرم لم يأت بأدنى حركة، فأثار ذلك دمدمة حنق بين الألمان. وهنا ولج موللر الغرفة على صوت الجلبة، فلما علم جلية الأمر مال على الهرم في انحناء تامّ حتى شارف أذنه، وذلك على تقدير أنه أصم، وردد هذا القول في أذنه بأعلى صوت، وهو يرقب في دقة ذلك الزائر العجيب: «هر شولتس يرجوك في أدب جم ألا تداوم النظر إليه».

وأدار الشيخ نظره بطريقة آلية صوب موللر، وإذا بوجهه الذي كان حتى الآن لا يتحرك ولا يختلج، قد ارتسمت عليه صورة تعبر عن فكرة مروعة ونوع من الاضطراب الداخلي. وأصابته الحيرة والارتباك وانحنى- وهو يئن متوجعًا- على قبعته وعصاه فالتقطهما في عجل، ونهض وهو يبتسم ابتسامة مختبلة بائسة، ابتسامة المتسول يطرد من مقعد لم يهيأ له، وهمّ بمغادرة الغرفة، وكان في هذا الرضا الصامت المتواضع الذي بدا من الشيخ المهدم ما استدرّ الرثاء ومزق القلوب، وجعل الحاضرين جميعًا- دون استثناء آدم إيفانوفتش نفسه- ينظرون إلى الأمر في ضوء آخر، فقد أصبح من الواضح أن الهرم لم يقصد إلى إهانة أحد، بل إنه، فضلًا عن ذلك، كان يعرف أنه قد يطرد كما يطرد المتسول في أية لحظة.

فقال للهرم وهو يربت على كتفه مهدّئًا: «كلا كلا»، ابق في مكانك جالسًا، فإن هر شولتس لا يرغب منك في أكثر من ألا تدقق النظر إليه، فإنهم في البلاط...».

على أن الهرم لم يفهم ذلك أيضًا وازداد اضطرابه وانحنى ليلتقط منديله الأزرق العتيق الممزق الذي سقط من قبعته، ونادى كلبه الذي كان داسًّا خطمه على الأرض بين براثنه في غير ما حركة كما لو كان مستغرقًا في نومه، ثم كرر الصياح به بصوت مسن مرتعد: «أزركا، أزركا، أزركا!».

ولكن أزركا لم يتحرك.

فردد الشيخ نداءه محزونًا مهتمًّا: «أزركا، أزركا» وضرب الكلب بعصاه، ولكن الكلب لم يحرك ساكنًا.

وأفلتت العصا من بين يديه فانحنى راكعًا وأخذ بيديه رأس أزركا فإذا به ميت. مسكين أزركا! لقد قضى نحبه في صمت عند قدمي سيده، وربما كان موته لضعف الشيخوخة أو لشدة الجوع. وثبت الهرم فيه نظرة لا حياة فيها كأنه لم يستطع أن يعقل أن أزركاه قد قضى نحبه حقًّا، ثم مال في خفوت إلى صديقه ورفيقه السابق، وضغط بوجهه الشاحب على ذلك الرفات الخالي من الحياة، فعرتنا جميعًا قشعريرة. ثم نهض أخيرًا وقد شحب وجهه شحوب الموتى وسرت الرعدة فيه من رأسه إلى قدمه.

وقال له موللر في عطف، على سبيل المواساة: «يحسن تحنيطه. وفي وسعنا أن نعهد إلى أحد في تحنيطه، وإن فيدور كارلوفتش كروجر يحسن ذلك» ثم أعاد القول مؤكدًا: «إن فيدور كارلوفتش كروجر ماهر في هذا العمل» وتناول العصا من على الأرض وناولها الهرم.

وهنا تقدم الهر كروجر وهو يصف نفسه- في تواضع وحياء-

بالحذق، فقال: «أجل، إني أحسن التحنيط إحسانًا كبيرًا».

وكان كروجر هذا ألمانيًّا طويل القامة نحيل الجسم تنبئ طلعته عن طيب قلبه، وله شعر كث ويضع منظارًا على أنفه الأقني.

وواصل موللر كلامه، وقد أخذ يتحمس لفكرته، فقال: «إن لفيدور كارلوفتش موهبة عظيمة، وهو يحذق أعمال التحنيط هذه حذقًا بالغًا».

فقال هر كروجر يؤكد ذلك من ناحية مرة أخرى: «أجل، فإن لي بالفعل حظًّا من الموهبة في التحنيط» ثم أردف قائلًا وقد تملكه الإيثار والنخوة: «وسأحنط كلبك بلا أجر».

فصاح آدم إيفانوفتش شولتس فيما يقرب من الغضب: «كلا، لا بد أن أدفع أنا النفقة إن أنت حنطت الكلب» وعلت وجهه حمرة مضاعفة، أولًا، لأنه كان معتزًّا بجوده وأريحيته، وثانيًا لأنه كان يحسب أنه السبب الحقيقي للمصيبة كلها، ولو أنه لم يكن يملك لدفعها شيئًا.

وسمع الهرم كل هذا، ولكن كان يبدو أنه لم يفهم منه شيئًا، وظل، كما كان، يرتجف من قمة رأسه إلى قدمه.

ونادى موللر ذلك الهرم المحاط بالألغاز حين رآه يهم، قائلًا: «اجلس واحتس قدحًا صغيرًا من الكونياك الجيد».

وأحضر الكونياك فأمسك الشيخ القدح بحركة آلية، ولكن يده كانت ترتعد حتى اندلق نصف ما فيه قبل أن يتهيأ له أن يمده إلى شفتيه. على أنه أعاده إلى الطبق دون أن يشرب منه قطرة، ثم ابتسم ابتسامة عجيبة لا تتناسب مطلقًا وما حدث، وغادر محل الحلوى وهو يسرع السير

في خطوات عجلة غير متزنة. وبقي أزركا في مكانه، وظل الجميع في حيرتهم يرددون عبارات التعجب والدهش.

وأخذ الألمان فيما بينهم ينظر بعضهم إلى بعض نظرات ذات معانٍ ويرددون القول: «يا لها من حادثة عجيبة!».

أما أنا فاندفعت في أثر الهرم، وكان على بضع خطوات في الجهة اليمنى من محل الحلواء حارة ضيقة صغيرة بها منازل عالية قاتمة، فهجس في نفسي شعور مبهم أن لا بد أن يكون الهرم قد عرج عليها. وكان البيت الثاني في الجهة اليمنى من الحارة لا يزال في طور البناء، والصواري والألواح المعدة لصعود الفعلة تحيط به. وكان يحيط بهذا المبنى سياج خشبي يبرز في الحارة حتى منتصفها، وقد فرشت الأرض بجوار هذا السياج بألواح خشبية محاذية له لتعبر فوقها السابلة. وهناك في الركن المعتم الذي بين السياج والبيت، وجدت الهرم جالسًا على تلك الألواح الخشبية وقد أسند مرفقيه إلى ركبتيه وأمسك رأسه بكلتا يديه، فجلست إلى جانبه.

وبدأت أقول وأنا لا أدري ما يجدر بي أن أقول «استمع. لا يبلغن منك الجزع من أجل أزركا. تعال أوصلك إلى بيتك. هدئ من روعك وسأحضر مركبة في الحالة، فأين تقيم؟».

فلم يحر كلمة، ولم أدر ما أفعل، ولم يكن بصري يقع في هذه اللحظة على أحد قط. بيد أنه أمسك بيدي فجأة.

وقال بصوت مبحوح لا يكاد يسمع: «أنا خائف، فالمكان موحش

يبعث على الخوف».

فصحت به وقد قفزت واقفًا وشرعت في إنهاضه: «هلم نذهب إلى البيت» وهناك ينبغي أن تشرب الشاي وتتمدد في الفراش... سأحضر مركبة في التو، وسأدعو لك بعد ذلك طبيبًا... فإن لي معرفة بأحد الأطباء...».

ولست أدري بم حدثته غير هذا، بيد أنه رغب، على ما لاح لي، في النهوض، فقد رفع نفسه قليلًا ولكنه ما لبث أن سقط في مكانه وأخذ يتمتم بصوته المبحوح الفاقد النبرات، فانثنيت فوقه كثيرًا وأخذت أنصت له.

فقال محشرجًا: «في جزيرة ڤاسيلي... في... الشارع.. الـ-سا-دس..».

ثم تعذر عليه النطق.

«أتقطن جزيرة فاسيلي؟ إذن فقد أخطأت طريقها. لقد كان عليك أن تتجه في مسيرك إلى اليسار لا إلى اليمين. سأمضي بك فورًا إلى هناك..».

لم يأت الشيخ بأية حركة، فأمسكت يده فسقطت من يدي كالغصن الميت، فتطلعت في وجهه و هززته فإذا هو قد فارق الحياة. وبدا لي كل ذلك كأنه حلم من الأحلام.

وكان من جراء هذه الحادثة أن امتلأت يداي بأعمال أقوم بها، وأقلع عني ما كان بي من الحمى. وكان عليَّ أن أبدأ بتعرف منزل الهرم. وهو لم يكن في الواقع يقطن مطلقًا بجزيرة فاسيلي، بل كان مسكنه على بعد

خطوتين من حيث مات، في الطبقة الخامسة من منزل شخص يدعى هر كلوجه، تحت السقف المسنم مباشرة في مسكن مكون من بهو صغير وغرفة متسعة وإن كانت منخفضة السقف كثيرًا، تستعيض عن النوافذ بثلاث كوات في السقف المسنم. وكان هذا المسكن يحدث في النفس أثرًا سيئًا. ولم يكن فيه من الأثاث غير منضدة وكرسيين وأريكة في صلابة الحجر ووهن الشيخوخة وقد نبت الطحلب في جوانبها، ثم إن هذا الأثاث نفسه كان كله ملكًا لصاحب المنزل. وكانت المدفأة، ولا ريب، لم توقد منذ زمن بعيد، كما أنه لم يكن هناك ضوء على الإطلاق. وإنني لشديد الاقتناع الآن بأن الهرم لم تهجس بصدره فكرة الذهاب كل يوم إلى موللر إلا ليجلس هناك في النور والدفء. وكان على المنضدة إبريق خزفي فارغ بجانبه كسرة من الخبز قديمة قاحلة. أما النقود فلم يكن ثمة منها كوبيك واحد، كما لم يكن هناك ملابس داخلية للتغيير، فكان لا محيص من أن يجود أحد الحاضرين لدفن الهرم بسربال نظيف، وكان من الواضح أنه لم يكن يستطيع أن يكسب وحده قوته، ويلوح أن شخصًا ما كان يتعهده بالمساعدة ولو من حين إلى حين. وقد عثرنا في درج المنضدة على جواز سفر المتوفي فإذا هو أجنبي الأصل، لكنه روسي التبعية ويدعى جرمياس. وهو مهندس آلات في الثامنة والسبعين من عمره. وكان على المنضدة كتابان: موجز صغير في علم تقويم البلدان، والعهد الجديد مترجمًا إلى الروسية وقد خطت على هامشه بعض ملاحظات بقلم الرصاص بل أحيانًا برؤوس الأظافر، فاستبقيت هذين الكتابين عندي. ولقد أكثرنا من سؤال سكان المنزل

كما سألنا صاحب الدار، فلم يستطع أحد منهم أن ينبئنا عنه بما ينقع الغلة. كان يقطن الدار خلق كثير، جلهم من العمال اليدويين وطائفة من الألمانيات يحترفن تأجير الغرف مع الأكل والخدمة. وكذلك لم يستطع مدير المنزل، وهو يعد من طبقة خير من هؤلاء جميعًا، أن يفضي عن ذلك الذي كان يستأجر منه المسكن بأكثر من أنه كان يقيم في مسكنه منذ أربعة أشهر بأجر شهري قدره ستة روبلات، وأنه لم يدفع في الشهرين الأخيرين كوبيكًا واحدًا، حتى لقد هم هو أن يحمله على إخلاء المسكن.

وقد سألت: ألم يكن يفد على المتوفي في بعض الأحيان من يزوره؟ بيد أنني لم أحظ عن هذا السؤال أيضًا بجوابٍ شافٍ من أحد.

وتلك الدار الكبيرة.. كم من داخل فيها وخارج منها فهي أشبه بفلك نوح، فأنى للمرء أن يتعرفهم جميعًا! وربما كان في مقدور البواب، وهو يعمل فيها منذ خمس سنوات، أن يدلي إلينا ببعض المعلومات، لولا أنه سافر إلى بلدته منذ أربعة عشر يومًا، دون أن يخلف مكانه غير ابن أخته وهو فتى حدث لا يكاد يعرف نصف المستأجرين بأشخاصهم. ولست أذكر الآن كل ما تلقيت عن أسئلتي من أجوبة.

وعلى أية حال فإن الشيخ لم يلبث أن وُوري التراب. ومع كل ما كان لدي في الأيام التالية من الأعمال والسير الطويل على قدمي، قصدت إلى جزيرة فاسيلي وإلى الشارع السادس، وما بلغت إليه حتى أغرقت في الضحك، فماذا عسى أن أجد هناك إلا منازل يتلو بعضها بعضًا. وسألت نفسي: «لم تكلم الشيخ إذن وهو يحتضر عن جزيرة فاسيلي بذاتها وعن الصف السادس؟ فهل كان الأمر محض تخيل وهذيان؟».

وأجلت نظرة فاحصة في مسكن سميث المهجور فراقني فاستأجرته، وكان كل ما يهمني منه تلك الغرفة الفسيحة وإن يكن سقفها منخفضًا حتى لقد كنت دائم الشعور في الفترة الأولى بأن رأسي سيصطدم به. على أني ألفتها فيما بعد، فليس في الاستطاعة أن يطلب المرء خيرًا منها بستة روبلات. وكان يجذبني إليها أنني صرت الآن ذا مسكن خاص بي. وكان عليَّ، بعد ذلك، أن أدبر أمر من يقوم بخدمتي، فلم أكن لأستطيع الإقامة دون أن يقوم أحد بالخدمة فيه. أما في المدة الأولى فقد تعهد لي البواب أن يأتي إليَّ مرة في اليوم على الأقل ليقضي من شؤون المسكن أمسّها ضرورة. وقلت في نفسي: «من يدري. لعله يأتي أحد لرؤية الشيخ» ولكن مضت على وفاته خمسة أيام دون أن يسأل عنه إنسان.

* * *

الفصل الثاني

وكنت في ذلك الوقت، أعني منذ عام مضى، أعمل في بعض المجلات فأكتب المقالات وأنا شديد الاقتناع بأنني سأصل يومًا إلى إبداع شيء عظيم جميل، وفوق ذلك كنت أقوم بوضع قصة كبيرة، وكانت عاقبة كل هذا أنني الآن طريح الفراش في المستشفى وأنني سائر فيما يلوح لي إلى الموت. على أنه إذا كان قد قدر لي الموت العاجل، فما عسى أن يكون الغرض من دأبي على وضع القصص والتصويرات؟

إنني أظل، دون اختيار وبلا انقطاع، أرجع بذاكرتي إلى تلك السنة الأخيرة، وهي أقسى سِنِي حياتي، فأحس في نفسي رغبة في أن أدوَّن كل ما مر بي فيها، ولو لم أقع على هذا الضرب من قضاء الوقت لقضى عليَّ الكمد منذ حين طويل، فقد كانت كل هذه الأفكار التي تعاود ذهني باطراد ما تنفك تستثيرني بصورة مؤلمة مزعجة. فإذا ما دونت أصبحت هادئة متناسقة وقلت مشابهتها لكابوس أو حلم مروع، أو هذا على الأقل ما يخيل إليَّ. إن العمل الآلي الذي تتطلبه الكتابة في حد ذاته كبير الأثر، فهو يسكنني ويهدئ ثائرتي ويعيد إلى ذاكرتي سالف عاداتي الصحفية

ويثني انتباهي عن الأحلام المريضة إلى العمل، إلى الاشتغال.. أجل فهي فكرة حسنة، وسيكون من ورائها، فضل عن ذلك، تراث نافع للممرض، فلعله يحشو بهذه الأوراق المخطوطة، عندما يحل الشتاء، شقوق النوافذ المزدوجة.

ولقد بدأت قصتي من منتصفها، ولا أدري لماذا، على أني إذا أردت أن أدوّن كل شيء فيها فلا مناص من أن أبدأها من أولها! وعلى كل حال فإن قصة حياتي لن تكون طويلة.

لم يكن مولدي هنا بل كان بمنأى عن هذه الناحية في ولاية... وأكبر ظني أن والديّ كانا من خيار الناس، بيد أنهما مضيا وخلفاني يتيمًا في الطفولة الباكرة، فنشأت في بيت أحد صغار الملاك الزراعيين، هو نيكولاي سيرجيفتش إشمنيف، وقد كفلني بدافع العطف والإشفاق. ولم تكن له غير ابنة واحدة تصغرني بثلاث سنوات، تدعى ناتاشا، وقد شببنا معًا كما يشب الشقيقان. إيه يا عهد طفولتي المحبوب! ما أحمق أن يأسى المرء عليك ويهتاجه الشوق والحنين إليك وهو في الخامسة والعشرين، وأن يكون مشرفًا على الموت ثم لا يرجع بفكره إلا إليك في لهف وشكر. لقد كانت الشمس إذ ذاك تشرق علينا بنور ساطع جلي ليس له ها هنا في بطرسبورج من مثيل. وكان قلبانا الصغيران يخفقان في سرور وغبطة، وكانت تحيط بنا الحقول والغابات لا الجدران ذات الحجارة الميتة كما هو الشأن هنا. لقد كانت من الأعاجيب حقًّا تلك الحديقة وذلك المتنزه في فاسيليفسكوي حيث كان نيكولاي سيرجيفتش وكيل دائرة. لقد كنت أخطر مع ناتاشا في تلك الحديقة، وكانت من ورائها غابة

كبيرة وارفة الظل ضللنا فيها مرة ونحن طفلان... إيه أيها العصر الذهبي الجميل! لقد كانت الحياة بأسرها لا تزال جذابة منبسطة أمامنا تكتنفها الأسرار، وكنا نشعر فيها بالبهجة. ونرى وراء كل شجرة وكل شجيرة مخلوقات خفية، وكان عالم القصص الخرافي يخالط في أذهاننا عالم الحقيقة. وكنا إذا زحف ضباب المساء من الأودية العميقة لينسج قناعًا زغبيًّا أغبش حول النباتات الناجمة بين حجارة سفح الأخدود العميق، نقف على شفا الهاوية ويدي بيد ناتاشا فنتطلع إلى أسفل الهوة في وجل وفضول، منتظرين أن نرى هل ينفصل عن الضباب أحد الأشباح أو يدوي في الأعماق صوت ما فينجلي بذلك ما حدثتنا به مربيتنا من أساطير، عن حقائق واقعة غير ملفقة.

ولقد حدث مصادفة بعد عدة أعوام أن ذكرت ناتاشا كيف أنه وقع في أيدينا مرة كتاب مطالعة للأطفال فذهبنا توًّا صوب البِرْكَة في أقصى الحديقة حيث كان مقعدنا الأخضر الذي اخترناه في فيء دوحة من الأسفندان هرمة متكاثفة الأغصان والأوراق، فجلسنا وأخذنا نقرأ أسطورة «ألفونسو ودالندا». وما زلت حتى الآن لا أستطيع استحضار هذه القصة في ذاكرتي دون أن أشعر في دخيلة نفسي باضطراب عجيب. وقد حدث في العام الماضي وأنا أذكر ناتاشا منها بهذين السطرين الأولين: «ولد ألفونسو بطل قصتي في البرتغال، وكان والده دون راميرو» إلخ، حدث أن كادت عيناي تفيضان بالدمع، وربما كان ذلك غاية في السخافة، ولعل ذلك ما جعل ناتاشا إذ ذاك تبتسم ابتسامة عجيبة دهشة من تحمسي، غير أنها (وذلك ما أذكره في دقة تامة) ما لبثت أن

استدارت نحوي وطفقت هي نفسها تنشد لي السلوى باستعادة ذكرياتنا، فكنا كأنما نعيشها مرة أخرى: كيف أرسلوا بي إلى إحدى المدارس الداخلية في العاصمة. أواه! ما كان أكثر بكاءها إذ ذاك!- ولقاؤنا الأخير عندما ودعت فاسيليفسكوي الوداع الأبدي. لقد كنت يومئذ قد انتهيت من الدراسة بالمدرسة الداخلية، فكان عليَّ أن أرحل إلى بطرسبورج لأعد نفسي للالتحاق بالجامعة. وفي هذا الحين كنت في السابعة عشرة من عمري، وكانت هي في الخامسة عشرة. ومما قالته لي: إني كنت في ذلك الوقت غلامًا جافيًا طويل القامة هزيل الجسم حتى لا يملك المرء نفسه من الضحك حين يقع بصره عليَّ. ولما أزفت ساعة الوداع انفردت بها لحظة لأسر إليها أمرًا مهمًّا ولكني وجدتني وقد ارتج عليَّ فلم أنبس بكلمة. وما تزال ناتاشا تذكر في وضوح تام أني كنت إذ ذاك في اضطراب شديد. لم يكن حديثنا زاخرًا مستفيضًا كما قد يظن، فقد كنت لا أدري ما يخلق بي أن أقول لها. على أني لو تكلمت لما فهمتني يقينًا، فجعلت أنتحب انتحابًا مرًّا، ثم سافرت دون أن أفوه بكلمة. ولم ير أحدنا الآخر إلا بعد أمد طويل في بطرسبورج، وكان ذلك منذ عامين إذ كان إشمنيف الهرم قد قدم إلى هنا ليتولى شؤون قضيته. وكنت أنا قد انتظمت في سلك الكُتَّاب حديثًا.

* * *

الفصل الثالث

نيكولاي سيرجيفتش إشمنيف سليل أسرة كريمة ولكن حلت بها الفاقة منذ حين طويل، ومع هذا فقد ورث عن أبيه ضيعة كبيرة كثيرة الغلة تشتمل على خمسين ومائة نسمة. وقد التحق في العشرين من عمره بفرسان (الهوسار)، وظل كل شيء يسير حسنًا حتى كانت تلك الليلة المنحوسة في السنة السادسة من انتظامه في سلك الجيش، إذ ضيع في المقامرة كل ثروته، فلم يغمض له جفن سواد تلك الليلة، حتى إذا كانت الليلة التالية عاد إلى مائدة الميسر فألقى عليها بكل ما بقي لديه وهو جواده، فربحت الأوراق مرة وثانية وثالثة، ولم ينقض نصف ساعة حتى كان قد استرد جانبًا من أملاكه، هو ضيعة إشمنيفكا الصغيرة التي بلغ عدد سكانها في التعداد الأخير خمسين نفسًا، فأضرب في الحال عن اللعب، ثم غادر المكان في اليوم التالي. أما المائة الآخرون من عبيده فقد خسرهم إلى الأبد. ثم فصل بعد شهرين وهو برتبة الملازم فخلص إلى ضيعته، ولم يتحدث عن خسارته في الميسر طيلة حياته، ومع ما عرف عنه من سعة في الصدر، كان منذ ذلك العهد لا يتحرج من المشاجرة مع من يجسر على تذكيره بها. وعاش في أرضه متوفرًا

على إدارتها والقيام عليها، فلما كان في الخامسة والثلاثين تزوج من نبيلة فقيرة هي أنّا أندريفنا شوملوفا. ولم تمهره بشيء في هذه الزواج، ولكن كان يعوضه عن البائنة أنها تخرجت في معهد خاص بالأشراف في حاضرة الولاية تقوم على إدارته مهاجرة فرنسية تدعى مونت ريفيش. وقد ظلت طوال حياتها تفخر بذلك مع أنه لم يكن في وسع أحد من الناس أن يتبين فيها أثرًا لثقافة ممتازة. وقد استحال نيكولاي سيرجيفتش مزارعًا مجدًّا، حتى كان أصحاب الضياع المجاورة يستشيرونه في شئون زراعتهم. ومرت عليه في هذه الحال عدة أعوام، ثم حدث أنَّ صاحب ضيعة مجاورة تشتمل على تسعمائة نفس وهو الأمير بيتر ألكسندروفتش فالكوفسكي قدم إلى فاسيليفسكوي فأثار قدومه في أرجاء الإقليم اهتمامًا عظيمًا، فهو، وإن يكن قد جاوز شرخ الشباب، كان لا يزال على أية حال في أحسن عمره، ثم هو ينتمي إلى أرقى الطبقات الاجتماعية وله اتصال ببعض ذوي النفوذ، ويتمتع بحظ كبير من الجمال والثراء الواسع، ثم هو إلى ذلك كان لا يزال أرمل، وهذا ما بعث نساء الإقليم وفتياته إلى الاهتمام بأمره إلى حد بعيد. ولقد تحدث القوم عن الاستقبال الفخم الذي قوبل به في حاضرة الولاية عند الوالي الذي يمت إليه- على صورة ما- بآصرة قربى بعيدة، كما تحدثوا عن افتتان جميع السيدات في تلك الحاضرة بظرفه وكياسته وما إلى ذلك. وقصارى القول إنه كان مثالًا باهرًا لأبناء أرقى مجتمعات بطرسبورج، الذين يندر أن يراهم الناس في الريف والذين يثيرون حولهم الاهتمام بهم في كل مكان يحلون به. وكان فيما عدا ذلك قليل المجاملة، ولا سيما مع من ليس في حاجة إليهم ومن

يراهم دونه في المرتبة ولو قليلًا. ولذلك كان لا يرى من الضروري أن يتزاور مع أصحاب الضياع المجاورة، وهذا ما خلق له بادئ ذي بدء عددًا كبيرًا من الأعداء، ومن ثم فما كان أكثر دهش الجميع حين عنَّ له فجأة أن يقصد بالزيارة إلى نيكولاي سيرجيفتش، الذي كان من أقرب القوم إليه جوارًا. ولقد كان للأمير في بيت إشمنيف أثر عظيم، فقد فتن أهله جميعًا وبخاصة أنّا أندريفنا، ولم يمض إلا قليل حتى كان بينهم وكأنه في بيته، يمر بهم كل يوم في ركوبه ويدعوهم كذلك إليه ويمازحهم ويتفكه معهم بملح الكلام ويوقع على بيانهم الحقير، ويغني معهم أيضًا. ولم يقف تعجب آل إشمنيف عند حد: إذ كيف وسع الناس أن يزعموا عن امرئ ظريف لطيف كهذا أنه أثر متعجرف متكبر جاف كما يجهر بذلك الجيران جميعًا.

ولقد كاد القوم يعتقدون حقًّا أن الأمير أعجبه نيكولاي سيرجيفتش، ذلك الرجل البسيط الصريح النبيل التفكير، لولا أن ظهرت العلة الحقيقية بعد قليل، فقد كان الأمير قدم إلى فاسيليفسكوي ليعزل وكيل دائرته عن منصبه، وهو مزارع ألماني خبيث كثير المطامع، أشيب الشعر، وقور أقنى الأنف يلبس منظارًا، وكان إلى كل تلك المزايا يغتال من مولاه ما يستطيع إليه سبيلًا، وذلك فضلًا عن أنه انهال بالضرب على بعض الفلاحين حتى أودي بحياتهم. وحين قبض على إيفان كارلوفتش هذا في نهاية الأمر متلبسًا ببعض منكراته وثبتت إدانته، مثّل دور المهان وأكثر من التشدق بحديث الشرف الألماني، غير أنه طرد مع ذلك طردًا مزريًا. وبذلك صار الأمير في حاجة إلى وكيل دائرة جديد، فوقع اختياره

على نيكولاي سيرجيفتش وكان مزارعًا ممتازًا فضلًا عن أنه رجل وافر الشرف لا يرقى الشك إلى أمانته.

والراجح أنه كان أحب إلى الأمير أن يتقدم إليه نيكولاي سيرجيفتش سائلًا هذا المنصب، فلما لم يفعل، عمد الأمير نفسه ذات صباح جميل إلى عرض هذا المقترح عليه في صورة رجاء كله ود وأدب. أما إشمنيف فقد رفض المقترح في بادئ الأمر، ولكن الوظيفة الكبيرة أغرت أنّا أندريفنا، ثم شتت التلطف المضاعف من صاحب الرجاء ما بقي من تردد وإحجام، وبذلك ظفر الأمير بطلبه. ويلوح أنه كان ذا خبرة عظيمة بطبائع الناس، فقد أدرك تمام الإدراك مدة تعارفه القصيرة مع آل إشمنيف حقيقة الشخص الذي أخذ يعامله كما فطن إلى أنه لا يتأتى لأحد أن يكسب شخصًا مثل إشمنيف إلا بمصادقته والتودد إليه، وإلى أن المال وحده لا يغني معه كثيرًا. ولقد كان محتاجًا حقًّا إلى وكيل دائرة مثله يستطيع أن يثق به كل الثقة ويعتمد عليه كل الاعتماد حتى يكفي نفسه مؤونة العودة مرة أخرى إلى فاسيليفسكوي إذا كان معتزمًا ألا يعود إليها مطلقًا. وقد بلغ من الأثر الخلّاب الذي أحدثه في إشمنيف أن آمن هذا مخلصًا بصداقة الأمير، فقد كان نيكولاي سيرجيفتش من أولئك الوديعين الطيبي القلب ذوي الطبيعة الخيالية الطفلية الذين ألفنا أن نراهم بيننا معشر الروسيين، أولئك الذين مهما قيل فيهم فإنهم متى أحبوا امرأً (ويعلم الله لماذا يحبونه)، أفرطوا في التعلق به والتهالك على إرضائه حتى لقد يصل بهم الأمر أحيانًا إلى أن يأتوا بما يسخر منه الناس ويستخفون به.

ومرت سنون، وازدهرت ضيعة الأمير من جديد وظلت العلاقة الطيبة بين صاحب فاسيليفسكوي ووكيل دائرته صافية لا يعكرها معكر، على أن ما بينهما لم يكن يعدو المكاتبة برسائل العمل الجافة، ولم يكن الأمير يداخل نيكولاي سيرجيفتش مطلقًا في ما يجريه من شؤون، وإن كان يبعث إليه في بعض الأحيان بآرائه التي كانت تثير دهشة في كل مرة لما تنطوي عليه من خبرة وروح عملية، ومنها يرى المرء أن الأمير لم يكن كارهًا لكل تبذير فقط، بل كان ذا خبرة واسعة بما ينمِّي أملاكه. ولم ينقض زهاء سنوات خمس على وجوده للمرة الأخيرة في فاسيليفسكوي حتى فوض إلى نيكولاي سيرجيفتش أن يشتري له ضيعة أخرى كبيرة في الولاية نفسها تشتمل على أربعمائة نفس، فبلغت سورة الحماسة من نيكولاي سيرجيفتش مبلغًا عظيمًا وسر من أعماق قلبه لما بلغ الأمير من نجاح ولما أصاب من هناءة ولما نال من ترقية في المرتبة، حتى لكأن الأمر يتعلق بأخ شقيق له من لحمه ودمه، على أن سورة حماسته بلغت الغاية عندما أعرب له الأمير في إحدى المناسبات بصورة جلية عن عظيم ثقته به.. ويلوح لي أن لا مندوحة هنا عن ذكر بعض التفاصيل عن حياة الأمير فالكوفسكي هذا، إذ هو أحد الأشخاص الذين لهم شأن مهم في قصتي.

* * *

الفصل الرابع

ذكرت فيما مضى أنه أرمل، إذ إنه كان قد تزوج في ريعان شبابه ولم يكن زواجه إلَّا من أجل المال وحده، فقد كان إذ ذاك لا يكاد يحصل على شيء يذكر من والديه اللذين مال عليهما الدهر بنوائبه في موسكو، حين كانت ضيعة فاسيليفسكوي غارقة في الديون، مثقلة بالرهون. ولم يبق كوبيك واحد للأمير البالغ الثانية والعشرين من عمره، فكان مضطرًا إذ ذاك إلى كسب قوته اليومي في إحدى مصالح الدولة، وهكذا خاض غمار الحياة شريدًا فقيرًا عليه تاج أمير، حتى أنقذه التأهل بابنة تاجر كبير وجابي ضرائب كانت قد جاوزت سن الصبا. نعم، إن التاجر قد خدعه في المهر، على أنه استطاع مع ذلك بفضل مال زوجته أن يفك ضيعة آبائه من الرهن وأن ينهض ثانية على قدميه. وكانت ابنة التاجر التي اضطر الأمير إلى أخذها ضمن الصفقة لا تستطيع أن تقرأ أو تكتب أو أن تصل في حديثها بين كلمتين وصلًا صحيحًا، وكانت فوق ذلك على دمامة بالغة، غير أنها كانت تتمتع بخلة لا يجمل الحط من شأنها، ذلك أنها كانت بالغة أقصى الدرجات في طيب السريرة ولين العريكة، وقد استغل الأمير هذه المزية كل الاستغلال فأعادها بعد عام واحد من

حياتهما الزوجية إلى والدها التاجر الكبير، في موسكو، ونزح هو إلى ولاية أخرى ظفر فيها بمعونة عظيم من ذوي قرباه في بطرسبورج بأحد المناصب السامية. لقد كانت روحه ظامئة للتبريز والتقدم والرقي الباهر، ولما كان يدرك جليًّا أنه لا يستطيع أن يعيش مع هذه المرأة في بطرسبورج أو موسكو، صحت عزيمته على أن يبدأ في الريف خطى حياته في انتظار ما هو خير من ذلك. وقد زعموا أنه كان حتى وهو في السنة الأولى من حياتهما الزوجية يرهقها عسرًا من سوء معاملته إياها، بل كان يعذبها عذاب الموت. وكانت هذه الشائعة تثير في نيكولاي سيرجيفتش أشد الحنق، فانحاز إلى جانب الأمير مؤكدًا أنه ليس في مقدور الأمير مطلقًا أن يأتي عملًا غير نبيل. وأخيرًا، بعد سبع سنوات طوال، قضت الأميرة نحبها فرحل الأمير في الحال إلى بطرسبورج.

وأثار الأمير في بطرسبورج شيئًا من الاهتمام، فقد كان شابًّا فتيًّا جميلًا مثريًا يتحلى بمواهب باهرة، حاضر البديهة سليم الذوق دائم المرح لا تظهر عليه سيما من يداهن ويتصيد الفرص وينشد المعونة والرعاية، بل يظهر دائمًا في مظهر الثابت على قدميه. وقد زعموا أن له جاذبية لا تقاوم، وكان حظه مع النساء عجيبًا، فأتاحت له علاقته بسيدة جميلة من أسمى الأوساط أن يصيب شهرة طريفة لاذعة. وكان يبعثر المال حوله دون مبالاة أو تفكير. ومع أنه يميل بفطرته إلى الاقتصاد بدرجة تبلغ أحيانًا حد الشح، كانت تطيب نفسه حين تتراءى له مصلحة ما أن يخسر في لعب الورق مبالغ جسيمة دون أن يطرف له هُدب. ومع كلِّ هذا لم يكن مجيئه إلى بطرسبورج طلبًا لروح النفس بل كان سعيًا

لدعم مركزه والوصول بخط حياته إلى نهاية زاهرة، وهو ما قد ظفر به حقًّا، فإن قريبًا له من ذوي المكانة والاحترام هو الكونت ناينسكي- وهو الذي لو أن الأمير قصده مجتديًا لما حفل به- ولكنه الآن بعدما أحرز الأمير ما أحرز في المجتمع من النجاح، بل لقد أولاه شرف دعوة ابنه ألكساي البالغ سبع سنوات لتربيته في منزله. وفي تلك الآونة كان سفر الأمير إلى فاسيليفسكوي وتعرفه بأشمنيف. وقد ظفر في النهاية، بمعونة الكونت، بمركز خطير في سفارة من أهم السفارات فرحل إلى الخارج. ومن هناك أخذت تنتشر شائعة قاتمة مبهمة، فأخذ الناس يتحدثون عن مكروه وقع فيه الأمير في الخارج، ولم يكن أحد منهم يعرف جلية ما حدث، وكل ما عرفه القوم أنه ابتاع أربعمائة نفس أخرى، وهو ما سبق أن ذكرته.

ومضت أعوام عدة قبل عودته من الخارج، وكان في أثنائها قد ارتقى في سلك الخدمة، وما عتم أن تبوأ منصبًا مهمًّا في بطرسبورج وانتشرت في إشمنيفكا الشائعات بأنه يعتزم الزواج للمرة الثانية، وأنه سيصهر إلى أسرة معروفة واسعة الغنى عظيمة النفوذ، فقال نيكولاي سيرجيفتش وهو يفرك كفيه من فرط السرور: «لسوف يصل به ذلك إلى شأن عظيم!». لقد كنت إذ ذاك أطلب العلم في الجامعة ببطرسبورج. ولا أزال أذكر في وضوح تام أن إشمنيف كتب إليَّ رسالة خاصة في هذا الشأن راجيًا أن أتبين له ما إذا كانت شائعة زواج الأمير مرة ثانية تقوم على أساس من الحقيقة. وكتب أيضًا في الوقت نفسه إلى الأمير راجيًا منه أن يأخذني تحت كنفه ويشملني بعطفه. ولكن الأمير أهمل الرد على

تلك الرسالة. وكل ما أمكنني أن أصل إلى معرفته هو أن ابن الأمير، ذلك الذي حصل على القسط الأول من التربية في بيت الكونت ثم التحق بمدرسة (الليسيه)، قد أتم الدراسة الثانوية بها وهو في التاسعة عشرة، فأخبرت إشمنيف بذلك، وأضفت إليه أن الأمير يحب ابنه حب عبادة ويدلله تدليلًا يطبعه على الرخاوة وأنه يضع من الآن خطط مستقبله. ولقد وقفت على كل هذه المعلومات من بعض أصدقائي الطلبة الذين لهم بالأمير الصغير علاقات خاصة. وفي هذه الفترة بعينها وردت إلى نيكولاي سيرجيفتش رسالة من الأمير جعلته في شدة العجب.

كان الأمير، كما ذكرتُ آنِفًا، قد قصَر عَلاقته بنيكولاي سيرجيفتش على المكاتبة برسائل العمل الجافَّة، فإذا به الآن يكتب إليه في منتهى الإسهاب والصراحة والودّ عن شؤونه البيتية: فهو يشكو ابنه ذاكرًا أنه يسبب له الهمَّ بسوء مسلكه، وأنه وإن لم يكن يجدر بالمرء أن ينظر بعين الجد إلى هنات مثل هذا الطفل (ومن الجليِّ أنه كان في الوقت نفسه يحاول الاعتذار عنه) فإنه لا يود أن يسرف في تدليله ويمدَّ له في حبل الغيّ بل يرى أن يردعَه ببعثه إلى الريف فترةً من الزمن يدعه فيها تحت رقابة إشمنيف، وكتب الأمير فيما كتب أنه يعتمد الاعتماد كله على رجله «الطيب النبيل الخلق سيرجيفتش» ويعتمد بخاصة على أنّا أندريفنا، ويرجوهما معًا أن يأخذا في أسرتهما ابنه «الطائش» وأن يرداه في تلك العزلة إلى طريق العقل والصواب وأن يحباه، إذا أمكن، وأن يقوِّما منه على الخصوص نزقه وخفة عقله، وأن يغرسا فيه المبادئ القويمة الحازمة التي لا غنى عنها في الحياة. ومن البديهي أن إشمنيف

الهرم قد قابل رغبة الأمير في حماسة بالغة، وقدم الأمير الصغير فعاملاه كما لو كان ولدهما، وسرعان ما أحبه نيكولاي سيرجيفتش من صميم فؤاده، أحبه حبه لابنته ناتاشا، بل إن إشمنيف ظل حتى بعد انصرام العلاقات نهائيًّا بينه وبين الأمير، يذكر في غبطة وارتياح «أليوشا»، (وهو الاسم الذي ألف أن يدعو به الأمير الصغير ألكساي بتروفتش). والواقع أنه كان غلامًا بديعًا: مليحًا رخوًا مرهف الحس كأنه فتاة، ولكنه غر مرح ذو روح صريح جذاب يهوى الإنصاف ويعرف الجميل، مفعم بأنبل الأحاسيس وأشرفها، ولذلك أضحى معبودًا لآل إشمنيف، وكان مع بلوغه التاسعة عشرة لا يزال طفلًا خالصًا، على أنه لم يتيسر لأحد من الناس أن يدرك سبب إقصاء والده له مع ما يتحدثون به من عظيم حبه له، فقيل إنه كان قد قضى ببطرسبورج حياة نزق وطيش وانصرفت نفسه عن الاشتغال بأي عمل من أعمال الجد، فهاج بذلك سخط والده، ولم يستوضح نيكولاي سيرجيفتش أليوشا عن حقيقة الأمر نظرًا لأن الأمير بيتر ألكسندروفتش نفسه قد تعمد ولا شك أن يغفل في رسالته ذكر السبب في ذلك، ومع ذلك فقد ذاعت عن تصرفات أليوشا الطائشة شتى الشائعات: فقد زعم بعضهم أنه كانت له علاقة بسيدة ذات بعل وأنه خسر في الميسر أموالًا كثيرة، وتحدث آخرون عن قضية مبارزة، ولج بعضهم فقالوا إنه اختلس أموال آخرين، ثم عاد القوم فزعموا أن الأمير لم يقصه لذنب جناه بل لأسباب خاصة مبعثها الأثرة. وهذه الشائعة على الخصوص أثارت سخط نيكولاي سيرجيفتش ولا سيما أن أليوشا كان يكاد يعبد أباه الذي قلما كان يراه طوال مدة طفولته، وكان يتحدث عنه

بافتتان وحماسة، ويبدو أنه كان خاضعًا كل الخضوع لسلطانه. وقد قص أليوشا نفسه ذات مرة أمر كونتة من الكونتات كان الأب والابن يختلفان إليها في آن واحد، فآثرت هي أليوشا على أبيه فاشتد لذلك سخط الوالد. وقد طالما قص هذه القصة بحمية بالغة في براءة الأطفال وهو يقهقه مرحًا، وكان نيكولاي سيرجيفتش يسارع كل مرة إلى مقاطعته، هذا إلى أن أليوشا قد أيد شائعة اعتزام والده الزواج من جديد.

وهكذا قضى أليوشا في المنفى قرابة عام كان في خلالها يكتب إلى والده في فترات معينة رسائل رزينة مفعمة بالتجلة والتبجيل. وطاب له العيش في فاسيليفسكوي حتى إنه لما قدم الأمير بنفسه إليها في الصيف (وكان قد أخبر إشمنيف بأنه قد اعتزم القدوم إليها) رجا الشاب المنفي نفسه والده أن يأذن له في إطالة المقام فيها مؤكدًا أن الزراعة حرفته الحقيقية، وكانت أمثال هذه الرغبات والنوايا التي تصدر عن إليوشا تنبعث فيه عن حساسية عصبية مفرطة وقلب ملتهب نزق نزوقًا يشرف على الحمق، واستعداد عجيب للخضوع لكل مؤثر خارجي، وفقر شديد إلى قوة الإرادة، بيد أن هذه الرغبة قد بعثت الريبة في نفس الأمير... حتى أوشك نيكولاي سيرجيفتش أن ينكر «صديقه» السابق إذ إن الأمير بيتر ألكسندروفتش قد تغير تغيرًا عجيبًا وبدا دفعة واحدة سريع الانفعال والتهيج مع نيكولاي سيرجيفتش، وأظهر عند مراجعة حساب الضيعة جشعًا ممقوتًا ونهمًا وتقتيرًا شديدين وسوء ظن غير مفهوم. فشق ذلك على إشمنيف الطيب وظل زمنًا طويلًا يحاول أن يغالط نفسه في هذا الشأن. لقد كان كل شيء في هذه المرة على النقيض تمامًا مما عهده عند

زيارة الأمير لفاسيليفسكوي للمرة الأولى منذ أربعة عشر عامًا، فهو يكثر الآن من زيارة جيرانه، وبالبديهة من كان منهم أكثر وجاهة، إلا نيكولاي سيرجيفتش فإن الأمير لم يدخل بيته قط، وكان يعامله على أنه من طبقة أدنى. وفجأة حدث شيء لم يكن متوقعًا مطلقًا. فقد وقع بين الأمير ونيكولاي سيرجيفتش جفاء وشقاق ليس لهما سبب معروف، وكل ما سمعه القوم عن هذا الشقاق إنما هي ألفاظ مهينة ترامى بها الطرفان. و فارق إشمنيف فاسيليفسكوي مغيظًا واغر الصدر، بيد أن المسألة لم تصل برحيله إلى نهايتها، فقد شاعت فجأة في كل الأرجاء المجاورة ثرثرة بغيضة، فزعموا أن نيكولاي سيرجيفتش بعد أن درس خلق الأمير الصغير اعتزم أن يستغل لمصلحته ما وجده فيه من النقص، وأن ابنته ناتاشا، التي كانت إذ ذاك في السابعة عشرة من عمرها قد عرفت كيف توقع في غرامها الأمير البالغ العشرين من عمره، وأن أباها وأمها قد استصوبا ذلك منها وإن تظاهرا بأنهما لم يلحظا منه شيئًا، وأن ناتاشا الماكرة «الفاسدة» قد استطاعت آخر الأمر أن تجذب إليها الفتى حتى إن قلبه لم يتعلق طول عامه بفتاة راقية ممن يكثر وجودهن في الأسر المجاورة المحترمة صاحبة الضياع، وزعموا فوق ذلك أن الحبيبين كانا قد اتفقا خفية ودون أن يطلعا أبويّ ناتاشا على أن يعقدا الزواج في جريجورييفو، وهي قرية تبعد عن محلتهم بخمسة عشر ميلًا، وأن والديها مع هذا كانا مطلعين على كل شيء حتى على أدق التفاصيل، بل كانا يزوِّدان ابنتهما بمشورتهما الشائنة. ومجمل القول إن ما أرجف به المثرثرون من الرجال والنساء في الأرجاء المجاورة وما نسجوه حول هذه

القصة لأكثر من أن يستوعبه سفر كامل. على أن العجيب في الموضوع أن الأمير الكهل صدق هذه الأراجيف تصديقًا لا يمازجه شك، بل إنه لم يقدم إلى فاسيليفسكوي إلا لهذا، فقد تسلم في بطرسبورج رسالة غفلًا وردت إليه من الريف. وكان المتوقع أن كل من يعرفون نيكولاي سيرجيفتش ولو قليلًا لا يسعهم أن يصدقوا شيئًا من هذه المفتريات، بيد أن الجميع انقضوا عليه، كما هو الشأن في مثل هذه الحالة، وطفقوا يرددون ما يسمعون ويهزون رؤوسهم غيظًا وحنقًا، وأصدروا حكمهم عليه بالإدانة. أما إشمنيف نفسه فقد كان أكثر تشامخًا واعتزازًا بنفسه من أن يقف موقف المدافع عن ابنته يذود عنها هذه الترهات.

وقد حظر على أنّا أندريفنا حظرًا شديدًا أن تخوض مع أحد الجيران في محادثة أو مجادلة من هذا القبيل. أما ناتاشا نفسها، تلك التي شهروا بها تشهيرًا مزريًا، فقد ظلت بعد ذلك عامًا كاملًا لا تكاد تدري شيئًا من كل تلك الأحاديث والأقاويل، إذ إن هذه القصة كلها قد طويت عنها بحرص شديد، فظلت سادرة في مرحها بريئة براءة طفلة في الثانية عشرة من عمرها.

وكان النزاع يزداد خلال ذلك احتدامًا بين الأمير ونيكولاي سيرجيفتش ولم يدع الفضوليون فرصة دون أن ينتهزوها فبرز المدعون والشهود وتمكنوا آخر الأمر من إقناع الأمير بأن إدارة نيكولاي سيرجيفتش لفاسيليفسكوي طيلة تلك الأعوام لم تكن مصطبغة بالشرف والنزاهة. ولم يقفوا عند ذلك بل تجنوا عليه فزعموا أنه اختلس عندما تولى بيع إحدى الغابات منذ ثلاث سنوات، اثني عشر ألف روبل، وزعموا أنه

يمكن إثبات تلك الواقعة أمام المحكمة بأدلة واضحة قاطعة، وبخاصة أنه لم يكن قد فوض إليه تفويضًا قانونيًّا ببيع الغابة، وإنما فعل ذلك هو بمحض رأيه ورغبته، ثم أقنع الأمير فيما بعد بأن ذلك البيع كان ضروريًّا ودفع إليه من المال قدرًا أقل مما كان قد تسلم بكثير، ولم يكن كل ذلك بالبديهة إلا تخرصًا وتلفيقًا كما ثبت فيما بعد، ولكن الأمير صدق كل شيء واتهم نيكولاي سيرجيفتش على مسمع من الناس بأنه لص، فأنكر إشمنيف ذلك ورد عليه إهانته بمثلها، وكان بينهما مشهد مروع انتهى بهما إلى الاحتكام إلى القضاء، ولم يكن لدى نيكولاي سيرجيفتش وسيلة لكسب هذه القضية، بل لم يكن لديه أمل في كسبها، فليس بيده مستند كتابي، وأسوأ من ذلك أنه لم يكن له عضد قوي يساعده، ولا خبرة بمثل هذه الشؤون القضائية. ونصب حارس قضائي على ضيعته، فترك الهرم المتألم كل شيء على حاله معتزمًا أن يرحل إلى بطرسبورج حيث يتولى بنفسه شؤون قضيته، تاركًا في الضيعة رجلًا محنكًا موثوقًا به يتولى إدارتها. ويبدو أن الأمير أدرك آخر الأمر أنه أهان إشمنيف بغير حق، ولكن الحنق كان قد بلغ منهما حدًّا لم يدع للحديث عن الصلح بينهما من سبيل.

وهكذا لم يترك الأمير المحنق وسيلة إلا اتخذها لكي يفصل في الأمر لمصلحته، ومعنى ذلك في الواقع أن ينتزع من وكيل دائرته السابق آخر كسرة عنده من الخبز.

* * *

الفصل الخامس

وهكذا قدم آل إشمنيف إلى بطرسبورج. ولست أنوي أن أصف هنا كيف لقيت ناتاشا بعد غيبة طويلة. لم أكن قد نسيتها خلال تلك السنوات الأربع لحظة واحدة، بيد أني لم أكن على وضوح تام من كنه شعوري نحوها، فلما رأيتها ثانية أيقنت في التو أن القدر قد أرادها على أن تكون لي. وقد خيل إليَّ بادئ الأمر، في الأيام الأولى من مقدمتها، أنها لم تنمُ في السنوات الأخيرة إلا قليلًا، بل إنها لم تتغير البتة ولما تزل تلك الفتاة الصغيرة التي كانت قبل افتراقنا. غير أني أخذت بعد ذلك أكشف فيها كل يوم أمرًا جديدًا، أمرًا لم أكن رأيته فيها من قبل، كأنها كانت تحرص عمدًا على أن تطويه عني وعلى أن تظهر أمامي في مظهر الأطفال... ويا للغبطة التي بعثتها فيَّ هذه الكشوف.

كان إشمنيف الهرم في الأيام الأولى من نزوحه إلى بطرسبورج بادي الشذوذ سريع الانفعال، وكانت أموره تسير على غير ما يرام، فكان ذلك يسخطه ويخرجه عن طوره، وكان يغوص بين مستنداته دون أن يعيرنا أي التفات. وكذلك كانت أنّا أندريفنا، كأنها قد زايلها صوابها، ولم تستطع بادئ الرأي أن تألف البيئة الجديدة، وكانت بطرسبورج تخيفها، فكانت

تطلق التنهدات ويهتاجها الحنين إلى إشمنيفكا وإلى طريقة معيشتها السابقة، وكان ينتابها الهم من أجل ناتاشا التي نمت وترعرعت دون أن يكون هناك من يتعهدها بالرعاية والعناية. وكانت تحدثني عن ذلك في صراحة عجيبة، ومرد ذلك في الغالب أنه لم يكن شخص آخر أجدر مني باستماع هذه الأخبار الخاصة.

وفي ذلك الوقت بعينه، أي قبيل مقدمهم إلى بطرسبورج، كنت قد أتممت تأليف قصتي التي بدأت بها حياتي الكتابية. ولما كنت حديث عهد بذلك، فقد جهلت أول الأمر أين أذهب بها، ولم أحدث آل إشمنيف بشيء من ذلك وكدت أتشاجر مرة معهم حين زعموا أني أتسكع طوال الوقت بدل أن أكون في خدمة الدولة أو أن أبحث عن عمل آخر. وقد أنبني الشيخ تأنيبًا جارحًا غير مرة، ولم يكن ذلك بطبيعة الحال إلا لاهتمامه الأبوي بمصيري، أما أنا فقد خزيت أن أفضي إليه بحقيقة ما أشتغل فيه، وكيف كنت أستطيع أن أقول لهم إنني لا أنتوي مطلقًا أن ألتحق بخدمة الدولة، بل أعتزم بدلًا من ذلك أن أحترف كتابة القصص؟ لهذا أفهمتهم خلال هذا الزمن أنني لم أستطع أن أظفر بمنصب من المناصب مع أني لم آل جهدًا في محاولة ذلك، ولم يكن لدى إشمنيف الهرم فسحة من الوقت تسمح له بفحص المسألة من أساسها. وأذكر أن ناتاشا قد استمعت ذات مرة طرفًا من تلك المحادثات فنادتني خفية وانتبذت بي جانبًا وتضرعت إليَّ في وابل من الدمع أن أفكر في مستقبلي. وقد ألحت متوسلة أن أنبئها بحقيقة ما أشتغل فيه، ورجتني إذا كنت لا أستطيع أن أفضي بجلية الأمر أن أقسم لها ألا أورد نفسي-

على الأقل- موارد التلف بالتكاسل والخمول. ومع أنه لم يكن في استطاعتي أن أفصح، حتى لها هي، بما يشغلني، فقد كنت لا أضن- لو وسعني الإفصاح- بأن أضحي مسرورًا بكل ما أسبغه النقاد فيما بعد على عملي، على قصتي الأولى، من الثناء الجم والتقريظ الباهر، في مقابل كلمة إعجاب واحدة منها. والآن ها هي ذي قصتي قد صدرت أخيرًا، وكانت قد أثارت في البيئات الأدبية، حتى من قبل ظهورها، عاصفة من الأحاديث والتعليقات، فقد سر الناقد المعروف «ب» واستخفه الطرب كما يستخف الطفل عندما قرأ مسودتها الخطية. كلا، فلئن كنت قد شعرت حقًّا بالسعادة مرة، فإن ذلك لم يكن في تلك اللحظات، لحظات النشوة لأول نجاح أصبته، بل إنه كان قبل أن أطلع أحدًا على مخطوطي أو أتلوه على أحد، أعني في تلك الليالي الطويلة، الطويلة المفعمة بالآمال والخيالات المخمورة والشغف الحاد بعملي، حين كنت أستغرق في أحلامي وأعيش مع الأشخاص الذين خلقتهم بنفسي، كأنهم كانوا أسرتي، كأنهم كانوا كائنات حية حقًّا، فكنت أحبهم وأشاركهم في أفراحهم وأتراحهم، بل حدث في بعض الأحايين أن سكبت دمعًا حارًّا لما آل إليه بطلي الساذج. وإني لأكاد أعجز عن بيان ما تملك الوالدين إشمنيف من الفرح لنجاحي مع أنهما كانا في بادئ الأمر ذاهلين كأنهما سقطا من السحاب، إذ باغتتهما هذه المفاجأة العجيبة على غير انتظار. وكانت أنّا أندريفنا على وجه الخصوص لا تستطيع أن تتصور أن ذلك الكاتب الجديد الذي يمجده الجميع ليس إلا عزيزها فانيا الصغير، وأن هذا الغلام هو الذي فعل كيت وكيت... إلى غير ذلك وذاك، فلم تزد

على أن أخذت تحرك رأسها بلا انقطاع من فرط الإعجاب. أما الشيخ فقد لبث مدة لا يجد الرضا سبيلًا إلى نفسه، وكان يستولي عليه الذعر في بادئ الأمر عند ذيوع الشائعة الأولى، فأخذ يندب، بوجه خاص، منصبي الضائع في سلك الخدمة الحكومية، وينعي بوجه عام حياة الفوضى التي يحياها الكتاب، على أن الأخبار الجديدة التي كانت تتوالى دون انقطاع ومقالات الصحف، وأخيرًا بعض الكلمات المفعمة بالتقدير التي فاه بها من لا يسعه إلا تصديقهم، كل ذلك جعله في آخر الأمر يغير رأيه في الموضوع، ولما رأى فوق ذلك أنني حصلت دفعة واحدة على المال، وعلم مبلغ ما يستطيع المرء أن يربح من العمل الأدبي، تبدد ما بقي من تردده واستحالت كل شكوكه فجأة إلى ثقة تامة وتحمس عظيم، وتولاه فرح كفرح الأطفال لما نالني من نجاح وسعادة، واستسلم مرة واحدة لأكثر الآمال نزقًا وطيشًا وأزهى الأحلام عن مستقبلي، فكان يرسم لي كل يوم طرقًا جديدة لسير حياتي يراها مؤدية إلى النجاح ويخطط لي خططًا أية خطط! وانقلب يعاملني معاملة يمازجها التقدير، وذلك ما لم يسبق أن عاملني بمثله. على أن الشكوك كانت تنتابه فجأة في بعض الأحايين وذلك غالبًا خلال أجمل تخيلاته، فتربكه وتسيطر عليه وتدفع باقتناعه الجديد إلى الترجح والذبذبة. فيقول:

«مؤلف. شاعر. ليس ذلك في الواقع بالشيء العظيم... وهل حصل شاعر من الشعراء يومًا على منزلة عالية وظفر بالتبجيل والاحترام؟ ألا إن هؤلاء ليسوا ولن يكونوا إلا محبري أوراق ليس لهم مركز مستقر».

ولقد لاحظت أن هذه الخواطر والشكوك أكثر ما تعرض له إذا أقبل

الغسق (وما زلت أذكر إلى هذا الحد من الدقة تفاصيل ما كان يحدث في ذلك الوقت الذهبي) إذ كان يستولي عليه اضطراب الأعصاب وشدة الحساسية وسوء الظن، وكنت أنا وناتاشا نعرف فيه ذلك فيأخذنا المرح ونشرع في الضحك منه سلفًا. وأذكر أني حاولت مرة أن أدخل السرور على قلبه بذكر بضع «نوادر» لطيفة في تاريخ الأدب فقصصت عليه كيف بلغ سوماركوف مرتبة القيادة، وقصة درشافين[1] إذ أهدي إليه مسعط مفعم بالنقود الذهبية، وكيف أن القيصرة ذهبت بنفسها لزيارة لومونوزوف فحدثته عن بوشكين وجوجول وكان الشيخ يجيبني: «أعرف ذلك يا فانيا. أعرف ذلك...» على أنه يبعد أن يكون قد وقع من قبل على هذه الأخبار والأقاصيص. وقد قال ذات يوم في ختام حديث له وعليه سيما من يتولاني بالرعاية، وكنت قد أحضرت كتابي آخر الأمر وجلسنا جميعًا إلى المائدة المستديرة لتناول الشاي: «أوه. حسن. لا بأس. إنني مسرور على الأقل لأنك لم تقرض الشعر، فقرض الشعر سخافة يا فانيا. أرجو ألا تقاطعني وحقيق بك أن تصدقني في ذلك وأنا رجل مسن، ولست أرغب إلا فيما فيه صلاحك. حقًّا إن ذلك لمن السخافة، البحث وإضاعة الوقت في غير جدوى. لتلاميذ المدارس أن يعالجوا نظم القريض، أما من كان في مثل سنك فلن يؤدي به ذلك إلا إلى مستشفى الأمراض العقلية. نعم كان بوشكين عبقريًّا، ومن ذا يماري في ذلك؟ وذلك على أنه لم يكتب إلا نظمًا، إلا أخيلة زائلة لا حقائق باقية... وعلى أية حال فإني لم أقرأ له إلا قليلًا. أما النثر فله شأن آخر،

(١) من الشعراء المعاصرين لمؤلف هذه القصة.

فالكاتب الناثر يستطيع أن يكون ذا أثر تعليمي... يستطيع أن يتحدث في حب الوطن وما إليه... أو غير ذلك من الفضائل المختلفة... أجل، إني لا أستطيع أن أعبر في وضوح عما يجيش في صدري يا فانيا، ولكنك تدرك ما أعني، وإنما يدفعني إلى هذا القول حبي لك. والآن، هيا، اتل علينا ما كتبت. إنهم يشيدون بعملك كثيرًا. حسن، انطلق وسنرى».

فتحت الكتاب وشرعت أقرأ. وكانت قصتي قد تم طبعها في ذلك المساء نفسه، فأخذت نسخة منها وأسرعت بها إلى آل إشمنيف أتلوها عليهم.

ولشد ما ألمت وحنقت على أني لم أستطع أن أتلو عليهم عملي قبل ذلك من الأصل الخطي إذ كان هذا عند الناشر. ولقد برح الغيظ بناتاشا فبكت وكادت تشتجر معي، وأنبتني مر التأنيب؛ لأنه قد تسنى لبعض الناس من الغرباء أن يقرأوا قصتي قبلها... وأخيرًا كنا جميعًا حول المائدة، واتخذ الهرم وجه الناقد الجدي، وهو أمر لم نكن قد عهدناه منه، فقد أراد أن يكون قاضيًا صارمًا إلى أقصى حدود الصرامة و- قبل كل شيء- أن يتخذ له رأيًا. أما العجوز فكان يبدو على وجهها سيما ابتهاج غير عادي، بل إني لأعتقد أنها لبست في هذا العيد قلنسوة جديدة. وكانت قد لاحظت منذ زمن بعين بأي شغف أنظر إلى ناتاشا التي لا مثيل لها، وكيف يعتريني الاضطراب وتسود الدنيا في عيني حين أتحدث إليها، ولاحظت أيضًا أن نظرات ناتاشا أخذت تستقر عليَّ في إشراق وود أكثر مما كانت من قبل. أجل، وأخيرًا آن الوقت، فأتى حبنا ونجاحي الأول والآمال الذهبية والسعادة القصوى، كل هذه هبطت

علينا دفعة واحدة. ولاحظت أنّا أندريفنا كذلك أن قرينها أيضًا أخذ يطريني إطراء يسترعي الأسماع وأنه كان يرمقني أنا وناتاشا في بعض الأحايين بنظرات خاصة عجيبة... وإذ ذاك تطرق إليها الخوف فجأة، فما أنا بكونت ولا دوق ولا أمير حاكم، بل لست بأستاذ جامعة يحمل على صدره وسامًا، بل لست بمحام صغير أنيق المظهر. ولما كانت لا تقف في رغباتها عند حد، فقد حدثتنا نفسها في شأني قائلة: «إنهم يمجدون هذا الإنسان كثيرًا، فَلِمَ... هذا ما لا يعلمه أحد. كاتب، شاعر... أجل، فهل هذا شيء عظيم؟».

* * *

الفصل السادس

تلوت عليهم قصتي دفعة واحدة من أولها إلى آخرها. بدأنا ذلك عقب تناول الشاي وأمسينا فيه إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وكان الشيخ في أول الأمر ينظر نظرات عابسة إذ كان ينتظر شيئًا ساميًا إلى غير حد، شيئًا ربما كان هو نفسه لا يدرك كنهه تمام الإدراك، ولكنه على كل حال شيء عظيم باهر، فإذا به لا يسمع غير أشياء تافهة جدًّا سردت على نحو ما تقع للمرء في حياته اليومية. وليت البطل كان على الأقل امرأً عظيمًا أو شخصًا تاريخيًّا كما في «روسلافلف» أو «يوري ميلوسلافسكي»! كلا، بل هو موظف صغير عادي جدًّا شديد التهيب والخوف، بل هو على جانب من الغباء يرتدي كساء رسميًّا ذا أزرار بالية متآكلة! ثم إن ذلك كله مسرود بكلمات دارجة مما يجري على ألسنة الناس كل يوم... فواعجبًا! وكذلك رنت العجوز إلى نيكولاي سيرجيفتش وقد ارتسم على وجهها الضجر والشعور بالإهانة حتى لكأن إنسانًا أمرضها وأساء إليها، وبدت وكأنه قد كتب على وجهها: «ألهذا الشيء من الخطر ما يساوي مؤونة طبعه والاستماع إليه؟ وفي مثل هذا يدفع الناس أموالهم؟». أما ناتاشا فهي وحدها التي كانت مصغية كل

الإصغاء بأذنيها وعينيها، تسمع بانتباه مرهف دون أن ترفع عني طرفها، وقد تعلقت بشفتي ترقب في انتباه كيف أنطق كل كلمة، لا يتحرك منها إلا شفتاها الفاتنتان، في غير وعي بين فترة وأخرى. ثم ماذا حدث؟ لم أكد أصل في التلاوة إلى نحو نصف القصة حتى كانت قد نديت أعين سامعي أجمعين. و بكت أنّا أندريفنا بكاء حارًّا وقد بدا إشفاقها وعطفها على بطلي من قرارة نفسها وأرادت في سذاجة الأطفال أن تعينه في مصابه كما استخلصت من هتافها. أما الهرم فقال وقد زايله توقعه لما هو أسمى وأفخم: «ها! إن المرء ليرى للنظرة الأولى أن الطريق طويلة أمامك إذا أردت أن تكون شاعرًا كبيرًا. وليست هذه إلا قصة عادية، على أنها مع ذلك تنفذ إلى سويداء القلب. وإن الإنسان ليتبين فجأة كنه ما يدور حولنا من الأمور، بلى إنه ليجد تلك الأمور جديرة بالالتفات. وإننا لنجد أنه من الواضح أن امرأً هيابًا بائسًا كهذا هو أيضًا إنسان وأخ لنا».

وكانت ناتاشا منصتة تنشج وتكرر ضغط يدي خفية تحت المائدة. ومضيت في تلاوة القصة حتى أتممتها، فنهضت ناتاشا وقد اتقدت وجنتاها ولما تزل دموعها تترقرق في عينيها، ثم إذا بها تنحني بغتة وتلثم يدي وتولي مسرعة من الغرفة، فنظر الأب والأم كلاهما إلى الآخر.

وقال الشيخ وقد أذهله مسلك ابنته: «ما أسهل ما يتملكها التحمس» ثم تمتم قائلًا: «وعلى كل فليس لذلك من معنى خاص، بل هو منها على النقيض من ذلك أمر حسن عظيم وخلة نبيلة. وإنها لطفلة طيبة حقًّا...» تمتم بذلك وهو يرمق امرأته بمؤخر عينه كأنما يريد أن يظل ناتاشا بحمايته أو يظلني أنا أيضًا معها، وهذا ما لم أدرك له سببًا.

أما أنّا أندريفنا فمع أنها كانت طوال الوقت على مثل ذلك التأثر والوجيف، عادت الآن فاتخذت لها سيماء أخرى وكأنها تريد أن تقول «لا ريب في أن الإسكندر المقدوني كان بطلًا، ولكنه لم يحطم الأثاث»[1].

ولم تلبث ناتاشا أن عادت مبتهجة سعيدة وقرصتني خفية عند مرورها بي. ومع أن الشيخ كان يرغب في أن يستمر في نقد قصتي نقدًا جديًّا فقد انصرف عن ذلك لفرط ما طغى عليه من السرور.

وقال: «أترى يا فانيا. لقد كان ذلك حسنًا، حقًّا، إنه حسن جدًّا. أجل، لقد أعجبتني، أعجبتني إعجابًا لم أكن أتوقعه البتة! نعم إنها ليست بالسامية الرائعة ولا بالعظيمة الفخمة، هذا واضح جلي... ولدي مثلًا قصة «تحرير موسكو» هنالك على المنضدة، وهي أيضًا مكتوبة في موسكو نفسها، ففي وسعك أن ترى فيها من السطور الأولى يا فانيا كيف أن المؤلف يحلق في الأجواء مثل العقاب كما يقولون... ولكن أتدري يا فانيا؟ في قصتك كل شيء أقل تعقدًا وأيسر على الفهم، ويسرة فهمها هي سبب إعجابي بها، فإني أجد كل ما بها كأني أعرفه وآلفه كما لو كنت قد عشت حوادثها بنفسي، ثم ماذا يفيد المرء في النهاية من الفخامة؟ قد تكون هذه الفخامة علة قصوري عن فهمها، على أني لو كنت مكانك لحسنت من أسلوبها بعض الشيء. هو على علاته حسن وليس هناك ما يعيبه، ولكن أما ترى أنه كان من الممكن أن يكون أرقى من ذلك...

(١) هذه الجملة مقتبسة من قصة «المفتش العام» لجوجول، وفيها أن مدرسًا من مدرسي التاريخ كان يأخذه التحمس في أثناء إلقائه الدرس فينهال على الكراسي تحطيمًا، ومعنى الجملة: أجل، إن هذه القصة جميلة جدًّا، ولكن ليس هنالك ما يسوغ أن تفتتن بها ناتاشا إلى هذا الحد.

على أن أوان ذلك قد فات، فقد تم الطبع وعسى أن يستدرك ذلك في الطبعة الثانية. أليس كذلك يا فانيا؟ لا شك أنها ستطبع طبعة ثانية، فتصيب منها حظًّا آخر من المال... هه».

وسألت أنّا أندريفنا «آجتنيت حقًّا منها مالًا كثيرًا يا إيفان بتروفتش؟ إنني حين أنظر إليك أجد نفسي عاجزة عن تصديق ذلك. آه يا رب، أي شيء لا ينفق الناس فيه أموالهم في هذه الأيام!».

وقال الشيخ وهو يزداد كل لحظة تحمسًا: «أتدري يا فانيا، إنه وإن لم يكن منصبًا في الدولة فهو على كل حال طريق في الحياة. ولسوف يقرأ مؤلفاتك علية القوم في البلاد. لقد حدثتني أن جوجول كان يتقاضى مرتبًا سنويًّا وأنهم أرسلوه إلى الخارج، فليته يحدث لك مثل ذلك. ماذا؟ أم ترى البون لا يزال بعيدًا بينك وبين جوجول؟ من البديهي أنه ينبغي أولًا أن تبذل الكثير من الجهد. إذن فاكتب يا فانيا. اكتب أكثر من ذلك وابدأ بأسرع ما يمكن ولا تسكن إلى ما نلت من أكاليل الغار، واحرص على الوقت فلا تضع منه شيئًا».

قال لي ذلك وعليه من سيما الاقتناع وطيبة القلب ما جعلني لا أستطيع مقاطعته وتبريد حماسته وكبت تخيلاته، ثم قال: «وعندها يهدى إليك أنت أيضًا مسعط... ولم لا؟ فهنالك أساليب شتى لإبداء العطف والرعاية، وقد يفعلون ذلك رغبة في حثك وتشجيعك. ومن يدري، لعلك تقدم إلى البلاط» ثم أضاف وقد غض من صوته وهو يغمز بمؤخر عينه اليسرى غمزة ذات معنى: «أترى أنت ذلك ممكنًا أم أنك لا تراه كذلك؟ ألا يزال أوان ذلك بعيدًا؟».

وقالت أنّا أندريفنا: «على رسلكما! إلى البلاط دفعة واحدة!» وكأنها رأت في ذلك إهانة للبلاط.

فقلت وقد ضحكت من السويداء: «لم يبق إلا أن تطلب لي منصب قائد».

وأخذ الشيخ يغرق في الضحك، وكان قد طابت نفسه كثيرًا.

وقالت ناتاشا مازحة وهي تعد خلال ذلك مائدة العشاء: «لو تفضل صاحب السعادة فأصاب معنا شيئًا من الطعام؟».

ثم اتجهت إلى والدها ضاحكة فارتمت على كتفيه وأخذت تلاطفه بيديها الملتهبتين، وهتفت به:

«أيها الأب الحنون العزيز!».

فتأثر الشيخ تأثرًا بالغًا.

وأجابها وهو يربت على وجنتيها اللتين اشتد احمرارهما، شأنه كلما سنحت فرصة ملائمة «حسنًا، حسنًا، إنما قلت ذلك مداعبًا، وسواء أكان قائدًا أم غير قائد، فهلموا الآن أولًا نتناول العشاء. آه منك أيتها النعجة الصغيرة ذات العاطفة القوية» ثم قال لي: «إنني لم أقل ما قلت إلا لفضل حبي لك يا فانيا... ولئن لم تصبح قائدًا- وإن الشقة إلى منصب القيادة بعيدة- فإنك على أية حال شخص شهير. مؤلف».

«إنهم في هذه الأيام يسمون ذلك كاتبًا يا أبت».

«ولم لا يسمى مؤلفًا؟ لم أكن أعرف ذلك. فليكن إذن كاتبًا. على أن ما أرغب أن أقوله هو إنك لن تطفر إلى منصب كبير ياوران القيصر؛

لأنك كتبت قصة! ذلك ما لا أمل فيه. ومع ذلك ففي وسعك أن تخطو إلى الأمام، فقد يتاح لك أن تكون شيئًا مثل ملحق في سفارة، أو أن يبعثوك إلى الخارج. أن يبعثوك إلى إيطاليا لتقوية صحتك أو لاستكمال معلوماتك ومعارفك، أو يكتفوا بإمدادك بالمال. ومن البديهي، إنه يجب أن يتم ذلك من جانبك بطريقة شريفة، فتحرز المال والجاه أجرًا حقيقيًّا على عملك وعلى ما تبذله فعلًا من جهد، لا لمحض تمتعك بعطف ورعاية...».

وعقبت أنّا أندريفنا على ذلك فقالت ضاحكة: «ولا يأخذنك البطر عندئذ يا إيفان بتروفتش».

وقالت ناتاشا: «والآن فبادر يا أبت وامنحه وسامًا، فما قيمة ملحق صغير بلا وسام؟».

وعادت فقرصتني خفية في ذراعي.

وصاح الشيخ وهو ينظر في افتتان إلى ناتاشا وقد التهب خداها وتألقت حدقتاها في سرور حتى كأنهما نجمان: «إنها ما تنفك تضحك مني. قد أكون بالغت يا أطفالي ولججت في المبالغة فجردت السماء من زرقتها، ولكني هكذا خلقت... وعندما أفكر يا فانيا أنك جالس الآن بيننا مثل أي شخص آخر...».

«يا ألله يا أبت! ولم عساه يصبح مرة واحدة غير ذلك؟».

«ولكن كلا، فليس هذا ما قصدت إليه، وإنما أردت أن أقول يا فانيا إنه لا يلوح عليك... أعني أنه لا يبدو عليك أنك شاعر حقًّا... أتعرف؟

إنهم يقولون دائمًا إن الشعراء شاحبو الوجوه لهم خصل طويلة مرسلة وأعين نارية متقدة، مثل «جوته» أو غيره من الشعراء.. لقد قرأت ذلك حديثًا في «أبادونا»... أليس كذلك؟ أم تراني عدت فلغوت. انظر إلى هذه الخبيثة، إنها تريد أن تعود إلى الإغراق في الضحك مني. لست من زمرة العلماء أيها الأطفال وإنما يجري لساني دائمًا بما يجول بذهني، فلندع المظاهر جانبًا. وغاية القول إنه ليس في الأمر من خطب جسيم، وإنك في نظري على حالتك هذه لحسن، بما فيه الكفاية. إنك لتروقني كثيرًا... ليس ذلك ما أعني... بل كن يا فانيا دائمًا شريفًا فهذا هو المهم، وكذلك كن نبيلًا في تصرفك ولا يداخلنك الغرور، فالطريق لا تزال أمامك طويلة، وليكن الشرف والنزاهة حليفيك في أعمالك. هذا ما أردت أن أقوله لك. أجل أجل، فهذا هو ما أردت أن أتحدث به إليك».

لقد كان ذلك عهدًا سعيدًا كنت أقضي معهم فيه كل ساعات الفراغ وأسامرهم كل الأماسي، وكنت أتحف الشيخ بأحدث أخبار البيئات الأدبية وأحدثه عن كل من هب ودب من الكُتّاب، وكان قد أضحى فجأة ولغير ما سبب معلوم يهتم بشؤونهم، بل إنه أخذ- لكثرة ما حدثته عن الناقد «ب» يقبل على قراءة مقالاته في النقد. أجل، إنه كان لا يكاد يفهم منها شيئًا، بيد أنه كان يطريها في تحمس شديد ويسفه عابسًا ما يكتبه خصومه ضدها في «يعسوب الشمال» وكانت العجوز ترقبني أنا وناتاشا بعين يقظى ولكنها لم تستطع أن ترى كل شيء، فكان أن جرت بيننا الكلمة الفاصلة، فقد همست ناتاشا في أذني برأس مطرق وشفتين قد انفرجتا بعض الشيء أن «نعم» وعلم الأبوان بالأمر، فتشاورا وقلبا فيه

وجوه النظر، فكانت أنّا أندريفنا تهز رأسها وقد داخلها إحساس عجيب من الخوف والجزع. لقد كانت قليلة الثقة بي.

وقالت: «ما دام هذا النجاح الكبير حليفك يا إيفان بتروفتش فلا بأس، على أنه قد ينقطع فجأة أو يحدث شيء ما، فما عسى أن تكون حينئذ؟ ألم يكن الأفضل أن يكون لك منصب ثابت؟».

وقال الهرم وهو غارق في التفكير: «سأقول لك شيئًا يا فانيا. لقد شعرت بالأمر كله منذ حين طويل وأخذت أراقبه، ولا معدى من القول: إني قد سررت به لأنك أنت وناتاشا... ولكن ما هي النهاية؟ إنكما كليكما لا تزالان حدثين صغيري السن جدًّا، وأرى أن أندريفنا مصيبة كل الصواب، ففي استطاعتكما أن تنتظرا ردحًا آخر من الوقت. إنني أقر لك بأنك موهوب، بل موهوب للغاية... وإن لم تكن عبقريًّا كما أذاعوا عنك في ضجتهم الأولى، موهوب لا أكثر. ولقد كنت في هذا اليوم نفسه أقرأ نقدًا موجهًا إليك في «اليعسوب» انتقصوا فيه كثيرًا من شأنك، ولكن ما خطر تلك الصحيفة! أليس كذلك؟ على أن الموهبة في الواقع ليست ذات قيمة كبيرة إذا نظر إليها على أنها رأسمال في المصرف المالي، وكلاكما فقير، فعليكما إذن بالانتظار عامًا أو أكثر، فإذا خطوت في خلال ذلك إلى الأمام وأصبحت تقف ثابتًا على قدميك نلت ناتاشا، فإن لم يتهيأ لك ذلك فعليك أن تقنع نفسك... فأنت رجل شريف... فترو في الأمر».

ووقفنا عند هذا الحد، ولكن ما الذي آل إليه الأمر بعد عام!

أجل فقد كان قد انقضى نحو عام كامل حين رجعت في ليلة صافية

من ليالي سبتمبر إلى الهرمين فارتميت على الكرسي كالمغشي عليه وأنا مريض يدب السقم في قلبي، فنظر إليَّ كلاهما مرتعبًا. على أنه إذا كان رأسي قد أوشك أن ينفجر وقلبي قد أوشك أن يتميز بعد أن أتيت إلى بابهم عشر مرات ثم عدت فنكصت على عقبي عشر مرات أيضًا دون أن أدخل، فلم يكن سبب ذلك أني لم أوفق في حرفة الكتابة ولم أنل منها مجدًا ولا مالًا، أو أني لم أصبح ملحقًا في سفارة، أو أني لا أمل لي في أن يبعثوني إلى إيطاليا لتقوية صحتي، بل لأن المرء قد يصير في عام واحد أكبر مما كان (قبل هذا العام) بعشرة أعوام، ولأن ناتاشا قد مرت بها في هذا العام حوادث تستغرق في العادة عشرة أعوام. لقد كان هذا العام دهرًا طويلًا يفصل بيني وبين ناتاشا. هذا وإني لأذكر جيدًا أني جلست قبالة الهرمين صامتًا أعبث، من فرط الارتباك، بحافة قبعتي التي لم يكن ينقصها هذا العبث لينال منها التمزيق كل منال. جلست صامتًا أنتظر، وأنا أشعر أن ناتاشا قادمة في تلك اللحظة. كانت حلتي قد بليت فصارت غير صالحة للبس، وكان وجهي قد صار شاحبًا نحيلًا، ولكني كنت ما أزال بعيدًا عن الشبه بالشعراء، ولم تكن تنبعث من عيني النار التي كان يتعشقها في ذلك الحين هذا الرجل الطيب نيكولاي سيرجيفتش، ورمقتني العجوز بنظرة سريعة غير خاف ما فيها من شفقة ورثاء. وقد جال بفكرها:

«وهذا كاد يصبح خطيب ناتاشا! حفظنا الله ووقانا من ذلك!».

وأضافت وكأن كلماتها لا تزال ترن في أذني إلى اليوم: «ها. ألا تتناول معنا الشاي يا إيفان بتروفتش؟ (وكان الشاي يغلي على المائدة)

كيف جرت شؤونك؟ يخيل إليَّ أنك مريض جدًّا؟».

ما زلت أذكر كل شيء في وضوح. كانت تتحدث إليَّ ولكن عينيها كانتا تتحدثان عن هم آخر، عن ذلك الهم الذي بلغ من زوجها أن جعله يترك شايه يبرد وهو يفكر مطرقًا مكتئبًا. لقد كنت أعلم أن قضيته مع الأمير فالكوفسكي تتجه إلى غير مصلحته، وأنها تسبب له في هذه الأيام همومًا مقلقة، وأن متاعب أخرى تواترت عليه فآلمته حتى كاد يعتريه السقم من جرائها، فإن الأمير الصغير الذي هو في واقع الأمر أصل هذه المشكلة ومنشأ القضية، كان قد وجد منذ نحو خمسة أشهر خلت فرصة لزيارة إشمنيف فاستقبله الشيخ بسرور ورحب به، إذ كان يحبه كأنه ابن له، وكان لا يفتأ يذكره كل يوم في حديثه. أما أنّا أندريفنا فقد ذكرتها زيارته بفاسيليفسكوي فنديت عيناها. وظل أليوشا يوافيهم المرة بعد المرة دون أن يعلم والده شيئًا من ذلك. بيد أن نيكولاي سيرجيفتش، وهو الرجل الشريف الصريح، أبى بأنفة وشمم جميع الاحتياطات التي أريد اتخاذها لكتمان هذه الزيارات، وأخذته الكبرياء فلم يفكر قط فيما عسى أن يقول الأمير عندما يعلم باختلاف ابنه إليهم، وكذلك احتقر في صميم نفسه ما يمكن أن يوجه إليه من اتهام كاذب، ولم يجل بخلده أنه لم يبق لديه من القوة ما يستطيع به احتمال إهانات جديدة. وراح الأمير الصغير يأتي إليهم كل يوم في أكثر الأحيان، وكان يتملكه السرور والابتهاج في منزل الهرمين فكان يسمر عندهم إلى ما بعد منتصف الليل.

وانتهى الأمر، بالبديهة، إلى والده وتطايرت شائعة بغيضة فكتب الأمير إلى نيكولاي سيرجيفتش في هذا الأمر رسالة مهينة بالغة الإقذاع

وحظر على ابنه حظرًا قاطعًا أن يتصل بآل إشمنيف، وقد كان ذلك بعد زيارتي لهم في تلك الليلة بأسبوعين. وبلغ الكرب من الشيخ مبلغه. كيف؟ ناتاشا، تلك الفتاة الطاهرة البريئة يزجون بها مرة أخرى في غمار تلك الأراجيف السوقية القذرة. وهذا الرجل الذي سعى إليها بالإهانة مرة من قبل يجسر على تلويث اسمها مرة أخرى... ثم يبقى كل ذلك بلا قصاص! لقد استولى عليه اليأس في بادئ الأمر فأسقمه. وإني لأعرف كل ذلك إذ نُقلت إليَّ القصة بأدق تفصيلاتها مع أني لم أتوجه إليهم منذ ثلاثة أسابيع كاملة، إذ كنت طول ذلك الوقت مريضًا في منزلي لا أبرح الفراش. ثم علمت... لا، بل كنت إذ ذاك مستشعرًا لا أكثر- وذلك دون أن أستطيع التصديق- أنه قد حدث هنالك شيء غير قصة هذه القضية، يقلقهم أكثر من أي شيء آخر في العالم، فكنت أرقبهم في ألم مبرح. أجل لقد كنت أعظمهم ألمًا. كنت أخشى أن أشك وكنت أخشى أن أوقن وكنت أحاول بكل ما أملك من قوة إرجاء الساعة المشئومة. على أن ذهابي إليهم لم يكن إلا لذلك السبب، وكأنما جذبتني إليهم في تلك الليلة قوة لا تقاوم.

وسأل الهرم وقد انتبه فجأة إلى مكاني: «إيه، يا فانيا. ألم تك مريضًا، فإنك لم تأت إلينا منذ أمد طويل، وإنه لحري بي أن ألوم نفسي، فقد طالما رغبت في أن أزورك، ولكن كان يحدث دائمًا...».

ثم استغرق في تفكيره.

فأجبته: «بلى لقد كنت مريضًا».

فقال بعد هنيهة مرددًا: «مريضًا! وإذن فقد كنت مريضًا! لقد كنت

نبأتك بذلك. كنت قد حذرتك! ولكنك لم تشأ أن تصغي إليَّ، آه يا عزيزي فانيا. إن عروس الشعر تقيم منذ كانت الدنيا، جائعة في الغرف الرخيصة تحت سطوح المنازل، وستظل الحال كذلك أبدًا، فليس ذلك بما يستطاع تغييره».

أجل، فقد كان الهرم مكتئبًا مكدود النفس. ولو لم يكن الأسى يحز كبده لما حدثني، ولا ريب عن عروس الشعر الجائعة. ولقد نظرت إليه فاحصًا فأبصرته قد ارتد وجهه أصفر وفي عينيه شك وجزع، ويلوح أن ثمة معضلة تقلقه وتعذبه، وأنه تعوزه القوة لحلها. كان متهيجًا متبرمًا للغاية، وكانت امرأته تلاحظه في أسى وتهز رأسها، فلما التفت عنا ذات مرة أومأت إليَّ إيماءة خفية تسترعي بها انتباهي إليه.

وسألت أنّا أندريفنا وقد استولى عليها الهم: «كيف ناتاليا نيكولايفنا؟ أهي بالمنزل؟».

فأجابت متباطئة كأن سؤالي لم يرقها: «أجل يا فانيا، هي هنا وستأتي بنفسها على الفور وتحييك، وليس بالأمر الهين أن أحدكما لم ير الآخر منذ أسابيع ثلاثة. ولقد تغيرت حالها. وإن المرء ليقصر عن إدراك جلية أمرها. لست أدري ماذا ألمّ بها: أمريضة هي أم ماذا؟... كان الله لها!».

ثم اختلست نظرة إلى زوجها.

فقال نيكولاي سيرجيفتش معترضًا وهو ضجر برم: «ماذا عسى أن يلم بها! لا شيء يلم بها؟ فهي صحيحة سليمة البنية. وكل ما في الأمر أنها قد بلغت السن فلم تبق طفلة. هذا هو كل ما في الأمر. ومن ذا الذي

يعرف هذه الأمور الخاصة بالقلب وأمزجة الفتيات معرفة حقة؟».

فأجابت أنّا أندريفنا بلهجة الموجعة: «كأن الأمر مزاج فتاة!» وصمت الهرم وطفق ينقر المنضدة بأنامله.

وفكرت وأنا أخوف ما أكون «رباه. أيكون قد دهاهم حقًّا حادث ما؟».

وعاد الهرم يسألني: «وكيف تجري أموركم أنتم؟ ألا يزال «ب» يوالي نقده؟».

فأجبته: «بلى، دون ريب».

فطوح بيده مقاطعًا وهو يقول: «أواه يا فانيا. وفيم يعنينا النقد الآن!».

وهنا فتح الباب ودخلت ناتاشا.

* * *

الفصل السابع

كانت القبعة في يدها، فلما دخلت وضعتها على البيانو ثم قصدت إليَّ ومدت يدها في صمت. وكانت شفتاها تتحركان في همس كأنما تريد أن تلقي إليَّ بالتحية، ولكنها لم تنبس بكلمة.

وكانت قد انقضت ثلاثة أسابيع لم ير أحدنا خلالها الآخر، فلما اقتربت شخصت إليها فزعًا لا أصدق بصري. ما كان أشد ما تغيرت في هذه الأسابيع الثلاثة! انقبض قلبي ألمًا وعذابًا عندما بصرت بخديها الذابلين الشاحبين، وبشفتيها الجافتين من الحمى، وبحدقتيها اللتين تتقدان نارًا وعزيمة تحت هدبيها الطويلين الفاحمين.

إلهي. ما كان أجملها إذ ذاك. لم أكن رأيتها فيما سلف ولا رأيتها فيما بعد، بمثل ما كانت في تلك الليلة المشئومة. أكانت هي هي حقًّا؟ أكانت تلك ناتاشا، الفتاة نفسها التي كانت منذ أقل من سنة تنصت إليَّ وأنا أتلو قصتي وكأنها قد تعلقت بشفتي لا ترفع بصرها عني، والتي كانت على مائدة العشاء تثرثر وتمازحني أنا ووالدها مبتهجة خالية البال؟ أكانت تلك هي ناتاشا التي جلست بإزائي في تلك الغرفة برأس

مطرق وخدين متقدين، وأجابت عن سؤالي أن «نعم»؟

ودق ناقوس مختنق الصوت يدعو إلى صلاة المساء فعرت ناتاشا رعدة، وحركت الأم يدها على صدر ابنتها راسمة الصليب وقالت: «كنت ترغبين أن تذهبي إلى الصلاة يا ناتاشا، فها هي ذي قد دق ناقوسها، فاذهبي يا ناتاشنكا، اذهبي وصلي، فذلك خليق أن يجلب إليك اليمن والبركة! ثم إنك ستتنسمين الهواء الطلق! لم تقبعين في غرفتك لا تبرحينها؟ انظري كيف شحب لونك. كأنك انقلبت شخصًا آخر». فأجابت ناتاشا في تريث وبصوت خافت يكاد يكون همسًا: «بل إني... أوثر... ألا أذهب اليوم... فإني أشعر بأني... على غير ما أحب» وامتقع وجهها حتى اكتسى لون الجص.

فقالت أنّا أندريفنا لابنتها: «بل الذهاب خير لك يا ناتاشا، ولقد كان ذلك ما اعتزمته أنت، ولذا أحضرت معك قبعتك. صلي لله يا ناتاشنكا وادعيه أن يرد عليك عافيتك...» وكانت تنظر إلى ابنتها في تهيب حتى لكأنها تخافها.

وقال الهرم أيضًا وهو ينظر مهمومًا إلى وجه ابنته: «لا شك في ذلك فاذهبي، فالمشي يفيدك. إن أمك على صواب وسيرافقك فانيا».

وخيل إليَّ أنه قد ارتسمت على شفتي ناتاشا ابتسامة مرة، فتوجهت نحو البيانو وتناولت قبعتها فلبستها ويداها ترتعشان، وكان في جميع حركاتها شيء حالم، كأنما كانت هي نفسها لا تكاد تعرف ما تعمل. وكان والداها يرقبانها بانتباه شديد.

وقالت بصوت لا يكاد يسمع «وداعًا!».

«ولكن لم هذا الوداع يا ملاكي الصغير وليس المدى ببعيد؟ ستستروحين النسيم على الأقل. انظري كيف عراك الشحوب! آه لقد كدت أنسى (وقد غدوت في هذه الأيام أنسى كل شيء) إني صنعت تميمة وضعت في طيها دعاء علمنيه في العام الماضي راهب من كييف، وهو دعاء ينفع في كل الأحوال. وقد فرغت منها اليوم، فتقلديها يا ناتاشا، عسى أن يمنحك الله الصحة والعافية! فليس لنا في هذا العالم سواك!».

وأخرجت الأم من سلة شغلها الصغيرة صليب ناتاشا، وقد ثبتت في سلسلته تلك التميمة التي كانت قد أتمتها منذ هنيهة وقلدتها إياها داعية: «لتجلب لك السعادة!».

ورسمت عليها علامة الصليب ثم قالت: «لقد كنت فيما مضى ألوح عليك برسم الصليب كل ليلة قبل النوم وأتلو عليك دعاء ترددينه بعدي، ولكنك استحلت الآن شخصًا آخر، فقد سلبك الله الطمأنينة والسلام. آه يا ناتاشا، يا ناتاشا، إن دعاء أمك أيضًا ليس بمغن عنك شيئًا».

وأجهشت بالبكاء.

فلثمت ناتاشا يدها وهي صامتة، وخطت نحو الباب خطوات، ثم لم تلبث أن ارتدت مسرعة نحو والدها، وكانت تتنفس في عسر وعمق.

وقالت وقد شرفت بالبكاء: «أبي بارك. أنت أيضًا... ابنتك» وجثت بين يديه.

وغدونا جميعًا في حيرة من هذا الانفجار غير المتوقع في عواطفها،

حتى إن والدها نفسه أخذ ينظر إليها فترة وهو ذاهل.

وصاح في النهاية، وقد انهلت عيناه: ناتاشنكا، فتاتي، ابنتي، حبة قلبي. ما تجدين؟ ماذا يؤلمك؟ لم بكاؤك ليل نهار؟ أترين؟ إنني أعرف كل شيء، فأنا لا أنام الليل بل أحوم حولك وأقف ببابك وأنصت إليك! أنبئيني بكل شيء يا ناتاشا. أفضي بمكنونات قلبك إلى والدك الهرم، ونحن...».

ولم يتم جملته، بل رفعها واحتضنها في عطف بالغ، فاندفعت بجميع جسدها إلى صدره في هيئة تشنجية، ودست وجهها في كتفه.

وقالت مؤكدة بصوت لا رنين فيه، تكاد تخنقه عبراتها المكبوتة: «لا شيء، لا شيء البتة، بيد أني... لست على ما أحب...».

فقال: «فليباركك الله كما أباركك يا طفلتي الوحيدة المحبوبة! وليمنح روحك سلامًا، وليقك كل ألم. ادعي الله يا طفلتي أن يستجيب لآثم مثلي».

وأضافت العجوز وقد سحت دموعها: «وتزودي كذلك ببركتي!» فهمست ناتاشا «وداعًا!».

ثم وقفت بالباب مرة أخرى تنظر إليهما، كأن شيئًا لا يزال لديها، وترغب في أن تفضي به إليهما، غير أنها لم تستطع ضبط نفسها فعجلت بالخروج. وأشفقت أن تقع نكبة فتبعتها مسرعًا.

* * *

الفصل الثامن

وسارعت الخطى مطرقة صامتة لا تنظر إليَّ، فلما اجتزنا الشارع وبلغنا المرفأ وقفت فجأة وأمسكت بيدي.

وهمست: «أكاد أختنق... والقلق يساورني... وحمارة القيظ تصهرني».

فصحت في وجهها مذعورًا: «ارجعي يا ناتاشا!».

«ألم تر يا فانيا، أنني قد فارقتهما إلى الأبد، وأنني خرجت معتزمة ألا أؤب إليهما أبدًا؟» قالت ذلك وهي تنظر إليَّ في حسرة وأسى جاوزا كل حد.

كاد رشدي يزايلني. والحق أني كنت قد استشعرت كل هذا من قبل أن أذهب إليهم. كنت منذ أيام أحس إحساسًا غامضًا باقتراب مثل هذه الحوادث، ومع ذلك وقعت كلمات ناتاشا عليَّ الآن وقوع الصاعقة.

واجتزنا المرفأ طولًا ونحن في حزن وأسى، ولم أر أن أتكلم، وأنعمت النظر وقلبت المسألة على كل وجوهها فلم أجد مخرجًا. واستولى عليَّ الدوار ووجدت الأمر مستحيلًا غير معقول.

وقالت أخيرًا: «إنك تسيء الظن بي يا فانيا؟».

فأجبت، وأنا لا أعرف ما يخلق بي أن أقول: «لا، ولكن... ولكني لا أصدق. إن هذا مستحيل».

«كلا يا فانيا، فذلك ما سيكون! لقد فارقتهما وأنا لا أعرف ما سيؤول إليه أمرهما... ولا ما سيؤول إليه أمري».

«أتذهبين إليه يا ناتاشا؟ أهو كذلك».

فأجابت: «أجل».

فصحت، وأنا لا أملك نفسي: «ولكن هذا مستحيل، ألا تعلمين أن هذا غير ممكن، يا ناتاشا، يا عزيزتي ناتاشا المسكينة؟ هذا جنون! إنك بذلك تدفعين أبويك إلى القبر وتوردين نفسك أيضًا موارد البوار والتلف. ألا تدركين ذلك يا ناتاشا!».

«أعلم كل ذلك، ولكن ما العمل؟ لست أستطيع لذلك دفعًا» وكان في كلماتها من اليأس والقنوط وهي تنطق بها ما جعلني أتخيل أنها محكوم عليها بالموت.

فتوسلت إليها أن «عودي أدراجك عودي أدراجك فإن الأوان لم يفت بعد!» وكنت أزداد إلحافًا في المسألة وإغراقًا في التوسل، كلما أدركت غثاثة توسلاتي وعدم جدواها في تلك اللحظة فقلت: «ألا تدركين يا ناتاشا ما ستلحقينه بأبيك؟ هلا تأملت في ذلك؟ إن أباه عدو أبيك، تذكري أن الأمير أهان والدك فاتهمه بالاختلاس ودعاه باللص. ثم القضية... أجل، ذلك ما كان ناقصًا! ولكن ألا تعلمين يا ناتاشا (آه.

رباه، لا شك أنك عليمة بكل ذلك...) ألا تفكرين في أن الأمير عزا إلى أبيك وأمك أنهما تعمدا الجمع بينك وبين أليوشا حين كان مقيمًا معكم في الضيعة؟ فكري، تصوري كيف ناء بأبيك إذ ذاك عبء هذا التشهير! لقد شاع الشيب في شعره هاتين السنتين، فألقي نظرة إليه! ومما يؤلم أنك تعلمين كل ذلك يا ناتاشا. رباه. أما احتمال والديك لفقدك إلى الأبد فهو ما لا أود الحديث فيه، فأنت وحيدتهما وكل ما عندهما، كل ما بقي لهما في شيخوختهما. لست أرغب في أن أطيل في ذلك، فإنك خير من يعرفه. ضعي نصب عينيك أن أباك يرى أنه قد شهر بك لغير جريرة وثلبت بلا مسوغ، من قوم كان مرغمًا أن يصطبر على صلفهم دون انتقام. والآن، الآن فقط قد اضطرمت نار هذا كله من جديد وأخذ الهرم يصلى فيه نار عداوة موجعة لا يخبو أوارها، وذلك لأنكم فتحتم بابكم على مصراعيه لأليوشا. وقد سب الأمير والدك مرة أخرى ولا تزال نار الغضب تستعر في صدره لهذه السبة الجديدة، أفتريدين أن تبدو كل هذه المثالب والتهم دفعة واحدة وكأنها حق لا مراء فيه. سيلوح لكل من علم بالقصة أن الحق في جانب الأمير وسيسندون الذنب إليك وإلى أبيك، فكيف ترينه يحتمل هذا؟ إن هذا ليحطمه ويذره هشيمًا. العار والخزي، وعن طريق من؟ عن طريقك أنت! أنت ابنته وفلذة كبده، عن طريق طفلته الوحيدة التي يحبها أكثر من كل شيء! وأمك إنها لن تعيش بعد زوجها... ناتاشا، ناتاشا، ماذا تفعلين؟ كري راجعة، ثوبي إلى رشدك!».

فصمتت فترة ثم نظرت إليَّ عاتبة وعيناها تفيضان بآلام مرة وعذاب مضن، فأدركت كيف برح بها الألم، فلم يكن ينقصها سماع كلامي

ليزيدها همًّا، وعرفت مبلغ ما كلفها اعتزامها هذا، وأيقنت أني لن أجني من معاتبتي المتأخرة التي لا طائل تحتها أكثر من تعذيبها والإمعان في نكء جراحها، ولم أطق مع ذلك، أن أمسك عن الكلام، فتابعت القول:

«لقد قلت لأمك منذ هنيهة إنك تؤثرين ألا تذهبي اليوم إلى الصلاة، وإذن فقد كنت تعتزمين اللبث في المنزل، أي أنك لم تكوني عازمة كل العزم!».

فما كان جوابها إلا ابتسامة مرة. أي سؤال هذا! كان يجب عليّ أن أرى أن كل شيء قد بت فيه نهائيًّا، ولكنني كنت فاقد السيطرة على نفسي.

وناديتها من قلب معذب: «وإذن فأنت تحبينه إلى هذا الحد؟» ونظرت إليها وأنا لا أدري ما أنا سائل عنه، فأجابتني ولما تزايل شفتيها الابتسامة المرة: «بماذا تنتظر أن أجيبك عن ذلك يا فانيا؟ ها أنت ذا ترى بنفسك. لقد أمرني بالمجيء فأتيت، وها أنا ذي في انتظاره».

فشرعت أتوسل من جديد، متعلقًا ببقية أمل: «ولكن اسمعي، أصغي إليَّ، ذلك كله يمكن أن يحول إلى ما فيه الخير والمصلحة. يمكن أن يدبر على نحو آخر، على صورة من الصور، فليس في الأمر ما يقتضي أن تهجري والديك. سأجد لك سبيلًا يا ناتاشنكا. إنني آخذ على نفسي أن أكون وسيطًا بينكما، في مقابلاتكما وفي كل شيء... على ألا تهجري البيت! سأحمل الرسائل منك وإليك. ولم لا أفعل؟ إن ذلك على أية حال خير مما تعتزمين. إني أعرف كيف أدبر هذا. سأعاونكما جميعًا، وستريان كيف أكون نافعًا لكما... وبذلك لا توردين نفسك

يا ناتاشنكا مورد الهلاك، وهو ما تزمعين أن تفعليه... فإنك مقبلة على إلقاء نفسك في هوة بؤس لا دافع له وشقاء لا منجى منه! اجمعي أمرك يا ناتاشا يصبح كل شيء كما ترغبين وتضحيا سعيدين متحابين ما شاء لكما الهوى... حتى إذا ما انحسم النزاع بين أبويكما (وذلك ما لا بد أن يكون في يوم من الأيام) فإذ ذاك...».

فقاطعتني بقولها: «حسبك يا فانيا حسبك» ثم قالت وقد ضغطت يدي بحرارة وقوة وابتسمت من خلال الدموع: «أنت يا عزيزي، يا عزيزي فانيا! أيها الرجل الطيب القلب الكريم النفس! أنت لا تتحدث عن نفسك! لقد هجرتك قبل أن أهجر والدي فاغتفرت لي كل شيء وصرت لا تفكر إلا في هناءتي. حتى رسائلنا ترغب في أن تحملها بيننا..».

وأخذت تبكي.

«إنني أعرف يا فانيا مدى ما أحببتني ومدى ما أنت مقيم على حبي، ثم لا ترد على شفتيك طول هذا الوقت كلمة عتاب واحدة أو لفظ يشوبه مرارة! أما أنا... أواه، فما أحقر تصرفي نحوك! أما زلت تذكر يا فانيا ذلك الزمن الحلو، إذ عثر كل منا على الآخر. أوّاه، ليتني لم أعرفه، فلو أنني لم ألقه قط لكنت لك وحدك يا فانيا العزيز الطيب! كلا، إني لست أهلًا لك! وها أنت ذا ترى كيف أنا، ففي هذه الآونة التي لم يكن ما عانيته قبلها بالقليل، آتي أنا فأزيد ألمك بذكريات سعادتنا المنصرمة! إنك لم تأت إلينا منذ ثلاثة أسابيع طوال، ولكني أقسم لك يا فانيا أنه لم يدر بخلدي مرة واحدة أنك قد تلعنني أو تكرهني. وقد كنت أعلم حق العلم لماذا

أمسكت عن المجيء. إنك كرهت أن تكدر صفو هناءتي ولم تشأ أن تكون عتابًا حيًّا ماثلًا لي. وربما كنت قد وجدت أيضًا من الصعب على نفسك أن تشترك في مشاهدة ذلك؟ ومهما يكن من شيء، فقد ظللت أنتظرك دائمًا يا فانيا، وأي انتظار! أما ترى يا فانيا أني أحب أليوشا حب المجنونة اليائسة، أما أنت فإن حبي لك قد يكون أقوى وأعظم بوصف أنك صديقي الوحيد. إنني أشعر، بل أعرف تمام المعرفة أنني لا أطيق الحياة بدونك. إني محتاجة إليك، إلى قلبك، إلى عواطفك الذهبية... أواه يا فانيا. يا له من وقت مُر عصيب قد دهانا».

واندفعت مرة أخرى في البكاء، فقد كان الأمر يشق عليها إلى غير حد.

واستأنفت الحديث وهي تغالب الدموع قائلة: «ما كان أشد شوقي إلى رؤيتك مرة أخرى! ما أشد نحولك وهزالك. لقد بدا عليك الشحوب والشقاء. أفأنت مريض حقًّا يا فانيا؟ أنا لم أستفسر عن ذلك ولا مرة واحدة! وكنت أتحدث دائمًا عن نفسي. ما حال أعمالك الكتابية؟ وقصتك الجديدة؟ أتسير في مدارك التقدم؟».

«ما خطر قصتي الجديدة يا ناتاشا، وما خطري أنا الآن وخطر شؤوني! لا شيء. إنها سائرة في طريقها، فلتمض كما تمضي. سيان عندي أن تتقدم وأن تتأخر. ولكن خبريني يا ناتاشا، هل هو نفسه الذي طلب إليك أن تأتي إليه؟».

«كلا، لم يكن هو وحده، بل كانت رغبتي أنا في ذلك أكثر من رغبته أجل، إنه تحدث في ذلك، ولكني أنا التي... سأقص عليك كل شيء

يا عزيزي فانيا: لقد رغبوا في تزوجيه فتاة غنية وجيهة من أرقى البيئات، وقد أصر والده على عقد خطبتهما. أتدري؟ إن والده لدساس زنيم، وقد فعل كل ما وسعه في هذا السبيل، وهو يزعم أنه لن يعثر ثانية في خلال عشر سنوات على صفقة طيبة كهذه: العلاقات والمال... يضاف إلى ذلك أن الفتاة جميلة جدًّا ومتعلمة وذات شمائل حميدة، ومجمل القول إنها كاملة في جميع النواحي. وقد افتتن بها أليوشا وأضحى سليبًا لها. يزاد على ذلك أن والده يريد أن يتخلص منه بأسرع ما يستطيع؛ كي يتزوج هو نفسه من جديد، ولهذا أخذ على نفسه أن يفصم عرى ما بيننا من علاقة مهما كلفه ذلك، فهو يخشاني ويخشى تأثيري في أليوشا...».

فقاطعتها دهشًا: «فهل يعلم الأمير بحبكما؟ إنه يرتاب، ولكنه ليس على يقين؟».

«إنه يعلم جلية الأمر، يعلم كل شيء».

«ومن ذا الذي نبأه بذلك؟».

«لقد تحدث إليه أليوشا بذلك منذ عهد قريب. لقد قال لي بنفسه، إنه أخبر والده بكل شيء».

«رباه. وكيف جرؤ على ذلك! هو بنفسه يتحدث بكل شيء، ثم هو يفعل ذلك في الوقت الذي...».

فقاطعتني ناتاشا: «لا تلمه يا فانيا ولا تسخر منه! إنه لا يقاس بما يقاس به الآخرون. كن عادلًا! فهو ليس مثلي ومثلك. إنه طفل، وقد نشأ نشأة تخالف نشأتنا. أتحسبه يعي ما يفعل؟ إن أول ضغط يلقى عليه،

أول تأثير خارجي يفرض عليه، يكفي لصرفه عن كل ما كان قد آلى على نفسه في اللحظة السابقة أن يتمسك به، فهو رخو ضعيف لا متانة فيه ولا صلابة، فلقد يقسم لامرئ يمين الوفاء والولاء، ثم يهب نفسه في اليوم نفسه وبالإخلاص والصراحة نفسهما إلى امرئ آخر. ثم يكون هو أول مبادر إلى أن يقص بنفسه ما كان منه، بل إنه لقادر على أن يقترف إثمًا، ومع ذلك لا يسع المرء أن يغضب منه بسببه، وإنما يرثي لحاله على أكثر تقدير. وإنه لمستعد أيضًا أن يضحي بنفسه، أن يضحي إلى أقصى حدود التضحية! ولكن ضغطًا آخر يجعله ينسى كل شيء. ولذلك سينساني حين أكف عن ملازمته. أفهمت؟ هذا هو الأمر».

«ولكن قد لا يكون كل ذلك صحيحًا يا ناتاشا، بل لعله مجرد شائعات. فكيف يمكن أن يتزوج وهو لم يعد أن يكون طفلًا على النحو الذي تصفين؟».

«غير أني قلت لك: إن والده يرمي من ذلك إلى غرض خاص».

«ولكن كيف عرفت أن الخطيبة جد جميلة وأنه أصبح مفتونًا بها؟».

«لقد أنبأني هو نفسه بذلك».

«كيف؟ هو نفسه أنبأك أنه يحب سواك، ثم يسألك مثل هذه التضحية؟».

«كلا يا فانيا كلا! إنك لا تعرفه. إنك لم تلقه إلا قليلًا، يجب على المرء أن يعرفه أكثر من ذلك ليستطيع أن يحكم عليه حكمًا صحيحًا، فليس في العالم كله قلب أصرح ولا أنقى من قلبه، فماذا تريد إذن؟ فهل

كان من الخير أن يكذب عليّ؟ فأما أنه يعود فيهجرني سريعًا... إن ثمانية أيام يحتجب فيها عني لكافية لأن ينساني ويتعلق بسواي، حتى إذا ما رآني من جديد جثا ثانية بين يدي. كلا فالخير لي أن أعرف، وألا يخفي عني شيئًا وإلا مت من فرط الغيرة. ثق يا فانيا من أن هذا هو واقع الحال، فإذا لم أكن إلى جواره بلا انقطاع، في كل لحظة سلا هواي ونسيني ونبذني. إنه هكذا فطر، ينجذب إلى كل فتاة، فماذا عسى أن يؤول إليه أمري حينئذ؟ إنه يؤول إلى الموت... الموت وحده وأنا أتقبل الموت من الآن بسرور، فأما العيش بدونه فذلك شر من الموت وشر من جميع ضروب العذاب الممكنة! آه يا فانيا، يا فانيا. الآن تعرف لم هجرت أبي وأمي من أجله. لا تحاول أن تتحدث إليَّ أكثر من ذلك، فقد قضي الأمر. يجب أن أكون بجواره في كل ساعة بل في كل لحظة، لقد صرت لا أستطيع الرجوع. إني أعلم أني أحطم نفسي وأحطم آخرين معي..» ثم صرخت فجأة وقد اهتزت من فرعها إلى قدمها «أواه يا فانيا، لو أنه كان الآن قد كف عن حبي! لو أنك كنت مصيبًا فيما قلته اللحظة (على أني لم أكن قد قلت شيئًا من هذا القبيل) من أنه يخادعني وأنه ليس شريفًا ولا صريحًا إلا فيما يبدو لي، وأنه في حقيقته شرير طائش العقل، فبينا تراني الآن أحفظ غيبته، إذ هو في اللحظة نفسها يتخذ مني في حديثه مع الأخريات موضوعًا للسخرية واللهو... وأنا، أنا التعسة قد نبذت كل شيء لأهيم في الشوارع أبحث عنه... أواه يا فانيا!».

وانفجر من أعماق صدرها تأوه مفعم بالحرقة والألم حتى كاد قلبي ينفطر همًّا وغمًّا. فقد رأيت ناتاشا قد فقدت نهائيًّا كل سلطان لها على

نفسها، فلم يكن ليدفعها إلى مثل هذا العمل اليائس إلا غيرة حمقاء مضطرمة جامحة، بيد أن هذه الغيرة نفسها قد استعرت في جوانحي أنا أيضًا ومزقت قلبي، فصرت لا أملك نفسي وخامرني شعور قبيح.

فقلت: «ناتاشا. ثمة أمر لست أفهمه: كيف تستطيعين أن تحبيه بعد كل هذا الذي ذكرته عنه؟ إنك لا تشعرين بالاحترام له ولا تؤمنين بحبه لك البتة، ثم تقصدين إليه في طريق لا رجعة منها، فتحطمين نفسك والآخرين جميعًا من أجله؟ وماذا في النهاية؟ سيظل يعذبك مدى الحياة وستظلين تعذبينه. إنك تحبينه حبًّا جمًّا يا ناتاشا وأنا لا أستطيع أن أفهم حبًّا كهذا».

فقالت وقد شحب وجهها من فرط الانفعال: «أجل إني أحبه حبًّا جنونيًّا، أما أنت يا فانيا فإني لم أحببك قط مثل هذا الحب. إنني أعرف كل ذلك. أعرف أني فقدت الصواب والفطنة وأني أحبه لا كما ينبغي أن يكون الحب. أحبه حبًّا مرضيًّا... أرأيت يا فانيا؟ لقد فطنت إلى ذلك كله من قبل، بل كنت أستشعر حتى في أسعد أوقاتنا أني إنما أعد لنفسي عذابًا وآلامًا. ولكن ما حيلتي إذا كنت أجد في الآلام التي أقاسيها من أجله سعادة لي؟ أفكان ينبغي أن يكون ذهابي إليه لمحض السرور والسعادة؟ ألست أعلم تمامًا ما سأجده عنده وما أنا مضطرة إلى تحمله منه؟ أجل، لقد أقسم لي جهد الأيمان أن يقيم على حبي وما فتئ يؤكد لي ذلك، غير أني لا أثق بعهوده ولا أعتمد عليها. وكذلك كان شأني معه من قبل، مع يقيني أنه لا يكذبني، بل إنه ليعجز عن ارتكاب الكذب ولو مرة واحدة. وقد قلت له بنفسي، نعم قلت له أنا نفسي: إني لا أريد أن أقيده

بأية صورة، وذلك رحمة به، فالقيود ثقيلة على كل إنسان، وإني لأول من يكرهها، ومع ذلك أراني سعيدة أن أكون أمته المتطوعة لعبوديته عن طيب خاطر. وأن أحتمل منه كل شيء، على أن يظل معي، وعلى أن أستطيع أن أراه وأن أملأ منه ناظري. وإني لأرضى أن يحب فتاة سواي ما دام ذلك يحدث بعلم مني، وبذلك أشركه في الرأي». ثم قالت وقد نظرت إليَّ بعينين مضطرمتين حتى بدت كأنها محمومة: «ما أحقر ذلك يا فانيا، أليست الرغبة في مثل هذا أمرًا جديرًا بالرثاء؟ أليس كذلك؟ إني لأعرف هذا جيدًا. ولئن هجرني ونأى عني لاتبعته إلى أقصى الأرض، حتى عندما يعرض عني ويبغضني ويطردني. وأنت تنصح لي الآن أن أعود؟ وما الفائدة من ذلك، لئن عدت اليوم لرجعت إليه غدًا، فهو يأمر فأطيع، ويصفر مناديًا إياي كما ينادي الكلب فأهرول إليه، أما العذاب فإني لا آباه معه، فعندما أعلم أني أتألم من أجله.. أواه يا فانيا. ليس ذلك ما يستطاع تصويره بالكلمات!».

فقلت: «وأبوك وأمك؟» إذ بدا لي أنها نسيتهما تمامًا. ثم سألتها: «وإذن فهو لن يتزوجك يا ناتاشا؟».

«أما الوعد بذلك فلقد قطعه على نفسه. لقد وعدني بكل ما يمكن الوعد به، ولذا دعاني إليه اليوم لنعقد زواجنا غدًا خفية خارج المدينة، ولكنه لا يدري البتة ماذا يفعل، وربما كان يجهل كذلك كيف يتزوج الإنسان. وأي زوج سيكون هذا الزوج؟ سيكون زوجًا مضحكًا. أليس كذلك؟ لو أننا تزوجنا فعلًا لغدا شقيًّا تعسًا ولكال لي اللوم والتقريع... ولست أريد أن يوجه إليَّ لومًا على شيء في مستقبل الأيام... سأمنحه

كل شيء، أما هو فليس عليه أن يمنح أي شيء. أليس كذلك؟ إذا كان زواجه مني سيجعله غير سعيد، فلم أجعله غير سعيد؟».

فقلت: «ولكن ذلك جنون يا ناتاشا. أذاهبة أنت إليه الآن توًّا؟».

«كلا، فقد وعدني بالقدوم إلى هنا ليأخذني معه.. لقد تواعدنا..».

وأرسلت ببصرها بعيدًا، وإن لم يكن قد ظهر أحد بعد، فصحت منفعلًا:

«إنه أيضًا لم يأت حتى الآن، وكنت أنت أول القادمين». فارتعدت ناتاشا كأنما أصابتها لطمة شديدة، وتقلص وجهها من الألم.

وقالت، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة مرة: «لعله لن يأتي، مطلقًا فقد كتب إليَّ أول أمس بأني إن لم أعده بالحضور فسيضطر إلى إرجاء ما اعتزمه من زواجي إذ سيسوقه والده إلى الخطيبة التي سلف ذكرها، كتب كل ذلك في سذاجة تامة وعلى صورة طبيعية كما لو لم يكن في الأمر شيء أكثر من ذلك... فكيف تكون الحال يا فانيا لو أنه توجه إليها فعلًا؟».

ولم أجبها، فضغطت يدي بقوة وبرقت عيناها.

وهمست بصوت لا يكاد يسمع: «إنه عندها. لقد أمل أن أتخلف عن الحضور كي يتاح له الذهاب إليها، وأن يقول بعد ذلك لي إن الحق معه إذ إنه أخبرني مقدمًا بجلية الأمر، وأني مع ذلك لم آت. لقد صار يملني، ولهذا بقي هناك... آه يا رب. إني لمخبولة! لقد أخبرني بنفسه في المرة الأخيرة أني أضجره... ففيم الانتظار؟».

فصحت، وقد رأيته في المرفأ، من بعيد: «ها هو ذا!».

فارتجفت ناتاشا وانطلقت منها صيحة محمومة، وجمد بصرها نحو أليوشا وهو يقترب شيئًا فشيئًا، وأرسلت يدي فجأة وأسرعت نحوه، وأسرع هو أيضًا في خطاه وإذا هما يتعانقان. ولم يكن في الشارع أحد سوانا، فراحا يضحكان ويقبل كلاهما صاحبه، وكانت ناتاشا تمزج الضحك بالبكاء، كأنما كان ذلك لقاء بعد فراق طويل، وأشرق خداها الشاحبان بنوع من الحمرة، فأضحت كأنها في نشوة... وبصر بي أليوشا فأقبل عليَّ.

* * *

الفصل التاسع

نظرت إليه في انتباه وإن كنت قد رأيته كثيرًا من قبل، وأمعنت التحديق في عينيه، كأن نظراته قد تزيل جميع ما بي من حيرة، وتوضح لي كيف سحر هذه الطفلة ونفث فيها حبًّا جنونيًّا كهذا، حبًّا يجعلها تغفل عن أعظم واجباتها، بل تضحي بكل ما كانت تعده قبل ذلك مقدسًا. وأمسك الأمير بكلتا يدي وضغطهما بقوة وحرارة، ونفذت نظراته الصريحة الصافية إلى أعماق نفسي.

وأحسست أني ربما أكون قد أخطأت في حكمي عليه لمحض أنه خصمي. فقد كنت لا أحتمله. ولا بد لي من الاعتراف بأني لم أشعر يومًا بميل إليه، وربما كنت الوحيد في هذا من بين الذين عرفوه. لقد كانت فيه أشياء كثيرة تسخطني عليه وتنفرني منه، حتى مظهره المنمق، وربما كان ذلك لإغراقه في تنميقه ولشدة تكلفه. وقد تبين لي فيما بعد أني كنت متبعًا هواي في حكمي عليه. فقد كان مديد القامة ممشوق القد نامي الجسم، وكان وجهه البيضاوي الشكل يعلوه الشحوب دائمًا، وكان أشقر الشعر ذا عينين نجلاوين شهلاوين رقيقتين حالمتين يشع منهما في بعض الأحيان فجأة سرور بريء كسرور الأطفال، وكان لشفتيه الممتلئتين الحمراوين

الجميلتين الصغيرتين تعبير جدي رصين، وهذا ما كان يجعل الابتسامة الساذجة التي ترتسم عليهما تبدو أشد مباغتة وأقوى فتنة حتى ليحس من يرونها، على تباين أحوالهم النفسية، بالحاجة القاهرة إلى الإجابة عنها بابتسامة مثلها. وهو أنيق دائمًا وإن لم يكن لافتًا للنظر في لباسه إلى حد كبير، ويرى المرء، عدا ذلك، في جلاء أنه لم يتكلف لكل هذه الأناقة ولم يولها عناية خاصة، وإنما كان كأنه قد فطر عليها.

وكانت له، مع هذا بعض خلال سيئة، بعض العادات والطباع التي تلائم أبناء طبقته: الطيش والأثرة، وضرب مهذب من الوقاحة، بيد أنه كان في مقابل ذلك صريحًا طيب القلب. وكان هو أول من يدرك هذه النقائص في نفسه ويأسف عليها ويتخذ منها هدفًا للتهكم والسخرية. ويخيل للمرء أن هذا الطفل لا يستطيع الكذب ولو كان مازحًا، فإن ارتكبه مرة، فعن عدم فطنة ولا إلى ما فيه من سوء، بل إن في أثرته شيئًا جذابًا، كان مبعث ذلك تظاهره بها في صراحة، إذ لم يكن به شيء مطوي البتة. كان ضعيف البنية ضعيف الشخصية في آن واحد، سريع الثقة بالناس، خجولًا خائر الهمة، فكانت الإساءة إليه والنيل منه يبدوان خطيئة تماثل خطيئة الإساءة إلى طفل والنيل منه. وكان بالقياس إلى من في سنه غمرًا لا يفهم شيئًا من شؤون الحياة الحقة. وأحسب أنه حين يبلغ الأربعين من عمره لن يكون قد فهم الكثير منها، فقد كتب على مثله أن يظل على الأيام قاصرًا، وأحسب أنه لا يتأتى لأحد، أن يقدم على مقاومته والتصدي له بالخصومة، فهو يتملق الجميع تملق الأطفال. وقد أصابت ناتاشا، فإنه لحري أن يقترف إثمًا إذا دفعه إليه تأثير أجنبي قوي، حتى إذا ما رأى عاقبة

فعلته غمره اليأس وأورده مورد التلف. وقد أحست ناتاشا بغريزتها أنها سيدته ومالكة أمره، وأنه سينتهي إلى أن يكون فريستها، واندفعت سلفًا في شعور لذيذ بأنها ستحبه حبًّا تفقد معه وعيها، وبأنها ستعذبه لمحض أنها تفرط في حبه، وربما كان ذلك أيضًا مصدر شعورها بضرورة أن تبدأ هي بالتضحية بنفسها في سبيله.

وكانت عيناه هو أيضًا تشعان غرامًا وتعرب نظراتهما عن شعور الابتهاج والافتتان، فنظرت إليَّ نظرة المنتصر، ونسيت في تلك اللحظة كل شيء: الوالدين، الوداع، الغيرة... لقد كانت سعيدة.

وصرخت قائلة: «فانيا، لقد أجرمت إليه ولست جديرة به!» وأضافت وقد رنت إليه في تدله لا حدّ له قائلة: «لقد ظننت أنك لن تأتي يا أليوشا. انس هواجسي الآثمة يا فانيا، وسأصلح كل شيء!».

فابتسم أليوشا، ولثم يدها، واستدار إليَّ وهو لا يزال ممسكًا بها، وقال بصوت خافت وقد احمر وجهه قليلًا: «ولعلك لا تسارع أنت أيضًا إلى لومي، فقط طالما رغبت في قرارة نفسي أن يكون في وسعي معانقتك عناق الأخ، وطالما تحدثت ناتاشا إليَّ عنك، ونحن مع هذا نكاد نكون غريبين كأن أحدنا لم ير الآخر طوال هذا الزمن، بل كأنه لم يتعرف أحدنا إلى صاحبه، فكن صديقنا واصفح عنا!» وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة المتملقة حتى إني لم أستطع إلا أن أرد تحيته بأحسن منها.

وقالت ناتاشا تؤيده: «أجل، أجل يا أليوشا، فإنه أخ لنا، وقد صفح عنا بالفعل، ولن نحظى بالسعادة من دونه، وقد أفضيت إليك بهذا من قبل... أواه يا أليوشا، إننا لأطفال قساة! لنعش معًا نحن الثلاثة..» ثم

تابعت القول وقد ارتعش صوتها: «اذهب الآن إليهما في المنزل فإن لك قلبًا ذهبيًّا فإن لم يستطيعا أن يصفحا عني فسيريانك قد صفحت، فلعل ذلك يخفف من سورتهما بعض الشيء. أنبئهما بكل شيء، بكلماتك تلك التي تنطلق من قلبك، وستواتيك الكلمات الصالحة المرغوبة... تولني بحمايتك، أنقذني، ابسط لهما كل ما لديّ من دوافع وأسباب كما فهمتها أنت. أتدري يا فانيا! لعلي ما كنت وطدت العزم في هذا اليوم لو لم تأت أنت مصادفة، فقد كنت معقد آمالي الوحيد: كنت أعول على معونتك وأؤمل أن تتعهد المسألة بعنايتك حتى لا تكون الصدمة قاسية عليهما... رباه رباه!... قل لهما، يا فانيا، إني كنت أعلم أني لن أحظى بالغفران مطلقًا، وإن هما اغتفراها لي فإن الله لن يغفرها، وقل لهما إنهما إن صبا عليَّ جام لعنتهما فسأظل أستمطر لهما شآبيب البركة أبدًا، وأصلي من أجلهما ما دمت حية. وإن قلبي معهما!». وهتفت فجأة: «لهف نفسي لم لا نستطيع أن نعيش جميعًا سعداء معًا؟ لم لا، لم لا؟ أي ربي، ماذا أتيت؟» وكأنما قد بدا لها ذلك جليًا للمرة الأولى، واقشعر بدنها فزعًا ولطمت وجهها بيديها، فاحتضنها أليوشا صامتًا وضمها إلى صدره بقوة. ومرت فترة صمتنا فيها جميعًا.

فقلت له وأنا أحدجه بنظرات اللوم والعتاب: «كيف استطعت أن تطلب إليها تضحية كهذه؟».

فقال مكررًا: «لا يسؤ حكمك عليَّ. وإني أؤكد لك أنه مهما يحزب المرء من كرب في وقت ما، فما أسرع ما يسري عنه، وإني لعلى ثقة بذلك، على أنه ينبغي أن يكون لدى المرء من الحزم والشجاعة ما يجتاز

به ذلك الوقت، وذلك ما قالت هي لي. إنك تعلم أن كل ما نحن فيه ليس له من سبب إلا العصبية الأسرية، إلا هذا النزاع الذي لا معنى له، تلك القضية التي... ولكن صدقني، لقد فكرت طويلًا في وجوب أن ينتهي كل ذلك يومًا ما، وعندئذ سنأتلف جميعًا من جديد وتغمرنا السعادة حقًّا. بل إن والدينا سوف يتصافيان ابتغاء مرضاتنا، ومن يدري لعل قراننا يكون باعثًا على مصافاتهما؟ وأنا أعتقد أن ليس هنالك من حل آخر، فماذا ترى أنت؟».

فسألته وقد نظرت إلى ناتاشا: «إنك تتحدث عن قرانكما، فمتى تود أن يكون ذلك؟».

«غدًا أو بعد غد على الأكثر، هذا أمر مقطوع به. انظر فأنا نفسي لا أعرف كثيرًا عن ذلك الأمر. وأعترف جهرة أني لم أخط أية خطوة في هذا السبيل، فقد ظننت أن ناتاشا قد لا توافيني اليوم. فوق ذلك فقد أصر والدي على أن يقودني اليوم إلى خطيبتي (فإنه يريد تزويجي، ولعل ناتاشا قد أنبأتك بذلك، أما أنا فلا رغبة لي في ذلك الزواج، أرأيت؟ ولذلك فإني لم أتمكن من أن أبت في شيء، ولكن بكل تأكيد سيكون قراننا بعد غد، إني أرى ذلك خير ما يعمل ولا صلاح في غيره، وسنولي وجوهنا غدًا شطر «بسكوف» حيث أعرف في الريف القريب منها صديقًا كان زميلي في الدراسة الثانوية، وهو شاب ظريف قد تتهيأ لك معرفته فيما بعد. وسنجد في القرية قسًّا. على أني لست على يقين من أن في القرية قسًّا، وقد كان عليَّ أن أستوثق من ذلك، غير أنه لم يدر بخلدي أن أفعل... ولكن كل هذه مسائل في المرتبة الثانية.

وعلى المرء دائمًا أن يضع الموضوع كله نصب عينيه، ففي استطاعتنا، على أسوأ التقديرات، أن نستدعي قسًّا من القرية المجاورة. ألا تظن ذلك؟ لا بد أن يكون ثمة قرية ما في تلك الأرجاء. على أنه مما يؤسف حقًّا أنه لم يخطر لي أن أبعث إلى صديقي بسطرين من قبل، فقد كان عليَّ أن أنبئه بالأمر، إذ من المحتمل ألا يكون بمنزله في هذه الأيام... بيد أن هذا من الأمور التي لا خطر لها، فإنما يجب أن يجمع المرء أمره أولًا! وكل ما بقي سيحل بطبيعته. أليس كذلك؟ أما هي فستقيم عندي هذه الفترة إلى غد أو بعد غد.

وقد اكتريت مسكنًا خاصًّا لنقيم فيه عقب عودتنا، فإنني لا أستطيع أن أستمر على المقام عند والدي. أليس كذلك؟ وآمل أن تزورنا! فقد أثثت المسكن تأثيثًا حسنًا. وسيزورني هناك كل أصدقائي وسأقيم حفلات...».

فنظرت إليه في دهش وأسى. ورنت إليَّ ناتاشا ضارعة ألا أقسو عليه في الحكم، وأن أكون معه رفيقًا متسامحًا. وكانت تستمع إلى ثرثرته في ابتسامة حزينة، ولكنها كانت في الوقت نفسه مفتونة به فتنة المرء بطفل جذل محبوب حين يستمع إلى لكنته العذبة التي لا تفهم، فنظرت إليها لائمًا وأحسست كدرًا يجل عن الوصف.

ثم سألته: «ووالدك؟ أأنت واثق من أنه سيصفح عنك؟».

«لا يخالجني في ذلك أي شك، وإلا فماذا عسى أن يفعل غير ذلك؟ سيلعنني ولا ريب في بادئ الأمر، وهذا ما أنا على ثقة منه، فتلك شيمته دائمًا. وهو يعاملني- بوجه عام- بصرامة بالغة، وقد يعمد إلى إرغامي

على عمل ما يريد أو يلجأ إلى سلطانه الأبوي... على أنه لا ينبغي أن ننظر إلى مثل تلك الأمور نظرة جدية، فهو يحبني إلى أبعد مدى، وسيسخط ويغضب ولكنه سيعفو ويصفح آخر الأمر، وإذ ذاك يتصافى الجميع ونعيش جميعًا سعداء، وكذلك المآل مع والد ناتاشا».

«فإذا لم يصفح عنك؟ أفلم تفكر في إمكان ألا يصفح؟».

«سيصفح حتمًا ولو طال به الأمد. وماذا يضيرنا التأخير؟ سأريه أنني أنا أيضًا لي إرادة. إنه يرميني بلين الخلق وخفة العقل ويجرعني من أجل ذلك مرارة اللوم والتعنيف، فلير إذن ما إذا كنت ضعيف العقل أنا أم لا، فإن الزواج ليس من ألاعيب الصبية، أجل، لم أعد بعد غلامًا حدثًا، ولكنني.. أعني... أقصد أن أقول... ينبغي لي أن أكون مثل الآخرين، الآخرين المتزوجين، فأعيش بكدي وكدحي. وناتاشا أيضًا تقول إن هذا خير من المعيشة في كفالة آخر، أي كما عشنا نحن حتى اليوم. ليتك تدري كم قبست منها من أحاديث طلية جميلة فبدونها لم يكن ليخطر لي خاطر من هذا القبيل، إذ إني لم أنشأ على هذه الآراء.

لقد ربيت على نمط آخر. نعم إني أعرف أني قليل الحيلة طائش اللب لا أكاد أصلح لشيء، ولكن أتدري؟ لقد بدا لي أول من أمس رأي رائع نعم إن هذه الساعة غير ملائمة لبسطه بين يديك، غير أنه لا بد لي من ذلك إذ يجدر بناتاشا أن تنصت أيضًا إلى هذا الرأي. ويسرني أن تعينني بمشورتك. وإذن فأصغ لما أقول: لقد اعتزمت أن أكتب القصص وأبعث بها إلى المجلات كما تصنع أنت. أليس كذلك؟ وستؤازرني أنت لدى رؤساء التحرير، فقد حسبت حساب معاونتك في هذا الصدد.

وأجهدت ذهني طوال ليلة أمس في إحدى القصص على سبيل التجربة. أتدري؟ قد تنتهي إلى قصة ظريفة حقًّا. وقد اقتبست موضوعها من مسرحية مضحكة للكاتب «سكريب»... سأسرد عليك تفاصيلها فيما بعد. أما المهم فهو أني سأحصل في مقابلها على المال... كما حصلت أنت أيضًا على المال!».

فلم أملك إلا أن أبتسم..

فقال وقد ضحك هو أيضًا: «إنك تضحك مني» ثم أضاف في براءة يقصر دونها الوصف «كلا، فاستمع إلي. ليس لك أن تحكم عليَّ بما يبدو لك مني في النظرة الأولى، فإنني في الواقع قد أوتيت حظًّا من قوة الملاحظة قلما توافر لأحد غيري، وهذا ما ستقتنع به أنت نفسك، فماذا يمنع إذن من المحاولة والتجربة؟ وعسى أن يتاح لي إخراج عمل جليل... ولكن قد يكون الحق معك، فأنا لا أفهم من الحياة الحقة إلا القليل، طالما قالت لي ذلك ناتاشا وقاله كذلك آخرون، فكيف لي إذن أن أكون كاتبًا؟ اضحك ما شئت، اضحك مني ولكن عليك أن تصلح ما بي من النقص، فتكون أيضًا قد أرضيتها وأسديت إليها جميلًا. وإني أعترف لك في صراحة تامة أنني لست لها بأهل، وأحس ذلك جيدًا فيثقل هذا الإحساس كاهلي ولست أدري في الواقع ما الذي يجعلها تغرم بي إلى هذا الحد، على أني مع هذا تطيب نفسي أن أبذل في سبيلها حياتي دون تريث أو تبصر. نعم، لم يحدث لي حتى هذه اللحظة أن حزبني هم من الهموم. أما الآن فإني أحس الخوف يتملكني: فماذا عسانا أن نفعل؟ هل كتب على من يقف جسده وروحه على واجب من الواجبات ألا يجد

القدرة وقوة المثابرة على القيام بهذا الواجب؟ إذن فكن أنت على الأقل معوانًا لنا، أنت يا صديقنا! إنك أنت الصديق الوحيد الذي بقي لنا، وإلا فما أستطيع وحدي أن أفعل؟ ولا تؤاخذني إذا كنت تراني أعتمد عليك إلى هذا الحد، فإني أعتبرك أفضل مني وأنبل، وأعدك بأني سأصلح من أمري لأكون أهلًا لك ولناتاشا».

وهنا ضغط على يدي ثانية، وشع من عينيه الصافيتين شعور نبيل جميل. لقد بسط إليَّ يده وكله ثقة بي، وهو يعتقد اعتقادًا جازمًا أني صديقه!

ثم أردف يقول: إنها ستعينني على أن أكون شخصًا أرقى مما أنا عليه الآن، وأرجو ألا تسيء بنا الظن وألا تغتم لمستقبلنا، فإنني واسع الأمل. أما الناحية المادية، فنحن من أمرها في مأمن، فإذا لم تسفر قصتي عن شيء مثلًا (وإني لأعترف في صراحة أنني قد أدركت الآن أن مسألة هذه القصة ليست إلا سخافة وإنما خبرتك بها لأتبين رأيك في الموضوع) وإذن، فإذا لم تسفر قصتي عن شيء، فإنني أستطيع عند الحاجة أن أكون معلم موسيقى. أتعرف أني مولع جدًّا بالموسيقى؟ ولن أخجل من تحصيل القوت عن طريق هذا العمل، فإن آرائي في هذه الشؤون تقدمية للغاية. ولدي عدا ذلك كثير من الطرف الثمينة كأدوات الزينة والطيب ونحو ذلك، فلماذا أبقي عليها؟ سأبيعها. وصدقني أننا سنستطيع العيش بثمنها زمنًا طويلًا. وإذا اضطررت بعد ذلك فسألتحق بمنصب من مناصب الدولة، بل إن هذا ليسر والدي سرورًا عظيمًا، فقد كانت تلك أمنيته منذ زمن بعيد، ولكني كنت أعتذر له حتى الآن بضعف

صحتي (وعلى أية حال فإني مرشح لأحد المناصب) إذا ما تبين والدي ما جلبه الزواج علي من خير، وأنه هو الذي خلق مني شخصًا عاقلًا رزينًا. وكان سببًا في التحاقي بخدمة الدولة، فرح وابتهج وصفح عنا جميعًا».

«ولكن هل فكرت أيضًا يا «ألكساي بتروفتش» فيما يوشك أن يحدث بين والدك ووالد ناتاشا؟ وهل تتصور ما سيحدث مساء اليوم في بيت والديها؟ وأومأت نحو ناتاشا التي امتقع لونها عند استماع كلماتي امتقاع الموتى. فقد كنت خلوًا من الرحمة والشفقة.

فأجابني: «أجل. أنت محق، فهو أمر فظيع. وقد كنت دائم التفكير فيه، وعانيت من هوله ما عانيت... ولكن ما جدوى ذلك؟ أنت مصيب، فلو أن والديها يصفحان عنا، على الأقل... ليتك تعلم مدى ما أكن لهما من حب. لقد كانا لي بمنزلة الأب والأم، ثم هأنذا أقترف نحوهما هذا الجرم.. آه من هذا النزاع المستمر، من هذه القضية الأبدية! إنك لا تتصور مقدار ما لهذه الأشياء من فظاعة في أنفسنا! وعلام يتنازعان! نحن جميعًا يحب كل منا صاحبه، ومع ذلك نتنازع! ليتهما يتصافيان ويضعان حدًّا لهذه الشرور! حقًّا، لو كنت مكانهما لفعلت ذلك... إن كلماتك قد أوقعت في قلبي الرعب. ناتاشا، إن ما نحن قادمان عليه أمر فظيع ولقد كنت أقولها منذ هنيهة... بل لقد اعترفت بذلك أنت نفسك... استمع يا إيفان بتروفتش، قد يستحيل كل شيء إلى ما فيه الخير والصلاح. ألا تظن ذلك؟ ومهما يكن من شيء فسوف يتصافيان ذات يوم. فلنصلح نحن ذات بينهما. أجل، ذلك ما يجب علينا أن نفعله، ولن يكون في وسعهما بعد ذلك أن يقفا في سبيل غرامنا.

فليصبا علينا ما شاءا من لعناتهما، أما نحن فسنظل على حبنا لهما، ولا بد أن يقتنعا في نهاية الأمر. أنت لا تدري ما ينطوي عليه قلب أبي من طيبة ورقة، ولئن بدا عابسًا مقطبًا في أكثر أحواله فإنه في بعض الأوقات يبدو لطيفًا ظريفًا إلى غير حد. آه لو دريت ما كان عليه اليوم من لين ورقة في حديثه إليَّ وهو يحاول إقناعي، فإذا بي اليوم عينه أعصيه وأعارض أفكاره. ما أكثر ما يشق عليَّ ذلك ويحزنني. وكل ذلك من جريرة هذا التحامل الذميم وسوء الظن! الواقع أن ذلك ليس إلا نوعًا من الخبل! ولو أنه رأى ناتاشا مرة واحدة، لو أنه اجتمع بها نصف ساعة لأقر كل شيء». ونظر إلى ناتاشا نظرة محزونة فيها حنان وشغف.

ثم استمر في ثرثرته يقول: «لقد تخيلت ألف مرة، من فرط سروري، ما سيشملها به من حب عظيم عندما يعرفها، وما سيخامرهم جميعًا من إعجاب بها، فليس فيهم من سبق أن رأى فتاة مثلها! يعتقد والدي أنها دساسة ماكرة. فعليَّ أنا أن أرد لها شرفها وكرامتها. وسأفعل. آه يا ناتاشا! سيحبونك كلهم. فما من أحد يراك إلا رأى نفسه مرغمًا على حبك». ثم تابع القول متحمسًا: «وإني وإن لم أكن جديرًا بك تمام الجدارة... فإن عليك أن تمنحيني حبك يا ناتاشا. وهكذا سيكون حالي أنا الآخر... إنك تعرفينني! فما الذي ينقصنا بعد لتكتمل سعادتنا؟ إني لأعتقد اعتقادًا راسخًا أن هذه الليلة ستضفي علينا جميعًا ثوب السعادة والوئام. فلتكن مباركة هذه الليلة! أليس كذلك يا ناتاشا؟ ولكن ماذا بك؟ رباه، ماذا ألم بك؟».

كانت ناتاشا شاحبة شحوب الموتى، وكانت لا ترفع بصرها عن أليوشا طول الوقت الذي يثرثر فيه، بيد أن نظراتها كانت تزداد على مرور

الوقت اكتئابًا وتحديقًا. وكان وجهها يزداد شحوبًا.

وكان يبدو لي أنها لا تسمع كلمة واحدة مما يقال، وأنها في حالة لا تعي معها شيئًا. وقد نبهها هتاف أليوشا فذعرت وأجالت بصرها فيما حولها ثم ارتدت فجأة نحوي، وبسرعة تنبئ عن عجلة شديدة ورغبة قوية في إخفاء الأمر عن أليوشا، انتزعت رسالة من جيبها ودستها بين يدي. كانت رسالة إلى والديها كتبتها في اليوم السابق. وقد رنت إليَّ وهي تسلمني الرسالة بنظرة نافذة، كأنها كانت تريد بها أن تقيدني إليها إلى الأبد. كانت نظرة يائسة لن أنساها حياتي. فتولاني ذعر لا حد له، ورأيت أنها أدركت في تلك اللحظة مدى ما فيما أزمعت من خطر. وأرادت أن تقول لي شيئًا، ولكنها لم تكن تبدأ كلامها حتى خرت مغشيًا عليها، فسارعت بالإمساك بها قبل أن تسقط على الأرض. وامتقع وجه أليوشا فزعًا وشرع يفرك صدغيها ويلثم يديها وثغرها، وأفاقت بعد دقيقتين. وكانت المركبة التي قدم فيها أليوشا لا تزال على مقربة منا، فنادى الحوذي. وعندما اعتلت المركبة قبضت على يدي مرة أخرى، قبضة اليائس، وسقطت من عينها دمعة حارة على أناملي. وانطلقت المركبة ولبثت مكاني فترة طويلة أتبعها بنظري. لقد توارت سعادتي إلى الأبد، تحطمت حياتي وتبددت، لقد أحسست ذلك وأصبحت منه في ألم عميق... وعدت أدراجي ميممًا شطر الهرمين، دون أن أعرف كيف ألقاهما، ولا ما ينبغي أن أقول لهما، فقد كان ذهني وكأنه قد همد، وقدماي، وكأنهما قد قدتا من رصاص...

تلك هي قصة سعادتي كاملة، وهذه هي خاتمة غرامي. وسأعود الآن فأستأنف سرد القصة التي كنت قد بدأتها.

الفصل العاشر

انتقلت إلى مسكن «سميث» بعد وفاته بنحو خمسة أيام. وظللت سحابة ذلك اليوم منحرف المزاج. فقد كان الجو رطبًا باردًا والسماء تمطر بردًا تتخلله قطرات من المطر. ولم تظهر الشمس من خلال السحب إلا لحظة واحدة قبيل المغيب، فأطل شعاع تائه من أشعتها على غرفتي أيضًا، ولعل ذلك لم يكن إلا بدافع الفضول، فندمت على انتقالي إلى هذه الغرفة، فهي- وإن تكن رحبة الجنبات- قد كانت متطامنة السقف ملوثة بالسناج، ينبعث منها نتن يزكم الأنوف، وهي على ما فيها من أثاث قليل تبدو مقفرة موحشة. وأدركت أني سأفقد في هذا المسكن ما بقي لي من صحة. وذلك ما كان.

قضيت ذلك الصباح كله مع أوراقي أراجعها وأرتبها، ذلك أني كنت قد نقلتها إلى المسكن الجديد في كيس وسادة إذ لم تكن لدي حافظة رسائل، فتشتت الأوراق واختلط بعضها ببعض. وجلست بعد ذلك للكتابة، حيث كنت لا أزال مشتغلًا بوضع قصتي الكبيرة، غير أني لم أجد في نفسي القدرة على متابعة العمل فيها، فقد كانت تجيش برأسي أمور أخرى.

ألقيت باليراعة وجلست إلى النافذة، وكان الظلام قد أخذ يلقي رواقه على الكون، وكذلك راحت نفسي تزداد ظلامًا وأخذت تساورها هواجس ثقيلة تلقي كلها في روعي أن مقامي في بطرسبورج سيسارع بي إلى الهلاك لا محالة. وكان الربيع يوشك أن ينبسط على الكون، ففكرت في جمال الحياة التي سأحياها لو أني بادرت فغادرت هذه الجدران الضيقة إلى الطبيعة الطلقة التي سواها الله، فأستطيع أن أستروح نسمات الأريج المنعش في الغابات والحقول الخضراء التي لم أرها منذ عهد بعيد... ثم قلت في نفسي: «ما أبدع ما لو استطعت بمعجزة أو برقية سحرية أن أنسى دفعة واحدة كل ما حييته في السنوات الأخيرة، لو استطعت نسيان كل ما حدث لأبدأ الحياة من جديد بروح مبتهج وقوى فتية جديدة. كنت إذ ذاك أحلم بمثل هذه الخواطر وآمل أن أبعث من جديد، ووددت لو أنهم، على الأقل، مضوا بي إلى مستشفى المجاذيب فأداروا مخي في رأسي ووفروا لي أسباب الراحة والدعة لأرجع سليمًا معافى. فقد كنت لا أزال أهيم بحب الحياة ولا أزال أومن بها!... على أني وجدت نفسي بعد ذلك أقهقه عاليًا، فماذا عسى أن أبدأ به بعد أن أخرج من مستشفى المجاذيب؟ أأعود إلى كتابة القصص مثلًا؟

وانقضى الوقت وأنا فريسة لهذه الهموم والهواجس، وجن الليل، وكنت قد عاهدت ناتاشا أن ألقاها في تلك الليلة، كانت قد كتبت إليَّ في اليوم السالف تلحف في الرجاء أن أحضر، فنهضت مزمعًا أن أذهب إليها، كما كنت راغبًا في مغادرة المسكن بأسرع ما يمكن، إلى أية جهة، ولو تحت وابل من المطر أو وسط الأوحال.

وكانت غرفتي تتسع وتزداد اتساعًا كلما ازداد الظلام حلكة، فكأنها كانت تمتد وتتباعد جدرانها. وهجس في مخيلتي أنني سأرى هنا في كل ليلة وفي كل ركن من أركان الغرفة «سميث» الهرم جالسًا وأزركا عند قدميه، فيمسي يحدق إليَّ كما حدق إلى آدم إيفانوفتش في محل الحلواني. وقد تصادف أن حدث في تلك اللحظة شيء أثارني وأهاجني.

ومهما يكن من شيء فلا معدى من الاعتراف في صراحة بأنني قد كنت- سواء أكان ذلك بفعل الأعصاب المريضة أم التأثيرات التي انطبعت في ذهني في المسكن الجديد، أم من جراء انقباض النفس الذي تولاني في الأيام الأخيرة- قد كنت على أية حال أظل كلما دنا الغروب، أدنو من الوقوع في تلك الحالة النفسية التي صارت تستحوذ عليَّ الآن فترات متعددة في ليالي مرضي، والتي أحب أن أسميها «بحالة الفزع المبهم»، ذلك هو الفزع المبرح القاتل من شيء لا أستطيع أنا نفسي أن أدرك كنهه حق الإدراك، من شيء غير مفهوم مطلقًا ولا وجود له البتة في النظام الطبيعي للأشياء، ولكنه مع ذلك لا سبيل إلى رده ودفعه، وقد يتمثل لحظة في شكل من الأشكال كما لو كان يسخر من منطق العقل، فيتقرب مني هذا الشبح ويمثل أمامي وكأنه حقيقة محتومة فظيعة مروعة لا تلين ولا ترحم، ويظل هذا الفزع عادة يقوى ويقوى مع كل ما يقابله به العقل من إنكار، حتى تصير القوة المفكرة آخر الأمر- مهما بلغت من الصفاء والجلاء في تلك اللحظة- مسلوبة القدرة على مقاومة ما يساور النفس من الأحاسيس، فلا تجد من النفس إصغاء بل يصبح وجودها أمرًا لا غناء فيه.

ومن شأن هذا النزاع الداخلي أن يزيد في حدة العذاب المروع، عذاب التوقع والانتظار. إن أولئك الذين يفرقون من جثث الموتى يشعرون، على ما أظن، بخوف من هذا النوع، أما أنا فإن قصوري عن إدراك كنه هذا الخطر يزيد من آلامي حتى تبلغ أقصى مداها.

ولا أزال أذكر أني كنت واقفًا موليًّا وجهي شطر الباب، فتناولت قبعتي من فوق المنضدة، وإذا بفكرة تهجس في نفسي، هي أنني لو استدرت الآن إلى الناحية الأخرى لألفيت سميث الهرم منتصبًا، يفتح الباب في رفق ولين أول الأمر ويقف بالعتبة يجيل نظراته في الغرفة، ثم يلج في هدوء مطأطئ الرأس فيقصد إليَّ ويتجه نحوي بحدقتيه اللتين خبا بريقهما ثم ينفجر فجأة يقهقه في وجهي قهقهة لا جرس لها تنطلق من فم أدرد، فيهتز لها جسمه ويترنح ذات اليمين وذات الشمال.

ولقد انطبع هذا التصور في ذهني بوضوح وجلاء غير عاديين فصرت أعتقد اعتقادًا راسخًا أن ذلك كله لا بد أن يحدث في التو، بل إنه حدث فعلًا، وإنما أنا الذي لم أبصره لأني كنت موليًّا ظهري شطر الباب، فمن الجائز أن يكون الباب قد فتح فعلًا. واستدرت بغتة إلى خلف، فماذا رأيت؟ رأيت الباب ينفتح حقًّا بصوت خافت لا يكاد يسمع، وكان ذلك على نحو ما تصورته تمامًا منذ لحظة. فصرخت وظللت هنيهة لا أرى أحدًا، كأنما كان الباب ينفتح من تلقاء نفسه، بيد أنه حدث بغتة أن ظهر على عتبته كائن عجيب، رأيت، على قدر ما كنت أستطيع التمييز في الظلام، أنه يسدد إليَّ نظره دون أن يحوله عني، فعرتني قشعريرة باردة ورأيت لفرط دهشي أن هذا الكائن لم يكن إلا طفلة صغيرة. ولو أنه

كان سميث نفسه لما استطاع أن يفزعني مثلما أفزعني ظهور هذه الطفلة الغريبة على هذا النحو العجيب في غرفتي على غير انتظار، وفي هذه اللحظة بالذات.

قلت إنها فتحت الباب بصوت خافت وفي تمهل كما لو كانت تخشى الدخول، فلما لاحت في النهاية ظلت فترة طويلة واقفة بالباب تنظر إليَّ في دهش غير محدود كأنها قد تحجرت. ثم خطت نحوي بضع خطوات في حياء وخجل، ولبثت واقفة أمامي لا تنبس ببنت شفة فنظرت إليها مليًا فإذا هي فتاة في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها قميئة الجسم نحيلة شاحبة اللون كما لو كانت لا تزال تعاني آثار مرض شديد، وذلك ما كان يزيد في بريق عينيها الكبيرتين السوداوين. وضمت بيدها اليسرى فوق صدرها أطراف خمار رث كانت قد لفته حول منكبيها اللذين كانا لا يزالان يرتعشان، لتقيهما برد الليل، أما سائر ملابسها فلا يمكن وصفها إلا بأنها أطمار بالية. وكان شعرها الأسود الكثيف متشعثًا غير مرجل، وهكذا ظل كلانا واقفًا لحظة أمام الآخر صامتًا يتفحصه بعينيه.

ثم قالت في النهاية بصوت مبحوح لا يكاد يسمع كأن بحلقها غصة: «أين جدي؟».

فتبدد مني الفزع المبهم. ها هم أولاء يسألون عن سميث، وإذن فقد عثرت فجأة على أثر من آثاره.

فأجبت على غرّة ولم أكن متهيئًا لهذا السؤال مطلقًا «جدك؟ ولكنه قد مات!» ولم ألبث أن ندمت على هذا الجواب. أما هي فلبثت واقفة

هنيهة على هذا الوضع ثم أخذ جسدها يهتز من فرط الارتعاش، كأنما أصابتها نوبة عصبية حادة، فاضطررت أن أمسك بها خشية أن تقع. وتحسنت حالها بعد لحظة. وقد استطعت أن أرى في جلاء كيف كانت تحاول بكل قوتها أن تسيطر على نفسها وأن تكتم عني اضطرابها.

فقلت لها: «سامحيني، سامحيني يا طفلتي، فقد قلت ما قلت عن غير روية، وربما كان الذي أعنيه غير جدك... يا لك من مسكينة! فعمن تبحثين؟ أعن الهرم الذي كان يقطن هنا؟».

فهمست في مشقة : «أجل» ونظرت إليّ جازعة.

«وهل كان يدعى سميث؟ أجل؟».

«أجل!».

«إذن فإنه هو.. لقد مات.. ولكن لا تعبسي هكذا يا طفلتي الطيبة! ولِمَ لَمْ تأتي قبل الآن؟ ومن أين أنت آتية؟ لقد ووري التراب أمس، فقد مات فجأة، ولم يكن ذلك متوقعًا... أنت حفيدته ولا شك؟».

ولم تجب الطفلة عن أسئلتي المرتبكة المتتابعة، واستدارت في صمت وزايلت الغرفة، وكنت ذاهلًا حتى لم أستطع استبقاءها لأتابع سؤالها عن معلومات أخرى، بيد أنها وقفت مرة أخرى على عتبة الباب وسألتني وهي مستديرة إليَّ بعض الاستدارة:

«وأزركا، هل مات هو أيضًا؟».

فأجبتها: «أجل فقد مات أزركا أيضًا» وبدا لي سؤالها عجيبًا، فكأنما كانت مقتنعة أن أزركا سيلقى حتفه مع جدها في ساعة واحدة.

وما إن تلقت الصغيرة جوابي حتى برحت الغرفة دون أن تحدث صوتًا، وأغلقت الباب وراءها بتؤدة واحتراس.

ولبثت مكاني هنيهة ثم انطلقت في إثرها. وبلغ مني التأثر مبلغه لتركي إياها تنصرف. لقد كانت تسللت في هدوء حتى إني لم أسمع صوت الباب الخارجي المؤدي إلى السلم وهي تفتحه. وجال بذهني أنها لا يمكن أن تكون قد قطعت الدرج بعد إلى أسفل، فلبثت واقفًا في مدخل الدار مرهفًا أذني، غير أن الهدوء كان لا يزال شاملًا، ولم أسمع خفق خطى، ثم سمعت صوت باب يغلق بعنف في الطبقة السفلى، وشمل الهدوء كل شيء من جديد.

وهبطت في الدرج مهرولًا. وقد كان هناك سلم حلزوني يصل بين الطبقة الخامسة التي أقطنها والطبقة الرابعة. ومن هذه يبدأ الدرج وهو درج خلفيّ قذر دائم الظلمة من النوع الذي يكون غالبًا في دور الكراء الكبيرة التي يحوي كل منها عدة مساكن صغيرة. وهكذا كان ذلك المكان شديد الظلمة إذ ذاك، فأخذت أتلمس طريقي حتى بلغت الطبقة الرابعة، و هناك وقفت فجأة دون حراك يخامرني شعور غامض أن ثمة شخصًا يتوارى مني في منعطف الدرج، فتحسست الجدار فإذا بالفتاة ماثلة في أقصى الركن وقد ألصقت وجهها بالجدار وأخذت تنتحب في هدوء وبلا صوت.

فقلت لها: «اسمعي، مم تخافين؟ ربما كنت أنا السبب في ذلك، فقد أفزعتك. لقد ذكرك جدك وهو يلفظ نفسه الأخير، فكان حديثه عنك آخر منطقه. ولقد ترك وراءه هنا كتابين فهما ملك لك الآن، فما اسمك؟

وأين تقطنين؟ لقد قال في الشارع السادس...».

على أني لم أستطع أن أتم الحديث فقد صرخت صرخة مدوّية، مبهوتة على الراجح لمعرفتي مقرّ سكنها، ودفعتني إلى الوراء بيدها النحيلة اليابسة وانطلقت نازلة تنهب الدرج عدوًا، فأسرعت وراءها حيث كنت لا أزال أسمع وقع خطواتها السريعة، ثم انقطع الصوت فجأة...

فلما بلغت الشارع كانت قد توارت عن بصري، فهرولت إلى شارع فوسنسنسكي وقطعته متلفتًا هنا وهناك، ولكن بحثي ذهب سدى، إذ كانت توارت، فقلت لنفسي لا بدّ أن تكون قد اختبأت مني، وربما كان ذلك في مكان ما من الدرج.

* * *

الفصل الحادي عشر

على أني ما كدت أطأ طوار الشارع المبلل المتسخ حتى اصطدمت بأحد السابلة، وكان يسير مطرقًا سابحًا في أفكاره، ويبدو أنه كان مسرعًا إلى مكان ما، ولشد ما دهشت حين تبينت أنه إشمنيف الهرم. لقد كان ذلك ثاني لقاء غير متوقع في تلك الليلة. وكنت أعلم أن الهرم أصابه برد شديد منذ ثلاثة أيام تقريبًا، فإذا بي ألقاه هنا في الشارع في هذا الجو الرطب، ويضاف إلى ذلك أنه لم يكن متعودًا أن يخرج بالليل، وأنه بعد ذهاب ناتاشا أي منذ نصف عام على وجه التقريب صار لا يفارق بيته. ويبدو أنه سُرّ بلقائي سرورًا عظيمًا، إذ إنه عثر أخيرًا على صديق يستطيع أن يفضي إليه بكل مكنونات صدره، فقبض على يدي وضغطها ضغطًا شديدًا، وجرّني معه دون أن يسألني عن وجهتي. وكان بادي التأثر والانفعال، متعجلًا مشرّد الفكر. وسألت نفسي: «ترى أين يريد؟» بيد أنه لم يكن من الحكمة أن أسأله عن ذلك، فقد صار في الزمن الأخير مبالغًا في سوء الظن، يرى في كل سؤال عادي وفي كل ملاحظة بريئة تلميحًا متعمدًا وإهانة مقصودة.

ونظرت إليه خلسة بمؤخرة عيني، فرأيت علامات المرض بادية

على وجهه، وأنه قد نحل كثيرًا في العهد الأخير، وكانت لحيته بلا شك لم تحلق منذ ثمانية أيام على الأقل. أما شعره فكان قد جلله الشيب وبدا متدليًا من تحت القبعة المنتفشة في خصل منسدلة فوق ياقة معطفه الخلق. ولقد كنت لاحظت عليه من زمن مضى أنه يكون في بعض الأحيان كالذاهل. فهو- مثلًا- كثيرًا ما ينسى أنه ليس وحده في الغرفة فيأخذ في الحديث مع نفسه بصوت مرتفع مؤكدًا كلامه بإشارات وإيماءات من يديه. في الحق أن مرآه كان يبعث في النفس الألم والحسرة.

وقال: «والآن يا فانيا. كيف تسير أمورك؟ إلى أين كنت تعتزم الذهاب؟ ها أنت ذا، يا عزيزي، ترى أنني أنا أيضًا قد خرجت لبعض شأني. كيف تجدك؟».

فأجبت: «بل كيف تجدك أنت؟ لقد كنت مريضًا منذ أيام قليلة، ومع ذلك أراك تبرح الدار؟».

ولم يجب الشيخ كأنه لم يسمع شيئًا.

«كيف حال أنّا أندريفنا؟».

«شكرًا، شكرًا.. بخير... لا أخالها على غاية ما يرام... فهي دائمًا منهوكة القوى... وفيما عدا ذلك، فقد سألت عنك وعن سبب احتجابك عنا وتركك لقائنا. على أنك كنت الآن قاصدًا إلينا يا فانيا؟ أم أن الأمر غير ذلك؟ ثم سأل بغتة وقد نظر إليَّ في ريبة: «لعل لقاءنا هذا كان في وقت غير ملائم لك، أو لعلني أعوقك عن قضاء أمر ما؟».

وكان الهرم قد بلغ من الحساسية وسوء الظن حدًّا لو أجبته معه بأني

لم أكن الآن في طريقي لزيارة أنّا أندريفنا، لشعر بالإهانة ولوّدعني في فتور ومضى، ولهذا بادرت أؤكد له إني كنت في طريقي إليها، وكان ذلك مع علمي بأن ذلك يؤخرني عن موعدي مع ناتاشا، وأنه قد لا يتسنى لي أن أراها بعد ذلك مرة أخرى.

ورد الهرم وقد سرته إجابتي: «هذا جميل. هذا حسن...» ثم عاد إلى الصمت فجأة وأخذ يفكر، كأنما كان يريد أن يقول شيئًا آخر.

وردّد القول بعد خمس دقائق بشكل آلي، وكأنه قد عاد إلى نفسه من تفكير عميق: «أجل، هذا حسن... اسمع يا فانيا... لقد كنت، يا فانيا، كأنك ابن لنا من صلبنا. إن الله لم يهب لنا أنا وأنَّا أندريفنا... ولدًا... ولكنه مَنّ علينا بك. وهذا ما كنت أعتقده دائمًا، وامرأتي كذلك... أجل! ولقد كنت تكنّ لنا الودّ وتبدي لنا الإكرام شأن الابن البار. فليباركك الله من أجل ذلك يا فانيا، كما نباركك نحن في شيخوختنا ونحبك.. أجل!».

وبدأ صوته يتهدّج، فتوقف هنيهة عن الكلام ثم قال: «والآن.. ماذا كان قد ألمّ بك؟ هل مرضت مرة أخرى حتى احتجبت عنّا كل هذا الزمن؟».

فقصصت عليه قصة سميث بحذافيرها، واعتذرت إليه بأن هذه المسألة قد عاقتني عن زيارته، وبأني فوق ذلك، لم أكن في تمام عافيتي فأصبحت أجد الشقة إلى جزيرة فاسيلي (حيث كانا يقطنان في ذلك الوقت) قد صارت بعيدة. وكاد لساني ينزلق فأقول إني لم أجد في هذه الأيام متسعًا من الوقت حتى لزيارة ناتاشا، بيد أنه قد ثاب إليّ وعيي

في الوقت المناسب فأمسكت. ولقيت قصة سميث من الشيخ اهتمامًا شديدًا، فأخذ يصغي إليها في انتباه.

ولما سمع أن مسكني الجديد رطب وأنه قد يكون أضرّ لصحتي من مسكني السابق، وأنه يكلفني ستة روبلات في الشهر، كاد يتميّز من الغيظ، فقد صار في المدة الأخيرة قليل الصبر سريع التأثر. وكانت أنّا أندريفنا هي وحدها التي تفهم في مثل هذه اللحظات كيف تحسن التصرف حياله، على أن ذلك كان يخطئها في بعض الأحيان.

وصاح محتدمًا: «أجل... لقد جرك إلى ذلك احترافك الكتابة يا فانيا! فقد وصلت بك حتى الآن إلى عليّة السطح وستهبط بك بعد ذلك إلى القبر! على أني قلت لك ذلك في حينه وحذرتك عواقبه!.. وماذا يفعل «ب»؟ ألا يزال يوالي مقالاته النقدية؟».

«لقد مات بالسل. ظننت أني نبأتك بذلك!».

«مات.. أواه!.. ذلك هو إذن ختام الأنشودة. فهل ترك على الأقل شيئًا لامرأته وأطفاله؟ لقد قلت إن له امرأة. أليس كذلك؟.. وكون هؤلاء الناس أيضًا يتزوجون!».

فأجبت: «كلا، إنه لم يترك وراءه شيئًا».

فصاح في اهتياج شديد حتى كان يخيل لمن يراه أن الأمر يتصل بواحد من أقرانه الأدنين أو كأن المتوفي أخ له: «أجل، فلم يكن ثمة مناص من ذلك. لم يترك شيئًا، لا شيء البتة! أتدري يا فانيا، لقد كنت أدرك في ذلك الحين أن الأمر لا بد منته معه إلى هذه النهاية، في ذلك

الحين عندما كنت أن تطنب في مدحه، ألا تذكر؟ ثم يقال بعد هذا في سهولة وقلة اكتراث إنه لم يترك وراءه شيئًا.. لقد أحرز المجد، وليكن إن شئت مجدًا خالدًا، ولكن المجد وحده لا يكفي لقوت الإنسان. وكذلك مآلك يا فانيا، لقد فطنت إليه منذ ذلك الحين. أجل إني كنت أثني عليك بالخير، ولا ريب، ولكني كنت أحس في أعماق نفسي بكل شيء، وإذن فقد مات «ب»؟ أجل، ولم لا يموت؟ فهل الحياة جميلة لذيذة، أم أن مدينتنا... لا، فانظر إليها، انظر إليها!».

وبدرت من يده إيماءة سريعة غير اختيارية إلى الشارع المقابل الذي يكتنفه الضباب والذي لا ينيره في هذا الغسق المشبع بالرطوبة غير مصابيح خابية الضوء، وإلى المنازل القذرة وإلى طوار الشارع الذي تقطر حجارته من البلل، وإلى هذه الصورة مجتمعة وقد استدارت فوقها سماء بطرسبورج المعتمة كأنها قبة اصطبغ باطنها بالمداد، وتقدمنا في السير حتى وصلنا إلى أحد الميادين فإذا بتمثال يشخص أمامنا من خلال الظلمة، ينيره لهب المصابيح الغازية من أسفله وعلى مسافة منه كانت كتلة كاتدرائية إسحاق الضخمة السوداء وهي لا تكاد تبين وسط السماء القاتمة اللون.

«ألم تقل يا فانيا إنه كان مفكِّرًا جذابًا ذا قلب وإحساس؟ فها هم أولاء قومك الجذابون ذوو القلوب الطيبة، كلهم على هذا النمط، لا يستطيعون شيئًا غير مضاعفة عدد اليتامى والمساكين بما ينسلون من أطفال...! ما أحسبه قد سرَّ كثيرًا بالموت وهو على هذا النحو! أجل أجل.. ولقد كان خيرًا أن يرحل من هنا، ولو إلى سيبيريا!..» وسأل فجأة

حين أبصر إلى جانبه طفلة تسأل إحسانًا: «ماذا تريدين أيتها الطفلة؟».

وكانت طفلة هزيلة شاحبة في السابعة أو الثامنة من عمرها على الأكثر، ملتفة بأطمار رثة قذرة، وقد دسّت قدميها الصغيرتين العاريتين في حذاء بالٍ ممزق، وحاولت أن تغطي جسمها المقرور بمعطف قديم صغير أصبح منذ زمن طويل غير ملائم لها لنمو قامتها، فاتجه وجهها الصغير البيضاويّ الشاحب الضامر نحونا، ورنت إلينا في صمت وخجل وهي باسطة كفها المرتعشة الصغيرة وقد تملكها رعب وذلة؛ خيفة أن نردها خائبة، وارتجف الشيخ بجميع جسده حين شاهدها، وبادر بالانحناء عليها بهيئة أفزعتها، فاقشعر جسدها وتراجعت خطوة إلى الوراء.

فناداها قائلًا: «ماذا تريدين يا طفلتي؟ ماذا؟ صدقة؟ أجل! هاك شيئًا لك..! خذي هذا».

ونقّب في جيوبه بأريحية وطيب خاطر وهو يرتعد من التأثر ثم تناول من أحدها آخر الأمر قطعتين أو ثلاث قطع فضية، ولعله قد بدا له أن ذلك دون الكفاية، فتناول حافظة نقوده وأخرج منها ورقة من ذات الروبل- وهي كل ما كان بها- وأودع هذه النقود كف السائلة الصغيرة، وهو يقول:

«فليباركك المولى أيتها الصغيرة، أيتها الطفلة المسكينة! ولتحفك ملائكته برعايتها».

وأخذ يرسم على الطفلة المسكينة علامة الصليب بيده المرتعشة ثم

انتبه فجأة إلى أني في جواره أشهد فعله فتغضنت أساريره وتابع سيره في خطوات سراع.

وقال بعد فترة طويلة من صمت يشوبه الحنق: «انظر يا فانيا، إنني لا أطيق رؤية شيء كهذا، فهذه المخلوقات الصغيرة البريئة ترتعد من القر وتهيم على وجوهها في الطرقات... من أجل أمهاتها وآبائها عليهم اللعنة... على أنه لا جدال في أن الأم لا تدفع بوليدها إلى مثل هذا الشقاء على قارعة الطريق دون أن تكون هي نفسها قد طحنها الشقاء؟ ومن يدري؟ لعل هناك عددًا آخر من مثل هذه اليتيمة يحبون ويتواثبون لديها في ركن الغرفة وكانت هذه كبراهم، وربما كانت الأم عجوزًا مريضة و... هيه. ليس هؤلاء بأطفال أمراء، وإن في العالم لكثيرين، ممن ليسوا بأطفال أمراء! إيه!».

وهنا صمت لحظة كأنما ثمة شيء يمضه ويعذبه.

ثم بدأ يقول في لهجة مضطربة كما لو كانت تعوزه الكلمات: «انظر يا فانيا، لقد وعدت أنّا أندريفنا، وعدتها... أعني أننا أنا وأنّا أندريفنا قد اتفقنا على أن نتخذ لنا طفلة يتيمة لنربيها.. مخلوقة صغيرة مسكينة... نأتي بها لتأوي إلينا في المنزل. أتفهم ما أريد! انظر، إننا نحن الطاعنين في السن نشعر بملل في المعيشة وحدنا... أجل... ولكن... يبدو أن أنّا أندريفنا تكره أن تفعل ذلك، فتحدث أنت إليها في الأمر، لا على أنك موفد من قِبَلي، بل على أن ذلك رأي خاص لك... تحدث إليها... هل فهمتني؟ لقد وددت منذ زمن طويل أن أرجوك في أن تقنعها وتحصل على موافقتها... فإنني لا أحب أن أكرهها على شيء... ولكن لماذا

أثرثر دائمًا في هذه الأمور التافهة! ماذا يهمني من طفلة صغيرة؟ إنها لن تستطيع أن تعينني بشيء ذي قيمة. بيد أنها تبعث فيّ قوة وحياة، إذ بذلك أستمع من جديد إلى صوت طفلي... الواقع أنني إنما أرغب في ذلك من أجل امرأتي... فإنه خليق بأن يبعث في نفسها تسلية لا تجدها في العيش وهي وحيدة معي. ولكن هذا كله لغو وهراء. أتدري يا فانيا! إننا إذا استمررنا على هذا المشي فسنقضي وقتًا طويلًا، فهلم نأخذ مركبة فما تزال الشقة أمامنا طويلة، وإن أنّا أندريفنا تنتظرنا وهي في عناء وألم».

وكنا في منتصف الساعة الثامنة عندما وصلنا إلى أنّا أندريفنا.

* * *

الفصل الثاني عشر

كان الهرمان إشمنيف يحب كلاهما صاحبه، وقد وثّق بينهما الزواج وعشرة السنين الطوال، ولكن نيكولاي سيرجيفتش كان دائمًا، متحفظًا إزاء أنّا أندريفنا، بل جافيًا أحيانًا، ولا سيما إذا كان ثم آخرون. ولم يكن هذا دأبه معها في سنيهما الأخيرة فحسب، بل في كل حياتهما وحتى في أسعد أوقاتهما، فمن الناس فريق أرهف إحساسهم ورقت طبائعهم فصاروا يشعرون بنوع من النفور- وقد يكون ذلك احتشامًا وتعففًا- من إبداء حنوهم أو الإعراب عنه للشخص الذي يحبونه فوق كل شيء، ولا يكون منهم هذا الإحجام بمشهد من الناس فحسب بل قد يكون في الخلوة أيضًا، بل في الخلوة على وجه الخصوص. وقلما يحدث أن ينفجر حبهم وحنانهم، ولكنهما إذا انفجرا كان لهما ضرام يزداد قوة كلما كان قد طال كبتهما. وكذلك كان إشمنيف الهرم دائمًا بإزاء أنّا أندريفنا منذ عهد الصبا، فقد كان يجلها ويحبها إلى أبعد الحدود، مع أنها لم تكن أكثر من امرأة طيبة القلب تحب زوجها وتحنو عليه، ولكنه كان في بعض الأحيان يستشيط حنقًا عليها إذ كانت لسذاجتها تتودد إليه في صراحة خالية من اللباقة، فلما أن هجرتهما ناتاشا ازداد عطف كل منهما

على صاحبه لما عراهما من الشعور الأليم بأنهما قد أصبحا وحيدين في هذا العالم. ومع أن نيكولاي سيرجيفتش كان في بعض الأحيان يتعبّس وجهه فلا يكون لها سبيل إلى مكاشفته بحبها، فإنه كان من النادر أن يفارقها ساعتين كاملتين دون أن يتملك كليهما الحنين إلى صاحبه. وقد حدث بينهما نوع من التفاهم الصامت على ألا يتفوها بأية كلمة عن ناتاشا حتى كأنها لم تكن في هذا العالم يومًا من الأيام. ولم تكن أنّا أندريفنا لتجسر قط في حضرة زوجها على التلميح إلى ذلك الموضوع، مع أن ذلك كان يشقّ عليها كثيرًا. لقد كانت فيما بينها وبين نفسها قد صفحت عن ناتاشا منذ زمن طويل، وكنت أنا وهي كأننا قد تعاهدنا على أن أزودها، في كل مرة أزورها فيها، ببعض الأنباء عن طفلتها المحبوبة التي لا تستطيع نسيانها.

كانت العجوز ينتابها السقم إذا طال عليها الوقت دون أن تتلقى أنباء عن ابنتها، حتى إذا ما زرتها أخيرًا عنيت بأدق التفاصيل ودأبت تلقي السؤال تلو السؤال وهي ترعد من فرط الرغبة في المعرفة، وكانت هذه الأخبار تخفف عن قلبها وتسري عنها. وقد كاد الخوف يقضي عليها ذات مرة حين أنبأتها أن ناتاشا مريضة، بل لقد أوشكت أن تذهب إليها بنفسها، ولكنها ولا ريب ما كانت لتفعل ذلك إلا إذا حدث أمر استثنائي. وقد كانت في بادئ الأمر لا تصرّح لي أنا أيضًا برغبتها في أن ترى ابنتها ثانية، بل كانت في أغلب الأحيان ترى من واجبها، بعد أن تستقص مني كل ما عندي من أخبار عنها، أن تبدو بين يدي أنا أيضًا بمظهر التحمل والجلد، وأن تبين لي بيانًا شافيًا أنها وإن كانت تعنى بمصير ابنتها إلا

أنها تعدها آثمة خاطئة لا سبيل إلى اغتفار إثمها، على أن ذلك كله لم يكن إلا تصنعًا. وقد مرت عليها لحظات كانت تنزع فيها نزوعًا قويًّا نحو ابنتها، فكانت تنتحب أمامي وتناديها بأرق الأسماء وتشكو نيكولاي سيرجيفتش مر الشكوى، وتلمح أمامه- ولكن بكل حذر- ببعض تلميحات عن كبرياء الإنسان وقساوته وتشير إلى أنه ما من أحد يريد أن ينسى إهانة لحقته، وتقرّر أن الله القدير لن يغفر لمن لا يغفر.. وما إلى ذلك. ولكنها لم تكن لتجرؤ على التعبير عن ذلك بكلام صريح. وكان زوجها في مثل هذه اللحظات يعبس ويربدّ وجهه ويلوذ بالصمت أو يطرق فجأة موضوعًا آخر، فيتحدث فيه بصوت عال وفي غير لباقة، أو ينصرف بكل بساطة إلى غرفته تاركًا إيانا وحدنا، وبذلك يتيح لأنّا أندريفنا أن تنفض أحزانها أمامي بين الزفرات والعبرات. وهكذا كان في كل مرة أزورها لا يكاد يحييني حتى ينصرف إلى غرفته مهيئًا لي الفرصة لكي أزوّد أنّا أندريفنا بأحدث أخبار ناتاشا، وذلك ما فعله اليوم أيضًا.

فقد قال لها حين دخل الغرفة: «لقد غمرني المطر ونفذ إلى الجلد، ولا مندوحة لي عن العودة إلى غرفتي. أما أنت يا فانيا فابق كما أنت. لقد وقعت له قصة طريفة تتعلق بمسكنه فدعيه يقصها عليك. وسأعود بعد قليل».

وبادر بالانصراف، متحاميًا أن ينظر إلينا كأنه كان يخجل من أنه يهيئ لنا خلوتنا، حتى إذا ما عاد إلينا كان متجهم الوجه لا بإزاء أنّا أندريفنا وحدها بل بإزائي أنا أيضًا، بل لقد كان يصل الأمر معه، في بعض الأحيان، إلى حد لا يطيقه هو كأنما كان يحنق على نفسه بسبب ضعفه واستسلامه.

وقالت العجوز، وكانت قد أخذت في الزمن الأخير ترفع من بيننا كل تحفظ وتستر: «هكذا هو، هكذا هو دائمًا بإزائي. وإنه ليعلم تمام العلم أننا ندرك خدعته، فلم يحاول دائمًا أن يخدعني؟ أأنا أجنبية عنه، أم ماذا؟ وذلك أيضًا دأبه مع ابنته، ففي استطاعته أن يصفح عنها، بل لعل تلك هي رغبته، يعلم الله! فهو- دائم الانتحاب في الليل، وقد سمعت نحيبه بنفسي، ولكنه يبدو بمظهر الصلابة إرضاء لكبريائه... أي عزيزي إيفان بتروفتش، عجل فأخبرني أين كان قد ذهب؟».

«نيكولاي سيرجيفتش؟ لست أدري، وقد كنت على وشك أن أسألك عن ذلك!».

«لقد اعتراني من الفزع أشده حين مضى، فهو مريض ويخرج في مثل هذا الجو وفي هزيع متأخر من الليل. قلت لنفسي لا بد أن هنالك أمرًا عظيم الخطورة. وما عسى أن يكون أعظم خطرًا لنا من هذا الأمر؟ ذلك ما ارتأيته أنا، ولكني لم أجرؤ على الاستفهام منه، فلست أريد أن أوجه إليه سؤالًا في هذه الأيام لأي سبب كان. إلهي القدير، إني لدائمة الارتجاف إشفاقًا عليه وعليها! لقد هجس بنفسي أنه قد يكون ذهب إليها وأنه اعتزم أن يعفو عنها، فهو على علم بكل شيء وعنده دائمًا أحدث أنبائها. إنه ليدور بخلدي أنه يتسقّط جميع أخبارها، ولكني أعجز عن استجلاء ذلك المورد الذي منه يستقي هذه الأخبار. لقد كان أمس سقيمًا أبلغ السقم من جراء الهمّ، وما يزال اليوم أيضًا كذلك. ولكنك لا تجيبني البتة؟ فتكلم يا فانيا. هل حدث شيء؟ لقد كنت في انتظارك كأنك مرسل من الله، متجهة بعيني نحوك. فماذا حدث؟ لعله

لم يهجرها، ذلك الشرير؟».

فقصصت عليها كل ما أعلمه، إذ كنت صريحًا معها كل الصراحة. ونبأتها بأن المسألة- فيما يلوح لي- قد تنتهي هذه المرة بالانفصام حقًّا بين ناتاشا وأليوشا. أو- على الأقل- أن طبيعة النزاع في هذه المرة حظها من الجد أكبر كثيرًا منه فيما سبق. وأخبرتها أن ناتاشا أرسلت إليَّ مساء أمس برسالة تسألني فيها أن أوافيها الليلة في الساعة التاسعة، ولهذا لم يكن في نيتي مطلقًا أن أزورها هي الليلة لو لم يأخذني نيكولاي سيرجيفتش معه. قصصت عليها كل شيء وجعلتها على بيّنة من أن المسألة قد تحرجت الآن، وأن والد أليوشا، الذي عاد من سفره منذ أسبوعين، لا يريد أن يصغي إلى شيء ويعتزم أن يأخذه ابنه بالصرامة والحزم، وأن أليوشا نفسه، وهذا هو المهم، لا ينأى عن الخطيبة التي اختيرت له، بل إنه، كما يقولون، قد أصبح مدلهًا بحبها، ثم أضفت إلى ذلك أن ناتاشا لا بد أن تكون قد كتبت هذه الرسالة وهي في اضطراب شديد، فقد قالت فيها إنه سيبتّ الليلة في كل شيء. ولكن ما هو كل شيء هذا؟ ذلك ما لا علم لي به. ومما يثير الانتباه أنها كتبت إليَّ أمس طالبة ألا أذهب إليها إلا اليوم، وأنها جعلت لذلك وقتًا محددًا، وهو الساعة التاسعة مساء، فلا مندوحة عن الذهاب إليها وفي أقرب وقت.

فقالت العجوز وقد توقدت حميّتها: «إذن فحتم عليك أن تمضي إليها، توًّا، ولتشرب معنا عندما يجيء الآن قدحًا واحدًا... واأسفاه، إنهم لم يهيئوا غلاية الشاي بعد! ماترونا! غلاية الشاي! يا لها من خادم كسلانة... فإذا ما شربت قدحك فاحتجّ بعلة لائقة واعمل على

أن تذهب، ثم وافني غدًا لتنبئني بكل شيء! وليكن حضورك مبكرًا قدر المستطاع. رباه، أرجو ألا تكون قد ألمت بها ملمة. على أنه يصعب أن تصبح الحال شرًّا منها الآن وأعتقد أن نيكولاي سيرجيفتش قد عرف كل ذلك، فقلبي يحدثني بأنه يعلم كل شيء. وأنا أيضًا أسمع الكثير من ماترونا، وهي تستقي أخبارها من أجاشا، وأجاشا هي ابنة ماريا فاسيليفنا في التعميد، وتعمل خادمًا بمنزل الأمير، أنت تعلم هذا كله. ولذلك كان نيكولاي اليوم مهتاجًا بصورة مروّعة. ولقد ذهبت لأقول له شيئًا فنحاني عنه بغلظة وعنف. وقد شق عليه ذلك فيما بعد وحاول أن يعتذر منه بأنه لم يبق لدينا مال ننفقه، وكأنما قد دفعني عنه لنفاد المال. والآن أنت تعرف شؤوننا. لقد كان بعد تناوله الطعام يريد أن يذهب إلى مخدعه فنظرت من خصاص غرفته (إذ إن ببابها شقًّا صغيرًا ولكنه لا يعلم به) فإذا هو راكع يصلي بين يدي الصورة المقدسة، وما إن أبصرت ذلك حتى استرخت مفاصلي. ثم إنه لم يحتس الشاي ولم يرقد، بل تناول قبعته ومضى، وكان ذلك حوالي الساعة الخامسة. ولم أجرؤ أن أسأله خشية أن يصرخ في وجهي مرة أخرى، فهو الآن يصرخ في وجه الجميع، في وجه ماترونا على الخصوص وفي وجهي أنا أيضًا. وعندما أسمعه يصرخ ترتعد مفاصلي ويقف قلبي. ومع أنه لم يكن في ذلك إلا متظاهرًا، وهذا ما أنا على يقين منه، فالأمر لا يزال مروّعًا. ولقد ظللت ساعة كاملة وهو خارج البيت أصلي لله وأدعوه أن يهيئ له من أمره رشدًا. وأين رسالة ناتاشا؟ أطلعني عليها».

فأريتها إياها، إذ كنت أعلم أنه ليس لها سوى رغبة واحدة مضطرمة

هي أن يكون أليوشا الذي كانت تدعوه تارة شريرًا وطورًا سخيفًا بليد الإحساس قد أصبح في النهاية زوجًا لناتاشا، وأن يقرّ والده الأمير بيتر ألكسندروفتش هذا الزواج. ولقد أفضت إليّ مرة برغبتها هذه في صراحة تامة، ولكنها ندمت فيما بعد على مصارحتها لي بذلك وعادت فأنكرت ما أبدت من رغبة، وأما بين يدي نيكولاي سيرجيفتش فلم تكن تجسر لأي سبب من الأسباب على الجهر بآمالها هذه، وذلك مع أنها تعلم أنه لا يجهل مطلقًا أنها تفكر هذا التفكير، ومع أنه قد عاتبها على ذلك ذات مرة عن طريق التلميح، بل إني أظن أنه كان يلعن ناتاشا لعنة أبدية وينتزعها من قلبه انتزاعًا كليًّا، لو أنه كان يعتقد إمكان هذا الزواج.

وهذا ما كنا نعتقده جميعًا إذ ذاك، فهو كان يحنّ إلى ابنته بكل قلبه، ولكنه كان ينتظر أن تأتي وحدها نادمة منتزعة من قلبها كل شيء حتى ذكرى أليوشا، وكان ذلك هو السبيل الوحيد إلى الصفح، وهو وإن لم يكن قد تحدث بذلك فقد كان يكفي المرء أن ينظر إليه ليدرك ذلك ويوقن منه.

وعادت أنّا أندريفنا تقول: «إنه شاب ضعيف الخلق خائر الإرادة فاقد الاستقرار بالغ القسوة، وقد طالما قلت ذلك. لقد أساءوا تربيته فصار فتى طائشًا نزقًا لا عزيمة له. وها هو ذا يقابل حبها الجم بأن يسدد إليها تلك الطعنة النافذة. رباه! ماذا عسى أن يكون مصير المسكينة؟ وماذا راقه من الأخرى، ذلك ما لست أدركه».

فأجبتها: «لقد بلغني يا أنّا أندريفنا أن تلك العروس فتاة فتانة، وذلك ما أخبرتني به ناتاشا نفسها...» فقاطعتني: «وأنت أيضًا صدقت ذلك! وما

وجه الفتنة فيها؟ إنكم أيها المخلطون المسوّدون للصفحات تجدون الفتنة في كل من ترتدي معطفًا. ولئن كانت ناتاشا تطريها وتثني عليها بالخير، فهي إنما تفعل ذلك نبلًا منها وكرمًا. إنها لا تعف كيف تستبقيه لها، وتغتفر له دائمًا كل شيء، مؤثرة أن تتحمل هي كل هذه الآلام. ولطالما خدعها هذا الشرير القاسي! إنني يا إيفان بتروفتش أعيش في خوف دائم، فإنهم جميعًا قد ركبهم شيطان الكبرياء. ليت نيكولاي يصلح ما بينه وبينها ويصفح عنها، عن حبيبة قلبي، ليتسنى لنا إعادتها إلينا! إذن لاحتويتها بين ذراعيّ وأبقيتها دائمًا إلى جانبي! وهل نال منها الهزال كثيرًا؟».

«أجل يا أنّا أندريفنا».

«أي طفلتي المحبوبة! وأنا أيضًا يا إيفان بتروفتش قد ألمّت بي الأرزاء فظللت أبكي سواد الليلة الماضية وبياض نهارها... ولِمَ؟ سأنبئك بحديث ذلك فيما بعد. لطالما لمّحت له تلميحًا يكاد يكون تصريحًا أن يصفح عنها. لست أجرؤ أن أقول له ذلك صراحة، بيد أن المرء يستطيع شيئًا كهذا عن طريق المداورة إذا اصطنع اللباقة وأحسن القول. ولكن قلبي يظل حينئذ يخفق خيفة أن يغضب ويصبّ عليها اللعنة. أجل إنني لم أسمع منه لعنًا بعد.. ولكني في جزع شديد من أن يفوه به ذات مرة. فماذا يؤول إليه حالها إذ ذاك؟ إذا لعنها الوالد حلَّ بها عقاب الخالق، ولذلك أعيش دائمًا مرتعدة من الهلع. وأنت أيضًا يا إيفان بتروفتش كان خليقًا بك أن تخجل. لقد نموت وترعرعت في بيتنا وحظيت بمحبتنا الأبوية! ثم تجيء الآن فترى في الأخرى فتنة وسحرًا! فماذا يعنيك من شأنها؟ وأين الفتنة فيها؟ لقد عرفت ماريا

فاسيليفنا حديثًا من شئونها أكثر مما عرفت، فقد حدث منذ مدة قريبة أن ارتكبت إثم دعوتها لتناول القهوة خفية ذات صباح كان زوجي منصرفًا فيه لشئونه في الخارج وقد أطلعتني على السرّ كله. فإن للأمير والد أليوشا بتلك الكونتة علاقة آثمة، ويقولون إن الكونتة طالما عنفته على عدم الاقتران بها، فكان يرجئ الأمر دائمًا. وهي معروفة بسلوكها الشائن المعوّج من عهد زوجها، فلما توفى نزحت إلى الخارج حيث عاشرت كثيرًا من البارونات الإيطاليين والفرنسيين على اختلاف أنواعهم وانتهت باقتناص الأمير بيتر ألكسندروفتش. وفي خلال ذلك كانت ابنة زوجها الأول الذي كان ملتزمًا لجباية ضريبة الخمور، تشب وتترعرع، وكانت امرأة أبيها أي الكونتة قد أوشكت ثروتها أن تنفد، ولكن المليونين الذين تركهما والد كاترينا فيودوروفنا لابنته في المصرف المالي قد نميا معها، ويقال إنها تملك الآن ثلاثة ملايين، فرأى الأمير أن يزوّجها أليوشا (وليس ذلك بالرأي الخاطئ، فهو يعرف كيف يعمل ما فيه صلاحه). أما الكونت الذي يمتّ إليه بآصرة قرابة، ذلك الوجيه المعروف في البلاط- كما تعلم- فقد بذل هو أيضًا موافقته، فليست ثلاثة ملايين بلعبة أطفال. قال لا عليك، خاطب الكونتة في الأمر، فطالعها الأمير برغبته فعارضتها بكل شدة وفي غير رزانة ولا وقار، فهي- على ما يقال- امرأة طائشة يتحاماها الكثير من الناس ويأبون استقبالها. فليس الأمر هنا على ما هو عليه في الخارج. قالت: كلَّا أيها الأمير، وينبغي أن تتزوجني أنت لا أن يتزوج أليوشا من ابنة زوجي. أما الفتاة ابنة زوجها فهي خاضعة لها كل الخضوع وتحبها حبًّا يكاد يكون عبادة، وتذعن لها في كل أمر. ويقولون إنها طيبة لينة الخلق كأنها ملاك! فلما عارضت الكونتة على

هذا النحو حدجها الأمير بنظرة وقال لها لا تنزعجي يا كونتة، فلقد أتيت على ثروتك حتى آخرها وحملت نفسك ديونًا لا طاقة لك بأدائها، فإذا ما أهديت ابنة زوجك إلى أليوشا أصبح بين يدينا زوجان طيبان فهي لا رأي لها وهو أحمق طائش، ومن ثم فسنفرض وصايتنا عليهما من أول الأمر، وبذلك تنالين المال دائمًا، أما زواجك مني فماذا يجدي عليك؟ يا له من ماكر خبيث! كأنه أحد رجال الماسونية! لقد كان ذلك منذ نصف عام تقريبًا، وظلت الكونتة إذ ذاك مترددة في الأمر لا تقطع برأي، ولكنها أسمحت أخيرًا حين كانا في فارسوفيا، هذا ما بلغني. لقد حدثتني ماريا فاسيليفنا بكل هذه الأخبار مفصّلة، وكانت قد استقتها من ثقة. هذا هو الموضوع كله: المال. كل شيء إنما يدور حول الملايين، فاتنة أكانت الخطيبة أم غير فاتنة!».

جعلتني قصة أنّا أندريفنا هذه شديد الاضطراب، فهي تتفق تمامًا وما سمعته من أليوشا منذ زمن طويل، وقد كان وهو يقصّ عليّ ذلك لا يزال يزعم مباهيًا أنه لن يتزوج يومًا من أجل المال، على أن كاترينا فيودوروفنا قد راقته حقًّا فيما يبدو لي. وكذلك حدثني أليوشا أن والده قد يتزوج من جديد وإن كان يكذب الشائعة الخاصة بذلك حتى لا يسبب للكونتة انزعاجًا سابقًا لأوانه. وقد سبق أن قلت إن أليوشا كان مخدوعًا في والده وكان يحبه ويجله ويؤمن به إيمانه بالقديسين.

واستمرت أنّا أندريفنا في كلامها دون أن يفارقها الغيظ من المديح الذي أسبغته على الخطيبة المتوقع إهداؤها إلى الأمير الصغير. فقالت: «أما ترى؟ إنها ليست من سلالة كونت، ولا شك أن ناتاشا صفقة أربح

منها كثيرًا، فتلك ابنة تاجر، أما ناتاشا فسليلة بيت ذي نبل تليد. إنها فتاة عريقة المحتد لها لقب صاحبة المجد. ولقد فتح زوجي مساء أمس خزانته الحديدية (وقد فاتني حقًّا أن أخبرك بذلك) إنك تعرف هذه الخزانة جيدًا؟ ثم جلس هنا طوال المساء وعكف على أوراقه القديمة ينقب فيها فأخذت أنسج جوربي وأنا أخشى أن أتطلع إليه، فلما رآني صامتة غضب وأفاض في الكلام وقضى المساء كله لا يتحدث إلا عن شجرة نسبنا. وقد ظهر خلال ذلك أن نبل آل إشمنيف يمتد إلى عصر إيفان فاسيليفتش الرهيب، وأن أسلافي آل شوميلوف كانوا من المشهورين في عهد ألكساي ميشايلوفتش، ولدينا على ذلك مستندات شتى، وهو مسجل كذلك في مؤلف المؤرخ كارامزين. أما ترى أيها العزيز أننا لسنا على الإطلاق أقل شأنًا من سوانا؟ وعندما أخذ زوجي يبين لي ذلك أدركت غايته في الحال. فهو يرى سبة وإهانة أن ينظروا إلى ناتاشا من فوق أكتافهم، فإنهم لا يفوقوننا إلا في الثراء. فليسع هذا اللص بيتر ألكسندروفتش ما شاء إلى صيد المال، فكل طفل يعلم أي متوحش جشع هو. وقد قيل إنه انسلك خفية في زمرة اليسوعيين حين كان في فارسوفيا. أفتصدق ذلك؟».

فأجبتها «ثرثرة سخيفة» وأنا دهش من بقاء هذه الشائعة، ولكني عنيت كثيرًا بقولها إن نيكولاي سيرجيفتش فحص أوراقه القديمة، إذ إنه لم يباه قط بنسبه في يوم من الأيام.

ثم قالت: «إنهم جميعًا شرسون غلاظ الأكباد، ولكن ما رأيها هي، حبيبتي، في ذلك؟ أهي حزينة مكروبة؟ أتبكي؟ آه. لقد أزفت الساعة

الأخيرة لذهابك إليها. ماترونا، ماترونا! يا لك من مكسال! هل واجهها أحد بإهانة؟ تكلم. تكلم يا فانيا!».

ما عساي أن أعقّب به ذلك؟ وأخذت العجوز تنتحب فسألتها: «أي مصاب جديد دهاك وكنت ترغبين أن تحدثيني بقصته؟».

«آه يا فانيا. كأننا لما نأخذ حظنا من الأرزاء وكأن الخنجر لما ينفذ فينا إلى السويداء. أما زلت تذكر يا فتاي أم أنك لا تذكر؟ لقد كانت لديّ دائمًا تلك (الميدالية) الذهبية الصغيرة، تذكارًا يحوي صورة ناتاشا في طفولتها. لقد كانت ملاكي إذ ذاك في الثامنة من عمرها، وكنت أنا ونيكولاي سيرجيفتش قد عهدنا في صنعها إذ ذاك إلى رسام جوّال. لا ريب أنك قد نسيت ذلك. لقد كان فنانًا بارعًا. فقد صورها على صورة «كيوبيد» بشعرها الجعد اللامع الذي كان لها في ذلك الحين. وقد رسمها في قميص من الموصلي يشف عن جسدها، كان منظرها أخاذًا حتى لا ترتوي العين من النظر إليه. وقد رجوت الرسام إذ ذاك أن يرسم لها جناحين، ولكنه لم ير ذلك. ولقد أخذت تلك (الميدالية) من درجي بعد ذلك اليوم العصيب، أفاهم يا فانيا؟ وتقلدتها، فأنا أحملها على صدري بجانب صليبي. وأنا دائمًا في خوف أن يلحظها زوجي إذ إنه كان قد أمر بأن تنبذ كل آثارها من المنزل أو أن تحرق حتى لا يبقى ما يمكن أن يذكرنا بها، غير أنه لم يكن لي بد من مشاهدة صورتها بين الفينة والفينة. وكنت ألج في الاستعبار غالبًا كلما وقع بصري عليها، وقد كان ذلك يخفف من لوعتي. وكنت حين أخلو إلى نفسي في بعض الأحيان أقبّل الصورة مرارًا كما لو كانت هي نفسها التي أقبلها، وكنت

أناديها بأعذب الأسماء وألوّح عليها بيدي قبيل النوم دائمًا راسمة عليها صورة الصليب، وأتحدث إليها بصوت عال عندما أكون وحدي وأوجه إليها شتى الأسئلة، ثم أتخيّل ما عسى أن تجيبني به فأتابع سؤالها عن أشياء أخرى. آه يا عزيزي فانيا، إنه ليثقل على نفسي أن أقص عليك ذلك كله، وكنت طيبة النفس لأنه لا يعلم ولم يلحظ شيئًا من أمر المدلاة، غير أنه حدث في صباح أمس أن اختفت المدلاة فجأة فلم يبق إلا خيطها حول عنقي، ولعل شيئًا صدمها فسقطت. وقد تملكني فزع قاتل فأخذت أبحث وأنقّب سحابة النهار دون أن أعثر على شيء، ولم تزل مفقودة، فأين عسى أن أكون قد أضعتها؟ ظننت أني قد أكون أضعتها بين طيات الفراش فقلبت عاليه سافله ولكن في غير جدوى. أم تراني أضعتها في مكان آخر. لا بد أن تكون قد سقطت في مكان ما فعثر عليها بعض الناس، ولكن من ذا الذي يمكن أن يكون قد عثر عليها غيره هو أو ماترونا؟ فأما ماترونا فلست أخشى منها شيئًا، فهي تخدمني بروحها... (ماترونا... ألا تأتين بغلاية الشاي؟) وسألت نفسي ما عسى أن يحدث لو أنه عثر عليها؟ وهكذا جلست مكتئبة أبكي وأبكي، فعدت لا أملك حبس دموعي. غير أن نيكولاي سيرجيفتش ازداد لي تودّدًا وبي ترفقًا وأخذ يرمقني كأنه كان يعلم علة بكائي ويأسي لألمي، فسألت نفسي من أين له علم ذلك، يغلب أن يكون قد عثر على المدلاة وطوّح بها من النافذة. فإنه إذا غضب كان خليقًا أن يفعل كل شيء، أجل، لقد ألقى بها من النافذة وها هو ذا الآن عابس يلوم نفسه على ما فعل. ذهبت مع ماترونا إلى ما تحت النافذة، وأخذنا نبحث وننقب، ولكنا لم نعثر على شيء كما لو كانت قد امّحت

من على وجه البسيطة. وظللت أبكي المساء كله، فتلك هي المرة الأولى التي وجدتني فيها عاجزة عن أن ألوّح عليها برسم الصليب في المساء، وذلك يا إيفان بتروفتش نذير بما لا يسر. إنها علامة سيئة. وكذلك لم يرقأ دمعي سحابة النهار، فقد ظللت لا أستطيع شيئًا غير البكاء. ولبثت يا فتاي الطيب أنتظر قدومك، راجية أن يرسلك الله الرحيم إليَّ كي أفضي إليك بذات نفسي...».

واندفعت تبكي بكاء مرًّا.

ثم قالت وقد سرها أنها تذكرت الأمر: «آه. لقد أنسيت، فهل حدثك هو بحديث الطفلة اليتيمة؟».

«أجل يا أنّا أندريفنا، فقد قال لي إنه قد خطر لكليكما وإنكما قد اعتزمتما أن تأخذا أية فتاة من الفتيات اليتيمات المسكينات، فتربيانها وتشملانها بعطفكما، فهل ذلك حق؟».

«ذلك أمر لا يخطر لي ببال يا فانيا. لا يخطر لي ببال! لا أريد يتيمة عندي، فإنها ستظل تذكرني دائمًا بمصابنا وبآلامنا الكبيرة. لا أريد طفلة سوى ناتاشا، فقد كانت ابنتنا الوحيدة وستظل كذلك دائمًا. ما معنى تفكيره في شأن اليتيمة يا فانيا؟ ما تظن في ذلك يا إيفان بتروفتش؟ أذلك لتأسيتي لأنه يراني دائمة في البكاء، أم تراه يريد أن يجتث من قلبينا ابنتنا وفلذة كبدينا بتعويدنا إلف طفلة أخرى؟ ماذا أخبرك به في الطريق من شأني؟ وكيف كان حين وجدته؟ مكتئبًا؟ حانقًا؟ صه إنه آت! فيما بعد يا فتاي. حدثني بذلك فيما بعد... لا تنس أن تأتي غدًا».

الفصل الثالث عشر

ودخل الهرم ونظر إلينا مستطلعًا، وكأنما كان هناك أمر يخجله، إذ لم يلبث أن عاد إلى وجومه، وتقدم نحو المائدة.

وسأل: «أين غلاية الشاي؟ ألا يمكن أن يؤتى بها في الوقت الملائم؟».

فبادرت أنّا أندريفنا بالإجابة: «سيؤتى بها توًّا يا أبت. في الحال. أرأيت؟ ها هي ذي قد أحضرت».

وكانت ماترونا قد أتت تحمل غلاية الشاي حين رأت نيكولاي سيرجيفتش، وكأنها تعمدت أن تتمهل حتى يحضر. وكانت ماترونا هذه خادمًا عجوزًا طيّعة جدًّا، بيد أنها كانت عنيدة شكسة، بل كانت أكثر خادمات العالم حمقًا ورعونة، وكان نيكولاي سيرجيفتش هو الوحيد الذي تخافه وتكبح لسانها بين يديه، على عكس صنيعها مع أنّا أندريفنا، إذ كانت تسلك معها مسلك الغلظة وقلة الأدب. تريد أن تفهمها في وضوح أنها تفكر في السيطرة على سيدتها، وذلك مع أنها كانت في الوقت نفسه تحب سيدتها وناتاشا من سويداء فؤادها. وترجع معرفتي بماترونا إلى عهد إشمنيفكا.

وغمغم الهرم يخاطب نفسه: «ها... كريه على نفس المرء أن يناله من البلل مثل ما نالني، ثم لا يرون هنا مع ذلك ضرورة لتقديم الشاي الساخن».

فحدجتني أنّا أندريفنا بنظرة ذات معنى، أما هو فكان لا يطيق هذا النوع الخفيّ من التفاهم. ومع ما بذله في تلك اللحظة من جهد في ألا يرانا، استطعت أن أقرأ في وجهه أنه لمح نظرة أنّا أندريفنا إليَّ وعرف كل شيء.

ثم قال على حين فجأة: «لا بد لي أن أمضي لبعض شأني فإن المركبة قد اندفعت تسير وسط الأوحال. ألم أقل لك ذلك من قبل؟ وسيصدرون حكمهم عليَّ لا محالة، فالأدلة تعوزني وليس لديّ أسانيد، أما حججي فسيدحضونها جميعًا... آه...».

لقد كان يتحدث عن قضيته مع الأمير، وكانت إجراءاتها ما فتئت تطول، وبدا أنها تتجه إلى غير مصلحته. ولما كنت لا أعرف ما أجيبه به، فقد لزمت الصمت، فنظر إليّ نظرة مرتابة.

واستفزه سكوتنا فاستأنف الحديث بغتة قائلًا: «ومع ذلك فليكن ما يكون ولم لا؟ كلما أسرع كان خيرًا. وليس في وسعهم أن يجعلوني نذلًا، وإن قرروا إلزامي بالتعويض، ضميري يبرئني ففيم يهمني أن يدينوني! على الأقل ستنتهي المسألة، فيصلون هم إلى غرضهم ويصير أمري أنا إلى الخراب... لأذرن الأمر كله وأرحل إلى سيبيريا».

فلم تستطع أنّا أندريفنا أن تحبس نفسها عن الصياح قائلة: «رباه!

إلى أين ترحل؟ ولم تبعد كل هذا الإبعاد؟».

فسأل بصلابة وقد سرّه ذلك منها: «وممن نحن قريبون هنا؟».

فقالت أنّا أندريفنا: «هنا ناس على أية حال..» ورنت إليَّ في حزن وأسى.

فصاح قائلًا وهو يصعّد ويصوب في كل منا نظرات نارية: «ومن أي ضروب الناس هم! أي ناس هم! لصوص نمامون، غادرون! مثل هؤلاء الناس موجودون في كل مكان، فلا تخشي شيئًا، فستجدينهم في سيبيريا أيضًا، وإن كنت لا تودّين أن ترحلي معي فشأنك وما تريدين. يمكنك أن تبقي هنا فلن أكرهك على ذلك.

فصاحت المسكينة: «ولكن ماذا عساي أن أفعل هنا من دونك يا نيكولاي سيرجيفتش الطيب القلب؟ إنه ليس لي في العالم كله سواك، سوا....».

ووقفت عن الكلام ورنت إليّ بنظرة وجلة كما لو كانت تسألني الحماية والعون. وكان الهرم قد بلغ منه الاهتياج مبلغه فأصبح يثور ثائره من كل كلمة تقال، حتى لم يكن إلى مناقضته من سبيل.

فقلت: «أتعرفين يا أنّا أندريفنا؟ إن الحال في سيبيريا ليست بشعة كما يتصورها الناس دائمًا، فلو حلّت الكارثة واضطررتم إلى بيع إشمنيفكا، لما كان هناك بأس من العمل برأي نيكولاي سيرجيفتش. هذا وفي استطاعة المرء في سيبيريا أن يظفر بمنصب حسن و...».

«يسرني يا إيفان أن تتكلم أنت على الأقل كلامًا معقولًا، وهذا ما

أعهده فيك. فلأدعنّ كل شيء على حاله ولأظعننّ بعيدًا».

فصرخت أنّا أندريفنا ضاربة كفًا بكف، وهي تقول: «كلا. إنه لم يدر شيء من ذلك بخلدي حتى في الحلم. وها أنت ذا أيضًا يا إيفان بتروفتش تضرب على الوتر نفسه. ما كنت أعتقد قط أنك كذلك... وأنت لم تلق منا غير المحبة، والآن...».

«ها ها ها! فماذا كنت تنتظرين إذن؟ ومم عسانا نعيش يا ترى. فكري في ذلك، فقد ولت الثروة كلها، وذهب آخر كوبيك منها! أم تريدين أن أقصد إلى الأمير بيتر ألكسندروفتش فأسأله العفو!».

فلما طرق اسم الأمير أذن العجوز أخذت ترتجف فرقًا، ورنت ملعقة الشاي التي كانت بيدها، رنينًا مسموعًا على طبق القدح.

وتابع إشمنيف حديثه بلهجة أخذت تزداد تهديدًا وعنادًا وشماتة: «لا ريب. ماذا ترى في ذلك يا فانيا؟ سأذهب يقينًا إليه. ولم النزوح إلى سيبيريا؟ لخير أن أرتدي في الغد لباسًا أنيقًا وأن أرجّل شعري وأفرجن ملابسي. وستقدم لي أنّا أندريفنا صدر قميص جديد مقوى بالنشاء (إذ لا يستطيع المرء أن يذهب بدون ذلك إلى صاحب مقام رفيع من هذا الطراز)، وسأبتاع حذاء جديدًا، وأمضي إلى سموه فأقول له: يا صاحب السمو، أي أبانا الطيب المحسن إلينا، سامحني وأعف عني وأعطني كسرة من الخبز، امرأتي... صغاري.. أليس كذلك؟ ذلك ما يجب عليّ أن أعمل يا أنّا أندريفنا؟ ذلك ما تريدين أن يكون!».

فقالت: «أبت لست أطلب إليك ذلك مطلقًا، وإنما قلت ما قلت

دون أن أقصد إلى شيء، فلا تغضب عليّ إن رأيت في كلامي بادرة إساءة، ولكن أناشدك ألا تصرخ هكذا...».

واشتد ارتجافها من الهلع.

أعتقد أن قلبه قد تلوّى ألمًا في تلك اللحظة حين شاهد هلع أنّا أندريفنا المسكينة ودموعها. إني لمقتنع بأنه كان يعاني أكثر مما تعاني هي، بيد أنه لم يستطع التحكم في زمام نفسه. وذلك ما يحدث أحيانًا لأكثر الناس طيبة إذا كانوا من ذوي الأعصاب الضعيفة، فتراهم مع ما لهم من طيبة القلب ينساقون إلى أن يجدوا متعة في همومهم، فيندفعوا إلى التعبير عنها ويقولون كل ما يرين على صدورهم مهما كلفهم ذلك ومهما آلموا بأقوالهم هذه شخصًا آخر بريئًا، بل إنهم لا يؤثرون توجيه كلامهم إلى أقرب الناس إليهم وأعزهم عليهم. وتجد مثل ذلك في النساء فإنهن يجدن في أغلب الأحيان حاجة إلى الشعور بأنهن تعيسات وأنهن قد أهنّ، وإن لم يكن ثمة سبب لهذا الشعور بهذا أو ذاك، على أن هناك كذلك رجالًا كثيرين يشبهون النساء في ذلك شبهًا قويًّا، بل إنهم رجال أقوياء ليس فيهم أية ظاهرة من ظواهر النساء عدا هذه. وكذلك أحسّ نيكولاي سيرجيفتش دافعًا لا يقاوم، إلى مشاجرة أحد الناس مع أنه يعاني من ذلك مما يعاني غيره.

وأذكر أني سألت نفسي في تلك اللحظة: ألم يكن قد انتوى أن يخطو خطوة كتلك التي جالت بذهن أنّا أندريفنا؟ ولم لا يكون الله قد هداه سبيل الخير فقصد فعلًا إلى ناتاشا، ثم بدا له في الطريق أن يعدل عن هدفه؟ أو لعله قد حدث حادث- وهذا ممكن دائمًا- فصرفه عن

نيته، فعاد إلى البيت حزينًا مستكينًا خزيان من إحساسه ورغباته وراح يبحث عن فريسة يطلق عليها غضبه من ضعف نفسه هذا، فاتجه فكره إلى تلك التي يرى أن لها مثل رغباته وإحساساته، على نحو ما بدا له فيها منذ لحظة. ولعله عندما اعتزم الصفح عن ابنته كان قد تصور فعلًا ما سيغمر أنّا أندريفنا من سرور وابتهاج. فلما أخفق مسعاه الآن أضحت هي- بالبديهة- أول من يلقي عليه التبعة.

وقد تأثر في بادئ الأمر بعض الشيء من نظراتها القانطة وارتعادها فرقًا منه، وبدا عليه أنه خجل من غضبه، فكبح جماح نفسه لحظة. وخيم علينا الصمت جميعًا وتكلفت ألا أنظر إليه، على أن هذه اللحظة السعيدة لم تدم إلا قليلًا إذ كان عليه أن يجد متنفسًا لغضبه مهما يكن الثمن، وكان ذلك بترك العنان لغيظه المكبوت أو بالاندفاع في قذف السباب وصب اللعنات.

ثم قال فجأة: «أتدري يا فانيا؟ إن ذلك ليحزنني. لم أكن أود أن أتحدث عن هذا الأمر، بيد أن الوقت قد حان ولا محيص من التحدث فيه مرة في صراحة تامة دون مداورة أو مواربة، شأن الرجل الشريف. أتفهم ما أريد يا فانيا؟ إني مسرور أشد السرور بمقدمك، ولهذا أحب أن أتحدث بين يديك بصوت عال كي يسمع آخرون أيضًا، فيعلموا أنني ضقت في النهاية ذرعًا بكل هذه المضايقات، وهذه الدموع والتنهدات، وبهذا الشقاء المخيم بأجمعه. إن الذي اقتلعته من قلبي مرة، وربما كان مصحوبًا بكثير من الدماء والألم، لن يعود أبدًا إلى مدّ جذوره فيه! أجل، ذلك رأيي، وأنا أعمل به. إني أتحدث عن ذلك الذي وقع منذ نصف

عام. أفاهم أنت يا فانيا؟ إنني أقول كل شيء وبصراحة تامة، حتى لا تدع كلماتي موضعًا لأي شك» ثم قال وهو ينظر إليّ بعينين متقدتين متحاميًا أن يشاهد نظرات امراته المذعورة: «أكرر القول: لا أريد هذه المضايقات الشائنة! وأشد ما يحزّ في نفسي أنهم جميعًا يحسبونني مغفلًا، بل هم يعدونني أخس الأوغاد، ويرون أني أنطوي على إحساسات دنيئة خائرة... بل لعلهم ظنوا أن الهم قد أطاح لبّي... ألا ساء ما يظنون. فأما أنا فقد ألقيت كل هذه الأمور عن كاهلي ونسيت تلك الحوادث القديمة فأصبحت بلا ذكريات... أجل تلك هي حالي وسأظل كذلك».

ووثب واقفًا وضرب بجمع يده على المنضدة حتى سمع رنين الأقداح. فقلت وقد نظرت إليه نظرة كلها غيظ وحنق حتى كاد يتلفت مني زمام نفسي: «نيكولاي سيرجيفتش! ألا تأخذك بعض الشفقة على أنّا أندريفنا؟ انظر ماذا فعلت بها!» ولكني بهذا القول كنت كمن صبّ الزيت على النار.

فإنه زمجر مرتجفًا وقد شحب وجهه حتى صار كوجوه الموتى وقال: «الشفقة؟ أنا أيضًا لم ينطو لي قلب أحد على شفقة، أيكون من الواجب عليّ أن أظل مشفقًا عليهم وأنا أجدهم يأتمرون بي في بيتي، بي أنا الذي سلب شرفه، وذلك كله من أجل ابنة فاسدة تستحق لعنة والديها وكل ما في الجحيم من عقاب!...».

فصرخت أنّا أندريفنا فزعة: «أبت نيكولاي سيرجيفتش، لا تلعنها. افعل ما شئت إلا أن تلعن ابنتك!».

فصاح الهرم وقد رفع صوته أكثر مما كان: «بل إني ألعنها، لأنكم

تطلبون إليّ أنا المهان المثلوم العرض، أن أسعى إليها وأستصفحها. أجل، أجل هو هكذا. إنكم تعذبونني بذلك كل يوم، ليل نهار، في منزلي أنا، بالدموع المنهمرة والزفرات المتصاعدة والتلميحات السخيفة... تريدونني أن أكون مستضعفًا رخوًا سهل الانثناء... أترى يا فانيا؟» ثم بادر فأخرج بيده المرتعشة أوراقًا من جيبه الجانبي، قائلًا: «ها هي ذي بعض الأوراق الخاصة بالقضية ترى مكتوبًا فيها أني لص مخادع اغتال مال من أحسن إليه!... من جرّائها هي دمغت بالنذالة والإجرام! دونك الأوراق فألق نظرة عليها».

واستمر يخرج من جيب جانبي أوراقًا شتى يلقي بها الواحدة تلو الأخرى على المنضدة، باحثًا في لهفة وفروغ صبر عن الورقة التي يريد أن يريني إياها، بيد أنها كانت تتعمد ألا يعثر عليها، فانتزع من جيبه دفعة واحدة جميع الأوراق التي استطاعت يده أن تمسك بها، وإذا بشيء قد سقط على النضد فرّن رنينًا... وكانت هي المدلاة المفقودة.

كدت لا أصدق عيني ونزا الدم إلى رأس الهرم، فاحمر وجهه احمرار النار وعرته قشعريرة. أما أنّا أندريفنا فقد فزعت وظلت واجمة، ثم بسطت كفيها وهي تدنو إليه ضارعة، واستنار وجهها بأمل مشرق سار، فإن احمرار وجهه بله ارتباكه وخجله منا... أجل إنها لم تكن مخطئة وقد علمت الآن كيف اختفت المدلاة.

علمت الآن أنه عثر عليها وأنه فرح بلقطته، فأخفاها عن جميع العيون وهو يرتعش من الفرح والغيرة. وربما كان يخلو بنفسه في مكان ما، محتجبًا عن الناس أجمعين، فيحدّق بحب غير محدود إلى وجه

ابنته الوحيدة، ثم ينظر إليه ويعيد النظر دون أن يروى من رؤيته، وربما كان ينفرد في غرفته- كما تفعل الأم المسكينة ليتجاذب -دون انزعاج- أطراف الحديث هو وحبيبته ناتاشا، فيقدّر إجاباتها ثم يعود فيعقب على ما تقول. وربما كان إذا ما جنّه الليل يمسح على الصورة المحبوبة ويقبلها بحنين مضن ونشيج مكبوت ويستبدل بصب اللعنة عليها التماس البركة والغفران لتلك التي كان يلعنها أمام الناس طرًا ويبدي عزوفه عن رؤيتها.

وصاحت أنّا أندريفنا وقد عجزت عن كبح جماح عواطفها حتى بين يدي ذلك الأب القاسي الذي ما كاد ينتهي من لعن ابنته: «أيها الحبيب العزيز، أما زلت تحبها كل هذا الحب!».

على أنه ما كاد يسمع كلماتها حتى اشتعل في عينيه غضب جنونيّ، فأمسك بالميدالية وقذف بها بكل قوته إلى أرض الغرفة وشرع يطؤها بقدميه كالمخبول.

وصرخ وقد أوشك أن يتميز من الغيظ: «كوني ملعونة إلى أبد الآبدين، إلى أبد الآبدين، إلى أبد الآبدين».

فصاحت العجوز: «أي إلهي العظيم. إنها ابنتي، ابنتي ناتاشا، صورتها... لقد وطأها بقدميه، بقدميه! أيها الطاغية، أيها الوحش القاسي الذي لا قلب له».

فلما سمع الشيخ من امرأته هتاف التوجع، وقف من حدته واندفاعه وتولاه الذعر مما أتى، وسرعان ما لقط الميدالية وهم بمغادرة الغرفة، ولكنه لم يكد يخطو خطوتين حتى جثا على ركبته معتمدًا بيديه على

الأريكة التي أمامه تاركًا رأسه يسقط على صدره كالمغشي عليه.

وبكى كالطفل، كالمرأة، منتحبًا حتى كاد النحيب أن يشق صدره. ذلك الذي كان الجميع يرتجفون بين يديه منذ قليل، أضحى في لحظة واحدة أضعف من الطفل. واهًا له، إنه لا يستطيع الآن أن يلعن أحدًا، ولن يخجل بعد الآن من أحد كائنًا من كان، حتى منا نحن. وحدث في لحظة فاض فيها إحساسه بالحب أن غمرَ الصورة التي كان قد وطئها منذ لحظات، بقبلات لا عِداد لها، وبدا كأن كلّ ما كان قد حبسه عن ابنته ذلك الزمن الطويل من حنان وحب، يريد أن ينفجر الآن مرة واحدة بقوة لا تقاوم، بقوة تهدّده هو نفسه بأن تذروه هباء.

فصاحت أنّا أندريفنا وقد انفجرت بالبكاء: «اغفر لها، اغفر لها» وانثنت عليه فاحتضنته وهي تقول: «أعدها إلى منزل الوالد أيها العزيز يثبك الإله الحبيب على ذلك يوم الدينونة...».

فصاح بصوت أجش مختنق: «كلا، كلا. أما هذا فلا. أبدًا أبدًا أبدًا».

* * *

الفصل الرابع عشر

ذهبت إلى ناتاشا متأخرًا جدًّا، في نحو الساعة العاشرة. وكانت في ذلك الحين تقطن بالطبقة الرابعة في دار قذرة يملكها التاجر كولوتشكن على ضفّة الفونتانكا بمقربة من قنطرة سيميونوفسكي.

وكانت في المدة الأولى عقب فرارها من منزل والديها تسكن مع أليوشا في مسكن صغير، ولكنه ظريف بديع للغاية بالطبقة الثالثة في دار تشرف على نهر لتينايا. بيد أن وسائل الأمير المالية لم تلبث أن نفدت، ولم يعرف كيف يصير معلمًا للموسيقى، ولكنه عرف كيف يأتي بالمال من سبيل آخر، فأخذ يستدين وأخذت الديون تتراكم عليه. وقد أنفق ذلك المال في تزيين مسكنه وإهداء هدايا ثمينة إلى ناتاشا، غير أن ناتاشا كانت تلومه على هذا التبذير عابسة، باكية أحيانًا. وكان أليوشا القوي العاطفة الرقيق الإحساس يقضي أحيانًا أسبوعًا كاملًا يفكر بشغف جمّ فيما عسى أن يتحفها به من الهدايا، وكيف تتقبل هداياه، ويغمره السرور كأنه في عيد، فينبئني سلفًا في حمية قوية بجميع خططه وآماله. ولكن فأله كان يخيب دائمًا بما يرى من عبوسها ودموعها، فيتحطم إلى حد يستدر الرثاء. ثم حدث فيما بعد أن أصبحا يتعاتبان ويتنازعان دائمًا بسبب تلك

الهدايا. وعدا ذلك فقد أصبح أليوشا- دون أن ترى ناتاشا- ينفق على خاصّة نفسه أموالًا كثيرة ويقضي مع أخدانه ليالي لهوٍ ومرح، وأضحى يخونها ويخالط أشتاتًا من النساء، و مع ذلك كان يحب ناتاشا أكثر من الجميع، يحبها حبًّا يجشمه آلامًا مبرّحة، ولطالما أتى إليّ متكدرًا كاسف الوجه يقول إنه لا يساوي خنصر ناتاشا، وإنه رجل سوء وشر، وإنه قاصر عن فهمها وغير جدير بحبها. ولا شك أنه كان مصيبًا في هذا القول إلى حدّ ما: فإنهما كانا غير متجانسين مطلقًا، فقد كان هو يشعر أمامها أنه طفل، وكانت هي أيضًا لا تنظر إليه دائمًا إلا على أنه كذلك، وقد اعترف لي مرة، ودموعه تنهمر، بإحدى مغامراته العاطفية، وكان يتوسل إليَّ في الوقت نفسه ألا أخبر ناتاشا بشيء من ذلك، حتى إذا ما ذهب معي إليها بعد هذا الاعتراف وهو خجل قانط (وكان لا يرى مناصًا من أن أكون معه، إذ كان لا يجسر بعد عمل شنيع كهذا أن يشخص ببصره إليها، وكنت أنا وحدي القادر على معاونته) كانت نظرةٌ واحدة من ناتاشا إليه كافية لأن تجعلها تدرك الأمر كله. وقد كانت تتملكها غيرة شديدة، ولكنها مع ذلك كانت- ولست أدري لماذا- تغفر له كل حماقاته ونزواته. وكانت السيرة وفي مثل هذه الحال أن تسير على النحو الآتي: يذهب أليوشا في صحبتي ويبدأ معها بعض الحديث وهو مضطربٌ خائر العزم يتطلع إلى عينيها في رقة واستحياء، فتفطن في التوّ إلى أنه ينوء بإثم اقترفه، بيد أنها لا تدعه يدرك ذلك منها ولا تسبقه إلى الحديث عنه أو الاستفهام عن شيء ما، بل تبالغ في ترفقها به وملاطفتها إياه، فإذا هي أكثر ظرفًا وأشد تأنيسًا. ولم تكن في ذلك ممثلة أو ماكرة، كلا، فقد كان يسعد هذه المخلوقة الجذّابة

ويسرُّها أعظم السرور أن تصفح وأن تكون طيبة متسامحة، كأنما كان في عمل الصفح إغراء رقيق لذيذ يجذبها إلى أن تصفح، هذا إلى أن الأمر في ذلك الحين لم يكن يتصل إلا بنسوة عاهرات. وكان أليوشا حين يراها تقابله بالرقة والصفح، يعجز عن الاحتفاظ بسره فيعترف لها بكل شيء دون أن تسأله هي شيئًا، وكان يفعل ذلك وكأنه كان يلقي عن صدره عبئًا وليعودا على حدّ قوله، «كما كانا» حتى إذا ما ظفر بصفحها فقد توازنه، بل كان في بعض الأحايين يبكي من التأثر والسرور، فيشرع يقبلها ويعانقها، ثم يستخفه الفرح عادة فيقصّ في صراحة كل تفاصيل مغامرته مع من ظفر بها من النساء، وتراه يضحك ويمزح ويأخذ في امتداح ناتاشا والثناء عليها بالخير، وهكذا تنتهي الأمسيّة دائمًا في سرور وابتهاج. ولما نضبت جميع موارده المالية، بدأ يبيع أمتعته وحاجه، وانتقل، تلبية لرغبة ناتاشا، إلى مسكن صغير قليل الأجر على ضفة الفونتنكا. وأخذت البيوع تتوالى حتى أن ناتاشا تخلت عن ملابسها وشرعت تبحث عن عمل، فلما علم أليوشا بذلك لم يقف يأسه عند حد، وأخذ يلعن نفسه مؤكدًا أنه يشعر باحتقاره لنفسه، ولكن ذلك لم يؤدِّ إلى تحسين الحالة. ونفد في النهاية آخر ما كان لديهما من المال، فلم يبق إلا أن تبحث ناتاشا عن عمل، بيد أن الأجر كان ضئيلًا.

كان أليوشا قبل ذلك العهد، حين كان مقيمًا مع والده، يشتجر معه كثيرًا بسبب المال، وكانت إذ ذاك رغبة الأمير في تزويج ابنه من كاترينا فيودوروفنا فيليمونوفا ابنة زوج الكونتة لا تزال بعد فكرة لم يقطع فيها برأي، ولكن الأمير تشبّث بهذه الفكرة وأصر على تنفيذها فجمع بين

أليوشا وتلك التي ستكون خطيبته وحثّه أن يبذل جهده في أن يقع من نفسها موقع الرضا، وعمل على إقناعه برأيه، ملحًّا مشددًا مرة، مبيِّنًا الأسباب المعقولة مرة أخرى، على أن المسألة قد حبطت لاصطدامها بمعارضة الكونتة. كان الأب في ذلك الوقت يغض نظره عن علاقة ابنه بناتاشا تاركًا الأمر فيها للزمن وهو مطمئن آمن لما يعلمه من تقلب ابنه ونزقه وقلة ثباته، آمل أن تنفصم هذه العلاقة، كما انفصم غيرها، بعد فترة قصيرة. أما إمكان أن يتزوج ابنه من ناتاشا، فذلك ما لم يخشه قط. وأما الحبيبان نفساهما فقد أرجآ عقد زواجهما إلى ما بعد إصلاح ذات بين والديهما إصلاحًا تتغير به الأحوال، يضاف إلى ذلك أن ناتاشا كانت لا تميل إلى الإكثار من الحديث في هذا الأمر. وقد أسرّ إليّ أليوشا أن والده يجد في هذه الحادثة نوعًا من الترضي، إذ يسره ولا ريب إذلال آل إشمنيف، ولكنه مراعاة للمظاهر يعلن إلى الابن أنه غير مرتاح لمسلكه ويضيق عليه في نفقاته اليومية، التي لم تكن قبل ذلك تزيد عن حاجته (فإنه لم يكن قط سخيًّا عليه في هذا الصدد) وينذره بحبسها عنه جملة. بيد أنه لم يلبث أن رحل في إثر الكونتة إلى بولونيا حيث كانت تقضي بعض شؤون لها. وهناك أيضًا تابع بلا كلال ولا ملل تدبيراته الخاصة بالزواج. أجل إن أليوشا لم يكن قد بلغ سنًّا ملائمة للزواج، ولكن الخطيبة كانت من الثراء بدرجة لا يستطيع المرء معها ترك هذه الفرصة تفلت دون انتهازها. وهكذا بلغ الأمير غايته في النهاية، وطرقت أسماعنا شائعة الاتفاق على الصفقة، وحدث في هذا الزمن الذي أروي وقائعه أن عاد الأمير إلى بطرسبورج فلقي ابنه لقاء كان غاية في الود، إلا أن استمرار صلته بناتاشا ساءه، فدبّ إليه القلق وساوره الخوف والانزعاج، وطلب

إليه في صرامة وإصرار أن يقطع هذه الصلة، ثم سرعان ما عثر على وسيلة أنجع من التهديد، فقاد ابنه إلى الكونتة. نعم إن ابنة زوجها لم تكن قد جاوزت طور الطفولة إلا منذ قليل، بيد أنها كانت ذات جمال فتان فطري غير مموّه، وخلال نفسية قل نظيرها، وروح نقي طاهر، وخلق مرح متزن جذاب. ولقد رأى الأمير بمكره أن نصف العام المنصرم لم ينقض دون أن يحدث أثره، فعادت ناتاشا وليس لها على ابنه فتنة الجديد وجاذبيته، وعلم أن ابنه سينظر منذ الآن إلى عروسه المقترحة بعين تخالف كل المخالفة تلك التي كان ينظر بها إليها منذ نصف عام، وقد كان مصيبًا فيما ارتأى ولو بعض الإصابة. فإن أليوشا لم يلبث أن افتتن بها، يضاف إلى ذلك أن الأمير عاد مرة واحدة يعامل ابنه معاملة غاية في الود (وإن كان لا يزال يحبس عنه نفقاته). وقد أدرك أليوشا تمام الإدراك أن وراء هذه الرقة الجديدة أمرًا صارمًا لا نقض له، فحزنه ذلك، بيد أن ذلك الحزن لم يكن ليعدل حزنه لو أنه حرم رؤية كاترينا فيودوروفنا سحابة يوم، وكنت قد علمت أنه أمسك عن زيارة ناتاشا خمسة أيام كاملة، فلما غادرت آل إشمنيف في طريقي إليها، أخذت- والقلب يخفق- أحاول أن أحزر ما هي موشكة أن تنبئني به. وبصرت بالنور ينبعث من نافذتها وأنا لا أزال على مدى بعيد منها، فقد كنا اتفقنا على أن تضع في النافذة سراجًا عندما تكون لها رغبة ملحة في محادثتي سريعًا، فإذا ما اتفق أن مررت من هناك (وذلك ما يحدث في الغالب كل ليلة) استطعت أن أعرف من هذه الإشارة غير الاعتيادية أنها تنتظرني وأنها في حاجة إليَّ. وقد كانت في الزمن الأخير تضع السراج في النافذة في معظم الأيام.

الفصل الخامس عشر

وجدت ناتاشا وحدها تسير في الغرفة جيئة وذهابًا وهي مستغرقة في تفكير عميق، وقد ضمت ذراعيها فوق صدرها، وكانت غلاية الشاي على المائدة وقد خبت نارها. وبدا لي أنها لبثت تنتظرني طويلًا، فلما وافيتها مدت إليَّ يدها وابتسمت وهي صامتة. وكان وجهها شاحبًا يرتسم عليه معنى من معاني الألم، وكان في ابتسامتها شيء من معاناة العذاب واصطناع الجلد. وبدت لي عيناها الصافيتان الزرقاوان أوسع مما كانتا قبل، وشعرها أشدّ كثافة، وذلك لما انتابها من الهزال والتعس.

وقالت وهي تصافحني: «ظننت أنك لن تأتي، فكنت موشكة أن أرسل إليك مافرا، إذ توهمت أن يكون المرض قد عاودك مرة أخرى».

«كلا، فلست مريضًا، وإنما اضطررت أن أتأخر بعض الوقت، وسأنبئك في التوّ بكل شيء. ولكن ماذا ألمّ بك، يا ناتاشا؟ هل من جديد؟».

فأجابت دهشة: «كلا، لم يجدّ شيء.. وماذا عسى أن يجدّ؟».

«لأنك كتبت إليَّ، كتبت إليَّ أمس فقط تحتّمين حضوري، وعيّنت الوقت الذي لم يكن لي أن أتقدم أو أتأخر عنه، وذلك أمر عجيب!».

«أجل، ذلك حق. ووجه ذلك أني كنت أنتظره أمس».

«كيف؟ ألا يزال منقطعًا عن المجيء؟».

فقالت: «بلى. وقد رأيت أنه إذا لم يأت، كان لزامًا عليّ أن أتحدث إليك مرة في هذا الأمر» وصمتت.

«وهل انتظرته هذا المساء أيضًا؟».

«كلا، لم أنتظره هذا المساء، فهو اليوم هناك».

«وإذن فأنت تعتقدين يا ناتاشا أنه لن يجيء إلى هنا بعد الآن؟».

فأجابت: «من البديهي أنه سيجيء» وحدجتني بنظرة حادّة جادّة.

لقد ضايقها سؤالي الذي تعجّلت به، فصمتنا، وتابعنا مسيرنا في الغرفة ذهابًا وجيئة.

ثم استأنفت الكلام باسمة وهي تقول: «لقد ظللت أنتظرك طويلًا يا فانيا. أتدري ما الذي فعلته خلال ذلك؟ لقد لبثت هنا أذرع الغرفة ذهابًا وجيئة، واستظهرت خلال ذلك إحدى القصائد. أما تزال تذكر الجلجل أو الرحيل في الشتاء، وغلاية الشاي تغلي فوق مائدة من البلوط؟ لقد قرأناها مرة معًا:

انتهت العاصفة الثلجية، وتلألأت أضواء

تنبعث من الملايين من عيون الليل الكليلة الساهرة

.....

وبعد ذلك:

وهنا طرق أذني غناء خافت بالغ الغاية من الرقة

ممتزجًا بصلصلة الجلجل

متى يأتي، متى يأتي أحبّ الناس إلى قلبي

ليهدأ ويطمئن على صدري؟

إن حياتي من دونه لا تعد حياة. وهاتيك أشعة الفجر الوردية

تترقرق على ستار الثلج الذي يكسو زجاج النافذة

وغلاية الشاي تغلي فوق مائدة من البلوط

ونار المدفأة تزمزم ويسطع نورها

على أستار الفراش الموشّاة بالأزهار...

ما أجمل هذا وما أروع ما ينطوي عليه من ألم النفس، وما أخصب ما فيه من الخيال يا فانيا! ثم تلك الصورة المنوعة الألوان التي تجعل المرء يحس أنه في منزله! لقد أشير فيها إلى كل شيء مجرد إشارة، لم يرسم إلا الإطار وترك للسامع أن يضع داخله أية صورة شاء. ثم هذان الإحساسان المتباينان، هذا التضادّ القويّ بين الحاضر والماضي. غلاية الشاي وأستار الفراش الموشّاة بالأزهار. كل ذلك مألوف معتاد... على نحو ما نرى في منازل أهالي مدننا الصغيرة. وفي وسعي أن أرسم بالريشة هذا المنزل، فهو جديد مزين، مبني بدعامات خشبية ضخمة لم تثبت فوقها الألواح الخشبية بعد... ثم تلك الصورة الأخرى أيضًا:

ثم إذا بي أسمع الغناء نفسه يحمله النسيم ثانية مع صلصلة الجلجل

فأحسست نغمه الشجي وأنا متعبة مهمومة

إلى أين ذهب صديقي؟ إنه لن يعود

ليقبلني ويضمني إلى صدره
فماذا يهمني من هذه الحياة؟ إني لأسفك دموعي عبثًا
ما أمرّ الوحشة في هذه الغرفة الضيقة
وهذه الريح الباردة تنفذ إليّ من خصاص ألواحها الخشبية
ولم يبق في الحديقة سوى كرزة واحدة
وحتى هذه لا أستطيع تمييزها من وراء زجاج النافذة لمكان الجليد
ومن يدري، لعل الصقيع قد أحرقها منذ زمن طويل!
أية حياة هذه. إن الأستار الموشّاة بالأزهار قد حال لونها البهيج
وأنا أهيم سقيمة دنفًا نائية عن عشيرتي وقومي
فليس لي من يحبني أو يبغضني
عدا العجوز التي تغمغم وحدها...

«أهيم سقيمة دنفًا» ما أصدق هذه الملاحظة، وكذلك قوله: «فليس لي من يحبني أو يبغضني» ما أشدّ ما يفيض به من رقة وشعور بالحاجة إلى الحياة! وما أشد عذاب الذكرى، إنه عذاب ما يزال المرء يهيئه لنفسه مرة بعد أخرى، وهو يرى فيه كل ما بقي له من لذة... يا ألله ما أجمل هذا وأروعه! كأنما هو منتزع من صميم الحياة!».

وصمتت محاولة أن تكبت النشيج الذي ارتفع إلى لهاتها، ثم قالت: «عزيزي فانيا! صديقي فانيا!» ثم عادت فجأة إلى الصمت كأنها أمست لا تعرف ما يجب أن تقول، أو لعله لم يكن في الأمر إلا أنها نطقت بذلك مستسلمة لعاطفة طارئة، دون أن تكون قد فكرت في شيء.

وكنا لا نزال نقطع الغرفة ذهابًا وجيئة، وكان المصباح الصغير يزهو باعثًا ضوءه بإزاء الصورة المقدسة، وكانت ناتاشا في الزمن الأخير قد أخذت تزداد إيمانًا وتقوى، غير أنها كانت تكره أن يحادثها أحد في ذلك.

وقلت: «أرى مصباحك مضيئًا، فهل الغد يوم العيد؟».

«كلا، ليس الأمر كذلك... ولكن أرجوك يا فانيا أن تقعد حتى لا ينال منك التعب. ألا تتناول الشاي؟ أحسب أنك لم تشرب شايك بعد».

«لنقعد يا ناتاشا. أما الشاي فقد شربته».

«ومن أين جئت الآن؟».

«من عندهما».

وكنا نشير إلى بيت والديها بهذه الكلمة.

«من عندهما؟ وكيف كان ذلك؟ أذهبت من تلقاء نفسك، أم هما استدعياك؟».

وانهالت عليّ بالأسئلة وقد شحب وجهها من الانفعال، فقصصت عليها ما كان من مقابلتي لوالدها وحديثي مع والدتها ومشهد (الميدالية)، قصصت كل ذلك مسهبًا بجميع تفصيلاته، إذ لم يسبق لي قط أن أخفيت عنها شيئًا. وكانت تسمع بلهفة وتتشرب كلماتي من شفتي كلمة كلمة، وكانت الدموع تترقرق في عينيها، فقد هزّها مشهد (الميدالية) من فرعها إلى قدمها.

وكانت تكثر من مقاطعة حديثي قائلة: «مهلًا يا فانيا مهلًا، أعد ذلك على مسمعي. لا بد أن تقص عليَّ كل شيء، كل شيء وبمنتهى الدقة!

إنك لا تفصّل القصة تفصيلًا شافيًا...».

فقصصتها عليها مرة ومرة، وهي تقاطعني في كل لحظة بالأسئلة المتوالية عن مختلف التفاصيل.

«وهل تعتقد حقًّا أنه كان في طريقه إليَّ؟».

«لست أدري يا ناتاشا، ولست أريد أن أزعم في هذا الأمر أي زعم، فأما أنه يشتاقك ويحنُّ إليك وأنه لا يزال يحبك، فأمر لا ريب فيه، وأما أنه كان يقصد إليك فعلًا فهذا... هذا....».

فقالت متابعة حديثها: «وتقبيل (الميدالية)؟ وماذا قال حين قبَّلها؟».

«لا شيء إلا بضعة هتافات لا اتصال بينها، ناداك بأرقّ الأسماء، ودعاك إلى العودة...».

«دعاني إلى العودة؟».

«أجل».

فنشجت.

وقالت: «يا للمسكينين!» ثم قالت بعد فترة صمت: «ليس يدهشني أن يكون على علم بكل شيء، فلقد كان كذلك يعرف دائمًا أحدث الأنباء عن والد أليوشا».

فقلت وقد عراني القنوط: «ناتاشا، هلمي نذهب إليهما؟».

فهتفت: «متى؟» ونهضت من جلستها وقد شحب وجهها إذ حسبتني أطالبها بالذهاب في التوّ.

وتابعت القول وقد ألقت يدها على كتفي وابتسمت وهي أسيانة مكتئبة: «كلا يا فانيا. كلا يا عزيزي. إنك تقول لي دائمًا مثل هذا، ولكن... من الخير ألا نتحدث في ذلك».

فناديت محزونًا: «إذن فتلك الفرقة المشئومة لن يكون لها نهاية أبدًا أبدًا؟ أحقًّا قد بلغت بك الكبرياء حدًّا لا تستطيعين معه أن تخطي الخطوة الأولى؟ إنه لحقيق بك أن تكوني البادئة بالسعي إلى الصلح، ولعل والدك لا ينتظر غير هذا ليصفح ويغفر... إنه والدك، وقد غاليت في إيلامه وإيذائه. احترمي إباءه واقدري كبرياءه، فهي طبيعية عادلة، ليس يسعك إلا هذا، فجربي! فسيصفح عنك ويغتفر لك كل شيء».

«كلّ شيء على الإطلاق! ذلك محال، فلا تعد على سمعي عبارات اللوم والتثريب في هذا يا فانيا، فليس من وراء ذلك جدوى، ولقد ظللت أفكر وأؤامر نفسي ليل نهار حتى أنه لم يكن ينقضي يوم واحد منذ فارقتهما دون أن أفكر في هذا الأمر. ثم ما أكثر ما تحامينا الكلام عن ذلك، أرأيت؟ إنك لتعرف أن ذلك متعذر كل التعذر».

«عليك أن تحاولي».

«لا يا صديقي فذلك لا يكون. ولو أنني حاولت لما أثمرت المحاولة غير الإمعان في إثارة حفيظته عليَّ، وإن ما يمضي مرة لن يعود أبدًا. أو تدري لم يتعذر أن تعود الحال إلى ما كانت؟ لأن أيام طفولتي السعيدة التي قضيتها معهما هي أيضًا لن تعود. على أنه لو سامحني الوالد فعلًا، لكان من الصعب عليه الآن أن يعرفني، فهو يحب فيَّ الفتاة، الطفلة الكبيرة، ويغتبط لسذاجتي الطفلية ويسره دومًا أن يمرر يده على رأسي مدللًا كما

كان يفعل عندما كنت في السابعة من عمري، إذ كنت أجلس على ركبتيه وأنشد له بعض الأغاني. وقد كان منذ أقدم أيام طفولتي الباكرة حتى آخر يوم يوافيني في فراشي ويلوّح عليَّ بيده راسمًا الصليب، وقد اشترى لي قبل اليوم المقدور بنحو أربعة أسابيع ودون أن يخبرني بذلك قرطًا (بيد أني كنت أعلم ذلك من قبل) وقد تولاه لذلك سرور كسرور الأطفال، وأخذ يصور لنفسه مدى ما سيغمرني من السعادة بتلك الهدية، فلما أنبأته بأني كنت على علم بالأمر من زمن طويل، بدا عليه الغضب وأخذ يوجه قوارص الكلم إلى الجميع عامة وإليَّ خاصة. ولقد لاحظ قبل فراري بثلاثة أيام أني محطّمة مهدمة، فأضناه الهم وأضحى حزينًا أسفًا، فماذا تظنه قد فعل؟ إنه- رغبة منه في توجيه تفكيري وجهة أخرى- أهدى إليَّ بطاقة لمشاهدة التمثيل في أحد المسارح. لقد رأى في ذلك مفرّجًا لهمّي. وإني لأؤكد لك أنه إنما كان يعرف فيَّ الطفلة الصغيرة ويحبها في شخصي، وما كان في وسعه قط أن يتصور أنني سأغدو امرأة يومًا في حياتي... إن ذلك لم يدر بخلده قط، فلو عدت إلى المنزل لأنكرني. فإن صفح، فمن تكون تلك التي سيواجهها؟ لقد صرت إنسانة أخرى ولم أبق طفلة، إذ قد عانيت في الحياة كثيرًا. ومهما بذلت في سبيل إرضائه فسيظل أبدًا يحنّ إلى سعادته المنصرمة ويأسي لأني لم أبق كما كنت، لم أبق تلك الطفلة التي كان يولع بها. وإن الماضي ليبدو للمرء دائمًا في ضوء ورديّ فتصير ذكراه عذابًا مقيمًا» ثم صاحت: «ما كان أجمل الماضي، يا فانيا» وطغت عليها الذكرى المنبعثة من قلبها الكليم.

فأجبتها قائلًا: «كل ما ذكرته حق يا ناتاشا. أجل، هو حق، ولذلك

يجب عليه أن يستأنف معرفته لك من جديد، وأن يتعلم حبك ثانية. إن أهم شيء هو أن يتعرفك ويتفهمك من جديد. ألا ترين هذا الرأي؟ وإذ ذاك لن يلبث أن يحبك ثانية. أتعتقدين حقًّا أنه لن يعرفك ولن يفهمك، وهو الذي يحمل هذا القلب الكبير؟».

«ويحك يا فانيا. لا تصور لي الأمر على هذا النحو، فما هي الأشياء الكثيرة التي يمكن للمرء أن يعرفها فيَّ؟ إنني لم أرم إلى هذا المعنى. ثم هنالك أمر آخر: إن محبة الآباء أيضًا تشوبها الغيرة. لقد ساءه أن يكون كل ذلك بيني وبين أليوشا. وأن يبتّ في الأمر بتًّا حاسمًا على هذا النحو دون أن يتبينه هو من قبل أو يعرف منه شيئًا. وعلمه بأنه لم يفطن إلى أقل شيء من ذلك قبل وقوعه يجعله يسند جميع عواقب هذا الحب المشئومة: هربي وكل الأشياء الأخرى، إلى تكتمي الشديد الذي هو أمارة العقوق، فأنا لم أقصد إليه في البدء، ثم إني لم أكشف له فيما بعد، عندما تيقظ فيّ الحب، عن كل نبضة ينبضها قلبي، بل كنت على نقيض ذلك، أطوي عنه كل شيء. وإني لأؤكد لك يا فانيا أن ذلك- في واقع الأمر- قد ساءه وأوجعه وأشعره بالإهانة أكثر كثيرًا من عواقب هذا الحب نفسها: أي كوني هجرتهما وأسلمت نفسي بجميع كياني إلى عشيقي، ولو تقبّلني الآن بالود والترفّق فستظل هناك جرثومة عداء، فلا يجيء اليوم الثاني أو الثالث على الأكثر حتى يجيء الشقاق والشك والتقريع، يضاف إلى ذلك أنه لن يغفر لي أبدًا حتى يملي عليَّ شروطه، فإذا فرضنا أنني صرحت له الآن صادقة ومن أعماق قلبي أنني مدركة لمدى ما ناله من إهانة بسببي وشاعرة بمقدار ما جنيته عليه، وهذا فضلًا

عن ألمي الشديد من أنه لا يستطيع إدراك ما تقاضتنيه هذه السعادة مع أليوشا من ثمن ومن أنه لا يحس بما اضطررت إلى معاناته من ألم، أقول لو أني أتحمل ذلك كله مذعنة وآخذ على عاتقي تبعة كل شيء، لما كفاه ذلك بل لطلب إليَّ تضحية مستحيلة. سيطلب إليَّ أن ألعن ماضيّ وألعن أليوشا نفسه وأن أندم على حبي إياه، وهذا مستحيل، فلن تعود الحال إلى ما كانت عليه، وليس من اليسير عليه أن يمحو نصف العام الأخير من حياتنا. لست أستطيع أن ألعن أحدًا، وليس في وسعي أن أندم على شيء... والذي حدث لم يكن بدّ من حدوثه... لا يا فانيا فذلك مستحيل الآن. لم يحن حين ذلك بعد!».

«ومتى عسى أن يحين؟».

«لست أدري... ولعلنا لا نكون أهلًا لهذه السعادة المستقبلة دون أن نعاني حظًّا من الألم أكبر مما عانيناه، ولعله يجب علينا أن نشتريها بعذاب جديد، فبالألم يغتفر كل شيء... أواه، يا فانيا، ما أكثر ما تزخر به الحياة من آلام وأحزان!».

فسكتّ ونظرت إليها وأنا أفكر فيما تقول.

فقالت، وقد أخطأت في اسمي: «لم تنظر إليّ هذه النظرة يا أليوشا، لا، يا فانيا؟» وابتسمت قليلًا لخطئها.

«ابتسامتك لفتت نظري يا ناتاشا، فمن أين جاءتك؟ لم يحدث قط أن ابتسمت مثلها!».

«وما تراه غريبًا في ابتسامتي؟».

«إنها لا تزال طفلية بريئة كما كانت من قبل، لا ريب في ذلك، ولكن.. عندما تبتسمين الآن يشعر المرء أن آلامًا مروّعة ترين على قلبك. إنك تبدين تاعسة يا ناتاشا، ولكن شعرك ازداد كثافة.. ما هذا الثوب الذي ترتدين؟ هل حِيكَ عندهما؟».

فأجابت، وهي تنظر إليّ في رقة: «ما أكثر ما تضمره لي من حب يا فانيا. وكيف حالك أنت؟ لعلك سائر في سبيل التقدم؟».

«لم يتغير شيء، فلا زلت معنيًّا بالقصة التي أضعها، وأجد في كتابتها صعوبة كبيرة في بعض الأحيان، ولذلك كان تقدمي في عملي يسيرًا، إذ يعوزني الإلهام وفيض الوجدان. في إمكاني أن أتابع الكتابة بدونهما، وقد ينتج ذلك شيئًا غير بالغ الجودة، بيد أني لا أريد أن أشوّه فكرتي الجميلة، فقد كانت هذه الفكرة دائمًا أحبّ أفكاري إليَّ. ولكني مضطر أن أنجز للمجلة شيئًا قبل الأجل المضروب. وقد بدا لي أن أدع قصتي هذه جانبًا في الوقت الحاضر، وأن أبدأ قصة أقصر منها، شيئًا خفيفًا ظريفًا ليس عليه مسحة جد كئيبة... بل تكون عكس ذلك تمامًا، كيما تبعث الفرح والسرور إلى قلوب قرائها جميعًا...».

«ما أكثر ما تعنّي نفسك. وماذا صار إليه أمر سميث؟».

«لقد واروه التراب».

«أو لم يتراء لك شبحه؟ إني أسألك جادّة، فأنت مريض يا فانيا، أعصابك مختلة جدًّا، وهذا هو منشأ ما تحسه من تصورات مختبلة. لقد لحظت ذلك فيك حين كنت تخبرني برغبتك في استئجار ذلك المسكن.

وفوق ذلك يقال إن ذلك المسكن رطب وقبيح؟...».

«أجل. وعدا ذلك فقد وقعت لي مساء اليوم حادثة... ولكني أوثر أن أقصها عليك فيما بعد».

بيد أنها صارت لا تسمع ما أقول إذ كانت قد غرقت في تفكيرها.

وقالت في النهاية: «لست أفهم كيف استطعت حينذاك أن أهجرهما. لا بد أني كنت كالمحمومة» ونظرت إليَّ نظرة من لا ينتظر جوابًا.

ولو أني أجبتها بشيء لما سمعته في تلك اللحظة.

وقالت بصوت لا يعبر عن إحساس ما: «فانيا. لقد رجوتك أن تحضر إليَّ اليوم لمسألة خطيرة».

«ماذا تريدين أن تقولي؟».

«إني تاركته».

«أتعنين أنك انفصلت عنه فعلًا، أم أنك تعتزمين ذلك؟».

«يجب أن توضع نهاية لهذا الضرب من الحياة. وقد رجوتك أن تحضر كي أفضي إليك بكل شيء، بكل ما تراكم في نفسي، وكنت أطويه عنك طوال الأيام السالفة».

وكان من دأبها إذا أرادت أن تفضي إليَّ بذات صدرها، أن تبدأ كلامها بمثل هذه الكلمات، على أنه كان يتضح في غالب الأحيان أني أكون قد علمت منها كل ما لديها من أسرار منذ زمن طويل.

«إيه يا ناتاشا، لقد طالما قلت ذلك. أجل، ليس في مقدوركما أن

تعيشا معًا، وإن صلتكما لعجيبة، فما من شيء يجمعكما، ولكن... هل لديك القدرة على ذلك؟».

«فيما مضى يا فانيا، كانت لديّ الرغبة في ذلك لا أكثر، أما الآن فأنا مزمعة تحقيقها. إني أحبه حبًّا يتجاوز كل حد، ومع ذلك فقد وضح أني أعدى أعدائه، إذ إني أهدم مستقبله. يجب أن أحرّره، فهو لا يستطيع الزواج مني، إذ ليس في إمكانه أن يقوم بعمل يخالف مشيئة والده. وأنا كذلك لست براغبة في أن يتقيّد بي، ولهذا أجدني مسرورة لكونه علقَ تلك الخطيبة التي اختاروها له إذ إن ذلك يهوّن على نفسه الانفصال عني. ينبغي عليَّ أن أفعل ذلك، وهذا واجبي... وبما أني أحبه حقًّا يجب أن أضحي بكل شيء في سبيله، وبذلك أقيم له الدليل على أني أحبه. ذلك هو واجبي. أليس كذلك؟».

«وهل اعتزمت أن تقنعيه بذلك؟».

«لست أعتزم إقناعه البتة، وسيظل شأني معه كما كان، ولو جاء في هذه اللحظة، ولا بد لي من أن أجد من الوسائل ما يهوّن عليه فراقي، فيهجرني دون أن يحس شيئًا من تبكيت الضمير، وذلك ما أتألم له يا فانيا، فامدد إليَّ يد العون. ألا تستطيع أن تسدي إليَّ نصيحة؟».

فقلت: «ليس هنالك إلا وسيلة واحدة، هي أن تتسلي عنه وتغرمي بسواه، ولكن هل يمكن أن تكون هذه الفكرة موضعًا للنظر الآن؟ إنك تعرفين طباعه، وقد فارقك منذ خمسة أيام، فلو فرضنا أنه هجرك فعلًا، لكفى أن تبعثي إليه برسالة تنبئينه فيها أنك أنت نفسك ترغبين في تركه والبعد عنه، ليحضر إليك في الحال مهرولًا».

«أرى يا فانيا أنك تضيق به ذرعًا، فلماذا؟».

«أنا؟».

«أجل أنت، أنت، أنت عدوّه، وأنت تضمر له العداوة وتجهر بها أحيانًا، ولا تستطيع التحدث عنه دون أن يبدو في حديثك الضغن والكراهية. ولقد لاحظت ألف مرة أن تنقصه وتشنيعه يبعثان فيك أعظم السرور، تشنيعه على وجه الخصوص، هذا أمر لا شك فيه».

«ولقد رميتني بذلك من قبل ألف مرة أيضًا، فدعي ذلك يا ناتاشا ولنمسك عن الحديث فيه».

فقالت: «أرغب أن أنتقل إلى مسكن آخر». ثم استطردت بعد قليل فقالت: «ولعلك غير غاضب عليّ يا فانيا؟».

«ولم تنتقلين؟ إنه سيتأثرك إلى المسكن الآخر أيضًا. ولست غاضبًا عليك، ذلك حق».

«إن الحب قويّ، وستمنعه تباريح هواه الجديد من المجيء. على أنه لو جاء لما لبث إلا لحظة ثم ينصرف. ألا تظن ذلك أنت أيضًا؟».

«لست أدري يا ناتاشا، ففيما يتعلق به، كل هذه أمور لا يمكن حسبانها مقدمًا، فهو قد يتزوج من تلك ويحتفظ بحبه لك وحدك، كما أنه قد يحبكما معًا».

«لو أنني علمت علم اليقين أنه أحبها لحزمت أمري، فلا تكتمني شيئًا. ألديك ما تحاول أن تكتمني إياه؟».

ونظرت إليَّ متسائلة وجلة.

«كلا، ليس لدي شيء يا ناتاشا، أقسم لك بشرفي. وقد كنت دائمًا صريحًا معك، على أنه يهجس بصدري في بعض الأحايين أنه قد لا يكون مولعًا بابنة زوج الكونتة كما نفرض نحن، قد لا يعدو الأمر أن يكون تأثيرًا وقع له...».

«أحقًّا تظن ذلك، يا فانيا؟ رباه، ليتني أعلم ذلك! أواه، لو أني أراه مرة واحدة، لو أني أستطيع أن أنظر إليه فحسب، إذن لقرأت في عينيه كل شيء. ولكنه لا يجيء، إنه لا يجيء».

«أتنتظرينه إذن يا ناتاشا؟».

«كلا، إنه عندها اليوم، إني أعرف ذلك، فقد بعثت من يتحسس أخباره. ليتني أراها مرة واحدة... أصغ إليّ يا فانيا، إنني أهذي أم ترى أن من الميسور أن أراها مرة، أن ألتقي بها مرة واحدة؟ ماذا ترى؟» وبقيت تنتظر إجابتي وهي نافدة الصبر.

«أما رؤيتها فميسورة، على أن تكون مجرد رؤية، وليس ذلك بالكثير».

«ومع ذلك يكفي أن أراها مرة، وعندئذ أستطيع أن أحدس بكل ما عدا ذلك. أصغ إليَّ يا فانيا، لقد أصبحت هنا سخيفة متناهية في السخف والغباء، أظل أقطع الغرفة جيئة وذهابًا، وحيدة منفردة، أعبس وأعبس وتدور الأفكار في رأسي في دوائر فتنتهي إلى حيث تبدأ، وهكذا دواليك حتى غدا رأسي ثقيلًا مكدودًا. ولقد حدثت نفسي من قبل، يا فانيا، هل تستطيع أنت أن تتعرف إليها. لقد أنبأتني ذات يوم أن الكونتة أثنت على قصتك كثيرًا، ثم إنك تغشي في بعض الأحيان الاجتماعات التي يقيمها

الأمير «ر» في الأماسيّ، وهي أيضًا تختلف إلى الأمير، فهيئ ما يلزم لكي يقدموك إليها هناك ذات مرة، ولا بأس أن يقوم أليوشا بهذا التقديم، وأنت بعد ذلك تستطيع أن تنبئني بكل شيء عنها».

«أي ناتاشا، يا عزيزتي ناتاشا، لندع الكلام في ذلك إلى ما بعد، أما المهم في الوقت الحاضر فهو: هل تعتقدين حقًّا أن لديك من القوة ما تستطيعين به أن تتحملي الفرقة والانفصال؟ انظري إلى نفسك الآن. ما أشد ما عاد إليك الانفعال!».

فهمست بصوت لا يكاد يسمع:

«إن... القوة... لديّ.. وإني أستطيع في سبيله أن أفعل أي شيء، أن أضحي بحياتي من أجله. ولكن أتدري يا فانيا، هنالك شيء واحد لا أحتمله، ذلك أنه الآن جالس إلى جانبها يثرثر ويضحك كما هو شأنه هنا دائمًا... ويحدق في حدقتيها، فهو دائمًا يحدق في الحدقتين، دون أن يخطر على باله أنني هنا... معك...».

ولم تتم حديثها بل نظرت إليَّ نظرة ملؤها اليأس.

«ولكنك قلت الآن يا ناتاشا... الآن فقط قلت...».

فقاطعتني وعيناها تبعثان بالشرر: «يجب على كلينا، عليَّ وعليه، أن يدع كل منا الآخر في وقت واحد. فإذا تم ذلك فإني أنا نفسي أدعو له باليمْن والتوفيق... ولكنه شديد عليَّ يا فانيا، أن يكون هو البادئ بالنسيان. أواه، يا فانيا، أيُّ عذاب هذا! حتى نفسي صرتُ لا أفهمها، فإذا أوحى إليَّ عقلي شيئًا ما، وجدت الحقيقة الواقعة تخالفه كل المخالفة. ماذا عسى أن يؤول إليه أمري؟».

«حسبُك يا ناتاشا وكُفِّي عن هذا. هوِّني عليك الأمر...».

«ثم أتدري؟ لقد كنتُ لا أفكرُ إلا فيه طوال هذه الأيام الخمسة في كل ساعة منها، بل في كل لحظة... في الحُلم واليقظة. فلنمض إلى هناك. قُدْني إلى هناك!».

«ولكن يا ناتاشا!».

«هيا بنا، هلم معي إلى هناك، فإني لم أكن أنتظر غيرك يا فانيا! وقد فكرت في هذا الأمر طيلة أيام ثلاثة، ولذلك كتبت إليك... يجب أن تأخذني إلى هناك، وليس لك أن تأبى... ما أطول ما انتظرتك... ثلاثة أيام... إن عندهم اليوم احتفالًا... وهو هناك... فهيا بنا، هلم نذهب».

وكانت تتكلم كالمحمومة، وسمعنا جلبةً في الدهليز، وبدا كأن مافرا تتشاجر مع شخص ما.

فقلت: «أنصتي. من الذي حضر؟ أتسمعين؟».

فأنصتت وهي تبتسم ابتسامة ارتياب، ثم إذا بها قد امتقع لونها دفعة واحدة.

وهمست بصوت لا يكاد يُسمع: «رباه... من هذا؟».

وأرادت أن تحتجزني، ولكني كنت قد خطوت إلى مافرا في الدهليز، ولم أكُ مخطئًا فقد كان هو أليوشا، وكان يستوضح مافرا أمرًا، ولم ترد مافرا في بادئ الأمر أن تدعه يدخل.

وقالت وكأنما كان من حقها أن تقول: «من أين طلعت علينا فجأة؟ ماذا؟ وأين كنت تتسكع؟ لا بأس. يمكنك الدخول. على أنه ليس في

وسعك أن تخدعني، فلست ممن تجوز عليهن خداع المرائين. إنني جد توّاقة إلى معرفة ما ستبسطه من أعذار».

فقال أليوشا: «لست أخشى أحدًا، وسأدخل!» ولكنه عراه شيء من الحياء والارتباك.

«فليكن. ادخل، أيها الهرّاب الشرود».

«هأنذا داخل» ثم قال إذ بصر بي: «آه، أأنت هنا؟ حسنٌ أن تكون هنا. هأنذا قد عدت، ولكن انظر كيف أني...».

فقلت: «ادخل آمنًا. ماذا تخشى؟».

«لست أخشى شيئًا، وأقسم لك بالله أنه لم يكن لي من الأمر شيء. أنت تظنني آثمًا في هذا الأمر على صورة من الصور، سترى فورًا. سأوضح لك كل شيء» وصاح وهو يتظاهر بالشجاعة.

«إليَّ أن أدخل يا ناتاشا؟» ولبث واقفًا بالباب المغلق فلم يجبه أحد.

فسأل في قلق واضطراب: «ما القصد من كل ذلك؟».

فأجبته: «لا شيء. لقد كانت هنا منذ لحظة، ولعلها قد...».

ففتح أليوشا الباب في حذر، وتفحّص أرجاء الغرفة بنظرات حييَّة، بيد أنه لم يكن بها أحد.

وإذا به يلمحها في أقصى الركن بين النافذة وصُوان الملابس. كانت واقفة هناك منزويةً لا تتحرك ولا تتلفَّتُ كما لو كانت تريد أن تخفي نفسها. ولا زلت حتى اليوم أبتسم كلما ذكرت ذلك، فتقدم إليها أليوشا على أطراف أصابعه محاذرًا أن تنتبه إليه.

وقال في حياء: «ما خطبك يا ناتاشا؟ عمي مساءً يا ناتاشا» ثم نظر إليها في ارتياع مخيف.

فأجابت، وقد عراها ارتباك شديد كما لو كانت هي الآثمة: «أنا؟ لا شيء.. لا شيء مطلقًا...».

فقال أليوشا وقد خرج عن طوره: «أصغي إليَّ يا ناتاشا... لعلك أنت أيضًا تنسبين إليَّ ذنبًا في هذا الشأن... ولكني لم أكن أملك فيه شيئًا... إني بريء كل البراءة، وسيتبينُ لك ذلك حينما أقص عليك كل شيء في الحال».

فهمست ناتاشا: «ولم؟ كلا كلا، فلا حاجة بي إلى ذلك... بل هات يدك... وكلُّ شيء يعود إلى ما كان عليه... كالمعتاد».

وزايلت مكمنها وقد علت وجنتيها حمرةٌ قانية وغضّت من عينيها كما لو كانت تخشى أن تبصر أليوشا.

فصاح متحمسًا: «ربّاه. لو أنني كنت حقًّا أشعر بخطأ لما جسرت الآن، بعد هذه الكلمات، حتى على أن أشخص ببصري إليها» وصاح بي قائلًا وقد اتجه إليَّ: «انظر انظر، إنها تحسبني مذنبًا، كل شيء ينطق باتهامي، والظواهر أيضًا تبدو في غير مصلحتي. خمسة أيام لم أكن فيها هنا، والناس يقولون إني عند خطيبتي. وماذا تفعل هي؟ تصفح عني دون أن تنبس بكلمة عتاب أو ملام، وتقتصر على أن تقول: هات يدك فيعود كل شيء إلى ما كان عليه. أي ناتاشا، حمامتي الصغيرة ملاكي، إني بريء كل البراءة. فليتك تعلمين ذلك، بل الأمر على النقيض من ذلك. على النقيض من ذلك».

ولكن... ولكن كان عليك أن تكون اليوم هناك.. فأنت مدعوٌّ أن تكون اليوم هناك.. فكيف يتأتى أن تكون الآن هنا؟ كم الساعة إذن؟».

«منتصف العاشرة. وقد كنت هناك فعلًا.. ولكني انتحلت لهم بعض الأعذار وفارقتهم، وكانت هذه هي المرة الأولى، المرة الأولى خلال هذه الأيام الخمسة، التي كنت فيها حرًّا واستطعت أن أفلت منهم وآتي إليك يا ناتاشا، أعني أنه كان في استطاعتي أن آتي قبل ذلك، ولكني تعمدت ألا أفعل. ولماذا؟ ستعرفين الآن ذلك، سأنبئك بكل شيء، و إنما أتيت لأبيّن لك كل شيء، وأقسم لك بالله أني لأشعر هذه المرة أني غير مدين لك بشيء، ولا بأقل شيء!».

ورفعت ناتاشا رأسها، ونظرت إليه، فأجابها بنظرة تتدفّق إخلاصًا، وكان وجهه يشع صراحة وودًّا حتى كان من العسير ألا يمنحه المرءُ ثقته. وظننت أنهما سيصرخان ويرتميان أحدهما بين ذراعي صاحبه كما كان يحدث أحيانًا عندما يحدث صلح من هذا القبيل، ولكن ناتاشا كانت كمن غمرتها سعادة فتركت رأسها يميل على صدرها، وأخذت فجأة تنتحب بصوت خافت..

وهنا لم يستطع أليوشا أن يملك نفسه، فارتمى على قدميها يقبلهما وعلى يديها يلثمهما. وأضحى منظره كمنظر المخبولين. وقرّبت إليها مقعدًا ذا مسند فغاصت فيه، إذ خذلتها رجلاها.

* * *

القسم الثاني

الفصل الأول

وانطلقنا عقب ذلك نضحك كالمخبولين، ولكن صوت أليوشا الجهوريّ غطى على أصواتنا إذ قال: «ألا تدعاني أقص قصتي. إنكما تظنان، ولا ريب، أن هذه المرة شبيهة بالمرات السالفة.. أي آتيكما بأحاديث سخيفة... ولكني أؤكد لكما أني سأنبئكما بأخبار شائقة، أفلا تهدآن أخيرًا وتسكنان!».

وكان يتقدّ رغبةً في الإفضاء بما عنده، وكان يبدو جليًّا من سيماه أن لديه أشياء جديدة مشوّقة ينبئنا بنبئها، غير أن تظاهره بأنه ذو أهمية وشعوره الساذج بأنه رجل عظيم لاستطاعته أن يأتي بمثل هذه الأنباء، جعلا ناتاشا تعود إلى الضحك، وسرت منها العدوى إليَّ، فكان كلما يتدفق هو في حديثه ازددنا نحن ضحكًا. وأدَّى بنا غضب أليوشا ويأسه الصبياني في النهاية إلى أن صرنا نتلوى من الضحك عند كل مناسبة حتى لو لم تكن هذه المناسبة سوى أن شخصًا ما أرانا خنصر يده، كما كان يضحك نوتي جوجول. بل إن مافرا نفسها جاءت من المطبخ ولبثت واقفة بالباب تنظر إلينا في اهتياج ظاهر، كأنما قد غاظها ألا تصب ناتاشا

وابل غضبها على رأس هذا الأليوشا، وهو ما ظلت خمسة أيام كاملة ترتقب حدوثه في شماتة خفية، وساءها أن رأتنا متهللين منشرحين جميعًا على غير ما كانت تترقب.

وأمسكت ناتاشا أخيرًا عن الضحك عندما أحست أن أليوشا يشعر بشيء من المهانة له في ابتهاجنا، وسألت: «وبعد، فماذا تريد أن تنبئنا به؟».

وسألت مافرا وقد زجّت بنفسها في المحادثة دون إبداء أقل قدر من التبجيل: «أيجب أن أوقد على غلاية الشاي مرة أخرى؟».

فأجاب أليوشا وهو يلوّح نحوها بكلتا يديه ليخلص منها بأي شيء بأسرع ما يستطاع: «لا، لا. خلي عنك ذلك». «والآن سأخبركما بكل شيء، بكل شيء كما كان وكما هو كائن وكما سيكون، فإنني أعرف الآن كل شيء. إنكما تريدان أيها الصديقان العزيزان أن تعرفا أين كنت خلال هذه الأيام الخمسة، وهذا ما اعتزمت أن أنبئكما به الآن، ولكنكما لا تدعاني أتكلم. فأولًا، لقد كنت طوال الوقت أخادعك يا ناتاشا، منذ زمن طويل، طويل جدًّا، كنت أخادعك طوال الوقت، وهذا هو أهم شيء».

«تخادعني؟».

«أجل، لقد خدعتك، أربعة أسابيع كاملة، من قبل قدوم والدي، أما الآن فقد حان الوقت الذي أستطيع فيه أن أجهر لك بكل شيء، فمنذ شهر تقريبًا، أي قبيل عودة والدي، تلقيت منه فجأة رسالة طويلة،

فكتمت الأمر عنكما جميعًا. وكان والدي قد أعلن إليّ في هذه الرسالة في إيجاز وإصرار وبلهجة جادة ملأتني رعبًا، أن زواجي قد بات أمرًا مقطوعًا به، وأن خطيبتي هي الكمال بعينه، وأنني ولا شك غير جدير بها، ولكنه يتحتم عليّ مع ذلك أن أقترن بها، ولذا يجب عليَّ أن أتهيأ لذلك وأن أنتزع من رأسي كل ما فيه من حماقات وما إلى ذلك. وقد عرفت ما يقصده بالحماقات، فأخفيت عليكما أمر هذه الرسالة...».

فقاطعته ناتاشا: «أنت لم تخف أمرها مطلقًا، إنك تفخر بذلك، ولكنك قد أخبرتنا إذ ذاك بكل شيء، وإني ما زلت أذكر كل شيء، فقد غدوت دفعة واحدة طيّعًا لطيفًا ظريفًا لا تنأى عني، كما لو كنت تشعر بأنك أذنبت، ثم أخذت تحدثنا بمضمون هذه الرسالة جزءًا فجزءًا».

«لا يمكن أن يكون ذلك قد حدث، فإني لا أرتاب في أني كتمت عنكما الأشياء المهمّة، وربما تكونان قد حدستما بها، وهذه مسألة تخصكما أنتما، أما أنا فلم أفه لكما بها، بل احتفظت بها في نفسي حتى ناء رأسي بحملها».

فقلت وأنا أومئ إلى ناتاشا: «وإنني لأذكر أيضًا يا أليوشا أنك طالما استشرتني إذ ذاك وذكرت لي كل شيء جزءًا جزءًا، وكان ذلك- بالبديهة- كما لو كان الأمر مجرد فرض وتخمين».

فقالت تؤيدني: «لا ريب أنك ذكرت كل شيء، فلا تدع للوهم والغرور سبيلًا إلى نفسك، وهل تستطيع أنت أن تكتم شيئًا في صدرك؟ وهل تقدر أن تخدع أي شخص؟ إن مافرا نفسها قد علمت كل شيء. ألا تعرفين الأمر يا مافرا؟».

فقالت مافرا وقد أطلت برأسها من الباب: «وكيف لا أعرفه، وقد ذكر عنه كل شيء في الأيام الثلاثة الأول؟ وهل هو يستطيع أن يخفي شيئًا؟».

«أفّ لكم. إن الكلام معكم من أشد الأمور عسرًا. إنكم تغضبونني دائمًا، ولا شك أنك يا ناتاشا، تقولين ذلك الآن خبثًا منك، وأنت أيضًا يا مافرا قد أخطأت، إذ ما زلت أذكر أني كنت كالمخبول في ذلك الحين. أما علمت ذلك يا مافرا؟».

«وكيف لا أعلم وأنت كذلك دائمًا، والآن أيضًا».

«لا، لا. لست أعني ما تقصدين، فأنت تعلمين أن نقودنا كانت إذ ذاك قد نفدت، فذهبت أنت لترهني صندوق السجائر الفضي. على أني أحب قبل كل شيء أن أنبهك يا مافرا إلى أنك تنسين مكانك بإزائي فتتجاوزين كل حد، وهذا كله من تهاون ناتاشا معك. ما علينا. ولنفرض إذن أني ذكرت لكم حقًّا كل شيء جزءًا بعد جزء (وذلك ما تذكرته الآن) ولكن اللهجة، لهجة الرسالة لا تعرفونها، ولهجة الرسائل هي أهمّ ما فيها، وهذا ما وددت أن أتحدث عنه».

فسألت ناتاشا: «حسن، فكيف كانت لهجة الرسالة؟».

«اسمعي يا ناتاشا، إنك تداومين على إلقاء الأسئلة كما لو كانت المسألة مزاحًا لا جدّ فيه. لا تضحكي من ذلك، أرجوك. وإني أؤكد لك أن الأمر عين الجدّ، فقد بلغ من أمر تلك اللهجة أن خدرت يداي لدى قراءة الخطاب، إذ لم يسبق لوالدي أن خاطبني بمثل هذا الأسلوب،

فقد كتب إليّ يقول إن «لشبونة» لتزلزل زلزالها قبل أن تقف إرادته دون التنفيذ. بهذه اللهجة كتب إليَّ».

«حسنٌ حسن. هيا، هيا! ولم، طويت ذلك عني؟».

«رباه. لكي لا أروِّعك. وكنت آمل أن أستطيع توجيه الأمور إلى ما فيه الخير، ولكن، بعد هذه الرسالة وعقب عودة والدي بدأت آلامي. وقد كنت أعتزم أن أردَّ على رسالته بإجابة جادة واضحة حازمة لولا أني لم أجد الفرصة الملائمة، فإنه لا يسألني مطلقًا عن رأيي، ذلك الخبيث، بل هو يتصرف كأنما قد بُتّ في الأمر منذ زمن بعيد، وكأنما قد صار من غير الممكن أن ينشأ بيننا نزاع أو اختلاف في شأنه. أسامعة أنت! فيا لها من ثقة بالنفس. وقد كان حيالي في نهاية الرقة والمحبة، حتى تملكني الذهول من أمره. ليتك تعلم يا إيفان بتروفتش مدى ما له من ذكاء وألمعية. لقد قرأ كل شيء، وهو يفهم كل شيء، وإنه يكفيه أن يراك مرة واحدة حتى يعلم كل أفكارك كما يعلم أفكار نفسه، وربما كان هذا هو الذي جعل الناس يلقبونه باليسوعيِّ. ناتاشا لا يروقها أن تراني أثني عليه بالخير، فلا تغضبي يا ناتاشا بالحقيقة أنه كذلك.. ولكن لأستمر الآن! لقد كان في بادئ الأمر لا يريد أن يعطيني راتبًا لنفقتي، ولكنه بعد لأيٍّ رضخ لي أمس. ناتاشا، أي ملاكي. لقد ولّت أيام فقرنا، فقد ردَّ إليَّ أمس كل ما سبق أن عاقبني بحبسه عني في نصف السنة الأخيرة، فانظروا كم يبلغ ذلك. إنني لم أعده بعد. مافرا، انظري كم من مال لديَّ! الآن قد صرنا في غير حاجة إلى رهن الملاعق وأزرار القميص».

وأخرج من جيبه رزمة من أوراق النقد لا تقل عن ألف روبل ووضعها

فوق المنضدة، فرمقتها مافرا بسرور وفضول وأثنت على أليوشا أطيب الثناء. أما ناتاشا فقد أخذت تحثه على متابعة الحديث.

وقال أليوشا متابعًا حديثه: «فأخذت أفكر فيما عسى أن أفعل. كيف يسوغ لي أن أقف في وجهه؟ وأقسم لكما لو أنه كان فظًّا ولم يكن رقيق الحاشية معي لما حفلت برأيه ولجابهته بأني لا أريد، وبأني بالغ رشدي وسيد نفسي وكفى. ولا شك أني كنت في تلك الحالة أصر على رأيي، أما الآن فماذا عساي أن أقول له؟ أرجو ألا تلوماني. أراك ضجرة يا ناتاشا، لِمَ ينظر كل منكما إلى الآخر؟ إنكما ولا ريب تقولان إنه يزهى بما ليس فيه وإنه لا عزم عنده ولا ثبات. بيد أن لي من العزم والثبات أكثر مما تظنان، والدليل أني مع ما كان يلابسني من حرج الموقف قد حسمت الأمر من فوري، إذ قلت لنفسي: إنه من واجبك أن تفضي إلى والدك بكل شيء! وقد تكلمت، أفضيت إليه بكل شيء، وقد أصغى إليَّ».

فسألت ناتاشا وقد بلغ منها القلق: «ولكن ما هو كل شيء هذا الذي أفضيت به إليه؟».

«قلت له إني لا أريد خطيبة أخرى، وإن لي الآن خطيبة بالفعل، وهي أنت. أعني أنني حتى الآن لم أقل له ذلك صراحة، ولكني مهدت عنده لسماع ذلك، وغدًا سأدلي إليه بذلك في صراحة تامة، إذ إني مصرّ على ذلك كل الإصرار. وقد بدأت الحديث بأن قلت له إني أجد من العار ومما هو جدير بالازدراء أن أتزوج للمال وحده، وأننا إذا كنا سنظل بعد ذلك نعد أنفسنا من الأرستقراطيين فليس ذلك إلا سخفًا وخرقًا في الرأي (وإني لأتحدث إليه دائمًا في صراحة وصدق كما لو كان أخًا لي) ثم

بينت له أني أعد نفسي فردًا من أفراد الشعب، وأن الطبقة الثالثة هي قوام الدولة، وأني فخور بأن أكون في مرتبة واحدة مع الجميع، ولا أحب أن أعلو على أحد... ومجمل القول إني ذكرت له في وضوح جميع ما ندين به من آراء جديدة رشيدة. وكنت في أثناء الحديث معه أتقد حماسة مما أثار عجبي أنا نفسي، بل إني لقد أقمت له في النهاية الدليل على صواب آرائي من صميم آرائه هو.. فسألته في صراحة تامة: من أي الأمراء نحن؟ من أمراء بالمولد فحسب. وما هي وعلى الحقيقة، مخايل الإمارة فينا؟ إننا، قبل كل شيء، لسنا أثرياء، والثراء هو الشيء المهم. وأعظم أمراء اليوم هو روتشيلد دون ريب. ونحن، بعد ذلك، قد صرنا منذ زمن طويل لا نجد لنا في المجتمع الحقيقي دورًا نلعبه، وآخر من كان يفعل ذلك هو عمي سيميون فالكوفسكي ولم يكن معروفًا إلا في موسكو، وإنما عرف فيها لأنه باع الأشخاص الثلاثمائة الأخيرة التي كانت باقية في حوزته. ولو لم يفلح والدي في إحراز بعض الثروة لما كان من المحال أن يفلح حفدته الأرض بأنفسهم كما فعل أمراء غيره مرغمين. فليس لدينا إذن ما يبعث على الزهو والغرور. وعلى الجملة، فقد نفضت بين يديه في حرارة وصراحة، كل ما كان يجيش بصدري، بل لقد قلت أكثر مما كان يجيش به، حتى صار لا يعرف ما ينبغي أن يقول. وأخذ يوجه إليَّ اللوم على أني أهملت منزل الكونت ناينسكي إهمالًا تامًّا، وأضاف إلى ذلك أن عليَّ أن أتألّف عرّابتي الأميرة «ك» أنال ثقتها، فإنها عندما تفتح لي باب بيتها تفتح في وجهي أبواب المجتمع ويصعد خط سيري في الحياة وهلُمَّ جرّا. وقد كان يلمح بذلك إلى أني صدفت، منذ أن عاشرتك، عن

كل من عداك، وذلك بتأثيرك كما يظن هو. وهو لم يتكلم عنك إلى الآن بصراحة، بل إنه هو يتعمد أن يتحامى ذلك! وكلانا يمكر بصاحبه ويرقبه لكي يسبر ما عنده، ولكن كوني على يقين من أننا سنصل إلى غايتنا يومًا من الأيام..».

«حسن حسن، ولكن علام انتهى حديثكما، وعلام استقر رأيه؟ هذا هو المهم. ما أكثر ثرثرتك يا أليوشا...».

«الله أعلم بنيته، فليس في استطاعة أحد أن يتبيّن مقاصده ومراميه. على أني لست ثرثارًا على الإطلاق، ولم أحد عن موضوع الحديث قيد شعرة. وأعتقد أن رأيه لما يستقر على شيء بعد. وهو يضحك دائمًا من تصوراتي كما لو كان يرثي لي. وأرى أن في ذلك تحقيرًا لي، بيد أني لست أشعر بأي خجل من جرّاء ذلك. وقد قال لي إني أعجب برأيك وأقرّك عليه، غير أنا سنركب الآن إلى الكونت ناينسكي، فحذار أن تتحدث هناك في هذه الأمور، فقد أستطيع أنا أن أفهمك ولكن الذين هناك لن يستطيعوا ذلك. وقد خيّل إليَّ أنه قد أصبح غير مرغوب فيه هناك أيضًا، وأن ثمة ما يغض من منزلته عندهم ويحملهم على أن يعرضوا عنه. ويلوح أنه قد غدا غير محبوب في المجتمع كله. وقد استقبلني الكونت في بادئ الأمر بصلف وغطرسة بالغين وبتشامخ وتسام كأنه قد نسي أني ربيت في بيته، وكأنما هو مضطر إلى أن يتذكر ذلك من جديد. وقد غضب عليَّ لأنني في رأيه جاحد ناكر للجميل، والواقع أنه لم يكن شيء من ذلك، وكل ما في الأمر أني أجد هناك مللًا شديدًا، وهذا ما جعلني أكف عن زيارتهم. أما والدي فقد أغضى عنه

الكونت ولم يحفل به كما لو لم يكن موجودًا، ولذلك لا بد أن تنتابني الدهشة إن رأيته يقدم على الذهاب إليه مرة أخرى. وقد هاجني ذلك إلى غير حد، ولكن والدي المسكين لا يفتأ يخرّ ساجدًا بين يديه، وذلك كله من أجلي، أما أنا فلا أبالي بالكونت مطلقًا. وقد أردت أن أشرح كل مشاعري لوالدي ولكني لم أفعل، ولماذا أفعل؟ إنني لم أبدل آراءه فقصاراي أن أهيجه وأحفظه، وإن كانت لا تنقصه بواعث التبرم والاستياء. قلت لنفسي كلا، فليكن تصرفك أكثر دهاء ولتكن أمهر منهم جميعًا ولترغم الكونت على إجلالك. والخلاصة! لقد حصلت على كل شيء وتبدل كل شيء في يوم واحد، وأصبح الكونت ناينسكي لا يدري أي سبيل يسلك لإرضائي. وقد نلت ذلك، أنا وحدي بذكائي وحذقي، حتى لقد رأيت والدي يضرب كفًّا بكف من فرط السرور والدهشة....».

فقالت ناتاشا معترضة: «اسمع يا أليوشا، لا تخرج عن الموضوع. لقد ظننتك تريد أن تنبئنا بشيء يتعلق بنا، فإذا بك كما يلوح لي لا تريد أن تنبئنا إلا بأخبارك مع الكونت ناينسكي، فماذا يهمني من كونتك هذا؟».

«أليس يهمك على الإطلاق! استمع إليها يا إيفان بتروفتش. الكونت ليس يهمها على الإطلاق! ولكن هذا هو أهم ما في الأمر، وسترين بنفسك، سيتضح لك كل شيء في النهاية، فدعيني أتم حديثي... فإن ناتاشا وأنت أيضًا يا إيفان بتروفتش (ولم لا أقولها في صراحة؟) إنكما كليكما تحسبانني في بعض الأحيان خلوًا من الفطنة، بل غبيًّا (وقد أكون كذلك في بعض الأحيان)، أما في هذه الحالة- وفي استطاعتكما تصديقي- فقد دللت على شيء من رجاحة العقل، أعني حدة الذكاء،

وقد ظننت أنه سيسركما أني لست دائمًا... مأفونًا أحمق كما يخيل إليكم.

«دع عنك ذلك يا أليوشا. خلّ عنك ذلك أيها الحبيب».

وكانت ناتاشا لا تطيق مطلقًا أن يُرمى أليوشا بالغباء والحمق، وكم من مرة في الأيام الأولى عبست في وجهي دون أن تفوه بكلمة، إذ كنت أبرهن لأليوشا في غير كلفة أنه قد أتى حماقة ما. لقد كان ذلك موضع الجرح من قلبها، كانت لا تحتمل أن ترى أحدًا يغض من قدر أليوشا، وربما كان يزيدها اندفاعًا في ذلك اقتناعها في دخيلة نفسها بأنه ضيق العقل محدود أفق التفكير. على أنها لم تجهر بذلك قط خشية أن تجرح كبرياءه وزهوه بنفسه، أما هو فكان، في هذا الموضوع بوجه خاص، دقيق الحس مرهفه. وكان دائمًا ينفذ إلى دخيلتها ويستشف أخفى أسرارها. وكانت هي تدرك ذلك وتعاني منه الشيء الكثير، فتأخذ في تدليله وتملقه وتناديه بأحب الأسماء إليه، ولذلك كان لكلماته تلك صدى موجع في قلبها...

فقالت: «خل عنك يا أليوشا، أجل، إنك لعلى جانب من الطيش، ولكنك لم تكن على الإطلاق.... لم تجعل نفسك أسوأ مما أنت؟».

«حسن حسن، دعيني أتم حديثي. لقد قلت لنفسي تريث وركبنا في الحال إلى الأميرة، وكنت قد سمعت فيما مضى أن الكونت الهرم قد أحالها بلهاء صماء لا تعني بشيء غير كلابها القميئة التي تحملها في حجرها، ولديها منها عدد كبير تعاملها كأنها أولادها، وهي مع ذلك لا تزال ذات نفوذ عظيم في المجتمع كان من شأنه أن جعل الكونت

ناينسكي نفسه يتودد إليها ويتملقها. وقد دبرت ما أزمعت صنعه، في أثناء الطريق. أتعرفون علام عوَّلت في ذلك؟ على أني الشخص الذي تهيم به جميع الكلاب. هذا وأيم الله حق، وطالما لاحظت ذلك، ولست أدري أكان ذلك لأني أنطوي على قوة مغناطيسية أم لأني أنا أحب الحيوان حبًّا جمًّا، ولكن الكلاب تحبني كافة وهذه حقيقة واقعة. أما عن القوة المغناطيسية يا ناتاشا فلا بدَّ أن أقص عليك شيئًا آخر، فقد شهدنا منذ عهد قريب جلسة روحانية عند واحد من أولئك الناس، وقد كانت مرهقة للأعصاب إلى أقصى حد. لقد أوقعتني هذه الجلسة في دهشة يا إيفان بتروفتش حيث استحضرت روح يوليوس قيصر».

فصاحت ناتاشا وهي تهتز من إغراقها في الضحك: «لا حول ولا قوة إلا بالله. ولماذا كان يوليوس قيصر بعينه؟ كأنه لم يكن ينقص إلا هذا!».

«ولم لا... كأنني لست... ولم لا يكون لي أن أستحضر روح يوليوس قيصر؟ ما ضرر ذلك؟ ها أنت ذي تضحكين!».

«لا بأس، فليس في ذلك من ضرر بطبيعة الحال... آه يا أليوشا الطيب... حسن. وبماذا حدّثك يوليوس قيصر؟».

«لم يحدثني بشيء، فقد أمسكت قلم الرصاص بيدي، فإذا به يجري من تلقاء نفسه على الورق. وقال الجميع إن يوليوس قيصر هو بنفسه الذي كتب، ما كتب، غير أني لم أصدق ذلك».

«وماذا كتب؟».

«كتب شيئًا عن الغوص أو كما يسميه جوجول... وأخيرًا أما آن الأوان لكي تتخلي عن هذا الضحك؟».

«بلى، فأكمل حديثك عن الأميرة!».

«نعم، ولكن إذا استمررتما على مقاطعتي! ذهبنا إذن إلى الأميرة، وكان أول ما فعلت أن أخذت تدلل «ميمي»، «وميمي» هذا كلب هرم بشع الشكل دميم الخلقة، وهو فضلًا عن ذلك شكس عقور. والأميرة مولعة بهذا الحيوان إلى حد الجنون، فهي لا تدعه ينأى عنها، وأظن أنهما في سن واحدة. وأخذت ألقم «ميمي» الحلواء فلم تنقض عشر دقائق حتى كنت قد بلغت من رياضته إلى حد أن مدَّ إليَّ قبضته مسلمًا، وهو أمر كان يتعذر على أي أحد أن يبلغه طول حياة هذا الكلب. وأخذت النشوة والسرور من الأميرة مأخذهما حتى أوشكت أن تسيل من عينيها الدموع، وأخذت تصيح: «ميمي» ابسط يدك، انظر، إن ابني من التعميد هو الذي ضرَّاه بذلك! وعندما حضر الكونت ناينسكي بادرت تقول ثانية: ميمي ابسط يدك. وكانت تنظر إليَّ وقد طفرت منها دموع التأثر. إنها في الواقع طيبة القلب، ولشد ما أثرت فيَّ حالتها، بيد أني لم أتوان من تملقها. وكان بيدها صندوق تبغ رسمت عليه صورتها وهي عروس، أي من نحو ستين عامًا، وسقط هذا الصندوق من يدها فرفعته قائلًا، وكأني لا أدري صورة من هذه: ما أجمل هذه الصورة! هذا جمال مثالي! وهنا زال كل ما كان بيننا من كلفة، فأخذت تجاذبني أطراف الحديث عن هذا وذاك، وعن المكان الذي درست فيه، والقوم الذين كنت أختلف إليهم، وعن جمال شعري وهلم جرّا. وقد بذلت كل ما في وسعي

لإضحاكها وقصصت عليها بعض ملح ماجنة لاذعة، فهي تواقة إلى مثل هذه الأحاديث. وقد كانت تتهددني بإصبعها، بيد أنها كانت تضحك مع ذلك من تلك الأقاصيص. وعندما أذنت لي بالانصراف قبلتني ولوحت بيدها نحوي راسمة الصليب، ورغبت إليَّ أن أجيء إليها كل يوم لأدخل على قلبها السرور. وضغط الكونت يدي وقد بدت الرقة في عينيه. ووالدي، وهو أحسن الناس طرًا وأنبلهم وأشرفهم- صدَّقتما أو لم تصدقا- والدي كاد يبكي من السرور، فلما انتهينا معًا إلى المنزل ضمني بين ذراعيه، وأخذ يكلّمني في صراحة كاشفًا لي الستار عن خط السير في الحياة وعن العلاقات والمال والزواج مما كنت لا أدرك أكثره، ثم أعطاني هذه النقود. لقد كان ذلك أمس، وعليَّ أن أعود غدًا إلى الأميرة. ولكن، كما قلت، إن والدي هو أنبل إنسان فلا تسيئا به الظن، وإن كان يودَّ أن يفصلني عنك يا ناتاشا، فإنه إنما يفعل لأن بصره عشي أمام ملايين كاترينا التي لا تملكين أنت، منها شيئًا. وهو يريد أن يغنمها لي وحدي، ولهذا يظلمك إذ كان لا يعرفك. وأي أب لا يبتغي السعادة لابنه؟ فلا عليه إن عمل على إحراز هذه الملايين رغبة في توفير السعادة لي، وكل الناس مثله في ذلك، وإذن فعلى من يريد أن يحكم على تصرفه أن يجعل هذه الناحية نصب عينيه وحينئذ سيجده في جانب الحق. ولقد أسرعت إليك يا ناتاشا لا لسبب إلا أقنعك بذلك، فأنا أعلم أنك متحاملة عليه، وهذا ليس ذنبك بالبديهة ولا ألومك عليه...».

فسألت ناتاشا: «ومعنى هذا أنك لم تفعل إلا أن جعلت نفسك محبوبًا إلى الأميرة؟ أذلك مبلغ ما عندك من دهاء؟».

«ولكن على رسلك! ماذا تريدين إذن؟ ليست هذه سوى البداية... وإنما أنبأتك بما كان من أمري مع الأميرة لأني عن طريقها جعلت والدي في قبضة يدي. أفهمت؟ على أن أهمَّ ما في القصة لم يأت بعد».

«حسن جدًّا استمر».

فتابع أليوشا حديثه قائلًا: «حسن، فقد وقع لي اليوم حادث، حادث جد عجيب، ولا زلت شديد الاضطراب من تأثيره. وأحب، قبل كل شيء، أن أذكر أن والدي والكونتة وإن كانا قد تفاهما في أمر الزواج، فإنهما لم يبتّا فيه بصورة رسمية. وإذن فنستطيع، أنا وكاتيا، أن نفترق في أي وقت في سهولة ويسر. والكونت ناينسكي هو وحده الذي يعرف طرفًا من الموضوع، ولكنه قريبنا وصفينا. وإني وإن كنت قد وثّقت صلتي بكاتيا كثيرًا في الأسبوعين الأخيرين، فإن حديثنا لم يتناول، حتى هذا المساء شيئًا عن مستقبلنا، أي عن الزواج و... أجل، أو عن الحب. يضاف إلى ذلك أننا ما زلنا في انتظار موافقة الأميرة، ونحن ننتظر من رعايتها لنا كل ما يتصور العقل من الخير الكثير وقناطير الذهب. وما ستقوله هي سيقوله الجميع، فإن لها هذا النفوذ... وهم يريدون حتمًا أن يزجوا بي في غمار المجتمع. وأشدهم إصرارًا على تنفيذ ما دبروا هي الكونتة زوجة أبي كاتيا، وسر المسألة أنها قد صارت الآن، بسبب كثرة مغامراتها الطائشة في الخارج على ما يبدو، لا تجد ها هنا من يستقبلها أو يحفل بها في أي مكان تحل فيه. فالأميرة لا تخفَّ إلى استقبالها، ولذا أمسك الناس عن زيارتها، وستتيح لها خطبتي لكاتيا فرصة حسنة، ولهذا سرَّها هذا الأمر. مع أنها كانت غير راغبة في هذا الزواج من قبل. وقد

اشتد اليوم أيضًا فرحها لما ظفرت به عند الأميرة من نجاح. على أن هذه الأمور كلها في المرتبة الثانية. وإنما المهم هو أني وإن كنت قد عرفت كاترينا فيودوروفنا في العام الماضي، كنت إذ ذاك لم أعد طور الطفولة وكنت قليل الإدراك، فلم أستطع أن أتبين فيها شيئًا...

فقاطعته ناتاشا قائلة: «أو بالأحرى، كنت إذ ذاك لا تزال تحبني، فلم تجد فيها شيئًا، أما الآن...».

فصاح متألمًا: «دعي عنك هذا يا ناتاشا، إنك لفي ضلال مبين. إنك تجرحين قلبي بذلك، وعلى هذا لن أردَّ عليك. أنصتي لما أقول، وسترين... ليتك كنت تعرفين أي قلب ودود صريح طاهر بين جنبيها. على أنك سترين ذلك فأنصتي حتى النهاية. فمن أسبوعين عندما ساقني والدي- بعد عودته- إلى كاتيا، أخذت أنعم النظر فيها فأحسست أنها هي أيضًا ترمقني بنظراتها، فزاد ذلك من إثارة فضولي، وذلك مع غض النظر عن أني كنت أريد أن أتعرفها عن كثب لغرض آخر، لغرض جال بنفسي عندما تسلمت تلك الرسالة التي أثارت اضطرابي. ولست أعتزم التحدث عنها مطلقًا، ولا أريدُ أن أطريها البتة، وإنما أريد أن أقولَ شيئًا واحدًا، هو أنه لا شبيه لها في بيئتها، إنها نسيجُ وحدها، إنها إنسانة ذات خُلق متين مستقيم طاهر حتى لأشعر وأنا بين يديها كأني طفل، كأني أخوها الأصغر، وذلك مع أنها لا تذرف على سبعة عشر عامًا! وثمة أمر آخر استرعى انتباهي وأثار دهشتي، ذلك أنها تبدو حزينة في دخيلة نفسها لأمر ما، ولكنها لا تتحدث عن شيء من ذلك، فهي في المنزل دائمة الصمت كأنها تخشى أن تتكلم... وكأنها مستغرقة في التفكير في

شأن من الشئون، ويلوح أنها ترهب والدي ولا تحب زوجة أبيها، ذلك ما أدركته في الحال، وإن كانت الكونتة تقول دائمًا- لأمر في نفسها- إن ابنة زوجها تحبها حبًّا يكاد يكون عبادة، وهذا كله غير صحيح، وإنما دأبت كاتيا على أن تطيعها في كل أمر دون أن تبدي اعتراضًا كما لو كانتا قد تعاهدتا معًا على ذلك. فلما استبان لي كل ذلك، أزمعت من أربعة أيام أن أنفذ خطتي، وذلك ما فعلته الليلة. وقد كانت خطتي أن أنبئ كاتيا بكل شيء وأن أعترف لها بكل شيء وأجتذبها إلى جانبنا، وبذلك أقضي على الأمر كله بضربة واحدة...».

فسألت ناتاشا في قلق وقلة اصطبار: «بماذا؟ بماذا أردت أن تنبئها وتعترف لها؟».

فأجاب أليوشا: «بكل شيء، بكل شيء دون كلفة، وإني لأحمد الله أن هداني إلى هذه الفكرة. ولكن أنصتي إلى النهاية! لقد صح عزمي منذ أربعة أيام على أن أكون بمنأى عنكما حتى أصل وحدي في الأمر إلى نهاية. فلو أني لبثت معكما لأمكن أن يعاودني التردد والتذبذب، فأظل أستمع إليكما إلى الأبد دون أن أقطع برأي في الأمر، فرأيت أن أتوحد وأن آخذ نفسي بالحزن فأملي عليها في كل لحظة أن عليَّ أن أصل بالأمر إلى نهاية، وهكذا تشجعت ونفذت خطتي. لقد رأيت ألا أعود إليكما إلا برأي حاسم، وهأنذا قد عدت إليكم بالرأي الحاسم».

«ماذا؟ أي رأي حاسم هو؟ أسرع بذكر ذلك».

«كان الأمر غاية في السهولة، فقد قصدت إليها في صراحة وشرف وشجاعة، و... بيد أن عليَّ أن أقص عليكما قبل ذلك شيئًا أوقعني في

دهشة بالغة، ذلك أننا عندما اعتزمنا الخروج من المنزل تلقّى والدي رسالة، وكنت في تلك اللحظة قد اتجهت صوب غرفته ولبثت واقفًا عند بابها فلم يرني. وكان من تأثير تلك الرسالة فيه أن أخذ يحدث نفسه بصوت مرتفع ويتلفظ بأصوات وكلمات متباينة وقد بدا عليه الاضطراب وراح يقطع الغرفة جيئة وذهابًا، ثم اندفع يقهقه عاليًا ولكنه لم يدع الرسالة من يده. وخفت أشد الخوف أن أقترب منه، فلبثت في مكاني هنيهة ثم دخلت عليه الغرفة، وكان يبدو أن شيئًا قد بعث إليه السرور، بعث إليه سرورًا بالغًا عظيمًا، وطفق يكلمني بأسلوب غريب، بيد أنه قطع الحديث فجأة وتقدم إليَّ بأن أهيئ نفسي للركوب في الحال، مع أن الوقت كان لا يزال مبكرًا. ولم يكن عندهم اليوم أحد سوانا، أنا وهو. وقد كنت مخطئة يا ناتاشا إذ زعمت أنهم يقيمون اليوم حفلًا، لقد زوّدوك بأخبار خاطئة...».

«لا تحد، كدأبك، عن الموضوع يا أليوشا. وأرجو أن تذكر لي كل ما أنبأت به كاتيا».

«لقد أتاح لنا حسن الحظ أن نختلي ساعتين كاملتين فبينت لها دون مشقة أنهم يريدون تزويجي منها وأن ذلك مستحيل، وذكرت لها أنني أشعر بميل شديد إليها وأنها هي الوحيدة التي تستطيع إنقاذي، ثم قلت لها كل شيء في صراحة تامة. ولا بد أنك ستعجبين، يا ناتاشا، إذ علمت أنها لم تكن قد عرفت بعد شيئًا عن القصة كلها، عن علاقة بعضنا ببعض! لو أنك رأيت مدى ما عراها من تأثر، لو أنك شاهدتها وقد أخذ الرعب منها في أول الأمر كل مأخذ، وشحب لونها... وقصصت عليها

قصتنا كلها، وكيف أنك هجرت منزلك من أجلي، وكيف أننا نعيش الآن وحدنا هنا، وكيف أننا نتعذب ونقيم في جو من الخوف والفزع، ثم قلت لها إننا نلتجئ إليها طالبين منها العون والمساعدة (وقد كلمتها أيضًا نائبًا عنك يا ناتاشا) وذلك بأن تنحاز إلى جانبنا وتقول لزوج أبيها في صراحة إنها لا ترغب في الزواج مني، وأخبرتها أن لا منجى لنا إلا بهذا وأننا لا ننتظر معونة من أحد سواها. وقد استمعت إليّ بانتباه شديد وعطف بالغ، وما كان أشد روعة عينيها إذ ذاك. لقد كانت كأن نفسها كلها قد انعكست فيهما، وإن لها لعينين في مثل زرقة السماء. فشكرت لي صراحتي معها، وعاهدتني أن تساعدنا بكل ما تستطيع، ثم سألت عنك وأبدت رغبتها أن تتعرف بك ذات مرة، ورجتني أن أنبئك بأنها قد أضحت فعلًا تحبك كما لو كنت أختًا لها، وأن عليك أنت أيضًا أن تحبينها كما لو كانت أختًا لك. وعندما علمت أني لم أرك منذ خمسة أيام أرسلتني إليك في الحال...».

واشتد التأثر بناتاشا..

وصاحت وهي ترنو إليه معاتبة: «وقد استطعت أن تظل هذا الوقت الطويل تتحدث عن بطولتك عند تلك الأميرة العجوز الصماء! أوّاه يا أليوشا. حسن، وكاتيا؟ أكانت طيبة النفس منشرحة الصدر عندما أطلقتك؟».

«أجل، فقد سرها أنها استطاعت أن تعمل عملًا صالحًا، ولكنها مع ذلك بكت، فهي أيضًا تحبني يا ناتاشا، وقد باحت لي بأنها بدأت تحبني، وأنها قلما يتاح لها أن ترى أحدًا، وأنني قد رقتها من زمن طويل وظفرت

بإعجابها، ولا سيما أنها تراني صريحًا شريفًا، على حين هي محاطة بالكذب والخداع. وقد نهضت وقالت وليكن الله معك يا ألكساي بتروفتش، لقد ظننت... ولكنها لم تتم كلامها، بل اندفعت تبكي وتنتحب ثم برحت الغرفة. وقد اتفقنا على أن تقول لزوج أبيها غدًا إنها لا ترغب في الزواج مني، وأن أقول أنا أيضًا، في الغد، كل شيء لأبي، وأن أكون صريحًا شجاعًا في حديثي معه، وقد لامتني لأني لم أنبئها بكل شيء قبل ذلك؛ فالرجل الشريف ينبغي ألا يخشى شيئًا؟ إنها لعلى خلق نبيل. وهي لا تطيق والدي وتقول إنه جشع خبيث، وقد دافعت عنه فلم أغن عنه شيئًا. واقترحت عليَّ أني إذا أخفقت مع والدي غدًا (وذلك ما هي مقتنعة به كل الاقتناع) فعليَّ أن أفزع إلى الأميرة «ك»؛ وحينئذ لن يجسر أحد مطلقًا أن يعمل على غير ما نهوى. وقد تعاهدنا على أن يكون شأننا شأن الأخ مع أخته والأخت مع أخيها. آه لو أنك تعلمين حالها ومبلغ ما هي فيه من شقاء وتعاسة، وما تشعر به نحو حياتها عند تزوج أبيها وفي البيئة التي تحيط بها من نفور... هي لم تصارحني بشيء من ذلك، كأنما كانت تخافني أنا أيضًا، بيد أني أدركت ذلك من كلامها. أي ناتاشا، حبيبتي ناتاشا، ما أشد ما ستحبك عندما تعرفك فإن لها قلبًا بالغًا في الطيبة، ويشعر المرء وهو بجانبها بأنه في جو من الدعة والهناءة. وكأنما خلقتما لتكونا شقيقتين ولتحب إحداكما الأخرى، وذلك كان رأيي دائمًا. والواقع أني أود أن أجمع بينما ذات مرة وأقف في جواركما أستمتع بمرآكما معًا. لا تظني بي سوءًا يا ناتاشا واسمحي لي أن أتحدث عنها، فإني أود دائمًا أن أتحدث إليك عنها وأتحدث إليها عنك. وأنت

تعلمين أنك أحب إليَّ من جميع الناس. ومنها هي أيضًا، فأنت عندي كل شيء».

ونظرت إليه ناتاشا في رقة يشوبها شيء من الأسى، فقد أراحتها كلماته وأمضتها في آن واحد.

وتابع هو حديثه قائلًا: «لقد عرفت كيف أقدر كاتيا من قبل ذلك، منذ أسبوعين، فقد كنت أقصد إليهم كل مساء، وكنت حين أعود إلى المنزل لا أفكر إلا فيكما أنتما الاثنتين، وأوازن بينكما».

فسألت ناتاشا مبتسمة: «وأية الاثنتين كان حظها من إعجابك أوفر».

«أنت مرة وهي أخرى، ولكن كفتك كانت هي الراجحة في أكثر الأحيان. وإني لأشعر دائمًا حين أتحدث إليها أني أصبح، على صورة ما، ألطف طبعًا وأرجح عقلًا وأكرم نفسًا... على أنه في غد سيبّت في كل شيء».

«ولكن ألا تتألم لها؟ فهي تحبك، وقد لاحظت ذلك بنفسك كما تقول؟».

«لا ريب، ولكننا نحن الثلاثة سنحب بعضنا بعضًا يا ناتاشا، وعندئذ...».

فقالت ناتاشا بصوت خافت كأنها تحدث نفسها: «وعندئذ وداعًا».

فنظر إليها أليوشا دهشًا.

وانقطع حديثنا فجأة على نحو غير متوقع، فقد سمعنا حسًّا في المطبخ الذي هو أيضًا المدخل إلى قاعة الزائرين، كأن إنسانًا قد دخل.

ولم نلبث أن رأينا مافرا تفتح الباب وتومئ إلى أليوشا أن يخرج، فالتفتنا نحوها جميعًا.

فقالت بلهجة تشف عن أن ثمة سرًّا: «عفوًا هنالك شخص يسأل عنك».

فنظر إليها أليوشا غير مصدق وقال: «من عسى أن يكون ذلك الذي يسأل عني الآن. هأنذا حاضر».

وكان بالمطبخ أحد خدم الأمير والده مرتديًا كسوة رسمية، فقد أمر الأمير وهو عائد إلى بيته بوقف مركبته أمام مسكن ناتاشا وأرسل يستطلع هل أليوشا عندها، وسرعان ما توارى الخادم بعد أن تحقق ذلك.

فقالت أليوشا وهو ينظر إلينا مرتبكًا: «أمر عجيب. لم يسبق أن حدث هذا قط، فما عسى أن يكون معنى ذلك؟».

فنظرت ناتاشا إليه قلقة وإذا بمافرا تفتح الباب ثانية وتقول هامسة في عجلة: «لقد قدم بنفسه، الأمير!».

وبادرت فاختفت.

فامتقع لون ناتاشا ونهضت واقفة وقد لمعت عيناها، واعتمدت بيدها قليلًا على المائدة، وأخذت تنظر في اضطراب نحو الباب الذي لا بد أن يمر منه هذا الضيف غير المدعوّ.

وهمس أليوشا وقد تماسك على ما كان فيه من ارتباك: «لا تخشي شيئًا، يا ناتاشا. فلن أسمح له بأن يهينك».

وفتح الباب وظهر على عتبته، الأمير فالكوفسكي بذاته السامية.

الفصل الثاني

وحدجنا بنظرة سريعة فاحصة لم يكن من الميسور أن نتبيّن منها هل كان قدومه قدوم صديق أم قدوم عدو. على أني أود أولًا أن أصف مظهره في شيء من الإسهاب. فقد ترك في ذهني تلك الليلة أثرًا غير عاديّ.

كنت قد رأيته قبل ذلك بضع مرات، فكان رجلًا لا يتجاوز الخامسة والأربعين، وكانت قسمات وجهه تسترعي النظر بجمالها واتساقها، يتغير ما تعبر عنه من المعاني بسرعة شديدة على حسب مقتضيات الأحوال والملابسات، فقد كان يستطيع أن ينتقل بسرعة لا تصدق من الابتسامة المحببة إلى أبشع تعبيرات السخط والموجدة، كما لو كان في ذلك لا يحتاج إلى أكثر من إدارة مفتاح ساعة آلية. وكان وجهه البيضي المتناسق الخفيف السمرة وأسنانه البديعة وشفتاه الرقيقتان الدقيقتان وأنفه الصغير المستقيم وجبهته العالية التي لم تتغضن بعد وعيناه النجلاوان الشهلاوان، كان كل ذلك يجعل منه رجلًا جميلًا،ومع ذلك لم يكن لوجهه موقع حسن في النفس، بل كانت ملامحه تؤثر تأثيرًا منفرًّا ممقوتًا؛ لأنه لم يكن يرتسم عليها التعبير الحقيقي لما في نفسه، بل كانت

تبدي دائمًا تعبيرًا أجنبيًّا مقنعًا مصنوعًا، فلا يستطيع المرء أن يقاوم اتهامه الأعمى بأنه لن يتاح له أن يرى ذات مرة التعبير الحقيقي لهذا الوجه. ولو أنعم المرء نظره لاستشف من وراء هذا القناع الذي لا يخلع أبدًا شيئًا غادرًا خبيثًا ومشبعًا بالأثرة إشباعًا بالغًا. هذا وقد كانت عيناه النجلاوان الشهلاوان تلفتان إليهما النظر، ولا سيما أنهما وحدهما من بين قسماته تبدوان كما لو كانتا غير خاضعتين لإرادته، فإذا ما أراد أن ينظر بهما في رفق ومودة، تشققت نظراته بصورة ما، فإذا هذه الأشعة الرقيقة الودود قد تخللتها أشعة قاسية مرتابة مترصّدة. وقد كان إلى الطول أقرب مما هو إلى القصر، ذا جسم متسق النمو بادي النحول، وهو يبدو أصغر سنًّا مما هو في واقع الأمر. أما شعره اللين ذو الشقرة الفاقعة فلا يكاد يبين فيه أثر لشعر أبيض، وأما أذناه ويداه وقدماه، فقد كانت تلفت النظر بتكوينها البديع، وعلى الجملة فقد كان نموذجًا لجمال جنسه، وكان يرتدي ملابس تمتاز بالأناقة والوجاهة على غرار الشباب المنمق المتأنق، ولكنها كانت ترى عليه حسنة جدًّا. وقد يخاله المرء أخًا أكبر لأليوشا ولا يقع في وهم أحد بأية حال أنه أب لابن بالغ النمو.

وقد اتجه إلى ناتاشا مباشرة ورنا إليها هنيهة، ثم قال:

«إن قدومي إليك في هذه الساعة وبغير إعلام سابق أمر يبدو عجيبًا ومنافيًا للتقاليد المرعية، ولكني آمل أن تصدقيني حين أؤكد لك بأني على بينة تامة من شذوذ هذا الفعل، بيد أني أعرف من أعامل وأعرف أنك موفورة الحجا واسعة الصدر، فامنحيني عشر دقائق تصغين إليَّ فيها وآمل أن تفهميني وأن تعترفي أن الحق في جانبي».

وقد قال ذلك كله بلهجة بالغة في التأدب ولكن في صراحة وغمز.

فقالت ناتاشا وهي لما تتخلص تمامًا مما اعتراها أول الأمر من ارتباك وفزع: «تفضل بالجلوس» فانحنى قليلًا وجلس.

وابتدأ الحديث، وقد أومأ نحو ابنه «اسمحي لي أولًا أن ألقي إليه بكلمتين، ما كدت تنصرف يا أليوشا دون أن تنتظرني أو تودعنا حتى أبلغت الكونتة أن كاترينا فيودوروفنا ليست على ما يرام، فهمت الكونتة أن تذهب إليها، وإذا بها قد وافتنا بنفسها في انزعاج واضطراب شديدين، وأعلنتنا في صراحة تامة أنها لن تكون لك زوجة في يوم من الأيام، وأضافت إلى ذلك أنها ترغب في أن تقيم في الدير، وقالت إنك سألتها العون وبحت لها بأنك تحب ناتاليا نيكولايفنا... ومن الواضح أن هذا الاعتراف الذي أدلت به على غير انتظار، وحدوثه في تلك الساعة بالذات إنما كان مبعثهما ما أفضيت إليها به من تصريح غريب. لقد كانت ذاهلة منتشرة الرأي، وليس من العسير عليك أن تدرك مدى ما عراني من جرّاء ذلك من دهش وفزع». ثم قال وقد استدار نحو ناتاشا: «وبينما أنا مارّ من هنا بصرت بالنور لا يزال ينبعث من نافذتك، فإذا بخاطر كان يهجس ببالي منذ زمن، قد سيطر عليَّ بقوة، فلم أستطع أن أقاوم إغراءه وصعدت إليك. ولماذا؟ سأفضي إليك بذلك في الحال. وأود قبل كل شيء أن أتوجه إليك بالرجاء ألا تدهشي لشدة عباراتي، إذ كان الأمر جميعه مفاجئًا...».

فأجابت ناتاشا في بطء: «آمل أن أفهمك وأن أقدر كلماتك حق قدرها كما تريد...».

فرنا الأمير إليها بإنعام بالغ كأنه يريد أن يسبر أعمق أفكارها.

واستأنف حديثه قائلًا: «وأنا أعتمد على فطنتك ونفاذ بصيرتك وإذا كنت قد سمحت لنفسي أن أجيئك الآن، فذلك لأني عرفت الشخص الذي أعامله، فأنا أعرفك منذ أمد طويل، ومع ذلك كنت في بعض الأحيان ظالمًا لك قاسيًا عليك. أصغي إليَّ: أنت تعلمين أن بيني وبين والدك نزاعًا امتدّ بضع سنوات، وما أريد أن أبرئ نفسي فقد أكون أخطأت نحوه خطأ أكبر مما كنت أقدر حتى الآن. فإن كان ذلك حقًّا، فإنه لم يكن إلا لأني أنا نفسي كنت مخدوعًا. إني سيئ الظن كثير الريب، وأعرف ذلك من نفسي تمام المعرفة، فأنا إلى فرض الشر أميل مني إلى فرض الخير، وهي خلة تصدر عن قلب تعس محطم، على أني لم أتعود أن أكتم أخطائي، فقد صدقت جميع ما ذاع من شائعات، وعندما هجرت أنت والديك أصبحت أخشى منك على أليوشا، فقد كنت إذ ذاك لم أعرفك بعد حق المعرفة، ولكن ما استقيته عنك من معلومات أخذ يلقي في نفسي الطمأنينة شيئًا فشيئًا، وقد راقبتك ودرستك وانتهيت إلى الاقتناع بأن اتهامي إياك لم يكن له أساس، فقد عرفت أنك في خصام مع أسرتك وأن والدك يقاوم جهده رغبتك في الاقتران بولدي. وكونك وأنت صاحبة مثل هذا النفوذ، أريد أن أقول: مثل هذا السلطان على أليوشا، لم تستخدمي سلطانك عليه بتاتًا حتى الآن، ولم تبدئيه قط بالحديث في أمر الزواج، هذا وحده يظهرك في أحسن مظهر. ومع ذلك أعترف لك صراحة أني كنت إذ ذاك مصرًّا كل الإصرار على اتخاذ كل الوسائل التي تجعل اقترانك بابني غير ممكن، وإني لمدرك أنني قد أكون مفرطًا في الصراحة بعض الشيء حين

أفضي إليك بما في نفسي على هذا النحو، ولكني أرى أن الصراحة من جانبي ألزم في هذه اللحظة من أي شيء آخر، وستقرينني على ذلك إذا استمعت إليَّ حتى النهاية. لقد سافرت إلى بطرسبورج بعد أن غادرت بيت والديك بقليل، ولكني عندما سافرت كان خوفي على أليوشا قد زال، إذ كنت أعتمد على كبريائك النبيلة وأقيم لها وزنًا. وقد أدركت أنك أنت نفسك لا ترغبين في هذا الزواج قبل حسم ما بين أسرتينا من نزاع، وأنك لم ترغبي في تكدير ما بيني وبين أليوشا من حسن التفاهم- إذ إني لم أكن لأغتفر له زواجه منك أبدًا- ولم ترغبي أيضًا أن تعرضي نفسك لقول الناس إنك قد اغتصبت الزوج الأميري وأقحمت نفسك في بيتنا إقحامًا، بل إنك على النقيض من ذلك تمامًا قد أبديت نحونا شيئًا من الإغفال وقلة الاكتراث، ولعلك كنت تنتظرين الساعة التي آتي إليك فيها بنفسي لأرجوك أن تمنحينا شرف اقترانك بولدي. ولكني مع هذا قد أصررت على أن أظل لك خصمًا، ولست أريد الآن أن أسوّغ عملي. غير أني سأعرض عليك كل ما لديّ من البواعث والأسباب في صراحة ووضوح، فأولًا ليست أسرتك بذات ثراء ولا جاه، ولدينا نحن أفضل من المال حقًّا، ولكننا في حاجة إلى أكثر منه، فحالتنا ماضية في الإدبار، ونحن مفتقرون إلى الاتصال «بذوي النفوذ» وإلى المال. وابنة زوج الكونتة سينايدا فيودوروفنا ليست ممن لهن اتصال حقًّا، ولكنها وافرة الثروة. ولو أني تريثت في الأمر لحظة لانقض عليها خاطبون آخرون واختطفوا منا العروس، ومثل هذه الفرصة ليست مما يصح للمرء أن يتركها تفلت منه. ولذلك أصررت على أن أزوج أليوشا وإن كان لا يزال

دون سن الزواج. هأنذا أكلمك بصراحة تامة وربما كنت تنظرين بازدراء إلى ذلك الأب الذي يعترف هو بنفسه أنه بدافع من الجشع والتفكير العتيق يدفع بابنه إلى اجتراح عمل سيئ. فإن هجره لفتاة طاهرة القلب بذلت كل ما تملك، من أجله ومقابلة ذلك من جانبه بالكفران والجحود هو من غير شك عمل سيئ جدًّا، ولست أريد مطلقًا أن أبرئ نفسي بتسويغ هذا العمل. وثمة سبب ثان لهذا الزواج المزمع بين ابني وابنة زوج الكونتة سينايدا فيودوروفنا، ذلك أن هذه الفتاة من أخلق الفتيات بكل حب وإجلال، فهي رائعة الجمال راقية التربية حصيفة ذات خلق ممتاز وإن لم تتجاوز طور الطفولة، أما أليوشا فهو على النقيض من ذلك ضعيف الشخصية ليس له حظ من صلابة الخلق، وهو طائش ليس له رأي مستقل ولا يزال وهو في الثانية والعشرين من عمره طفلًا بكل ما يحتمله لفظ الطفولة من معنى، وليست له إلا مزية واحدة هي طيبة قلبه، وهي خلة تعد بالنظر لسجاياه الأخرى خطرة عليه، وقد لاحظت منذ مدة طويلة أن سلطاني عليه قد أخذ يضعف شيئًا فشيئًا، وإن تهوره وتحمسه الصبياني قد طوحا به بعيدًا بل جعلاه يهمل بعض واجباته، قد أكون مسرفًا في محبتي له، وقد اقتنعت أن إرشادي ليس كافيًا وحده لتقويمه، وإذن فلا غنى له عن شخص يؤثر فيه دائمًا تأثيرًا يوجهه نحو الخير، فإن له ذلك الخلق المستضعف المستسلم السريع التعلق بكل شيء، وإنه ليؤثر أن يكون مسودًا مطيعًا على أن يكون صاحب الأمر والنهي، وسيظل ذلك شأنه طوال حياته، ويمكنك الآن أن تتصوري مدى ما عراني من اغتباط حينما عثرت في كاترينا فيودوروفنا على الفتاة المثالية التي أنشدها

زوجة لابني، ولكن اغتباطي جاء بعد فوات الأوان، فقد كان خاضعًا خضوعًا تامًّا لسلطان آخر هو سلطانك، وعندما عدت إلى بطرسبورج بعد أربعة أسابيع راقبته بدقة فشاهدت فيه- ويا لدهشتي- أنه قد خطا خطوة واسعة نحو التحسن. نعم إن طيشه وصباءه ما فتئا على حالهما، ولكن غرائزه النبيلة أصبحت أكثر تأصلًا فيه، فقد صار الآن لا يقصر اهتمامه على الأمور التافهة، بل جاوز ذلك إلى أمور أسمى وأنبل وأكثر استحقاقًا للتجلة والتقدير. ولئن كانت آراؤه لا تزال في بعض الأحيان غريبة تنقصها اللباقة وقابلية التنفيذ، فإن ميوله ومعتقداته قد تحسنت، وهي الأساس لكل شيء آخر، وهو مدين لك ولا شك بهذا التحول الحسن، فقد تعهدته بالتنشئة والتهذيب. ولا أجد مناصًا من الاعتراف أنه قد جال برأسي في ذلك الوقت أنك أنت وحدك دون غيرك التي تغمره بالهناءة والسعادة، ولكني وأدت هذا الخاطر ولم أرد أن أفكر فيه، فقد كان عليَّ أن أنتزع أليوشا مهما كلفني ذلك، وهكذا بدأت أعمل على هذا الأساس. وتوهمت أني بلغت غايتي فعلًا. وقد كنت منذ ساعة واحدة أعتقد أن الظفر حليفي، ولكن الحادث الذي وقع في منزل الكونتة هدم كل آمالي. على أن أكثر ما أدهشني في هذا الحادث المفاجئ هو ما بدا في تصرف أليوشا من جد لم أعهده فيه من قبل وما تجلى في علاقته بك من ثبات وقوة وحياة وتشبث لا يتطرق إليه الوهن، وليس يسعني إلا أن أكرر لك أنك قد هذبته وتعهدته بالتربية، ولقد لفت انتباهي فجأة أنه بلغ من التحسن أكثر مما كنت أنتظر، وبدا لي اليوم فيه من الحصافة ما لم أكن أتوقعه مطلقًا، وهذا فضلًا عن دقّة الحس ورقة الشعور. لقد اختار

أقوم الطرق لتحرير نفسه من تلك الحالة التي كانت تشقّ عليه، ولمس أنبل قوة من قوى القلب الإنساني فأيقظها، ألا وهي القدرة على الصفح ومقابلة الإساءة بالإحسان. وقد وضع نفسه تحت إمرة المخلوقة التي أساء إليها وأسقمها، واتّجه إليها يسألها العون والمساعدة، واستصرخ كبرياء فتاة تحبه إذ اعترف لها في صراحة أن لها مزاحمة، وأيقظ فيها في الوقت نفسه إحساس العطف على هذه المزاحمة، وظفر لنفسه بالصفح والوعد بمودة أخوية لا تشوبها الأثرة. وإن إفضاءه بحديث كهذا دون أن تنشأ عنه إهانة أو جرح شعور، لهو عمل يعجز عن النهوض به، في غالب الأحيان، أرجح الناس عقلًا وأكثرهم لباقة، بل لعله لا يضطلع به إلا قلب صغير طاهر طيب كقلبه. وإني لأزعم أنك يا ناتاليا نيكولايفنا لم تشتركي فيما صدر منه اليوم لا بالكلام ولا بالمشورة، وربما كنت لم تعلمي بذلك كله إلا الساعة ومنه هو نفسه، ولعلي غير مخدوع في هذا، أليس كذلك؟

فقالت ناتاشا مؤكدة قوله: «أنت مصيب كل الإصابة، فإني لم أر أليوشا منذ خمسة أيام»، وتابعت حديثها وقد اتقد وجهها ولمع في عينيها بريق التحمس بعد أن أحدث فيها حديث الأمير أثره: «لقد دبر هو كل ذلك، وقام بتنفيذه وحده».

وأبدى الأمير موافقته قائلًا: «ذلك ما اعتقدته، ومع ذلك فإني، بوجه عام، أعزو إليك الفضل في هذه الحصافة التي لم تكن متوقعة منه وهذه العزيمة الماضية وهذا الشعور بالواجب وهذه الصلابة النبيلة، ذلك ما تحققته بصورة قاطعة. وقد أخذت أفكر الآن وأنا في طريقي إلى المنزل

وراجعت عقلي وقلّبت المسألة على جميع وجوهها، فوجدت أن لديّ القدرة على البتّ في الأمر. لقد تصدعت خطتنا التي وضعناها في منزل الكونتة تصدعًا لا يمكن شعبه، ولو فرضنا أن إصلاح الأمر كان لا يزال في الإمكان، فإني أصبحت لا أرتضيه الآن، وكيف أفعل وأنا مقتنع أنك أنت وحدك التي تستطيعين إسعاده وأنك القائدة الصالحة له، وأنك التي وضعت الحجر الأساسيّ في بناء سعادته المستقبلة. لقد كان حديثي إليك حتى الآن صريحًا كل الصراحة، وأريد الآن أيضًا ألا أخفي عنك شيئًا: فإنني أعني أشد العناية بتعبيد طريق الحياة وأشره إلى المال والوجاهة وشبوب المنزلة في المجتمع، وإني لأعرف أن أكثر هذه الأمور ليست إلا أوهامًا، غير أني فطرت على حب هذه الأوهام ولست أعتزم أن أتخلى عنها مهما يكن من أحوال وملابسات. ومع ذلك فهنالك حالات يجمل أن يكون رأي المرء فيها غير هذا الرأي، فليس من الممكن أن تقاس الأشياء كلها بمقياس واحد... وعدا ذلك فإني أحب ولدي كثيرًا. وصفوة القول إن رأيي قد استقرّ على ألا ينفصل أليوشا عنك أبد الآبدين لأن في انفصاله... لأنه بدونك لا بد أن يسير في طريق الاضمحلال أو أستطيع أن أنبئك في صراحة؟ لقد هجس هذا بصدري منذ أربعة أسابيع، ولكني اليوم واليوم فقط، اقتنعت أنه الصواب دون غيره. وقد كان عليَّ بطبيعة الحال أن أقصد إليك في صباح الغد فأوضح لك كل شيء من غير أن أزعجك في منتصف الليل، ولكن عجلتي البالغة هذه قد تكون شاهدة لديك على مبلغ اهتمامي بالأمر، وشاهدة كذلك وبوجه خاص على إخلاصي وصراحتي في معاملتي لك. لست بالحدث وليس مما

يتأتى لي في هذه السن أن أخطو خطوة لم أتدبرها وأنعم النظر فيها، فعندما دخلت هنا كان كل شيء قد وزن ونظر وبتّ فيه، ولكني مع ذلك أحس أنني في حاجة إلى زمن طويل حتى أستطيع إقناعك بإخلاصي تمام الإقناع... وأجدني- ولندخل في الموضوع- في حاجة إلى أن أشرح لك لماذا جئت، لقد جئت لأقوم بواجبي نحوك ولأرجوك بكل تجلة وإكرام أن توفري لولدي السعادة وتقبليه لك بعلًا. ولا تحسبي أني قدمت إلى هنا قدوم أب عات رضي آخر الأمر أن يصفح عن أبنائه وتفضل فأجاب ملتمسهم ومنحهم موافقته على أن يعيشوا هانئين. كلا ثم كلا، فإنك تبخسين من شأني إذا زعمت أني أفكر مثل هذا التفكير. وقد تظنين أيضًا أني كنت راضيًا مستريحًا إلى بَذْلِك ما بذلت في سبيل ولدي. كلا ثم كلا، فإني لأول من يجهر بملء فيه أن ابني ليس جديرًا بك... (وإن يكن طيب القلب سليم الطوية) وهو نفسه يؤيد ذلك. ولكن هذا ليس كل شيء، وليس هذا وحده هو الذي جاء بي إلى هنا في هذه الساعة... وإنما قدمت...» (وهنا نهض من مكانه في توقير بالغ وفي صورة واضحة من صور المظاهر الرسمية): «لقد قدمت إلى هنا لأكون لك صديقًا. إني أعلم أن ليس لي في ذلك أي حق، بل على النقيض من ذلك. ولكن اسمحي لي أن أحرز هذا الحق! دعيني آمل...».

وانحنى بين يديها ولبث ينتظر جوابها. وكنت أنا أرقبه بإمعان وهو يتكلم، ولم يفته ذلك.

وقد كان يتكلم في رزانة بالغة وبطلاقة، يشوبها أثر خفيف من الرنة الخطابية. بيد أنه كان يتعمد بين الفينة والفينة أن تكون لهجته مسترسلة

لا تكلف فيها، وكانت نغمة حديثه في بعض الأحيان لا تتناسب البتة مع الرغبة الجامحة التي دفعته إلى هذه الزيارة الأولى في مثل هذه الساعة غير اللائقة وفي مثل هذه الأحوال، وكانت بعض استطراداته تلوح كأنها قد أعدت بعناية بالغة، على حين كان يعود في مواضع أخرى من حديثه المستفيض الذي يثير الدهش بسبب هذه الاستفاضة، فيصطنع الظهور بمظهر الرجل الغرّ الذي يحاول إخفاء الإحساسات المتثالة عليه بستار من التفكه والمذاح وعدم المبالاة. على أني لم أتبين كل ذلك إلا بعد حين. أما في ساعتها فقد كان للحديث فيَّ أثر آخر. وكان في كلماته الأخيرة من العواطف ومن التبجيل والتقدير القلبيّ لناتاشا ما سحرنا جميعًا، بل لقد كان يلمع فوق هدبيه ما يشبه الدمع، حتى لقد هزم قلب ناتاشا الطيب فأذعن واستسلم، فنهضت هي أيضًا واقفة وبسطت إليه يدها في اضطراب شديد، دون أن تقوى على التفوه بلفظ، فأمسك بيدها ولثمها بحرارة وحنان، وخرج أليوشا عن طوره تحمسًا وافتتانًا.

وصاح: «ألم أقل لك ذلك يا ناتاشا، فأبيت أن تصدقيني! لم تشائي أن تصدقي أنه أنبل إنسان في العالم كله، فانظري أنت الآن، انظري بنفسك». واندفع إلى والده يحتضنه ويعانقه، واستجاب الأب إلى معانقة ابنه بحنان بالغ. ولكنه بادر إلى تقصير أمد المنظر المفعم بالعواطف كأنه استحيا من مثل هذه الإحساسات، فقال: «حسبك».

وأمسك بقبعته وقال موجهًا كلامه إلى ناتاشا:

«إني ذاهب الآن. لقد سألتك عشر دقائق ولكني مكثت ساعة كاملة» وضحك ثم قال: «ولكني أغادرك وأنا نافد الصبر شوقًا إلى رؤيتك مرة

أخرى في أقرب وقت، فهل تسمحين لي بأن أكثر من الاختلاف إليك؟» فأجابت ناتاشا: «أجل بالطبع، في أقرب ما يستطاع من الوقت!» ثم قالت وقد عراها الارتباك: «بودي لو... لو أحببتك».

فقال الأمير وقد ابتسم لكلماتها: «ما أشد صراحتك وما أشرف نفسك، إنك لا تستطيعين التكلف مطلقًا حتى في محادثة يسيرة مؤدبة كهذه، بيد أن صراحتك أشهى من كل تأدب زائف. أجل، ولكني أرى أن الوقت سيطول ويطول قبل أن أصبح أهلًا لحبك».

فهمست ناتاشا وقد تأثرت في أعماق نفسها: «كفى، لا تبالغ في إطرائي... وحسبنا هذا».

ما كان أجملها في تلك اللحظة!

فقال الأمير: «كما تشائين. ولكن بقيت لي كلمتان في هذا الموضوع. تصوّري ما يعروني من سوء الحظ، فإني لا أستطيع القدوم إليك غدًا، لا غدًا ولا بعد غد، فقد تلقيت مساء اليوم رسالة عظيمة الخطر تدعوني إلى الرحيل لقضاء بعض الشؤون، وليس لي عن إجابة هذا الطلب من محيص، ولذلك لم يكن لي مندوحة عن مغادرة بطرسبورج صباح غد، على أني أرجو ألا تظني أني حضرت إليك الليلة في هذه الساعة المتأخرة لأني لا أستطيع الحضور إليك غدًا وبعد غد. فهذا ما لم يدر بخلدك بطبيعة الحال. ها أنت ذي ترين نموذجًا من سوء ظني. كيف هجس ببالي أنك لا بد أن تزعمي ذلك! أجل، إن سوء الظن هذا قد جلب عليَّ في الحياة أضرارًا عديدة، ولعل النزاع الذي بيني وبين أسرتك لم يكن إلا وليد هذه الخلة التعسة... اليوم يوم الثلاثاء يتلوه الأربعاء فالخميس

فالجمعة، وفي هذه الأيام الثلاثة سأكون غائبًا عن بطرسبورج، بيد أني عظيم الأمل في أن أكون قد رجعت إلى هنا يوم السبت وسأحضر إليك في اليوم نفسه! فهل تأذنين لي في أن أقضي المساء كله عندك؟».

فهتفت ناتاشا: «بالطبع، بلا شك، وإذن فسأنتظرك مساء السبت. سأنتظرك بصبر نافد».

«ما أشد ما سيخامرني من سعادة! فسأزداد بك معرفة يومًا بعد يوم، أما الآن فلا مندوحة لي عن الانصراف، غير أني لا أحب أن أرحل دون أن أصافحك بقوة» ثم تابع كلامه وقد التفت إليَّ فجأة فقال: «معذرة، فقد كان كل هذا دون تدبير سابق.. وقد طالما حدث لي السرور بلقياك، بل لقد قدم كلانا إلى الآخر ذات مرة، ولذلك أود ألا أرحل من هنا قبل أن أؤكد لك أني سررت بتجدد تعارفنا».

فأجبت وأنا أصافحه: «أما اللقيا فقد حدثت، هذا صحيح. ولكن عفوًا فإني لا أذكر أني قدمت إليك».

«بل حدث ذلك، وكان لدى الأمير، في العام الماضي».

«معذرة، كنت قد نسيت ذلك، ولكن ثق أني لن أنسى هذه المرة، فستخلد هذه الأمسية أبدًا في ذاكرتي».

«وفي ذاكرتي أنا أيضًا. وقد عرفت من زمن طويل أنك لناتاليا نيكولايفنا ولابني الصديق الوفي» ثم أضاف قائلًا وقد التفت إلى ناتاشا: «وآمل أن تقبلوني رابعًا لكم في عصبتكم».

فأجابت ناتاشا في تأثر شديد: «أجل، إنه صديقنا الوفي، ولنكن

نحن جميعًا كذلك فيما بيننا».

يا للمسكينة. لقد أشرق وجهها من الفرح حين رأت أن الأمير لم ينسى. ما أحبها إلى نفسي!

وتابع الأمير حديثه قائلًا: «لقد لقيت الكثيرين ممن يمجدون نبوغك وأعرف بينهم اثنين من المعجبين بك أشد الإعجاب، وسيسران كثيرًا لو أنهما تعرفا بك، وهما الكونتة، أعز أصدقائي وابنة زوجها كاترينا فيودوروفا فيلومونوفا، فدعني آمل أن تتيح لي السرور بعقد صلة التعارف بينك وبينهما».

«هذه مجاملة عظيمة لي، وإني وإن كنت لا أغشى مجالس الناس كثيرًا في هذه الأيام...».

«ولكنك ستعرّفني بعنوانك، فأين تقطن؟ إنه ليسرني كثيرًا...».

«إنني لا أستقبل أحدًا أيها الأمير، وبخاصة في الوقت الحاضر».

«ولكن عسى أن تستقبلني أنا، فإني وإن كنت لا أستحق أي استثناء فإني أؤمل..».

«إذا كانت هذه رغبتك، فهي تسرني كثيرًا، إني أقطن في غرفة علوية في منزل كلوجه».

فصاح وكأنما أدهشه ذلك: «في منزل كلوجه؟ كيف؟ أتقطن هناك منذ زمن طويل؟».

فأجبت وقد بردت مني التفاتة دهشة لم أتعمدها: «كلا ليس من زمن طويل، إني أقطن في رقم أربعة وأربعين».

«رقم أربعة وأربعين؟ أتقطن هناك... وحدك؟».

«نعم و حدي وبمفردي».

«حسن حسن، إنني، أعني، إنني أعتقد على الأقل... إنني أعرف هذا المنزل، ولعله يكون من الخير... أن أزورك، بل سأزورك حتمًا، فلدي أشياء شتى أرغب أن أتحدث إليك فيها وأنتظر منك شيئًا كثيرًا، فإنك تستطيع أن تسدي إليَّ جميلًا، فاستمع، إني سأفد إليك للمرة الأولى، فإلى الملتقى. هات يدك!».

وصافحني أنا وأليوشا ولثم يد ناتاشا مرة أخرى، ثم انصرف دون أن يطلب إلى أليوشا أن يصحبه.

ولبثنا نحن الثلاثة مضطربين أشد الاضطراب، فقد حدث كل ما حدث بغتة وعلى غير انتظار. وشعرنا جميعًا أن كل شيء قد تبدل في هذه اللحظة تبدلًا تامًّا، وأن شيئًا جديدًا غير معروف قد بدأ. وجلس أليوشا بجوار ناتاشا صامتًا، ثم قبل يدها، وأخذ ينظر إليها من حين إلى حين كأنه ينتظر ما ستقول. وأخيرًا قالت: «حبيبي أليوشا، بادر بالذهاب غدًا إلى كاترينا فيودوروفنا».

فأجاب: «ذلك مما ارتأيته أنا نفسي. سأذهب إليها غدًا من غير شك».

«غير أنه قد يكون من العسير عليها أن تلقاك مرة أخرى، فكيف ندبر الأمر؟».

«لست أدري يا حبيبتي، لقد فكرت في ذلك أيضًا... سأرى... حين

أكون هناك... وأبُتّ في اختيار ما ينبغي» ثم لم يملك أن صاح: «ولكن ما قولك أنت يا ناتاشا؟ لقد تغير كل شيء من أمرنا».

فتبسمت ورمقته طويلًا في رفق.

وواصل الحديث قائلًا:

«ما أرقّ شعوره، لقد رأى أيّ مسكن حقير تسكنين فلم يفه بكلمة واحدة عن...».

«عن ماذا؟».

فقال متابعًا حديثه وقد احمرَّ وجهه: «عما يحسن من انتقالك إلى مسكن آخر... أو نحو ذلك».

«ولم عساه يفاتحنا في ذلك يا أليوشا؟».

«ذلك حق. ولكني أقول إنه دقيق الحس جدًّا. وما أكثر ما أسبغ عليك من الثناء. لقد قلت لك من قبل... وكررت عليك غير مرة لا، إنه يدرك كل شيء ويحس كل شيء، بيد أنه يتحدث عني كما يتحدث عن طفل. وهم جميعًا يروننني كذلك. وكيف يرون غير هذا، وأنا كذلك حقًّا؟».

«أنت كالطفل، ولكن نظراتك أحدُّ من نظراتنا جميعًا، يا أليوشا الطيّب».

«وقد زعم أن طيبة قلبي لا تعود إلا بالضرر، فماذا يقصد بذلك؟ ذلك ما لست أفهمه. ولكن أتدرين يا ناتاشا؟ أليس من الخير أن أركب إليه في الحال؟ وسأكون عندك ثانية في بكرة الغد».

«اركب إليه يا حبيبي، امض إليه. إنها لفكرة صائبة، فمن الحتم أن تتراءى له اليوم مرة أخرى. أسامع أنت؟ ثم تؤوب في صبيحة الغد عندما تتاح لك الفرصة» ثم أضافت بخبث ودهاء وهي تغازله بعينيها: «على ألا تعود فتنقطع عني خمسة أيام طوال».

وغمرنا جميعًا سرور صامت بالغ.

ونادى وهو يبرح الغرفة: «أتجيء معي يا فانيا؟».

«كلا، فسيبقى هنا، فإني أود أن أتحدث إليك قليلًا يا فانيا. ولكن استمع يا أليوشا، غدًا مبكرًا جدًّا».

«قبل أن تبزغ الشمس. طاب ليلك يا مافرا».

وكانت مافرا مهتاجة مضطربة. لقد أنصتت إلى حديث الأمير وسمعته كله، بيد أنه قد فاتها فهم الكثير منه، وكانت تتوق إلى الاستيضاح ومعرفة التفاصيل، ومع ذلك كانت تلوح على وجهها علائم الجد وسيما الاعتزاز، ذلك بأنها هي أيضًا قد أدركت أشياء كثيرة قد أصابها التبدُّل.

وبقيت أنا وناتاشا وحدنا، فتناولت يدي وصمتت هنيهة كما لو كانت لا تزال تبحث عن الألفاظ.

وقالت أخيرًا بصوت خافت: «إني في غاية الإعياء، أنصت، أذاهب أنت إليهما غدًا؟».

«حتمًا».

«أخبر أمي وحدها بالأمر، ولا تحدّثه هو به!».

«إنني، وإن لم توصني لا أحدثه عنك مطلقًا!».

«أجل. على أنه مع ذلك سيعلم بالأمر، فعليك أن تراقب ماذا سيقول في هذا الشأن، وكيف سيستقبل الخبر. رباه، ماذا عسى أن يكون أمري يا فانيا إن لعنني بسبب هذا الزواج؟ كلا إن ذلك لا يمكن أن يكون».

فأجبتها متحمسًا: «سيصلح الأمير كل شيء، وسيصافيه ولا ريب، ثم تعود المياه إلى مجاريها».

فصاحت متضرعة: «آه يا رب يا رب، ليت ذلك يكون».

«هدئي من روعك يا ناتاشا، سيصفو كل شيء، وكل ما في الجو يدل على ذلك».

فنظرت إليَّ بإنعام.

«فانيا، ما رأيك في الأمير؟».

«إن كان مخلصًا فيما قال، فهو فيما أرى رجل موفور النُّبل».

«إن كان مخلصًا فيما قال؟ ما معنى هذا؟ وهل يمكن أن يكون غير مخلص فيما قال؟».

فأجبتها: «يلوح لي أنا أيضًا أنه كان مخلصًا». وقلت في نفسي: «وإذن فقد جال هذا الخاطر ببالها هي أيضًا عجبًا!».

«ولقد كنت دائم النظر إليه... متفحصًا إياه...».

«أجل، فقد كان يلوح لي في بعض الأحيان عجيبًا».

«ولي أنا أيضًا، وقد كان يتحدث دائمًا بطريقة... آه، إني تعبة يا فانيا، فإلى دارك الآن وعد إليَّ غدًا بعد زيارتك إياهما. اسمع، ألم يكن في

قولي له إنه كان بودي لو أحببته ما يجرحه؟ قل لي؟».

«بلى. ولم يجرحه؟».

«ولكن... قد يكون هذا القول سخيفًا؟ أعني أن فيه مبالغة وإفراطًا إذ إني لا أميل إليه».

«بل الأمر على النقيض من ذلك تمامًا، فقد كان هذا القول منك بديعًا. بريئًا كل البراءة، صادرًا عن عفو الخاطر. لقد كنت فاتنة في تلك اللحظة، ولن يكون سخيفًا إلا هو إذا لم يفهم ذلك لما طبع عليه من أرستقراطية».

«لقد أثار ذلك سخطك يا فانيا؟ ولكن ما أسوأني وأكثر ارتيابي وغرور نفسي! لا تسخر مني، فإنني أقول بين يديك كل شيء في صراحة، ولا أطوي عنك شيئًا، آه يا فانيا يا صديقي الأعز. لئن ألمّ بي الكرب مرة أخرى وبرّحت بي الآلام لتكونن أنت وحدك إلى جانبي، أنت وحدك دون غيرك، فبم أستطيع أن أكافئك على صنيعك؟ لا تلعنّي أبدًا أبدًا، يا فانيا!».

فلما عدت إلى المنزل نضوت عني ملابسي واضطجعت. وكانت غرفتي مظلمة ظلمة القبو، وأخذت تطوف برأسي خواطر ومشاعر عجيبة، فلم أستطع النوم إلا بعد فترة طويلة.

لا بد أن يكون هذا الرجل قد أغرب في الضحك سخرية منا عندما اضطجع في فراشه الوثير الثمين، هذا لو أننا كنا عنده جديرين حتى بالسخرية، وأكبر الظن أننا لم نستحق في نظره هذا الشرف.

الفصل الثالث

وعندما هممت في الساعة العاشرة من الصباح التالي أن أغادر المسكن إلى آل إشمنيف بجزيرة فاسيلي ثم إلى ناتاشا لأزورها في وقت مبكر قدر الإمكان، وجدتني أصطدم عند الباب بتلك الفتاة التي زارتني بالأمس، بحفيدة سميث الهرم، فقد كانت قادمة لزيارتي. وأذكر أني سررت كثيرًا لمقدمها دون أن أعرف مبعث هذا السرور. لم أكن في مساء أمس قد تمكنت من مشاهدتها جليًا، أما الآن في رائعة النهار فقد زادتني دهشًا على دهشي، إذ قلما يعثر الإنسان على شبيه لها في الغرابة والشذوذ، ولا سيما فيما يتصل بسمتها الظاهر، فهي تثير دهشة كل عابر يلمحها بقصرها وبحدقتيها السوداوين البراقتين غير الروسيتين وبشعرها الأسود المشعث وبنظرتها الصامتة الملغزة العنيدة، وبخاصة نظرتها، فلشد ما كانت لافتة للأنظار، إذ إنها كانت تدل على إدراك كبير، بيد أنها كانت تدل على ارتياب فضولي وسوء ظن أيضًا. وقد بدا جلبابها الصغير العتيق القذر في وضح النهار أشبه بالأسمال منه في مساء أمس، وكانت تبعث في النفس شعورًا بأنها تعاني داء مزمنًا عضالًا

يدب فيها ويخطو نحو هدم جسمها خطوة فخطوة في غير توقف ولا انقطاع. وكانت تشوب سمرة وجهها صفرة مرارية، على أنها كانت مع ما جلبه إليها المرض والتعاسة من دمامة، لا تزال تبدو جميلة في عين الناظر إليها. وكان يمتاز فيها بالجمال النادر حاجباها اللطيفان المقوّسان وجبهتها العريضة على ما بها من انخفاض، وشفتاها الحسنتا التكوين اللتان تنبئان عن شيء من الكبرياء والجرأة واللتان هما مع ذلك شاحبتان لا يغشاهما من الحمرة إلا أثر خفيف.

فصحت: «آه، هذه أنت! لقد كنت أتوقع قدومك. ادخلي» فدخلت كما دخلت بالأمس، متباطئة، وأخذت تتفحص ما حولها بارتياب وتجيل النظر بإنعام واهتمام بالغين، كما لو تريد أن تعرف ما إذا كان القاطن الجديد قد بدل في الغرفة شيئًا. فقلت لنفسي: «إن الحفيدة تنزع إلى الجد، فهل تراها ضعيفة العقل؟» وكانت لا تزال صامتة، فظللت منتظرًا.

وأخيرًا همست قائلة وقد أسبلت عينيها: «الكتابان!».

«نعم، كتاباك. هذان هما فخذيهما! فقد احتفظت لك بهما».

فنظرت إليّ في تلهف واختلجت شفتاها اختلاجة عجيبة، كأنما كانت تهم بأن تبتسم ابتسامة مرتابة، ولكن سرعان ما انمحت هذه الحركة وحلّت محلها من جديد تلك الهيئة المكتئبة الملغزة. وسألت متهكمة وقد صعّدت نظرها فيَّ وصوّبته: «وهل حدّثك الجدُّ عني؟».

«كلا. إنه لم يتحدث عنك، ولكن...».

فقطعت حديثي سائلة في لهفة: «ومن أين عرفت أن لا بد لي أن آتي إلى هنا؟ من أنبأك بذلك؟».

«عرفت ذلك؛ لأني فكرت في أمر جدك، فقدرت أنه لا يمكن أن يكون قد عاش هنا وحيدًا مهجورًا من الناس جميعًا، فقد كان هرمًا ضعيفًا، ففرضت أنه لا بد أن يكون ثمة من يأتي إليه في بعض الأحيان. هذان كتاباك فخذيهما. هل وعيت منهما شيئًا؟».

«كلا».

«وفيم تحتاجين إليهما إذن؟».

«لقد كان جدي يدرّس لي فيهما عندما كنت لا أزال أواصل زيارته».

«وهل أمسكت عن زيارته فيما بعد؟».

فقالت وكأنها تعتذر: «نعم، أمسكت عن زيارته... كنت مريضة».

«أو لم يبق لك أحد غيره، أمٌّ أو أب؟».

فزوت ما بين عينيها ونظرت إليَّ في فزع ورعب، ثم أطرقت واستدارت وهي صامتة، وخرجت من الغرفة في هدوء دون أن تتفضل بالإجابة، كما حدث أمس تمامًا، فأتبعتها بصري ذاهلًا، بيد أنها وقفت ثانية على عتبة الباب.

وسألتني بغتة وقد استدارت نحوي بعض الاستدارة: «وبم كان موته؟» وكانت في الوضع والملامح التي كانت عليها مساء أمس عندما خرجت من الغرفة وقد مالت بوجهها صوب الباب وهي تسأل عن أزركا.

فتقدمت نحوها وأنبأتها بكل شيء في إيجاز، وكانت صامتة تنصت

إليَّ في تلهف، مطأطئة رأسها مولية ظهرها إياي، وأنبأتها كذلك بأن الهرم ذكر- قبل وفاته- الشارع السادس.

ثم قلت معقبًا: «وقد استنبطت من ذلك أن بعض ذوي قرباه يقطنون هناك، فتوقعت قدومهم للسؤال عنه. لا ريب أنه كان يحبك كثيرًا لأنه فكر فيك في ساعته الأخيرة».

فهمست دون أن تزيد: «كلا، لم يكن يحبني».

وكانت تضطرب اضطرابًا شديدًا. وقد انحنيت وأنا أحدثها وأنعمت النظر في وجهها، فلاحظت أنها قد بذلت مجهودًا عنيفًا لتخفي اضطرابها عني، ولعل ذلك كان كبرياء منها. وأخذ لونها يمتقع شيئًا فشيئًا وعضت على شفتها السفلى بشدة، ولكن قلبها أخذ يخفق بقوة تسترعي الانتباه وبصوت ظلّ يرتفع باطراد حتى كان من المستطاع أن يسمعه المرء على قيد خطوتين أو ثلاث خطوات، على نحو ما يشاهد في حالة الورم الوعائي. وفرضت أنها ستنفجر في أية لحظة بالبكاء كما فعلت أمس، غير أنها ملكت نفسها وقالت:

«وأين السياج».

«أي سياج تعنين؟».

«الذي مات بجواره».

«سأريك إياه... عندما نمر به. ولكن اسمعي، ما اسمك؟».

«لا حاجة لك...».

«لا حاجة لي بماذا؟».

فأجابت غاضبة وبألفاظ متقطعة: «باسمي... فليس... لي اسم مطلقًا». وهمت بالانصراف فاستوقفتها قائلًا: «على رسلك. يا لك من عجيبة أيتها الفتاة الصغيرة. إنني إنما أبغي لك الخير، أمس عندما أبصرتك واقفة على الدرج في الركن المعتم تنتحبين. إنني لا أحتمل التفكير في ذلك... وعدا ذلك فقد مات جدك بين ذراعي، ولا ريب أنك كنت في فكره وهو يتكلم عن الشارع السادس، ومعنى ذلك أنه قد وكل إليَّ أمرك، بل هو فوق ذلك قد تراءى لي في المنام... ولذلك احتفظت لك بالكتابين، ولكنك لا تزالين نافرة كأنك تخشينني. أنت ولا ريب طفلة يتيمة فقيرة، ولعلك تأوين إلى قوم غرباء؟ أحق ذلك؟ هل أنا مصيب؟».

ولم أزل أعمل على إقناعها في حميّة وحماسة. ولست أدري ماذا أثر فيَّ منها، فقد كنت أشعر نحوها بشيء آخر غير محض الشفقة، فهل كان مبعث ذلك الشعور ما أحاط بكل تلك الحوادث من أسرار أم هو ما تركه فيَّ سميث الهرم من أثر، أم كان يرجع إلى استعداد طبيعي عندي إذ ذاك للذهاب مع الخيال؟ لست أدري، ولكن هذا الشعور كان يجذبني إليها بقوة قاهرة. والظاهر أن كلماتي أثرت فيها فنظرت إليَّ متعجبة متأملة، لا في جفاء وقسوة بل في رقة ورفق، بيد أنها عادت فغضت من بصرها كأنها كانت مستغرقة في التفكير.

وهمست فجأة على غير انتظار «هيلينا».

«إذن فاسمك هيلينا؟».

«أجل!».

«ألا تودين أن تكثري من زيارتي؟».

فهمست وهي تتروى: «لن يتأتى ذلك... لست أدري... ربما» وكانت كأنها تجاهد نفسها.

وطرق آذاننا في تلك اللحظة رنين ساعة في مكان ما، فاقشعرت الطفلة ونظرت إليَّ في جزع ممض لا يحيط به الوصف، وهمست:

«كم الساعة الآن؟».

«منتصف الحادية عشرة».

فصرخت جازعة.

وقالت: «رباه» وعدت إلى خارج الباب، ولكني استطعت أن ألحقها على أحد منعطفات الدرج.

وقلت: «لن أدعك تمضين على هذا الوجه. مِمَّ تخشين؟ هل تأخرت؟».

فصاحت: «أجل، أجل، لقد برحت الدار خفية، فدعني. إنها ستضربني». وكانت بادية الضجر تحاول الإفلات من يدي.

«اصغي إليَّ ولا تعجلي، إنك ذاهبة إلى جزيرة فاسيلي، وأنا أيضًا أقصد إلى بيت هناك في الصف الثالث عشر، وقد تأخرت كما تأخرت، ولذلك أراني مضطرًا إلى اجتراء مركبة، أفلا تركبين معي؟ سأبلغك إلى حيث تريدين، فتصلين في وقت أقل كثيرًا مما لو ذهبت راجلة...».

فصاحت وهي في خوف بالغ: «إياك والقدوم إليّ» وتقلص وجهها لمجرد التفكير في أن أذهب إلى حيث تقيم.

«ولكني قلت لك إني ذاهب إلى الصف الثالث عشر لبعض شأني، لا إليك ولست أقصد أن أتقصى أثرك. ستوصلنا المركبة إلى هناك في وقت قصير، فتعالي معي!».

وهرولنا معًا إلى أسفل مسرعَين، واستقلينا أول مركبة صادفناها وكانت عتيقة بالغة الحقارة، ويظهر أن هيلينا كانت عجلة جدًّا، ولذلك سمحت لنفسها بالركوب معي، فأما الذي حير لبي فهو أني لم أجسر على أن أسألها أي سؤال. فلما سألتها ممن في المنزل تخافين أشارت بيدها إشارة الفزع والاستنكار وكادت تقفز من المركبة، فقلت في نفسي «يا له من سر».

وكانت تجلس في المركبة غير مريحة مطلقًا. فكانت كلما اهتزت المركبة أمسكت معطفي بيدها الصغيرة اليسرى القذرة المتشققة لتمسك نفسها وتحفظ توازنها، أما يدها الأخرى فكانت ممسكة بكتابيها على نحو ينبئ بعظم خطرهما عندها، فلما تزحزحت جانبًا ذات مرة أمكنني أن أرى قدميها فإذا هما، ويالله الدهشة! عاريتان من الجوارب في حذاءين ممزقين، ومع أني كنت قد اعتزمت ألا ألحف عليها بالأسئلة، فقد وجدتني الآن غير قادر على ذلك.

فسألتها: «أليست عندك جوارب؟ كيف تستطيعين أن تمشي عارية القدمين في هذا القر والبلل؟».

فأجابت موجزة: «كلا ليس عندي».

«رباه ولكنك تنزلين عند بعض الناس، فكان عليك أن تستعيري

منهم زوجين من جوارب عندما تضطرين إلى الخروج».

«لا أريد ذلك».

«ولكن سلوكك هذا يجر عليك المرض، وقد يدفع بك إلى الموت».

«إذا كان الأمر كذلك فمرحبًا بالموت».

وكان يبدو عليها أنها لا ترغب في الإجابة عن أسئلتي بأكثر مما أجابت به، وأن أسئلتي كانت قد أضجرتها.

وأريتها المنزل الذي فاضت نفس سميث أمامه قائلًا: «انظري، لقد مات ها هنا».

فحملقت إلى المكان باهتمام، ثم اتجهت إليَّ بنظرة ضارعة وقالت:

«لا تجئني بالله عليك، وسأجيئك أنا. لا ريب أني سأجيئك. سأجيئك حالما يتسنى ذلك لي».

«حسن، قد قلت ذلك من قبل. ولكن من ذا الذي تخافينه كل هذا الخوف؟ إنك ولا شك في غاية من الشقاء، وإني ليتملكني الأسى حينما أراك...».

فأجابت بصوت المغيظ المحنق: «إنني لا أخاف أحدًا».

«ولكنك قلت قبل إنها ستضربني؟».

فقالت وقد لمعت عيناها: «فلتضربني» وأخذت تردد في مرارة بصوت مرتعد وقلصت شفتها العليا من فرط الازدراء: «فلتضربني.

لتضربني هادئة مطمئنة».

وبلغنا أخيرًا جزيرة فاسيلي، فطلبت إلى الحوذي أن يقف مركبته أول الصف السادس، وقفزت منها وأخذت تتلفت حواليها في قلق وفزع.

ثم أخذت تردد وهي وجلة متضرعة إليَّ ألا أتقصى أثرها: «تابع أنت مسيرك، وسأجيئك بلا شك. استأنف أنت مسيرك بكل ما تستطيع من سرعة».

فتابعت المركبة المسير، ولكنها لم تسر إلا خطوات في محاذاة طوار المرفأ حتى صرفتها وعدت مهرولًا إلى الصف السادس فعبرته مسرعًا إلى جانبه الآخر، فلم ألبث أن رأيتها، ولم تكن قد تقدمت كثيرًا مع أنها كانت مسرعة وكانت كثيرة التلفت وراءها، بل كانت تقف بين الفينة والفينة لتعلم ما إذا كنت وراءها، غير أنها لم تلمحني إذ كنت أختبئ تحت أول باب ألقاه، فظلت تتابع سيرها وظللت أنا من ورائها في الجانب الآخر.

وكنت إذ ذاك أشد ما أكون رغبة في الاستطلاع والمعرفة، ومع أني معتزمًا أن أكف عن متابعتها، فقد أصررت على أن أرى، على الأقل المنزل الذي تدخله، وكنت خاضعًا في ذلك لشعور قوي عجيب أشبه بالشعور الذي بعثه فيَّ جدها في محل الحلوى إذ ذاك عندما نفق أزركا.

* * *

الفصل الرابع

وهكذا واصلنا السير حتى بلغنا شارعًا صغيرًا، وهي لا تزال تجد في مسيرها حتى دخلت في النهاية حانوتًا، فانتظرت وقلت: «إنها، بطبيعة الحال، لا تقطن في الحانوت».

وكان الأمر كما توقعت فقد خرجت بعد دقائق قليلة، ولم يكن معها الكتابان بل كانت تحمل بدلهما «سلطانية» من الخزف، وسارت قليلًا ثم انثنت فولجت باب منزل حقير. كان ذلك المنزل بناء صغيرًا قديمًا من الحجر ذا طبقتين مطليًا بلون أصفر قذر، وكان بإحدى النوافذ الثلاث التي بطبقته السفلى تابوت صغير لم يصقل الصقل الأخير، مما يدل على أن صانعًا للتوابيت يقطن هنا. أما نوافذ الطبقة العليا فكانت تلفت النظر بصغرها وبكونها مربعة تربيعًا تامًّا، وكان يبدو من وراء زجاجها الكدر المشرخ ستارة قطن حمراء، فجزت الشارع وتقدمت من المنزل وقرأت اللوحة الحديدية التي على بابه فكان فيه «منزل السيدة بوبنوفا».

وما كدت أحل خط هذه اللوحة حتى سمعت فجأة صراخًا نسويًّا جهوريًّا متصلًا يتخلله سب وشتم بصوت عال، فنظرت من بين مصراعي

الباب فرأيت على درج السلم الخشبي امرأة بدينة متزيية بزي نساء سيدات الطبقة العاملة، على رأسها خمار أخضر وكان وجهها ذا لون مقيت أحمر يضرب إلى الزرقة، وعيناها الصغيرتان الرمداوان تومضان وميض الشر والخبث، ويدرك الإنسان لأول وهلة أنها لم تفق من نشوة الخمر مع أن الوقت كان صباحًا. وكانت تصرخ في وجه هيلينا المسكينة، وكانت هذه ماثلة أمامها كالمتجمدة، والسلطانية في يدها، ورأيت أيضًا على السلم وراء المرأة المحمرّة الوجه امرأة متبرجة مزججة الحاجبين. وما هو إلا أن فتح الباب المؤدي إلى الطبقة السفلى وظهرت فوق السلم، على الضجيج كما يبدو، امرأة نصف ترتدي ملابس زهيدة الثمن ولها مظهر محتشم لا تقتحمه العين. وكذلك أخذ سائر القاطنين في الطبقة السفلى ينظرون من خلال مصراعي الباب الذي قد انفتح جانب منه، وهما رجل هرم متهدم وفتاة صغيرة. ووقف كذلك في فناء المنزل رجل طويل متين البنيان أحسب أنه البواب وقد أمسك مكنسة وراح يشاهد المشهد وهو هادئ مبتهج.

وصاحت المرأة وقد اندفعت تقذف بكل ما حضرها من ألفاظ الشتائم والسباب دون هوادة حتى أوشكت أن تختنق: «أيتها الجيفة اللعينة. أيتها العَلَقة التعسة. أيتها الوغدة الخسيسة، هذا جزاء كفالتي لك يا أميرة المتسولات! أرسلها لابتياع خيار فتمضي هي للتنزه، وذلك ما توقعته منها مقدمًا عندما أرسلتها. إنها لحال تدفع بالمرء إلى البوار. أمس جذبتها من شعرها لهذا السبب نفسه، واليوم تنطلق هائمة على وجهها مرة أخرى. أين تذهبين أيتها المتسكعة؟ ومن ذا الذي تذهبين إليه أيتها المنافقة اللعينة، أيتها الممسوخة المتبجحة النظرة، أيتها الأفعى السامة،

من يكون؟ أجيبي أيتها المتنة وإلا أمسكت بعنقك فقتلتك مكانك» وانقضت المرأة المغيظة على الصغيرة المسكينة، ولكنها ما كادت تبصر بالمرأة المتطلعة من الطبقة السفلى نحو السلم حتى انثنت عن الطفلة إليها. وأخذت تسرع في كلامها وتلوح بيديها كأنها تريد أن تتخذ من تلك المرأة شهيدة على ما اقترفت فريستها المسكينة من جريمة شنعاء.

«ها هي ذي قد نفقت أمها كما تعلمون أيها القوم الصالحون وبقيت هي وحيدة في العالم كالعصفور الذي نزع ريشه، ورأيتكم قد كفلتموها- على إملاقكم، إذ ليس لديكم ما تأكلونه- فحدثتني نفسي قائلة: حسن، قدمي قربانًا إلى القديس نيكولاوس بأن تأخذي هذه اليتيمة إليك. فأخذتها، فماذا كان بعد؟ أبقيتها عندي شهرين امتصت فيهما كل دمي وكادت توردني موارد الردى، هذه العلقة الماصة للدماء، هذه الحية الخبيثة، هذه الشيطانة العنيدة الشكسة، ومهما أوسعتها من ضرب فهي صامتة، ومهما قذفت به رأسها من شيء فهي صامتة، هي دائمًا صامتة كأن في فمها ماء، ومهما يصب مرارتي من انشقاق لكثرة كلامي إليها فهي صامتة. أجل ماذا تتصورين نفسك أيتها القميئة الغبية؟ لولاي لمت جوعًا على قارعة الطريق، وكان يجب عليك أن تغسلي قدمي ثم تشربي فضل مائهما جزاء صنيعي معك أيتها البشعة، أيتها العاهرة الفرنسية القذرة، لولاي لنفقت!».

وسألت المرأة التي تحدثت إليه تلك المشاغبة السليطة، في خشوع: «علام اهتياجك هكذا يا أنّا تريفونفنا؟ ما الذي أسخطك منها هذه المرة؟».

«علام يا عزيزتي، علام؟ إنني لا أحتمل أن تخالف مشيئتي، وعلى كل امرئ أن يؤدي واجبه، ذلك ما أعتقده. ولكن لا، فلقد كادت اليوم تودي بي. أرسلتها إلى الحانوت المجاور لتبتاع لي خيرًا فإذا هي تعود بعد ثلاث ساعات وهي هانئة. وقد شعرت عندما أرسلتها بضغط في القلب كأنما كنت أتوقع ذلك. لقد أمضني مسلكها، فأين كانت؟ أين كانت تتسكع؟ لعلها وجدت لها حاميًا؟ ألا يكفيها ما أسديت إليها من إحسان؟ وقد كانت أمها الشريدة مدينة لي بأربعة عشر روبلًا فلم أطالب بها ودفعت كلفة دفنها وتعهدت طفلتها الشيطانية بالتربية، إنك تعرفين ذلك كله جد المعرفة يا عزيزتي. أفليس لي عليها بعد ذلك كله من حقوق؟ لقد كان حتمًا عليها أن تدرك هذا من تلقاء نفسها، ولكنها بدلًا من ذلك دأبت على عصياني. وما أريد إلا ما فيه صلاحها. ومنحتها ثوبًا أنيقًا من الحرير الموصليّ، هذه المخلوقة الدنسة، وابتعت لها حذاء ظريفًا وزينتها زينة الطاووس، وكان يجب أن يهش لذلك قلبها داخل بدنها من فرط الاغتباط، فماذا كان أيها القوم الصالحون؟ لم ينقض على الثوب عندها يومان حتى كانت قد مزقته وجعلته خرقًا وأسمالًا. وها هي ذي الآن تتسكع في الطرقات في هذه الهيئة. وماذا تظنون؟ لقد تعمدت أن تفعل ذلك. إني أقول الحق فقد شاهدتها بعيني تمزق الثوب. وقد قالت إني أريد أن أرتدي جلبابًا من الكتان لا ثوبًا أنيقًا من الديباج. لقد ضقت بها ذرعًا فأوسعتها ضربًا حتى اضطررت إلى استدعاء الدكتور والإنفاق على معالجتها أيضًا. يجب أن تمسكي عن الأكل حتى الموت أيتها الطفيلية التعسة وأن تحرمي الطعام ثمانية أيام سويًّا. ظللت أعالج إصلاحها بالعقاب، فألزمتها أن تمسح أرض الغرف فماذا تظنونه قد

حدث؟ لقد أخذت تمسح وتمسح تلك البغي اللعينة، حتى انقضى النهار كله، وقد بلغ مني الضيق، أما هي فكانت تمسح هادئة ساكنة. وهجس في نفسي أنها ستهرب مني بعد قليل، ولم تلبث أن هربت أمس أيضًا، وما كان أشد ضربي لها مساء أمس، لقد سمعتم ذلك ولا شك أيها القوم الطيبون. لقد كلّ ساعدي من ضربي إياها، ثم نزعت حذاءيها وجوربيها من قدميها، حاسبة أنها لن تفر حافية فإذا هي اليوم قد فرت من جديد. أين كنت؟ تكلمي. إلى من شكوتني أيتها الأفعى الشريرة؟ وصدر من أوغرت علي؟ تكلمي أيتها المتسكعة، أيتها اليرقانة المغرورة، أجيبي!».

وانقضت كالمجنونة على الطفلة التي أوشكت أن يغشى عليها من الخوف فجذبتها من شعرها وطرحتها أرضًا، فطارت السلطانية على الأرض وتناثر ما فيها من خيار. فزاد ذلك من سخط السليطة المخمورة فلطمت فريستها على وجهها وعلى رأسها. ولكن هيلينا مضت في صمتها فلم تتأوه تحت أقسى الضربات، بل لم تنبس ببنت شفة. فاندفعت من غضبي إلى فناء الدار وقصدت إلى المرأة المخمورة فصرخت في وجهها وقد قبضت على ذراعها: «ماذا تصنعين؟ كيف سولت لك نفسك أن تسيئي معاملة يتيمة مسكينة على هذا النحو؟» فانصرفت عن هيلينا وقالت في لهجة سوقية ساقطة وقد أرخت ذراعيها: «ماذا جرى؟ ومن أنت؟ وماذا تبغي هنا في منزلي؟».

فصرخت في وجهها: «أبغي أن أحول دون قسوتك. كيف تجترئين على تعذيب طفلة مسكينة على هذا النحو؟ أنت لا شأن لك بها، وقد سمعت الآن بنفسي أنها طفلة يتيمة وأنه ليس لك بها من صلة إلا أنك تؤوينها إليك...».

فصرخت المرأة الرعناء: «يا لعيسى المسيح! ولم تقحم نفسك في هذا الأمر؟ لعلك قادم، ماذا؟ سأرسل الساعة في طلب الشرطة. إن أندرون تيموفييفتش يعلم أني امرأة محترمة، ويعاملني على أني كذلك! وإذن فقد كانت تذهب إليك؟ ومن تكون أنت إذن، حتى تلج منازل الغير وتحدث فيها الشجار؟ واغوثاه!».

وهمت أن تنقض عليَّ بجمع يديها لولا أن دوت في تلك اللحظة صرخة جهورية، فتلفت فيما حولي فإذا هيلينا التي كانت منذ لحظة واقفة متصلبة الجسم لا تبدي حراكًا- تقع على الأرض صارخة صرخة مزعجة غير طبيعية وهي تتلوى وتتشنج تشنجًا مخيفًا، وقد تقلص وجهها تقلصًا شديدًا. لقد أصابتها نوبة صرع فهرعت إليها المرأة المتبهرجة المزججة الحاجبين والمرأة التي بالطبقة السفلى وبادرتا بحملها إلى الداخل.

فصرخت المرأة قائلة: «فلتمت هذه البغيُ اللعينة، إن هذه هي المرة الثالثة في هذا الشهر... إلى الجحيم أيتها المنتنة!» وتقدمت نحوي مهددة، ثم قالت تخاطب البواب:

«وأنت بوصفك بواب المنزل تقف ساكنًا مع هذا كله؟ علام تأخذ أجرك إذن؟».

فزمجر البواب قائلًا ببلادة، حفاظًا على المظاهر ليس غير: «انصرف. اخرج من هنا. أتود أن أهشم رأسك؟ إذا تشاجر اثنان فليس لثالث أن يتدخل بينهما. تفضل فانصرف!».

ولم يكن في الاستطاعة إذ ذاك عمل شيء، فخرجت وأنا مقتنع كل الاقتناع أن لا فائدة من تدخلي، ولكن الغيظ أخذ يضطرم في نفسي

فلبثت واقفًا إزاء الباب على الطوار أصوب نظري إلى مدخل المنزل، ولم أكد أخرج حتى أسرعت المرأة إلى داخل البيت، وكذلك استخفى البواب وكان قد أتم عمله، ثم إذا بالمرأة التي كانت تشارك في حمل هيلينا إلى الداخل قد بدت على الدرج تريد أن تهبط مسكنها مسرعة، فلما بصرت بي وقفت وأخذت تنظر إليَّ في فضول، فشجعني وجهها البشوش الهادئ على الدخول فدخلت الفناء مرة أخرى وقصدت توًّا إليها.

وبدأتها بقولي: «أستمحيك أن ألقي عليك سؤالًا: ما هذه الفتاة وما شأنها وما شأن هذه المرأة المزعجة بها؟ وأرجو ألا تظني أن الفضول هو الذي يدفعني إلى سؤالك، فقد لقيت هذه الفتاة ولدي من البواعث ما يحملني على العناية بأمرها».

فقالت المرأة في شيء من الامتعاض: «إذا كان يعنيك أمرها، فمن الخير أن تأخذها إليك أو تودعها مكانًا آخر، فإنها إن بقيت هنا، كان مصيرها إلى الموت» وهمت بالانصراف.

«وكيف أستطيع ذلك دون أن تزوديني بشيء عنها؟ إني أؤكد لك أني لا أعرف عنها شيئًا. هل تلك المرأة هي صاحبة المنزل بوبنوفا نفسها؟».

«أجل، هي».

«وكيف وقعت الصغيرة في يدها؟ لعل أمها ماتت هنا؟».

«كيف وقعت في يدها؟... ذلك لا يعنينا» وهمت بأن تدعني وتنصرف.

«ولكن أسدي إليَّ هذا الجميل، إني أقول لك إن الأمر يعنيني كثيرًا، وربما وسعني أن أعمل شيئًا فيه مصلحتها، فمن هذه الصغيرة؟ ومن كانت أمها؟ أتعرفين ذلك؟».

«كانت أمها أجنبية قدمت من بعض البلاد، وكانت تقيم هنا في الطبقة السفلى، وكان المرض لا يفارقها، وقد قضت نحبها مسلولة».

«إذن فلا بد أنها كانت في فقر مدقع إذ كانت تقيم في مثل هذا القبو؟».

«وفي أي فقر مدقع كانت! كان القلب يوشك أن ينفطر أسفًا عليها ورثاء لها، وكنا نحن أيضًا نتكسب قوتنا بشق النفس. وقد ظلت فوق ذلك طوال الأشهر الخمسة التي قضتها بيننا، مدينة لنا بستة روبلات، ثم إننا فضلًا عن ذلك قمنا بدفنها وصنع لها زوجي تابوتها».

«ألم تقل المرأة بوبنوفا منذ لحظة إنها هي التي دفعت كلفة الدفن؟».

«إنها لم تدفع شيئًا».

«وما اسم أسرة المتوفاة؟».

«لست أستطيع أن أنطق به صحيحًا، فقد كان اسمًا عسير النطق، ولا ريب أنه اسم ألماني».

«سميث؟».

«كلا، لم يكن ذلك اسمها، ثم إن أنَّا تريفونفنا أخذت اليتيمة لتربيتها كما تقول، على أنه لا بد أن يكون في الأمر شيء غير حسن...».

«لا ريب أنها أوتها إليها لحاجة في نفسها؟».

فأجابت المرأة وهي تكدُّ ذهنها ويبدو عليها التردد فيما إذا كان يصح لها أن تقول أم أن تمتنع: «لا ينتظر أمر حسن منها. ولكن ماذا يعنينا من ذلك؟ ليس هذا من شأننا».

وانبعث من ورائنا صوت يقول: «خير لكِ أن تمسكي لسانك».

وكان القائل رجلًا أشرف على الهرم، في قميص نوم عليه جاكتة ويلوح أنه صانع يدوي، وهو زوج المرأة التي كنت أتحدث إليها.

وقال غاضبًا وهو يشد الخطى إليَّ: «أجل يا سيدي فليس لدينا ما نفضي به إليك، فهذه الأمور لا تعنينا. أما أنتِ فعليك أن تدخلي، وداعًا يا سيدي إنني صانع توابيت، فإذا احتجت إلى شيء من ذلك فعلى الرحب والسعة. وليس بيننا وبينك فيما عدا ذلك من صلة...».

فغادرت المنزل مضطربًا غارقًا في التفكير، ولم يكن في استطاعتي أن أفعل شيئًا، وشعرت بوخز في ضميري إذ لم أتدخل في الأمر، وقد أوجعتني كلمات امرأة صانع التوابيت، وبخاصة كلماتها الأخيرة، فإن وراءها قصة معتمة، وذلك ما شعرت به من قبل.

وبينا أن أسير مطرقًا غارقًا في التفكير، إذا بصوت عالٍ يناديني باسمي، فنظرت فإذا بين يدي رجل سكران لا يكاد يستطيع أن ينتصب على قدميه. وقد كان في جملته حسن السمت لولا معطفه البالي وقبعته الملوثة، وخيل إليَّ أن وجهه كان معروفًا لي من قبل، فحملقت فيه فغمز بطرفه وابتسم ساخرًا:

«أغدوت لا تعرفني؟».

الفصل الخامس

فصحت وقد عرفت فيه أحد رفاقي القدامى في الدراسة الثانوية بالبلدة: «آه. هذا أنت يا مسلوبويف، يا له من لقاء لم يكن منتظرًا».

«نعم، فإننا لم ير كلانا صاحبه منذ ستة أعوام. أعني أننا قد تقابلنا فعلًا ولكن سعادتكم لم تنزلوا من كبريائكم فتلقوا نظرة عليَّ. لقد أصبحتم سعادتكم قائدًا كبيرًا... أعني في المعترك الأدبي...» وابتسم متهكمًا.

فقاطعته: «ما هذه التخيلات العجيبة يا صديقي مسلوبويف؟ فأولًا إن للقادة منظرًا يخالف منظري كل المخالفة، حتى قادة الأدب، وثانيًا إني أذكر حقًّا أني لقيتك في الطريق مرة أو اثنتين، ولكنك كنت تتعمد الروغان؟ فهل يجب عليَّ أن أعدو خلف شخص أراه يروغ من طريقي؟ ولكن أتعرف ما يجول بخاطري؟ لولا أنك اليوم مخمور ما حدثتني الآن أيضًا. ألا ترى أني أصبت؟ تحية لك. إني لمسرور ومغتبط أشد الاغتباط بلقائك يا صديقي العزيز».

«أجل، أصبت، ولكن ألست أحرجك بـــ... بحالتي هذه؟ على أنه يحسن ألا نتكلم في ذلك، فهي مسألة قليلة الخطر، وإني لا أفتأ أذكر أي فتى ظريف كنت يا فانيا. أتذكر أنك ضُربت بسببي؟ لقد أطبقت فاك ولم تبح بأمري. أما أنا، فبدلًا من أن أشكرك ظللت أهزأ بك بسبب ذلك أسبوعًا كاملًا. أيتها النفس الطاهرة النبيلة، تحية لك يا صديقي العزيز من سويداء القلب» وقبّل كلانا صاحبه «وكم من سنة ظللت فيها أتسكع وحيدًا من مكان إلى مكان، ولكني لم أنس اللحظات القديمة، إذ ليس مثلها مما ينسى. ولكن أنت، ماذا تفعل؟».

«أنا أيضًا أتسكع وحيدًا».

فنظر إليَّ طويلًا في تأثر من أرهفت الخمر حسه، ولكنه كان فيما عدا ذلك طيب القلب جدًّا بوجه عام.

ثم قال في تريث وفي نغمة مثيرة للشجن: «كلا يا فانيا فالأمر عندك غيره عندي. أما كتابك فقد قرأته يا فانيا، لقد قرأته، قرأته حقًّا... استمع: لا بد من إتمام الحديث، أمتعجل أنت؟».

«أجل، كل العجلة، وأقول لك في صراحة تامة إن ثمة أمرًا خاصًّا يقتضيني الآن كل وقتي، والأفضل أن تقول لي أين تقطن؟».

«سأنبئك بذلك. على أن هذا ليس هو الأفضل، أتحب أن أقول لك ما هو الأفضل؟».

«أجل، فما هو؟».

«هو ذاك الذي هناك. أترى؟ هناك» وأشار إلى لوحة تبعد عنا نحو

عشرة خطوات «انظر: محل حلواء ومطعم، وهو محل عادي ولكنه بالغ في الحسن، وإني أسر إليك أنه حانة ممتازة... بها ويسكي لا عيب فيه. إنهم يأتون من كييف على أقدامهم في طلبه، وقد احتسيته مرارًا فلي به خبرة، وهم لا يجرؤون على أن يقدموا لي شرابًا رديئًا؛ لأنهم يعرفون فيليب فليبتش، وهذا الفيليب فليبتش هو أنا. ماذا؟ أتقطب: كلا، فدعني أتم حديثي أولًا. الساعة الآن الحادية عشرة وربع، وقد رأيت الساعة الآن، ففي الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين سأطلق سراحك، وفي خلال هذه المدة نستطيع أن ننقع غلتنا من الشراب، أليس في وسعك أن تمنح صديقًا قديمًا عشرين دقيقة من وقتك؟ أيصح ذلك؟».

«إن كانت حقًّا عشرين دقيقة فلا بأس، ولكني أقسم بالله يا صديقي العزيز أني مضطر بعد ذلك فعندي مسألة...».

«أنا بذلك راض، فهلم معي، على أني أقول لك قبل كل شيء، إنك كنت الآن تبدو غاضبًا كأن شيئًا أسخطك. أهذا حق؟».

«هو حق».

«ذلك ما أدركته سريعًا، فإني أدرس الآن علم الفراسة يا عزيزي، فهذه مشغلة على أية حال. فلنذهب إلى هناك ولنثرثر قليلًا، إنني أستطيع في عشرين دقيقة أن أجرع ما ينعشني فأبدأ باحتساء قدح من نبيذ البتولا فقدح من ويسكي البرتقال المر فـ «شراب الحب المتضرم» ثم أي شيء يخطر على بالي. إني أعاقر الخمر طول حياتي يا أخي ولست أفيق منها إلا أيام الأعياد قبل القداس. على أنك غير مكره على الشرب معي،

ولست أرغب إلا في منادمتك، غير أنك إذا رغبت أن تشاربني فسيكون ذلك دليلًا جديدًا على نبل شعورك، هلم فستتحادث بضع كلمات ثم نفترق مرة أخرى إلى عشر سنوات، فإننا متباينان تباينًا شديدًا يا فانيا».

«لا تقل هذا الهراء، ومن الخير لنا أن ندخل، فقد منحتك عشرين دقيقة، ولكني مضطر بعدها إلى الانصراف».

وكان علينا لنبلغ المطعم أن نصعد في سلم خشبي ذي منعطفين يبدأ من الشارع حتى يصل إلى الطبقة الثانية، فبينا نحن على هذا السلم إذا بنا نصطدم فجأة بسيدين ثملين، فلما رأيانا فسحا لنا الطريق وهما يترنحان.

وكان أحدهما غلامًا أمرد تنبئ سيماه عن غباوة بالغة، وكان مبالغًا في تنسيق ملبسه بهيئة تكاد تبعث على السخرية، ويبدو كما لو كان يلبس ثياب غيره. وفي أصابعه خواتم ثمينة وفي ربطة عنقه بروش نفيس جدًّا، وكان كذلك في تصفيف شعره مغاليًا إلى حد السخافة، وكان إلى ذلك يضحك ويقهقه قهقهة متصلة، أما رفيقه فكان في نحو الخمسين من عمره سمينًا مترهلًا مهوش الملابس قليل العناية بها، على أنه مع ذلك كان هو الآخر يزين رباط رقبته بحلي كبير. وكان أصلع الرأس ذا وجه متورم وبه ندوب جدري، ويحمل منظارًا على أنف كأنه خيارة، وملامحه تدل على الشر والشهوة، وحدقتاه الصغيرتان المفعمتان خسة وخبثًا محاطتان بالشحم، وتبدوان كأنهما مطلتان من شقين. وقد لاح لي أن السيدين يعرفان مسلوبويف، ولكن الرجل السمين قطب وجهه عندما لقينا، في بادئ الأمر على الأقل، في حين ابتسم لنا الصغير ابتسامته العذبة المتواضعة بل رفع قبعته من على رأسه.

وتمتم قائلًا: «معذرة يا فيليب فليبتش» ونظر إليه في استكانة وخضوع.

«ماذا؟».

«معذرة... ولكن.. (وأحكم زر ياقته) إن مترشكا ها هنا في الداخل. وهو في مظهره ومسلكه يا فيليب فليبتش أشبه بالجلف الدنيء».

«كيف؟».

«على وجه عام... فهذا (وأومأ برأسه مشيرًا نحو رفيقه) قد لطخوا وجهه في الأسبوع الماضي بالقشدة في محل غير محترم وذلك بسبب مترشكا. هيـــهيـــهي!».

فلكزه رفيقه غاضبًا.

«متى نحتسي ثانية بضع قوارير معًا يا فيليب فليبتش؟ الآن؟».

فأجاب مسلوبويف: «كلا يا عزيزي، لست أستطيع ذلك الآن، فلدي عمل أريد قضاءه».

«هيـــهيـــهي. أنا أيضًا لدي عمل أريد قضاءه، أعني معك بالطبع...».

فدفعه رفيقه بمرفقه ثانية.

«إذن ففيما بعد. في مرة أخرى».

وكان من الواضح أن مسلوبويف يتحامى النظر إليهما، على أننا ما كدنا نلج الغرفة الأولى، وقد امتد فيها بطولها خوان مثير لشهوة

الطعام يحوي ألوانًا متعددة مثل البغاشة المحشوة بالبيض وبالسمك، وأباريق مترعة بخمور شتى، أقول ما كدنا نلج هذه الغرفة حتى جذبني مسلوبويف في عجلة فانتحى بي أحد الأركان وقال:

«إن أصغرهما ابن أحد التجار ويدعى سيسبروشوف، كان والده من تجار الغلال المعروفين وقد خلفه له نصف مليون من الروبلات، وها هو ذا يبددها بين الناس، فإنه ما لبث بعد أن آلت إليه هذه الثروة أن شخص إلى باريس حيث أخذ ينثر المال نثرًا حتى أتى على ثروته جميعًا، إلا أنه ورث عمًّا له، وذلك ما حفزه على العودة من باريس، فانظر كيف يأتي على الباقي. سيأتي على كل ما لديه بعد سنة واحدة. إنه غبي كالإوزة، ولكنه يختلف إلى أفخر المطاعم وشتى الأقباء والحانات ويخالط الممثلات ويريد أن يسلك مع فرسان الجيش، وقد قدم طلب الالتحاق منذ أمد قريب. أما صاحبه الهرم فهو أيضًا يشبه أن يكون تاجرًا أو مندوبًا لأحد المتاجر، وله اتصال بمقاولات الحكومة في تحصيل مكس الخمور، ويدعى أرشيبوف، ولا شك أنه وحش شنيع وغشاش محنك، وهو الآن خدن سيسبروشوف في غوايته وفساده. إنه هو يهوذا وفالستاف جمعا في شخص. وقد أشهر إفلاسه مرتين، وهو غليظ الطبع خالع العذار في الشهوات، وله نزوات خطرة، أعرف أنا عنه أمرًا شنيعًا لم يخطئه فيه حبل المشنقة إلا بالمصادفة البحتة. ويسرني كثيرًا أني رأيته هنا وذلك لسبب خاص، بل إني توقعت أن أجده هنا... فهذا الأرشيبوف لا يفتأ يستنزف أموال سيسبروشوف في جد ومثابرة، وهو يعرف كل هذه المواخير والحانات، ولذلك لم يكن للصبي غنى عن مثله. وقد راقبته منذ

زمن طويل يا أخي العزيز. أما مترشكا ذلك الغلام المتظرف ذو الجاكتة القصيرة الفاخرة والوجه الذي يشبه وجوه أبناء طائفة النور، ذلك الذي يقف وراء النافذة، فهو يتجر في الخيول وله معرفة بجميع فرسان الهوسار الذين يقيمون في هذه الأرجاء، وهو خب مدلس يستطيع أن يزيف تحت عينيك أوراق النقد ثم يقدمها لك فتبدلها له مع أنك شاهدته يزيفها، ولا تراه إلا ويلبس صدرية من المخمل كما يصنع المستمسكون بالعادات السلافية (وأرى ذلك لائقًا به منسجمًا عليه كل الانسجام) اجعله يلبس مرة حلة ثمينة من الفراك أو شيئًا من هذا القبيل واصطحبه إلى النادي الإنجليزي وقل سادتي، هذا هو المالك الكبير الكونت بارابانوف، فإذا هم يظلون ساعتين يحسبونه كونتًا، إذ إنه لا يفتأ يلعب لعبته ويصطنع لهجة الكونتات في أحاديثهم، فلا يدور ببال أحد منهم إلا أنه كذلك. فهو يضللهم جميعًا، غير أنه لا بد أن ينتهي آخر الأمر إلى خاتمة سيئة. وقد ازدادت مرافقة مترشكا لهذا الرجل السمين لأنه هو مفلس ولأن السمين قد باعد بين مترشكا وصديقه السابق سيسبروشوف قبل أن يتمكن هذا من استلاب ما بقي عنده، فإذا كانا قد تلاقيا الآن ثانية هنا في هذا المطعم، فلا بد أن يكون مترشكا قد فعل فعلة، بل إني أعرف ما هي هذه الفعلة، فإنه هو نفسه الذي أنبأني بأن أرشيبوف وسيسبروشوف هنا وأنهم يجوسون خلال هذه الأرجاء لغرض آثم. وأنا أرغب كل الرغبة في أن أستغل كراهية مترشكا لأرشيبوف؛ إذ ثمة ما يدعوني إلى ذلك، ولهذا دخلت هذا المكان. بيد أني أرغب ألا أدع مترشكا يلحظ من الأمر شيئًا، وكذلك أنت يحسن بك ألا ترمقه على نحو ما ترمقه به. على أنه

مما لا ريب فيه أنه سيجيء إليَّ بنفسه عندما ننصرف، فينبئني بما أود أن أعرفه... ولكن دعنا ننتقل الآن، يا فانيا إلى الغرفة الأخرى». ثم اتجه إلى الساقي مناديًا: «ستبان، أنت تعرف ولا شك ما أريد!».

«نعم، في خدمتك».

«أتستطيع أن تروي ظمأي؟».

«لا ريب. في خدمتك».

«إذن فأرونا! اجلس يا فانيا. ما تحديقك إليّ هكذا؟ أراك تديم النظر إليَّ. أيأخذك العجب مني؟ لا تعجب، فالمرء عرضة لأن يصير أي شيء، أي شيء مما لم نكن نحلم به قط ولا سيما إذ ذاك... أجل إذ ذاك عندما كنا لا نزال نكدُّ معًا في استظهار «كورنيليوس نيبوس»، ولكن صدقني يا فانيا، لئن كان مسلوبويف قد ضل طريقه، فإن قلبه باق على ما كان عليه لم يعتوره تغير أو تبدل، وإنما تبدلت الأحوال والملابسات، وإن قلبًا بين الأسمال خير من وغد لا قلب له في الديباج. ولقد كنت بدأت دراسة الطب ثم عملت على أن أكون مدرسًا لتاريخ الأدب الروسي، وكتبت أيضًا بحثًا عن جوجول، ثم انسلكت بين الباحثين عن الذهب، واعتزمت الزواج- وكل نفس تشره إلى مباهج الحياة- وكانت هي أيضًا قد رضيت بي، مع أني كنت إذ ذاك لا أملك ما يكفي لاجتذاب هرة. وكنت قد أعددت ما تستلزمه حفلة العرس، وأردت كذلك أن أستعير حذاء لائقًا، إذ كان حذائي قد بلي منذ عام. على أن الأمر لم يتم على ما كنت أرجوه، فقد تزوجت هي مدرسًا واشتغلت أنا في مكتب سمسرة. لم أشتغل حتى في متجر بل في مكتب سمسرة. وهبّت رياح أخرى

وكرت السنون تلو السنون. وإني وإن كنت لا ألي منصبًا، فلدي دائمًا المال الكثير، وأنا أناصر الحقائق وأظاهر كل ذي حق ما دامت أعرف أني سآخذ جزائي على ذلك قدرًا كافيًا من المال؛ فأقف من الرجل الشريف موقف الخروف، وأقف من الخروف موقف الرجل الشريف... على أن لدي أيضًا قواعد ثابتة مطردة، فأنا أعرف مثلًا أن المرء لا يصل وحده إلى شيء، فاتخذت هذه القاعدة رائدي في عملي، وأكثر أعمالي مما يقتضي الصمت... أفهمت؟».

«لعلك لا تكون من عيون الشرطة؟».

«كلا، لست ذلك بالضبط، فإني أقوم بأعمال شتى، تارة بتفويض من الغير وأخرى من تلقاء نفسي. ثم انظر، يا فانيا، هاأنذا أعاقر الفودكا، وإذا كنت لم أشرب بعد الثمالة الباقية من عقلي فأنا أعرف ما يواجهني. إن زمني قد ولى، والخروف الأسود لن يحيله الغسل أبيض، بيد أن ثمة شيئًا أريد أن أفضي به إليك، ذلك أن جوانحي لو لم تكن تنطوي على بقية من الشعور الإنساني لما أقبلت اليوم على الحديث معك يا فانيا، وقد أصبت فإني رأيتك قبل الآن بل واجهتك وكنت في كل مرة أهمُّ بالإقبال عليك ثم أحجم لأني أراني غير جدير بك، وقد أصبت كل الإصابة يا فانيا حين قررت أنني إنما أقبلت على الحديث معك اليوم لأني مخمور. على أن هذا كله من لغو الحديث. فلندع الحديث عني إلى الحديث عنك. أي صديقي العزيز، لقد قرأتها، قرأتها من أولها إلى آخرها، و إنما أتحدث عن باكورة أعمالك يا صديق القلب، وما أتممت قراءتها حتى كدت أتحول رجلًا شريفًا. لقد كنت موشكًا أن أكون ذلك، ولكني فكرت في

الأمر مليًا، فرأيت أن من الخير أن أبقى كما أنا. انظر...».

وهكذا طفق يتحدث ويتحدث ولكنه كان يزداد ثملًا، واشتد به التأثر حتى أوشكت الدموع أن تطفر من عينيه. لقد كان مسلوبويف في صباه فتى ظريفًا، ولكنه كان دائمًا يقدم على فعل ما يجول برأسه، وكان قد بادر إليها بالنصح فأصبح أكثر نموًا من سنه، وكان ماكرًا راوغًا مترصدًا يدري فريسته، بيد أنه كان في جوهره شخصًا طيبًا وإن كان فاشلًا منحوسًا. وأمثاله بين الناس في روسيا كثيرون، ولهم في أكثر الأحيان قوى ومواهب ممتازة، غير أنهم تكون فيهم مرتبكة معكوسة الأوضاع، فإذا هي مؤذنة لهم بفوضى شاملة وخراب محقق. وكثيرًا ما يلجئهم ضعفهم حيال بعض الأشياء إلى العمل بما يخالف ضمائرهم واقتناعهم، وهم يعلمون، فلا يقتصرون بذلك على إيراد أنفسهم موارد التلف والهلكة، بل يحفرون قبورهم بأيديهم وهم عارفون. ومثل ذلك مسلوبويف فهو يورد نفسه بمعاقرة الفودكا موارد التلف.

وتابع كلامه قائلًا: «والآن أيها الصديق، كلمة أخرى. لقد سمعت حينذاك بما أحرزته من مجد وقرأت بعض النقد لآثارك القلمية (إنني أقرأ ذلك حقًّا، أتخالني لا أقرأ البتة؟) ثم قابلتك وأنت منتعل حذاء رديئًا قد حلله الوحل وليس عليه غطاء، وقبعتك مفدوغة، فاستنبطت من ذلك أنك قد انتظمت في زمرة الصحفيين».

«أجل يا مسلوبويف».

«وإذن فقد صرت حمار شغل أدبي؟».

«شيء كهذا».

«إذن فسأقول لك شيئًا يا حبيب القلب، إذن فمن الخير لك أن تشرب. إني عندما أكون مخمورًا أتمدد في البيت على الأريكة (فلديّ في البيت أريكة فاخرة منجدة بالسلوك المعطفة وأتخيّل أني مثل هومير أو دانتي أو فريدريش بربروسا. فأنا أستطيع أن أتخيل أي شيء، في حين أنك أنت لا يجوز لك أن تتصور شيئًا من هذا القبيل، لا يجوز لك أن تتخيل أنك دانتي أو فريدريش بربروسا، أولًا لأنك تطمح أن تكون إياك لا سواك، وثانيًا لأن كل أمثال هذه الرغبات قد باتت محرمة عليك، إذ إنك غدوت حمار شغل أدبي. إني أعيش في عالم الأحلام، أما أنت فتعيش في عالم الحقيقة. استمع، قل لي في صراحة تامة شأن الصديق مع الصديق (وإلا كنت قد أهنتني إهانة أظل أحس بها عشرة أعوام) أفي حاجة أنت إلى المال؟ إن لديّ قدرًا منه. لا تمتعض، خذ المال فادفع منه كلف الطبع وألق النير عن كاهلك، وحرر نفسك سنة كاملة؛ لتضع في خلالها كتابًا عظيمًا جميلًا. ما تقول في ذلك؟».

«اسمع يا مسلوبويف. إنني أقدر مقترحك الودي حق قدره، بيد أني لا أستطيع الآن أن أعطيك جوابًا عنه، ولماذا؟ تلك مسألة يطول شرحها، فثمة بعض الموانع. وفيما عدا ذلك فإني أعدك أن أقص عليك بسرور كل شيء فيما بعد. وأنا أشكر لك عرضك من صميم قلبي، وأعاهدك على أن آتي إليك وأزورك كثيرًا. أما الآن فالمسألة هي هذه: لقد كنت الآن صريحًا معي، ولذلك اعتزمت أن أشاورك في أمر، ولا سيما أنه يتصل- فيما أعتقد- بالفن الذي تحذقه.

وقصصت عليه قصة سميث وحفيدته من أولها في محل الحلواء إلى نهايتها. وقد أثار دهشتي أن رأيته وأنا أقص القصة ملمًا بطرف منها. فلما سألته عن ذلك.

أجاب: «كلا. ليس الأمر كذلك. على أني سمعت عن هذا السميث، سمعت أن شيخًا هرمًا توفي في محل حلواء. أما السيدة بوبنوفا فإني على كل حال أعرف عنها بعض الشيء، فمنذ شهرين اثنين اقتنصت منها مبلغًا من المال. إنني آخذ الخير أينما وجدته، ومن هذه الناحية وحدها تجد لي بعض أوجه شبه من فولتير. ومع أني غادرتها أفقر مما كانت بمائة روبل، كنت قد أقسمت إذ ذاك أغلظ الأيمان أن أعتصر منها خمسمائة روبل على الأقل. وهي امرأة بغيضة تمتهن مهنة محرمة، وليس في ذلك من شيء لولا أنها تمارسها ببعض الطيش. أرجو ألا تحسبني من أمثال دون كيشوت، فالأمر عندي ينحصر في أن هنالك قدرًا طيبًا من المال في استطاعتي أن أظفر به، ولذا تولاني السرور عندما ألفيت هنا سيسبروشوف منذ نصف ساعة، ولا ريب أن الرجل البدين هو الذين زين له أن يجيء إلى هنا. هذا ولأني أعرف المهنة التي يمتهنها هذا الرجل على أنها عمله الأساسي، فإني أستنبط من مجيئه... ها.. سوف أؤدبه به. إني مسرور لأني سمعت منك طرفًا من أمر هذه الفتاة، فقد وقعت بذلك على أثر جديد. إني أقوم بشتى الأعمال السرية وأتعرف في أثناء ذلك بأقوام يا لهم من أقوام، وقد عثرت منذ عهد قريب لأحد الأمراء على شيء، وذلك في أمر لم يكن ليتوقعه المرء من أمير مطلقًا.

«هل تستحسن أن أقص عليك قصة أخرى عن امرأة ذات بعل؟ تعال

إليَّ مرة يا صديق الفؤاد أقص عليك أمورًا لو سلكتها في قصصك ما صدقك أحد».

فقاطعته متنبئًا: «وما اسم هذا الأمير؟».

«ولم تريد معرفته، على كل حال فلا بأس اسمه «فالكوفسكي».

«بيتر؟».

«أجل. أتعرفه؟».

«أعرفه بعض المعرفة. والآن يا مسلوبويف، ربما استوضحتك أمر هذا السيد في حين آخر. لقد سرني كل هذا واسترعى اهتمامي» قلت ذلك ونهضت واقفًا.

«انظر يا صديقي القديم، سلني عما تشاء أجبك، ولكن- بطبيعة الحال- بقدر.. أفاهم أنت؟ حتى لا أفقد ثقة زبائني وتقديرهم لي، وأنت تعلم أن الأعمال... وهلم جرًّا..».

«لا ريب، بقدر ما يسمح لك به شرفك».

وكنت إذ ذاك شديد الاضطراب، وقد لاحظ ذلك.

«والآن، ما قولك في القصة التي قصصتها عليك الساعة؟ أتستطيع أن تتصور ما بين حوادثها من الصلة؟».

«القصة التي قصصتها عليّ؟ آه. انتظرني دقيقتين حتى أدفع ثمن الشراب».

وتقدم من خوان المطعم فلقي هناك بغتة- كما لو كان الأمر محض

مصادفة- ذلك الشاب الذي يرتدي صدرية من المخمل وهو من يدعى مترشكا، وقد وقر في قلبي أن معرفة مسلوبويف به أوثق مما كان قد زعم لي، وكان من الواضح، على الأقل، أن هذه ليست أول مرة التقيا فيها.

وكان مترشكا من جهة شكله غلامًا عجيب الهيئة، يلقي في النفس تأثيرًا عجيبًا غير منفر، و ذلك بصدريته المخملية وقميصه الحريري الأحمر وبملامحه الحادة النبيلة البادية على محياه الفتيّ الذي لوحته الشمس وبعينيه الجسورتين البراقتين. وكان يفهم من ملامحه أنه متقلب غير رزين، ولكن كان الواضح أنه كان في هذه اللحظة لا يألو جهدًا من أن يظهر بمظهر الهدوء والرصانة، وأن يوهم من يراه أنه رجل العمل الخطير الجدير بالثقة.

وقال مسلوبويف عندما عاد إليَّ: «اسمع يا فانيا، تعال إليَّ اليوم في السابعة مساء، فقد أستطيع أن أفضي إليك ببعض الأنباء.. اسمع، إنني أنا نفسي لا أعرف كثيرًا من الأخبار وقد كنت فيما مضى أعرف كل شيء، أما الآن فقد صرت سكيرًا وانزويت بعض الشيء عن الأعمال، غير أني ما زلت مع ذلك أحتفظ بما كان لي من صلات، ولا زلت أستطيع أن ألتقط المعلومات من كل مكان وأن أتنسم الأخبار، يعاونني في ذلك قوم محنكون من أصحابي. على أني في أوقات الفراغ، أعني عندما أكون صاحيًا، أمارس بنفسي بعض الأعمال، وبخاصة ما يتصل منها بالاستعلامات.. ويشاركني في ذلك بالطبع بعض المعارف... والآن حسبك هذا... وإليك عنواني. إني أقطن شستلافوتشنايا. بيد أني قد أفرطت في احتساء الشراب، أيها الصديق الحميم، وسأحتسي كأسًا

أخرى، ثم أسير إلى المنزل فأرقد. وسأعرفك عند حضورك بألكسندرا سيميونفنا، ونتحدث في الأدب إذا اتسع وقتنا لذلك».

«وفي الأمور المتعلقة بي أيضًا؟».

«بالطبع قد نتحدث فيها أيضًا».

«سأحضر، سأحضر حتمًا».

* * *

الفصل السادس

انتظرتني أنّا أندريفنا طويلًا؛ لأن ما ذكرته لها أمس عن رسالة ناتاشا ملأ نفسها بالفضول والتطلع إلى معرفة الأنباء، ولذا لبثت تنتظرني فترة طويلة قبل حضوري، أي منذ الساعة العاشرة، حتى إذا ما رأتني آخر الأمر حوالي الثانية مساء، كان عذاب الانتظار قد بلغ من العجوز المسكينة أقصاه. وكانت عدا ذلك تود كثيرًا أن تتحدث إليَّ عما تولد في روحها من آمال جديدة وعن نيكولاي سيرجيفتش الذي صار منذ أمس كسير النفس واستسلم للكآبة والهم، بيد أنه كان يبالغ في محاسنتها والتلطف إليها.

وقد استقبلتني عند حضوري استقبالًا فاترًا، فتمتمت ببضع كلمات ولم تبد أي شيء من الفضول، وكأنها أرادت أن تقول ولم جئت؟ أتعتزم أن تجيء إلى هنا كل يوم أيها الصديق؟ لقد آسفها كثيرًا إبطائي. على أني أسرعت إلى الدخول في الموضوع، فحدثتها دون لف أو دوران عن المشهد الذي حدث عند ناتاشا، فلما سمعت بزيارة الأمير لابنتها وتودده إليها وطلبه يدها لابنه انقشع عنها دفعة واحدة ما كان يغشاها

من غم. ولست أجد من الكلام ما أعبر به عن مبلغ ما ساورها من فرح، فقد عزب عنها وعيها فلوحت بيدها راسمة صورة الصليب، وبكت وسجدت للصورة المقدسة وعانقتني، وأرادت أن تهرول إلى نيكولاي سيرجيفتش لتزف إليه هذه البشرى.

«أما ترى يا بني ما قد أصابه من الهم والغم من جرّاء ما لحقه من الإهانة والتحقير، فإذا ما علم الآن أن ناتاشا قد نالت ترضية كاملة، نسي كل شيء».

وبعد لأيٍ استطعت أن أتمم حديثي معها. ومع أن العجوز الطيبة تعاشر زوجها من خمس وعشرين عامًا، فإن معرفتها به لم تزل قليلة، ولذا عقدت العزم على أن تصطحبني إلى ناتاشا، فبينت لها أن نيكولاي سيرجيفتش قد لا يرى هذا الرأي، فتكون قد أساءت هي إلى المسألة من حيث أرادت النفع، فلم تستطع أن تفهم ذلك، واستبقتني نصف ساعة آخر قطعته في لغو من الحديث لا جدوى له. وظلت طوال هذه المدة تحدث نفسها، فقالت: ولمن عسى أن أفضي بما يجيش به صدري؟ ها أنا ذي جالسة تظللني السعادة وحدي بين جدران أربعة، وأخيرًا أقنعتها أن تخلي سبيلي إذ ذكرت لها أن ناتاشا تنتظرني اليوم نافدة الصبر، فلوحت بيدها على صدري راسمة صورة الصليب بضع مرات لتباركني في مسيري، وحملتني لناتاشا بركة خالصة، وأوشكت دموعها أن تنهمر من عينيها عندما أبديت إصراري على عدم الرجوع إليها مرة أخرى في أصيل ذلك اليوم، إلا إن حدث لناتاشا أمر غير متوقع. أما نيكولاي سيرجيفتش فلم تتح فرصة إلى رؤيته، إذ كان قد قضى الليل

كله مسهدًا، وبقي يشكو الصداع ويحس برودة ورجفة، ثم أخذ الكرى بمعاقد أجفانه فهو راقد الآن في مخدعه مستغرقًا في نوم عميق.

وكذلك ظلت ناتاشا تنتظرني طول الصباح، فلما وافيتها ألفيتها على ما تعودت من السير في الغرفة جيئة وذهابًا مشتبكة الذراعين غارقة في التفكير، وما زلت حتى يومنا هذا أعجز أن أتصورها حين أفكر فيها إلا على نحو ما كانت في تلك الغرفة المتضعة، وحيدة مهجورة منتظرة دائمًا شيئًا، تجول ذهابًا وجيئة على غير قصد، وهي مشتبكة الذراعين مغمضة العينين مستغرقة في أفكارها كل الاستغراق.

ولم تغير شيئًا مما كانت عليه، وسألت بصوت خافت عما أبطأ بي، فذكرت لها في إيجاز بالغ كل ما وقع لي، ولكنها كانت لا تكاد تصغي إليّ. ولاحظت أن هنالك ما يكربها.

فسألتها: «ماذا لديك من جديد؟».

فأجابت: «ليس ثمة من جديد» ولكنها تفوهت بذلك على نحو تبينت منه أن هنالك ولا ريب أمرًا جديدًا، وأنها إنما انتظرتني لتنبئني به، ولكن- حسب المعتاد- ليس في الحال، بل عندما أوشك على العودة. لقد كان ذلك دأبها دائمًا معي، وقد تعودت ذلك منها، فلبثت أنتظر في هدوء.

وما لبثنا بطبيعة الحال أن أخذنا نتحدث عن أمس وما حدث فيه، وقد لفت انتباهي على الخصوص ما كان في رأيينا من تطابق واتفاق فيما يتعلق بالأمير الكهل، فهي لم تشعر نحوه بأي ميل، وازدادت اليوم شعورًا

بأنها لا تميل إليه. ولما أخذنا في الحديث عن زيارته ورحنا نذكر ما كان فيها نقطة نقطة، قالت ناتاشا فجأة:

«ألا تعلم يا فانيا؟ إني أجد أنه إذا لم يقع شخص من شخص موقع القبول عند النظرة الأولى، كان ذلك أمارة على أنه سيقع منه هذا الموقع فيما بعد، أو على الأقل هذا ما يحدث لي».

«فليحقق الله ذلك يا ناتاشا. ومهما يكن من شيء، فقد وصلت أنا، بعد أن قلبت الأمر على وجوهه مرة ومرة، إلى رأي قاطع، هو أن الأمير، يبدو جادًّا ويريد حقًّا أن يتم زواجكما، وإن كان يتكلم أحيانًا كما يتكلم اليسوعيون».

فوقفت ناتاشا وسط الغرفة وأخذت تنظر إليَّ مكتئبة، وقد تغيرت سحنتها وارتجفت شفتاها رجفة خفيفة.

وسألت في كبرياء: «وهل في وسعه أن يمكر ويخادع في أمر كهذا و... أن يكذب؟».

فبادرت أقول في لهجة الواثق: «كلا، كلا».

«من البديهيّ أنه لا يكذب في أمر كهذا، وأظن أنه ليس ثمة ما يدعونا إلى فرض مثل هذا الأمر، ولست أدري سببًا يحمله على مثل هذا الخداع والمراءاة. وهل يراني قد بلغت من الضآلة لديه إلى حد أن يسخر مني تلك السخرية؟ وهل من الناس من يستطيع أن يوجه إلى آخر مثل هذه الإهانة؟».

فقلت مؤيدًا: «بديهي، بديهي» ولكني كنت أقول في دخيلة نفسي:

إنك أيتها المسكينة لا تفتئين تفكرين في ذلك وأنت تذرعين الغرفة جيئة وذهابًا، وإذن فإن ما يخالج قلبك من الشكوك أكثر مما يخالج قلبي.

وقالت: «آه. ما أشد ما سيغمرني من السرور إذا بكّر في العودة... سيقضي الأمسيّة كلها عندي... على أنه لا بد أن يكون أمرًا خطيرًا ذلك الذي جعله يترك كل شيء هنا ويرحل. ألا تدري ما ذلك الأمر يا فانيا؟ ألم تسمع شيئًا؟».

«الله أعلم. لعله راح يسعى مرة أخرى وراء المال، وقد سمعت أنه ظفر هنا في بطرسبورج ببعض تعهدات وارتباطات بأعمال إنشائية. ولكن ماذا نفهم نحن من شؤون المال يا ناتاشا؟».

«نحن من غير شك لا نفهم منها شيئًا، ولكن أليوشا تحدّث إليَّ أمس عن رسالة».

«لا ريب أنها تحوي خبرًا من الأخبار، أكان أليوشا هنا؟».

«نعم».

«مبكرًا جدًّا؟».

«حوالي الثانية عشرة، إذ إنه ممن ينامون الضحى دائمًا، وقد لبث عندي حينًا، ولكني أرسلته إلى كاترينا فيودوروفنا. لم يكن هنالك حلٌّ آخر يا فانيا».

«أو لم يكن في نيته هو أن يذهب إليها؟».

«بلى، هو أيضًا كان يريد ذلك».

وكانت تريد أن تضيف إلى هذا القول شيئًا آخر، غير أنها سكتت،

فنظرت إليها ولبثت أنتظر. لقد كان وجهها حزينًا، وكنت أودُّ أن أسألها بعض أسئلة، غير أنه كان من دأبها ألا تطيق مثل هذه الأسئلة.

وقالت أخيرًا وقد انقلبت شفتاها وهي تجتهد، على ما لاح لي، أن تصرف نظرها عني: «ما أعجبه من فتى!».

«وكيف ذلك؟ هل كان بينكما شيء؟».

«كلا، لا شيء مطلقًا، بل هو كذا... لقد كان لطيفًا جدًّا... إلا أنه...».

فقلت: «وقد امّحت الآن همومه ومشاغله دفعة واحدة».

فحدجتني بنظرة الفاحص المختبر، ولعلها كانت تود أن تعقب على قولي قائلة: وهل كان لديه حقًّا أي حظ من الهموم والمشاغل؟ لولا أن تراءى لها هذا المعنى جاثمًا وراء كلماتي، فأغضبها ذلك مني، ولكنها سرعان ما عادت إلى الرضا والتودد. وقد كانت في هذا اليوم وافرة الظرف، ومكثت عندها ما يربي على الساعة، وكانت بالغة القلق، فقد جعلها الأمير خائفة منزعجة، واستنبطت من أسئلتها أنها تتشوّف إلى معرفة ما أحدثته من أثر في نفسه مساء أمس: أكان مسلكها سليمًا؟ هل أبدت له سرورها بشكل لافت للنظر؟ أم كانت شديدة الإعراض والنفور؟ أم كانت على النقيض من ذلك شديدة الخضوع؟ وهل من الممكن أن يكون قد ظن بها السوء فأخذ يتسلى بالسخرية منها؟ أم لعله يحتقرها؟ وعندما بلغ التفكير بها هذا الخاطر ثار منها الدم وصعد متقدًا إلى خديها.

وقلت: «كيف يجعل امرؤ للضجر سبيلًا إلى نفسه من جرّاء ما قد يتوهمه فيه امرؤ سوء؟ دعيه يظن ما يشاء».

فقالت: «ولم عساه يكون امرأ سوء؟».

كانت ناتاشا مليئة بالوساوس كثيرة الريب والشك، ولكنها كانت مستقيمة طاهرة القلب، فشكوكها كانت تنبع من منبع صاف، وكانت ذات كبرياء بالغة، فهي لا تطيق أن ترى ذلك الذي تقدره أكثر مما تقدر الناس جميعًا يسخر منه الناس بين يديها. وكانت، بالطبع، تقابل احتقار أي شخص خسيس باحتقار مثله، بيد أن قلبها كان في الوقت نفسه ينقبض ألمًا عندما يسخر امرؤ كائنًا من كان مما تعده هي ساميًا مقدسًا. ولم يكن ذلك منها عجزًا عن ضبط النفس، وإنما كان نتيجة لقلة ما بلت من أمور الناس، فهي قلما جلست إلى شخص أجنبي عنها، بل ظلت تقيم وحدها في زاويتها الهادئة الساكنة، وقد قضت فيها حياتها كلها دون أن تبرحها إلا قليلًا، يضاف إلى ذلك أن بها خلة طيبة ورثتها عن والدها ولا شك، وكانت نامية فيها إلى الحد الأقصى، ألا وهي الثناء على كل إنسان وإظهاره في صورة خير من حقيقته، والدأب على إبراز ما هو طيب فيه. ومثل هؤلاء تكون خيبة الأمل أقسى ما تكون على نفوسهم، ويزيدها عليهم قسوة علمهم أنهم هم أنفسهم السبب فيها. فلم يتوقع هؤلاء الأشخاص من الآخرين أكثر مما يستطيع الآخرون أن يعطوا؟ إن مثل هؤلاء تتلقاهم في الحياة خيبة أمل بعد خيبة أمل، وكان من الخير لهم لو أنهم ظلوا قابعين في زواياهم لا يبرحونها إلى العالم وما فيه. وقد لاحظت منهم- حقًّا- أنهم يغرمون بعزلتهم إلى حد يجعلهم ينفرون

من بني البشر. ومهما يكن من شيء فقد بلت ناتاشا الكثير من الآلام والمزعجات، ولها قلب كليم موجع، فليس لامرئ أن يسند إليها الذنب إن وجد في حديثي عنها ما يوحي بالذنب...

ولكني كنت عجلان، فنهضت بغية الانصراف. وأدهشها كثيرًا أني اعتزمت الذهاب مسرعًا حتى لقد كاد يغلبها البكاء، مع أنها كانت طول الوقت الذي قضيته عندها لا تظهر بشاشة وودًا، بل كانت على النقيض من ذلك تعاملني بفتور غير مألوف، فقبلتني قبلة منبعثة من صميم قلبها وحدقت فيّ تحديقًا عميقًا.

وقالت: «أصغْ إليَّ. لقد كان أليوشا اليوم شاذًّا شذوذًا أثار عجبي ودهشي. أجل، إنه كان لطيفًا، وكان على ما يلوح سعيدًا جدًّا، ولكنه كان يثب كالفراشة ويتلفت أمام المرآة شأن المعجبين بجمالهم من الفتيان، وإنه ليسير في بعض الأحيان سيرتهم... ثم إنه لم يطل المكث، وتصور! لقد أحضر لي معه بعض الحلوى!».

«حلوى! هذا أمر لطيف منه، ولكن فيه شيئًا من الحداثة، يا للعجب! يا لكما من إنسانين! ها أنتما ذان قد شرع كلاكما يراقب صاحبه ويتجسس عليه، ويطالع قسمات وجهه؛ ليقرأ فيها أفكاره الخفية، ومع ذلك لم يتأتّ لأحدكما أن يفهم الآخر فهمًا صحيحًا، فأما هو فلن يضيره ذلك شيئًا، إذ إنه لا يزال الغلام المرح الذي كانه فيما مضى. ولكن أنت، أنت!».

وكانت ناتاشا عندما تغير نغمتها وتأتي إليَّ شاكية أليوشا، راغبة في اطراح قلق مبرح أو في الإفضاء إليَّ بسر ما، تفرض أني استطعت أن

أحذر بعضه من تلقاء نفسي. فتنظر إليَّ دائمًا فاغرة الفم بعض الشيء كأنها تضرع إليَّ أن أبادر بإزالة ما يثقلها من هم، وأذكر أني كنت في مثل هذه الحالات أصطنع دائمًا نغمة قاسية صارمة شأن من يريد أن يزجرها. ولم أكن أفعل ذلك متعمدًا، غير أني كنت دائمًا أنجح بهذه الوسيلة، إذ كان ما أصطنعه من جدّ وصرامة يقعان موقعهما الحق وفي وقتهما الملائم، وقد أكسباني بعض السيطرة عليها. فإن بعض الناس يتملكهم شعور لا يغالب بالحاجة إلى أن يزجروا بين الحين والحين. ومهما يكن من شيء، فقد كانت ناتاشا تجد عقب كل محادثة معي من هذا القبيل سلوة كاملة وطمأنينة تامة.

وتابعت كلامها وقد وضعت إحدى يديها على منكبي وضغطت بالأخرى يدي وحدقت في عينيّ وهي تقول: «كلا يا فانيا. انظر، لقد خُيِّل إليَّ أنه لم يكن شديد العطف... وأنه كان، بوجه عام، فاتر العاطفة، وبدا لي أشبه ما يكون بالمتزوجين، كأنه محصن قضى عشر سنوات متزوجًا، وإن كان لا يزال مستمرًا على إبداء اللطف لزوجه. أليس ذلك مما لم يحن حينه؟ وقد كان يضحك ويتمشى هنا وهناك، وكان كأنه لا يشعر بي ولا يحفل بمكاني إلا قليلًا. وذلك غير ما عهدته منه فيما مضى.. ثم إنه كان متعجلًا أن يذهب إلى كاترينا فيودوروفنا.. وقد تحدثت إليه، فكان لا ينصت إليَّ، أو كان يشرع فجأة في التحدث في أمر آخر بذلك الأسلوب الأرستقراطي المقيت الذي كنا كلانا قد أوشكنا أن نجعله يقلع عنه. ومجمل القول إنه كان غريب الأطوار... وبدا لي أنه قليل المبالاة... ولكن ماذا أقول! أراني قد استرسلت في الكلام، فإذا

بي عاجزة عن التوقف. آه، ما أكثر مطالبنا جميعًا، يا فانيا! يا لنا من طغاة ذوي طبائع متقلبة... لقد بدأت الآن أتبين ذلك. إننا لا نغفر لامرئ أي تبديل في تعبيرات وجهه مهما يكن ضئيلًا، ولكن ليت شعري لم يكون هذا التبديل؟ الله أعلم. لقد أصبت كل الإصابة، يا فانيا، إذ أنبتني منذ لحظة، فأنا وحدي المذنبة في كل هذا.. إننا نهيئ لأنفسنا العذاب ثم نجأر بالشكوى منه.. شكرًا لك يا فانيا، فقد آسيتني وعزيتني، ألا ليته يأتي اليوم! ولكني أخشى أن يكون قد ذهب مغضبًا».

فصحت دهشًا: «وهل تنازعتما؟».

«كلا، فإني لم أدعه يحس شيئًا. ولكني كنت محزونة بعض الشيء. أما هو فقد كان مرحًا في بادئ الأمر، ولكنه استحال فجأة شديد التفكير، ويخيل إليَّ أنه كان جافيًا إلى حد كبير عندما ودعني. وسأبعث إليه من يدعوه، فهل توافينا اليوم أنت أيضًا يا فانيا؟».

«سأجيء حتمًا، ما لم يعقني أمر ليس في الحسبان».

«وأي أمر تتوقع؟».

«لقد خذلني التعبير، وأعتقد اعتقادًا جازمًا أني أستطيع الحضور».

* * *

الفصل السابع

وما وافت الساعة السابعة حتى كنت عند مسلوبويف، في منزل صغير في شستيلافوتشنايا، وهو يشغل منه مسكنًا قذرًا ذا ثلاث حُجَر لا ينبئ أثاثه بالفقر، بل هو على العكس من ذلك يشعر بشيء من اليسر، وإن يكن في الوقت نفسه يُشعِر بإهمال في إدارة البيت، وقد فتحت لي الباب جارية فاتنة في نحو التاسعة عشر من عمرها، عليها ملابس متناهية في السذاجة، ولكنها أنيقة ظريفة غاية في النظافة، ولها عينان تفيضان بشاشة وإيناسًا، فأدركت في التو أنها ألكسندرا سيميونفنا التي حدثتني اليوم عنها، والتي يريد أن يعرفني بها، وقد سألتني من أكون، ولما سمعت اسمي، قالت إنه ينتظرني، إلا أنه لا يزال نائمًا في مخدعه، بيد أنها قادتني إليه، فوجدته راقدًا على فراش وثير جميل وقد تدثر بمعطفه القذر، وتوسد وسادة من الجلد، وكان نومه خفيفًا، فما كدنا نلج الغرفة حتى ناداني باسمي.

«آه، هذا أنت. لقد كنت في انتظارك، وقد رأيت الآن فيما يرى النائم أنك قادم، وأنك ستوقظني من نومي، ولا يزال الوقت ملائمًا، فهلمَّ نركب».

«إلى أين؟».

«إلى تلك السيدة».

«أية سيدة؟ ولماذا؟».

«إلى السيدة بوبنوفا لاقتناص نقودها. يا له من جمال فاتن»، وقد قال ذلك وهو يمط الكلام عمدًا أمام ألكسندرا سيميونفنا، بل إنه تمادى فقبل أنامله عندما ذكر اسم السيدة بوبنوفا.

فقالت ألكسندرا سيميونوفنا: «اذهب. اذهب. إنك إنما تحاول كيدي»، بيد أنها رأت أن من واجبها أن تتغاضب بعض الشيء.

«إنكما لا يعرف أحدكما الآخر، فسأعرفك إليها يا صديق القلب. أي ألكسندرا سيميونفنا، أقدم إليك قائدًا من قواد الأدب، إنه لا يرى بغير مقابل إلا مرة واحدة في العام، فأما ما زاد عليها فيتقاضى عليه جعلًا».

«ها هو ذا قد عاد إلى هوائه. ألا تسمع ما يقول. إنه يسخر مني دائمًا. كيف يمكن أن يكون هذا السيد قائدًا؟».

«أقول لك إنه قائد مبرز جدًّا. وأما أنت يا صاحب السعادة فلا تتوهم، إنها غبية بلهاء، فهي أذكى كثيرًا مما تبدو».

«لا تصغ مطلقًا إلى قوله هذا، فهو دائمًا يحرجني أمام أفاضل القوم ويخجلني، هذا القليل الحياء، وكان من الخير لو أنه بدلًا من ذلك اصطحبني مرة واحدة إلى دار التمثيل».

«ولكن أحبي منزلك الصغير يا ألكسندرا سيميونفنا... هل نسيت من يجب عليك أن تحبي؟ ألا تذكرين تلك الكلمة؟ لقد ذكرتها لك منذ قليل».

«ما زلت أذكرها، بالطبع، ولا ريب أنها سخيفة المعنى؟».

«حسن، فما هي؟».

«أمن الحتم أن أكون ضحكة لضيوفنا؟؟ ربما كان لها معنى ناب؟ لخير أن ييبس لساني من أن أفوه بها».

«إذن فقد نسيتها».

«ماذا؟ نسيتها؟ إنها «بنات[1]». أحبي «بنات»... انظر ماذا حاك ذهنه. ربما كانت هذه البنات، لم توجد قط على وجه الأرض، ولم ينبغي أن أحبها؟ هراء».

«وإذن فنحن ذاهبان إلى السيدة بوبنوفا...».

«تعسًا لك ولسيدتك بوبنوفا»، وخرجت من الغرفة وقد بلغ منها الامتعاض غايته.

«أجل، حان الوقت وعلينا أن نذهب. وداعًا يا ألكسندرا سيميونفنا». وانصرفنا.

«أتدري يا فانيا! علينا أولًا أن نركب هذه المركبة. أجل. وثانيًا، لقد علمت بعد افتراقنا أشياء شتى، ليست من باب الفرض والاستنباط، بل هي وقائع ثابتة، فقد لبثت أبحث ساعة كاملة في جزيرة فاسيلي، فذلك الرجل البدين وغد زنيم سافل خبيث ذو نزوات وشهوات خطرة، وتلك البوبنوفا معروفة عند الجميع بأنها تقوم بأعمال في هذه البيئات الخبيثة،

(١) هي آلهة المنزل والتدبير المنزل عند الرومانيين القدامى.

وقد كادت منذ أيام قليلة أن توقع في الهوة فتاة من أسرة كريمة. وإن ذلك الثوب من الخز الموصلي الذي منحته اليتيمة كما ذكرت لي اليوم قد حرمني الراحة، وذلك لأنه قد انتهى إليَّ ما يؤيد هذا المعنى. ثم إني علمت منذ لحظة شيئًا آخر، وكان ذلك بالمصادفة المحضة، ولكنه حق لا ريب فيه. فكم تقدر للفتاة من العمر؟».

«يبدو من هيئة وجهها أنها في الثالثة عشر».

«ومن هيئة بدنها أنها أصغر من ذلك، أجل فذلك شأنها، فهي تبدو مرة في الحادية عشرة من عمرها، وأخرى في الخامسة عشر. وإذ كانت المسكينة لا أسرة لها وليس ثمة من يذود عنها فإنها...».

«أتعتقد ذلك حقًّا؟».

«أجل، وماذا تظن إذن؟ هل كفلت السيدة بوبنوفا هذه اليتيمة لمحض الشفقة عليها؟ الواقع أنه ما دام هذا البدين يختلف إلى ذلك البيت، فليس ثمة محل للشك. ولقد شوهد هناك ثانية في صباح اليوم. ورأس الخروف سيسبروشوف هذا قد وعدوه اليوم بامرأة جميلة متزوجة، وزوجها أحد كبار الموظفين، وإن المتهتكين من أولاد التجار ليتهافتون في جنون على هذه الأشياء، فالمرتبة الاجتماعية عندهم أهم شيء، وذلك أشبه بما في قواعد النحو اللاتيني، فإن الزيادات المضافة إلى أصول الكلمات هي التي تحدد قيمتها، ولكني- فيما أظن- لم أفق بعد تمامًا من سكرة اليوم. والآن فلتجرؤ البوبنوفا على ممارسة هذه المهنة. ولعلها كذلك راغبة في تضليل الشرطة، ولكن لتنتظر! فإن في استطاعتي أن أزعجها أشد الإزعاج، فهي تعرف أني كنت منذ الزمن

الماضي ولا أزال... وهلم جرًّا. أنت تدري ما أعني».

وتولاني الفزع، فإن هذه الأنباء مجتمعة أثارت فيَّ اضطرابًا مروّعًا، وخشيت كثيرًا أن نصل بعد فوات الأوان، فشرعت استحث الحوذي دون انقطاع أن يسرع.

وقال سلوبويف: «دع عنك الجزع، فقد احتطت سلفًا باتخاذ الأهبة للأمر، فمترشكا هناك، وسيقوم سيسبروشوف بدفع ثمن ما جنت يداه من ماله، أما الوغد البدين فسيدفع من جلده. لقد دبرنا منذ هنيهة كل شيء، وأما بوبنوفا فسأتكفل أنا بها، ولن تجسر بعد الآن...».

ويمّمنا نحو المطعم، ولكن ذلك الشاب المدعو مترشكا لم يكن هناك، فتركنا المركبة في انتظارنا أمام مدخل المطعم ومضينا راجلين إلى السيدة بوبنوفا، فألفينا على الباب مترشكا ينتظرنا، وكان ينبعث من النوافذ نور ساطع، وسمعنا قهقهة سيسبروشوف وضحكاته المخمورة.

وقال مترشكا منبئًا: «هم هنا جميعًا منذ ربع ساعة، وقد أزف الوقت».

فسألت: «وكيف السبيل إلى الدخول؟».

فأجاب مسلوبويف: «ندخل على أننا ممن يختلفون إلى الدار، فهي تعرِفني أنا ومترشكا. نعم إن أبوابها موصدة، ولكن ليس في وجوهنا».

وقرع الباب قرعًا خفيفًا، فما هو إلا أن فُتِح، فتحه البواب وتبادل مع مترشكا إشارة تنبئ أنهما متفاهمان، وخطونا بحذر، فلم يحس بنا أحد ممن في الدار، وصعد بنا البواب السلم ثم قرع بابًا من الأبواب، فسئل

عن شأنه، فأجاب أن سيدًا يسأل عن السيدة، وما كاد الباب يفتح حتى اندفعنا جميعًا داخل الغرفة وتخلف البواب.

وصاحت بوبنوفا وهي واقفة في مدخل الغرفة مخمورة متشعثة الشعر وفي يدها شمعة: «آي آي، من هؤلاء؟».

فأجاب مسلوبويف: «من هؤلاء؟ أنسيت يا أنا تريفونفنا خيرة زبائنك؟ ومن عسى أن يكون الداخل سواي... أنا فيليب فليبتش؟».

«آه، هذا أنت يا فيليب فليبتش.. أهلًا وسهلًا... ولكن كيف؟ لست أدري... لا بأس... تفضل بالدخول».

وأسرعت أمامنا وقد استحوذ عليها الارتباك.

«أين؟ هنا في هذه الخزانة؟ كلا. إن عليك أن تستقبلينا خيرًا من هذا الاستقبال، وأحضري لنا زجاجتين من الشمبانيا المثلوجة، وبعد، أليس هنا فتيات جميلات؟».

وملكت صاحبة المحل جأشها في الحال وقالت:

«لن أتأخر عن إحضارهن لضيوف مبجلين مثلكم، ولو اضطررت إلى التنقيب عنهن في باطن الأرض، أو جلبهن من لدن عاهل الصين».

«كلمة أخرى يا فاتنتي أنا تريفونفنا. هل سيسبروشوف هنا؟».

«أجل».

«أريد أن أراه حتمًا. كيف يجسر هذا الوغد على اللهو وحده دوني؟».

«أظنه لم ينسك، إذ يلوح عليه أنه ينتظر شخصًا، لا شك أنه أنت».

ودفع مسلوبويف الباب فولجنا غرفة ذات نافذتين وفيها أصص فيها نبات إبرة الراعي، ومقاعد من القش وبيانو رثّ. كل شيء كان حسب المألوف، ولكن مترشكا كان قد استخفى قبل دخولنا حين كنا في مدخل الغرفة نتحدث، وقد علمت فيما بعد أنه لم يدخل معنا، بل ظل منتظرًا أمام الباب حتى فتحه شخص آخر، هو تلك المرأة المتزينة المتبهرجة التي رأيتها خلف السيدة بوبنوفا في الصباح، فقد كانت صديقة له.

وكان سيسبروشوف يجلس على أريكة يحيط بها دائر من خشب ضارب إلى الحمرة، وبين يديه خوان مستدير فوقه ملاءة وعليه زجاجتان من شمبانيا رديئة غير مثلوجة وزجاجة من الروم الرخيص وبضعة أطباق من الحلوى والبسكويت والنّقل، وكانت تجلس بإزائه في الناحية الأخرى من الخوان أنثى بغيضة المنظر مجدورة الوجه في نحو الأربعين من عمرها، عليها ثوب سندسي قاتم يزينه مشبك للصدر من البرونز المموه بلون ذهبي، وأساور زائفة كذلك. تلك كانت زوجة الموظف الكبير، والراجح أنها هي أيضًا كانت زائفة. وكان سيسبروشوف مخمورًا مرحًا، ولم يكن معه صديقه البدين.

وصاح مسلوبويف بصوت جهير: «هكذا يفعل الناس بعد أن يدعوا امرأ ليكون ضيفهم في محل دوّشو».

فغمغم سيسبروشوف قائلًا: «فيليب فليبتش، تفضل. أتمنحنا حقًّا هذا السرور؟» وأقبل علينا بوجه بشّ متهلل.

«أتحتسي الراح هنا؟».

«معذرة».

«لا تعتذر، بل ادع ضيفيك، فإنما جئت لأشاربك قدر ما نستطيع، وقد جئتك بضيف آخر من خلصائي».

وأشار إليَّ.

«يسرني ذلك كثيرًا، أعني أني سعيد الطالع جدًّا... هيـــهيـــــهي...».

«تعسًا لك، أتسمي هذه شمبانيا؟ إنها أشبه شيء بالكفاس».

«أنت تهيننني».

«وإذن فأنت لا تجسر على الذهاب على محل دوّشو، ومع ذلك دعوتني إلى أن أكون ضيفك هناك».

فقالت امرأة الموظف: «لقد كان يقص عليَّ الآن أنه كان في باريس. لا شك أنها قصة لا أصل لها؟».

«لا تهيننني يا فيدسيا تيتشنا، فقد كنت في باريس حقًّا، لقد سافرت إليها».

«وماذا عسى أن يصنع فلاح كهذا في باريس؟».

«لقد كنا هناك.. استطعنا أن نرحل إليها، أنا وكارب فاسيليفتش، وقد أحدثنا بها ضجة وأثرنا حولنا الأقاويل. لعلك تعرفين كارب فاسيليفتش؟».

«وماذا يهمني من كارب فاسيليفيتشك هذا؟».

«هو مجرد سؤال... وقد حطمنا مرة في تلك البلدة الصغيرة التي

هي باريس مرآة إنجليزية عظيمة عند السيد جوبير».

«ماذا حطمتما؟».

«مرآة عظيمة، مرآة كبيرة هائلة تستغرق الجدار كله إلى السقف. وقد كان كارب فاسيليفتش ثملًا فطفق يكلم السيدة جوبير بالروسية، وكان على مقربة من المرآة فاتكأ عليها بمرفقه فصاحت به جوبير بالفروسية تحذّره معلنة أن ثمن تلك المرآة سبعمائة فرنك (وقيمة الفرنك ربع روبل[1]) فتبسم ونظر إليَّ وكنت جالسًا بإزائه على الأريكة مع جارية ظريفة، ليست ثقيلة كتلك التي هناك بل تذهل العقل، تلك هي الكلمة الصالحة لنعتها، فصاح بي: ستبان ترنتش، أي ستبان ترنتش، أتشاطرني ثمنها؟ أتفعل؟ فقلت: أفعل، فهوى بجمع يده على المرآة وطاخ، فتناثرت شظاياها يمينًا وشمالًا، فأعولت جوبير وانقضت عليه وصاحت به: ماذا دهاك أيها اللص، أهذا من عادات بلادكم؟ قالت ذلك، بطبيعة الحال، بالفرنسية، أما هو فأجابها: هاك ثمنها أيتها السيدة جوبير، وليس لك بعد ذلك شأن بخلقي، وعدَّ لها خمسين وستمائة فرنك على المنضدة، وتراضيا على خصم الخمسين الأخرى».

ودوت في تلك اللحظة صرخة فظيعة، من غرفة بينها وبين التي نحن فيها غرفتان أو ثلاث، فاقشعررت وصرخت أنا أيضًا، فقد عرفت تلك الصرخة إذ كان الصوت صوت هيلينا. وما راعنا عقب هذه الصرخة صرخة التفجع، إلا أن سمعنا ضجيجًا مرتفعًا وشتائم وضوضاء، ثم

(١) يرى من هذه الجملة العرضية أن قصة سفره إلى باريس ملفقة؛ لأن قيمة الروبل لا تزيد كثيرًا على فرنكين ونصف الفرنك.

سمعنا أخيرًا في وضوح صوت لطمات متتابعة على وجه، فأدركنا أن مترشكا كان يأخذ بثأره، ثم إذا بالباب يفتح بغتة بعنف وإذا بهيلينا ترتمي داخل الغرفة ممتقعة الوجه منهمرة الدمع في ثوب أبيض من الخز الموصلي كان متقبضًا ممزقًا كل ممزّق، وشعرها الذي كان قد رُجّل بعناية تشعّث في أثناء المشاجرة. وكنت في مواجهة الباب فإذا بها قد اندفعت نحوي وطوقتني بذراعيها، فنهض الجميع من مقاعدهم فزعين وعلا صياحهم وضجيجهم حتى ملأ جو الغرفة. وهنا ظهر مترشكا أيضًا بالباب يجرّ وراءه خصمه البدين من شعره، وكان هذا قد صار في حالة سيئة، وجرّه مترشكا حتى عتبة الباب ثم ألقى به داخل الغرفة.

وقال وقد بدت عليه آيات الرضا: «عليكم به».

فقال مسلوبويف وقد خطا إليَّ في هدوء وربت كتفي: «استمع. خذ هذه الفتاة فاركب معها مركبتنا واذهب بها إلى منزلك، فلم يبق لك هنا ما تفعل، وغدًا نتدبر فيما بقي من الأمور».

ولم أنتظر لأسمع هذا القول مرة أخرى، بل أمسكت بيد هيلينا وخرجت بها من تلك البؤرة الأثيمة دون أن يتصدى لنا أحد، فقد ترك الرعب صاحبة المنزل في حالة من أصيب بالفالج. وحدث كل شيء بسرعة جعلتها لا تستطيع أن تعمل شيئًا، وكانت المركبة في انتظارنا، فلم تنقض عشرون دقيقة حتى كنا في مسكني.

وكانت هيلينا أشبه شيءٍ بمن يشرف على الموت، فحللت مشابك ثوبها ونضحت جبهتها بالماء وأرقدتها على الأريكة، وغشيتها حمى الرعدة فطفقت تهذي، وتفرست في وجهها الشاحب وشفتيها اللتين

حال لونهما وشعرها الأسود الذي رجل بعناية وضمخ بالدهان، وإن كان قد شعث بعد ذلك، وفي الأشرطة الوردية التي كانت لا تزال تحلي ثوبها وفي زينتها عامة، فلم يخامرني شك في حقيقة الأمر المثير للاشمئزاز: يا للمسكينة، لقد ظلت تزداد ضعفًا وسوء حال، فلبثت إلى جانبها معتزمًا ألا أذهب إلى ناتاشا هذا المساء، وكانت هيلينا ترفع بين آن وآخر هدبيها الطويلين الشبيهين بالسهام لتحملق إليَّ في إنعام كأنها تتعرفني. ولم تغف إلا في وقت متأخر، حوالي الساعة الأولى بعد منتصف الليل، فرقدت على كثب منها فوق البساط.

* * *

الفصل الثامن

استيقظت مبكرًا جدًّا، وكنت أهب بالليل كلَّ نصف ساعة فأذهب إلى مريضتي أرقبها بعناية، وكانت لا تزال محمومة تهذي هذيانًا خفيفًا، على أنها استغرقت قرب الصباح في سبات عميق، فقلت لنفسي (هذا بشير خير)، ولكني مع ذلك أصررت حين استيقظت في الصباح على أن أدعو لها طبيبًا بأسرع ما يستطاع، وقبل أن تستيقظ. وكنت أعرف طبيبًا عزبًا طيب القلب هرمًا، يقيم منذ عهد أبعد من أن تعيه الذاكرة في منزله بميدان فلاديمير مع مدبرة ألمانية للمنزل، فقصدت إليه فوعدني أن يحضر في نحو الساعة العاشرة، وكانت الثامنة إذ ذاك. ورأيت أن أعرج في الطريق بسرعة على مسلوبويف، ثم بدا لي فعدلت، إذ إنه كان ما يزال على الأرجح نائمًا بعد حادث أمس، كما أني أشفقت أن تستيقظ هيلينا، فيعروها الخوف حين تجد نفسها وحيدة في مسكني، فقد تنسيها الحمى كيف ومتى ومن الذي حملها إليه.

وتنبهت هيلينا من نومها في اللحظة التي دخلت فيها الغرفة، فدلفت إليها وسألتها في حذر عن حالتها، فلم تحر جوابًا، بل حدقت إليَّ

بنظرات ثابتة طويلة من عينيها السوداوين.

وأدركت من نظرتها أنها قد فهمت كل شيء، وأنه قد عاد إليها وعيها. أما امتناعها من إجابة سؤالي فلعله يرجع إلى عادة متأصلة فيها، فإنها حين قدمت إليَّ أمس وأول من أمس لم تكن تحير جوابًا واحدًا عن شتى الأسئلة التي وجهتها إليها، بل كانت تحملق فيَّ طويلًا بنظرات ثابتة تشف عن الدهشة والتشوف غير المكتوم والكبرياء العجيبة، أما الآن فكان في نظراتها شيء من الجفاء والريبة، وقد مددت يدي إلى جبينها لأتبين أهي لا تزال محمومة، بيد أنها نحت يدي جانبًا بيدها الصغيرة وأشاحت بوجهها نحو الجدار، فغادرتها حتى لا أجلب لها أي عناء.

وكان عندي إبريق كبير أغلي فيه ماء الشاي، مستعيضًا به عن الغلاية الخاصة بغلي الشاي، وكان عندي خشب أيضًا، فقد أحضر لي البواب منه ما يكفيني خمسة أيام، فأوقدت المدفأة وملأت الإبريق ماء ووضعته على النار، ثم وضعت قدحين من أقداح الشاي على المائدة، فاستدارت هيلينا وراحت تنظر إليَّ في تشوّف، فسألتها أترغبين في شيء؟ فأشاحت عني أيضًا ولم تحر جوابًا، فقلت في نفسي: «ماذا يغضبها مني؟ يا لها من فتاة عجيبة؟».

وحضر دكتوري الهرم في تمام العاشرة كما قال، ففحص المريضة بدقة ألمانية ثم آساني قائلًا: إن الحمى وإن كانت لا تزال باقية، ليس منها أي خطر، وأضاف إلى ذلك أنه يظن أن بها داء آخر مزمنًا، كأن يكون اختلالًا في عمل القلب «وهذه الحالة تقتضي عناية خاصة». أما الآن فهي بمنأى من الخطر. وكتب لها بدواء وسفوف، وقد فعل ذلك بتأثير العادة

أكثر منه بداعي الضرورة. ثم أخذ يسألني كيف جاءت إليَّ، وألقى نظرة كلها فضول على مسكني. لقد كان هذا الطفل الهرم ثرثارًا. وقد أثارت هيلينا عجبه، فقد نترت يدها منه عندما أخذ يجس نبضها، وأبدت ممانعة في أن يرى لسانها، ولم تجب بأية كلمة عن أسئلته جميعًا، بل حدَّقت بنظرها لا تحوله عن وشاح ستانسلاوس الذي يتقلده.

وقال الطبيب ملاحظًا: «لا ريب إنها تعاني صداعًا أليمًا. ولكن ما أعجب نظراتها، فإنها ثابتة لا تتحرك...».

ولم أر حاجة أن أنبئه بشيء من أمرها، بل اكتفيت بمرافقته إلى خارج الغرفة قائلًا له: «تلك قصة يطول شرحها».

وقال عند منصرفه: «إذا احتجت إليَّ فأعلمني، أما الآن فهي بمنجاة من الخطر».

واعتزمت أن أبقى طول الوقت مع هيلينا وألا أدعها قبل برئها إلا أقل ما يستطاع من الوقت، ولكن علمي أن ناتاشا وأنّا أندريفنا سيتولاهما جميعًا القلق وهما في انظاري على غير طائل، جعلني أعتزم إعلام ناتاشا على الأقل، بطريق البريد، إني لا أستطيع أن أوافيها اليوم، أما أنّا أندريفنا فإني لا أستطيع مع الأسف أن أكتب إليها إذ كانت قد رجتني بنفسها ألا أبعث إليها برسالة مطلقًا، وقالت لي حين بعثت إليها ذات مرة بنبأ كتابي عندما مرضت ناتاشا: «لقد غضب شيخي كثيرًا حين أبصر رسالتك، فقد ظل يتحرق شوقًا إلى معرفة ما بها، وذلك حق لا مرية فيه، بيد أنه لم يجد عنده الشجاعة على الاستفهام فنغصه ذلك طوال اليوم. وأنا نفسي يا فتاي الطيب، تسبب لي مثل هذه الرسائل عذابًا أليمًا، فما غناء هذه

الأسطر العشرة التي تبعث بها إليَّ؟ إنني تتملكني بعد قراءتها رغبة في أن أوجه إليك مائة سؤال، فإذا بي لا أراك إلى جانبي!». ومن ثم قصرت رسائلي على ناتاشا. وألقيت بالرسالة في صندوق البريد في ذهابي إلى الصيدلية أستحضر الدواء.

وكانت هيلينا في أثناء ذلك قد استغرقت في النوم من جديد، وكانت تتنهد خلال سباتها وترتعد. ولقد كان الطبيب صادق النظر إذ كانت تشكو من صداع مروع في رأسها، فكانت بين الحين والحين تصرخ صراخًا عاليًا وتهب فزعة وتحدجني بنظرات حانقة، كأنما كان يضايقها أن أغلو في مراقبتها والعناية بها. ولا أجد الآن مناصًا من الاعتراف بأن ذلك قد أمضني كثيرًا.

وقدم مسلوبويف حوالي الساعة الحادية عشرة، وكان يلوح لي أنه مشغول البال شارد اللب، ويبدو أنه أسرع إليَّ ليبقى دقيقة واحدة لكي يمضي بعدها لشأن آخر أعجله.

وقال ملاحظًا وهو يجيل بصره فيما حوله: «أجل يا صديق القلب، إني لم أك أتوقع أن أراك في سعة وترف، أما أن يكون مثواك مثل هذا الصندوق، فذلك ما لم أكن أحسبه ممكنًا. هذا صندوق لا مسكن! ولندع ذلك الآن، وإن تكن هذه المتاعب التي تنجم من سفاسف الأمور تعوقك عن عملك. لقد فكرت ونحن راكبان أمس في طريقنا إلى بوبنوفا. أترى يا صديق القلب! إنني بفطرتي ومركزي الاجتماعي أحد هؤلاء الذين لا يجدون في أنفسهم القدرة على عمل ما فيه صلاحهم، ولكنهم يفرضون على أنفسهم إسداء النصح إلى غيرهم ورسم الخطط

لهم وتسديد خطاهم إلى النجاح والفلاح، فاستمع إليَّ الآن. لست أدري أأستطيع أن أزروك مرة أخرى غدًا أو بعد غد، ولكني أرجوك- على أية حال- أن تحضر إليَّ حتمًا صباح يوم السبت، وآمل أن أتمكن خلال هذه المدة من حل مسألة تلك الطفلة، ثم أريد- بهذه المناسبة- أن أتحدث إليك حديثًا جديًّا. فأنت الآن في حاجة إلى عناية كبيرة تسدى إليك. إنك لن تستطيع أن تمضي في العيش على هذا النمط، وقد اقتصرت معك أمس على الإشارة إلى هذا الأمر، أما الآن فسأفسر لك الأمر بما يساير المنطق. أجل، والآن خبرني بإيجاز: أترى حقًّا أنه مما يجرح كرامتك أن أقرضك شيئًا من المال إلى أجل ما؟».

فأجبته مقاطعًا: «هيا بنا ودع اللجاج في هذا، فخير منه أن تنبئني كيف سارت الأمور عندكم أمس».

«وكيف عساها تسير؟ على أحسن ما تكون، فقد طفرنا ببغيتنا، أفهمت؟ ولكن ليس عندي الآن متسع من الوقت، وإنما صعدت إلى هنا لحظة واحدة لكي أخبرك أنه ليس عندي الآن متسع من الوقت، حتى ولا لك أنت. وقد أردت فوق ذلك أن أسألك أين تريد أن تثويها؟ أم لعلك تريد أن تبقيها عندك؟ لا بد أن يناقش هذا الموضوع وأن يبت فيه».

«أعترف صراحة إني أنا نفسي لست أعرف ذلك بعد، ولا مندوحة لي عن أن أقول لك: إني لهذا السبب كنت أنتظرك لمشاورتك في هذا الأمر، فبأي حجة أستطيع أن أسوغ احتفاظي بها عندي؟».

«الأمر يسير جدًّا، بأنها خادم لك، مثلًا...».

«أرجوك، لا تتكلم عاليًا على هذا النحو، فإنها مع ما بها من مرض، في تمام وعيها. وعندما وقع بصرها عليك من قبل أخذت ترتعد وترتجف، ولا ريب أنها تذكرت ما وقع أمس...».

وتحدثت عن صفاتها الخلقية وما راقبته منها، فأثارت هذه الملاحظات اهتمامًا كبيرًا عند مسلوبويف، وأضفت إلى ذلك أني قد أعرف منزلًا أستطيع إنزالها إياه، وذكرت آل إشمنيف في إيجاز تام، فإذا به- وشدّ ما أدهشني ذلك- يعرف طرفًا من قصة ناتاشا. وعندما سألته من أين له علم ذلك؟ أجابني قائلًا:

«لقد اتّفق لي منذ زمن طويل أن سمعت ذلك عرضًا خلال قيامي بعمل من الأعمال، وقد ذكرت لك من قبل أنني أعرف الأمير فالكوفسكي. وإنها لفكرةٌ طيبة منك أن تعهد بها إلى هذين الشيخين، إذ إنها هنا عائق في سبيلك. ولكن ثمة أمرًا أود أن أفضي إليك به أيضًا: مما لا غنى لها عنه أن تحصل على أوراق تحقيق شخصيتها، ولا يشقن عليك الأمر فسأحصل أنا لها على تلك الأوراق. وداعًا. واختلف إليَّ كثيرًا. أما تزال هي نائمة؟».

فأجبت: «يبدو لي ذلك».

ولكنه ما كاد ينصرف حتى دعتني هيلينا إليها.

وقالت: «من هذا الذي كان يتحدث إليك؟» وكان صوتها يرتجف وهي شاخصة إليَّ بنظرة جامدة، أريد أن أقول صلفة متكبرة، ولا أستطيع وصفها بغير ذلك.

فذكرت لها اسم مسلوبويف، وأخبرتها بأنه لولا معونته ما استطعت أن أنتزعها من يدي البوبنوفا، وأن البوبنوفا تخشاه وتفرَق منه. وهنا علت وجنتيها فجأة حمرة قانية، لعل ذلك بسبب الذكرى.

قالت وهي تشخص إليَّ متفحصة: «وهل هي لن تأتي هنا أبدًا؟» فسارعت إلى تهدئة روعها فسكتت، وأمسكت يدي بأناملها الملتهبة، غير أنها لم تلبث أن تركتها، كأنما قد عاد إليها ما غاب عن وعيها «من أين عسى أن يكون قد نشأ إحساسها نحوي بهذا النفور؟ لعل ذلك إنما يرجع إلى شيء كامن في طبيعتها، أم... لعل الطفلة المسكينة قد خبرت الكثير من المساوئ، فصارت لا تشعر بالثقة نحو أي إنسان كائنًا من كان».

ومضيت في الموعد المضروب، لإحضار الدواء، وعرجت في طريقي على مطعم كنت أتناول فيه غدائي أحيانًا، وكنت أستطيع أن أطعم فيه النسيئة، وقد حملت معي من المنزل وعاء، فأخذت فيه لهيلينا وجبة من حساء الدجاج، ولكنها رفضت أن تتناول منه شيئًا، فوضعته في المدفأة ليبقى دافئًا.

وبعد أن ناولتها الدواء جلست إلى عملي، وحسبتها نامت، واتفق أن ألقيت عليها نظرة عابرة، فإذا هي رافعة رأسها ترقب في انتباه كيف أكتب، فتماديت في عملي كأني لا أحس بها.

ولكنها في النهاية استغرقت في النوم حقًّا، وسرني أن نومها كان هادئًا كل الهدوء خاليًا من الهذيان والتنهد، فأخذت أعمل الفكر، وساورني خاطر أن ناتاشا التي لا تعرف مطلقًا إلى أي مدَى بلغت هذه

الأمور لن تكون غاضبة فحسب من احتجابي عنها اليوم، بل سترى- ولا ريبَ- في إهمالي إياها على هذا النحو ما يثلم عاطفتها، وبخاصة في هذا الوقت الذي هي فيه أحوج ما تكون إليَّ. ومن المحتمل أن تكون لديها هموم ناصبة تود أن تفضي بها إليَّ أو لبانات تريد أن تعهد إليَّ في قضائها، فإذا هي لا تراني بجانبها.

أما أنّا أندريفنا فلم أكن أعرف من الأعذار ما أبسطه لديها في اليوم التالي، فأخذت أكد ذهني وحزمت أمري في النهاية على الذهاب إليهما جميعًا، فلن تطول غيبتي أكثر من ساعتين، هذا إلى أن هيلينا كانت لا تزال نائمة، فلن تحس بي مطلقًا عند خروجي، فنهضت وتناولت معطفي وأمسكت بقلنسوتي، وما كدت أهم بالخروج حتى نادتني هيلينا على غرة مني، فعرتني الدهشة: أفكانت قبل ذلك تتناوم؟

وأود أن ألاحظ مستدركًا، أن هيلينا وإن كانت قد بدت كما لو كانت ترغب عن محادثتي، كنت أجد في كثرة هتافها بي وندائها إليّ، وتلك الحاجة في أن تتجه بوجهها نحوي بكل ما تنوء به من هموم، ما يثبت العكس. ولا بد لي من أن أعترف في صراحة أن ذلك كان يرضيني كل الرضا.

وقالت حين دنوت منها: «إلى أين تريد أن تبعث بي؟». لقد كانت دائمًا تلقي أسئلتها بغتة على غير انتظار، ولكني في هذه المرة لم أفهم في بادئ الأمر ما كانت ترمي إليه.

«لقد كنت الآن تقول لصديقك إنك ترغب في أن تؤويني إلى منزل ما، ولكني لا أود الذهاب».

فانحنيت عليها، فإذا بها قد ارتفعت حرارتها كثيرًا، فقد انتابتها الحمى من جديد، فشرعت أهدئ من روعها وأبعث في نفسها الطمأنينة والسلوة، وأكدت لها بأني لن أبعث بها إلى أي مكان ما دامت تؤثر البقاء عندي، ثم نضوت عني معطفي وقلنسوتي، إذ لم أجد في وسعي أن أتركها وحدها على هذه الحالة.

فقالت وهي تراني أعتزم البقاء: «كلا» بل اذهب. إنني على وشك النوم، وسأستغرق فيه من فوري».

فقلت متشككًا: «حتى وأنت وحدك؟... على كل حال سأكون هنا حتمًا بعد ساعتين..».

«حسن، فامض لشأنك إذن، وإلا فسيلازمني المرض سنة كاملة، وعندئذ لن يكون في وسعك أن تغادر المنزل مطلقًا...» وحاولت أن تبتسم، وهي ترنو إليَّ بنظرة عجيبة كما لو كانت تكافح شعورًا طيبًا أخذ ينبثق في قلبها، فيا للطفلة المسكينة! إن رقة قلبها لتتكشف في ومضات، مع كل ما يظهر عليها من مرارة النفس، وما تعمد إليه من تجاف عن جميع الخلق.

وهرولت مبتدئًا بأنّا أندريفنا، فوجدتها تنتظرني في قلق محموم، وأخذت تكيل لي اللوم والتقريع. لقد كانت في اهتياج مروع، فإن نيكولاي سيرجيفتش قد انصرف بعد الأكل مباشرة، وهي لا تدري إلى أين ذهب. ولقد كنت أستشعر من قبل أن العجوز لن تطيق صبرًا عن الإفضاء إليه بكل شيء، بطبيعة الحال في صورة تلميحات كدأبها، وذلك ما اعترفت به هي نفسها (من الوجهة العملية) إذ قالت إنها لم

تطق أن تحتفظ بمثل هذا السرور المتدفق لنفسها وحدها، وأن تقاوم رغبتها في أن تشركه فيه، ولكنه عدا، على حد قولها، متجهم الوجه كأنه سحابة ليلة عاصفة، وصمت فلم يقل شيئًا ولم يحر جوابًا عما كانت توجهه إليه من أسئلة، وعجل عقب الغداء بالقيام عن المائدة ومغادرة المنزل. وكانت أنّا أندريفنا ترتعد فرقًا وتضرع إليَّ أن أبقى معها حتى يعود، فاعتذرت وقلت في شيء من الفتور إنه من المحتمل ألا أعود في الغد أيضًا، وإنني إنما قدمت معتزمًا أن أمكث لحظة واحدة أنبئها فيها بذلك. وكدنا لذلك نشتبك في نزاع، وشرعت تنتحب وتوجه إليَّ لومًا عنيفًا، حتى إذا ما هممتُ بالخروج وبلغت الباب ارتمت فجأة على عنقي مطوقة إياي بذراعيها راجية ألا أغضب من العجوز المسكينة المهجورة.

أما ناتاشا فوجدتها وحدها من جديد، على خلاف ما كنت أتوقع، وقد بدا لي- ويا للعجب- أنها لم تسر برؤيتي كما سرت أمس، وكما كانت تسر في كل مرة بوجه عام، بل كانت كأنما أزعجها قدومي وأسخطها. فلما سألتها هل قدم أليوشا اليوم؟ كان جوابها: «من البديهي أنه كان هنا، بيد أنه لم يلبث إلا قليلًا» ثم أضافت في شيء من التردد كأنما كانت غارقة في تفكيرها: «وقد وعد أن يعود هذا المساء».

«وهل كان هنا مساء أمس؟».

فبادرت تقول: «كـــلا. لم يمكنه الحضور. حسن، وأنت كيف حالك يا فانيا؟».

وأدركت أنها تقتضب الحديث وتريد أن تحوله عن مجراه، فأنعمت النظر فيها، فإذا بها متضجرة مكتئبة. على أنها حين رأتني أحملق فيها

وأرقبها في انتباه، رمتني فجأة بنظرة شزراء تكاد تنفث نارًا، فقلت في نفسي: لقد اعتورتها الهموم من جديد ولكنها لا تريد أن تتحدث إليَّ عنها.

فلما سألتني عما عملت، أخبرتها بقصة هيلينا مُفصّلة كاملة، فأبدت عناية واهتمامًا بكل حوادثها، وبلغ منها الانفعال أقصى مداه.

وهتفَتْ: «رباه. وأنستَ من نفسك القدرة على تركها الآن وحيدة منفردة، مريضة على هذه الصورة؟».

فأجبتها بأنني ما كنت لأوافيها اليوم مطلقًا لولا أني خشيت أن يغضبها احتجابي عنها، أو أن تكون في حاجة ماسة إليَّ.

فقالت وكأنما تسائل نفسها: «حاجة؟ لعلِّي أكون في حاجة إليك يا فانيا، ولكن من الخير أن ندع ذلك إلى وقت آخر. هل كنت عندهما؟».

فأنبأتها بكل شيء.

«أجل، والله وحده يعلم كيف يتلقى الوالد هذه الأخبار، وعلى كل فليس هناك من أخبار كثيرة يتلقاها».

فسألت: «ماذا تقولين؟ أرجوك. يا له من تغير!».

«أجل... فأين عسى يكون قد ذهب اليوم أيضًا. وقد كنا قد ظننا إذ ذاك أنه يريد الحضور إليَّ. اجتهد أن تكون عندي غدًا يا فانيا، فقد يكون لديّ وقتئذ ما أفضي به إليك. لا أود أن أكون مصدر قلق لك، ولكن امض الآن إلى ضيفتك، فقد انقضت ولا شك ساعتان منذ غادرت منزلك».

«هذا حق. وداعًا يا ناتاشا. وكيف كان اليوم مسلك أليوشا بإزائك؟».

«أليوشا. إنه على مألوفه وعادته... على أنني أعجب لفضولك».

«إلى اللقاء يا ناتاشا!».

«وداعًا!».

وبسطت إليَّ يدها في شيء من الفتور والتراخي، وتحامت نظرتي الأخيرة عند وداعي لها، فأدهشني ذلك منها، ولكني فرضت أن لديها من الأمور ما يحتاج إلى التمحيص وإعمال الفكر، وإنها لأمور عظيمة الخطر. وفي غد ستكون هي البادئة بإطلاعي على كل ما يتعلق بهذه الأمور.

وعدت إلى منزلي منغصًا محزونًا، وما كدت ألج باب المسكن حتى عرتني رعدة من الذهول. كان الظلام قد خيم فلم أستطع أن أتبين غير هيلينا جالسة فوق الأريكة وقد أطرقت كما لو كانت مستغرقة في التفكير حتى إنها لم تشخص إليَّ ببصرها عند حضوري، إلى هذا الحد كانت مستغرقة في تفكيرها، فدنوت منها فإذا هي تغمغم بعض كلمات، فقلت لنفسي: «أتراها قد عادت من جديد إلى هذيانها؟».

وسألتها بعد أن جلست إلى جانبها وأمسكت بيدها: «هيلينا، أيتها الطفلة الطيبة. ماذا بك؟».

فقالت دون أن ترفع رأسها وتشخص إليَّ ببصرها: «أريد أن أغادر هذا المنزل... إني أوثر أن أعود إليها...».

فسألتها دهشًا: «إلى مَنْ؟ تعودين إلى مَنْ؟».

«إليها، إلى بوبنوفا. إنها لا تفتأ تكرر قولها إني مدينة لها بمال

كثير لأنها أخرجت نفقة دفن أمي... وإني لأكره أن تنال أمي بالشتم والسب... ومن ثم رأيت أن أعمل عندها وأن أوفيها حقها كاملًا... وإذ ذاك فقط أفارقها وأقصو عنها، أما الآن فلا أجد مناصًا من العودة إليها».

فقلت: «هدئي من روعك يا هيلينا، فذلك أمر لا يكون، إنها ترهقك وتعذبك وتوردك موارد الردى...».

فأجابت والألم يحزُّ فؤادها: «فلترهقني ولتعذبني ولتوردني موارد الردى، فلست أولى من يعاملن هذه المعاملة، وهناك كثيرات غيري خير مني يتجرعن كذلك كؤوس العذاب، وذلك ما أفضت به إليَّ ذات مرة فتاة متسولة على قارعة الطريق. إنني فقيرة وأريد أن أظل كذلك أبدًا، أريد أن أكون فقيرة طوال حياتي. بذلك أوصتني أمي وهي تحتضر. إني أريد أن أشتغل... ولست أريد أن أرتدي هذا الثوب....».

«سأبتاع لك غيره غدًا، وكذلك سأحضر لك كتابيك، وستكونين عندي دائمًا، فلن أعهد بك إلى أحد ما لم تريدي أنت ذلك، ولكن هدئي من روعك وسكني من جأشك...».

«سأعمل خادمًا».

«حسن حسن، أما الآن فهدئي من روعك واذهبي لتنامي!».

ولكن الطفلة المسكينة اندفعت تنتحب، ثم أخذ نحيبها يتحول شيئًا فشيئًا إلى شهقات، فلم أدر ماذا ينبغي أن أصنع لها، فأحضرت ماء ونضحت به صدغيها وجبهتها، وهوت آخر الأمر على الأريكة منهوكة القوى وغشيتها الحمّى من جديد، فدثرتها بأول ما صادفته يدي. وغرقت

أخيرًا في النوم ولكنه كان نومًا مضطربًا مزعجًا، لا تنقطع فيه عن الاهتزام والتيقظ فجأة.

أما أنا فقد شعرت على قلة سيري في ذلك اليوم بإعياء شديد، فاعتزمت أن أرقد أنا أيضًا مبكرًا، وأخذت تطيف بذهني هواجس مبرحة، وأحسست أن هذه الفتاة تجشمني عنتًا شديدًا، ولكن فكري واهتمامي كانا منصرفين قبل كل شيء إلى ناتاشا ومسألتها، وإني لأذكر أنه قلما ساورني من الغم والاكتئاب مثل ما ساورني في تلك الليلة التعسة عندما استولى عليَّ النوم.

* * *

الفصل التاسع

وتيقظت في الصباح التالي متأخرًا، حوالي الساعة العاشرة، وأنا أشعر بدوار وصداع. وألقيت نظرة على فراش هيلينا فإذا هو خلو منها، وطرق سمعي في هذه اللحظة حفيف منبعث من غرفتي الصغيرة التي إلى اليمين كأنما كان يكنسها أحد، فرحت أستطلع الخبر، فوجدت هيلينا تمسك حقًّا بالمكنسة بإحدى يديها، وتأخذ بالأخرى أطراف ثوبها الموشي الذي لم تنضه عنها منذ ذلك المساء، ثم راحت تكنس الأرض. وكان الخشب المعد للمدفأة مركومًا بعناية في إحدى الزوايا، والمنضدة ممسوحة منظفة، وإبريق الشاي مجلوًا. وموجز القول إن هيلينا بدأت تقوم بأعمال المنزل.

فصحت بها: «ويحك يا هيلينا. من فوَّض إليك تنظيف الأرض؟ أنا لا أريد ذلك. وأنت مريضة، فهل جئت بك إلى هنا لتكوني خادمًا؟».

فأجابت وقد نهضت وشخصت إليَّ ببصرها: «من عسى أن يقوم بكنس الأرض غيري؟ أما المرض فقد زايلني».

فقلت وأنا أنظر إليها مشدوهًا: «ولكني لم آت بك إلى منزلي ابتغاء أن تعملي عندي يا هيلينا. إنك تخشين أن أفعل فعلة البوبنوفا فأعيرك بأن تعيشين عندي دون مقابل. وأنى لك هذه المكنسة القبيحة ولم تكن عندي مكنسة؟».

«هي مكنستي، كنت قد أحضرتها هنا؛ لأكنس الغرفة لجدي، وظلت هنا حيث كنت قد وضعتها تحت المدفأة».

فعدت إلى مخدعي متأملًا. قد أكون مخدوعًا، بيد أنه قد وقع في نفسي أن كرم ضيافتي يثقل عليها، فهي تريد أن تريني- كيفما كان الأمر- أنها لا ترغب في البقاء عندي دون مقابل. فقلت لنفسي: «إن كان الأمر كذلك حقًّا، فيا لها من نفس مفعمة بالمرارة»، ولم تلبث هي أيضًا أن عادت إلى الغرفة، فجلست حيث جلست أمس لا تبدي حراكًا، وأخذت تنظر إليَّ بإمعان وقمت أنا في خلال ذلك بغلي الماء في الإبريق وأعددت الشاي فملأت قدحًا وناولتها إياه مع كسرة من الخبز الأبيض، فأخذتهما صامتة دون أن تبدي ممانعة. فقد كانت في خلال الأربع والعشرين ساعة المنصرمة لم تطعم شيئًا على وجه التقريب.

وقلت وقد بصرت بقذر يلوّث جانبًا كبيرًا من جيب ثوبها: «لقد أتلفت ثوبك الجميل كله بالمكنسة» فألقت نظرة على ذلك القذر ثم- وشد ما بغتني منها ذلك- وضعت القدح على المنضدة وأمسكت بكلتا يديها جيب ثوبها الحريري وشقته في جذبة واحدة من أعلى إلى أسفل، ثم أخذت تحدّق إليَّ بعينها العنيدتين الملتهبتين في صمت.

فصحت بها وقد أيقنت أنها فقدت رشدها: «ولكن ماذا تصنعين يا هيلينا؟».

فقالت بصوت خنقه الانفعال: «إنه ثوب فظيع، فلم تنعته بالجميل؟ لا أريد لبسه» ثم صاحت وقد وثبت من موضعها: «سأمزقه إربًا إربًا! إنني لم أسألها أن تزينني هذه الزينة، بل هي التي أرغمتني على ذلك بكل ما بها من قوة. ولقد مزقت الثوب الأول شر ممزق، وسأمزق هذا أيضًا، سأمزقه، سأمزقه ألف قطعة!».

وانقضت على ثوبها المنكود الحظ بحقد وغضب، فلم تكن إلا لحظة حتى كان خرقًا وأسمالًا، ولم تكد تنتهي من ذلك حتى غاض الدم من وجهها فآض أبيض كلون الطباشير، وأوشكت رجلاها أن تعجزا عن حملها. ووقفت مشدوهًا من نوبة الغضب هذه، فنظرت إليَّ نظرات فيها شيء من التحدي، كأنما كانت تقع عليَّ أنا تبعة كل شيء، ولكني عرفت ماذا أصنع.

فقد صحَّ عزمي على أن أبادر فأبتاع لها ثوبًا آخر في هذا الصباح نفسه، فهذه المخلوقة المتوحشة، التي تفيض نفسها بالمرارة، ينبغي أن تستأنس بالحسنى، لقد كان مسلكها يوحي إلى النفس بأنها لم تلق امرأ خير قط، ولئن كانت، مع ما كانت تتوقع من عقاب صارم، قد مزقت مرة كهذا فجعلته خرقًا وأسمالًا، فإنها لتنظر الآن، ولا ريب، إلى ثوبها هذا بحنق أي حنق، وهي تعيد إلى ذاكرتها تلك اللحظات الرهيبة التي عاشتها منذ قليل.

وفي وسع المرء أن يبتاع من سوق أسقاط المتاع ثوبًا ظريفًا متواضعًا

بثمن زهيد، ولكن الكارثة هي أنني لم أكن في ذلك الوقت أملك شيئًا من المال. وكنت قد اعتزمت عشية أمس حين أويت إلى فراشي، أن أقصد في صباح اليوم التالي إلى جهة ما آمل أن يتيسر لي الحصول فيها على بعض المال، وكانت لحسن الحظ قريبة من تلك السوق، فتناولت قبعتي وكانت هيلينا ترقبني بإمعان كأنما كانت تتوقع حدوث شيء.

ورأتني آخذ المفتاح لأغلق الباب بعد خروجي كما حدث أمس وأول من أمس، فسألتني: «أتريد أن تسكّ الباب ثانية؟».

فقلت لها وأنا أدنو منها: «أي طفلتي العزيزة، لا تعجبي من ذلك، فإني إنما أغلق الباب خشية أن يلجه أحد، أما ترين أنك مريضة وأن ذلك قد يحدث لك انزعاجًا، ولا يعلم إلا الله من قد يفد، فإذا عنَّ للبوبنوفا أن تحضر...».

وقد اختلقت هذا القول متعمدًا، أما الحق فهو أني أغلقت عليها لأني لا أثق بها كثيرًا، وقد كنت أشفق دائمًا أن تهرب مني، فرأيت أن آخذ بالحيطة والحذر ردحًا من الوقت. ولم تحر هيلينا جوابًا، فأغلقت الباب خلفي هذه المرة أيضًا.

كنت أعرف ناشرًا يعمل منذ ثلاثة أعوام في إخراج مؤلف جامع متعدد الأجزاء، وكنت كثيرًا ما ألجأ إلى العمل له، حينما تشتد حاجتي إلى المال، وكان يدفع في المواعيد بدقة، فقصدت إليه واستطعت أن أحصل منه على خمسة وعشرين روبلًا مقدّمًا، على أن أسلم إليه في مدى ثمانية أيام بحثًا أقوم بتصنيفه، وكنت آمل فضلًا عن ذلك أن أوفر بعض الوقت للقصة التي أكتبها، ولطالما فعلت ذلك في أشد أوقات الضنك.

فلما قبضت المال توجهت إلى سوق أسقاط المتاع فوقعت على بائعة عجوز كنت أعرفها من قبل تتجر في مختلف الملابس القديمة، فوصفت لها قوام هيلينا على وجه التقريب، فتخيرت لها في التوّ ثوبًا من القطن زاهي اللون غاية في المتانة لم يغسل إلا مرة واحدة، وكان زهيد الثمن. وابتعت لها فوق ذلك خمارًا. وعندما نقدتها الثمن، خطر ببالي أن هيلينا في حاجة أيضًا إلى فرو أو معطف أو أي شيء من هذا القبيل، فقد بدأ الجو يبرد ولم يكن لديها ما تتقي به البرد، ولكني أرجأت شراء ذلك إلى وقت آخر، فقد كانت هيلينا شديدة الكبرياء مرهفة الحسّ بما يجرح كرامتها، فمن يدري أتقبل مني هذا الثوب أم لا تقبله، وذلك مع أني تعمدت أن أنتقي لها من الثياب أكثرها سذاجة منظر وأبعدها عن الأناقة والزخرف وأقلها زينة ولفتًا للنظر. وابتعت لها غير ذلك جوربين قطنيين وجوربًا صوفيًّا. واستطعت أن أمنحها هذه الملابس بحجة أنها مريضة وأن الغرفة باردة. ولقد كانت محتاجة، فوق ذلك، إلى ملابس داخلية، ولكني أرجأت شراءها إلى وقت تكون فيه صلتنا قد توثقت، واشتريت بدل ذلك ستارًا قديمًا لتحجب به رأسها، وهي ضرورة لا مفرّ منها، علاوة على أن فيها تكرمة ترتاح إليها هيلينا.

وعدت بكل هذه الأعلاق حوالي الساعة الأولى بعد الظهر، وفتحت الباب بصوت خافت جدًّا حتى لا أنبّه هيلينا، فألفيتها واقفة إلى المنضدة تتصفح كتبي ومخطوطاتي، فلما أحست بي بادرت فطوت الكتاب الذي كانت تطالعه، واحمرّ وجهها احمرارًا بيّنًا وتنحّت بعيدًا عن المنضدة، فألقيت نظرةً على الكتاب فإذا به قصتي الأولى، وقد كان أعيد طبعها في

شكل كتاب يحمل غلافه اسمي كاملًا، وقالت في لهجة لاذعة: «لقد قرع شخص ما الباب في غيبتك» وكأنما كانت تسألني لماذا أغلقت الباب؟

فسألتها: «لعله لم يكن الدكتور؟ وهل أجبت يا هيلينا؟».

«كلا».

فلم أعقب بشيء، وتناولت الحزمة ففتحتها وأخرجت الثوب الذي ابتعته لها.

ودنوت منها قائلًا: «انظري يا عزيزتي هيلينا. إنك لن تستطيعي أن تبقي طويلًا في مثل هذه الأسمال التي ترتدينها، وقد أحضرت لك هنا ثوبًا عاديًّا متواضعًا زهيد الثمن، فلا تبالي ذلك، فإنه لم يكلفني إلا روبلًا واحدًا وعشرين كوبيكا، فالبسيه في عافية!».

ووضعت الثوب بين يديها فاحمرَّ وجهها وأخذت فترة ترمقني بعينين مفتوحتين.

لقد دهشت دهشًا لا حد له، على أنه خيِّل إليَّ في الوقت نفسه أن ثمة شيئًا يسبِّب لها خجلًا بالغًا، غير أني لمحت بريقًا لينًا رقيقًا كان ينبعث من عينيها، فلما رأيتها قد لجت في صمتها تحولت نحو المنضدة. لقد كان من الواضح أن مسلكي هذا قد أدهشها أبلغ الدهش، بيد أنها اجتهدت فملكت نفسها، وجلست غاضة من بصرها.

وكان رأسي قد أخذ يزداد صداعًا باطراد، وأفكاري تزداد اضطرابًا، ولم يخفِّف النسيم العليل عني بعض ما أجد، ومع ذلك فقد كان عليَّ أن

أذهب إلى ناتاشا، وكان قلقي عليها لم تخف وطأته منذ أمس، بل هو على نقيض ذلك أخذ ينمو ثم ينمو. وخيل إليَّ فجأة أن هيلينا تناديني فالتفتُّ إليها.

فقالت دون أن ترفع بصرها، وأناملها تعبث بزيق الأريكة كما لو كانت مستغرقة تمامًا في هذه المشغلة: «لا تغلقْ عليَّ الباب ثانية إذا ما خرجت، فلن أنصرف وأتركك».

«حسن يا هيلينا، إنني راض بذلك، ولكن ماذا يحدث لو قدم غريب، ويعلم الله من عسى أن يكون هذا القادم؟».

«اترك المفتاح معي أحكم إغلاق الباب من الداخل، فإذا ما قرع الباب فسأقول: «لا أحد هنا».

ورنت إليَّ في مكر ودهاء، كأنما تريد أن تقول «انظر، إن الأمر ليسير غاية اليسر».

وسألتني بغتة قبل أن يتهيأ لي الرد عليها قائلة: «من ذا الذي يغسل ملابسك؟».

«امرأة هنا في الدار».

«في وسعي أن أغسل. ومن أين أتيت أمس بالطعام؟».

«من مطعم».

«في وسعي أن أطهي، وسأطهي لك طعامك».

«على رسلك يا هيلينا، وماذا عساك تعرفين من فنون الطهي؟ إنك إنما تفوهين بلغو من القول...».

فسكتت هيلينا وكلح وجهها. لقد أمضّتها ملاحظتي ولا شك. وانقضت نحو عشر دقائق أمضيناها صامتين وقالت بغتة دون أن ترفع رأسها «حساء».

فسألت دهشًا: «حساء؟ ما شأن الحساء؟».

«إنني أستطيع طهي الحساء، فقد طالما طهيته لأمي حين أقعدها المرض، وكنت كذلك أذهب إلى السوق».

فدنوت منها وجلست بجانبها على الأريكة قائلًا: «انظري يا هيلينا، انظري مبلغ ما في تصرفك من كبرياء. لقد عاملتك بما أوحاه إليَّ قلبي، فأنت وحيدة تعسة لا أبوين لك، وقد طابت نفسي بمساعدتك، وكذلك كان يكون شأنك معي ولو أنني ساءت بي الحال، ولكنك تأبين أن تري ذلك، بل إن ليثقل عليك أن تقبلي مني أتفه الهدايا، فتريدين أن تجازيني في الحال على ما أسديه إليك من معونة، وذلك عن طريق الاشتغال في المنزل، كأنك ترينني مثل البوبنوفا، فتخشين أن أعيرّك مثل ما عيرتك. ينبغي أن تحتشمي يا هيلينا!».

فلم تحر جوابًا، ولكنها زفرت بعض الشيء، فكان من الواضح أنها أرادت أن تفوه بشيء، بيد أنها منعت نفسها وسكتت. فنهضت لأذهب إلى ناتاشا، ولكني تركت المفتاح في هذه المرة لهيلينا، راجيًا إياها، إن قرع الباب قارع، أن تجيبه وأن تسأله من يكون. وقد خامرني يقين أنه قد وقع لناتاشا ما لا يسر وأنها طوت ذلك عني أمس مرجئة أن تفضي إليَّ في وقت آخر، كما حدث ذلك غير مرة. ومهما يكن من شيء، فقد استقر رأيي على أن أذهب إليها، ولكن عليَّ ألا أمكث إلا لحظة واحدة حتى لا

أضجرها بفضولي ومواظبتي على الاختلاف إليها.

وكذلك فعلت، فقابلتني في هذه المرة أيضًا بوجه كالح، وكان يجب عليَّ أن أغادرها في الحال، ولكن قدماي خذلتاني، إذ لم تقويا على حملي.

وبدأتها الحديث قائلًا: «إنما قدمت لأمكث لحظة يا ناتاشا كي أستشيرك فيما يحسن بي أن أصنع مع ضيفتي».

وأنبأتها في إيجاز بالغ بكل ما يتصل بهيلينا، وهي صامتة تنصت إليَّ.

فأجابتني: «لست أدري بم أشير عليك يا فانيا، فإنه يؤخذ مما ذكرت أنها مخلوقة عجيبة نسيج وحدها، ولعلها تكون أيضًا قد أسيء إليها فيما مضى من أيامها إساءة شنعاء وأفزعت إفزاعًا شديدًا، فامنحها، قبل كل شيء، من الوقت ما يكفي لبرئها والتئام جراحها. أو لا تودّ أن تمضي بها إلى جماعتنا؟».

«هي تقول دائمًا إنها تود ألا تفارقني. ويعلم الله كيف يتلقونها هناك، فذلك ما لست على بينة منه». ثم سألتها في حياء: «وكيف حالك اليوم يا عزيزتي؟ إنك، على ما يبدو، لم تكوني أمس في خير حال؟».

فقالت وهي شاردة اللب: «أجل... واليوم أيضًا عاودني الصداع. هل رأيت أحدًا من جماعتنا؟».

«كلا! فسأذهب غدًا، فغدًا السبت كما تعلمين...».

«أجل. ثم؟».

«وسيفد الأمير في المساء».

«أجل! ثم؟ إني أعلم ذلك».

«حسن. إنني إنما قلته....».

وظلت واقفة طويلًا على كثب مني تصوب نحوي نظرات فاحصة، نظرات تنطوي على ضرب من الصلابة والعناد. لقد كانت في حالة تشبه الحمى مشوبة بالغضب والاهتياج.

ثم قالت: «اسمع يا فانيا، كن رجل خير واغرب الآن عن وجهي. إنك تزعجني...».

فنهضت من مقعدي ونظرت إليها في تعجب صامت، ثم صحت منزعجًا: «ولكن يا عزيزتي ناتاشا، ماذا ألمَّ بك؟ ماذا حدث؟».

«لا شيء، لم يحدث شيء، وستعرف غدًا كلّ شيء، أما الآن فدعني وحدي. أتسمع يا فانيا؟ من الخير أن تنصرف الآن في التو. إني لا أطيق، لا أطيق رؤيتك!».

«ولكن قولي لي على الأقل...».

«غدًا، غدًا تعرف كل شيء! آه يا ربي. أنت منصرف الآن؟ أليس كذلك؟».

فانصرفت وقد بلغ مني الغيظ والكمد مبلغًا جعلني لا أكاد أعرف ما أفعل، وتبعتني مافرا إلى الدرج.

وقالت تسألني: «يبدو أنها في غضب متفاقم؟ إنني صرت لا أجرؤ على الدنو منها».

«ولكن ماذا بها؟».

«أوه. إن لنا هذه المرة أيضًا ثلاثة أيام لم نلمح فيها رقعة وجهه» فقلت مرددًا كلمتها في دهش: «ثلاثة أيام؟ كيف؟ ولكنها أخبرتني أمس فقط أنه كان هنا في الصباح وأنه سيعود في المساء».

«حقًّا! يعود في المساء! إنه لم يكن هنا في الصباح البتة! وقد قلت لك إننا لم نره منذ ثلاثة أيام كاملة. أتقول إنها هي نفسها التي قالت لك إنه كان هنا في الصباح؟».

«هي نفسها».

فقالت وهي تكد ذهنها: «لا بد أن يكون الأمر قد أمضّها كثيرًا، إذ إنها لم ترد أن تعترف حتى لك أنت بأنه لم يكن هنا. يا له من غلام غرّ!».

«أجل، ولكن ماذا وراء كل ذلك؟».

فتابعت مافرا حديثها: «لست أدري، ولست أدري كذلك ماذا أصنع لها؟ لقد همّت أمس بأن تبعثني إليه، ولكنها عادت فردتني مرتين وأنا على وشك الذهاب، وها هي ذي اليوم لا تريد مطلقًا أن تبادلني الحديث. ليتك تستطيع أن تذهب إليه، فإنني لا أجسر على مفارقتها».

فنزلت في الدرج أعدو وأنا شارد اللبّ.

وهتفت بي مافرا تقول: «هل ستعود في العشيّة؟».

فأجبتها من أسفل السلم: «سأرى. وربما جئت إليك أنت وحدك لأستطلع منك الخبر، هذا إذا بقيت أنا على قيد الحياة».

والواقع أنني أحسست كأن شيئًا قد طعنني في سويداء قلبي.

الفصل العاشر

وقصدت إلى أليوشا لا ألوي على شيء. وكان يقيم عند والده في المورسكايا الصغير. وقد كان الأمير فالكوفسكي- مع أنه عزب- يقطن مسكنًا رحبًا جدًّا، يشغل أليوشا منه غرفتين كبيرتين، وقلما كنت أزوره هناك، بل لعلي لم أزره إلا مرة واحدة، أما هو فكان على نقيض ذلك كثيرًا ما يزورني، ولا سيما في بادئ الأمر، في أوائل عهد اتصاله بناتاشا.

ولم أجده في المنزل، فقصدت توًّا إلى غرفتيه وتركت له الأسطر التالية:

«هل فقدت صوابك يا أليوشا، بعد أن جاء والدك نفسه ورجا ناتاشا مساء الثلاثاء أن تمنحك شرف اقترانها بك، فبلغ منك السرور لذلك مبلغه، وهو ما كنت أنا نفسي شهيدًا عليه- لا بد أن تسلم أنت نفسك بأن مسلكك، والأمر كما ذكرت، على جانب كبير من الغرابة. أتدري ماذا يحل على ناتاشا بذلك؟ ومهما يكن من أمرك، فإني أرجو أن تذكرك رسالتي هذه بأن مسلكك إزاء قرينتك المستقبلة يبدو جافيًا، بل هو طائش إلى أقصى حد. إنني أعلم أنه ليس لي أدنى حق في أن أتلو عليك مواعظ اللاويين، بيد أن الأمرين لديّ سواء.

ملاحظة: «هي لا تدري شيئًا من أمر هذه الرسالة، ولم تحدثني عنك بكلمة واحدة».

وختمت الرسالة بالشمع ووضعتها على المنضدة. وقد أخبرني الخادم جوابًا عن سؤال لي بأن ألكساي بتروفتش لا يكاد يرى بالمنزل في هذه الأيام، وبأنه اليوم أيضًا لن يعود إلا في الهزيع الأخير من الليل، قبيل انبلاج الفجر.

وجررت نفسي في عناء إلى المنزل وقد دار رأسي وأعيت ساقاي وأخذتا ترتجفان، فألفيت باب المسكن مفتوحًا ونيكولاي سيرجيفتش إشمنيف في الداخل ينتظرني. وقد كان جالسًا إلى المنضدة يتأمل هيلينا صامتًا وقد بلغ منه الدهش مبلغه، وكانت هي أيضًا تنظر إليه في دهش لا يقل عن دهشه مع تشبثها بالصمت، فقلت في نفسي: «لا جرم إنه يجد الأمر عجيبًا».

وقال وهو يجيل نظره في الغرفة ويرنو إلى هيلينا من طرف خفي لا يكاد يلحظ: «حسن يا بني. هأنذا في انتظارك منذ ساعة كاملة، ولا بد من الاعتراف بأنني لم أكن أتوقع... أن أرى أنك...»، وكانت عيناه تنطقان بدهشته، بيد أني، حين أنعمت النظر فيه، تبينت أن القلق والهمّ ملكا عليه مشاعره. وكان وجهه أشد شحوبًا من المألوف.

ومضى يتكلم بملامح تفيض بالأسى، وتدل على أنه مشغول البال، فقال: «لقد قدمت إليك مسرعًا لأمر خطير. ولكن ماذا بك؟ إنك تلوح في حالة فظيعة!».

«لست على ما يرام. وبي دوّار منذ الصباح».

«لا يجدر بالمرء أن يغفل العناية بمثل هذه الأمور. لعلك قد أصبت ببرد؟».

«كلا، وإنما هي فورة أعصاب تعتريني بعض الأحيان. ولكن كيف حالك أنت؟».

«شكرًا، شكرًا. لست على ما يرام، ولكن لنعد إلى ما جئت من أجله. تعالى فاجلس».

فتناولت كرسيًّا وجلست إلى المنضدة بإزائه، فمال نحوي وشرع يقول بصوت خافت:

«لا تنظر إليها وكن كما لو كنا نتناقل الحديث عن شيء آخر. ما شأن هذه الضيفة التي عندك؟».

«سأجلو لك فيما بعد يا نيكولاي سيرجفيتش. إنها فتاة مسكينة يتيمة، هي حفيدة ذلك السميث الهرم الذي كان يقطن هنا وتوفي في محل الحلوى».

«ويحك! أكانت له حفيدة؟ آه يا بني، ولكنها مخلوقة عجيبة! ما أعجب ما تنظر إلى المرء، ثم لا تنفك شاخصة إليه. وأعترف بصراحة أنك لو أبطأت خمس دقائق أخرى لما أطقت البقاء بعد. إنني لم أستطع حملها على فتح الباب إلا بجهد جهيد، ومنذ ذلك الوقت لم تفه بكلمة واحدة، إنها تبدو مخيفة جدًّا، بل كأنها لم تكن من البشر مطلقًا، ولكن كيف اتفق لها أن أتت إلى هنا؟ آه، لقد فطنت الآن إلى الأمر. أغلب ظني

أنها قدمت للسؤال عن جدها، إذ لم تكن قد علمت بوفاته».

«أجل، وقد أحدث لها ذلك شقاء بالغًا وألمًا مرًّا. وقد تحدث جدها عنها وهو يجود بنفسه».

«آه! إن الحفيدة تنزع إلى جدها. ولكنك ستقص عليَّ ذلك كله فيما بعد، فقد يكون في الوسع مساعدتها بعض المساعدة بأي شيء من الأشياء ما دام هذا حظها من الشقاء والتعاسة.. والآن ألا تستطيع أن تطلب إليها أن تنصرف، إن لدي أمرًا مهمًّا أريد أن أشاورك فيه».

«كلا، إذ ليس لها مكان تمضي إليه. وهي تقيم عندي».

ووضحت له كل شيء في كلمات قليلة قدر ما استطعت، وزدت على ذلك أنه يستطيع أن يحدثني في حضرتها بكل شيء، فهي لا تزال طفلة بعد.

«أجل، لا ريب، فهي لا تزال طفلة، ولكنك تدهشني يا بني، أهي تقيم عندك؟ آه يا رب جل شأنك!».

ورمقها الشيخ مرة أخرى بنظرة تنمُّ عن التعجب والدهشة، وشعرت هيلينا أننا نتذاكر في أمرها، فجلست صامتة مطرقة تعبث بأناملها في زيق الأريكة، وقد كانت ترتدي ثوبها الجديد، وكان شعرها مصففًا بعناية أكثر من المألوف، وكان ذلك في الغالب احتفاءً بثوبها الجديد، وعلى الجملة، لو لم تكن لها تلك النظرات المتوحشة العجيبة، لجاز أن تعد طفلة جميلة.

واستأنف الشيخ كلامه فقال: «سأنبئك يا بني في صراحة وإيجاز بما

يتعلق بهذا الأمر، وإنها لقصة طويلة، ومسألة خطيرة....».

وجلس مطرقًا تبدو على وجهه سيما الرزانة والاهتمام، ولم يستطع على ما هو به من عجلة ورغبة في أن يفضي إليَّ بكل شيء «في صراحة وإيجاز» أن يجد كلمة واحدة يبدأ بها حديثه، فجعلت أفكر ما عسى أن يريد؟

«أتدري يا فانيا. لقد جئت أرجوك في أمر عظيم، على أنه لا بد لي قبل الحديث فيه... وهذا ما أراه أنا نفسي الآن، لا بد أن أوضح لك بعض الأحوال والملابسات... أحوال وملابسات دقيقة محرجة».

وسعل ورنا إليَّ واحمرّ وجهه، احمرّ وجهه وتسلط عليه الغضب لما يبدو منه من غلظة وخرق، تسلط عليه الغضب واستمرت مريرته فجأة فقال:

«والآن ماذا عسى أن أزيدك من الإيضاح. إنك ستفهم من تلقاء نفسك فأنا- بكل إيجاز- أريد أن أدعو الأمير فالكوفسكي للمبارزة، وأسألك أن تقوم بهذه الدعوة عني وأن تكون شاهدي.

فاستلقيت في كرسي وحملقت فيه وأنا لا أملك نفسي من الذهول.

«لِمَ تحملق فيَّ هذه الحملقة؟ إنني لم أفقد صوابي بعد».

«ولكن استمع لي يا نيكولاي سيرجيفتش. ما حجتك وما غرضك؟ وكيف يكون ذلك الآن...».

فصاح الشيخ: «ما حجتي وما غرضي؟ عجيب وأيم الله!».

«حسن حسن. إني أعلم ما تريد أن تقول. ولكن ماذا عسى أن تجدي

عليك هذه الخطوة؟ هل ترى في هذه المبارزة مخرجًا من ضيق؟ أعترف أني لست أفهم ذلك».

«كنت على علم بأنك لا تفهم، فأصغ إليَّ. لقد صارت قضيتنا إلى نهايتها (أعني أنها ستنتهي في هذه الأيام، ولم يبق منها إلا بعض إجراءات جوفاء شكلية). وقد صدر الحكم فيها عليَّ، فعليَّ أن أدفع عشرة آلاف روبل. بهذا قضى الحكم.

ولقد كانوا أوقعوا الحجر في خلال ذلك على إشمنيفكا، وبذلك اطمأن الوغد إلى أنه سيستوفي ماله. أما أنا فإني حين أتخلى له عن إشمنيفكا أكون قد عوضته مما لحقه من ضر، فأصبحت من جديد رجلًا حرًّا أستطيع أن أرفع الرأس عاليًا وأقول له: الآن أيها الأمير المبجل: لقد ظللت عامين كاملين تهينني وتضع من قدري وتلوّث بالأقذار شرفي، وكنت مرغمًا أن أصبر على ذلك، إذ لم يكن في وسعي أن أدعوك للمبارزة خشية أن تجبهني بقولك: «أيها الخبُّ، إنك تريد قتلي لتتهرب من دفع مالي، وأنت تعلم علم اليقين أن سيحكم عليك بتأديته عاجلًا أو آجلًا. لا يا عزيزي، فلننظر أولًا إلام تؤول إليه القضية، ثم نتبارز». أما الآن أيها الأمير المبجل وقد فصل في القضية وحكم لك بمطلبك وتوثقت من حقك، فلم يبق بيننا من عائق، وإذن فأرجوك أن تتفضل فتلاقيني عند السياج! تلك جلية الأمر. أم ترى أنه ليس من حقي أن أثأر الآن لنفسي ولكل شيء؟».

وومضت عيناه، فلبثت طويلًا أنظر إليه صامتًا، محاولًا أن أكشف عما يجول بنفسه من أفكار خفية.

وأجبته في النهاية معتزمًا أن أواجهه بالقول الفصل، إذ لا سبيل إلى التفاهم غيره: «استمع يا نيكولاي سيرجفيتش، أتود أن تكون صريحًا معي كل الصراحة؟».

فأجاب مؤكدًا: «لا ريب».

«إذن خبرني في صراحة تامة. أحب الانتقام وحده هو الذي يحفزك إلى هذه الدعوة، أم ثمة غرض آخر ترمي إليه؟».

فأجاب قائلًا: «أنت تعلم أن ثمة موضعًا لا أسمح أن يمسه أحد في حديثه معي، ولكني أراني الآن مضطرًا إلى أن أستثنيك من تلك القاعدة هذه المرة؛ لأنك قد فطنت في الحال ببصيرتك الثاقبة إلى أن هذا الموضع ليس مما يمكن تجنبه. أجل إن ثمة غرضًا آخر أرمي إليه، وهذا الغرض هو إنقاذ ابنتي الضالة والابتعاد بها عن تلك السبيل المشئومة التي دفعتها إليها الحوادث الأخيرة».

«ولكن كيف يمكن أن تنقذها بالمبارزة؟ هذا هو السؤال».

«بإحباط كل ما يدبرونه من مؤامرات. استمع إليّ: يجب ألا تتوهم أن الحنان الأبوي أو غيره من ضروب الضعف هو الذي يحركني وينطق فيّ كل ذلك باطل، فإن ما أحسه في قرارة نفسي لست أطلع عليه أحدًا، بل إنك أنت نفسك لا تعلمه. لقد غادرتني ابنتي وهجرت بيتي مع عشيقها، فمحوتها من قلبي إلى الأبد، محوتها من قلبي منذ ذلك المساء نفسه، وأنت تذكر ذلك، فإذا كنت رأيتني أسكب الدمع على صورتها، فلا تتخذ من ذلك دليلًا على أني سأغتفر لها، كما أني لم أغتفر

لها في ذلك الحين، فقد كنت أبكي سعادة ولَّت وحلمًا تبدد، ولم أكن أبكيها هي وهي في حالتها هذه. سأبكي في الأغلب لا محالة، ولست أخجل مطلقًا من أن أعترف بذلك، كما أنني لن أحس بخجل مطلقًا من الاعتراف بأنني قد أحببت طفلتي فيما مضى أكثر من كل ما على وجه البسيطة. وقد يبدو ذلك متنافرًا مع خطوتي الراهنة. قد تستطيع أن تقول: إذا كان الأمر كذلك حقًّا، وإذا كنت حقًّا لا يعنيك مصير تلك التي صرت لا تعترف ببنوتها لك، فلم تزج بنفسك فيما يدبرونه هناك؟ وهاك جوابي: إنني أفعل ذلك أولًا لأنني أريد ألا أدع ذلك الوغد الدنيء يظفر بالنصر، وثانيًا لأنني مدفوع إلى ذلك بشعور إنساني محض، فهي وإن كانت الآن ليست ابنتي، ولا تزال مخلوقة ضعيفة لا ناصر لها، خدعوها وما زالوا يخدعونها ويغررون بها، حتى يلقوا بها أخيرًا إلى مهاوي التعاسة والشقاء. وإني لأكره أن ألج الأمر مباشرة، وأوثر أن أعالجه من طريق غير مباشرة، وهذا ما تيسره لي المبارزة، فإذا ما قتلت أو أريق دمي، كان لها إن شاءت أن تمر بسياجنا، أو لعلها تخطو فوق جثتي إلى محراب الزواج مع ابن قاتلي، كما فعلت تلك الفتاة ابنة القيصر (ألا تذكر ذلك الكتيب الذي كان في منزلنا، والذي تعلمت أنت فيه القراءة؟) تلك الفتاة التي مرت بمركبة العرس فوق جثمان والدها. وإذا صار الأمر إلى المبارزة فعلًا، فسيرغب الأمير وابنه أنفسهما عن هذا الزواج، وفي كلمة واحدة. إنني راغب عن هذه الصلة، ولن أدخر جهدًا من أجل فصمها. أفهمتني الآن؟».

«كلا، فإن كنت تريد حقًّا صلاح ناتاشا، فكيف يمكن أن تزمع

إحباط هذا القران، وهو الشيء الوحيد الذي يرد إليها طهارة اسمها؟ إن الحياة لا تزال طويلة أمامها، وإنها في مسيس الحاجة إلى أن يكون اسمها طاهرًا مجيدًا».

«إنني أبصق على حكم المجتمع وآراء الآخرين، وعلى هذا النحو يجب أن تفكر هي أيضًا! ولتعلم أن أكبر ما يلحقها من العار إنما هو هذا القران نفسه، هذا الاتصال الوثيق العرى بأولئك الأخسَّاء، وبكل هذا المجتمع الأرستقراطي التافه. وخير ما ترد به على ذلك المجتمع هو الكبرياء النبيلة! فإن فعلت فقد أستطيع أن أمد إليها يدي، وسنرى حينئذ من ذا يجسر على أن يثلب طفلتي! ويلوّث سمعتها».

ولقد أثارت هذه المثالية الوطيدة دهشتي، ولكني فطنت في الحال إلى أن الغضب قد خرج به عن طوره فصار يتكلم كالمحموم.

فأجبته: «هذا الرأي مثالي بعض الشيء، ولهذا كان قاسيًا جائرًا. إنك تطلب منها قوة لعلك لم تهبها لها عند الولادة. أفترى أنها لا ترغب في هذا القران إلا لتصبح أميرة؟ كلا، وإنما هو الحب، إنما هو الهوى، إنما هو القدر. ثم إنك تطالبها ألا تحفل بحكم المجتمع، في حين أنك أنت نفسك تطأطئ رأسك لهذا الحكم! لقد أهانك الأمير ورماك على رؤوس الملأ بالتهمة الشائنة: وهي أنك تحتال بالمكر والخديعة لترتبط ببيته الأميري، ومن ثم صرت تفكر الآن على هذا النحو. لئن رفضت ناتاشا هذا القران بعد أن عرضوه رسميًّا، ليكونن في ذلك ولا ريب أقوى تفنيد، وأبين نقص لكل ما شاع وذاع من الأراجيف، فأنت تقدر رأي الأمير وتحفل به، وتبغي أن تتمكن على أي نحو من أن تجعله يقتنع بخطئه.

أنت تتوق إلى أن تتخذ منه هدفًا لسخريتك وأن تثأر منه لنفسك، ومن أجل ذلك تضحي بهناءة ابنتك، أفليس ذلك ضربًا من الأثرة البيّنة؟».

فجلس الشيخ مقطبًا كالحًا، ولبث طويلًا لا ينبس بكلمة، وقال في النهاية وقد نُدِّي هدباه: «إنك لم تنصفني يا فانيا. أقسم أنك لم تنصفني. ولكن لندع هذا، فلست أستطيع أن أنفض إليك كل مكنونات قلبي» وتابع حديثه بعد أن نهض فأمسك بقبعته، وقال: «ولكن ثمة شيئًا أقوله لك. لقد ذكرت في حديثك الآن هناءة ابنتي. إنني لا أومن مثقال ذرة بهذه الهناءة، وذلك بغض النظر عن أن هذا القران، لن يقع أبدًا ولو لم أدخل أنا في شأنه».

فصحت به وقد اشتد بي الفضول: «ماذا تقول؟ لم تظن ذلك؟ لعلك قد عثرت على معلومات في هذا الصدد؟».

«كلا، فليس لديَّ معلومات خاصة، ولكن هذا الثعلب اللعين لن تطاوعه نفسه أن يقدم على مثل هذا الأمر، لا! كل ذلك لغو، كله مكر وخداع، وإني مقتنع بذلك اقتناعًا لا يتطرق إليه الشك، فاجعل كلماتي هذه في وعيك لتذكرها عندما يصير الأمر إلى ما أقول. على أنه لو حدث أن وقع هذا القران حقًّا، أعني إذا كان لدى هذا الفسل الدنيء أغراض خاصة خفية لا يعلمها أحد، تجعله يرى في هذا القران مصلحة له- وإنها لأغراض تحيرني كلما حاولت استشفافها واستجلاءها- فقل لي أنت، سل أنت قلبك: هل من الممكن أن يسبغ هذا القران على ابنتي شيئًا من السعادة؟ ولا تنس ما يوجه إليها من تعيير ولوم وإذلال، بوصف أنها قرينة غلام غر، أصبح منذ الآن يتبرم بها ويجد صلتها به عبئًا يؤوده ويثقل

كاهله، فإذا ما اقترن بها أضحى، منذ اقترانه بها، لا يباليها ولا يعبأ بها، بل سيسارع إلى تحقيرها وإهانتها. أما هي فستصبح بإزائه على النقيض من ذلك، إذ لا بد أن يطرد هيامها وآلامها قوة ونموًّا بقدر ما يطردان عنده فتورًا ونقصانًا. هذا فضلًا عن الغيرة وعذاب تلك الحياة وجحيمها، وربما كان من وراء ذلك الطلاق أيضًا، بل الجريمة نفسها... لا يا فانيا، لئن كنتم تعملون جميعًا لهذه الغاية، وكانت لك يد في ذلك، فليحاسبك الله على ذلك ذات يوم، على أن ذلك سيكون بعد فوات الأوان».

فاستوقفته:

«أصغ إليَّ يا نيكولاي سيرجيفتش. لنتفق على أن نتخذ الخطة الآتية: نتريث أولًا فترة قصيرة، وكن على ثقة أني لن أقف من هذه المسألة موقف المشاهد المتفرج، ولعل الأمور تصلح من تلقاء نفسها دون الالتجاء إلى العنف، ودون التدخل المتكلف بمثل هذه المبارزة، وإن الزمن لأعدل الحاكمين. وأريد أن أقول لك إن خطتك تبدو لي غير صالحة للتنفيذ، فهل يمكن أن يجول بخلدك، ولو لحظة، أن يلبي الأمير دعوتك إلى المبارزة؟».

«ولم لا يلبيها؟ ماذا تتوهم؟».

«أقسم لك أغلظ الأيمان أنه لن يلبيها، وصدقني إذا قلت لك: إنك تتيح له بعملك هذا خير فرصة يلقاك فيها بعنجهية مصطنعة، فتكون قد جعلت نفسك مثارًا للسخرية والاستهزاء...».

«حسبك يا فانيا، أرجوك! إنك تذهلني بكلماتك! ولِمَ يمتنع من

تلبية هذه الدعوة؟ كلا يا فانيا، إنما أنت حالم! إنما أنت شاعر، فهل ترى بدعًا منه أن يبارزني؟ إنني لست دونه، فأنا شيخ هرم ووالد مهان، وأنت مؤلف روسي، فأنت أيضًا شخص مبجل، ولك من مكانتك ما يجعل لك الحق في أن تكون شاهدًا و.... و... ولست أعلم ماذا تنتظر أكثر من ذلك؟».

«سترى بنفسك، وسيحتجّ عليك بأنك أنت نفسك، أنت قبل غيرك ترى أن المبارزة بينك وبينه مستحيلة».

«إيه... حسنًا يا صديقي، سأكون عند رأيك، سأنتظر، ولكن فترة قصيرة، وسنرى ماذا يستطيع الزمن أن يفعل. بقيت مسألة أخرى يا بني، عدني بشرفك ألا تذكر من هذا الحديث كلمة واحدة، لا هناك ولا عند أنّا أندريفنا».

«أعدك بشرفي».

«ومسألة ثانية يا فانيا. أرجوك ألا تكلمني في هذا الأمر ثانية».

«حسن أعدك بذلك أيضًا».

«وثمة رجاء أيضًا. أعلم يا بني أنك تشعر عندنا بالسأم والشجر، ومع ذلك أرجو أن تختلف إلينا قدر ما تستطيع، فإن أنّا أندريفنا المسكينة قد كلفت بك.... و... وهي دائمًا تتوق إلى رؤيتك... أتفهم ما أريد قوله يا فانيا؟».

وضغط يدي، فوعدته بذلك مخلصًا.

«والآن يا فانيا، إليك المسألة الأخيرة، وإنها لمسألة يثقل عليَّ

الخوض فيها. ألديك مال؟».

فقلت دهشًا: «مال؟».

«أجل (واحمر وجه الشيخ وغض من بصره)، فإني عندما أرى مسكنك... وحالتك بوجه عام... وعندما أفكر في أنك تعوزك نفقات أخرى (ولا سيما في هذه الأيام) أرى... هاك يا بني خمسين ومائة روبل دفعة أولى...».

«دفعة أولى، وعقب أن خسرت القضية!».

«أرى أنك لم تفهمني يا فانيا، فقد تكون مضطرًا إلى قضاء حاجات طارئة، أتفهم؟ والمرء يحتاج إلى المال في أحوال خاصة ليتسنى له أن يحيا حياة مستقلة، وليطمئن إلى أن يكون حرًّا في البت فيما يعرض له من أمور. وقد لا تكون في حاجة إليه الآن، ولكنك قد تحتاج إليه فيما بعد. ومهما يكن من شيء، فإني أود الآن أن أدعه لك، وهو كل ما استطعت أن أحضره، فإن لم تعرض لك حاجة إليه، فمن الميسور أن تردّه إليَّ. أما الآن فوداعًا. يا ألله! ما أشد ما عراك من شحوب، إنك تبدو سقيمًا جدًّا...».

وأخذت المال دون إبطاء، فقد كان سبب إعطائه إياي واضحًا جليًّا.

وأجبته: «لا أكاد أقوى على أن أقف على قدمي».

«يجب عليك أن تعتني بنفسك يا عزيزي فانيا! لا تبرح مسكنك اليوم، وسأخبر أنّا أندريفنا بحالتك. ألست في حاجة إلى دكتور؟ سأعودك غدًا، أو على الأقل سأحاول ذلك جهدي إذا ظللت أنا نفسي

معافٍ، قادرًا على الوقوف على قدمي. أما الآن فيجدر بك أن ترقد... والآن وداعًا. وداعًا أيتها الصغيرة. إنها توليني ظهرها. اسمع يا بني، هاك خمسة روبلات أخرى لهذه الطفلة، على ألا تخبرها بأني أنا الذي أعطيتك إياها، بل أنفقها فيما يلزمها من حاجات.. ابتع لها حذاء أو شعارًا... فهي تنقصها أشياء كثيرة... وداعًا يا عزيزي...».

وشيعته حتى باب الدار، إذ كنت أرغب في تكليف البواب إحضار شيء من الطعام؛ لأن هيلينا لم تكن قد طعمت شيئًا بعد.

* * *

الفصل الحادي عشر

وما كدت أعود إلى مسكني حتى أخذت الأشياء تدور أمام عينيّ فهويت في وسط الغرفة، ولم أع شيئًا مما حدث، إلا أن هيلينا صرخت وقد شبكت أصابعها بعضها في بعض ثم خفت لتسعفني، وكانت تلك آخر لحظة أذكرها، إذ فقدت وعيي بعدها.

فلما أفقت من غشيتي ألفيت نفسي ممدَّدًا على السرير. وقد قصت عليَّ هيلينا، فيما بعد، أنها حملتني فأضجعتني على الفراش يعاونها في ذلك البواب، وكان قد جاء في تلك اللحظة يحمل الطعام. وقد استيقظت عدة مرات، فكنت ألمحها في كل مرة منحية عليَّ والكآبة والانزعاج باديان على وجهها، وكنت أرى كل ذلك كأنه حلم حالم، أو كأن ثمة ضباب منتشر يبدو من خلاله في لمحات سريعة بين الحين والحين، في الفترات التي كان يعاودني فيها وعيي، قوام الفتاة المسكينة المحبوب، إذ كانت تقدم إليَّ شيئًا من الشراب، أو تسوي الوسائد تحت رأسي، أو تجلس إلى جانبي حزينة جزعة، تمسح بأصابعها الصغيرة على شعري. وأحسست مرة أنها تقبلني في جبيني قبلة خفيفة رقيقة. واستيقظت مرة أخرى على حين فجأة وقد خفق الليل، فأبصرتها على ضوء الشمعة التي

كانت فوق منضدة إلى جوار الأريكة، تهوم في نوم قلق، وقد وضعت رأسها على وسادتي، وجعلت يدها تحت خدها المتقد، وانفرجت شفتاها الشاحبتان بعض الشيء، وارتسم على وجهها ظل من الروع. وفي هذه الليلة لم يثب إليَّ رشدي تمامًا إلا قرب الصباح. وكانت الشمعة قد احترقت كلها، وسطع على الجدار شعاع وردي متألق من أشعة الشمس، التي كانت قد بدأت تشرق. كانت هيلينا جالسة على المقعد بجوار المنضدة مستغرقة في نوم عميق. وأذكر أني لم أشف غلتي من اجتلاء طلعة الطفلة الصغيرة، التي كانت ترتسم عليها، حتى في حالة النوم، تعبيرات حزينة غير طفلية تضفي عليها جمالًا غريبًا مثيرًا للألم، ذلك الوجه الصغير الشاحب الذي يسترعي النظر بما فيه من هدبين طويلين حريريين فوق خدين ناحلين محاطين بشعر أسود فاحم غزير مهوش معقوص، وفي غير اعتناء على هيئة عقدة في جانب رأسها. أما ساعدها الآخر فقد وضعته فوق وسادتي، فلثمت في رفق بالغ يدها الصغيرة النحيلة، ولم تستيقظ الطفلة، بيد أنها ارتسمت على شفتيها الشاحبتين ابتسامة غير واضحة. وأخذت أطيل إليها النظر، وأطيله ثم استغرقت أنا أيضًا في نوم هادئ فيه راحة وعافية. وقد واصلت نومي هذه المرة حتى الضحى، وعندما فتحت عيني أحسست بالعافية قد عاودتني، ولم يبق من أثر لمرض أمس إلا شيء من الفتور والإعياء مع ثقل في الأطراف. لقد سبق أن أصبت بنوبات عصبية فجائية مثل هذه النوبة، فهي إذن لم تكن بمجهولة لدي، فأنا أعرفها، وأعرف أن أثرها يزول قبل أربع وعشرين ساعة، وإن كانت أعراضها قد جاءت هذه المرة أشد وطأة وأكثر عنفًا.

كان الوقت ضحى، وكان أول ما وقع عليه بصري ذلك الستار الذي ابتعته أمس وقد نيط بخيط مشدود، ذلك أن هيلينا كانت قد نسقته تنسيقًا، فجعلته على ركن من أركان الغرفة، وأنشأت بذلك ما يشبه غرفة خاصة بها. وكانت جالسة أمام المدفأة تهيئ الشاي، فلما رأتني قد استيقظت أشرق وجهها بالبشر وأقبلت عليَّ.

فتناولت يدها قائلًا: «طفلتي العزيزة، لقد بت الليل كله ساهرة للعناية بي. لم أكن أعلم أنك تستطيعين أن تكوني خيرة إلى هذا الحد!».

فسألتني وهي تنظر إليَّ في خفر وخبث مستعذب: «وأنّى عرفت ذلك! فلعلني أكون قد نمت طول الليل؟» ولكنها سرعان ما عراها الارتباك واحمر وجهها خجلًا مما قالت.

«لقد استيقظت عدة مرات ورأيت كل شيء، فأنت لم تغفي إلا مطلع الفجر...».

فاقتضبت الحديث سائلة: «أتريد شايًا؟» كأنما كانت تشق عليها متابعة الحديث، شأن ذوي الطبائع الرقيقة والنفوس الكريمة، عندما توجه إليهم عبارات الثناء والإطراء.

فأجبت: «أجل، وهل تناولتِ أنت غداءك بالأمس؟».

فقالت وهي تناولني الشاي: «لم أتناول طعامًا في الظهيرة، ولكني تناولته في العشية، وقد أتى به البواب. على أنه يحسن بك ألا تكثر من الكلام على هذا النحو، بل عليك أن تظل راقدًا في هدوء حتى يتم شفاؤك» وجلست على حافة فراشي.

«أظل راقدًا! لم يكن ينقصني إلا هذا. حسن، سأظل راقدًا حتى يجن الليل، ولكني مضطر إلى الخروج بعد ذلك، لا مناص لي من الخروج اليوم يا لنوتشكا».

«أأنت مضطر حقًّا؟ وإلى من ستذهب؟ أإلى ذلك الهرم الذي كان هنا أمس؟».

«كلا ليس إليه».

«يسرني أنك غير ذاهب إليه، فإنه قد هاجك أمس، وأثار فيك الاضطراب. لعلك ذاهب إذن إلى ابنته؟».

«ومن أين علمت أن له ابنة؟».

فأجابت: «لقد سمعت أمس كل شيء» وطأطأت رأسها وتجهم وجهها وتغضن حاجباها.

ثم استطردت تقول: «إنه هرم شرير».

«ومن أين علمت ذلك؟ إنه- على النقيض مما تظنين تمامًا- رجل خيِّر للغاية».

فقالت في حميّة وحرارة: «لا، لا، بل هو رديء. وقد سمعت....».

«سمعت ماذا؟».

«إنه لا يريد أن يصفح عن ابنته....».

«ولكنه ما زال يحبها، وقد أساءت هي في سلوكها نحوه، على أنه لا يزال يهتم لأمرها ويتعذب من أجلها».

«ولم لا يصفح عنها ويغفر لها؟ نعم لو أنه لم يصفح عنها إلا الآن فقط، لما كان لها أن تمضي إليه».

«وكيف ذلك؟ ولم لا تمضي إليه!».

فأجابت في حمية وألم: «لأنه غير جدير بحبها. ينبغي أن تهجره إلى الأبد، ولخير لها أن تعيش من التسول. وليشهد بعد ذلك ابنته وهي تتسول فيمتلئ قلبه بالتعاسة».

والتمعت حدقتاها واتقد خداها فقلت في نفسي: «لا شك أن لديها ما يبعثها على أن تقول مثل هذا القول».

واستأنفت حديثها بعد أن صمتت هنيهة، فقالت: «وإلى منزل هذا الرجل كنت تريد أن تذهب بي؟».

«أجل يا هيلينا».

«كلّا. وخير لي أن أكون خادمًا».

«ما أسخف ما تقولين يا لنوتشكا، إنه ضرب من اللغو، لا أكثر. ومن ذا الذي يرضاك خادمًا عنده؟».

فأجابت دون تريث، وقد بدا عليها الاهتياج وأخذ وجهها يتجهم من الكمد: «أي فلاح».

فقلت ضاحكًا: «الفلاح لا يحتاج إلى فتاة مثلك تشتغل عنده».

«إذن فإني ألتحق بخدمة إحدى الأسر الرفيعة».

«أتريدين الخدمة عند إحدى الأسر الرفيعة ولك هذا الخُلق؟».

«أجل، ولي هذا الخُلق».

وكانت كلما ازدادت نفسها اضطرابًا ازدادت أجوبتها خشونة.

«ولكنك لن تحتملي ذلك طويلًا».

«بل أحتمله، وإذا زجروني وشتموني فسأصمت. فإذا ضربوني فسأصمت أيضًا، سأصمت دائمًا، ومهما ضربوني فلن أبكي أبدًا. وسيخرجهم ذلك عن طورهم فينهالون عليَّ ضربًا، ومع ذلك لن أبكي».

«ولكن ما أشد ما أفعمت المرارة نفسك يا هيلينا وما أعظم كبرياءك! لا بد أن تكوني قد قاسيت الأمرين وبلوت متاعب كثيرة...».

ونهضت فقصدت إلى منضدتي الكبيرة، ولبثت هيلينا جالسة على الأريكة مطرقة تفكر وتتأمل، وأصابعها تعبث بزيق الأريكة، وقد لزمت الصمت، فساءلت نفسي: أتراها قد أغضبتها كلماتي؟

وبينا أنا إلى جوار المنضدة، فتحت بحركة آلية أحد الكتب التي جئت بها أمس، للرجوع إليها في كتابة البحث الذي سيكون بين بحوث المؤلف الجامع، وأخذت أتعمق في قراءته شيئًا فشيئًا. وكثيرًا ما يقع لي أن أتناول كتابًا فأفتحه بقصد الاطلاع لحظة قصيرة على موضع ما، فإذا بي أسترسل في القراءة وأتمادى حتى أنسى كل ما حولي.

وسألت هيلينا وهي تبتسم خجلًا: «ما هذا الذي لا تفتأ تكتبه؟» وخطت نحو المنضدة في شيء من الخفة والحذر.

«أشياء شتى يا لنوتشكا، أتناول عليها مالًا».

«رقاع التماسات؟».

«كلا، ليست رقاع التماسات».

وأبنت لها بكل ما أمكنني من الإبانة إني أكتب أخبارًا ووقائع مختلفة عن أناس شتى، فينتج من ذلك كتب يدعوها الناس قصصًا، وكانت تصغي إليَّ في انتباه قوي.

«وهل ما تكتبه حقائق؟».

«لا، بل هي قصص أبتدعها».

«ولم تكتبها وهي لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة؟».

«اقرئي هذا الكتاب تفهمي ذلك، لقد رأيتك تتصفحينه مرة، وأنت بالبديهة تستطيعين القراءة. ألست تستطيعينها؟».

«بلى».

«حسن. إذن فسترين بنفسك. وهذا الكتاب من وضعي أنا».

«أنت! إذن فسأقرأه».

وبدت كأنها تريد أن تقول لي شيئًا، بيد أنها لم تفه بشيء. وكانت شديدة الاضطراب، لقد كان هنالك شيء كامن وراء أسئلتها جميعًا.

وسألت في النهاية: «وهل تتناول في مقابل ذلك مالًا كثيرًا؟».

«ذلك تابع للأحوال، فتارة يكون كثيرًا وطورًا لا شيء مطلقًا، وذلك حين لا أوفق لإنتاج شيء. وإنه عمل شاق جدًّا يا لنوتشكا».

«إذن فلست بموسر؟».

«أجل لست بموسر».

«إذن فسأعمل وأساعدك».

واختلست نظرة سريعة إليَّ، واحمر وجهها ثم أغمضت عينيها، ثم إذا بها قد خطت نحوي خطوتين، وطوقت عنقي بذراعيها ودفعت وجهها بشدة نحو صدري، فنظرت إليها مشدوها.

وصرخت: «إني أحبك... إني لست متكبرة البتة.. لقد قلت أمس إني ذات كبرياء، كلا، كلا.. فلست كذلك... إني أحبك. أنت وحدك الذي تبغي خيري وصلاحي».

غير أن الدموع خنقت صوتها، وسرعان ما علا نشيجها واشتد حتى صار مثل ما كان منها في نوبة أمس، فخرت جاثية بين يدي، وطفقت تقبّل يديّ وقدميّ!...

وعادت تقول: «أنت تبغي خيري وصلاحي، أنت وحدك، أنت دون غيرك!...».

وظلت تحتضن ساقيّ في تشنج وانفعال، ثم إذا بعواطفها التي ظلت تكبتها ردحًا طويلًا من الوقت، قد انفجرت فجأة بقوة لا تقاوم، ففهمت الآن سر هذه الصلابة العجيبة والعناد الغريب من قلب ظل طويلًا يكظم شعوره، ويمعن في كظمه ويغالي في الإصرار على ذلك، كلما قويت رغبته في الإعراب عن شعوره ونفض ما فيه، حتى حان الحين الذي لم يكن من المستطاع فيه حبس الانفجار فنسيت نفسها، واستسلمت للحنين إلى الحب وإلى الاعتراف بالجميل وإلى الحنان وسكب الدموع...

وظلت تنشج إلى أن عراها التشنج، ولم أخلص من ذراعيها اللتين

طوقت بهما ساقيّ إلا بجهد، فأنهضتها وحملتها إلى الأريكة، فظلت تنشج وتنشج مواراة وجهها في الوسادة كأنها تخجل أن تنظر إليَّ، وقبضت بيدها الصغيرة على يدي لا تريد فكاكها، وضغطتها طويلًا إلى قلبها.

وأخذ الهدوء يعود إليها في النهاية، بيد أنها ظلت لا ترفع إليَّ وجهها واسترقت نظرتين سريعتين إليَّ مفعمتين رقة وحنانًا، وبدا عليها الخجل، كما لو كانت تحاول من جديد أن تخفي عني شعورها، ثم عاد الاحمرار يغشي وجهها وابتسمت.

فسألتها: «أأنت الآن أكثر راحة وأهدأ نفسًا يا لنوتشكاي الصغيرة المرهفة الحس، يا طفلتي المسكينة المريضة؟».

فهمست وهي لا تزال تستر عني وجهها: «لا تدعني لينوتشكا، كلا...».

«لِمَ لا أدعوك لينوتشكا؟ ماذا إذن؟».

«نلي».

«نلي؟ ولِمَ نلي؟ لا بأس فهو اسم قد بلغ الغاية في الرقة، وسأدعوك به إذ كنت تحبينه».

«بذلك كانت تناديني أمي... هي وحدها دون غيرها... ولذلك لم أسمح أنا لأحد أن يناديني به... أما أنت فينبغي أن تدعوني به، هذا ما أريده... وسأحبك دائمًا، دائمًا أبدًا...».

فقلت في نفسي: «يا له من قلب صغير خليق بأن يحب، شديد

الكبرياء! وما أكثر ما بذلت من الجهد حتى حق لي أن أدعوك نلي» بيد أني عرفت الآن أيضًا أنها منحتني قلبها إلى الأبد.

وسألتها عندما عاد إليها الهدوء: «أصغي إليَّ يا نلي، لقد قلت الآن إنه لم يحبك أحد غير أمك، ألم يكن جدك يحببك؟».

«كلّا».

«ولكنك بكيته إذ ذاك، أتذكرين؟ على السلم».

فتأملت هنيهة ثم قالت:

«كلا، فهو لم يحببني قط... لقد كان طالحًا خبيثًا».

وارتسم على وجهها ظل من الألم.

«ولكن لم يكن للمرء أن يرجو منه الشيء الكثير، إذ كان قد بلغ من الكبر حد الخرف، وأغلب الظن أنه كان قبيل وفاته قد فقد صوابه تمامًا، وقد أنبأتك بحاله حين حضرته الوفاة».

«أجل، بيد أنه لم يفقد ذاكرته إلا في الشهر الأخير، وقد كان يجلس هنا طول النهار في بعض الأيام، فلو أني انقطعت عن المجيء إليه لظل جالسًا هنا يومًا وثانيًا وثالثًا دون أن يطعم أو يشرب. لقد كان فيما مضى خيرًا من ذلك».

«متى كان ذلك؟».

«قبل أن تموت والدتي».

«وإذن فقد كنت أنت يا نلي التي تضطلعين بطعامه وشرابه؟».

«أجل كنت أضطلع بذلك».

«ومن أين كنت تجيئينه بهما؟ من البوبنوفا؟».

«كلّا، فإني لم آخذ منها شيئًا قط».

«فمن أين إذن كنت تجيئين بهما، ولم يكن لديك شيء؟».

فصمتت وعلا وجهها الشحوب وأخذت تحدق إليَّ فترة طويلة، ثم قالت:

«لقد كنت أسعى في الطرقات أتكفف السابلة... حتى إذا ما تجمع معي خمس كوبيكات، اشتريت له بها خبزًا ونشوقًا...».

«وقد سمح هو بذلك! نلي، نلي!».

«كنت في بادئ الأمر أفعل ذلك من تلقاء نفسي دون أن أخبره بجلية الأمر، فلما علم بذلك أخذ هو نفسه يستحثني عليه. وكنت أقصد دائمًا إلى الجسر أستجدي العابرة، وكان هو يقف منتظرًا على كثب مني، حتى إذا ما آنس أني أصبت شيئًا من النقود انقض عليَّ مسرعًا ولقفه مني، كأني كنت أحاول إخفاءه عنه، وكأني لم أكن أتكفف من أجله».

وابتسمت عندئذ ابتسامة تفيض تهكمًا ومرارة.

ثم تابعت حديثها فقالت: «ولكن ذلك كله لم يكن إلا بعد وفاة والدتي، فقد صار بعد وفاتها كما لو كان قد فارقه رشده».

«إذن فلا بد أنه كان يحب والدتك كثيرًا؟ فلم إذن كان يقطن بعيدًا عنها؟».

فقالت بصوت خافت يكاد يكون همسًا: «كلا، لم يكن يحبها البتة... لقد كان طالحًا فلم يغتفر لها... مثله في ذلك مثل الهرم الذي كان هنا بالأمس، تمامًا» وأخذ وجهها يشحب ويشحب.

فتمشت في جسمي رعدة، وأخذت ترتسم في ذهني خيوط متشابكة لمأساة قصصية: تلك المرأة المسكينة التي لقيت حتفها في القبو عند صانع التوابيت. ابنتها وهي يتيمة تقوم على إطعام جدها الذي صب لعنته على أمها، يضاف إلى ذلك الرجل الهرم العجيب الضعيف العقل الذي مات عقب موت كلبه في محل الحلواء!..

وقالت نلي بغتة: «لقد كان أزركا فيما سلف كلب والدتي» وابتسمت لهذه الذكرى، ثم تابعت كلامها قائلة وقد اختفت الابتسامة من ملامحها: «وكان جدي فيما مضى من الأيام يحب والدتي حبًّا جمًّا، فلما هجرته لم تترك له غير أزركا، وهذا مبعث حبه الشديد له... فهو لم يصفح عن والدتي، ولكنه لما مات الكلب مات هو أيضًا».

وسألتها بعد هنيهة: «وماذا كان شأنه في سابق عهده وماضي أيامه؟».

فأجابت: «لقد كان فيما مضى واسع الثراء... بيد أني لا أعلم على التحقيق ماذا كان يحترف، وأغلب ظني أنه كان صاحب مصنع... فقد قالت لي أمي شيئًا من هذا القبيل. وقد كانت ترى دائمًا أني ما زلت صغيرة، فلم تقص عليَّ كل شيء، بل كانت تقبّلني وتقول لي: «ستعرفين كل شيء في حينه يا بنيَّتي المسكينة التعسة!» وكانت دائمًا تدعوني مسكينة تعسة، وكانت في بعض الأحيان حين تتوهم أني نمت (ولكني

كنت أتناوم دون أن أنام حقًّا) تنفجر باكية حظي، وتناديني أيتها الطفلة المسكينة، المسكينة التعسة!».

«وبم ماتت والدتك؟».

«بالسل، وذلك منذ ستة أسابيع».

«وهل تستطيعين أن تذكري العهد الذي كان فيه جدك ثريًّا؟».

«وكيف يتأتى ذلك ولم أكن قد ولدت بعد! لقد هجرت والدتي جدي قبل أن أولد».

«ومع من هجرته؟».

فقالت بصوت خافت كأنها تتردد في الإجابة: «لست أدري، فقد رحلت إذ ذاك إلى خارج البلاد، وهناك ولدت أنا».

«إلى خارج البلاد؟ إلى أي مكان في الخارج؟».

«إلى سويسرا. وقد طوّفت في كثير من البلدان، في إيطاليا وباريس..».

فدهشت.

«أو تستطيعين تذكر ذلك يا نلي؟».

«ما زلت أذكر أشياء كثيرة».

«وكيف أمكنك إذن أن تحذقي اللغة الروسية بهذا القدر يا نلي؟».

«لقد كانت أمي تعلمني الروسية منذ ذلك العهد، فقد كانت هي نفسها روسية كأمها من قبل، أما جدي فكان إنجليزيًّا، بيد أنه كان

منحدرًا من أمّ روسية. ولما عدت مع والدتي إلى روسيا منذ سنة ونصف سنة تقريبًا، حذقت الكلام بها، وقد كان المرض قد عمل فيها عمله، فأخذنا هنا نزداد كل يوم خصاصةً ومتربة، فكانت أمي تبكي أكثر اليوم. وقد بدأت هنا في بطرسبورج بالبحث عن جدي، وكانت لا تكف عن البكاء والعويل، وتقول إنها قد أجرمت في حقِّه... ويا شدّ ما أعولت! فلما علمت أن جدي قد تربت يداه وأصابه الإملاق، ازداد بكاؤها واشتد عويلها. وكانت تكتب إليه الرسالة تلو الرسالة، غير أنه لم يجب عن واحدة منها».

«ولم عادت والدتك إلى روسيا؟ ألكي تشاهد والدها؟».

«لست أدري، ولكنا كنا نعيش هناك عيشة رغدة» واستطردت فقالت وقد لمعت عيناها: «كانت أمي تقيم وحدها وأنا معها، وكان لها صديق طيب مثلك... كانت تعرفه من روسيا قبل أن تنزح عنها، ولكنه وافاه أجله في الخارج فعادت بي إلى روسيا».

«وإذن فقد كان هو الذي هجرت أمك جدك من أجله؟».

«كلا، لم يكن من أجله، إذ كانت قد هجرت جدي مع آخر هجرها هو الآخر بدوره...».

«ومن كان ذلك يا نلي؟».

«فنظرت إليّ دون أن تجيب، وقد لاح لي أنها تعرف تمام المعرفة ذلك الذي فرّت أمها معه إلى الخارج وأنها تعرف أباها، لكن كان يثقل عليها أن تفضي إليَّ باسمه».

ولم أشأ إرهاقها بأسئلة أخرى، فقد كانت ذات طبع عصبي حاد شديد الحساسية، متحفظة دائمًا في الإعراب عن إحساساتها، غير أنها كانت إلى ذلك شائقة محببة إلى النفس، يميل إليها القلب مع أنها تتحصن وراء سياج من الكبرياء والتحفظ. ومع أنها كانت تحبني من سويداء قلبها، ذلك الحب الصادق الطاهر الذي كانت تضمر مثله لوالدتها المتوفاة، التي لا تذكرها إلا مع الحسرة والألم، كانت طوال عهدي بها قلما تنهج معي نهج الصراحة التامة، ولم تشعر إلا اليوم فقط بالحاجة إلى التحدث معي عن ماضيها، بل لقد كانت على النقيض من ذلك تمامًا تكتمه عني في قسوة وصلابة، ولكنها أفضت إليَّ اليوم في ساعات طويلة تتخللها دموع ونشيج وتشنج، بكل ما يتهيجها ويمضها. وما أنس لا أنس تلك القصة المروّعة، ولكن الجزء الأكبر منها سيأتي بعد.

كانت قصة مروعة حقًّا، قصة امرأة مهجورة تخلوا عنها بعد أن حطموا سعادتها، فأضحت سقيمة معذبة مهجورة من الجميع، أنكرها أيضًا آخر شخص كانت تستطيع أن تعلق عليه آمالها وهو أبوها نفسه، ذلك أنها كانت آلمته ذات مرة وأجرمت في حقه، فانتهى به الأمر إلى أن فقد صوابه، لما كابد من تحقير وإهانة وآلام لا تطاق. قصة امرأة بلغت حدود اليأس، تهيم على وجهها مع ابنتها- التي كانت لا تزال طفلة- في شوارع بطرسبورج الباردة القذرة تتكفف السابلة. امرأة قضت بعد ذلك شهورًا طوالًا طريحة فراش الموت في قبو رطب، وقد ظل أبوها نفسه يأبى حتى الرّمق الأخير من حياتها أن يصفح عنها، حتى إذا ما عدل في النهاية عن إبائه، فأسرع ليمنحها غفرانه لم يجد من تلك

التي كان يختصها من الدنيا بحبه غير جثة هامدة. كانت قصة عجيبة عن الصلات الخفية التي لا يكاد يحيط بها الفهم، بين شيخ هرم ضعيف، العقل وحفيدته الصغيرة التي عرفت كيف تفهمه، والتي كانت- مع أنها ما تزال طفلة- تفهم أمورًا كثيرة يقصر الكثير من الرجال عن إدراكها مدى حياتهم الهادئة التي لا تشوبها متاعب أو هموم. كانت قصة محزنة من تلك المآسي القاتمة الفاجعة التي كثيرًا ما تقع- دون أن يفطن إليها أحد- في الزوايا الخفية المظلمة من أزقة المدينة الكبرى تحت سماء بطرسبورج المرهقة للأعصاب، في وسط فوران الحياة الطائش الأخرق والأثرة الحمقاء والمصالح المتعارضة المتلاطمة، والرذائل البهيمية والجرائم السرية، وسط جحيم تلك الحياة الخالية من المعنى، الشاذة عن قوانين الطبيعة...

بيد أني سأقص تلك القصة فيما بعد.

* * *

القسم الثالث

الفصل الأول

كانت الظلمة قد خيمت منذ فترة طويلة، حينما شعرت كأني خلصت من كابوس مزعج ورجعت إلى عالم الحقيقة.

فقلت: «لا. إنك مريضة كاسفة البال، ومع ذلك أراني مضطرًّا إلى أن أتركك وحدك بين انفعالاتك ودموعك، أي صديقتي الصغيرة، لا تغضبي عليَّ، واذكري أن هنالك أيضًا فتاة تعسة مهانة مهجورة أحبت ولم تحظ بالغفران بعد، وهي تنتظرني، وأشعر الآن- ولا سيما بعد أن قصصت عليَّ ما قصصت- بدافع يحفزني إلى الذهاب إليها، وأحسب أني لا أطيق ألا أراها على الفور، في هذه اللحظة.

ولست أدري إن كانت قد فهمت كل ما ألقيته إليها. وقد كنت إذ ذاك مهتاجًا متأثرًا من قصتها، ومن مرضي الذي أبللت منه أخيرًا، ومع ذلك أسرعت إلى ناتاشا، وكان الوقت متأخرًا فبلغت منزلها الساعة التاسعة.

وأبصرت في الشارع أمام باب منزل ناتاشا مركبة جال بخلدي أنها مركبة الأمير. وكان يقتضيني الوصول إلى مسكن ناتاشا أن أجتاز فناء

المنزل. ولم أكد أبدأ في صعود الدرج حتى سمعت، على مقربة مني من فوق، حس رجل صاعد يتحسس طريقه بحذر، ويبدو أنه يجهل مناحي المنزل؛ فحسبت في بادئ الأمر أنه الأمير، ولكني لم ألبث أن عدلت عن هذا الحسبان، فقد ظل الغريب المجهول يسب الدرج ويلعنه بحمية كانت تزداد كلما والى الصعود. أجل، كان الدرج ضيقًا قذرًا قليل الميل مظلمًا في جميع نواحيه، بيد أنه لم يجل بذهني قط أن ألفاظ سب كتلك التي بدأت أسمعها من الطبقة الثالثة يمكن أن تصدر عن أمير، فقد كان السيد الصاعد يشتم كما يشتم الحوذي. وكان منعطف الدرج التالي، لحسن الحظ، أوفر ضوءًا إذ كان هناك مصباح صغير مشتعل معلق على مقربة من باب ناتاشا، فلم أتبين شخص ذلك الذي كان مجهولًا لديَّ إلا هناك، وما أعظم ما دهشت حين عرفت في شخصه الأمير فالكوفسكي! وقد بدا عليه في بادئ الأمر أنه لم يرتح لهذا اللقاء غير المتوقع، ولم يكن قد تبين وجهي بعد، ولكنه سرعان ما تبدلت ملامحه فانقلبت نظرته الخبيثة الحاقدة رقة وسرورًا، وقد مدّ إليّ كلتا يديه في اغتباط شديد.

«آه. هذا أنت! أوشكت أن أركع حمدًا لله على أن أنقذ حياتي. أما سمعتني كيف كنت أسب وألعن؟».

وضحك أكثر ما يكون الضحك براءة وظرفًا، بيد أنه لم يرعني بعد ذلك إلا ما بدا على وجهه من الجد وإعمال الفكر.

وقال وهو يهز رأسه: كيف استطاع أليوشا أن ينزل ناتاليا نيكولايفنا مثل هذا المنزل؟ إن هذه الأمور التي في المرتبة الثانية كما يسمونها، تكشف عن خلق المرء، إني لمعني بأمره كثيرًا، وإنه لطيب القلب نبيل

النفس، ومع ذلك فها أنت ذا تجد أمامك مثلًا من سلوكه، فهو يحبها حبًّا يقصر عنه الوصف، ومع ذلك تراه يأوي تلك التي يحبها هذا الحب في جحر كهذا، ثم قال متابعًا الحديث بصوت خافت وهو يتحسس الجرس: «ولقد نمى إليَّ أنهما كان يعوزهما في بعض الأحيان حتى الخبز نفسه. إني ليتملكني الهلع حين أفكر في مستقبله، وبخاصة في مستقبل أنا نيكولايفنا حين تصبح حليلة له...».

وقد أخطأ في الاسم دون أن يشعر، وربما كان ذلك لغيظه حين لم يعثر على الجرس. ولما لم يكن ثمة جرس، فقد حركت مزلاج الباب كثيرًا فأتت مافرا في الحال وفتحته واستقبلتنا وهي في غاية التأدب. وقد شاهدنا من خلال الباب أنه أجريت بعض التجهيزات في المطبخ، الذي لا يفصله من المنظرة الضيقة غير حاجز خشبي منخفض، فمسح كل ما في البيت ونظف وصقل، وكانت النار تتأجج في المدفأة، وعلى المنضدة مجموعة كاملة من الآنية الجديدة. وكان من الواضح أنها كانت في انتظارنا. وأسرعت مافرا فتناولت معاطفنا.

فسألتها: «هل جاء أليوشا؟».

فهمست في أذني خفية: «لم نره ثانية».

ودخلنا على ناتاشا في غرفتها التي كانت لا تزال على حالها لم يطرأ عليها أي تغيير. على أن هذه الغرفة كانت دائمًا من الأناقة والظرف بدرجة لم يبق معها مجال لأي تغيير. واستقبلتنا ناتاشا عند الباب فروعني منها هزالها وسقامها البادي وشحوبها البالغ، وإن كانت تعلو خديها الأصفرين الذابلتين حمرة خفيفة. والتمعت حدقتاها التماع

حدقتي المحموم، وبادرت تمد يدها إلى الأمير صامتة، وقد استولى عليها التهيج والارتباك. أما أنا فإنها لم تنظر إليَّ البتة، فلبثت واقفًا أنتظر في صمت.

وقال الأمير بنغمة الود والسرور: «هأنذا، فقد عدت منذ ساعات قليلة فقط. ولم أفعل شيئًا منذ سافرت غير التفكير فيك (ولثم يدها في رقة وظرف) «ما أكثر ما فكرت فيك وما أكثر ما لديَّ من أمور أريد أن أفضي بها إليك، والآن في وسعنا أن نتحدث ما نشاء! ولكني أرى، قبل ذلك، أن ولدي الكسلان لم يجيء بعد...».

فقاطعته ناتاشا وقد علاها الخجل وعراها الارتباك: «معذرة أيها الأمير فلدي كلمتان أريد أن أفضي بهما إلى إيفان بتروفتش. فانيا من فضلك... كلمة واحدة...».

وجذبتني من يدي إلى خلف الحاجز الخشبي.

وانتحت بي ناحية مظلمة وهمست في أذني: «فانيا، أما تصفح عني؟».

«ولكن أرجوك يا ناتاشا. دعي منك هذا!».

«لا، لا يا فانيا. لقد طالما صفحت عني، غير أن للصبر حدًّا، وإني لأعلم أنك لن تكف عن محبتي، بيد أنك ستراني جاحدة للجميل. ولقد كنت بإزائك أمس وأول من أمس جاحدة للجميل حقًّا وأثرة قاسية...».

وانفجرت تبكي وأخذت تضغط وجهها في كتفي.

فبادرت إلى تهدئة روعها قائلًا: «حسن يا ناتاشا. لقد كنت مريضًا

طول الليل، ولا أزال إلى الآن أجد مشقة في الاستواء على قدمي، وهذا ما حبسني عنك عشية أمس وصباح اليوم، فأنت تحملين الآن ذلك على أني غاضب عليك. أتظنين يا عزيزتي ناتاشا أني لا أدرك ما يجول في قرارة نفسك؟».

فقالت وهي تبتسم خلال دموعها ضاغطة يدي ضغطًا شعرت معه ببعض الألم: «حسن إذن فقد سوي الأمر.. أعني أنك قد صفحت عني كدأبك معي، أما ما عدا ذلك ففيما بعد. ولديَّ أشياء كثيرة أريد أن أفضي بها إليك، على أنه ينبغي أن أرجع إليه الآن...».

«أجل، أسرعي يا ناتاشا فقد تركناه بغتة وهو واقف...».

فأسرّت إليَّ قائلة في عجل: «سترى ما يحدث الساعة. إنني أعرف من الآن كل شيء. لقد فطنت لكل شيء، فهو وحده المذنب في كل شيء. هلم».

ولم أدرك ما ترمي إليه، ولكن لم يكن في الوقت متسع لطلب الإيضاح. وعادت إلى الأمير بوجه يشرق نورًا، وكان لا يزال واقفًا وقبعته في يده، فتناولتها منه وهي تعتذر إليه في ابتسامة رقيقة، وقدمت إليه بنفسها كرسيًّا فجلسنا نحن جميعًا حول المنضدة الصغيرة.

وقال الأمير: «كنت قد بدأت أتكلم عن ابني الطائش، إنني لم أره إلا فترة قصيرة في الطريق إذ كان يتهيأ لركوب المركبة لزيارة الكونتة سيانيدا فيودوروفنا، وكان عجلان جدًّا، فتصوري أنه بعد افتراقنا أربعة أيام، لم تطب نفسه أن يمكث معي في المنزل ساعة واحدة. وأعتقد

يا ناتاليا نيكولايفنا أنه تقع عليَّ أنا تبعة عدم وصوله حتى الآن وأننا وصلنا قبله، ذلك أني لما كنت غير مستطيع أن أذهب الليلة بنفسي إلى الكونتة، فقد انتهزت الفرصة وحملته رسالة إليها، على أنه سيكون هنا في أقرب وقت».

فسألته ناتاشا وهي تنظر إليه نظرة بلغت الغاية في البراءة والسذاجة: «لا شك أنه قد وعدك بأن يأتي اليوم؟».

فصاح وهو ينظر إليها متعجبًا: «ولكن يا إلهي، ولم لا يأتي؟ كيف استطعت أن تقولي شيئًا مثل هذا؟ على أني أفهمك، فأنت غاضبة عليه. نعم، إنه من غير المحمود حقًّا أن يكون آخر من يصل، ولكن الجريرة جريرتي فلا تغضبي عليه إنه طائش لا نفع منه ولا غناء عنده، ولست أريد أن أدافع عنه، ولكن هنالك شؤون خاصة تقتضيه في هذه الأيام ألا ينقطع عن بيت الكونتة وعن بعض معارف آخرين، بل تحتم عليه أن يختلف إليهم ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. فالآن، وهو ولا شك لا يبرح جانبك مطلقًا، ونسي من أجلك كل شيء آخر في العالم، أرجو ألا يسوءك مني أن أنتزعه منك مرة أخرى لشؤون أعهد بها إليه، وذلك بطبيعة الحال لساعة أو اثنتين لا أكثر. إنني واثق أنه لم يذهب إلى الأميرة «ك» مرة واحدة منذ ذلك المساء، ويؤسفني أنه لم يكن لدي متسع من الوقت أسأله فيه عن ذلك».

ونظرت إليَّ ناتاشا طويلًا، وكانت مصغية إلى الأمير في ابتسامة تهكمية لا تكاد تستبين، ولكنه كان يتكلم في صراحة وبلا تكلف يجعلان من المستحيل أن تحوم حوله الريب.

وسألت ناتاشا بصوت هادئ عذب كما لو كانت تتكلم عن شيء مألوف: «أحقًّا أنت تجهل أنه لم يأت إليَّ قط طوال هذه الأيام؟».

فصاح الأمير وقد بدت عليه دهشة بالغة: «ماذا؟ لم يأت إليك قط؟ عفوًا، ماذا تقولين؟».

«لقد كنت هنا يوم الثلاثاء في الهزيع الأخير من الليل، وفي الصباح التالي أتى هو فمكث نصف ساعة ثم لم أره بعد ذلك».

«ولكن هذا لا يصدق!» (وأخذت دهشته تعظم وتزداد جلاء) لقد كنت أعتقد أنه لا يفارقك مطلقًا. معذرة. ولكن... هذا غريب جدًّا... إنه بكل إيجاز أمر لا يصدق».

«ولكنه مع ذلك حق، فوا أسفاه، لقد خاب أملي فيك، فقد كنت أعتقد أني أستطيع أن أعرف منك أين يقضي وقته».

«آه يا ربي. ولكنه آت لا ريب في أقرب وقت. لقد باغتني بما أخبرتني حتى إني... إني أعترف بأني كنت أتوقع منه أشياء كثيرة، إلا هذا...!».

«لشد ما دهشت لهذا الخبر! وقد كنت أحسب أن ليس في الأمر ما يثير فيك أية دهشة، بل كنت أعتقد أنك تعلم من أول الأمر أن سيكون هذا مسلكه».

«أعلم من أول الأمر؟ أنا؟ ولكني أقول لك مؤكدًا يا ناتاليا نيكولايفنا إني لم أره اليوم إلا لحظة، وإني لم أحادث أحدًا في شأنه» ثم تابع القول وهو ينظر إليها مرة وإليَّ أخرى: «ويدهشني كثيرًا ألا تثقي بأقوالي».

وقهقهت في وجه الأمير، فأشعره ذلك أنها قد كشفت ستره، فقال مرتبكًا: «زيديني إيضاحًا».

«ليس في كلامي ما يحتاج إلى إيضاح، فأنا أتكلم في بساطة تامة. وأنت تعلم أن ابنك بالغ الطيش شديد النسيان، فالآن وقد ألفى نفسه حرًّا طليقًا، ولّى بكل سهولة ولم يعقب».

«ولكن من المحال أن يولي على هذا الوجه، فلا بد أن يكون وراء مسلكه شيء لا نعلمه، وسأجعله يفصح لنا عنه عند حضوره. بيد أن الذي يدهشني أكثر من كل شيء، أنك- فيما يبدو لي- ترمينني بهذا الوزر، مع أني كنت غائبًا عن هذا البلد. على أني أرى يا ناتاليا نيكولايفنا أنك حانقة عليه، وهذا ما أفهمه جيدًا، بل ما أعترف بأنك محقة فيه، و... و...» ثم أضاف في ابتسامة المغيظ وقد اتجه إليَّ: «ومن البديهي أن يقع عليَّ أنا إثم ما عمل ولو لمحض أني وصلت إليك قبله، أليس كذلك؟».

فاحمر وجه ناتاشا.

وتابع الأمير كلامه في لهجة رزينة قائلًا: «اسمحي لي يا ناتاليا نيكولايفنا، نعم إني أسلم بأن الذنب ذنبي، ولكن الذنب الحقيقي أنني سافرت في اليوم التالي لتعارفنا، فهيأت لك بذلك فرصة لسوء الظن بي، فأنت مرتابة متشككة كما لاحظت، يضاف إلى ذلك أن ظواهر الأمور ليست في مصلحتي، ولو لم أكن قد رحلت لكنت عرفتني خيرًا من ذلك، ولما طاش أليوشا، وهو تحت رقابتي هذا الطيش، ولكنك ستسمعين بعد قليل ما أقوله له».

«أي أنك تريد أن تصل إلى أن تجعله يشعر بأني عبء ثقيل على كاهله. لست أستطيع أن أعتقد أنك، وأنت ذو العقل الراجح، تؤمن حقًّا بأن مثل هذا التصرف يكون في مصلحتي».

«هل تريدين بذلك أن تقولي إني أعمل عامدًا على جعله يشعر بأنك عبء ينوء بكاهله؟ أنت تهينينني يا ناتاليا نيكولايفنا».

فأجابت: «إنني أعمل على أن أقلل جهد الطاقة من التلميح والتعريض في كلامي كائنًا من كان الشخص الذي أكلمه، بل إني على نقيض ذلك أعلق شأنًا عظيمًا على أن أكون واضحة صريحة وستقتنع بذلك هذه الأمسية تمام الاقتناع. لست أريد إهانتك مطلقًا وليس هنالك ما يدعوني إلى ذلك، ولا سيما أنك لن تحس إهانة مهما وجهت لك من قوارص الكلام. وإني لعلى يقين من ذلك لأني على وضوح تام من كنه علاقة أحدنا بالآخر، فأنت لا تعدها جدية، أليس كذلك؟ على أنني إن كنت قد أهنتك حقًّا فأنا على استعداد لأن أستصفحك، حتى لا أنتهك حرمة الضيافة».

ومع أنها نطقت هذه الجملة بنغمة رقيقة مازحة والابتسامة تعلو شفتيها، فإني لم أكن قد رأيتها قط مهتاجة إلى هذا الحد، والآن فقط أدركت مبلغ ما نال الأمر من قلبها خلال هذه الأيام الثلاثة. لقد أزعجتني كلماتها المبهمة حين قالت إنها قد عرفت الآن كل شيء وفطنت لكل شيء، فقد كانت تعني بها الأمير. لقد غيرت رأيها فيه وأصبحت تراه لها عدوًّا، وقد كان ذلك واضحًا ظاهرًا. ويظهر أنها عزت هذه الكارثة التي دهاها بها أليوشا إلى سلطانه، ولا شك أن لديها من الأسباب ما يحملها

على ذلك. وقد خشيت أن ينتهي الأمر بهما إلى مشهد عنيف، فقد كانت النغمة المازحة التي اصطنعتها شفافة بادية التكلف، إذ كانت كلماتها الأخيرة التي تتهم بها الأمير بأنه لم يحمل العلاقة بينهما محمل الجد، وعبارتها التي قصرت بها أسباب الاعتذار على مراعاة واجبات الضيافة وحدها، ووعدها- الذي بدا في صورة الوعيد- أن تبرهن له في هذه الليلة ذاتها على أنها تعرف كيف تتكلم وتتصرف في صراحة، كان كل ذلك قوي الوضوح صريحًا في التحدي إلى حد يستحيل معه أن يكون الأمير قد فاته فهم مرادها. ولقد رأيت ملامح وجهه تتغير، ولكنه استطاع أن يسيطر عليها متظاهرًا بأنه لم يعر كلامها هذا اهتمامًا خاصًّا وبأنه لم يدرك مرماه الحقيقي، ثم خلص من موقفه الحرج بفكاهة من الفكاهات.

فقد صاح وهو يضحك: «حاشا لله أن أسألك اعتذارًا. إنني لم أرد ذلك مطلقًا، وليس من خلقي أن أطلب إلى سيدة أن تعتذر. وقد لفتّ بعض انتباهك في أول مرة التقينا فيها، إلى ما لي من خلال، ولذلك آمل ألا تتكدري من أني لا أكتم عنك ملاحظة لاحظتها، ولا سيما أنها ليست خاصة بك بل هي تشمل النساء كافة» ثم التفت إليَّ في رقة وظرف وقال: «ولعلك تقرني على رأيي فقد لاحظت في خلق المرأة أنها حين تخطئ في أمر تكن أكثر استعدادًا لأن تعتذر عن خطئها فيما بعد وأن تصلح الأمر بالمغالاة في التلطف والود، مؤثرة ذلك على أن تعترف بخطئها في الحال (عندما يجبهها به المرء بصورة لا تجد معها سبيلًا إلى إدحاض حجته) وأن تطلب الصفح توًّا، ولذلك أجدني، إذا فرضت أنك حقًّا قد أهنتني لا أنزع إلى طلب اعتذارك في التوّ، إذ أرى

أنه من الأجدى عليَّ في النهاية أن أنتظر حتى يتبين لك خطؤك فتعملي على إصلاح الأمر بالمغالاة في التلطف والود، وإنك لحلوة طاهرة نقية صريحة، وقد بلغت من كل ذلك حدًّا يجعل الساعة التي يستولي عليك فيها الندم شائقة فاتنة- وإني لأعرف ذلك منذ الآن- ولكني أوثر على أن تعتذري أن تخبريني الآن: كيف أستطيع أن أثبت لك هذه الأمسية إنني أكثر شرفًا وإخلاصًا وجدًّا نحوك مما تظنان أنتما كلاكما؟».

فاحمر وجه ناتاشا. وبدا لي أنا أيضًا أن نغمة الأمير قد شابتها خفة ونشوة ورخاوة، وأن مزحه أوشك أن يبلغ مبلغ قلة الحياء.

فسألته ناتاشا وهي تنظر إليه متحدية: «أتريد أن تثبت لي أنك شريف مخلص بإزائي؟».

«أجل».

«إن كان ذلك كذلك، فافعل ما أرغب فيه إليك».

«أعدك به سلفًا».

«هذه رغبتي: لا تحدث أليوشا بشيء في شأني، لا اليوم ولا غدًا، لا تصريحًا ولا تلميحًا، ولا توجه إليه كلمة لوم أو عتاب أو تقريع على إغفاله إياي، ذلك أني أرغب في مقابلته كما لو لم يكن قد وقع بيننا شيء وذلك حتى لا يفطن إلى شيء. ذلك ما أرغبه رغبة قوية، فهل تعدني بذلك؟».

فأجاب الأمير قائلًا: «بكل سرور. واسمحي لي أن أضيف عن اقتناع تام أنني قلما وجدت امرأ له في هذه الأمور مثل ما لك من نظر ثاقب

وذهن صاف وحسّ دقيق... ولكن، يبدو أن أليوشا قد قدم».

والواقع أننا سمعنا خفق أقدام في الدهليز. فاضطربت ناتاشا وبدت كما لو كانت تعد نفسها لأمر. وجلس الأمير وقد بدت عليه سيما الجد، ينتظر ما يوشك أن يحدث من الأمور، ولكنه كذلك لم يدع بصره يفارق ناتاشا. وفتح الباب ودلف أليوشا إلى الغرفة.

* * *

الفصل الثاني

وأقبل كأنه يطير، بوجه متألق مبتهج مرح، يبدو عليه بكل وضوح أن صاحبه قد قضى هذه الأيام الأربعة في هناءة وسعادة، وكانت سيماه تنبئ بأنه يريد أن يخبرنا بشيء.

ورن صوته في فضاء الغرفة كله قائلًا: «هأنذا! أنا الذي كان يجب أن أكون أول آت، بيد أنكم سترون الساعة كل شيء، كل شيء، كل شيء! وأنت أيضًا يا أبت، لم يكن لديّ وقت أتحدث فيه إليك، وإن عندي أمورًا كثيرة أحب أن أتحدث فيها إليك». واتجه إليَّ قائلًا: «إنه لا يسمح لي أن أخاطبه بغير تكلف إلا في أوقاته الطيبة، أما فيما عدا ذلك فهو يحظر عليَّ ذلك حظرًا. ثم أية خطة لطيفة ينتهجها إزائي؟ يكلمني دائمًا بلغة التكلف فيقول حضرتك؟ ولكني أريد أن يكون دائمًا في أوقاته الطيبة وسأبلغ ذلك! فقد استحلت في خلال هذه الأيام الأربعة، إنسانًا آخر بالمرة، وسأحدثكم بنبأ ذلك الآن ولكن بعد قليل. على أن المهم عندي أني أجدها أخيرًا هنا» وصاح وقد جلس بجوارها وأخذ

يلثم يدها في نهم: «ناتاشا يا أحب الناس إليَّ، هأنذا يا ملاكي. ما أشد ما تملكني من الحنين إليك هذه الأيام الأربعة! ولكن ماذا كنت أستطيع أن أصنع؟ لم أكن أستطيع شيئًا. بكل بساطة لم أكن أستطيع غير ذلك! أي حبيبتي الحلوة! ما أشد ما بلغ منك الهزال، وإنك تلوحين في غاية من الشحوب...».

واندفع كمن سُلب لبه يغمر يدها بالقبل وهو يكاد يلتهمها بعينيه الجميلتين دون أن يشبع من مرآها، فألقيت إليها نظرة فبدا لي من وجهها أنه قد جالت بخلدها الفكرة التي جالت بخلدي، ذلك أن أليوشا كان بريئًا تمام البراءة، وكيف يمكن أن يرمى بالذنب هذا البريء؟ وتورد خدا ناتاشا الشاحبان كما لو كان كل دمها قد صعد من قلبها إلى رأسها. والتمعت عيناها ونظرت إلى الأمير فالكوفسكي نظرة زهو وكبرياء.

وسألت متمهلة بصوت محتبس: «ولكن أين... كنت... هذه الأيام؟» وصارت تتنفس في عسر وبغير انتظام، فما أعظم حبها لهذا الشاب!

«إني لأبدو في نظرك مذنبًا في حقك، ولكن ماذا أقول؟ أبدو في نظرك؟ إني مذنب دون ريب، وإني لأعرف ذلك جد المعرفة، وقد أتيت إلى هنا وبي هذا الشعور. وقد قالت لي كاتيا أمس واليوم إنه ليس ثمة امرأة في الوجود تستطيع أن تغتفر مثل هذا الإغفال (وهي تعلم كل ما جرى هنا يوم الثلاثاء، فقد بادرت في اليوم التالي بإنبائها بنبئه). وقد حاججتها وأردت أن أؤيد ما ذهبت إليه، فقلت لها إن هنالك امرأة على هذه الشاكلة هي حبيبتي ناتاشا، التي قد لا يكون لها مثيل في العالم كله

غير واحدة أخرى هي كاتيا. وقد أتيت وأنا منشرح الصدر عالم تمام العلم أني أنا المنتصر في تلك المحاجة، وهل لملاك مثلك أن يفعل غير الصفح؟ إن ناتاشتي لتفكر على النحو الآتي: إنه لا يأتي فلا ريب أنه لم يتمكن من المجيء، بيد أنه لم يكف عن حبي وكيف يمكن للمرء أن يكفّ عن حبك؟ وهل ذلك مما يحتمل أو يطاق؟ إن كل ليفة من ألياف قلبي تجذبني إليك، ومع ذلك أشعر بأنني أذنبت نحوك، ولكنك حين تعلمين كل شيء ستكونين أول من يقضي ببراءتي، ولأجل هذا سأقص عليكم الآن كل شيء. وإني ليهمني جدًّا أن أنفض إليكم كل ما في قلبي، ولهذا جئت، وقد كنت أود أن أطير إليك صباح اليوم- لو وجدت من وقتي دقيقة خالية- لأختطف منك قبلة، غير أنه سرعان ما قامت في وجهي عقبة جديدة، فقد طلبت مني كاتيا بإلحاح أن تتحدث إليّ في أمر مهم، وكان ذلك في الصباح الباكر فعندما التقيت بك يا أبت وأنا أركب المركبة كانت تلك هي المرة الثانية التي أركب فيها إليها، وذلك تلبية لرسالتها الثانية، فالرسل السراع لا ينفكون يجوبون الأرض متتابعين بين منزلينا سحابة النهار وهم يحملون رسائلنا. أما رسالتك يا إيفان بتروفتش فلم يتسن لي أن أقرأها إلا في الليل، وأنت محق كل الحق فيما كتبته إليَّ، ولكن ماذا عسى أن أفعل؟ لقد كانت هنالك استحالة مادية، فقلت لنفسي: سأشرح لهم كل شيء عشية الغد، فقد كنت معتزمًا حقًّا أن أوافيك هذه العشية».

فسألت ناتاشا: «أية رسالة؟».

«لقد جاء فانيا إلى منزلي، فلم يجدني بالطبع، فترك لي رسالة

يزجرني فيها لإمساكي عن القدوم إليك، وله في ذلك كل الحق، وقد كان ذلك أمس».

فنظرت ناتاشا إليَّ.

وبدأ الأمير يتكلم قائلًا: «ولكن بما أنك وجدت وقتًا تقضيه مع كاترينا فيودوروفنا من الصباح إلى المساء...».

فقاطعه أليوشا قائلًا: «أعرف، أعرف ما ستقول: بما أنك قد استطعت أن تكون عند كاتيا، فقد كانت لديك أسباب مضاعفة تقتضيك أن تقدم إلى هنا، إني أوافقك على هذا الرأي كل الموافقة وأضيف إليه أن ما لديَّ من الأسباب ليس مضاعفًا مرة واحدة فحسب، بل هو مضاعف ألف ألف ضعف، بيد أن في الحياة حوادث عارضة غريبة غير متوقعة تعكس أوضاع الأمور وتقلب كل شيء رأسًا على عقب، وقد حدث لي واحد منها، وكما قلت من قبل، لقد تبدلت في هذه الأيام الأخيرة تمام التبدل من قمة رأسي إلى أخمص قدمي؛ وذلك لأن أمرًا مهمًا قد حدث لي!».

فصاحت ناتاشا وقد ابتسمت لما يبديه أليوشا من التحمس والاندفاع: «آه يا رب، ماذا حدث لك؟ لا تعذبني هذا التعذيب. أرجوك!».

وفي الحق أنه كان مضحكًا سخيفًا مندفعًا ينثر الكلمات من فيه سريعة لا ارتباط بينها. كان يود أن يقول لنا كل شيء، وأن يخبرنا بكل شيء، ولم يترك في أثناء كلامه يد ناتاشا، بل أخذ يرفعها بين آن وآخر

إلى شفتيه كأنه لا يرتوي من لثمها.

وتابع أليوشا كلامه قائلًا: «وإنما أريد أن أقص عليكم كل ما وقع لي. آه يا أحبائي. أية أشياء رأيت وأي أمور فعلت وأي أناس عرفت، ولنبدأ بكاتيا فهي ولا شك الكمال بعينه! إنني لم أكن قد عرفتها قبل ذلك مطلقًا، وكذلك لم أكن قد عرفتها في ذلك اليوم، يوم الثلاثاء حين كنت أحدثك عنها يا ناتاشا- ولعلك تذكرين أني كنت حتى في ذلك الوقت أتحدث عنها في إعجاب شديد- بيد أني كنت في ذلك الوقت أيضًا لا أكاد أعرفها، وهي نفسها ظلت حتى ذلك الوقت تغلق دخيلتها دوني وتحجب حقيقتها عني. أما الآن فقد عرف كل منا صاحبه معرفة تامة، ونحن نتخاطب بلغة عدم التكلف. ولكني أريد أن أبدأ الموضوع من أوله، فليته قد تهيأ لك يا ناتاشا أن تستمعي إليها لتسمعي كيف كان حديثها عنك إذ أخبرتها في اليوم التالي، يوم الأربعاء، بكل ما كان بيننا.. وعلى ذكر ذلك، أود أن أذكر مبلغ ما كان مني من غباء وسوء تصرف حيالك حين كنت عندك صباح الأربعاء، فإنك استقبلتني مغتبطة مشغولة البال بما طرأ على حالتنا من تحول، وكنت تريدين أن تتحدثي إليّ في ذلك، كنت خائرة النفس كسيرة الخاطر، ولكنك كنت مع ذلك تداعبينني وتمازحينني. أما أنا فقد حاولت أن أمثل دور الزوج الرزين، فيا لي من غبي أحمق، يا لي من حمار! أردت أن أزهى وأظهر أمامك بمظهر العظمة وارتفاع المنزل إذ إني سأكون في القريب زوجًا صلبًا قوي الإرادة. ولا أفعل ذلك إلا بإزائك أنت! فما أعظم ما لا بد أن يكون قد استولى عليك من السخرية مني إذ ذاك، وما كان أجدرني أيضًا بسخريتك».

وجلس الأمير صامتًا ينظر إلى أليوشا نظرة الظافر وعلى شفتيه ابتسامة متهكمة، كأنما كان يفرحه أشد الفرح أن يظهر ابنه مظهر الطائش خفيف العقل، وأن يبدو في بعض المناسبات سخيفًا مضحكًا. وقد لبثت طول سمرنا هذه الليلة أرقب الأمير فاقتنعت أنه لا يكنّ لابنه شيئًا من الحب، مع كل ما يقال عن حنانه الأبوي ومحبته له.

واستأنف أليوشا قصصه قائلًا: «وذهبت من عندك إلى كاتيا، وقد سبق لي أن قلت إنه لم يعرف كل منّا صاحبه حق المعرفة إلا في هذا الصباح. ولقد كان ذلك على نحو غريب... بل إنني أنا نفسي لست أعرف بعد كيف... فما هي إلا بضع كلمات حارة متوقدة وإحساسات مشتركة وبضعة آراء أعربنا عنها في صراحة حتى كنا أصدقاء... على الدهر.. من الضروري جدًّا جدًّا أن تعقدي صلة التعارف بينك وبينها يا ناتاشا. بأي لسان كانت تشرح لي أمرك وتجلي لي كل ما يتعلق بشخصك، وبأي بيان كانت توضح لي أنك كنز نفيس! ثم أخذت تفصح لي عن أفكارها وآرائها في الحياة، فيا لها من فتاة متحمسة لا تنحرف عن الجد. وقد قالت إن واجبنا ورسالتنا على الأرض أن نخدم الناس طرًا. لقد كنا متفقين في الرأي ومن ثم وصلنا بعد نقاش خمس ساعات أو ست ساعات إلى أن أقسمنا على أن يخلص كل منا لصاحبه إخلاصًا أبديًّا وأن نعمل جنبًا إلى جنب ما بقينا على الحياة».

وسأل الأمير متعجبًا: «تعملان جنبًا إلى جنب في ماذا؟».

فأجاب أليوشا بلهجة الظافر: «لقد تغيرت كثيرًا يا أبت حتى ليدهشك ما نالني من تغير أيما إدهاش. وإني لأعلم من الآن كل ما

ستعترض به، فأنتم جميعًا لا تنظرون إلى الأشياء إلا نظرة عملية، ولا تحفلون بغير المبادئ التقليدية العتيقة الخرفاء، أما الأفكار الفتية الحديثة التي نبتت أخيرًا، فأنتم تنظرون إليها نظرات الشك والريبة، بل أنتم تعادونها وتسخرون منها. ولكني قد أصبحت شخصًا يختلف عن ذاك الذي كنت إياه منذ أيام اختلافًا تامًّا. فقد رضت نفسي على أن أواجه كل الناس وكل شيء في العالم بشجاعة. ومتى تبين لي أن ما اقتنعت به هو الصواب والحق، فإني أمضي وراءه إلى أقاصي الأرض. وإنما أكون شريفًا إذا لازمت هذا السبيل فلا أحيد عنه قيد أنملة، وذلك حسبي. وليقل الناس بعد ذلك ما يشاءون فسأظل ثابتًا مصرًّا على ما أعتقد».

فقال الأمير ساخرًا: «أوه».

وأخذت ناتاشا تنتقل ببصرها بيني وبينه وهي قلقة مشفقة على أليوشا، فقد كان كثيرًا في ما يغلو في حديثه، وكانت هي تعرف منه ذلك، فكانت تكره أن يبدو الآن سخيفًا في نظرنا وبخاصة في نظر والده.

فقالت: «ما كل هذه الثرثرة يا أليوشا. هذه فلسفة خالصة فمن علمك إياها... من الخير أن تتم حديثك!».

فصاح أليوشا: «ولكني ما زلت في الحديث، فانظري، إن لكاتيا اثنين من الأقرباء البعيدي القرابة، شيء كأبناء العمومة مثلًا، يدعوان ليوفنكا وبورنكا أحدهما طالب بالجامعة، والآخر لا يزال كذلك غلامًا يافعًا. وهي متصلة بهما، وإنهما لغريبان حقًّا، ولا يزوران الكونتة إلا في القليل النادر، وذلك اتباعًا لمبادئهما، فلما تحادثت أنا وكاتيا عن واجب الإنسان ورسالته وما يتصل بذلك، أرشدتني إلى هذين الشابين، وزودتني

برسالة إليهما، فأسرعت إليهما، للتعرف بهما، فإذا نحن قد صرنا جميعًا في المساء قلبًا واحدًا ونفسًا واحدة. وكان هنالك أناس شتى ربما بلغت عدتهم العشرين بين طالب وضابط ومفن، وكان بينهم أيضًا أحد المؤلفين... وكلهم يعرفونك يا إيفان بتروفتش، أعني أنهم قرأوا من آثارك، وهم يتوقعون منك الشيء الكثير في قابل الأيام، وقد أكدوا لي ذلك جميعًا. وأخبرتهم أني أعرفك واضطررت إلى أن أعدهم بعقد صلة التعارف بينك وبينهم، وقد رحبوا جميعًا بي واستقبلوني بأذرع مبسوطة وعاملوني معاملة الإخوة لأخيهم، ومن البديهي أني بادرت فأخبرتهم أني وشيك الزواج، فعاملوني من أول الأمر معاملة المتزوج. ويقيم الكثيرون منهم في الطبقة الخامسة تحت السقوف المسنّمة مباشرة، وهم يتلاقون كثيرًا، ولكنهم يجتمعون اجتماعات منظمة المواعيد أيام الأربعاء عند ليوفنكا وبورنكا، وهم فتيان ذوو شباب ناضر، أفعمت قلوبهم جميعًا بحب مضطرم للبشرية. وقد خضنا في الحديث عن الحاضر والمستقبل وعن العلم والأدب، وكانوا جميعًا يتكلمون كلامًا عذبًا صريحًا لا تكلف فيه ولا تصنع... وكان هنالك أيضًا أحد تلاميذ المدارس الثانوية. ما أنبلهم وما ألذّ معاشرتهم! لم أر قط مثلهم، فأين كنت أنا حتى الآن؟ وماذا كنت أبصر، وفي أي البيئات نشأت؟ أنت يا ناتاشا كنت وحدك تحدثينني في بعض الأحايين في مثل هذه الشؤون. آه يا ناتاشا، يجب أن تتعرفي بهؤلاء الناس، فكاتيا تعرفهم فعلًا، وهم يخاطبونها في شيء من التبجيل، وقد وعدت كاتيا، ليوفنكا وبورنكا أن تبذل، عندما تضع يدها على ثروتها، مليونًا لإنفاقه في سبيل المصلحة العامة».

فسأل الأمير:

«وسيقوم على إنفاق هذا المليون ليوفنكا وبورنكا وزمرتهما جميعًا؟».

فصاح أليوشا متألمًا: «كلا، كلا. ألا تخجل يا أبي أن تقول شيئًا كهذا! إني أستشف أفكارك. والواقع أننا تحاورنا مليًّا في شأن هذا المليون وجهدنا كل الجهد لكي نصل إلى خير ما ننفقه فيه، فاستقر رأينا آخر الأمر على أن تثقيف الشعب أولى من أي شيء آخر...».

فلاحظ الأمير قائلًا كما لو كان يحدث نفسه ودون أن تزايل الابتسامة التهكمية شفتيه: «أرى من ذلك أنني لم أكن أقدر كاترينا فيودوروفنا حق قدرها. لقد كنت أنتظر منها أمورًا كثيرًا، أما هذا...».

فقاطعه أليوشا: «ماذا تريد أن تقول بهذا؟ لماذا يبدو لك الأمر غريبًا؟ ألأنه يصطدم بأساليبكم المرعية؟ ولأنه لم يتبرع أحد منكم حتى هذا اليوم بمليون، وأن كاتيا ستكون أول من يفعل؟ وماذا في ذلك؟ ماذا في ذلك إذا كانت لا تود أن تعيش من كسب الآخرين. إن المعيشة من هذه الملايين معناها المعيشة من كسب الآخرين، ولم يتجلّ ذلك أمام عينيّ إلا الآن فقط. إنها تود أن تكون نافعة لقومها وللإنسانية جمعًا. هي أيضًا تريد أن تنفق زكاة مالها في الخير العام. ولقد كنا نقرأ عن هذه الزكاة في المدارس، فإن اتفق أن بلغت هذه الزكاة ذات مرة مليونًا، أفليست هي هي بعينها من حيث جوهرها؟ وإلام تستند هذه الفطرة السليمة التي تغالون في رفع شأنها والتي كنت أنا نفسي حتى الآن أنظر إليها في تجلة وتبجيل؟ لم تنظر إليَّ هذه النظرة يا والدي؟ لكأنما تنظر

إلى غبي أبله! وماذا يهم أن يكون المرء غبيًّا أو ذكيًّا؟ ليتك كنت سمعت يا ناتاشا ما أبدته كاتيا في هذا الأمر من رأي، إذ قالت ليس العقل أهم شيء، بل أهم شيء ما يقوده العقل ويهيمن عليه: الصفات الخلقية، القلب، الغرائز النبيلة، نمو الخلال الروحية في مجموعها، على أن ما هو خير من كل ذلك، هذا الحديث العبقريّ الذي أفضى به بزمجين في هذا الموضوع، وبزمجين هذا أحد معارف ليوفنكا وبورنكا، وهو رأس الجماعة، وإنه لرأس عبقري حقًّا، فقد قال أمس فقط في ثنايا الحديث: عندما يتبين الغبي غباءه يكون قد كفّ عن أن يكون غبيًّا. ما أصدق هذا القول، إنه يتفوه كل دقيقة بأمثال هذه الدرر وينثر الحكم حواليه نثرًا!».

فقال الأمير ملاحظًا: «إنه لعبقريّ حقًّا».

«أنت لا تفعل إلا الضحك، بيد أني لم أسمع شيئًا كهذا منك ولا من المجتمع الذي تضطرب فيه، بل يبدو أنكم في مجتمعاتكم، على النقيض من ذلك، تخفون كل هذه الأمور وتحجبونها وتمرغونها في الرغام حتى لا يبرز واحد منكم على أقرانه، وبذلك يتسنى لكم جميعًا أن تشمخوا بأنوفكم، وأن تظلوا جارين على سنن خاص ملتزمين مقاييس خاصة، كما لو كان الاحتفاظ بهذه الأوضاع أمرًا ممكنًا على وجه من الوجوه، وكأنه ليس أكثر استحالة ألف مرة مما نفكر نحن فيه ونتكلم به. ومع ذلك يدعوننا نحن خياليين! ليتك كنت قد سمعت كل ما قالوه لي أمس...».

فقالت ناتاشا: «ولكن ما هذا الذي تفكرون فيه، وأي كلام تتكلمون؟ ذلك ما يجب أن تبدأ ببيانه لنا يا أليوشا، فإني لم أفهم ذلك جيدًا حتى الآن».

«هو كل ما يؤدي إلى التقدم والتجديد وينمي الشعور بالإنسانية والحب. ولكل هذه الأمور علاقتها بالمشكلات الحالية، ونحن نتباحث في المسائل العامة والإصلاحات الضرورية وحرية الصحافة وحب البشرية، كما نتحدث عن الأفراد البارزين من معاصرينا وننقدهم ونقرأ آثارهم. وثمة شيء أهم من ذلك هو أننا قد تواضعنا فيما بيننا على أن نكون دائمًا شرفاء صريحين في معاملة كل منا للآخرين، وأن نتحدث عن كل ما يتعلق بنا دون خجل أو تردد، فبالصراحة والصدق وحدهما يتسنى لنا أن نبلغ غرضنا، وذلك هو أهم ما يعمل بزمجين على إذاعته وتعميمه. وقد أنبأت كاتيا بذلك فألفيتها ترى رأي بزمجين نفسه، وقد رضينا بزمجين زعيمًا لنا وآلينا على أنفسنا أن نسير ما حيينا ملتزمين جادّة الشرف لا نتزحزح عنها، مهما يكن من قول الناس عنا وحكمهم علينا، وألا نخجل مطلقًا من تحمسنا وأخطائنا، بل ندأب على السير قدمًا في طريقنا القيّمة، فإذا أردت أن يحترمك غيرك فعليك أولًا أن تحترم نفسك، وبذلك وحده، باحترامك نفسك، ترغم الآخرين على أن يقدروك قدرك. هكذا يقول بزمجين، وكاتيا ترى هذا الرأي أيضًا، وإننا الآن نقلب وجوه الرأي معًا، وقد تعاهدنا على أن يبدأ كل منا بمعرفة نفسه ثم يعاون الآخرين بالمشورة والعمل...».

فصاح الأمير وقد نفد صبره: «يا له من هراء! ومن هو هذا البزمجين؟ كلا، إن هذا الأمر مما لا يصح التغاضي عنه».

فصاح أليوشا: «ما هذا الذي لا يصح التغاضي عنه؟ استمع إليَّ يا أبي. أتدري لِمَ أقصّ ذلك عليك الآن؟ لأني أودّ وآمل أن أكتسبك أنت

أيضًا لجماعتنا، وقد وعدتهم بذلك فعلًا. أتضحك؟ لقد كنت أعلم من قبل أنك ستضحك، ولكن أصغ إليَّ يا أبت، وإنك لكريم نبيل فستفهمنا. أنت لا تعرف البتة هؤلاء القوم ولم ترهم أو تسمعهم يتذاكرون قط. فإن كنت قد سمعت عن ذلك كله- إذ إنك تعرف كل شيء ومعلوماتك فائقة جدًّا- فإنك لم تعرفهم بعد بأشخاصهم ولم تغش ناديهم قط، ومن ثم فليس في وسعك أن تصدر عليهم حكمًا صحيحًا. أنت تتوهم أنك تعرفهم، ولكن لا. فتعال أولًا إليهم واستمع إلى محاضراتهم، وأقسم لك أنك ستكون واحدًا منّا. ولكن الأهم من كل شيء: هو أني أريد أن أعمل بكل وسيلة على انتشالك من هذا المجتمع الفاسد الذي تتصل به وأن أحررك من آرائك».

وبقي الأمير صامتًا يستمع إلى هذا الحديث وقد بدت عليه أمارات السخرية والتهكم، وارتسم على قسمات وجهه معنى خبيث. وقد ظلت ناتاشا ترقبه في نفور غير مكتوم، فرأى ذلك ولكنه ظهر مظهر من لم ير شيئًا. وما صمت أليوشا حتى انفجر الأمير يقهقه بصوت عال، بل إنه استلقى في كرسيه إلى الوراء كأنه لا يستطيع أن يتمالك عن الإغراب في الضحك. على أن هذا الضحك لم يكن حقيقيًّا خالصًا، بل كان يبدو بوضوح أنه لم يضحك إلا ليزيد ابنه مذلة ومهانة، وذلك ما كان، فقد غلب أليوشا على أمره وارتسم على ملامحه غم شديد، بيد أنه صبر حتى فرغ والده من ضحكه وسروره.

وقال بلهجة المكتئب: «ماذا يضحكك مني؟ إنني صريح بإزائك كل الصراحة، شريف معك غاية الشرف، فإذا كنت- فيما ترى أنت- قد

قلت شيئًا سخيفًا، فعليك أن تسددني لا أن تضحك مني. وفي الواقع مِمَ تضحك؟ أتضحك مما أعده أنا ساميًا مقدسًا؟ لئن كنت ضالًا وكانت هذه الأقوال خاطئة أو خداعة أو كنت مغفلًا، كما جريت على أن تدعوني في بعض الأحيان، فإنني مع ذلك أمين مخلص فيما قلت، لم أزدر عقلي أو أخن ضميري. إنني أقتحم النيران في سبيل المثل العليا السامية. وقد تكون هذه المثل العليا خاطئة، ولكنها تظل على أية حال قائمة على أساس مقدس. وقد قلت قبل إنه لا أنت ولا أي فرد من مجتمعك كله قال لي حتى الآن شيئًا أسترشد به وأستهدي بهديه وأتأثره إلى ما فيه الصلاح، فدع هذا المجتمع وقل لي شيئًا أفضل مما كنت أسمعه من أصدقائك، وأنا أتبعك وأسير وراءك، ولكن لا تضحك مني فإنك تجرح بذلك شعوري».

نطق أليوشا بذلك في لهجة حادة نبيلة، وكانت ناتاشا ترقبه في عطف قوي، واستمع الأمير إلى ابنه في دهشة مفرطة، وسرعان ما غير من لهجته وأجاب: «إنني لم أرد مطلقًا أن أهينك يا بني، بل أنا- على النقيض من ذلك تمامًا- حزين من أجلك، فأنت توشك أن تخطو في حياتك خطوة تقتضيك أن تكف عن هذا الطيش والنزق، هذا ما أعتقده. وما كنت أستطيع أن أمنع نفسي من الضحك، ولكني لم أقصد بذلك مطلقًا أن أهينك».

فقال في مرارة: «فلماذا خيل إليَّ ذلك إذن؟ ولم كان يقع في نفسي دائمًا أنك تقف مني موقف العداء وتسخر مني دون مبالاة، على غير شيمة الآباء مع أبنائهم؟ ولم أشعر أني لو كنت مكانك لما وسعني أن أضحك

من ابني ساخرًا على نحو ما تفعل أنت؟ استمع إليّ: هلم وليدل كل منا إلى الآخر بما عنده في صراحة، الآن في هذه اللحظة. ومرة واحدة تغني عن مرار، كي لا ينشأ بيننا فيما بعد سوء تفاهم آخر.. و.... أود أن أقول الحق كل الحق، لقد خُيل إليَّ عند دخولي هنا أن الكآبة تنشر ظلالها على المكان، أو على الأقل لم أكن أتوقع أن ألقاكم جميعًا على هذا النحو. أمصيب أنا؟ وإن كان الأمر على ما ذكرت، أفليس من الخير أن يكشف كل منا عن إحساسه في صراحة تامة؟ كم من شرور يمكن توقيها بالصراحة!».

فقال الأمير: «امض في حديثك» وحدج ناتاشا بنظرة ثم قال: «إن مقترحك يبدو مفهومًا جدًّا، ولعل الخير في أن نبدأ به».

فاستأنف أليوشا حديثه قائلًا: «وأرجو ألا تغضبك صراحتي التامة يا أبت، فقد سبق أنك أنت نفسك حبذتها وحضضتني عليها. وعلى ذلك فاستمع: لقد رضيت باقترانا ومنحتنا هذه السعادة مقاومًا شعورك الشخصيّ، وكنت كريم النفس رحب الصدر، فقدرنا فيك جميعًا ما أوتيت من نبل وكرم نفس، فلماذا أراك أخذت فجأة تومئ في شماتة إلى أني ما زلت غلامًا غرًّا مضحكًا لا أصلح بعد للزواج؟ ولم يقف الأمر عند الحد، بل أخذت تحقرني، بل تعمل على إسقاط مروءتي عند ناتاشا. وأرى السرور يغمرك ووجهك يطفح بالبِشْر عندما يتاح لك أن تقودني إلى موقف أبدو فيه سخيفًا، ولم ألاحظ ذلك منذ قريب، بل منذ زمن بعيد. وكأن ثمة شيئًا يجعلك تحرص على أن تثبت لنا أن زواجنا سخيف نابٍ عن الذوق، وأن كلينا لا يليق بصاحبه، كأنك لا

تعتقد البتة بما أجزته لنا بنفسك، وكأن ذلك كله لم يكن غير دعابة، غير فكاهة مسلية وهذر مثير للضحك... لست أستخلص هذا من كلماتك اليوم وحدها، بل كلا، فإنك قد ألقيت عليَّ في تلك الأمسيّة، أمسية الثلاثاء عندما عدت إليك، بضع ملاحظات عجيبة أذهلتني وأمضتني. وكذلك بدر منك عند رحيلك يوم الأربعاء بضع تلميحات وتعريضات عن حالتنا الحاضرة، ولقد تحدثت أيضًا عن ناتاشا، لا بأسلوب مهين، بل على العكس تمامًا، ولكن بطريقة لم أكن أحب أن أسمعك تتكلم بها عنها، دون مبالاة وبلهجة خالية من الحب ومن التبجيل الواجب لها... ومن العسير أن أصف ذلك إذ إن الأمر يرجع إلى لهجة الحديث لا إلى ألفاظه، ولكن قلبي أحس ذلك. فقل لي إني كنت مخطئًا، اقنعني، خفف عني وكذلك عنها... فإنك قد جرحت شعورها هي أيضًا. وقد تبينت ذلك في أول نظرة ألقيتها حين دخلت هنا...».

قال أليوشا ذلك في حمية وإصرار، وكانت ناتاشا تصغي إليه وقد توترت أعصابها، واستولى عليها الشعور بالظفر، واتقد وجهها وأخذت تقاطع حديثه بين لحظة وأخرى بقولها: «أجل، أجل، تمامًا» فارتبك الأمير.

وقال: «أي بني، لست أستطيع بطبيعة الحال أن أذكر كل ما تحدثت به إليك، غير أنه من المدهش أن تؤول كلامي هذا التأويل، وإني مستعد أن أقنعك بنقيضه ما استطعت. ولئن كنت قد ضحكت الآن فإن ذلك لطبيعي مفهوم، وإني لأعترف لك في صراحة بأني إنما رغبت بهذا الضحك أن أخفي شعورًا ممضًّا، فإني عندما أتصور أنك وشيك الزواج

يبدو لي الآن أن ذلك مستحيل سخيف جدير بالسخرية. أنت تلومني على هذا الضحك، أما أنا فأقول لك إن تبعة ذلك تقع عليك وحدك، على أني لا أستطيع أن أبرئ نفسي كل البراءة، إذ لم أتعهدك في الزمن الأخير بما كان يجب أن أتعهدك به من عناية ورعاية، ومن ثم فقد فتحت عيني هذه الأمسية فقط فأذهلني ما رأيت من مبلغ صلاحيتك للنهوض بأي عمل من الأعمال. وإني ليغشاني الجزع عندما أفكر في مستقبلك ومستقبل ناتاليا نيكولايفنا، ولا ريب أني تسرعت كثيرًا، وأرى الآن أنه لا يلائم أحدكما الآخر مطلقًا. إن الحب ينقضي، أما عدم التجانس فباق. ولست أتكلم عن مصيرك وحدك، بل إن كنت حقًّا شريف المقصد، فاعلم أنك ستبئس معك ناتاليا نيكولايفنا وتوردها موارد التلف والبوار. لقد مكثت تتحدث ساعة كاملة عن حب الإنسانية وعن سمو المشاعر وعمن اتصلت بهم من شتى الأقوام، ولكن سل إيفان بتروفتش عما قلته له قبل الآن حين تسلقنا هذا الدرج الخطر حتى الطبقة الرابعة ثم وقفنا أمام الباب نحمد الله على أن لم يندق عنقانا وتتهشم سوقنا. أتعرف ما ملك عليَّ نفسي من شعور؟ لقد عجبت لك وأنت على هذا الحب الشديد لناتاليا نيكولايفنا كيف تطيق أن تراها تأوي إلى مثل هذا المسكن؟ ألم تتبين بعد أنه ليس من حقك وأنت لم تتأهب ولا تستطيع أن تقوم بفرائضك أن تكون زوجًا وأن تقدم على الاضطلاع بهذه الفرائض؟ إن الحب نفسه ليس بالشيء الخطير، وإنما يكون خطره حين يستحيل أعمالًا. أما أنت فقد جعلت شعارك عيشي معي ولو قاسيت معي المتاعب، وليس في هذا شيء من الإنسانية والنبل. إن تشدقك بحب الإنسانية جمعًا وتحمسك للشؤون

الإنسانية العامة، على حين أنك تسيء إلى حبك الخاص أمر لا أفهمه. لا تقاطعيني يا ناتاليا نيكولايفنا، دعيني أتم حديثي. إني أحسّ مرارة هذه الأمور ولا أجد مندوحة عن الإفضاء بكل ما في صدري. لقد قلت لنا يا أليوشا إنك صرت في هذه الأيام الأخيرة مفتونًا بكل ما هو جميل نبيل شريف، ونعيت على أوساطنا أنها لا تعرف شيئًا من هذا الافتتان، بل تتبع العقل المحض. فانظر أنت: لقد تحمست لشيء سار جميل ومع ذلك وسعك في الوقت نفسه، وبعد كل ما حدث هنا في يوم الثلاثاء، أن تغفل أربعة أيام كاملة تلك التي يفرض أنها أعز عندك من كل ما على وجه البسيطة. أجل، بل إنك اعترفت بأنك أنت وكاترينا فيودوروفنا، قد تنازعتما في أمر ناتاليا نيكولايفنا: هل بلغت من كرم النفس وقوة الحب ما يجعلها تصفح عما كان منك من تصرف؟ فعلى أي حق تعتمد في نيل صفح كريم عميم كهذا وفي المراهنة عليه أيضًا؟ ثم ألم تتأمل مرة فيما سببته لناتاليا نيكولايفنا في هذه الأيام الأربعة من العذاب وامتلاء نفسها بالمرارة ومن اليأس وخيبة الأمل؟ وهل كونك افتتنت هناك ببعض المثل العليا يبيح لك أن تغضي عن أهم فرائضك وأقدسها؟ معذرة يا ناتاليا نيكولايفنا إن أنا نقضت كلمتي، فإن هذه الحالة التي أتكلم عنها الآن أهم عندي من كلمتي، وهذا ما ستسلمين به أنت نفسك... وهل تدري أيضًا يا أليوشا أني ألفيت ناتاليا نيكولايفنا في حال من الغم عرفت منها في الحال أي جحيم قذفت بها إليه في هذه الأيام التي كان ينبغي أن تكون أهنأ أيام حياتها؟ فعمل كهذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى كلمات وكلمات ولا شيء غير الكلمات... ألست على حق فيما أقول؟ وبعد

ذلك تأتي فتلومني، والخطأ خطأك وحدك!».

أتم الأمير حديثه وكان قد اندفع فيه محفوزًا بموهبته الكلامية وقوة عارضته، ولم يستطع أن يخفي شعوره بالظفر. فلما سمع أليوشا أن ناتاشا متألمة، نظر إليها في ألم وأسى، أما هي فكانت قد أجمعت أمرها وقالت: «لا تأس يا أليوشا ولا تعبس، فإثم غيرك أكبر من إثمك، اقعد جانبًا وأصغ إلى ما أقوله لوالدك، فقد آن الأوان أن نضع حدًّا لهذا».

فصاح الأمير: «لتكوني في كلامك أكثر وضوحًا يا ناتاليا نيكولايفنا. إنني ألحف في الرجاء أن تفعلي! فقد لبثت ساعتين كاملتين أسمع هذه التلميحات الملغزة، وهذا ما لا أطيقه، وإني لأعترف في صراحة أني لم أكن أنتظر استقبالًا مثل هذا الاستقبال!».

«قد يكون ذلك، فقد كنت تتوهم أنك ستخدرنا بألفاظك ومن ثم لا نلحظ أغراضك الخفية. ماذا تريد أن أوضح لك أكثر من هذا؟ إنك تعرف كل شيء وتدرك كل شيء، ولأليوشا الحق كل الحق، فإن رغبتك العظمى هي أن تفرق بيننا. وقد أدركت من أول الأمر كل ما سيقع هنا بعد ذلك الثلاثاء المعهود، وكنت مستيقنًا كل الاستيقان بجميع ما سيحدث حتى لكأنك قتلته حسابًا، وقد قلت لك من قبل إني أعرف أنك لا تنظر نظرة الجد إليّ أو إلى الزواج الذي اقترحته بنفسك. إنك اتخذت منّا وسيلة للتسلية واللهو وجعلتنا مطية لأغراضك الخاصة، وكنت بارعًا في لعبتك. وكان أليوشا محقًّا حين أخذ عليك أنك تنظر إلى مسألتنا كما لو كانت دعابة من الدعابات. ولقد كنت حريًّا بأن تسرّ وتبتهج لمسلك أليوشا، لا بأن تقرعه وتثرب عليه، فإنه قد فعل، دون أن يعي، كل ما كنت

تتوقعه منه بل أكثر مما كنت تتوقع».

أيبستني الدهشة. أجل، لقد كنت أتوقع كارثة في هذه الأمسيّة، ولكن الصراحة الصارمة التي أبدتها ناتاشا، ولهجتها التي لم يكن ثمة سبيل إلى فهمها على غير وجهها، جعلتاني في ذهول بالغ، فقلت في نفسي وإذن فلا بد أن يكون على علم بكل شيء، وأن تكون قد اعتزمت صرم علاقتها به، بل لعلها قد ظلت تنتظر قدوم الأمير وهي نافدة الصبر ليتسنى لها في النهاية أن تقذفه في وجهه بكل شيء؟ وامتقع وجه الأمير قليلًا، في حين لاحت على وجه أليوشا هموم صبيانية وتوجّس ممضّ أليم.

فصاح الأمير: «تدبري ما قرفتني به الآن، وزني ألفاظك بعض الشيء على الأقل... لست أ فهم من كل هذا شيئًا».

فقالت ناتاشا: «عجبًا، إذن أنت لا تريد أن تفهمني، حتى هو، حتى أليوشا قد فهمك واستشف سريرتك كما فهمتك أنا واستشففت سريرتك، دون أن نتناقل في ذلك كلمة واحدة، بل دون أن يرى أحدنا الآخر. هو أيضًا قد أحس أنك تلعب معنا لعبًا مرذولًا مهينًا، ابنك الذي أنت أحب إليه من كل شيء، والذي يؤمن بك إيمانه بربه. إنك لم تر من الضروري أن تكون في موقفك حياله أشد مكرًا وأخذًا بأسباب الحيطة والحذر، وفرضت أنه لن يلحظ شيئًا، على حين أن له نفسًا لطيفة مرهفة الحس سريعة التأثر قوية الإدراك. وقد كانت كلماتك ولهجتك، كما يقول، تحز قلبه».

فقال الأمير مرددًا ما قاله آنفًا وقد بدت عليه سيما الدهشة واتجه

إليَّ كأنما يريد أن يستشهد بي: «لست أفهم شيئًا!» ثم استدار نحو ناتاشا قائلًا: «إنك سيئة الظن وفي حال مضطربة، وليس لذلك من سبب إلا غيرتك من كاترينا فيودوروفنا، وهذا ما يجعلك ترين أن الخالق والخلق جميعًا مذنبون وترينني أنا كذلك على وجه الخصوص... فاسمحي لي أن أقول إنك ترسمين بذلك في ذهني صورة غريبة لصفاتك الخلقية... إنني لم أتعود هذه المشاهد، وما كنت لأبقى هنا لحظة واحدة بعد الآن لولا اهتمامي بما فيه صلاح ابني... وما زلت أنتظر منك إيضاحًا!».

«إذن فأنت لا تزال مصرًّا ولا تريد بعد البيان القصير الذي أفضيت به إليك أن تفهم، مع أنك على علم تام بكل شيء؟ إذن فأنت تطلب أن أجبهك بكل شيء حرفًا حرفًا؟».

«هذا بديهي، فما أنتظر سوى ذلك».

فصاحت ناتاشا وقد تطاير من عينيها شرر الغضب: «حسن، إذن فاسمع، فالآن أقول لك كل شيء، أقول لك كل شيء».

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

ونهضت واقفة وانبرت تتكلم دون أن تنتبه إلى توتر أعصابها، فتردد الأمير هنيهة ثم وقف هو أيضًا، فبدا المشهد رائعًا مهيبًا.

وبدأت حديثها قائلة: «ألا تزال تذكر كلماتك يوم الثلاثاء؟ لقد قلت: إنني أتعطش إلى المال والوجاهة وشبوب المنزلة في المجتمع... ألا تزال تذكر؟».

«أجل».

«حسن، فأنت، لكي تحصل على هذا المال ولكي تظفر بكل هذا النجاح الذي يتهدد بالإفلات من يدك، لهذا وحده قدمت إلى هنا يوم الثلاثاء واخترعت هذه الخطبة، بعد أن حسبت حسابًا دقيقًا أن هذا الضرب من المزاح سيعينك في القبض بقوة على ما يكاد يفلت من يدك».

فصحت: «ناتاشا. تروّي فيما تقولين!».

فكرر الأمير في لهجة من جرحت عزته: «الضرب من المزاح؟ حسبت حسابًا دقيقًا؟».

وقعد أليوشا واجمًا كأنما أقعده الهم، وأخذ يستمع دون أن يعي شيئًا مما يسمع.

وتابعت ناتاشا كلامها وهي مشدودة الأعصاب: «أرجوك، لا تقاطعني فقد آليت أن أقول كل شيء، فأنت تعلم أن أليوشا لم يكن يذعن لك، إذ إنك دأبت ستة أشهر تجهد في انتزاعه مني، بيد أنه ثبت إلى جانبي على غير رغبتك. ثم حان حين لم يبق لديك فيه مندوحة لإضاعة وقت آخر، فإن أنت تركت الأمور تسير سيرها ضاعت عليك الخطيبة والمال، المال قبل كل شيء، بائنة قدرها ثلاثة ملايين تامة تنساب من فروج أصابعك، فلم يبق أمامك إلا مخرج واحد هو أن يغرم أليوشا بالفتاة التي اخترتها خطيبة له، والتي حدثتك نفسك أنه إن شغف بها فسينسى الأخرى بلا ريب...».

فصاح أليوشا في ابتئاس: «ناتاشا، ناتاشا! ما هذا الذي تقولين؟».

فاستأنفت كلامها دون أن تلقي إلى هتافه بالًا: «وقد بنيت خطتك على هذا الأساس، ولكنك وجدت القصة القديمة تواجهك ثانية، فقد كان كل شيء يسير في طريقه لو لم أبق أنا عقبة في الطريق، ولم يبق أمامك إلا أمل واحد، فإنك، وأنت الأريب المحنك، قد لاحظت من قبل أنه كان يبدو على أليوشا في بعض الأحيان كما لو كان يشعر بأن حبه القديم يثقل عليه. ولم يكن ليغيب عنك أنه بدأ يهملني ويحس معي السآمة والضجر، ويمسك عن المجيء إليَّ في بعض الأحيان خمسة أيام متواصلة، فاعتقدت أنه قد زهد فيّ وأنه موشك أن يتركني، وإذا به في يوم الثلاثاء قد صدمك على حين غرّة باعتزامه البات. فماذا أنت عامل؟».

فصاح الأمير: «عفوًا. إن الأمر كان على النقيض من ذلك، فإن هذه الحادثة...».

فقاطعته ناتاشا في عنف: «دعني أتم حديثي، فقد سألت نفسك في ذلك المساء عما يجمل بك أن تعمله، فانتهيت إلى أن تأذن له في الزواج، إذنًا ظاهريًّا لا حقيقيًّا، إذنًا بالكلام ليس غير، وذلك حتى يطمئن قلبه ويزايله الخوف، وحدثتك نفس بأنه من المستطاع إرجاء يوم الزفاف، فتكون قد تأصلت خلال ذلك جذور الحب الجديد، لقد حسبت كل ذلك حسابًا دقيقًا، وبنيت خطتك كلها على أساس هذا الحب الجديد».

فتكلم الأمير بصوت مرتفع قليلًا كأنما كان يخاطب نفسه: «أوهام أوهام، إنما ذلك مبعثه الوحدة والأحلام وقراءة القصص!».

فكررت ناتاشا قولها: «أجل، فقد بنيت خطتك كلها على أساس هذا الحب الجديد» وكأنها لم تسمع اعتراض الأمير، أو كأنها لا تريد أن تلقي إليه بالًا، وكانت تتكلم كالمحمومة وأعصابها تزداد توترًا باطراد: «وما أكثر الفرص بين يدي هذا الحب الجديد، فقد نبت في قلبه قبل أن يستبين له كل ما للفتاة من مزايا وخلال، ولكنه في اللحظة التي صارحها فيها ذلك المساء بأنه لن يستطيع حبها لأن الواجب وحبًّا آخر يحظران ذلك عليه، في تلك اللحظة أبدت له هذه الفتاة من النبل والعطف عليه وعلى منافستها ومن الصفح الكريم ما جعله- وهو الذي لم يكن يقدر منها إلا جمالها- يبدأ يتبين فيها الكمال كله، حتى إذا ما قدم إليَّ في ذلك الوقت، كان لشدة ما افتتن بها لا يتحدث إلا عنها. وتملكته في اليوم التالي رغبة لا تقاوم في أن يرى هذه المخلوقة البديعة، ولو على سبيل

الشكر والاعتراف بالجميل. ولِمَ لا يذهب إليها؟ فأنا حبيبته الأولى قد أصبح من المفروض أني صرت لا أشعر بالغصة والألم، بعد أن تحدد مصيري وأصبح هو على وشك أن يمنحني حياته كلها، فلماذا يضن على تلك بلحظة قصيرة؟.. وما أجحد ناتاشا للجميل لو أن الغيرة تملكتها من هذه اللحظة القصيرة. وهكذا سلب هذه الناتاشا، وهو لا يدري، بدلًا من لحظة قصيرة يومًا وثانيًا وثالثًا... وفي خلال هذا الزمن كانت الفتاة تبدو له في ضوء جديد لم يكن يتوقع أن يراها فيه، فهي نبيلة المشاعر متأججة الحماسة، ثم هي إلى ذلك غرّة غرارة الأطفال، ولذلك كانت أكثر تجانسًا معه في الصفات الخلقية وأشد ملاءمة له، وقد أقسم كل منهما لصاحبه يمين الصداقة الأبدية وصارا يتخاطبان بغير كلفة، واعتزما ألا يفترقا ما بقيا على الحياة. وفي حديث خمس ساعات أو ست ساعات تفتح قلبه لكل هذه الإحساسات الجديدة فأسلم للفتاة روحه... وسيأتي في مقتضى حسابك الوقت الذي يوازن فيه بين حبه القديم وإحساساته الغضة الجديدة: فهنا جدٌّ في كل شيء ومطاليب لا تحصى، وهنا غيرة وشجار وسفك دموع، فإذا حدث لهو ولعب عومل فيهما معاملة الطفل لا الندّ، ثم- وتلك الطامَّة الكبرى- لقد خبر كل ما هنا... فلم يبق هنا من جديد...».

وأوشك صوتها أن تخنقه العبرات والنشيج الأليم، لولا أنها عادت فاستجمعت قواها مرة أخرى وملكت نفسها.

«وماذا بعد ذلك؟ إن ما بعد ذلك متروك للزمن، فحفلة زفاف ناتاشا لم يعين ميعادها بعد، ولا يزال في الوقت فسحة تتبدل خلالها بعض

الأمور... وإلا فلم كانت الكلمات والتلميحات وتأويل الألفاظ وصناعة الكلام كلها؟ ومن المستطاع كذلك تشهير هذه الناتاشا المتعبة وغمرها بضوء منفّر، و.... الله أعلم بكل ما في جعبتك، فلست ألمّ بكل ذلك، ولكن النصر كان من نصيبك! أليوشا، حبيبي، لا تغضب مني، لا تقل إني لم أفهم حبك ولم أقدره قدره، فأنا أعلم أنك لا تزال تحبني، وأنك قد تكون غير مستطيع أن تفهم شكواي هذه في هذه الساعة، وأعلم تمام العلم أني مخطئة كل الخطأ في إيضاحي حقيقة الأمر في الوقت الحاضر، ولكن ماذا عساي أفعل وأنا أدرك تلك الحقيقة واضطرم في الوقت نفسه بالحب لك والهيام بك، ويزداد حبي لك إلى حد الجنون...».

وسترت وجهها براحتها وغاصت في كرسيها تنتحب نحيب الأطفال، فألقى أليوشا بنفسه عليها صارخًا، إذ كان لا يستطيع أن يراها تنتحب دون أن ينتحب هو الآخر.

ولقد جاء هذا الانهيار على ما كان يودّ الأمير، فإن انفعالها الشديد في أثناء هذا الإيضاح الطويل، ومهاجمتها إياه في حدّة وعنف، مما اضطره، ولو لمراعاة مركزه، إلى إبداء شعوره بأنه قد أهين، إن هذا كله قد أصبح هو الآن يستطيع في سهولة أن يعزوه إلى انفجار الغيرة المخبولة والحب المكلوم، بل ربما استطاع أن يعزوه إلى نوبة مرضية طرأت عليها... بل إنه فوق هذا قد رأى أن يبدي لها عطفه عليها.

فقال مطيِّبًا خاطرها: «هدئي من روعك يا ناتاليا نيكولايفنا ولا تأسي، فليس ذلك كله إلا أوهامًا وتخيلات ولّدتها الوحدة... لقد أحنقك مسلكه الطائش... ولكنك أنت نفسك ترين أن المسألة لم تكن

إلا طيشًا منه ونزقًا... أما الأمر الذي عنيت بالحديث عنه أكبر العناية، أريد ما كان منه من تصرف في يوم الثلاثاء الماضي، فقد كان أخلق به أن يقنعك إقناعًا تامًّا بعمق حبه وبتعلقه بك إلى غير حد، ولكنك بدلًا من ذلك فرضت....».

فقاطعته ناتاشا وهي تبكي بحركة: «خلّ عنك الحديث ولا تزدني الآن عذابًا، فكل هذا قد هداني إليه قلبي من قبل، هداني إليه من زمن بعيد. أتظن أنني لا أشعر أن غرامه الوحيد إنما هو هناك؟.. إنني هنا في هذه الغرفة، منفردة وحدي... حين هجرني ونسيني... رأيت كل شيء... وفكرت في كل شيء... وما العمل؟ لست أشكوك يا أليوشا... ولكن لماذا تخدعني؟ ألا تعتقد أني أنا قبلك قد حاولت أن أخدع نفسي؟ أواه، ما أكثر ما حاولت ذلك! ألم أكن أصغي إلى كل نبرة من نبرات صوته؟ ألم أتعلّم كيف أقرأ كل شيء في وجهه، في عينيه؟ كل شيء مضى وولى... قد عفا وزال... يا لي من شقية تاعسة!».

فجثا أليوشا بين يديها ينتحب.

وتمتم بين دموعه قائلًا: «أجل، إنه ذنبي أنا وحدي. كل هذا كان بسببي...».

«لا لا يا أليوشا، لست أنت السبب، بل غيرك.. أعداؤنا.. هم المذنبون هم وحدهم!».

وبدأ الأمير يقول في شيء من الصبر المنهزم: «ولكن اسمحي لي، على أي أساس تبنين اتهامك لي بكل هذه الـــ... الجرائر. ليس كل

ذلك إلا حدسًا وتخمينًا، وليس لديك بينات وبراهين».

فصاحت ناتاشا: «براهين!» ووثبت في خفة من كرسيها: «أما زلت تسألني براهين أيها الغادر الخبيث؟ إنك لم تكن تستطيع، لم تكن تستطيع إذ ذاك أن تتصرف غير هذا التصرف، ولم تأت إليَّ إلا لهذا الغرض! لقد كنت مضطرًا إلى تهدئة ابنك وتخدير ضميره، حتى يستطيع أن يهب نفسه لكاتيا وهو أكثر ما يكون هدوءًا وحرية. ولولا ذلك لشق عليك عصا الطاعة ولم يستمع إليك، ولظل يفكر فيّ وحدي دون غيري حتى تمل الانتظار. أليس ذلك صحيحًا؟».

فأجاب الأمير متهانفًا: «لا بد لي أن أعترف بأني لو كنت أقصد إلى خداعك حقًّا، لما وسعني أن أفكر في طريقة أمثل من هذه الطريقة. إنك حقًّا لعلى حظ عظيم من.... الذكاء، على أن مثل هذه الأمور لا تزال على أية حال مفتقرة إلى التدليل عليها، قبل التجرؤ على إهانة امرئ بتوجيه مثل هذه المثالب إليه».

«التدليل! أو ليس مسلكك كله فيما مضى، حين كنت تحاول المرة تلو المرة أن تقصيه عني وتصرف قلبه عن مودتي، بدليل على ذلك! لا شك أن الرجل الذي يروض ابنه على إغفال مثل هذه الواجبات والعبث بها جريًا وراء المكاسب الدنيوية وحدها، جريًا وراء المال وحده، إنما يدفع بمعنوياته إلى وهدة التلف والبوار. ثم ماذا وصفت به آنفًا درج سلمي، وماذا قلت عن مسكني التعس؟ ألم تحبس أنت عنه راتبه الذي كنت تجريه عليه لترغمنا بالجوع والهم على الانفصال؟ إنه إليك وحدك يرجع مقامنا في هذا المسكن وهذا السلم، ثم ها أنت ذا أيها

المرائي، تؤنبه مع ذلك بسببهما. ثم ماذا بعث فيك فجأة في ذلك المساء تلك الحمية والعواطف الحارة وتلك الآراء الغريبة عنك؟ ولماذا أمسيت أنا فجأة ضرورية لك إلى هذا القدر؟ لقد ظللت هنا هذه الأيام الأربعة أروح وأغدو، وتأملت في كل شيء، واستعدت في ذاكرتي كل كلمة من كلماتك وكل ما كان يرتسم على وجهك من إحساس، فاقتنعت أن ذلك كله لم يكن غير لعبة زائفة ومزح مهين ومهزلة وضيعة... إنني أعرفك، أعرفك منذ زمن بعيد. وفي كل مرة كان أليوشا يقبل عليَّ من عندك كنت أتبين من ملامحه ماذا قلت له وماذا وسوست إليه، وكنت أحس بكل أثر تحدثه في نفسه. كلا، لن تستطيع خداعي. لعل لك أغراضًا أخرى، هذا ممكن، ولعلني لم أذكر أسوأ أغراضك، بيد أن هذا أمر لا خطر له، فقد خادعتني وخاتلتني، وهذا هو المهم! وقد أردت أن أجبهك بهذا!».

«ألا يزال عندك شيء بعد؟ أهذا كل ما لديك من براهين وحجج؟ ألم تفطني وأنت في هياجك إلى أنني بهذا الضرب من المزاح كما تحبين أن تسمي ما فعلته يوم الثلاثاء، قد قيدت نفسي برباط وثيق؟ أليس ذلك- لو صح رأيك- كان يكون طيشًا مني ونزقًا؟».

«بم، بم قيدت نفسك؟ وأي قيمة تراها أنت لمخادعتك إياي؟ وما خطر إهانة فتاة يكتنفها ما يكتنفني؟ فتاة مسكينة لا ملجأ لها، طردها والدها وليس لها من يسبل عليها حمايته، فتاة ساقطة مثلومة الشرف. وهل هي جديرة أن تشغل جانبًا من تفكيرك حين يكون في ذلك الضرب من المزاح مصلحة لك، بالغة من الضآلة ما بلغت؟».

«ولكن تأملي يا ناتاليا نيكولايفنا في الوضع الذي تضعين فيه نفسك،

فأنت تصرين على أني أهنتك وتتشبثين بذلك، بيد أن هذه الإهانة قد بلغت من الجسامة والتحقير حدًّا لست أفهم معه كيف تجول بخلدك، بله أن تصري عليها. لا بد أن تكوني قد ألفت مثل ذلك- وأستميحك المعذرة- إذ إنك تجدين من اليسير أن تفرضي أمرًا كهذا. ولئن كان لأحد أن يلوم ويعتب فهو أنا؛ لأنك استثرت ابني وهجته عليّ، ولئن كان لا يثور الآن في وجهي بسببك، لقد غدا في وليجة نفسه حربًا عليّ...».

فصاح أليوشا: «كلا كلا يا أبت! إذا كنت لا أثور في وجهك؛ فذلك لأني ما اعتقدت ولن أعتقد أنك تنطوي على مثل هذه المقاصد، ولأني لا أستطيع أن أتصور أن مثل هذه الإهانة يمكن أن تصدر عن أحد!».

فصاح الأمير: «أسامعة أنت؟».

«ناتاشا. إني أنا الجاني في كل هذا، فلا تتجنّي على أبي! فهذا أمر فظيع، إنها لخطيئة!».

فصاحت ناتاشا: «أتسمع يا فانيا؟ لقد غدا حربًا عليّ!».

فقال الأمير: «أما الآن فحسبك هذا! ولنضع حدًّا لهذا المشهد الفاجع. إن هذا الانفجار الجارف الأعمى لغيرتك التي لا حدّ لها، يريني أخلاقك في ضوء جديد غاية الجدة. ولقد أنذرت بذلك غير أني تسرعت كثيرًا. لا شك أني تسرعت كثيرًا. ولقد بلغ بك الأمر أن صرت لا تلحظين ما وجهت إليَّ من إهانة. هذا أمر لم تكوني لتفطني إليه. لقد كنا تعجلنا حين خطونا تلك الخطوة... تعجلنا... أجل، لا بد بالطبع أن أكون عند كلمتي، غير إني... إني أب وأحب أن يكون ابني سعيدًا...».

فصاحت ناتاشا وقد عزب عنها رشدها: «إذن فأنت تتحلل من كلمتك؟ وأنت مغتبط أن عثرت على هذه الحجة القوية؟ إذن فاعلم أني أنا نفسي قد أزمعت هنا منذ يومين أن أحرّره من كلمته، وها أنا ذي أكرر ذلك الآن على مسمع من الجميع. إنني أرفض طلبك!».

«معنى ذلك أنك تريدين أن توقظي كل ما لديه من شوق قديم وشعور بالتبعة واهتمام بالواجبات على حد تعبيرك الذي فهتِ به آنفًا، وذلك لتشدي وثاقه إليك ثانية على ما يظهر. ذلك ما يستخلص على الأقل من نظريتك، ومن هنا أفرض أن هذه غايتك. ولكن كفى، فسينفذ الزمن أمره في كل شيء، وسأنتظر لحظة تكونين فيها أهدأ منك الآن ليدلي كلانا بما عنده. وآمل ألا يكون ما بيننا من صلة قد انقطع كل الانقطاع، بل آمل على العكس أني سأكون عندك خيرًا مني الآن. لقد كنت معتزمًا أن أظهرك اليوم على خطتي نحو والديك، وكنت ستعرفين من ذلك.. ولكن حسبنا هذا!» ثم أضاف قوله، وقد دنا مني: «إيفان بتروفتش. لقد كثر ما وددت أن أزداد معرفة بك، وأنا الآن أشد مما كنت رغبة في ذلك، وآمل أن تفهمني أنت. وسأزورك في خلال هذين اليومين إن أذنت».

فانحنيت له وقد أصبحت يخيل إليَّ أنني لا أستطيع منذ اليوم أن أتحامى معرفته. وضغط يدي ثم انحنى صامتًا بين يدي ناتاشا، وخرج وعليه سيما البراءة المهانة.

* * *

الفصل الرابع

ولم ينبس أحد منا ببنت شفة، فقد جلست ناتاشا تفكر محزونة كاسفة البال كأنما قد استنفدت قواها. وقد فقدت كل ما كان لها من نشاط وعزيمة، وصارت كالمخبولة تحملق ببصرها دون أن تبصر شيئًا، وكانت ممسكة يد أليوشا بكلتا يديها. أما هو فكان يتسلى عن همومه بالبكاء، وينظر إليها بين آن وآخر خائفًا يترقب.

ثم أخذ آخر الأمر يعزيها في شيء من الخجل والتهيب راجيًا ألا تغضب عليه وملقيًّا كل التبعة على نفسه، فكان من الواضح أنه يتوق توقًا شديدًا إلى أن يذود عن والده، وإن ذلك الشعور كان مستوليًا عليه، بل إنه همّ أن يتحدث في ذلك، غير أنه لم يجرؤ أن يقوله صراحة حتى لا يهيج غضب ناتاشا من جديد، وأقسم لها على الحب الوفيّ الأبديّ، ودافع عن نفسه في حمية فيما يكنّ لكاتيا من الميل، فكان يكرر بلا انقطاع أنه إنما يحبها كما يحب الأخ أختًا له، أختًا طيبة عزيزة لا يستطيع مخالاتها أبدًا، وإلا كان ذلك منه قسوة وجورًا.

وطفق يقول مؤكدًا المرة بعد الأخرى إن ناتاشا ما إن ترى كاتيا حتى تصبح كلتاهما صديقتين حميمتين لا تنفصم عرى صداقتهما، ولا ينشأ بينهم جميعًا ما يعكر الصفو. وكانت هذه الفكرة تستهويه كثيرًا إذ كان المسكين يعتقد ذلك اعتقادًا جازمًا. وكان لا يفهم سببًا لتخوّف ناتاشا، ولم يفهم أيضًا معنى لبعض ما قالته لوالده، وإنما كان كل ما أدركه هو أنهما تشاحنا، وكان ذلك يكظه ويشق عليه كأنه عبء ثقيل على قلبه.

وسألت ناتاشا: «أغاضب أنت عليَّ من جرّاء والدك؟».

فأجاب وهو يشعر بمرارة: «وكيف يمكن أن أكون كذلك وأنا نفسي سبب ما حدث وأنا وحدي من ارتكب إثمه؟ فأنا الذي أحنقتك وهجت ثائرتك إلى هذا الحد فعمدت في سورة اهتياجك إلى تقريعه؛ لأنك أردت أن تلتمسي لي عذرًا. إنك دائمًا تسبغين عليَّ حمايتك وما أنا بأهل لذلك أو لبعض ذلك. وإذ لا بد أن يكون ثمة مذنب، فقد رأيت أن تجعليه هو المذنب وما هو في الواقع بمذنب». ثم صاح في حمية: «أفكان قدومه بحافز من هذه الفكرة؟ وهل كان يتوقع ما حدث؟».

ولكنه سرعان ما ملك نفسه حين بصر بناتاشا ترنو إليه في حزن وعتب.

وقال: «كلا، فلست أريد، لست أريد أن ألومك البتة، فمعذرة. إنني أنا سبب كل ما حدث».

فاستأنفت كلامها وهي كسيرة الخاطر: «آه يا أليوشا. لقد زج بنفسه بيننا وعكر علينا صفو حياتنا حتى آخر العمر. لقد كنت حتى الآن تؤمن بي أكثر من إيمانك بالناس كافة، أما الآن فقد بذر في قلبك بذور الريبة

وسوء الظن بي. وها أنت ذا تلومني وتخطّئني. لقد سلبني نصف قلبك. لقد جرى القط الأسود بيننا».

«لا تتكلمي بمثل هذا الكلام يا ناتاشا. لم تتحدثين عن القط الأسود؟.

لقد آلمه هذا التعبير.

وتابعت ناتاشا حديثها: «لقد استمالك إليه بما أبداه نحوك من حنوّ كاذب وأريحية زائفة، وسيظل يثيرك ويرم ثورتك عليّ مرة بعد مرة».

فصاح أليوشا وهو أعظم ما يكون تأثرًا: «ولكني أقسم لك أن الأمر ليس كذلك، وأنه إنما كان مهتاجًا حين فاه بقوله: «لقد كنا متعجلين»، وسترين أنت بنفسك أنه سيرى غدًا أو بعد غد رأيًا غير هذا، وإذا كان قد بلغ منه الغضب أن أصبح لا يرغب حقًّا في اقترانا، فأقسم لك إني لن أصغي إليه ولن أطيعه، وقد تواتيني القدرة على ذلك...» وصاح فجأة وقد استهواه ما طرأ عليه من فكرة: «أتدرين من عسى أن يعيننا على ذلك؟ كاتيا هي التي ستمد إلينا يد المعونة، وسترين فيها أية إنسانة بديعة! ستقتنعين أنت بنفسك أنها ليست بمنافسة لك، وأنها لا ترغب في أن نفترق. لشد ما نأيت عن الإنصاف حين قلت منذ هنيهة إنني أحد أولئك الذين يستطيعون في اليوم التالي لقرانهم أن يحبوا امرأة أخرى! لشدّ ما آلمني هذا القول. كلا، فإني لست كذلك! وإذا كنت أكثر من زيارة كاتيا...».

«دع عنك هذا يا أليوشا، وزرها كلما شئت ومتى شئت، فإني لم أكن إذ ذاك أقصد إلى ذلك. أنت لم تفهم كل شيء. كن سعيدًا مع من تصطفي وتختار، فلست أطلب من قلبك أكثر مما يستطيع أن يهب لي...».

ودخلت مافرا الغرفة.

«وبعد؟ أفأحضر الشاي أم لا؟ يا لها من إدارة منزلية! الغلاية فوق النار منذ ساعتين، والساعة الآن الحادية عشرة!».

قالت ذلك في جفوة شديدة وغضب. وكان من الواضح أنها منهوكة النفس وأنها ساخطة على أليوشا، ذلك أنها كانت منذ ذلك الثلاثاء تمرح طوال هذه الأيام في غبطة وابتهاج، إذ إن سيدتها الصغيرة التي تحبها هي من سويداء قلبها على وشك أن تتزوج، فلم تتطق أن تتوانى عن إذاعة هذا النبأ الجديد في كل مكان، في المنزل وعند الجيران، وفي الحانوت وعند البواب. وكانت بذلك جدّ مزهوّة، تقصّ بلهجة الظافر أن الأمير، وهو قائد معروف ورجل بالغ الوجاهة واسع الثراء، وفد بنفسه على آنستها يسألها يدها لابنه، وأنها هي، أي مافرا، سمعت ذلك بأذنيها، والآن يتبدد كل ذلك هباء، فقد انصرف الأمير حانقًا مغضبًا من دون أن يقدم إليه الشاي، ولا مراء في أن الآنسة هي السبب في كل ذلك، فقد سمعت مافرا كيف أنها كانت تخاطب الأمير في غير توقير ولا تبجيل.

وأجابت ناتاشا: «أجل، أحضريه!».

«واللقيمات أيضًا؟».

فضحكت ناتاشا وقالت: «أجل، أحضريها أيضًا».

واستمرت مافرا في حديثها: «لقد أعددنا كل شيء وأجهدنا أنفسنا في إعداده، وحفيت قدماي من طول ما مشيت، فقد سرت حتى شارع نيفسكي لإحضار النبيذ، والآن....».

وخرجت مغضبة وصفقت الباب وراءها صفقًا شديدًا، فاحمر وجه ناتاشا ورنت إليّ في دهش.

ومدت المائدة بالشاي وبالطعام كذلك، فكان ثمة ديك بري محمر وسمك وقنينتان من أطيب نبيذ يليسيف، فسألت نفسي لم كانت قد أعدت ذلك كله؟

قالت ناتاشا وهي تدنو من المائدة مستحيية أن تواجهني: «انظر يا فانيا إلى ما صار إليه أمري. لقد كنت أعلم من قبل أن الأمر سيؤول إلى ما آل إليه اليوم، غير أنه كانت لدي بقية من أمل في إمكان أن ينتهي الأمر إلى نهاية طيبة، وظننت أن أليوشا قد يفد حاملًا معه السلام، فتعود بذلك الألفة والوئام بيننا جميعًا، ويستبين لي أن ريبتي بهم لم تكن على أساس، فأعددت هذه اللقيمات للاحتياط ظنًّا مني أن الحديث قد يطول فنبقى إلى ساعة متأخرة...».

يا لناتاشا المسكينة! لقد احمر وجهها كثيرًا عندما قالت ذلك فافتتن بها أليوشا افتتانًا.

وصاح: «ها أنت ذي ترين يا ناتاشا أنك أنت نفسك لم تكوني تعتقدين ذلك اعتقادًا جازمًا، فقد كنت منذ ساعتين اثنتين غير واثقة من أنك محقة في ارتيابك بأبي! كلا، فلا بد من إصلاح الأمور. أنا المذنب وأنا السبب في كل هذا وسأصلح كل شيء، فأذني لي يا ناتاشا أن أذهب في التوّ إلى والدي. لا مناص من الذهاب إليه، فقد أهين وجرحت كرامته ويجب أن أسرّي عنه وأهوّن عليه الأمر، وسأخبره بكل شيء. على أني سأتحدث معه عن نفسي، عن نفسي فقط دون أن أتكلم عنك أو أزج باسمك في

الأمر. سأعيد الأمور إلى نصابها... لا تغضبي إن رأيتني أتوق إلى الذهاب إليه وأعتزم تركك في الحال، فإنني لم أكن أريد ذلك، ولكنني حزين لما أصابه. وسيبرئ نفسه بين يديك وسترين... وسأفد إليك غدًا في الصباح مبكرًا وأمكث عندك طوال النهار فلا أزور كاتيا...».

فلم تستوقفه ناتاشا بل استحثته على الذهاب، إذ كانت تخشى كل الخشية أن يكره نفسه على قضاء يوم كامل معها، فيصيبه الضجر منها ويتولاه السأم عندها. ولم تطلب إليه إلا أمرًا واحدًا، هو ألا يتحدث إلى والده باسمها في شيء، وجهدت أن تبدو عند وداعه بشة باسمة. ولم يكد يهم بالخروج، حتى التفت فجأة فأمسك بيديها وجلس إلى جانبها وهو ينظر إليها في حنان يجلّ عن الوصف.

«ناتاشا، حبيبتي، ملاكي الكريم، لا تغضبي مني، ولنظل في وئام أبدًا. عديني أن تثقي بي دائمًا كما أثق بك وأومن. انظري يا ملاكي: سأقص عليك الآن حادثة: لقد تشاحنّا ذات مرة ولا أذكر علام كان ذلك، ولكني على كل حال كنت المذنب، فأمسكنا عن المحادثة، وأردت ألا أكون البادئ بطلب الصفح، مع أن قلبي كان قد أوشك أن ينفطر من جراء تلك الحالة، فانطلقت أهيم على وجهي خلال المدينة ضاربًا في طرقات لا أعرفها، ثم عمدت إلى زيارة بعض أصدقائي ولكن قلبي كان مثقلًا، كان مثقلًا... فجال في خلدي بغتة: ماذا يكون لو أنك مرضت الآن فمتّ. فلما تصورت ذلك استحوذ عليَّ يأس مروّع كما لو كنت قد فقدتك إلى الأبد حقًّا. وأخذت هذه الفكرة تنمو وتزداد ظلمة وقسوة. ولجّ بي الأمر حتى توهمت أني عثرت على جدثك فهممت أن أحتويه

بين ذراعي لولا أن سقطت مغشيًّا عليَّ يكاد الهم يودي بي. ورأيت بعيني الروح كأنما غمرت جدثك بالقبلات وأخذت أناديك أن تعودي إليّ ولو لحظة واحدة، وشرعت أضرع إلى الله أن يبعثك أمامي ولو لحظة، وتخيلت أني سأندفع نحوك فاحتضنك وأضمك إلى صدري وألثمك ثم أموت سرورًا بأني استطعت أن أضمك إلى صدري مرة أخرى كما كان شأننا فيما مضى. وبينما أنا أتخيل كل هذا إذ عرضت لي فكرة مفاجئة، هي: إني أبتهل الآن إلى الله عز وجل من أجل لحظة واحدة وقد كنت طوع يدي ستة أشهر! ولكن ما أكثر ما تشاحنا في خلال هذه الأشهر الستة وما أكثر ما أمسكنا عن المحادثة فيما بيننا! لقد كنا نقضي الأيام الطوال مقطبين مزدرين سعادتنا وهناءتنا. وهأنذا الآن أريد استعادتها من القبر لحظة واحدة، راضيًا أن أبتاع هذه اللحظة بحياتي كلها!... وهنا لم أتمالك أن بادرت إليك مسرعًا جهدي وكنت لا تزالين في انتظاري، فلما تصافينا واحتويتك ثانية بين ذراعيّ ضممتك إلى صدري بقوة كأنما كنت قد فقدتك حقًّا، ولا أزال حتى الآن أذكر ذلك جيدًا. أي ناتاشا، لنكفّ عن المشاحنة إلى الأبد، فلشد ما يؤلمني ذلك. وكيف استطعت أن تتصوري أني- معاذ الله- كنت أستطيع أن أفارقك!».

فاستعبرت ناتاشا، وتلازما بحب ممتزج بالألم. وأقسم لها أليوشا مرة أخرى ألا يهجرها أبد الدهر، ثم أسرع إلى والده وهو معتقد اعتقادًا جازمًا أنه سيصلح كل شيء وأن الأمور ستحل كلها حلًّا سعيدًا.

وقالت ناتاشا وقد ضغطت يدي في تشنّج وانفعال: «الآن قد انقضى كل شيء وانتهى كل شيء. هو يحبني ولن يكفّ عن حبي أبدًا. ولكنه

يحب كاتيا كذلك، وسيصبح بعد قليل أكبر حبًّا لها منه لي. وذلك الثعبان، الأمير، سيظل فاتحًا عينيه ولن يهدأ حتى....».

«ناتاشا، أنا أيضًا أعتقد أن الأمير لا يسلك في أمرك السبيل السويّ، ولكن...».

«أنت لا تعتقد أن كل ما جابهته به صحيح، وقد تبيّنت ذلك من عينيك، ولكن مهلًا فسترى بنفسك صواب قولي. إنني لم أقل إلا كلامًا عامًّا، ولكن الله يعلم بما لا يزال في جعبته فهو رجل فظيع. ولقد قضيت هذه الأيام الأربعة دون أن أعمل شيئًا غير ذرع الغرفة ذهابًا وجيئة، فانتهيت أخيرًا إلى أن أحزر كل شيء. فمما لا شك فيه أنه كان يرمي إلى أن يخفف عن قلب أليوشا بتخليصه مما يؤوده وبتحريره من واجبه في أن يحبني، ولذلك اخترع هذه الخطبة، وربما كان قد اخترعها أيضًا ليتسنى له أن يكون بيننا، فيباعد بنفوذه بيني وبين أليوشا وليستحوذ عليه بما يبدي من كرم ومروءة. هذا لا شك فيه يا فانيا. وأليوشا، بما فطر عليه من سجايا، شخص شديد التأثر، فسيهدأ باله من ناحيتي فلا يعود يشتغل بي، وسيحدّث نفسه عني بأني سأكون زوجة قريبًا وإلى آخر العمر، فيتجه باهتمامه دون وعي صوب كاتيا. وقد درس الأمير كاتيا دراسة وافية وسرعان ما أدرك أنها تلائم أليوشا كل الملاءمة وأنها أقدر مني على اجتذابه والاحتفاظ به. آه يا فانيا، إنك أنت الآن أملي الوحيد، وهو يريد لحاجة في نفسه أن يزورك ويتعرف بك، فلا تأب ذلك، وابذل بالله عليك ما تستطيع من جهد في أن يعرّفوك بالكونتة في أقرب فرصة، وتعرف بكاتيا هذه وأنعم النظر فيها ثم نبئني بنبئها، إنني أرغب رغبة

صادقة أن تراها وأن تفضي إليَّ برأيك فيها. لا أحد يفهمني كما تفهمني أنت، ومن ثم فأنت تعرف من تلقاء نفسك ما أرغب أن أقف عليه، وتبين أيضًا مدى ما بلغته صداقتهما وما يكون بينهما وما يخوضان فيه من حديث. ولكن المهم أن ترى كاتيا، كاتيا. أن تراها جيدًا... أي حبيبي فانيا، أرني مرة... أرني هذه المرة أيضًا، وهي الأخيرة، برهان صداقتك فإني أعلق كل آمالي بك، بك أنت وحدك».

* * *

وعندما عدت إلى المنزل كانت الساعة حوالي الأولى بعد منتصف الليل، ففتحت لي نلي الباب والنوم بادٍ على وجهها، وابتسمت ونظرت إليّ منبسطة الأسارير، وقد ساء الطفلة المسكينة أن غلبها النعاس وودّت لو بقيت مستيقظة في انتظاري. ثم قالت: لقد جاءك زائر، سأل عنك ومكث ينتظرك حينًا ثم ترك لك رسالة على المنضدة. وكانت الرسالة من مسلوبويف يرجوني فيها أن أقصد إليه في اليوم التالي فيما بين الساعة الثانية عشرة والساعة الأولى. وأردت أن أستفهم من نلي عن أشياء أخرى، ثم بدا لي فأرجأت ذلك إلى غد، وأصررت على أن تذهب للرقاد في التوّ. وكانت الطفلة من غير تلك الأسئلة متعبة غاية التعب، فقد لبثت تنتظرني طويلًا فلم تغف إلا قبيل مجيئي.

* * *

الفصل الخامس

وأنبأتني في الصباح التالي بأنباء غريبة مفصّلة عن زيارة أمس.

وقد كان من الغريب- بادئ ذي بدء- أن يعنّ لمسلوبويف أن يأتي إليّ في تلك الأمسية عينها وهو يعلم، من غير شك، أني لم أكن في المنزل، إذ كنت قد أخبرته بذلك في محادثتنا الأخيرة، وما زلت أذكر ذلك جيدًا. وقد ذكرت لي نلي أنه عراها الخوف بادئ الأمر فلم ترد أن تفتح له الباب، إذ كانت الساعة قد بلغت الثامنة، بيد أنه لم يزل يرجوها من وراء الباب الموصد في ضراعة زاعمًا أنه إن لم يترك لي رسالة في التوّ فستحلّ بي في الغد من جرّاء ذلك حوادث وخيمة. فلما خلّت بينه وبين الدخول، كتب على الفور رسالته، ثم قصد نحوها وجلس بجوارها على الأريكة. قالت نلي: «فنهضت ولم أرد أن أخوض معه في حديث، إذ تولاني منه الخوف، وقد أخذ يذكر البوبنوفا وكيف أنها الآن مغضبة مغيظة ولكنها مع ذلك لا تجرؤ أن تأخذني إليها، ثم انطلق يثني عليك بالخير وقال إنكما كنتما صديقين حميمين، وإن معرفته بك ترجع إلى عهد الصبا، فأخذت أناقله الحديث. وأخرج من جيبه بعض الحلواء

وعرضها عليّ فأبيت أن أقبلها، فأخذ يردد القول إنه رجل طيب، وقال إنه يحسن كثيرًا من الأغاني الجميلة والرقص أيضًا، ثم وثب وأخذ يرقص حقًّا فضحكت كثيرًا. ثم قال أريد أن ألبث هنا فترة أخرى في انتظار فانيا لعله أن يجيء قريبًا؟ وأخذ يرجو ويرجو ألا أفرق منه وأن أجلس بجواره فجلست، ولكني لم أرغب أن أتحدث إليه، وإذا به يقول إنه كان يعرف أمي وكذلك جدّي، فـ.... فحلّ بذلك عقدة لساني فشرعت أتحدث إليه، وقد لبث معي طويلًا».

«وفيم تحدثتما؟».

«تحدّثنا عن والدتي... وعن البوبنوفا... وعن جدّي. وقد مكث هنا نحو الساعتين».

وكانت نلي، على ما يبدو، لا تودّ أن تبوح بما تحدثا فيه فلم أواصل سؤالها، أملًا أن أعرف كل شيء من مسلوبويف. على أنه خيّل إليّ أن مسلوبويف قد تعمّد الحضور في غيبتي ليخلو بنلي، فقلت لنفسي: ولكن لِمَ كل هذا؟

وأرتني نلي قطع الحلواء الثلاث التي منحها إياها، وهي «بستلية» لفّت بأوراق خضراء وحمراء، وكانت من نوع رديء جدًّا، لا شك أنه اشتراها من أول بدّال لقيه.

وضحكت نلي وهي تريني إياها.

فسألتها: «ولِمَ لم تأكليها؟».

فأجابت وقد انتقع لونها وتقبضت أساريرها: «لم أرد أن أفعل. بل

إني لم أتناولها منه وإنما تركها هو على الأريكة».

وكانت لديّ في ذلك اليوم مهام كثيرة يجب أن أقضيها، فنهضت أودع نلي.

وسألتها وأنا أهمّ بالخروج: «ألا تسأمين وأنت وحدك هنا؟».

«يعروني السأم أحيانًا، وأحيانًا لا أشعر به، وإنما أشعر به إذا طالت غيبتك».

وكانت وهي تقول ذلك ترنو إليّ بنظرات تنمّ عن حب جم، بل لقد كانت طيلة الصباح ترنو إليّ في رقة وحنان، وكنت أحس وهي إلى جانبي أنها جدّ سعيدة، وأنها مفعمة حبًّا، على أنها كانت كذلك خائفة كأنها تخشى أن يبدر إليَّ منها ما يكدرني فتفقد عطفي عليها... وكانت تتحرج أن تبدي لي عواطفها في جلاء، إذ كان ذلك يخجلها.

فقلت: «وأي الأحيان هي التي تشعرين فيها بالضجر؟ لقد قلت الآن يعروني السأم أحيانًا وأحيانًا لا أشعر به» وابتسمت لها على غير إرادة مني، فقد أضحت الآن عزيزة عليَّ محببة إلى نفسي.

فأجابت وقد ابتسمت في شيء من الارتباك: «لست أستطيع أن أصرّح بذلك» وكنا إذ ذاك واقفين بالباب وهو مفتوح، وكانت نلي واقفة بإزائي وهي غاضّة من بصرها ملقية بإحدى يديها على كتفي وجاذبة بالأخرى كمّ معطفي.

فسألتها: «أفي الأمر سرّ؟».

فقالت بما يشبه الهمس: «كلا، لا شيء... إنني... إنني شرعت أقرأ

كتابك في غيابك» وسدّدت إليّ نظراتها المتسائلة وأخذ وجهها يتحول إلى لون الحمرة.

«إذن فهذا هو الأمر. هل راقك؟».

وارتبكت ارتباكة المؤلف حين يطرى في وجهه. ولست أدري بماذا كان الله يجزيني لو أني قبّلتها في تلك اللحظة، بيد أن ذلك قد شقّ عليّ. وصمتت نلي هنيهة.

ثم سألت وقد بدا على محياها الهمّ العميق: «ولماذا، لماذا انتهى إلى الموت؟» ونظرت إليّ خلسة ثم غضّت من بصرها.

«من هو؟».

«ذلك الشاب المسلول... في الكتاب؟».

«لماذا؟ لقد كان من الحتم أن يحدث ذلك».

فأجابت بصوت يكاد يكون همسًا ولكن في سرعة ومباغتة وبشيء من العبوس والتجهم، وهي ما زالت غاضّة من بصرها موغلة في عنادها: «كلا لم يكن ذلك من الحتم».

ومرت دقيقة.

وهمست وهي ما زالت تجذب كمّي: «وهذان... أعني الاثنين الآخرين.. الفتاة والرجل الهرم، أيبقيان معًا؟ أم يعودان فقيرين مملقين كما كانا؟».

فأجبت وأنا جدّ محزون: «كلا يا نلي، فستنأى الديار بالفتاة وتتزوج من أحد أصحاب الضياع، أما الهرم فسيبقى وحده مهجورًا». وقد آلمني

حقًّا أني لم أستطع أن أنبئها بما هو أكثر تأسية وعزاء من ذلك.

«ماذا تقول؟ أنا إذن...؟ كلا، أنا إذن لا أمضي في القراءة!» وألقت بذراعي غاضبة وتولت عني مسرعة صوب المنضدة ووقفت بجوارها ميممة وجهها نحو الركن وبصرها إلى الأرض، وهي محمرة الوجه منبهرة الأنفاس كما لو كانت قد أمضّتها خيبة الأمل.

وقلت وأنا أخطو نحوها: «لا تكوني سريعة الغضب على هذا النحو يا نلي. إن هذا الذي تقرئين من كتابي ليس حقيقيًّا.. بل هو من اختراع مخيلتي، فليس ثمة من داع إلى الغضب من أجله أيتها الصغيرة الشديدة الحساسية».

فقالت في حياء: «لست غاضبة» ونظرت إليّ نظرة يشيع فيها بريق الحب، ثم أمسكت فجأة بيدي وضغطت وجهها في صدري وطفقت تبكي.

ولكنها عادت في اللحظة نفسها فضحكت، وأخذت تبكي وتضحك معًا. وكذلك اضطررت أنا إلى الضحك، وأحسست بشعور لذيذ. على أنها لم تشأ مطلقًا أن ترفع رأسها عني، فلما حاولت في حذر أن أنحي وجهها عن صدري، أخذت هي تضغطه فيه وتبالغ في ضغطه وهي تضحك وتمعن في الضحك.

وأخيرًا انتهى هذا المشهد العاطفي، فودعتها وأسرعت بالخروج، فتبعتني بوجه متّقد وإن كانت تعلوه مسحة من الحياء، وبعينين متألقتين تألق النجوم. تبعتني مهرولة حتى الدرج راجية أن أعود قريبًا، فوعدتها

أن سأكون عند الظهر قد عدت إلى هنا حتمًا، وربما عدت قبل ذلك بقدر ما تسمح به الأحوال.

وبدأت بالذهاب إلى الشيخين إشمنيف، وكانا كلاهما عليلين. فأما أنّا أندريفنا فقد كانت في حالة سيئة حقًّا، وأما نيكولاي سيرجيفتش فقد لزم غرفته. ولقد أحس وقع خطواتي حين قدمت، ولكني كنت أعرف أنه- حسب عادته- لن يخرج قبل مضي ربع ساعة يدعه لنا لنتم فيه ما لدينا من أحاديث. ولم أشأ أن أثير اضطراب أنّا أندريفنا، ولهذا لم آل جهدًا في التلطف في إنبائها بما حدث مساء أمس، دون أن أكتمها الحقيقة، ومع أن العجوز قد تولاها الحزن حين علمت بإمكان فسخ الخطبة، فقد أدهشني كثيرًا أنها تلقت هذا الخبر دون أن تبدي شيئًا من العجب.

وقالت: «ها أنت ذا ترى يا بني، ذلك ما كنت أتوقعه، فإنني عندما انصرفت تلك المرة أخذت أتروّى في الأمر فانتهيت إلى أن هذا أمر مستحيل حدوثه، فنحن لم نستحق من الله مثل هذه المنّة. ثم إن هذا الرجل وغد دنيء لا ينتظر منه الخير. أليس من العار والشنار أن يغتال منا عشرة آلاف روبل وهو يعلم تمام العلم أنه على غير الحق؟ ولكنه مع ذلك يأخذها، إنه يسلبنا آخر كسرة من الخبز، فستباع إشمنيفكا، وقد أبدت ناتاشا رجاحة عقل ودقة حسّ إذ لم تصدقه ولم تثق به» ومضت في حديثها تقول وقد تهدّج صوتها: «أتدري يا بني، إن زوجي المسكين يمانع في هذا الزواج بكل قواه، وقد قال لا أريده، وظننت في بادئ الأمر أنها نوبة من الكدر، ولكن لا، فهو لا يريده حقًّا! فماذا عسى أن يصير

إليه ملاكي المحبوب؟ إنه سينزل عليها لعنته، وذلك الأليوشا، ما رأيه في ذلك؟».

وظلت تسألني وهي تئنّ وتتنهد- كما هو دأبها- عند كل إجابة أجيبها بها، وقد لاحظت في الزمن الأخير أنها على وجه عام قد فقدت اتزانها فأضحى كل نبأ يهزّها هزًّا، لقد مزّق قلبها الحزن على ناتاشا وأورده موارد البوار.

وجاء الهرم منتعلًا خفًّا وعليه عباءة البيت، وكان يشكو الحمّى، فرنا إلى امرأته في حنان وظل طوال الوقت الذي لبثته عندهما يحنو عليها ويعنى بها كأنه مربية أطفال رءوم، يحدّق إلى عينيها ويعروه الارتباك حين يواجهها، وكانت عيناه تعبران عن حنان لا حد له، لقد أزعجه مرضها وشعر أنه إن فقدها فلن يبق له شيء في الحياة.

مكثت عندهما ساعة كاملة، وعند انصرافي شيّعني حتى مدخل البيت وسألني عن نلي، وكان يفكر جادًّا في أن يأويها إليه لتملأ في بيته المكان الذي كان لابنته ناتاشا، فاستشارني عن أنجع وسيلة يجتذب بها أنّا أندريفنا إلى رأيه، وسألني في فضول بالغ عن نلي: أولم يصلني عنها نبأ جديد؟ فأخبرته في إيجاز بكل ما عرفته عنها، وأحدثت أنبائي فيه أثرًا كبيرًا.

فقال بلهجة قاطعة: «سنتكلم في ذلك مرة أخرى، وفي غضون ذلك... على أني سآتي إليك بنفسي حين أستردّ شيئًا من عافيتي، وحينئذ نبتّ في الأمر».

وفي الساعة الثانية عشرة تمامًا كنت عند مسلوبويف، ولشد ما كانت دهشتي حينما رأيت أن أول شخص ألتقي به في مسكنه هو الأمير فالكوفسكي، وكان في مدخل المسكن آخذًا في ارتداء معطفه ومسلوبويف يعينه على ذلك في أدب جم ويناوله عصاه. ومع أنه كان قد أنبأني من قبل أنه يعرف الأمير، دهشت من هذا اللقاء غاية الدهش.

وبدا الارتباك على الأمير حين تراءينا.

ثم صاح في حرارة متكلفة: «آه، هذا أنت؟ أيمكن أن يصدّق مثل هذا؟ يا لها من مصادفة عجيبة! على أني قد علمت الآن من السيد مسلوبويف أنه يعرفك، وإنه ليسرني كل السرور أن ألقاك، وقد كنت أريد أن أراك وآمل أن أزورك حينما تسنح الفرصة لذلك، ولعلك تسمح بذلك؟ ولي رجاء إليك. ساعدني بأن توضح لي موقفنا الحالي، أنت تفهم بالطبع أنني إنما أتكلم عما حدث أمس... أنتما صديقان حميمان، وقد تتبعت الأمور منذ كانت، ولك نفوذ كبير... يؤسفني أسفًا أليمًا أني لا أستطيع التحدث معك الآن... فإن الأشغال...! على أني سأسر بزيارتك بعد أيام معدودات، وربما كان قبل ذلك، أما الآن....».

وصافحني وهو يبدي إخلاصًا مبالغًا فيه، وحدج مسلوبويف بنظرة ذات معان، وانصرف.

وقلت وقد دخلت الغرفة: «قل لي بربك...».

فقاطعني مسلوبويف بقوله: «لن أقول لك شيئًا مطلقًا» وبادر فتناول قبعته وخطا نحو الدهليز، ثم قال: «لديّ أشغال، ولا بد من الإسراع

يا صديقي العزيز، فقد تأخرت...».

«ولكنك كتبت إليّ بنفسك أن آتي إليك في الساعة الثانية عشرة؟».

«وماذا في ذلك إذا كنت قد كتبت إليك؟ لقد كتبت إليك أمس ولكني اليوم كتبت إلى نفسي. إن رأسي ليعروه الدوار من فرط انصرافي إلى الأعمال وثمة من ينتظرني، فمعذرة يا فانيا! والمقترح الوحيد الذي أستطيع أن أعرضه عليك لترضيتك هو أن تضربني بعنف لأني أتعبتك في غير نفع. إن كان في ذلك ما يروّح عنك فهيّا، ولكن أسرع بالله عليك! لا تعقني، فهم ينتظرونني لأعمال...».

«ولم أضربك؟ إن كان لديك عمل يتعجلك فاذهب، وكل امرئ عرضة لأن يصادفه ما لم يكن في حسبانه، ولكن...».

فقاطعني: «صه» وسأحدثك عن «لكن» هذه فيما بعد» واندفع إلى مدخل المسكن فارتدى معطفه فاقتديت به.

«لدي عمل أقضيه معك، عمل خطير كل الخطورة، يتّصل بك وبمصالحك وهذا ما جعلني أطلب إليك الحضور، وإذا كان من المستحيل الآن أن أشرح لك المسألة في دقيقة، فعدني بربك أن ترجع إليّ في الساعة السابعة من مساء اليوم، لا قبل ذلك، ولا بعده، وسأكون في البيت يقينًا».

فقلت في شيء من التردّد: «اليوم؟ أتعرف يا صديقي العزيز. لقد كنت في الواقع أعتزم أن أذهب هذه الأمسيّة إلى آخرين....».

«إذن فاذهب الآن يا صديقي الحميم إلى حيث تريد أن تذهب في

الأمسيّة، وتعال إليّ في المساء. إنك لا تستطيع أن تقدر يا فانيا خطورة ما سأخبرك به».

«حسن، فليكن. ولكن ما هو الأمر؟ إني أعترف أنك جعلتني أتوق إلى معرفته».

وكنا في خلال ذلك قد غادرنا المنزل وأصبحنا على طوار الشارع فسأل مشدّدًا: «وإذن فستأتي؟».

«لقد قلت لك إني سآتي».

«كلا، بل عدني بشرفك».

«ولكن ماذا دهاك؟ حسن، أعدك بشرفي».

«أنت رجل نبيل شهم. وإلى أين تعتزم أن تذهب؟».

فأجبت: «من هنا» مشيرًا إلى ناحية اليمين، فقال وقد أومأ إلى ناحية اليسار: «وأنا من هنا. وداعًا يا فانيا. لا تنس الساعة السابعة!».

فقلت لنفسي وأنا أتأره البصر: «أمر عجيب».

والواقع أني كنت أرغب في زيارة ناتاشا هذا المساء، بيد أني اعتزمت- بناء على ما وعدت به مسلوبويف- أن أمضي إليها الآن، وكنت مقتنعًا بأني سألقى هناك أليوشا، والواقع أنه كان هناك حقًّا، وقد سرّ كثيرًا بمقدمي.

كان لطيفًا غاية اللطف، يبدي نحو ناتاشا رقّة لا حد لها، وقد زاده مقدمي ابتهاجًا. وبذلت ناتاشا جهدها في أن تكون مرحة، ولكنه كان من الواضح أنها تقسر نفسها على ذلك قسرًا. كانت شاحبة تعسة لم تكتحل

عيناها بالرقاد في الليلة المنصرمة. وكانت تبدي لأليوشا ظرفًا متكلفًا.

وقد تكلم أليوشا كثيرًا وقصّ كثيرًا، وأراد أن يتظاهر بالمرح ابتغاء أن يدخل عليها السرور وأن يحمل الابتسام إلى ثغرها المغلق، ولكنه مع ذلك قد تحامى الكلام عن كاتيا وعن أبيه على السواء. والظاهر أن محاولته التوفيق أمس قد آلت إلى الإخفاق. وهمست ناتاشا في أذني عندما خرج لحظة ليقول لمافرا كلمة، قائلة: «أتدري؟ إنه يود من صميم قلبه أن ينصرف من هنا، ولكنه لا يجد الشجاعة الكافية لذلك، وأنا أخشى أن اقترح عليه أنا نفسي الذهاب فيحمله ذلك على التشبث بالبقاء، ولكن الذي أخشاه أكثر من ذلك هو أن يتولاه الضجر عندي فيعاملني بفتور وبرود، فماذا عسى أن أفعل؟».

«يا ألله! أية حالة تلك التي تفرضانها على نفسيكما، وما أسوأ ظن كل منكما بصاحبه وما أدق مراقبته إياه. أبيني له كل شيء في صراحة فينتهي الأمر. إن مثل هذه الحالة لجديرة أن تجلب عليه السأم».

فصاحت فزعة: «ماذا ينبغي أن أفعل؟».

«صبرًا، فسأتدبّر لك في الأمر بنفسي...».

وذهبت إلى المطبخ معتلًا بأني أريد من مافرا أن تزيل ما علق بجرموقيّ[1] من وحل.

فصاحت من ورائي: «ولكن كن حذرًا يا فانيا!».

(١) الجرموق: الذي يلبس فوق الخف وقاية له، قيل هو فارسي معرب عن سرموزه، والجيم لا تجتمع مع القاف في كلمة عربية إلا أن تكون حكاية صوت.

وما كدت أقصد إلى مافرا حتى اندفع أليوشا نحوي كأنما كان في انتظاري.

«أي إيفان بتروفتش، أيها العزيز، ماذا يجب عليّ أن أفعل؟ امددني بمشورتك: لقد وعدت أمس أن أكون اليوم في هذا الوقت عند كاتيا، فليس من اليسير ألا أذهب. إنني أحب ناتاشا حبًّا يجلّ عن الوصف، وأنا مستعد أن أقتحم النيران من أجلها، أما أن أقطع كل علاقاتي هناك فأنت ترى بنفسك استحالة ذلك».

«ولكن لم كل هذا؟ امض إليها...».

«ولكن ماذا عسى أن تقول ناتاشا؟ سيمضّها ذلك ولا ريب. آه، ابسط إليّ يدك بالمعونة يا إيفان بتروفتش...».

«خير ما تفعله في رأيي هو أن تمضي إلى هناك. إنك تعلم ما تكنه ناتاشا لك من حب جم، وهي ستشعر في الحال أنك غير منشرح الصدر وأنك لا تبقى معها إلا بغية إرضائها. ومن الخير ألا يرغم المرء نفسه على ما تأباه إرادته، فهلم وسأساعدك!».

«ما أطيب قلبك يا عزيزي إيفان بتروفتش!».

وعدنا إلى ناتاشا. وقلت له بعد هنيهة: «لقد قابلت والدك منذ قليل».

فصاح فزعًا: «أين؟».

«في الشارع، وكان ذلك مصادفة، وقد وقف معي هنيهة ورجاني مرة أخرى أن أوثّق عرى معرفتي به، وسألني عما إذا كنت أعرف مكان وجودك، فقد كان يريد أن يلقاك حتمًا ليحادثك في بعض الأمور».

فصاحت ناتاشا وقد فطنت إلى غرضي: «هيّا يا أليوشا، يجب عليك أن تذهب إليه».

«ولكن... أين عساني أجده الآن؟ أيكون في البيت؟».

«كلا، فإني أذكر أنه قال إنه يعتزم الذهاب إلى الكونتة».

فقال أليوشا على نحو صبياني وهو ينظر إلى ناتاشا في أسى: «ولكني لا أستطيع الذهاب إلى هناك...».

فقالت: «لِمَ لا يا أليوشا؟ فهل تعني حقًّا أنك ستنقض عرى تلك المعرفة نقضًا لمحض أن تهدئ من روعي؟ إن هذا يكون أمرًا صبيانيًّا، أمرًا لا يليق، أضف إلى ذلك أن موقفك من كاتيا سيكون بذلك موقف الجاحد المنكر للجميل. أنتما صديقان حميمان، ومثل هذا الرباط ليس مما ينبغي فصمه بمثل هذه السهولة، يضاف إلى هذا أنك تمرضني حين تفرض أني أغار منها. ينبغي أن تذهب إليها، بل أنا أرجوك أن تفعل! وعليك فوق ذلك أن تعمل على تهدئة والدك».

فصاح أليوشا في حميّة، ولكن مع شعوره في الوقت نفسه بتأنيب ضميره: «ناتاشا، إنك لملاك حقًّا، وإني لست أعدل خنصرك. أنت شفيقة طيبة، وأنا... أنا... كلا، فسأفضي إليك بكل شيء! لقد رجوت الآن إيفان بتروفتش في المطبخ أن يعينني على الانصراف من عندك. فدبر هذه الخطة، ولكن لا تكوني قاسية في حكمك عليّ يا ناتاشا يا ملاكي، فأنا في الواقع بريء لا ذنب لي. إن حبي لك يزيد ألف مرة على حبي لكل ما على وجه الأرض جميعًا، ولذلك فكرت في خطة جديدة. أريد

أن أنبئ كاتيا بكل شيء وأطلعها على جليّة الأمر وعلى ما كان هنا أمس، فستدبّر خطة لنجاتنا إذ إنها تحبنا من شغاف قلبها وبجميع نفسها».

فقالت ناتاشا وهي تبتسم: «إذن فأسرع. وثمة شيء آخر يا حبيبي. إني توّاقة إلى التعرف بكاتيا، فكيف السبيل إلى ذلك؟».

فجاوزت حمية أليوشا كل حد، وأخذ يعرض ما يعنّ له في سبيل هذا التعارف. وأخيرًا حلّ المشكلة أيسر حل، وذلك على النحو الآتي: إن كاتيا ستوفق لأمثل سبيل لذلك. وقد كان وهو يفضي بهذه الفكرة يتقد من فرط إعجابه بها. ووعد أن يرجع إلى ناتاشا بالجواب في هذا اليوم نفسه، بعد ساعتين على الأكثر، وأن يقضي الأمسيّة كلها عندها.

وسألته ناتاشا عند ذهابه: «ولكن هل ترجع حقًّا؟».

«كيف تشكين في ذلك؟ وداعًا يا ناتاشا، وداعًا يا حبيبتي، يا محبوبتي إلى الأبد...! وداعًا يا فانيا. آه يا رب، لقد دعوتك فانيا خطأ. اسمع يا إيفان بتروفتش إني أحبّك كثيرًا فلم لا نسقط المئونة من بيننا ونتخاطب بلغة عدم التكلف؟».

«جميل، فلنتخاطب بلغة عدم التكلف».

«حمدًا لله. لقد جالت هذه الفكرة في خلدي مائة مرة. ولكني لم أجرؤ قط أن أقترحها على حضرتك. هأنذا قد عدت الآن فخاطبتك بلغة التكلف. إن اطّراح هذه اللغة دفعة واحدة عسير على اللسان، وقد أورد ذلك تولستوي في إحدى قصصه على نحو ظريف للغاية: فقد تعاهد اثنان أن يتخاطبا بلغة عدم التكلف ولكنهما لم يستطيعا ذلك، فأخذا

يتحاميان إيراد الجمل التي تشتمل على ضمير المخاطب. آه يا ناتاشا، دعينا نقرأ مرة كتاب «الطفولة والصبا» فهو غاية في الظرف».

فقالت ناتاشا ضاحكة وهي تزجيه إلى الخارج: «أجل، أجل، ولكن اذهب الآن إنك تثرثر من شدة السرور».

«وداعًا، وسأعود بعد ساعتين».

ولثم يدها وانطلق مسرعًا إلى الخارج.

وقالت ناتاشا وقد غصّت بدمعها: «ها أنت ذا ترى يا فانيا، ها أنت ذا ترى».

ومكثت معها ساعتين أخريين أسرّي عنها حتى تأتّى لي أن أهدئ من روعها. ومن البديهي أنها كانت على حق تام في كل مخاوفها. وقد كاد قلبي يتمزق من الغم عندما فكرت في حالتها الراهنة. وأشفقت عليها، ولكن ماذا أستطيع أن أصنع؟.

وكذلك بدا لي أليوشا في طور غريب، فإن حبه لها لم يكن بأقل مما كان قبل بل كان أعمق وأحدّ. وربما كان ذلك ناجمًا من تبكيت الضمير والاعتراف بالجميل. بيد أن المحبة الجديدة تأصّلت في قلبه، ولم يكن من المستطاع أن نتبيَّن النهاية التي سينتهي إليها الأمر. وقد كنت أنا نفسي أضطرم شوقًا إلى أن أرى كاتيا هذه ذات مرة. وقد وعدت ناتاشا مرة أخرى بأن أسرع إلى التعرف بها.

وعاد الانشراح أخيرًا إلى قلب ناتاشا. وذكرت لها- في ثنايا كلامي- كل شيء عن نلي وعن مسلوبويف وعن بوبنوفا وعن لقائي اليوم للأمير

عند مسلوبويف وعن ميعاد الساعة السابعة، فاسترعت هذه الأنباء كثيرًا من اهتمامها، ولم أتكلم عن والديها إلا قليلًا، وكتمتها نبأ زيارة إشمنيف كتمانًا تامًّا خشية أن يزعجها اعتزامه مبارزة الأمير. وقد رأت في علاقته بمسلوبويف وفي رغبته اللافتة للنظر في أن يتعرف بي أمرًا عجبًا، مع أنه من الممكن إلى حد ما تعليل هذين الأمرين بما يقتضيه سير الحوادث في الوقت الحاضر.

وعدت إلى المنزل حوالي الساعة الثالثة، فاستقبلتني نلي بوجه مشرق...

* * *

الفصل السادس

وفي تمام الساعة السابعة كنت عند مسلوبويف فتلقاني متهللًا باسطًا ذراعيه. وكان من الجلي أنه عاد إلى الخمر فنالت منه. على أن أكثر ما أثار عجبي هو ما أعده لاستقبالي من الترتيبات غير المألوفة، فقد كان كل ما هنالك ينبئ بأنهم في انتظاري، فثمة غلاية شاي من النحاس الأصفر كان الماء يغلي فيها، فوق منضدة مستديرة تغطيها ملاءة بديعة ثمينة يتلألأ ما عليها من أوان بلورية ولجينية وخزفية، وعلى نضد آخر يجاوره وتغطيه أيضًا ملاءة من نوع آخر ولكنها ثمينة أيضًا، أطباق من فاخر الحلواء، حلواء كييف، ومسكرات مجففة وسائلة ومربيات و«جيلي» ومخللات فرنسية وبرتقال وتفاح وثلاثة أنواع أو أربعة من النُقل، وموجز القول إنه أعد من شتى الأصناف ما يملأ حانوت فاكهة. وعلى منضدة ثالثة تغطيها أيضًا ملاءة بيضاء ناصعة كالثلج ألوان شتى من الأطعمة الجافة: بطارخ وجبن وفطير محشوّ ومصران محشوة ولحم خنزير مدخن وسمك، وبعض أباريق مترعة بأنبذة شتى ذات ألوان براقة من أخضر وأحمر وياقوتي وبني وعسجدي، وعلى منضدة صغيرة في

الركن تغطيها كذلك ملاءة بيضاء زجاجتان من «الشمبانيا»، وعلى منضدة أخرى بإزاء الأريكة ثلاث زجاجات تتلألأ بما فيها من «سوتيرن ولافيت وكونياك» وكلها خمور غالية الثمن من «يليسيف».

وكانت ألكسندرا سيميونفنا تجلس إلى مائدة الشاي في زي بسيط ولكنه يدل على ما بذلته من عناية موفقة في انتقاء ملابسها وتصفيف شعرها، وكانت تعرف أن ذلك يلائمها كل الملاءمة، وكان باديًا أنها معتزة بذلك. فلما قدمت نهضت نهوض محتفل ووجهها الناضر يشع سرورًا واغتباطًا. وكان مسلوبويف جالسًا منتعلًا خفًّا صينيًّا وعليه «روب دي شامبر» ثمين وملابس داخلية كتانية أنيقة، وكان قميصه قد رصع على أحدث طراز بالأزرار في كل موضع يمكن أن توضع فيه، وكان شعره مصففًا ومغلولًا بالدهان ومفروقًا في جانب الرأس على أبدع نظام.

وبلغ من ذهولي أن وقفت وسط الغرفة فاغرًا فمي أنظر إلى مسلوبويف طورًا وإلى ألكسندرا سيميونفنا طورًا آخر، وقد بعث ذلك فيها الرضا وجعلها تغتبط أشد الاغتباط.

وصحت أخيرًا، وبي شيء من القلق: «ما معنى ذلك يا مسلوبويف؟ أمقيم أنت الليلة حفلًا؟».

فأجاب في لهجة رزينة ملؤها التوقير: «كلا، فإنما نحن في انتظارك أنت وحدك».

فقلت وأنا أشير إلى الأطعمة الجافة: «وإذن فلم كل هذا؟ إن هذا

ليكفي لإشباع كتيبة كاملة من الجند».

فقال معقبًا: «وخمور كافية. لقد فاتك أهم شيء ألا وهو الشراب».

«وهذا كله من أجلي أنا وحدي؟».

«ومن أجل ألكسندرا سيميونفنا كذلك، فقد وجدت سرورها في أن تعد هذا كله».

فصاحت ألكسندرا سيميونفنا وقد احمر وجهها وإن لم يزايلها انبساط أساريرها: «ها نحن أولاء قد عدنا إلى ذلك. كنت أتوقع كل هذا. أفما يحق لي أن أستقبل ضيفًا بشيء من الحفاوة. كأنما ذلك ذنب أؤاخذ به؟».

«من الصباح الباكر، أتستطيع أن تتصور شيئًا مثل هذا؟ ما كادت في الصباح الباكر تعرف أنك قادم في المساء، حتى أكبت على العمل ولم تفتر عن الحركة...».

«يا لك من كذوب أفاك. لم يكن ذلك من الصباح بل كان من مساء أمس، فإنك قد أخبرتني عندما قدمت مساء أمس أنه سيقضي هذه الأمسية كلها عندنا».

«لقد أخطأت سمعًا يا سيدتي المبجلة!».

«لم يخطئ سمعي مطلقًا، بل كان الأمر كما ذكر. أنا لا أكذب مطلقًا. ولِمَ لا يستقبل الإنسان ضيفه استقبالًا حسنًا؟ إننا نعيش كما ترى، لا يزورنا أحد، ونحن في بسطة من العيش، فادع أصدقاءنا حتى يروا أننا نعرف كيف نعيش كما يعيش الآخرون».

فقال مسلوبويف معقبًا: «ويعرفون- وهذا هو المهم- أية مضيفة ومدبرة منزل ماهرة أنت. تصور يا صديقي ما أنا ملزم به، فقد وضعتني في قميص من الكتان الهولندي رصعته بشتى الأزرار وحملتني على أن أنتعل هذا الخف وأن أرتدي هذه العباءة الصينية، ثم سوت شعري بيدها ودهنته بدهن البرجاموت وأرادت بعد ذلك أن تضمخني ببعض أنواع الطيب وبالكريم- برولیه- ولكني لم أطق ذلك، فتمرّدت ولجأت إلى سلطاني الزوجي....».

فقاطعته ألكسندرا سيميونفنا قائلة وقد احمر وجهها من الانفعال: «لم يكن ذلك دهن البرجاموت بل هو خير الدهانات الفرنسية الخالصة مما يباع في تلك الصناديق الخزفية الصغيرة الملونة. احكم بنفسك يا إيفان بتروفتش. إنه لا يدعني أذهب إلى المسرح ولا إلى المرقص، وإنما يقتصر دائمًا على إتحافي بالثياب، ولكن ما حاجتي إلى الثياب؟ إنني أتجمل بها وأتهادى فيها وحدي داخل الغرفة. ولقد حدث ذات مرة أن ألححت عليه في الذهاب إلى المسرح، فرضي بذلك وارتدينا ثيابنا وتهيأنا للخروج، ثم فارقته لحظة لأضع «البروش» على صدري وعدت إليه فإذا به قد فتح خزانة الخمور، وظل يصب في جوفه كأسًا بعد كأس فإذا هو سكران طافح، فاضطررنا بطبيعة الحال إلى البقاء في المنزل. هذا وما من أحد، ما من نسمة، ما من قط يفد إلينا زائرًا، وإنما يأتي بعض الناس صباحًا في بعض الأحايين لشؤون متصلة بالأعمال، فلا أملك إلا أن أتركهم معه، وذلك مع أن لدينا غلاية شاي ومجموعة من آنية العشاء وأقداح الشاي الجميلة، وهذه كلها مما أهدي إلينا. وهم يأتون إلينا

بالمأكولات أيضًا، فلا يبقى علينا ما نشتريه بعد ذلك إلا الخمر وربما اشترينا الدهان أيضًا. أما هذه الأطعمة الجافة من «بغاشة» ولحم خنزير، وهذه الحلوى فقد اشتريناها خاصة لك، حتى يتاح في النهاية لامرئ ما أن يرى أننا نعرف كيف نعيش. لقد ظللت طوال العام أفكر: لو أتيح لنا ذات يوم أن نكرم وفادة ضيف، ضيف حقيقي، لاستطعنا أن نريه كل هذه الأشياء وأن نكرمه غاية الإكرام، فيطنب في الثناء علينا بالخير لدى الناس جميعًا. فضلًا عن أننا نجد نحن أنفسنا في قيامنا بذلك متعة وسرورًا، أما كوني ضمخت شعره بالدهن، هذا الأجوف الرأس، فلعمري إنه لغير جدير بذلك. وإنه ليؤثر أن يسير في الطرقات بهذه الثياب المتسخة. إن هذه العباءة التي عليه مهداة إليه، ولكن أتلائمه عباءة جميلة مثلها؟ إنه لا يشغل رأسه غير الشراب، وسترى. إنه سيدعوك قبل تناول الشاي إلى احتساء الفودكا».

«حقًّا، لقد حالفت الصواب مرة. إنها لفكرة سديدة! فهلم يا فانيا نحتسي كأسين من الخمر العسجدية أو اللجينية ثم نقبل مرحين منتعشين على سائر الأشربة».

«لقد كنت أعرف ذلك».

«لا تخافي يا ساشنكا، فسنشرب شايك أيضًا، وسنشربه ممزوجًا بالكونياك، في صحتك».

فصاحت وهي تدق كفًّا بكف: «كلا، ما هذا؟ عجبًا، هذا شاي «الخان» ثمن الرطل منه ستة روبلات، وقد أهداه إلينا التاجر أول من أمس- ويريد احتساءه ممزوجًا بالكونياك؟ لا تستمع إليه يا إيفان

بتروفتش، وسأملأ لك الآن قدحًا منه... فترى. سترى بنفسك أي شاي هو!».

وبادرت إلى غلاية الشاي.

ورأيت من كل هذا أنهما قد أعدا عدتهما فارضين أنهما سيحبساني عندهما المساء كله، فقد ظلت ألكسندرا سيميونفنا عامًا كاملًا تتلهف على ضيف يفد عليهما، وها هي ذي الآن متأهبة لأن تستمتع بوفودي عليهما، بكل مشاعرها، بيد أن هذا التدبير لم يكن متمشيًا مع خطتي.

فقلت وقد جلست: «أصغ إليّ يا مسلوبويف. إني لم أجئ إليك على أني ضيف، وإنما قدمت لعمل، قد طلبت إليّ أنت نفسك أن أحضر لتخبرني بشيء...».

«أجل، العمل عمل، ولكن حديث الأصدقاء أيضًا له قيمته».

«كلا يا صديقي، فلا تعول عليّ في ذلك، ولا بد لي أن أنصرف في منتصف الساعة التاسعة، فهناك مسألة مهمة، وقد وعدت...».

«لا تفكر في ذلك، أرجوك، وتأمل فيما تجنيه عليّ وعلى ألكسندرا سيميونفنا. انظر إليها لقد أيبستها الدهشة، فلم ضمختني إذن بالدهن، بعطر البرجاموت، تأمل في كل ذلك!».

«أنت لا تفعل غير المزح يا مسلوبويف. إنني أعد ألكسندرا سيميونفنا أن أزوركم خلال الأسبوع المقبل لتناول الغداء، ولا مانع من أن يكون ذلك يوم الجمعة، أما اليوم يا صديقي العزيز، فقد وعدت أو بالأحرى لا مندوحة لي عن أن أكون في مكان معين، ومن الخير أن تبادر

بالإفضاء إليَّ بما تريد».

فصاحت ألكسندرا سيميونفنا بصوت يتبين فيه الوجل والكدر وهي تناولني قدحًا من الشاي الفاخر: «أحقًّا أنك تعتزم ألا تمكث عندنا إلا إلى منتصف التاسعة؟» وكاد الدم يطفر من عينيها.

فقال مسلوبويف: «لا تجزعي يا ساشنكا، فكل ذلك هراء. إنه باق هنا، وكل قول عدا ذلك لغو. والخير كل الخير يا فانيا أن تقول لي أين تقضي في العادة وقتك؟ وما هي هذه المسألة المهمة؟ هل ثم ما يحول دون أن أعرف ذلك؟ إنك تظل كل يوم تطوف حيث طاب لك الطواف ولا تشتغل...».

«وماذا يعنيك من ذلك؟ قد أفضي إليك بجلية الأمر فيما بعد. ولكني أوثر أن تبين لي أنت ماذا حملك على المجيء إليّ أمس بوجه خاص، مع أني قلت لك- وأنت لا شك ما زلت تذكر- إني لن أكون في المنزل».

«لقد تذكرت ذلك فيما بعد، على أني لم أكن على ذكر منه أمس. وقد أردت التحدث إليك في شئون تتصل بالأعمال، بيد أني اضطررت إلى أن أحقق رغبة ألكسندرا سيميونفنا قبل كل شيء، فقد قالت ها هو ذا رجل وجدت فيه صديقًا لك قديمًا، فما يمنعك أن تدعوه إلينا ذات مرة. وظلت أربعة أيام طوال تضجرني بسببك. أما عن دهن البرجاموت، فأعتقد أن الكثير من آثامي سيغفر لي يوم النشور بسببه. وقد حدّثتني نفسي قائلة هذا حق فلم لا يقضي معنا أمسية ظريفة في ظلال الود؟ ودبرت خدعة حربية فكتبت لك أن الأمر على جانب كبير من الخطورة وأنك إن لم تجئ فقد تكون عواقب ذلك وخيمة عليك».

فرجوته ألا يعود في المستقبل إلى مثل ذلك، وأن يلتزم الصراحة في تصرفاته، على أني لم أجد فيما أفضي به إليَّ من بيان، ما يرضيني بأية صورة.

وقلت سائلًا: «حسن، ولم تركتني صباح اليوم وانصرفت؟».

«كان لديّ عمل مهم حقًّا، وليس في قولي هذا شائبة من الكذب».

«أكان ذلك مع الأمير؟».

وسألت ألكسندرا سيميونفنا بصوت حلو كأنه الشهد: «لعل شاينا يروقك؟».

وكانت قد ظلت خمس دقائق تنتظر أن أمتدح شايها، بيد أنه لم يدر في خلدي أن أفعل.

«إنه فاخر يا ألكسندرا سيميونفنا، ممتاز إلى أقصى حد، لم يسبق لي قط أن شربت مثله».

فعلت وجهها حمرة شديدة من فرط السرور، ونهضت في التوّ لتحبوني بقدح آخر منه.

وصاح مسلوبويف: «الأمير؟ إن هذا الأمير يا صديقي العزيز خدّاع خبيث، وغد دنيء، إنه... حسن، سأقول لك شيئًا يا صديقي الحميم، إني وإن كنت أنا نفسي وغدًا، فما زلت أستحيي أن أكون في إهابه. ولكن حسبنا من الحديث في ذلك، ولنصمت عما كنا نخوض فيه، فليس يجمل بي أن أقول عنه أكثر مما قلت».

«بيد أن رغبتي في استنبائك عنه هي مما جاء بي إليك، ولكن لندع

ذلك إلى ما بعد، وقل لي الآن لماذا أعطيت أمس عزيزتي هيلينا حلواء في غيابي ولم رقصت أمامها؟ وماذا عسى أن تكونا قد تحادثتما فيه ساعة ونصف الساعة؟».

فقال مسلوبويف موضحًا وهو يقبل بوجهه على ألكسندرا سيميونفنا: «هيلينا فتاة صغيرة في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها تقيم في الوقت الحاضر عند إيفان بتروفتش» وتابع حديثه وهو يومئ نحوها بأصبعه: «انظر يا فانيا، انظر كيف احمر وجهها عند سماعها أني أعطيت فتاة غريبة شيئًا من الحلواء. لقد اتقد وجهها ذعرًا وموجدة كأننا قد بغتناها بإطلاق مسدس عليها... وراحت عيناها تومضان كالفحم المتقد! عبثًا يا ألكسندرا سيميونفنا، عبثًا تتجشمين محاولة إخفاء الأمر فأنت غيرى. لو لم أبادر فأبين لها أنها طفلة في الحادية عشرة لانهالت في التو على شعري جذبًا، ولما استطاع دهن البرجاموت نفسه أن ينقذني!».

«إنه لا يستطيع الآن أيضًا أن ينقذك!».

ووثبت وهي تقول ذلك، من الجانب المقابل لنا من منضدة الشاي، وعاجلته قبل أن يتمكن من الذود عن رأسه، بالقبض على خصلة من شعره، وجذبتها في عنف جذبًا شديدًا.

«أترى؟ هذا هو السبب! هذا هو السبب! إياك أن تقول مرة أخرى أمام ضيف من ضيوفنا إنني غيرى. إياك أن تفعل. حذار».

وعلت وجنتيها حمرة شديدة، ومع أنها كانت تضحك، فقد نالت

من مسلوبويف وآلمته.

وواصلت كلامها بلهجة جادة وهي متجهة نحوي: «إنه ينعي على كل ما يراه فيّ من مثالب».

فقال مسلوبويف، وهو يمسح شعره ليرده إلى ما كان عليه من صقل: «ها أنت ذا يا فانيا ترى نوع المعيشة التي أحياها. وهذا سر لجوئي إلى الفودكا!» وبادر مهرولًا إلى إبريق الخمر، ولكن ألكسندرا سيميونفنا كانت قد سبقته إلى المنضدة وصبت له بنفسها كأسًا ناولته إياه وربتت خده في رقة، فأخذ منه العجب والكبرياء مأخذهما، وغمزني بعينه ولمظ بلسانه، وأفرغ كأسه في جوفه بوقار وكبرياء واستأنف الحديث وقد جلس إلى جانبي على الأريكة، فقال: «أما مسألة الحلواء فليس البيان عنها بسهل يسير، فقد اشتريتها من أحد البدالين أول من أمس وأنا مخمور، ولست أدري أنا نفسي لِمَ اشتريتها، ولعلني فعلت ذلك تشجيعًا للصناعة والتجارة القوميتين. لا أستطيع أن أبين ذلك على وجه الدقة، وكل ما أذكره أني سرت في الطريق وأنا ثمل فارتطمت في الوحل، فأخذت أبكي وأجذب شعري لأني صرت لا أصلح لشيء. وقد نسيت- بالطبع- الحلواء فبقيت في جيبي حتى أمس حين جلست في منزلك على الأريكة، فقد اتفق أن كانت جلستي فوق الحلواء تمامًا. أما أني رقصت فلعل مبعث ذلك أيضًا أني لم أك في صحو تام، فقد كنت ثملًا، وأنا حين أكون كذلك يأخذني السرور من حالتي والرضا بما خط لي في لوح القدر فآخذ في الرقص. هذا هو كل شيء، ويمكن أن يضاف إلى ذلك أن هذه اليتيمة قد أيقظت فيّ الرثاء لها والعطف عليها، على أنها قد

رغبت عن التحدث إليّ البتة، كما لو كانت غضبى مني، فرقصت لأودع قلبها شيئًا من البهجة وعرضت لها بعض الحلواء».

«ألم تكن ترغب بذلك أن ترشوها ليتسنى لك أن تطلع على مكنون صدرها؟ اعترف في صراحة تامة، ألم تتعمد أن تجيء إلى منزلي في وقت تعرف فيه أني غائب لتخلو إليها ولتتقصى ثم مسألة ما؟ نعم أم لا؟ إني أعرف أنك قد قضيت معها ساعة ونصف ساعة، وأنك سألتها عن أشياء شتى وأكدت لها أنك عرفت والدتها المتوفاة».

فطرف مسلوبويف بعينيه وضحك في خبث.

وقال: «الفكرة ليست سيئة البتة! كلا يا فانيا، فليس الأمر كما ذكرت. وماذا عليّ، مع ذلك، لو سألتها عندما تسنح لي فرصة؟ على أن ذلك لم يكن. اسمع أيها الخل القديم. لتعلم- وإن أكن الآن ثملًا كعادتي- أن فيليب لن يخدعك بسوء نية أبدًا. افهم ما أقول، بسوء نية!».

«حسن، فأما من غير سوء نية؟».

«كلا... ولا من غير سوء نية، ولكن لنلق إلى الشيطان بكل ذلك، ولنحتس كأسًا ثم إلى العمل» واستأنف حديثه بعد أن شرب كأسه: «المسألة يسيرة كل اليسر، فليس للبوبنوفا حق في أن تحتفظ بالفتاة، وقد تقصّيت المعلومات كلها، فعلمت أنها لم تتبنّها ولم تقدم لها أية معونة. كانت الأم مدينة لها فأخذت هي إليها الفتاة. والبوبنوفا على كونها مخادعة لئيمة وفاجرة أثيمة، بلهاء مأفونة ككل النساء. وقد كان لدى المتوفاة جواز مستوفي الإجراءات ومن ثم كان كل شيء على ما يرام،

فمن المستطاع أن تقيم هيلينا عندك، وإن يكن الخير أن تتعهدها إحدى الأسر الكريمة بالتربية. أما في الوقت الحاضر فلا عليك أن تأويها إليك. تلك مسألة يسيرة وسأدبر لك الأمر كله، ولن تجسر البوبنوفا بعد على تحريك إصبع واحدة. أما الأم المتوفاة فلم يتسن لي أن أعرف الكثير عنها، وقد كانت أرملة رجل يدعى زالسمان».

«أجل، فقد أخبرتني نلي بذلك».

فقال بأسلوب فيه شيء من الاحتفاء: «فهذا هو كل شيء، غير أن لي إليك الآن يا فانيا رجاء آمل ألا تأبى إجابته. قص عليَّ تفصيلًا أي شأن ذلك الذي يشغلك، وإلى أين تذهب. وأين تقضي سحابة يومك. لقد ترامى إليّ شيء عن ذلك فأنا أعرف الأمر بعض المعرفة، ولكني أود أن أعرفه تفصيلًا».

وقد أدهشني هذا الرجاء بالأسلوب الاحتفائي الذي ألقى به، بل أقلقني بعض الشيء.

«ولم؟ وماذا يحملك على ذلك؟ إنك تسألني بحفاوة مبالغ فيها..».

«حسن يا فانيا، الأمر- دون حاجة إلى الإسراف في الكلام- أني أريد أن أسدي إليك خدمة. انظر يا صديقي، لقد كنت أستطيع أن أحتال لاستطلاع الأمر منك دون أن أصطنع هذا الأسلوب الاحتفائي، لكني رأيت أن ريبتك بي قد هاجت بسبب تلك الحلواء، وهذا أمر أفهمه. أما حين أصطنع هذا الأسلوب الاحتفائي، فإنك ترى ولا ريب أنني لا أفعل ذلك ابتغاء نفعي أنا، بل ابتغاء نفعك أنت وحدك، فاطرح إذن سوء الظن

جانبًا، وقل كل شيء في صراحة، أدل إليّ بالحق الصراح...».

«أية خدمة تعني؟ استمع يا مسلوبويف: لماذا أراك راغبًا عن أن تذكر لي شيئًا عن الأمير؟ ذلك وحده ما يعنيني، وذلك ما أعده خدمة حقًّا».

«عن الأمير؟ مهلًا! لا بأس. وأقول لك في صراحة تامة إني إنما أسألك ما أسألك الآن لعلمي أن لذلك اتصالًا بالأمير».

«كيف؟».

«سأقول لك كيف. لقد لاحظت عليه أنه يعني على نحو ما بشئونك، ومن ذلك أنه أخذ يسألني في ثنايا حديثه عنك. أما من أين درى أننا متعارفان، فتلك مسألة لا تهمك في هذا الوقت، ولكن المهم أن تأخذ حذرك من هذا الأمير فهو يهوذا الإسخريوطي، بل هو شرّ منه مكانًا. لقد أشفقت عليك حين رأيته يوجه الكثير من اهتمامه إلى أمورك، بيد أني لا أعرف إلى الآن شيئًا بعينه، ولهذا أرجوك أن تنبئني بكل شيء حتى أستطيع أن أكوّن لنفسي رأيًا في الأمر... وهذا هو السر في أني رجوتك أن تحضر إليّ اليوم، وتلك هي المسألة المهمة. هأنذا الآن قد وضحت لك الأمر في صراحة تامة».

«ولكن قل لي على الأقل، ولو هذا فقط، لماذا كان عليّ أن أحذر الأمير خاصة».

«حسن، فليكن ذلك، ولكنك تعلم يا صديقي الحميم أني أتولى أحيانًا بعض الأعمال، وإنما يثق الناس بي لأني لا أكثر من الكلام. وأنت

مع ذلك تريد أن أتكلم، فلتغتبط حين تراني أتكلم أحيانًا في شيء من التعتيم، وإنما أفعل ذلك لأريك أيّ وغد زنيم هو، ولكن ابدأ أنت أولًا بسرد قصتك!».

ورأيت أن ليس ثمة ما يدعو إلى ستر هذه الأمور عن مسلوبويف، فإن قصة ناتاشا ليست بسر، يضاف إلى ذلك أنه قد يتأتى أن يصبح مسلوبويف ذا فائدة لها على صورة من الصور. وكانت هناك- بالطبع- بعض مواضع من الحديث تعمدت ألا أمسّها إلا مسًّا رفيقًا. وكان مسلوبويف يرهف سمعه عندما يتصل الحديث بالأمير، وكان يقاطعني في بعض المواضع ويلقي عليَّ خلال ذلك بضعة أسئلة، فإذا بالقصة قد صارت مسهبة مفصّلة حتى لقد استغرق سردها نصف ساعة.

فقال مسلوبويف: «إن لهذه الفتاة رأسًا حصيفًا عامرًا بالفطنة، وهي وإن لم تكن قد استشفّت حقيقة الأمير تمامًا، فليس بهيّن منها أنها عرفت بادئ ذي بدء كنه الشخص الذي تعامله وأنها قطعت علاقتها به. مرحى لك مرحى يا ناتاليا نيكولايفنا. إنني أشرب في صحتها! (وأفرغ كأسه في جوفه) وليس عقلها وحده هو الذي عصمها من الوقوع في الخديعة بل عصمها قلبها كذلك، فالأمر يقتضي فهمًا وشجاعة، وقد كانت لديها الشجاعة. أجل، لقد خسرت اللعب، فسيصر الأمير على تنفيذ إرادته وسيتخلى أليوشا عنها، ولكن الذي يستدرّ رثائي هو إشمنيف الهرم- وأن يضطر فوق ذلك إلى أن يدفع لهذا الوغد عشرة آلاف روبل. ومن الذي تعهّد قضيته؟ من الذي حامى عنه؟ هو نفسه ولا ريب. واحربا وواحزنا! ولكنهم جميعًا على هذه الشاكلة أولئك النبلاء

النفوس الشامخين بأنوفهم، فهم ضرب من الناس لا يصلحون لشيء، فما كان للمرء أن يسلك مع هذا الأمير هذا المسلك. ولو أني علمت بالأمر لجعلت لإشمنيف الهرم محاميًا.

وضرب المنضدة محنقًا.

«حسن، وماذا عن الأمير؟».

«آه، أنت لا تفتأ تذكر هذا الأمير! ماذا تريد أن أرويه لك عنه؟ لقد أبعدت أكثر مما ينبغي إذ ذكرت لك كلّ هذا. ولكن انظر يا فانيا إنني لم أرد إلا تحذيرك من هذا الوغد وحمايتك- فلنقل- من نفوذه. فمن يعامله يصبح دائمًا عرضة للأذى. فافتح عينيك دائمًا، وهذا هو كل ما أنصح إليك به. لعلك توهمت أني سأنبئك بأسرار عن خفايا باريس؟ سرعان ما يتبين المرء أنك كاتب قصص. ماذا عسى أن أذكر لك عن الوغد؟ الوغد وغد وسيظل إلى الأبد وغدًا... وفي استطاعتي أن أقصّ عليك- على سبيل المثل- أقصوصة صغيرة عنه، دون أن أسمّي، بالطبع، الأماكن والبلاد والأشخاص بأسمائهم، أعني دون أن أراعي الدقة التاريخية في سرد الوقائع. أنت تعلم أنه لا يزال حديث السن، ففي ذلك الوقت الذي كان فيه فتى يافعًا- وقد كان إذ ذاك يعتمد في المعيشة على وظيفته وحدها- تزوج من ابنة تاجر واسع الثراء، ولم يكن يعامل تلك السيدة بقدر كبير من الاحترام، ومع أننا لسنا الآن بسبيل الفحص عن مسألتها، فإنني لا أرغب إلا أن ألفت نظرك إلى أنه كان طوال عمره متهالكًا على اجتلاب المال بمثل هذه الأساليب. وهاك مثلًا آخر من أعماله وتصرفاته: رحل مرة إلى خارج البلاد، وهناك...».

«مهلًا يا مسلوبويف. عن أية رحلة إلى الخارج تتحدث؟ في أية سنة كان ذلك؟».

«كان ذلك، مع التدقيق، منذ تسعة وتسعين عامًا وثلاثة أشهر، هناك أغوى الابنة الوحيدة لأب من الآباء وفر بها إلى باريس. وقد جرت الأمور على النحو الآتي: كان الأب شيئًا أشبه بأن يكون صاحب مصنع أو لعله لم يزد على أن يكون صاحب حصّة كبيرة في أحد المشروعات الضخمة، ولست أعرف ذلك على وجه التحقيق، فإن ما أرويه لك الآن أغلبه ظنون وتخمينات استنبطتها من بعض الوقائع. وقد تملقه الأمير وخلبه وزجّ بنفسه في مشروعه، ثم استطاع أن يستولي على جانب من ماله، وكان لدى الرجل الهرم، بالبديهة، صكوك بهذا المال، ولكن الأمير لم يكن في نيته أن يوفيه إياها، أعني بصريح العبارة الروسية: أنه أراد سرقته. وكان لهذا الهرم ابنة وكانت الابنة جميلة، وكان قد أغرم بها شاب مثالي من إخوان شيلر، كان هو نفسه شويعرًا وفي الوقت نفسه تاجرًا، كان خياليًّا حالمًا، وعلى الجملة كان ألمانيًّا قحًا هو ففركوخن».

«أكان اسم أسرته ففركوخن؟».

«سواء كان هذا الاسم اسم أسرته أو لم يكن، فليس لذلك من خطر. فليأخذه الشيطان. وقد تقرّب الأمير إلى الفتاة وأفلح في إمالتها إليه حتى تيمها بحبه، وكان يرمي من وراء ذلك إلى غرضين: أولهما أن يستحوذ على الفتاة والآخر أن يستحوذ على صكوك المال الذي ابتزه من أبيها الهرم. وكانت بيد الفتاة مفاتيح خزائن والدها جميعًا، وكان الوالد الهرم يعبد ابنته عبادة جعلته يبغي عضلها عن الزواج، ذلك حق. وكان يغار

من كل من يتقدم لخطبتها ولا يستطيع أن يتصور أنه مضطر إلى الافتراق عنها يومًا من الأيام، ولهذا طرد ففركوخن من المنزل، لقد كان هذا الوالد الإنجليزي عظيم الشذوذ...».

«إنجليزي؟ وأين حدثت هذه الوقائع؟».

«لقد قلت إنه إنجليزي على سبيل المثل ليس غير، فإذا بك تتشبّث بهذه الكلمة. وقد حدثت هذه الوقائع في سانتا- في- ده- بوجوتا، أو لعلها حدثت في كراكاو، بيد أن الأرجح أنها حدثت في إمارة ناساو التي ترى اسمها مكتوبًا أمامك على جزازة الورق الملصقة بزجاجة المياه المعدنية. إذن فهي ناساو يقينًا، هل اطمأنّ قلبك الآن؟ ثم إن الأمير أغوى الفتاة واستلبها من والدها بعد أن غرر بها، فجعلها تستلب من والدها تلك الصكوك. أنت تعلم يا فانيا أن ثمة بعض حالات من الحب تشبه هذه الحالة والعياذ بالله. ومع ذلك كانت تلك الفتاة طاهرة نبيلة الخلق، وربما كانت لا تعرف تمام المعرفة حقيقة خطر هذه الأوراق. ولم يكن يثقل كاهلها إلا همّ واحد هو خشيتها أن يلعنها والدها، ولكن الأمير عرف هنا أن يتغلب عليها، فقد أعطاها عهدًا مكتوبًا مستكملًا الشرائط القانونية، بأن يتزوج منها. وهكذا ضلّل بها زاعمًا أنهما سيبرحان الديار في رحلة قصيرة يجوبان فيها بلاد العالم، حتى إذا ما هدأت ثائرة الأب عادا إليه زوجين وقضوا ثلاثتهم باقي حياتهم في هناءة وغبطة. ذلك ما زعمه الأمير، وفرت الفتاة فصب عليها والدها الهرم لعنته ثم أفلس، ولكن فراونملش تأثرها إلى باريس تاركًا وراء ظهره كل شيء حتى أعماله، فقد كان يهيم بها حبًّا».

«معذرة. فمن هو فراونملش؟».

«هو ذلك الـــ... ماذا كان اسمه؟ فويرباخ... لا. انتظر، هو ذلك الملعون... اسمه ففركوخن[1]. وكان الأمير لا يستطيع، بطبيعة الحال، أن يتزوجها، وإلا فماذا عسى أن تقول عنه كونتة إهلستوفا[2]؟ وماذا عسى أن يقول عنه بارون بومويكين؟ لذلك كان عليه أن يخلص نفسه من هذه الورطة بأية صورة. وقد فعل ذلك ولكن على نحو قاس وضيع، إذ إنه أولًا: أخذ يعاملها بما يشبه الضرب، وإنه ثانيًا: دعا هذا الففركوخن عمدًا إلى زيارتهما، فجاء فعلًا وأخذ يختلف إليهما وأصبح موضع ثقتها، وطفقا يبكيان معًا، ويقضي معها ليالي طوالًا يندبان حظها الضائع ويعزّيها ويسّري عنها. يا له من غرّ ساذج. ودبّر الأمير الأمر، فأتى مرة بعد هدء من الليل فألفاهما، فاتهمهما بأن بينهما علاقة غرامية، وأضاف إلى ذلك أشياء كثيرة زعم أنه رآها بعينيه. وموجز القول إنه طرد الاثنين إلى خارج المنزل وسافر إلى لندن حيث قضى ردحًا من الزمن. وقد فعل ذلك حين كانت هي توشك أن تضع، فلم يكد يلقي بها في الطريق حتى ولدت ابنة... أعني أنها لم تلد ابنة بل ولدت ابنًا. لا ريب أنه كان ولدًا، وقد عمدوه باسم فولدكا، وكان ففركوخن عرّابه[3]. ثم رحلت مع ففركوخن وكان معه شيء من المال فقصدا إلى سويسرا وإيطاليا...

---

(١) الأسماء التي هنا كلها ألمانية ذات رنة مضحكة تشبه أسماء اليهود، وكل منها مركب من كلمتين مندمجتين معًا، فاسم ففركوخن ترجمته فطير بالفلفل وفراونماش معناه: لبن المرأة وفوير باخ معناه جدول «نهير» النار. أما برودرشافت فهو مصدر معناه إخوة.

(٢) يستعمل هذان الاسمان هنا كما يستعمل الإنجليز اسمي مسز جراند وبارون سلوبس وكما يستعمل عامة أهل مصر اسمي زيد وعبيد، وذلك بمعنى المجتمع أو الناس أو القوَّالين.

(٣) العرَّاب: عند النصارى كفيل المعتمد، والكفيلة عرَّابة.

وإلى كل تلك البلدان الشعرية، حسبما كانت تدعو إليه الأحوال. وكانت لا تنفك عن العويل ولا ينفك هو عن النشيج. وهكذا كرت السنون والأعوام وكبرت الفتاة الصغيرة. وقد كان الأمر يكون حسنًا في نظر الأمير لو أنه استطاع استرداد عهده الكتابي لها بالزواج. وقد قالت له عندما ودعته: إنك لسافل. ولقد سرقتني وفضحتني، وها أنت ذا تهجرني فوداعًا! ولكني لن أرجع إليك عهد الزواج. وليس ذلك لأني لا أزال أرغب في الزواج منك بل لسبب واحد هو أنك تشفق من هذه الوثيقة إشفاقًا ترعد منه فرائصك، ولهذا سأحتفظ بها إلى الأبد! وقد غاب عنها رشدها في حين ظل الأمير محتفظًا بكامل هدوئه، وليس أجدى على مثل هؤلاء الأنذال من معاملة من يسمونهم المثاليين، إذ إن لديهم حظًّا من نبل النفس وكرم الخلق يسهل معه دائمًا ختلهم، ثم إن أقصى ما يعمدون إليه هو الإعراض في ازدراء وأنفة وترفّع بدل أن يستصرخوا القانون في حالات كان القانون يجدي عليهم فيها كثيرًا. وكذلك كان الشأن في قصتنا، فقد أدارت له الأم الصغيرة ظهرها في احتقار وكبرياء وولت مدبرة عنه. ومع أنها لم تتخلّ عن الوثيقة فقد كان الأمير يعلم تمام العلم أنها تؤثر الموت على أن تستغل هذه الوثيقة وتستظهر عليه بها، وقد رضي بذلك واطمأن إليه مؤقتًا. نعم إنها بصقت في وجهه، ولكن طفلها فولدكا ما يزال في حجرها رضيعًا، فإن ماتت هي فماذا عسى أن يؤول إليه أمر الطفل؟ إنها لم تفكر في ذلك، وكان ذلك المدعو برودر شافت يضرب هو أيضًا على الوتر نفسه، فلم يشر عليها برأي رشيد بل أخذ يقرأ معها «شيلر» ثم انتابته علة من العلل أودت بحياته...».

«تقصد ولا شك ففركوخن».

«فليكن، فليأخذه الشيطان! أما هي...».

«مهلًا.. كم سنة قضياها سائحين؟».

«مائتي سنة تمامًا، حسن، وقد عادت إلى «كراكاو»، فلم يستقبلها أبوها بل لعنها، ثم قضت نحبها فلوّح الأمير بيده ثلاثًا راسمًا الصليب على صدره من ابتهاجه وسروره بموتها، وعاش في بلهنية من العيش. وقد أقمت معهم ردحًا من الزمن، فإذا لم يكن قد مات فهو ما يزال على قيد الحياة[1].. وهلم جرّا... وهلم جرّا... حسن، فلنحتس جرعة يا صديقي فانيا».

«أأنت تعاونه في هذه المسألة يا مسلوبويف؟».

«أتتوق كثيرًا إلى معرفة ذلك؟».

«ولكن ثمة شيء واحد لا أفهمه، هو ما يأتي: بم تستطيع أن تعاونه في هذا الشأن؟».

«حسن! أصغ إليّ، إنها عندما رحلت في ذلك الحين إلى مدريد بعد أن غابت عنها عشر سنوات، وكانت قد اتخذت لها اسمًا آخر، لم يكن له غنى عن الفحص عن هذه الأمور. أين ذهب هذا البرودرشافت وأين يقيم والدها وهل هي عادت حقًّا، وهل الطفلة ما تزال معها وكيف كانت وفاة هذه الأم؟ أو لم تترك هي بعض الأوراق؟ وهلم جرّا إلى غير نهاية.

(١) هذه الجملة مما جرت العادة بذكرها في ختام الأقاصيص والخرافات الشعبية كما تقول العامة في مصر: «وعاشوا في التبات والنبات وخلفوا صبية وبنات».

أضف إلى ذلك شيئًا آخر، ذلك أنه رجل فظيع، فخذ حذرك منه يا فانيا! أما مسلوبويف فليس لك أن تدعوه وغدًا، فاذكر ذلك وقل: إنه وإن يكن وغدًا- وأعتقد أن كل امرئ وغد على صورة من الصور- فليس وغدًا بإزائي أنا. نعم أنا مخمور، ولكن استمع إليّ، إذا بدا لك هنا أو هناك، الآن أو بعد الآن، أن مسلوبويف خدعك- وأرجو أن تذكر كلمة خدعك- فاعلم أنه لا يمكن أن يكون قد فعل ما فعل بسوء نية. إن مسلوبويف مفتوح العينين يقظ على حراستك، فلا تستجب ريبك وشكوكك مطلقًا، بل تعال إلى مسلوبويف نفسه وحاججه حجاج الصديق للصديق. ولكن ألا تشرب شيئًا؟».

«كلا».

«ألا تريد أن تطعم شيئًا؟».

«لا يا صديقي، معذرة».

«إذن فإلى الشيطان، الساعة الآن ثلاثة أرباع التاسعة. وقد آن لك أن تنصرف!».

فصاحت ألكسندرا سيميونفنا والدمع يكاد يطفر من عينيها: «كيف؟ ماذا؟ يظل هو نفسه يملأ جوفه بالخمر ثم يضع الكرسي للضيف خارج الباب. إنه دائمًا هكذا! آه منك يا عادم الحياء!».

«الرّاجل شرٌّ رفيق للراكب، وإذن فليبق كل منا للآخر يا ألكسندرا سيميونفنا، يخلص كلانا لصاحبه، أما هو فإنه قائد عظيم. كلا يا فانيا. فهأنذا قد عدت إلى الكذب، فما أنت بالقائد ولكني أنا وغد. فانظر إليّ

تَرَ في أية حالة أنا وماذا أكون بالقياس عليك. صفحًا يا فانيا. ولا تلعنيّ ودعني أنفض إليك ما في قلبي..».

وعانقني وانهمرت الدموع من عينيه وتهيأت أنا للانصراف.

فقالت ألكسندرا سيميونفنا وقد برّح بها الغم: «ربّاه! لقد أعددنا لك العشاء. على أنك ستأتي حتمًا يوم الجمعة؟».

«سآتي يا ألكسندرا سيميونفنا. أعدك بشرفي؟».

«لعلك في خجل منه لأنه كما ترى... مخمور، ولكن لا تزدره من جرّاء ذلك يا إيفان بتروفتش، فهو سليم الطوية طاهر القلب، ثم هو شديد الحب لك، إذ إنه لا يحدّثني صباح مساء إلا عنك. دائمًا عنك أنت وحدك. ثم إنه ابتاع لي مؤلفاتك. نعم إنني لم أقرأها بعد، ولكني سأبدأ في ذلك غدًا. آه، وما أكثر ما سيغمرني من السرور عند قدومك، فإنني لا أفتح عينيّ على غيره ولا يزورنا زائر، ومع أن كل ما يُشتهى موفور لدينا نظل دائمًا وحدنا، لقد لبثت الآن جالسة هنا أنصت وأنصت إلى حديثكما، لقد كان جميلًا عليه طلاوة... وإذن فإلى يوم الجمعة».

* * *

الفصل السابع

وانصرفت إلى منزلي مسرعًا غاية الإسراع، وكان لكلمات مسلوبويف في نفسي أثر عظيم، فأخذت تطيف برأسي ما يعلم الله من مختلف الأفكار... وكأنما شاءت الأحوال أن تنتظرني في المنزل حادثة رجّت كل أعضائي رجًّا كأنها هزة كهربية.

لقد كان قبالة باب المنزل الذي أقطنه، أحد مصابيح الشارع، فبينا أنا أنثني إلى الباب إذا بشبح عجيب قد اندفع نحوي بقوة من وراء المصباح، فلم أملك أن صحت مرتاعًا، وإذا به كائن حي يرتعد فرقًا وقد صاح صيحة من به مس ولصق بذراعي: تلك كانت نلي.

فصحت: «نلي، ماذا بك؟ ماذا تعملين هنا؟».

«هناك، فو... هو... جالس عندنا....».

«من هو؟ تعالي، هلمّي نصعد معًا».

«لا أريد، لا أريد، لا أريد! سأنتظر حتى ينصرف... في الدهليز... لا أريد...».

وصعدت إلى مسكني يساورني إحساس عجيب بما سيكون وفتحت الباب فلم يرعني إلا وجود الأمير، وكان جالسًا إلى المنضدة يطالع قصتي، أو- على الأقل- كانت القصة مفتوحة بين يديه.

فصاح مبتهجًا: «إيفان بتروفتش، ما أشد سروري بعودتك في النهاية، فقد كنت وشيك الرجوع من حيث أتيت، بعد أن ظللت أنتظرك ساعة كاملة، ذلك أني وعدت الكونتة، تلبية لغربتها الملحة وطلبها المتكرر، أن أصطحبك إليها هذا المساء. وقد طالما رجتني أن أفعل ذلك، فهي تتوق كثيرًا، إلى التعرف بك، ولما كنت قد وعدتني بذلك من قبل، فقد آثرت أن أتي إليك بنفسي فآخذك معي، مبكرين قدر الاستطاعة قبل أن يكون الوقت قد أتاح لها الذهاب إلى مكان ما، فتصور إذن ما أصابني من خيبة الرجاء إذ جئت هنا فإذا بخادمتك تخبرني أنك قد خرجت! فماذا أعمل؟ لقد وعدت الكونتة ألا أمضي اليوم إليها إلا وأنت برفقتي، فجلست أنتظر ظانًّا أني لا أمكث إلا ربع ساعة، والواقع أن الوقت قد مر بي كأنه ربع ساعة، فقد فتحت قصتك وظللت أقرأ وأقرأ دون أن أشبع من القراءة. إيه يا إيفان بتروفتش، إنه لعمل أستاذيّ بارع تستحق من أجله أن تكون أبعد شهرة وأنبه ذكرًا، فقد أبكيتني واستدررت مني الدموع. نعم، لقد بكيت حقًّا، وهذا أمر يندر حدوثه لي...».

«وعلى ذلك فأنت تودّ أن أمضي معك الآن؟ أقول لك في صراحة إنني في هذه اللحظة... أجل، إنني لا آبي المضي إلى هناك، إلا أن...».

«دعنا بالله عليك نذهب، إنك لن تفعل فيّ هذه الفعلة، لقد لبثت أنتظرك نصف ساعة كاملًا!... يضاف إلى ذلك أنه من الضروريّ جدًّا

جدًّا أن أتحدث إليك، وأنت تعرف، بالبديهة، الموضوع الذي أريد التحدث إليك فيه، وإنك لأفهم لهذه الأمور مني.. وقد يتاح لنا أن نبتّ في أمر أو نتفق على شيء. أرأيت؟ فلا تأب ملتمسي، بالله عليك».

ورأيت أني مضطر إلى الذهاب إن عاجلًا أو آجلًا. لا شك أن ناتاشا وحدها الآن وقد تكون في حاجة ماسّة إليّ، ولكنها هي نفسها قد ناطت بي أن أتعرف بكاتيا في أقرب وقت، يضاف إلى ذلك أنه قد يكون أليوشا هناك... ثم إني كنت أعلم أن ناتاشا لن يستقرّ لها قرار قبل أن آتيها بنبأ عن كاتيا، وعلى ذلك رأيت أن أذهب معه، بيد أني كنت لا أزال في خوف على نلي.

فقلت للأمير: «لحظة من فضلك»، وخرجت إلى السلم حيث كانت تقف نلي في ركن مظلم.

«لم لا تريدين الدخول يا نلي؟ ماذا فعل لك؟ هل قال شيئًا؟».

فقالت مكررة: «لا شيء... لا أريد شيئًا، لا أريد شيئًا... أنا خائفة...».

وما أكثر ما حاولت إقناعها ولكن دون جدوى. واتفقنا آخر الأمر على أن تعجل هي بالعودة إلى غرفتها عند نزولنا أنا والأمير، وتسكّ باب المسكن من الداخل بالمترس، وقلت:

«ولا تدعي أحدًا يدخل مطلقًا يا نلي مهما ألحف في الرجاء».

«أو تريد الذهاب معه؟».

«أجل».

فارتعدت والتصقت بذراعي التصاقًا شديدًا كأنها تبتهل إليّ ألا أذهب معه، ولكنها لم تنبس ببنت شفة، فعزمت على أن أستفسر منها عن الأمير تفصيلًا في الغد.

واستمهلت الأمير لحظة وشرعت في تبديل ملابسي، فقال لي مؤكدًا إنه ليس من حاجة إلى تبديل ملابسي أو إلى العناية البالغة بالأناقة والزينة. ثم أضاف إلى ذلك وهو يحدجني بعينيه: «على أن تعني قليلًا بأن تكون نظيفًا مهندمًا. أجل إن كل هذه الأمور ليست إلا أمورًا تواضع عليها الناس... بيد أن المرء لا يستطيع التخلص منها دفعة واحدة. وسينقضي وقت طويل قبل أن يصل مجتمعنا إلى الحالة المثالية المنشودة»، ولكنه سرّ عندما رأى أن لديّ حلة فراك.

وخرجنا من المسكن، غير أني تركته على الدرج لحظة، وعدت إلى الغرفة لأودع نلي، وكانت قد تسللت إليها. فألفيتها في اهتياج مروّع وقد اربدّ وجهها، وملكني الخوف عليها حتى شقّ عليّ أن أدعها وحدها.

وقال الأمير ونحن نهبط في الدرج: «إن لك لخادمًا عجيبة. أهي خادمك تلك الفتاة الصغيرة؟».

«كلا... بل هي تقطن معي... لفترة من الزمن».

«يا لها من فتاة عجيبة. إني مقتنع كل الاقتناع أن بها مسًّا، فانظر؛ لقد كانت أول الأمر تجيب في تأدب عن أسئلتي، ولكنها انقلبت فجأة بعد أن أحدّت النظر إليّ فارتمت عليّ صارخة وهي ترعد من فرعها إلى قدمها، وأخذت تلصق نفسها بي... وكانت تهم أن تقول شيئًا، ثم لزمت

الصمت. ولا بد أن أعترف بأنه قد استولى عليّ خوف عظيم فأردت أن أنجو بنفسي منها، غير أنها، والحمد لله، قد انطلقت هي مولّية. ولقد عقمت مفاصلي من الدهش، فكيف تستطيع أنت أن تعيش معها وتتعامل معها؟».

فأجبت: «إنها تنتابها أحيانًا نوبات صرع».

«آه، تلك إذن جليّة الأمر... لا عجب إن كانت مصابة بالصرع...».

ولكن ثمة فكرة صدمتني في الحال، إن زيارة مسلوبويف لمسكني أمس وزيارتي له اليوم وطلبه إليّ أن أعود إليه في الساعة السابعة، والقصة التي قصّها عليّ على الرغم منه وهو مخمور، وتأكيده المتكرر أنه لن يخدعني، وزيارة الأمير لي وانتظاره إياي نصف ساعة كاملًا، في حين أنه قد يكون على علم بأني عند مسلوبويف، وفي حين أن نلي هربت منه لائذة بعرض الطريق، كل هذه الأمور لا بد أن يكون بينها ارتباط. وقد شغل ذلك بالي وسلبني الراحة والهدوء.

وكانت مركبة الأمير تنتظر أمام الباب، فركبناها وانطلقت بنا.

* * *

الفصل الثامن

ولم تكن الشقّة التي يجب علينا أن نقطعها بالمركبة طويلة، فهي لا تعدو جسر تورجوفي، ولبثنا أول الأمر هنيهة صامتين وأنا لا أفتأ أكدّ ذهني مسائلًا: كيف تراه سيبدأ الحديث معك؟ وخمّنت أنه سيعمد إلى اختباري وسبر غوري واستطلاع رأيي، بيد أنه بدأ حديثه بغير لف ودوران، مديرًا دفته صوب الغرض مباشرة.

فقال: «هنالك شيء واحد يغمني ويكربني يا إيفان بتروفتش، وقد رأيت أن أتحدث إليك في شأنه قبل غيره، ملتمسًا منك المشورة في هذا الشأن، فقد اعتزمت منذ زمن طويل أن أنزل عن المال الذي حكم لي به في القضية، أن أتخلى لإشمنيف عن عشرة آلاف الروبل المتنازع عليها، فما هو أمثل سبيل إلى ذلك؟».

فقلت في نفسي: أتجهل حقًّا السبيل إلى ذلك؟ أم أنت تريد أن تسخر مني؟.

وأجبته في أقصى ما وسعني من السذاجة: «ذلك ما لست أعلمه أيها

الأمير. إنني على استعداد، فيما يتعلق بمسائل أخرى، أعني فيما يتعلق بناتاليا نيكولايفنا، أن أقدم لك مغتبطًا، كل ما استطعت من معلومات يمكن أن تكون ذات فائدة لك ولنا، أما في هذا الشأن فأنت ولا شك أدرى به مني».

«لا، لا. كلا، كلا. بل الأمر على العكس، فأنت تعرفهم معرفة وثيقة، ولعل ناتاليا نيكولايفنا نفسها كانت أعربت أمامك في بعض الأحيان عن آرائها في هذه المسألة، فاتخذ منها هاديًا. إن في وسعك أن تساعدني كثيرًا، فإن الأمر ليس من السهولة بمكان. إني مستعد للنزول عن المال، بل إني لمصر على النزول عنه مهما يكن شأن المسائل الأخرى. أنت، بالبديهة، تفهمني؟ ولكن كيف ذلك؟ وما هي أمثل الطرق إليه؟ تلك هي المسألة، فالهرم متكبر عنيد، وأخشى أن تنالني منه إهانة من سبيل هذا الجميل، وأشفق أن يقذف بالنقود في وجهي...».

«ولكن عفوًا. كيف تنظر إلى هذا المال؟ أعلى أنه مالك أم على أنه ماله؟».

«لقد كسبت القضية، وإذن فالمال مالي».

«ولكن أمام ضميرك؟».

فأجاب وقد لذعه ما في سؤالي من قلة مبالاة وتوقير: «إنه، بالبديهة، مالي. ويلوح لي أنك لا تعرف مطلقًا أهم تفصيلات القضية، فأنا لا أتهم الشيخ بالاختلاس المتعمد، وأؤكد إني لم أتهمه بذلك قط، ولكنه هو الذي اختار بل أصرّ على أن يرى في الأمر إهانة له، أما ذنبه الحقيقي فهو أنه أهمل ولم يعن بمراقبة ما نيط به من الأعمال، وهو يعد بمقتضى ما

تعاقدت معه عليه، مسئولًا شخصيًّا عما يقع منه في إدارتها من أخطاء. ولكن أتدري، إن ما بيني وبينه لا اتصال له مطلقًا بهذه المسألة، بل الأمر المهم هو ما احتدم بيننا من نزاع، هو الإهانات المتبادلة وعزة النفس المجروحة من كلينا. ولعلّني كنت إذ ذاك لا أحرك إصبعًا من أجل عشرة آلاف الروبل التافهة هذه، ولكنك تدري كيف سارت الأمور. أعترف بأني كنت سيئ الظن، ولعلني كنت ظالمًا أيضًا، أي في أول الأمر فقط، غير أني لم أكن أدري ذلك، ورأيت في سورة غضبي واضطرام إحساسي بالإهانة من غلظته، ألا أدع الفرصة تفلت مني فقاضيته. قد تقول إن هذا المسلك لم يكن منطويًا على شهامة وكرم نفس، وأنا لست أريد مطلقًا أن أسوّغ عملي، وإنما أحب أن أقول إن الموجدة أو- أكثر من ذلك- الكبرياء المثلومة ليس معناها نقصًا في الشهامة وكرم النفس بل هي من الخلال الفطرية في الإنسان، ولا بد من أن أعترف لك وأكرر لك مرة أخرى أني كنت إذ ذاك لا أكاد أعرف إشمنيف الهرم، ولذلك آمنت إيمانًا أعمى بتلك الأراجيف التي كانوا يرجفون بها عن ابنته وصلتها بأليوشا، ولذلك أيضًا وسعني أن أصدق احتمال أن يكون سرق المال متعمدًا... ولكن دعنا نعدّي عن كل هذا، فالمهم هو ما ينبغي أن نعمل في الوقت الحاضر. إني نازل عن المال مهما تكن الأحوال والملابسات. ولكني إذا قلت له في الوقت نفسه إني ما زلت أعدّ نفسي محقًّا في مقاضاته، لم يكن لذلك من معنى إلا أني أتصدق عليه بهذا المال. وإذا أضفنا إلى ذلك مركزي الدقيق بإزاء ناتاليا نيكولايفنا.. فلا شك أنه سيقذف بالمال في وجهي...».

«انظر، إنك تقول بنفسك إنه سيقذف بالمال في وجهي، فأنت إذن تعده شريفًا أبيّ النفس، وذلك قمين بأن يجعلك تثق ثقة تامة بأنه لم يسرق مالك، وإذا كان ذلك كذلك فلم لا تذهب إليه مباشرة وتقوله له في صراحة إنك تعدّ أن هذه القضية لم تكن قائمة على أساس من الحق؟ لو أنك فعلت ذلك لكان ذلك منك عملًا نبيلًا، ولما وجد إشمنيف مشقة في قبول المال، في قبول ماله».

«ها.. ماله، تلك هي المسألة عينها، ولكن ما هذا الذي تطلب إليّ؟ أأنا أذهب إليه وأصرح له بأني أعد القضية غير عادلة؟ إذن لجبهني كل امرئ بقوله ولم إذن رفعتها وأنت تعرف أنها غير عادلة؟ وما أنا بمستحق لهذا اللوم، فإني تصرفت وفق الأصول ولم أتهمه قط بالقول أو بالكتابة بأنه اغتال المال. على أني ما زلت إلى الآن مقتنعًا بأنه كان مهملًا ونزقًا في إدارة ما نيط به من أعمال. فالمال مالي ولا ريب، ولذلك يعزّ عليّ أن أتجنّى على نفسي وأتهمها إفكًا وبهتانًا. هذا وقد قلت لك آنفًا إن هذا الهرم هو الذي جعل من الأمر إهانة لشخصه، وأنت تريدني أن أذهب إليه لأسأله الصفح عن هذه الإهانة، هذا كثير!».

«أعتقد أنه عندما يريد شخصان أن يتصافيا، فإن...».

«فإن المسألة تكون من اليسر بمكان. أتظن ذلك؟».

«أجل».

«أخطأت، فالأمر يكون في بعض الأحيان على جانب كبير من العسر، ولا سيما...».

«ولا سيما عندما تكون ثمة شئون أخرى متصلة به. إني أقرّك على ذلك كل الإقرار يا أمير، فصلة ناتاليا نيكولايفنا بابنك يجب أن نبتّ فيها، في جميع جزئياتها التي يتعلق أمرها بإرادتك، ويجب أن تبت فيها على وجه يرضي آل إشمنيف كل الرضا، وإذ ذاك تستطيع أن تخاطب إشمنيف في شأن القضية بإخلاص وصراحة. أما الآن وقبل أن يبت في شيء، فليس أمامك غير طريق واحدة هي أن تستردّ قضيتك بوصف أنها تجانف العدل، وأن يكون ذلك منك في صراحة وعلانية إذا اقتضى الأمر ذلك، هذا هو رأيي. إني أبين لك الأمر بعبارة صريحة لأنك أنت الذي رغبت إليّ في ذلك، ولست تريدني بالبديهة على أن أرائي وأداجي، ولذلك فإني أسمح لنفسي بأن أسأل: لماذا تجشم رأسك كل هذا العناء من أجل رد هذا المال إلى إشمنيف؟ وإذا كنت مقتنعًا بأنك في جانب الحق، فما رغبتك في إعادة المال إليه؟ معذرة عن هذا السؤال الفضوليّ فإنه مرتبط بالمسائل الأخرى ارتباطًا وثيقًا...».

فسأل بغتة كما لو لم يكن قد سمع سؤالي: «وماذا ترى أنت؟ أتعتقد حقًّا أن إشمنيف الهرم سيرفض عشرة آلاف الروبل هذه إن أنا عرضتها له دون أي إيضاح و... و... ودون كل هذه المحاولات والملاطفات؟».

«سيرفضها ولا ريب».

وأخذ وجهي يحمرّ ويستحيل لونه قرمزيًّا، وعرتني الرجفة من الحنق، فإن هذا السؤال المتشكك الوقح قد أحدث فيَّ أثرًا كما لو كان الأمير قد بصق على وجهي، يضاف إلى ذلك تلك الطريقة الأرستقراطية التي أغفل بها سؤالي وكأن لم يسمعه مطلقًا، ومقاطعته إياي بسؤال آخر

قاصدًا بذلك على الأرجح أن يهمني أنني بتوجيه مثل هذا السؤال إليه قد أبعدت ورفعت الكلفة من بيننا. أما أنا فكنت أمقت هذه المداورات الأرستقراطية وأعافها وأشمئز منها، وقد بذلت جهدي من قبل في أن أروض أليوشا على اطّراحها.

وأبدى الأمير ملاحظته على استفهامي، فقال في لهجة جافية: «ها.. أنت سريع التحمس والاندفاع بعض الشيء، ولكن هذه الشئون تعالج في الحياة الحقيقية على وجه آخر غير ما تتخيل. يضاف إلى ذلك أني أرى أن ناتاليا نيكولايفنا هي التي يحق لها أن تبت في الأمر، فأبلغها ذلك عسى أن تشير علينا برأي».

فأجبته في جفاء: «إن ذلك لا يدور بخلدي. إنك لم تنزل إلى الاستماع إليّ حين كلمتك الآن في هذا الشأن، واقتضبت حديثي. فإن جئت الآن تردّ إليه المال دون إيضاح- حسب تعبيرك- ودون كل هذه المحاولات والملاطفات، فهمت ناتاليا نيكولايفنا أنك تعطي الأب هذا المال بسبب ما لحق ابنته، أو أنك تعرض هذا القدر من المال تعويضًا لها عن أليوشا، أعني بعبارة موجزة أنك تعالج تسوية المسألة بالمال...».

فقال الأمير: «ها.. إذن أنت تفهم الأمور على هذا النحو يا عزيزي الفاضل إيفان بتروفتش» وضحك. فعلام يضحك؟ ثم واصل حديثه: «على أن لدينا فوق ذلك أمورًا كثيرة جدًّا جدًّا يقتضينا الأمر أن نخوض فيها بالحديث، ولكنه لم يبق أمامنا فسحة من الوقت، غير أني أرجو أن تفكر في شيء واحد هو: إن الأمر هنا يتعلق بناتاليا نيكولايفنا مباشرة وبمستقبلها كله، وكل شيء سيتوقف إلى حد كبير على ما يستقر عليه

رأينا أنا وأنت وبما نتفق عليه، فأنت هنا لا غنى عنك، وذلك ما تراه أنت بنفسك، ولذلك لن يسعك- إذا كنت لا تزال صديقًا لناتاليا نيكولايفنا- أن تمتنع من العمل معي في صراحة مهما يكن من قلة ميلك إليّ. ولكن ها نحن أولاء... فإلى الملتقى القريب».

* * *

الفصل التاسع

كانت الكونتة تسكن في مسكن فخم أثثت غرفه بفرش مريح تؤنق في تنضيده دون أن يغالى في فخامته، ومع ذلك كان كل شيء هناك يوحي إلى الذهن بأنه مسكن قلعة أعدّ للإقامة المؤقتة. أجل كان المسكن فخمًا، بيد أنه مستأجر لزمن قصير، فهو ليس بالمثوى الدائم لأسرة مثرية، ليس بالمثوى الذي تبدو فيه شتى مظاهر الأرستقراطية التليدة وكل تلك التوافه التي يعدّونها من الضرورات. وقد كان أشيع أن الكونتة تود أن ترحل في الصيف إلى ضيعة لها بولاية سمبرسك ساءت إدارتها وبهظتها الديون، وأن الأمير سيصحبها في هذه الرحلة، وكنت قد سمعت ذلك من قبل، فشغلت بالتفكير فيما عسى أن يفعل أليوشا حينما تسافر كاتيا مع الكونتة. ولم أكن قد حادثت ناتاشا في هذا الشأن بعد، إذ أشفقت أن أفعل، ولكني استنبطت من بعض القرائن أن هذه الشائعة قد طرقت سمعها هي أيضًا، بيد أ نها لزمت الصمت وعانت ما عانت في سكون.

واستقبلتني الكونتة استقبالًا رائعًا وبسطت إليّ كفها في ودّ قلبيّ

وهي تقول لي مؤكدة إنها ترغب منذ زمن بعيد أن تراني عندها. وصبت لنا الشاي بنفسها من غلاية فضية فاخرة جلسنا حولها أنا والأمير وسيد آخر أكبر سنًّا وهو ذو حظ كبير من الوجاهة يحمل على صدره وسامًا في شكل النجم وكان في حركاته وأساليبه شيء من الصلابة «والدبلوماتية». وكان هذا الضيف موضع التبجيل البالغ والرعاية الفائقة. ولم تكن الكونتة منذ عادت من الخارج حتى الآن قد تسنى لها أن تنشئ بعد في بطرسبورج صلات كثيرة، وأن تتبوأ في المجتمع مركزًا مرموقًا، مع أنها كانت ترغب في ذلك وتدخله في حسابها، وهكذا لم يكن هناك من أحد غير هذا السيد، وكذلك لم يفد أحد غيره طوال المساء. وأجلت عيني أبحث عن كاترينا فيودوروفنا، فإذا هي مع أليوشا في الغرفة المجاورة، ولكنها ما إن سمعت بوصولنا حتى بادرت بالقدوم إلينا، فلثم الأمير يدها في رقة ولطف. ولفتت الكونتة نظرها نحوي، فقدم الأمير كلًّا منا إلى الآخر، وجعلت أصعد النظر فيها وأصوبه في فضول ونفاد صبر، فإذا هي شقراء رقيقة قصيرة ذات وجه وديع هادئ التعبير، عليها ثوب من الحرير الأبيض ولها عينان في مثل زرقة السماء حقًّا كما قال أليوشا ذات مرة، وفيما عدا ذلك فهي لا تمتاز إلا بنضرة الصبا. لقد كنت أتوقع أن أرى مثال الجمال الكامل ولكنها لم تكنه ولا كانت قريبة منه. كان وجهها المتسق الأجزاء البيضيّ الجميل التقاسيم، وشعرها الغزير المفرط في الجمال، الذي صففته وعقصته في نمط بيتيّ ساذج، ونظرتها الساجية الصافية، كل أولئك لو أنه اتفق أن صادفته في مكان ما لجاوزته دون أن يسترعي نظري. على أن هذا لم يكن إلا الأثر الأول الذي علق بنفسي

منها. وقد أتاحت لي هذه السهرة فرصة أكوِّن فيها لنفسي رأيًا صادقًا عنها. وقد وجدت الطريقة التي صافحتني بها وهي تتطلع إلى وجهي في فضول طفليّ بالغ دون أن تفوه بكلمة واحدة، غريبة جدًّا حتى شعرت أنها ذات قلب طفليّ بريء. وكانت الكونتة ترمقها في انتباه حادّ. وأسرعت كاتيا بعد أن صافحتني إلى الانصراف لتجلس مع أليوشا في ركن آخر من الغرفة. وقد همس أليوشا في أذني، وهو يحييني، قائلًا: «سأمكث هنا فترة قصيرة ثم أمضي توًّا إلى هناك».

أما الدبلومات- ولست أعرف اسمه ولذا أسميه الدبلومات حتى لا أدعه دون اسم- فكان يتحدث في تواقر وتفيهق وهو يشرح فكرة من الفكر. وكانت الكونتة تصغي إليه في انتباه والأمير يبتسم مؤيدًا مداهنًا، وكذلك كان المحدث يتوجه بالحديث غالبًا إليه، وذلك لأنه على الأرجح كان يراه أجدر المستمعين بأن يوليه اهتمامه. أما أنا فقد جاءوا إليّ بالشاي ثم تركوني وشأني فكان ذلك مبعث سرور لي. وهكذا أتاح لي أن أرى الكونتة عن كثب، وقد أعجبتني للنظرة الأولى على الرغم مني، وقد لا تكون حديثة السن جدًّا، ولكنها بدت لي كأنها لا تتجاوز الثامنة والعشرين من عمرها، وكان فيها شيء فتيّ ناضر، فلا ريب أنها كانت في صباها ذات جمال أخّاذ، ولها شعر بني قاتم غزير وعينان حنونان، ولكنهما تنمان عن طبع قلّب وتهكم لعوب، بيد أنها كانت في تلك اللحظة، لأمر ما، متحفظة كابحة جماح نفسها. وكان يكمن وراء عينيها ذكاء، ولكن، قبل كل شيء، طيبة ومرح كذلك. إن أظهر خلالها النزق وحب الاستمتاع ونوع غير شرير من الأثرة أو لعلها تكون أثرة

مفرطة بعض الشيء. وكانت رهن مشيئة الأمير وطوع إرادته تمامًا. وقد كنت أعلم من قبل أن بينهما صلات خاصة، يضاف إلى ذلك ما كان يقوله الناس من أنه لم يكن يعد وفي أثناء إقامتهما في الخارج أن يكون عاشقًا لها غيورًا عليها على أنه قد بدا لي- وذلك ما لا زلت أعتقده- أن هنالك شيئًا آخر يربط بينهما غير علاقتهما القديمة، شيئًا سريًّا، تعهدات والتزامات متبادلة ربما كان أساسها المصلحة الذاتية والحسابات المالية... وبوجه عام، فلا ريب أن هنالك شيئًا من هذا القبيل. وقد كنت أعلم أيضًا أن الأمير قد برم بها وبدأ يحس أنها حمل يؤوده، ومع ذلك ظلت العلاقة قائمة بينهما. ولعل الذي يوثق عرى ما بينهما في هذه الأيام توثيقًا خاصًّا ما يحيكونه من مشروعات تتصل بكاتيا، تلك المشروعات التي كان الأمير ولا ريب مبتدعها لينفض عنه بذلك فكرة زواجه بالكونتة نفسها[1]، ذلك الزواج الذي كانت هي قد رغبت فيه ولجت في المطالبة به. هذا ما استنبطته من القصص التي كان أليوشا قد قصها علينا فيما مضى في سذاجة، فقد كانت تدل على كل شيء من هذا القبيل. وقد لاح لي كذلك- وربما كان ذلك أيضًا نتيجة لهذه القصص- أن الأمير، لأمر ما، يخشى الكونتة، وذلك ما لاحظه أليوشا نفسه أيضًا. وقد علمت فيما بعد أن الأمير توَّاقًا إلى أن تتزوج الكونتة من غيره، وأنه لم يرسلها إلى ولاية سمبرسك إلا لأنه كان يؤمل أن تجد فيها بعلًا كفئًا.

جلست أستمع وأنا أكدّ ذهني لأعثر على طريقة تتيح لي محادثة كاترينا فيودوروفنا في خلوة. وكان الدبلومات يجيب عن سؤال للكونتة

(١) لأن المذهب الأورثوذكسي يحرم هذا الزواج إذا تزوج ابنه من ابنتها.

عن الحالة السياسية في الآونة الحاضرة وعن الإصلاحات التي بُدِئ في تنفيذها وهل يجب أن يتخوّف منها أم أن يغتبط لها، فجعل ينثر الكلام ويفيض في الشرح، وكان يتحدث في هدوء حديث من يرى أنه حجة فيما يخوض فيه، فأخذ يحبذ فكرته في لباقة ومهارة، ولكن الفكرة في ذاتها كانت مقيتة بغيضة، فقد أصر بصفة خاصة على الزعم بأن روح الإصلاح والتقدم إنما تثمر في أول الأمر بعض الثمر، بيد أن هذا الثمر هو نفسه الذي يقنع العالم كله بصوابه، فإذا بالروح الجديدة ليست تموت في المجتمع ويجهز عليها فحسب، ولا حاجة إلى القول إنه يعني بكلمة المجتمع طبقته وحدها، بل كذلك تلفت نظر الناس إلى الخطأ المقترف فيزدادون علمًا وبصرًا بالأمور ويعودون بجد مضاعف إلى الاستمساك بتقاليدهم القديمة. ومن ثم فإن هذه التجارب، وإن تكن ذاتها مدعاة للأسف، تنطوي على نفع عظيم؛ لأنها لن تؤدي إلا إلى دعم التقاليد القديمة العميمة البركة، وعلى ذلك فليس للمرء أن يتمنى إلا أن تبلغ هذه الإصلاحات حدود التهور وقلة الحيطة في أقرب وقت.

وختم حديثه قائلًا: «إنهم لن يصلوا من دوننا إلى شيء، وإنه لم يقم مجتمع بدوننا قط ونحن لن نخسر شيئًا، بل إننا على نقيض ذلك نربح ونطفو دائمًا إلى السطح، ولذلك ينبغي أن يكون شعارنا في الوقت الحاضر (اشتدي يا أزمة تنفرجي!)».

وأعلن الأمير عن استحسانه بابتسامة مقيتة. وكان المحدّث راضيًا عن نفسه كل الرضا. وبلغ بي الحمق أن هممت بالاحتجاج، فقد كان قلبي يضطرم ثورة، غير أن نظرة خبيثة ألقاها الأمير بصورة سريعة على

الناحية التي أنا فيها وقفتني قبل فوات الأوان، فقد فطنت إلى أنه يتوقع مني ثورة فتية عجيبة، وإلى أن ذلك قد يكون مبعث سرور له، إذ يتيح له أن ينعم بمشاهدتي أعرّض نفسي للسخرية. يضاف إلى ذلك أني كنت مقتنعًا أشد الاقتناع أن الدبلوماسي لن يعير اعتراضي أي اهتمام، بل لعله لن يعيرني أنا نفسي اهتمامًا. لقد كان الجلوس مع هؤلاء القوم أمرًا شنيعًا يدعو إلى الاستفزاز، ولكن أليوشا خلصني من هذا العذاب.

فقد خطا نحوي في خفوت ومسّ كتفي ورجاني أن أسمح بمحادثته كلمتين، فأدركت أن كاتيا هي التي بعثته، وقد كان الأمر كذلك حقًّا، فلم تمض دقيقة واحدة حتى كنت جالسًا بجوارها. وقد أطالت النظر إليّ في بادئ الأمر كأنها تقول لنفسها، إذن فهذه هيئته! ولبثنا الدقيقة الأولى لا يجد أحدنا كلمة يستهل بها الحديث، ومع ذلك كنت على اقتناع بأنها متى بدأته فستظل ماضية فيه حتى الصباح التالي، فقد خطر على بالي حديثها مدى خمس ساعات أو ست ساعات، ذلك الحديث الذي كان أليوشا قد قصّ علينا أمره. وكان أليوشا في خلال ذلك جالسًا معنا نافد الصبر منتظرًا أن نبدأ الحديث.

فقال وهو ينظر إلينا مبتسمًا: «لماذا لا يقول كلاكما شيئًا؟ ها أنتما ذان قد اجتمعتما ولزمتما السكوت».

فأجابت كاتيا: «ويحك يا أليوشا... سنبدأ الحديث في الحال، فإن لدينا يا إيفان بتروفتش من الأمور ما يتطلب منا الكثير من الحديث، ولست أدري بأيها أبدأ. لقد جاء لقاؤنا متأخرًا وكان يجب أن نتعارف من زمن طويل، فإني وإن كنت أعرفك منذ زمن طويل جدًّا، كنت دائمًا

أتوق إلى أن أراك مرة، بل إني فكرت أن أكتب إليك...».

فسألت: «في ماذا؟» ولم أملك أن ابتسمت.

فأجابت بلهجة جادة: «أليست هناك أمور كثيرة أستطيع أن أكتب إليك فيها؟ ولو لكي أسأل، هل كان حقًّا ما خبرني هو به عن ناتاليا نيكولايفنا من أنها لا تحس بأن في تركه لها وحدها في هذا الوقت جرحًا لعزتها؟ كيف تسول لامرئ نفسه أن يسلك مثل هذا المسلك؟ والآن لم لا تزال جالسًا هنا؟».

«رباه، هأنذا ماض في التوّ. وقد قلت آنفًا إني لن أمكث هنا إلا لحظة أشهد فيها حواركما، ثم أركب توًّا إلى هناك».

«حسن، فها نحن أولئك نجلس معًا، وأنت ترى ذلك» ثم أردفت تقول وهي تشير نحوه بإصبعها، وقد احمرّ وجهها قليلًا: «يقول لحظة، لحظة واحدة فقط، ثم هو يظل في مجلسه حتى منتصف الليل حين يكون الوقت قد تأخر به جدًّا، ويقول إنها لن تغضب عليّ من أجل هذا، فهي قد بلغت الغاية في الطيبة، ثم ينصرف عن التفكير في شأنها، أفترى هذا حسنًا منه؟ أهو منه تصرف نبيل؟».

فأجاب أليوشا متأوهًا: «فليكن. هأنذا ذاهب، ولكني كنت أودّ لو أبقى قليلًا معكما...».

«ما شأنك بنا؟ فنحن على العكس منك، إذ لدينا أمور كثيرة نحب أن نتحادث فيها منفردين. أسامع أنت؟ وعسى ألا يغضبك ذلك، فالأمر ضروريّ جدًّا. أحسبك قد فهمتني!».

«بما أن الأمر ضروريّ جدًّا فهأنذا ذاهب في الحال... ولم يغضبني ذلك؟ سأعرّج في ذهابي دقيقة واحدة على ليوفنكا، ومن ثم أقصد توًّا إليها» ثم أضاف يقول وقد أمسك قبعته: «مهلًا يا إيفان بتروفتش، فهناك مسألة أخرى، أتعلم أن والدي قد اعتزم أن يتجاوز عن المال الذي كسبه في قضية إشمنيف؟».

«أجل، فقد حدثني بذلك منذ قليل!».

«ما أشرف هذا منه! وكاتيا لا تريد أن ترى في ذلك صنعًا نبيلًا، فحدِّثها في الأمر. وداعًا يا كاتيا، وأرجوك ألا ترتابي من حبي لناتاشا. ولكن لم تفرضان عليّ نصحكما وملامكما، وتقنعاني بكلامكما وتتعهداننى بالإشراف، كأني تحت وصايتكما؟ إن ناتاشا تعلم ما أضمر لها من الحب وهي تثق بي. إني، وأنا واثق بأنها تثق بي، إني أحبها دون نظر إلى أي شيء، ودون أن يرغمني على ذلك بأي التزام لها عليّ. لست أعرف كيف أحبها، ولكني- بكل بساطة- أحبها، ولذا لا أرى ثمة من داع لأن تستجوباني استجواب المجرم، ها هو ذا إيفان بتروفتش هنا الآن فسليه يؤيد ما نبأتك به من أن ناتاشا غيور، وهي وإن تكن تحبني كثيرًا فإن حبها لي ينطوي على كثير من الأثرة، إذ هي لا تريد أن تضحي من أجلي بأقل تضحية».

فسألت دهشًا: «ماذا تعني بهذا؟» وكدت لا أصدق أذني.

وتابعت كاتيا كلامها في الوقت نفسه وهي تضرب كفًّا بكف: «ولكن يا أليوشا. كيف تستطيع أن تقول شيئًا كهذا؟».

«ما الذي يدهشكما من قولي؟ إن إيفان بتروفتش يعرف ذلك، فهي تلحف دائمًا في أن أبقى معها، ولئن كان فوها لا ينطق بذلك، فإني لأتبين بجلاء أن رغبتها الملحة...».

فقالت كاتيا وقد صبغها الغضب بلون القرمز: «أما تخجل؟ أما تخجل؟».

«ومِمَ أخجل؟ ما أشد ما تثيرين من عجب يا كاتيا. إنني أحبها أكثر مما تعتقد هي، فإذا كانت تحبني حقّ الحب مثلما أحبها، فلا ريب أنها تضحي بسرورها من أجلي. نعم إنها ترغب إليّ بنفسها في أن أنصرف، ولكني أرى في عينيها كيف يثقل عليها ذلك، ولهذا كان سواء لديّ أرغبت إليّ في الانصراف أم لم ترغب».

فصاحت كاتيا وقد التفتت إليّ وعيناها تومضان بشرر السخط: «كلا. ليس ذلك من تلقاء نفسه. اعترف يا أليوشا في التو وأنت في مكانك بأن والدك هو الذي لقنك هذا الرأي. فهل قال لك ذلك اليوم؟ ولكن أرجوك ألا تحاول تضليلي، فإني أرى ذلك واضحًا جليًّا. أليس كذلك؟».

فأجاب أليوشا مرتبكًا: «كما تشائين. لقد قال لي ذلك اليوم. وماذا في ذلك؟ لقد كان يتحدث إليّ صباح اليوم في ود وإخلاص، وقد شرع يطنب في مدحها حتى أخذني العجب، فإنها أهانته إهانة موجعة، فإذا به في مقابل ذلك يثني عليها بالخير ثناء جمًّا».

فقلت له: «وأنت قد صدقت ذلك؟ أنت الذي منحتك هي كل ما

تستطيع أن تمنح، والذي ليس لها إلى اليوم هم إلا أن تجنبك الملل والسأم وألا تدعك تشعر بأنها تعوقك عن رؤية كاترينا فيودوروفنا. لقد قالت لي ذلك هي بنفسها اليوم، وأنت تصدق، دفعة واحدة، تلك البيانات الكاذبة؟ أما تشعر بالخجل؟».

فقالت كاتيا: «أيها الكنود الناكر للجميل! ولكنه لا يخجل، لا بل ولم يعرف الخجل يومًا» وأشارت بيدها نحوه تطلب إليه أن يتنحّى عنها، كأنها قد صارت تعده إنسانًا ضائعًا.

وتابع أليوشا الكلام بصوت حزين: «ولكن ماذا تريدان مني؟ إنك دائمًا كذلك يا كاتيا، دائمًا لا ترين فيّ إلا الأسوأ... أما إيفان بتروفتش فلا أريد أن أتحدث عنه. أنتما تظنان أني لا أحب ناتاشا، على أني إذ قلت إنها تحب ذاتها لذاتها لم أكن أعني ذلك، وإنما عنيت أنها تحبني حبًّا جمًّا، حبًّا مفرطًا، مفرطًا إلى حد تتجاوز به جميع الحدود، فلا ينجم عن ذلك إلا أن تجعل الحياة ثقيلة عليّ وعليها هي نفسها. أما والدي فليس في وسعه، ولو أراد أن يؤثر فيّ أو أن يقنعني بهذه الآراء، وهو لم يرد قط المعنى السيئ للكلمة حين قال إنها أثرة، فقد فهمته تمامًا، وإنما قال بالنص ما أعدته الآن على سمعكما: إنها تحبني وتفرط في هذا الحب إفراطًا يقلبه إلى حب لنفسها، وبذلك تجعل الحياة ثقيلة عليّ وعليها هي نفسها، وذلك ما سنزداد شعورًا به في المستقبل. وهو بذلك قد قال الحق ولم يقله إلا لمحبته إياي. وليس في قوله هذا أية إهانة لناتاشا، بل الأمر على العكس تمامًا، إذ إنه نوّه بما تكنه لي من حب لا آخر له، حب لا يعرف الحدود ولا يقف دونه المستحيل...».

فقاطعته كاتيا ولم تدعه يتم كلامه، بل انهالت عليه باللوم والتقريع وشرعت تبين له أن والده لم يمتدح ناتاشا إلا ليخدعه بما يبديه من طيبة زائفة، وذلك ليوهن ذات بينهما وليصرف عنها، في استخفاء وعلى صورة غير ملحوظة، قلب أليوشا. وبصّرته في حماسة ولباقة بما تكنه له ناتاشا من حب جم، وبينت له أنه ليس هناك من حب يغضي عن مثل ما سلك بإزائها، وإذن يكون أليوشا هو المحب لنفسه حقًّا. وتسنى لكاتيا شيئًا فشيئًا أن تجعله يندم ويشعر بالأسى، فبدت عليه حقًّا سيما التحسر والندم، وجلس أمامنا مطرقًا لا ينبس بحرف واحد وارتسمت على ملامحه آلام مروعة وبدا على وجهه اليأس والقنوط، ولكن كاتيا كانت قاسية لا ترحم، وكنت أرقبها في فضول بالغ فقد أردت أن أعرف كنه هذه الفتاة العجيبة في أقصر وقت. لقد كانت لا تزال طفلة غضة غريرة، ولكنها كانت طفلة عجيبة لها آراء خاصة ومبادئ تستمسك بها، ولها كلف قويّ عنيف بكل ما هو خير وحق، وإذا صح للمرء بحق أن يدعوها طفلة، فإنه يجب اعتبارها من طائفة الأطفال المفكرين الذين يكثر وجودهم في أسرنا الروسية. وقد كان من الجلي أنها أعملت فكرها من قبل في أمور كثيرة. وإنه لمن الشائق أن تطل إلى مكنون رأسها الصغير الذي لا يفتأ يفكر لكي ترى كيف تمتزج فيه أفكار وتصورات طفلية جدًّا بملاحظات وتأملات اكتسبتها بخبرتها وتجاربها هي في الحياة (فإنها قد عاشت بعينين مفتوحتين) وفي الوقت نفسه بأفكار تجاوز مدى تجاربها ولم تصل هي بعد إلى معرفة كنهها، وبأفكار- وليس هذا بالقليل- لم تقع عليها إلا نظريًّا في الكتب، ولكنها احتضنتها كأنها تجاربها الخاصة

في الحياة. وأعتقد أني، في خلال ذلك المساء وفيما بعد أيضًا، قد عرفت كاتيا حق المعرفة، فهي فيما أعتقد سريعة الانفعال مرهفة الحس بل هي تبدو في بعض الحالات كأنها تستنكف أن تكبح جماح نفسها، مؤثرة الحقيقة على كل شيء وناظرة إلى كل ضغط يفرض على الحياة الاجتماعية على أنه تحيز عرفي. ويبدو فضلًا عن ذلك أنها فخور بآرائها هذه شأن ذوي الأمزجة الملتهبة، حتى من جاوز منهم سنّ الصبا، فهي مغرمة بأن تتأمل وبأن تُعمل فكرها، وهي تبحث دائمًا عن حقائق الأشياء ولكنها بعيدة عن التظاهر والادعاء، وتندفع في بعض الأحيان اندفاعًا طفليًّا مرحًا، فلا يملك المرء إلا أن يشغف بهذه المميزات والسجايا الخاصة بها جميعًا. وحلّق فكري نحو ليوفنكا وبورنكا فألفيت أن كاتيا تلائمهما كل الملاءمة، ومن المدهش أن وجهها الذي بدا للنظرة الأولى غير فائق في الحسن، قد أخذ طيلة ذلك المساء يزداد في عيني كل دقيقة حسنًا وفتنة، فهذا الامتزاج بين الطفلة الغريرة والمرأة المفكرة، وهذا التعطش الطفلي الصادق إلى الحقيقة والعدالة، وهذا الإيمان الراسخ ببواعث هذا التعطش في نفسها- كل ذلك كان يضيء وجهها ببريق من الإخلاص ويضفي عليه جمالًا روحيًّا ساميًا، فأخذت أدرك السبب في أني لم أتبين في التو روعة ذلك الجمال الذي لم تكن العين العادية القليلة المبالاة لتقيسه أو تقدره، وفهمت كيف حدث لأليوشا أن يغوص في حبها إلى أذنيه، فهو لكونه لا يحسن أن يفكر وأن يحكم على الأشياء، سريع الافتتان بأولئك الذين يفكرون له والذين هم فوق ذلك يسرون حينما يسلكون هذا المسلك فاحتوته كاتيا تحت جناحها،

وقد كان ذا قلب نبيل سريع التأثر يذعن بلا تردد ولا مقاومة لكل ما هو جميل وشريف. وقد طالما تحدثت كاتيا بين يديه في أشياء شتى بصراحة الأطفال وإخلاصهم وبعطف ظاهر عليه. وكان هو مسلوب الإرادة تمامًا، أما هي فكانت ثابتة متحمسة ذات شكيمة لا تذعن، وكان أليوشا لا يسعه أن يتصل إلا بمن يفرض عليه سيطرته، بل بمن يعرف أن يصدر إليه الأوامر، وذلك أيضًا ما قيده، إلى حد ما، بناتاشا أول عهده بحبها. غير أن لكاتيا على ناتاشا مزية عظيمة هي أنها لم تزل طفلة وأنها على ما يبدو ستظل طفلة إلى زمن بعيد. وهذه الطفولة ذاتها وكذلك عقلها الصافي وفي الوقت نفسه ذلك الشيء من القصور عن الحكم على الأشياء، كل ذلك كان يجعل منها رفيقة لائقة لأليوشا، وهذا ما أحسّه هو أيضًا، ومن ثم أخذ يزداد كل يوم افتتانًا بكاتيا. وقد اقتنعت بأنهما حين يتحادثان معًا منفردين في آراء كاتيا الجدية الخاصة بالدعاوة، يتطرقان أحيانًا إلى الحديث في صغائر وتوافه صبيانية. ومع أن كاتيا كانت، على ما يبدو، كثيرًا ما تقف منه موقف المعلم وتلفه حول إبهامها، فالأرجح أنه كان يشعر بأنه معها أكثر حرية منه مع ناتاشا، إذ كان هو وكاتيا أكثر التئامًا، وهذا هو أهم شيء.

وقال أليوشا وقد نهض وبسط نحوها يده يصافحها: «حسن يا كاتيا، حسن، حسبك هذا فأنت دائمًا صاحبة الحق وأنا المخطئ، وربما كان سبب ذلك أن قلبك أكثر من قلبي براءة وطهرًا. سأذهب إليها توًّا دون أن أعرج على ليوفنكا...».

«وكذلك لأنه ليس لديك ما تعمله مع ليوفنكا. أما استجابتك لما

قلته لك فهي منك غاية في اللطف، فاذهب الآن».

فقال أليوشا مكتئبًا: «وأنت ألطف ألف مرة من أي إنسان. إيفان بتروفتش، لدي كلمتان أود أن أفضي إليك بهما».

وانتحينا جانبًا.

فهمس في أذني: «لقد كان سلوكي اليوم مخجلًا، فقد تصرفت تصرفًا تشوبه النذالة، ولذا أشعر بأني آثم في جنب الله وفي حق الناس أجمعين وبخاصّة في حق هاتين الآنستين، فقد عرّفني والدي اليوم عقب الطعام بتلك الألكسندرينا، وهي فرنسية، امرأة ساحرة... فخلبتني، و.... ماذا عسى أن أقول أكثر من ذلك؟ إنني بكل إيجاز قد صرت غير جدير بأن أكون معهما... وداعًا يا إيفان بتروفتش!».

وما كدت أعود إليها حتى أنشأت تقول: «إنه خيّر نبيل، ولكن لنرجئ الكلام عنه إلى ما بعد. أما الآن فعلينا أن نتبين مسألة واحدة. ماذا ترى في الأمير؟».

«أرى أنه فظيع جدًّا».

«وهذا ما أراه أنا أيضًا، وإذن فنحن متفقان رأيًّا، وذلك ما سيسهل لنا أن نبت فيما نعالج من آراء، ولننتقل الآن إلى ناتاليا نيكولايفنا... انظر يا إيفان بتروفتش، إنني ما زلت هنا كما كنت أتخبط في دياجير الظلام، وكنت أتطلع إليك كأنك ضوء الشمس. فأوضح لي الآن كل شيء إذ ليس لديّ ما أستطيع أن أستند إليه في إصدار أحكامي غير ما أسمعه من أليوشا، وليس هناك امرؤ آخر أستطيع أن أقف منه على شيء، فقل لي

أولًا- وهذا هو المهم- أتظن أن ناتاشا وأليوشا سيكونان سعيدين معًا؟ نعم أم لا؟ هذا ما يجب أن أعرفه أولًا قبل كل شيء، في وضوح، حتى يتسنى لي أن أتخذ رأيًا حاسمًا فيما ينبغي أن أعمل».

«وكيف يتاح للمرء أن يكون على يقين بذلك مقدمًا؟».

فقالت مقاطعة: «لن تستطيع بالطبع أن تكون على يقين بما سيكون، ولكنك تستطيع أن تقول ما تتوهمه... فأنت ألمعي أريب».

«في رأيي أنه لا يتهيأ لهما أن يكونا سعيدين معًا».

«ولم لا؟».

«لأنهما متباينان جد التباين».

«هذا هو ما كنت أتصوره!».

وأطبقت يدها على الأخرى بحركة دلت على أنها في غم شديد، ثم قالت: «أرجو أن تزيدني تفصيلًا. استمع. إنني أضطرم توقًا إلى أن أرى ناتاشا ولو مرة واحدة، فلدي أمور كثيرة أحب أن أباحثها فيها، وأعتقد أننا سنجد معًا الحل الصحيح لها. لقد ظللت حتى الآن أتصورها في مخيلتي. لا بد أن تكون موفورة الحذق مستقيمة، غاية في الجمال. أليس كذلك؟».

«هي كذلك».

«كنت على ثقة من ذلك. ولكن إذا كانت هي كذلك فكيف وقع لها أن تشغف بطفل أليوشا؟ عليك أن تجلي لي هذا الأمر فقد طالما كددت الذهن فيه».

«ليست تجلية ذلك بمستطاعة يا كاترينا فيودوروفنا، وإنه لمن العسير بوجه عام أن نتصور كيف ولِمَ يقع الناس بعضهم في حب بعض. إنه لا يزال طفلًا، ولكن أتعرفين؟ إنه كثيرًا ما يقع المرء في حب طفل كهذا دون غيره» (وذاب قلبي وأنا أتطلع إليها وإلى عينيها وهي ترنو إليّ بهما في جد ونفاد صبر) وتابعت كلامي: «وكلما كانت ناتاشا أقل شبهًا بالأطفال وألزم للجد، كانت أكثر استعدادًا لأن تعلق به وتقع في شباك غرامه، فهو صريح شريف مخلص طاهر، وهو في بعض الأحيان يفتن القلوب بطفوليته، وربما كانت قد أحبته- كيف أعبر عن ذلك؟- شفقة به، فإن ذوي القلوب الكريمة قد يحبون بدافع من الشفقة والرثاء... وإني لأشعر بقصوري عن إيضاح هذا، ولكني بدلًا من ذلك، أود أن أسألك سؤالًا: «هل تحبينه أنت؟».

وقد أقدمت على هذا السؤال، وأنا شاعر أنه لن يكدّر من صفو البراءة الطفلية الكاملة التي هي من صفات هذه النفس النقية، فأجابت بصوت خافت وهي تنظر بعينين صافيتين إلى عيني: «رباه، لست أعلم ذلك تمام العلم، بيد أني أظن أني أحبه حبًّا جمًّا».

«هذا هو الأمر، فهل تستطيعين أن توضحي لي لماذا تحبينه؟».

فقالت بعد أن ظلت تتروى لحظة: «إنه حال من الزيف، وعندما يحدّق إلى عينيّ وهو يتحدث إليّ، إني أحب منه ذلك كثيرًا. اسمع يا إيفان بتروفتش عندما أتحدث إليك في مثل هذه الشئون وأنا فتاة وأنت رجل، أحسن ذلك أم سيئ؟».

«ولم يكون سيئًا؟».

«لا ريب. هذا بديهي، وذلك رأيي أنا أيضًا، غير أن أولئك» وأشارت بطرفها نحو الجمع الجالس حول غلاية الشاي: «سيقولون، ولا ريب إن هذا أمر فظيع، أفترى أنهم مصيبون في ذلك؟».

«كلا، بما أن قلبك أنت لا يقول لك إنك تأتين أمرًا فظيعًا...».

فقاطعتني في عجلة واضحة، إذ كان من الجليّ أنها كانت لا تزال تريد أن تتحدث إليّ في أمور كثيرة: «وهذا ما عمدنا إليه دائمًا، فإذا ما ألفيت نفسي في حيرة من شيء، فزعت إلى قلبي فإن ألفيته مرتاحًا إلى الأمر ارتحت أنا أيضًا إليه، وهذا ما يجب أن يعمل دائمًا. وإني إنما أتحدث إليك بهذه الصراحة كما لو كنت أتحدث إلى نفسي، أولًا لأنك فتى رائع، وأنا أعرف قصتك كلها مع ناتاشا قبل أن تربط هي حبالها بأليوشا، بل لقد تساقطت دموعي عندما سمعتها».

«ومن قصّها عليك؟».

«أليوشا، بالطبع وكان يقصها والعبرات تترقرق في عينيه. وكان ذلك منه غاية في الرقة والظرف. وقد راقني ذلك منه، وأعتقد يا إيفان بتروفتش أنه يحبك أكثر مما تحبه أنت. ومثل هذه الأمور فيه مما يثير إعجابي دائمًا. أما السبب الآخر الذي يحملني على التحدث إليك بالصراحة التي أتحدث بها إلى نفسي فهو أنك فطن أريب، وفي وسعك أن تعينني بمشورتك وأن تعلمني أشياء كثيرة».

«ومن أين علمت أني حقًّا فطن أريب إلى حد أستطيع فيه أن أقف منك موقف المعلم؟».

«كيف تستطيع أن تسأل سؤالًا كهذا!».

وأخذت تفكر وتفكر.

«أرى بادئ ذي بدء أننا قد شغلنا بالتحدث في أمور قليلة الخطر، فدعنا نتحدث فيما هو أكثر خطرًا. فقل لي يا إيفان بتروفتش، إني أشعر الآن بأني منافسة لناتاشا، بل إني أعرف ذلك تمام المعرفة، فما العمل؟ هذا ما دفعني إلى أن أسألك هل ترى أنهما سيكونان سعيدين. وهذا ما يشغلني ليل نهار. إن ناتاشا في موقف مروع شنيع، فإنه ليوشك أن ينصرف عن حبها وذلك على حين أخذ يزداد فيَّ كل يوم هيامًا. أليس كذلك؟».

«يلوح أنه كذلك».

«على أنه لا يخدعها، فهو لا يدرك أنه قد سلا هواها، ولكنها هي تعرف ذلك ولا ريب، فيا للتعاسة التي لا بد أنها ستشملها!».

«وماذا تودين أن تعملي يا كاترينا فيودوروفنا؟».

فأجابت بلهجة جادة: «لدي مشروعات جمة ولكني غير مطمئنة إلى أي منها، ولهذا ظللت أترقب لقاءك نافدة الصبر كي تبين لي الأمور وتنتشلني مما أنا فيه من ارتباك، فأنت أدرى مني بهذه الشئون، وإني لأتخيلك كأنك إله من الآلهة. فاسمع، فقد فكرت في بادئ الأمر على النحو الآتي: إذا كان كلاهما يحب صاحبه فلا بد أن يكونا سعيدين، وإذن يتحتم عليَّ- بكل سهولة- أن أضحي بنفسي وأن أمد إليهما يد المساعدة!».

«أعرف أنك بذلت هذه التضحية».

«أجل بذلتها، ولكنه حين أخذ يكثر من الحضور إليّ وأخذ حبه لي يزداد ويتعاظم، بدأت أتردد في الأمر، وما زلت إلى الآن أسائل نفسي: أيجب علي حقًّا أن أبذل هذه التضحية أم لا؟ هذا قبيح مني، أليس كذلك؟».

فقلت: «بل هو أمر طبيعي ومسلك لا محيد عنه... والغلطة ليست غلطتك أنت».

«ولكني أظن غير هذا، وأنك تقول هذا من طيبتك، أما أنا فأعتقد أن قلبي ليس طاهرًا كل الطهارة، إذ إنه لو كان طاهرًا كل الطهارة ونقيًّا كلّ النقاء لتبيّنت المسلك الذي يجب أن أسلكه، ولكن، لندع هذا، فقد علمت بعد ذلك أمورًا كثيرة عن علاقة كل منهما بالآخر، علمتها من الأمير ومن «ماما» ومن أليوشا نفسه. وقد استبان لي من ذلك في التوّ أن كليهما لا يوائم صاحبه، وهو ما أيدته أنت منذ هنيهة، فأخذت أكدّ ذهني في ما يجب أن أصنع، فلئن كان حقًّا أنهما لن يكونا سعيدين، كان من الخير لهما أن يفصما ما بينهما من علاقة. ولذلك اعتزمت أن أسألك عن كل هذا تفصيلًا وأن أقصد بنفسي إلى ناتاشا لنبتّ معًا في الأمر».

«ولكن على أي نحو تبتّان فيه؟ تلك هي المسألة».

«سأقول لها: بما إنك تحبينه أكثر من كل ما في العالم، فإن هناءته خليقة بأن تعنيك أكثر من هناءتك أنت، ولذا كان عليك أن تتخلّي عنه!».

«ولكن كيف تتلقى هي هذا الرأي فيما تظنين؟ فإن قبلته وبان لها أنه

الحق، فهل تجد لديها من القوة ما يمكنها من العمل به؟».

«ذلك ما يملك عليّ تفكيري صباح مساء و... و...».

وانفجرت فجأة بالنشيج.

وهمست بشفتين مرتعشتين: «أنت لا تعلم مبلغ أسفي على ناتاشا وتألمي لها».

ولم أدر ما أقول فسكتّ. ورأيتها تعول وتنتحب، فشعرت أني أود مشاركتها في العويل والانتحاب لا لسبب إلا للعطف عليها ومشاركتها في عواطفها، فيا لها من طفلة محبوبة فاتنة. إني لم أشعر أني في حاجة إلى سؤالها لماذا تظن أنها هي كفيلة بإسعاد أليوشا.

وسألتني وقد هدأت قليلًا وإن كانت الكآبة لا تزال تسيطر عليها من أثر النحيب: «أمغرم أنت بالموسيقى؟».

فأجبتها في دهشة: «أجل!».

«لو أن ثمة فسحة من الوقت لعزفت لك الكنسرتو الثالثة لبتهوفن، وهي التي أتدرّب على عزفها هذه الأيام، وهي تتضمن كل هذه المشاعر... التي أحسها أنا الآن. هذا على الأقل ما يلوح لي. ولكن لنرجئ ذلك إلى فرصة أخرى، فلدينا اليوم ما نتحدث فيه».

وأخذنا نتدبر كيف تقابل ناتاشا وكيف نمهد السبيل لذلك ونتخذ الوسائل التي تجعله ميسورًا، وقد قالت في صراحة إنها تحت مراقبة صارمة. ومع أن زوجة أبيها طيبة ومحبة لها، فإنها لن تسمح لها مطلقًا أن تعقد صلة تعارف مع ناتاليا نيكولايفنا، ولهذا لم يكن لنا بد من اللجوء

إلى الحيلة، فهي كثيرًا ما تركب في الصباح للتنزّه، غير أن الكونتة تركب معها دائمًا إلا في القليل النادر، فقد يحدث في بعض الأحيان ألا تصحبها بل تدعها تركب دونها في رفاقة خادمتها الفرنسية التي هي مريضة الآن.

وإنما يكون ذلك على الأغلب حين يصيب الكونتة الصداع، ومن هنا كان على كاترينا أن تنتظر حتى يصيب الصداع الكونتة ثانية، وهي تأمل أن تصل إلى إقناع الفرنسية العجوز التي ترافقها في خروجها- بالأمر- إذ هي امرأة طيبة للغاية، والنتيجة أنه ليس في الإمكان تحديد يوم زيارتها لناتاشا قبل بزوغ شمسه.

فقلت لها: «لن تندمي على تعرفك بناتاشا. وإنها أيضًا تتوق إلى التعرف بك، وهذا التعارف بينكما ضروري جدًّا حتى يتسنى لها على الأقل أن تعرف الشخص الذي تتخلى له عن أليوشا. ولكن لا تشغلي بالك كثيرًا بهذه المسائل فالزمن كفيل بحلها كلها دون أن تزعجي نفسك. أنت نازحة إلى الريف، أليس كذلك؟».

فأجابت: «أجل، سيكون ذلك قريبًا جدًّا، ربما كان بعد شهر واحد، فالأمير مصرّ على ذلك».

«وماذا ترين: أيذهب أليوشا معكم؟».

فقالت وقد حدجتني بنظرها: «لقد فكرت في ذلك أيضًا، وأظن أنه سيأتي معنا. ألا تظن أنت ذلك؟».

«حتمًا».

«رباه! وما عاقبة كل ذلك، لعمري لست أدري! أي إيفان بتروفتش،

إنني من الآن فصاعدًا سأكتب إليك بكل شيء، فلا غنى لي عن الكتابة إليك كثيرًا وبالتفصيل. هاأنا ذي الآن مقبلة على مضايقتك وإزعاجك، أفلا تكثر من زيارتنا والاختلاف إلينا؟».

«لست أدري يا كاترينا فيودوروفنا فذلك يتوقف كل التوقف على الأحوال والملابسات، وقد لا أحضر مطلقًا بعد الآن».

«ولماذا؟».

«ذلك يرجع إلى أمور عدة أهمها ما تؤول إليه علاقتي بالأمير».

فقالت كاتيا بلهجة المقتنع:

«ذلك الخَبّ الخبيث. أتدري يا إيفان بتروفتش، ما رأيك في أن أزورك مرة؟ أيكون ذلك مني حسنًا أم سيئًا؟».

«ماذا ترين أنت في ذلك؟».

فقالت وقد افتر ثغرها عن ابتسامة: «لا أرى في ذلك بأسًا، وإذن فسأزورك بكل سهولة. وإنما أقول لك هذا لأني لست أجلك وأبجلك فحسب، بل لأني أيضًا أحبك حبًّا جمًّا... هذا إلى أني أستطيع أن أقتبس منك معلومات كثيرة... وإني لأشعر نحوك بودٍّ شديد... على أن تصريحي لك بذلك ليس بالأمر غير اللائق أليس كذلك؟».

«ولِمَ يكون غير لائق؟ أنت أيضًا أصبحت حبيبة إلى نفسي كأنك من ذوي قرباي».

«أتود أن تكون صديقي؟».

فأجبت: «أجل، مع السرور».

فقالت ملاحظة مرة ثانية وقد غمزت بطرفها نحو الجمع الملتف حول مائدة الشاي: «سيقول هؤلاء ولا شك إنه كان خليقًا بي أن أخجل من ذلك، وإنه لا يليق بفتاة صغيرة مثلي أن تسلك هذا السلوك».

وأحب أن ألاحظ هنا أن الأمير، على ما يبدو، قد تركنا وحدنا ليتيح لنا فرصة ينفض فيها كل منا ما في قلبه إلى صاحبه.

وتابع القول: «إني أعرف حقّ المعرفة أن الأمير لا يضع نصب عينيه إلا مالي. أما شخصي فإنهم جميعًا لا يرون فيّ إلا طفلة ممعنة في الطفولة، بل هم يجبهونني بذلك. أما أنا فلا أرى رأيهم فإنني قد جاوزت حقًّا طور الطفولة. ما أشد ما يثير هؤلاء القوم العجب! إنهم هم أنفسهم كالأطفال، ففيم يشقون على أنفسهم دائمًا بمثل هذه الهموم؟».

«أي كاترينا فيودوروفنا، لقد أنسيت أن أسألك: من يكون ليوفنكا وبورنكا اللذان يكثر أليوشا هذه الأيام من الاختلاف إليهما؟».

«هما من ذوي قرباي البعيدين، وعلى جانب عظيم من الاجتهاد والشرف، ولكنهما يكثران من الكلام إلى حد مزعج... إني أعرفهما...».

وابتسمت.

«وهل أنت تعتزمين حقًّا أن تمنحيهما فيما بعد مليونًا من الروبلات؟».

«انظر، هاك المثل أمامك، فهما يثرثران بأمر هذا المليون ويتحدثان عنه بشكل لا يطاق. من الواضح أنه يلذّ لي أن أبذل بعض المال في سبيل ما هو نافع، وإلا فلم يستحوذ المرء على الوفير من المال؟ أليس

كذلك؟ على أنه ليس من حقي في الوقت الحاضر أن أتصرف فيه. أما هما يقسمانه من الآن ويبحثان ويفكران ويتنازعان في خير ما يمكن أن ينفقاه فيه، بل قد يصل الأمر بهما إلى المشاحنة بشأنه أحيانًا، ويبدو لي ذلك أمرًا عجيبًا، فهما عجولان بعض الشيء، ولكنهما مع ذلك أمينان و... ذوا فطنة وسداد. وهما يجتهدان في الدرس والتحصيل، وذلك على أية حال خير مما يضيع فيه آخرون أعمارهم... أليس كذلك؟».

وتكلمنا في أمور شتى غير ذلك، فذكرت لي على وجه التقريب كل تاريخ حياتها، وكانت تكاد تتعلق بشفتي وأنا أتكلم، وظلت ترمقني باستزداتها إياي من الحديث عن ناتاشا، وكانت الساعة قد أوشكت أن تبلغ الثانية عشرة حين دنا الأمير مني مشيرًا إلى أن وقت الانصراف قد أزف، فودعت كاتيا. وضغطت على يدي بما ينم عن إخلاص قلبيّ، ونظرت إليّ نظرة ذات معان، ورجتني الكونتة أن أعود قريبًا. ثم غادرت المنزل في صحبة الأمير.

ولست أستطيع إلا أن أبدي ملحوظة غريبة قد لا تتصل بالموضوع، ذلك أني قد اقتنعت من محادثتي لكاتيا تلك الساعات الثلاث بأمر جد عجيب ولكنه اقتناع راسخ رسوخ الرواسي، ذلك بأنها كانت لا تزال طفلة بحتًا وليس لها أية معرفة بسر العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة، وقد كان من شأن ذلك أن يضفي على تعبيراتها وتصريحاتها واللهجة الجادة التي كانت تعالج بها معي تلك المسائل كافة، شيئًا غريبًا مضحكًا...

* * *

الفصل العاشر

وقال الأمير وقد جلس في المركبة بجانبي: «أتدري؟ ما رأيك في أن نتعشى معًا؟ ماذا ترى في ذلك؟».

فأجبت مترددًا: «ليس عندي رأي في هذا يا أمير، فإنني لا أتناول عشاء مطلقًا».

فأضاف قائلًا وقد حدّق إليّ بإمعان وخبث: «وسنتحدث بالطبع خلال العشاء».

ولم يكن ثمة مجال لسوء الفهم، فقلت في نفسي إنه يعني أنه سيتحدث عن كل شيء. وذلك ما أرتقبه منذ زمن طويل، وعلى ذلك أبديت موافقتي.

«وإذن فقد اتفقنا إلى المورسكايا الكبرى في ب».

فسألت مرتبكًا: «في مطعم؟».

«أجل، ولم لا؟ إنني قلما أتعشى في المنزل. ألا يجوز أن أدعوك إلى هناك؟».

«ولكني قلت لك إني لا أتناول عشاء مطلقًا».

«وفي وسعك أن تخالف هذه القاعدة مرة، ولا سيما أني أدعوك إلى ذلك...».

يعني: إنه سيدفع ثمن ما أطعم، وكنت مقتنعًا أنه أضاف هذه الفقرة عامدًا فتركته يأخذني معه، ولكني عقدت العزم على أن أدفع أنا ثمن ما أطعم. وبلغنا المطعم، فطلب الأمير أن يذهبوا بنا إلى غرفة خاصة، واختار بحنكة المدرب وذوق الخبير لونين أو ثلاثة من الطعام، كانت غالية الثمن غلوًّا مروّعًا، وكذلك الخمور التي طلبها. ولما لم يكن لي قبل بتلك الأثمان، ألقيت نظرة على قائمة الطعام، وطلبت نصف دجاجة برية وكأسًا صغيرًا من اللافيت، فاستفز ذلك الأمير وأثاره.

«أترغب عن أن تكون ضيفي؟ هذا مضحك! عفوًا يا عزيزي، ولكن حذلقة تستفز النفس، توافه وأباطيل، إنها لتوشك أن تكون شيئًا من الشعور بالفارق الطبقي، وإني أراهن على أن الأمر كذلك. وأقول لك مؤكدًا إن في مسلكك هذا إهانة لي!».

ولكني تشبثت بمشيئتي.

فقال: «حسنًا، كما تشاء، فلن أكرهك على شيء... قل لي يا إيفان بتروفتش، أأستطيع أن أتحدث إليك حديث صديق إلى صديق؟».

«أرجوك أن تفعل».

«حسن. ففي رأيي أن مثل صلابتك هذه تعرقل خطواتك في الحياة. وكذلك كل من يرون مثل رأيك يضرون أنفسهم بمثل هذه الخلال. أنت كاتب أديب، فيجب عليك أن تعرف العالم، لكني أراك تصدف عن كل شيء. لست أشير بهذا إلى الدجاج البري، بل إلى كونك تتصرف بمثل هذا التزاهد عن كل صلة ببيئاتنا ومجتمعاتنا ولا تلقي إليها بالًا، وهذا ينافي مصلحتك كل المنافاة. وبغض النظر عن كونك تضيع بهذا كثيرًا، بل تضيع مستقبلك كله، فأنت خليق أن تغشي هذه المجتمعات، ولو لم يكن ذلك إلا لكي تعرف من سبيل العيان ما قد تحتاج إلى وصفه في المستقبل، فإن في قصصكم كذلك كونتات وأمراء ومخادع وخلوات... ولكن ماذا أقول؟ إنكم، أيها الأرواح الحديثة لا تعنون الآن إلا بآلام الفقراء والمعاطف المفقودة والمفتشين والضباط المشاكسين وصغار الموظفين، والعهود الغابرة والخوارج على نحلهم الدينية، أعرف ذلك، أعرف ذلك...».

«أخطأت أيها الأمير، فإني إذا كنت لا أختلف إلى ما يسمونه الدوائر العليا فإنما أفعل ذلك لأنها، قبل كل شيء، تضجرني وتسئمني، ثم لأنه ليس لي هناك ما أبحث عنه. ومع ذلك فإني أغشي تلك الدوائر أحيانًا...».

«أعرف. عند الأمير «ر» مرة في العام، وقد كان أول لقائي لك هناك. ثم تظل بقية العام تأسن في صلفك الديمقراطي وتتثاءب ويذوي جسدك في حجرة علوية صغيرة تحت السقف المسّنم. على أن زملاءك ليسوا كلهم كذلك، بل إن منهم من يندفع في المغامرات إلى حد يقززني...».

«بودّي أن أرجوك أيها الأمير أن تدع هذا الموضوع، وألا تعود إلى غرفنا العلوية الصغيرة».

«رباه. ها أنت ذا الآن تحسّ أنك قد أهنت. على أنك قد أذنت لي بنفسك في أن أتحدث إليك حديث الصديق إلى الصديق. ولكن معذرة، فأنا لم أستحق صداقتك بعد. هذه خمر لا عيب فيها، فجرب مرة!».

وصب لي نصف كأس من زجاجته.

«انظر يا عزيزي إيفان بتروفتش. إني أعرف أنه ليس من الكياسة أن يغتصب المرء صداقة شخص آخر، بيد أنا لسنا جميعًا غلاظًا وقحين إزاءك كما تتوهم. وفوق ذلك فإني أعلم تمام العلم أنك لست تجالسني الآن بدافع الحب والميل إليّ، بل لأني وعدت أن أحادثك مليًّا. أليس كذلك؟».

وضحك.

ثم أضاف وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة خبيثة: «وبما أنك قد انتدبت لرعاية مصلحة شخص معين، فأنت تتوق إلى أن تسمع ما أعتزم الإفضاء به إليك. أليس كذلك؟».

فقاطعته وأنا نافد الصبر: «لست بمخطئ» ولاحظت أنه من أولئك الذين إذا وقع آخر تحت سيطرتهم ولو قليلًا، لم يسعهم إلا أن يشعروه بذلك. ولقد شعرت وأنا معه بأني في قبضة يده إذ لم يكن في وسعي أن أغادر المكان قبل أن أصغي إلى كل ما اعتزم أن يقوله لي، وذلك ما كان هو على علم تام به، ولذلك تبدّلت لهجته فجأة ثم أخذت تزداد

شيئًا فشيئًا استهزاء وقحًا خاليًا من التكلف وأردفت: «لست بمخطئ أيها الأمير فإني لذلك قدمت معك، ولولا ذلك ما رأيتني هنا... في هذا الوقت المتأخر».

والواقع أني كنت على وشك أن أقول: « ذلك ما رأيتني أشاركك الطعام لأي سبب من الأسباب»، ولكني لم أفه بذلك ونحوت بالكلام نحوًا آخر، ولم يكن ذلك رهبة للأمير، بل كان من جراء ضعفي الملعون وشعوري الوراثي بالكياسة والرقة، إذ إنه يتعذر عليّ حقًّا أن أجبه امرأً ببذاءة وإن استحق ذلك. وكانت لديّ أكبر الرغبة في أن أقذفه بأغلظ القول. وأعتقد أن الأمير قد طالع ذلك في عيني لأنه حدق إليّ ساخرًا وأنا أقول هذه الكلمات، ساخرًا كأنما كان يمتع نفسه بجبني وضعفي، وكأنما أراد بتحديقه هذا أن يخزني وأن يقول: انظر، ها أنت ذا لم تجسر على أن تكون وقحًا، ها أنت ذا قد عدت فنكلت. أجل أيها الصديق. لا بد أن يكون ذلك قد هجس بخاطره، فإنه قهقه بصوت مرتفع عندما انتهيت من حديثي، ولطمني على ركبتي في صداقة السيد المتفضل وتودده إلى من دونه.

وقرأت في عينيه كأنه يقول أنت يا بني مثير للضحك، فقلت في نفسي مهلًا.

ثم صاح: «أشعر اليوم بابتهاج شديد، ولست أدري حقًّا ما مبعثه. أجل، أجل يا صديقي، فإنما أردت أن أتحدث إليك في شأن هذه الإنسانة الفتانة دون غيرها، وأن أقول لك كل شيء في هذا الصدد قولًا فصلًا، وأن أصل إلى نتيجة هذا وآمل أن تفهمني هذه المرة فهمًا صحيحًا. لقد

كنت قد بدأت قبل الآن أتحدث إليك عن ذلك المال وعن ذلك الأب الأخرق، ذلك الرضيع الذي بلغ الستين صيفًا... وإنه لغير جدير بأن تضيع فيه كلمة أخرى، وإنما كان حديثي عنه لغوًا ولهوًا، ها.. ها. ها. أنت شاعر ولكنك لم تفطن إلى ذلك البتة...».

فنظرت إليه ذاهلًا، ولم يكن من الممكن أن يكون قد ثمل. ثم واصل كلامه قائلًا:

«أما عن هذه الفتاة أؤكد أني أجلها كل الإجلال، ذلك إلى أني كلف بها. إنها صاحبة مزاج متقلب بعض الشيء، ولكن: «لا وردة بلا شوك» كما كانوا يقولون منذ خمسين عامًا. وقد قالوا كذلك: «الأشواك تشوك» على أن ذلك هو ما يكسبها الفتنة بها. ومع أن ولدي ألكساي غرّ أحمق فقد صفحت عنه حقًّا بعض الصفح، ولم يكن ذلك إلا لأنه حسن الذوق. وموجز القول إن مثل هؤلاء الفتيات الصغيرات يرقنني وإن لي...» وزم شفتيه بما يدل على معنى خاص، واستأنف حديثه فقال: «معها أغراض أخرى... ولكن لندع ذلك إلى ما بعد...».

فصرخت: «ولكن عفوًا أيها الأمير، فإني لست أفهم هذا التغير الفجائي في لهجتك... ألا نطرق موضوعًا آخر؟ أرجوك أن تفعل!».

«ها أنت ذا قد عادت إليك الحماسة مرة أخرى. لا بأس... فلنخض في حديث آخر! على أن ثمة سؤالًا ما زلت أودّ أن أطرحه عليك يا صديقي العزيز: إنك تقدر هذه الفتاة كثيرًا؟».

فأجبت بغلظة وقد استفرغ صبري: «بديهي!».

فقال وهو يكشر ثانية عن أسنانه ويغمز بعينه: «آه، حقًّا، بل لعلك كلف بها؟».

فصحت به: «إنك تنسى نفسك!».

«كلا كلا، فلن أكون كما تقول، ولكن هدئ من روعك. إنني اليوم منشرح الصدر جدًّا، وفي الحق إني لم أكن في مثل هذا المرح والحبور منذ أمد بعيد، أفلا نحتسي معًا زجاجة من الشمبانيا؟ ماذا ترى في ذلك يا شاعري؟».

«كلا، ليست لي رغبة في ذلك».

«ولكن لا تتكلم بمثل هذا الكلام، فلا مناص من بقائك في مرافقتي. إنني أحس اليوم ارتياحًا وسعادة، وبما أن لي قلبًا طيبًا مفعمًا بالعواطف فلن أطيق أن أكون سعيدًا وحدي. ومن يدري، لعل الأمر يصل بنا أن نشرب معًا متعاهدين على الإخاء والصداقة الدائمة ها.. ها.. ها! لا يا صديقي الصغير، أنت لما تعرفني بعد، وإني على ثقة بأنك ستحبني وأود أن تشاركني في السراء والضراء، في الضحك والبكاء، وإن كنت آمل فيما يختص بي على الأقل ألا تنهمر مني الدموع، والآن، كيف الحال يا إيفان بتروفتش؟ فكر مليًّا فلئن لم أنل كل ما أصبو إليه ولى ابتهاجي وعراني الاكتئاب، فلا يتسنى لك أن تستمع مني شيئًا، على حين أنك لم تأت إلى هنا إلا لكي تعرف مني شيئًا، أليس كذلك؟» قال ذلك ورماني بنظرة وقحة ثم أضاف: «والآن، اختر لنفسك!».

وكان جادًّا في تهديده، فأذعنت، وقلت لنفسي: «لعله يقصد أن

يسكرني؟» وأود بهذه المناسبة أن أذكر شائعة كانت قد ذاعت عن الأمير وطرقت سمعي منذ عهد بعيد، فقد رووا عنه أنه، وهو الذي نجده في المجتمعات رزينًا محتشمًا لا يبدر منه ما ينافي الآداب المرعية، يقبل في بعض الليالي على الشراب فيظل يجرع ويجرع حتى يفقد وعيه، ثم ينغمس في حمأة الفسق السري والرذائل الخفية التي تعافها النفس... وقد سمعت عنه أشياء هي غاية في البشاعة، وقد قالوا كذلك إن أليوشا قد علم أن والده يسكر في بعض الأحايين، بيد أنه يحاول كتمان ذلك عن العالم كله وبخاصة عن ناتاشا. وقد تفلتت منه مرة بضع كلمات أمامي، بيد أنه اقتضب حديثه فجأة ولم يجب عن أسئلتي، فأنا لم أسمع منه هذه الأخبار، ولا بد من الاعتراف بأنها لم تلق مني في ذلك العهد تصديقًا. أما الآن فقد انتظرت لأرى ما سيكون.

وأتى الساقي بالشمبانيا فملأ الأمير لكلٍّ منّا كأسًا.

وواصل حديثه قائلًا: «يا لها من فتاة محبوبة فتانة، وإن كانت سلقتني بلسانها» ورشف الرّاح بتلذذ واستمتاع ثم تابع كلامه قائلًا: «على أن أولئك المخلوقات الجذابات إنما يكن في مثل هذه اللحظات (لحظات الثورة) أفتن ما يكنّ. ولعلها اعتقدت حقًّا أنها لطختني بالعار. أما زلت تذكر تلك الأمسية وعندما أحرجتني وجعلتني كالطفل الصغير؟ ها.. ها.. ها.. ما كان أجملها إذ احمر وجهها. ألك خبرة بالنساء؟ فقد يحدث أن يشيع الاحمرار في وجه شاحب فيكسبه فتنة رائعة، ألم يسترع ذلك نظرك قط؟ ولكن رباه، أغضبت مرة أخرى؟».

فصحت وقد صرت لا أسيطر على نفسي: «أجل، أنا غاضب،

ولست أود أن تتحدث الآن عن ناتاليا نيكولايفنا... أعني أن تتحدث عنها بهذه اللهجة... إنني... أحظر ذلك عليك!».

«أوه! حسن، كما تريد. سأهيئ لك السرور بالحديث في شيء آخر. إنني مطواع لين كالشمع، دعنا نتكلم في شأنك أنت. إنني أحبك يا إيفان بتروفتش. ليتك تعلم ما أكنه لك من اهتمام وود وإخلاص».

فقاطعته قائلًا: «أيها الأمير، أليس من الخير أن نتحدث في الموضوع؟».

فقال: «تعني موضوعنا! إني أفهمك من نصف كلمة يا صديقي، على أنك لست تعلم كيف أننا نقترب من الموضوع حين نبدأ الحديث بالكلام في شأنك دون أن تقاطعني بالطبع، وإذن فهلم نفعل. وإنما أردت أن أقول لك بعد ذلك يا عزيزي إيفان بتروفتش إنك تورد نفسك بهذا اللون من المعيشة موارد التلف. ولا مناص من أن تبيح لي أن أمسّ هذه النقطة الدقيقة مرة أخرى، وإنما يحفزني إلى ذلك ما أشعر به نحوك من صداقة وود، فأنت مملق لا غنى لك عن الحصول على بعض المال مقدمًا من ناشر مؤلفاتك؛ حتى يتسنى لك أن توفي ديونك الصغيرة، ثم تعيش بما يبقى نصف عام على الشاي قانعًا به، وتكفكف من البرد في غرفتك العلوية الصغيرة في انتظار أن تتم قصتك راجيًا أن تظهر في النهاية في صحيفة ناشرك. أليس كذلك؟».

«حتى لو كان كذلك، فإنه لم يزل على أية حال...».

«أشرف من السرقة والتذلل والنفاق والرشوة ونسج الدسائس وهلم جرّا، أعرف، أعرف ما تريد أن تقول فهو في بطون الكتب منذ آماد

بعيدة...».

«وإذن فليس ثمة ما يسوغ لك أن تهتم بشئوني، ولا أخالني أيها الأمير مضطرًا إلى تلقينك درسًا في الكياسة».

«كلا ولا شك، فليس ثمة ما يستوجب ذلك. ولكن كيف السبيل إذا اضطر المرء إلى مسّ هذه الأوتار الدقيقة، وذلك ما لا سبيل إلى تجنبه هنا. لا بأس، فلندع الفرقة الصغيرة التي تحت السقف في راحة» ثم أضاف إلى ذلك في تهتك وفجور: «فإنني لست مغرمًا بها البتة، إلا في أحوال وملابسات خاصة.. ولكن هنالك شيئًا يثير دائمًا عجبي: كيف يلذّ لك أن تلعب دورًا من المرتبة الثانية كهذا الدور؟ بيد أني أذكر أن أحد زملائك، أحد أولئك الشعراء، قال في موضع ما: لعل أعظم عمل من أعمال البطولة يستطيع المرء أن يوطن نفسه على أن يقنع في الحياة بدور من المرتبة الثانية... كان تعبيره قريبًا من هذا. وقد سمعت أيضًا ذات مرة نقاشًا في هذا الموضوع. إني أعرف أن أليوشا سلبك خطيبتك، أما أنت في رأسك أفكار شيلر، فإنك تقتحم النيران من أجلهما وتبذل نفسك في سبيلهما، بل تكاد تجعل من نفسك بريدًا بينهما. معذرة يا عزيزي، إذا كنت أرى في ذلك سوء استعمال لمشاعرك الكريمة.. وبودي أن تكون نفسك قد سئمت ذلك، فالأمر مخجل، ولو أنني كنت حيث أنت، لبخعت نفسي كمدًا وحنقًا. والمهم هو أني كنت أعد هذا مخجلًا، مخجلًا جدًّا!».

فصحت وقد أخرجني الحنق عن سبيل الرشد:

«أيها الأمير، يلوح لي أنك إنما استدرجتني إلى هنا لكي تهينني».

«كلا يا عزيزي ليس في الأمر شيء من ذلك. وإنما أنا أتكلم في هذه اللحظة بكل بساطة، بوصف أني رجل محايد غير مشايع، خبّر الحياة وليس له مأرب إلا خيرك وصلاحك. وإني لأريد أن أضع ختامًا لهذه القصة. ولندع الآن هذه القصة مؤقتًا، فأصغ إليّ إلى النهاية واجتهد أن تملك نفسك ولو دقيقتين. والآن ما رأيك، ما قولك في أن تتزوج؟ انظر إنني أتحدث الآن في موضوع آخر. لِمَ تنظر إليّ مشدوهًا هكذا؟».

فأجبت وأنا أحملق إليه حقًّا في دهش عظيم: «إني أنتظر حتى تتم حديثك».

«ليس ثمة من حاجة إلى الإفاضة في الحديث، وكل ما هنالك أني وددت كثيرًا لو أني أعرف ما تقول إذا عرض عليك أحد أصدقائك- وهو يضع نصب عينيه هناءتك الحقة الدائمة، لا الهناءة العابرة الزائلة- إذا عرض عليك جارية فتية ظريفة، إلا أنها... لها بعض الخبرة إني أرمز في كلامي ولكنك لا تفهمني، فتاة مثل هذه الناتاليا نيكولايفنا. وسيكون ذلك بالطبع مع تعويض مناسب... وليكن في بالك، إني أتحدث عن شيء بعيد عنا وليس عن مسألتنا، فماذا تقول في ذلك؟».

«أقول إنك قد فقدت عقلك».

«ها.. ها.. ها! لعلك الآن جد راغب في أن تنهال عليَّ ضربًا!».

والحق أني كدت أنقض عليه إذ صرت لا أملك شعوري أكثر من ذلك، فقد كان لكلامه من الأثر في نفسي مثل ما تحدثه أفعى سامة أو عنكبوت عملاق كريه أجد بي رغبة ملحة في سحقه بقدمي. لقد كان

يتلذذ بامتهاني ويعبث بي عبث القط بالفأر، مفترضًا أنني واقع كل الوقوع في قبضته. وقد بدا لي (وإني لأفهم هذا أيضًا) أنه كان يشعر بشيء هو أشبه ما يكون برضى، بل بلذة جنسية في هذه الوقاحة وهذه الضعة، هذه الكلبية التي أزاح عنها النقاب في النهاية. لقد أراد أن يتذوق ما يعروني من ذهول وفزع في أقصى درجاتهما، وإنه ليحتقرني ويسخر مني في دخيلة نفسه.

كنت أحس من أول الأمر أنه لعب مدبر وأن وراءه ما وراءه، ولكني ألفيت نفسي في حالة لم أجد معها بدًّا من الاستماع إليه حتى النهاية، إذ كنت والأمر يتصل بمصلحة ناتاشا مرغمًا على احتمالي كل شيء، فإنه كان من المحتمل أن يبت في مصيرها في تلك الساعة بطريقة حاسمة، ولكن كيف استطعت أن أستمع إلى هذا التهجم الوقح الفاجر على شخصها، وكيف استطعت أن أحتفظ إزاء ذلك ببرودة دمي؟ أما هو فكان على ثقة تامة من أني مرغم على الإنصات إليه، فكان ذلك حافزًا له إلى مضاعفة الإهانة. على أني رأيت أنه هو أيضًا في حاجة ماسة إليَّ كحاجتي إليه، فشرعت أرد عليه بإجابات وقحة متحدية، وقد فطن هو إلى الأمر.

فنظر إليَّ نظرة جادة وقال: «اسمع يا صديقي الصغير، ليس في وسعنا أن نستمر على مثل هذا النحو من المراء، وإذن فمن الخير لنا أن نتفاهم. لقد اعتزمت أن أنبئك بأمور شتى، فعليك أن تتفضل بالإنصات إلى ما أقول مهما يكن ما أقول. على أني أود أيضًا أن أقول ما يحلو لي وما يروقني قوله، وذلك ما لا معدى عنه في حالتنا الحاضرة. فماذا ترى

في ذلك يا صديقي الصغير؟ أمطيق أنت ذلك؟».

فأكرهت نفسي وسكت، مع أنه كان ينظر إليَّ في سخرية لاذعة كأنه يتحداني ويستفزني إلى أعنف الاحتجاجات، ولكنه ألفاني قد وطنت النفس على سماع كل شيء فتابع كلامه قائلًا: «أرجو ألا يتملكك الغضب أيها الصديق، ففيم هذا الحنق والاهتياج؟ ليس إلا لأسباب ظاهرية، أليس كذلك؟ فأنت في حقيقة الأمر لم تكن ترتقب مني غير هذا. وسواء أقلت لك ما قلت في أدب بالغ، أم على النحو الذي قلته لك عليه، فلن يكون الأمر في جوهره غير الأمر. أأنت تحتقرني من جراء ذلك؟ ولكن افتح عينيك لحظة، فما أعظم ما أنطوي عليه من بساطة وصراحة وطيبة قلب. إني لا أكتمك شيئًا ما، حتى أهوائي الصبيانية. أجل يا عزيزي، فإنه- بقليل من حسن الطوية ودماثة الخلق من جانبك- يطيق أحدنا الآخر ويفضي كل منا بما لديه فنتفاهم ونتفق على خير ما يكون. وعليك ألا تعجب من أني قد ضقت ذرعًا بكل هذا الطهر والبراءة وقصائد الرعاة التي ينشدها أليوشا، وبكل هذه الأفكار الشيلرية وتلك الحماقات التي يضفون عليها ثوب التسامح والكبرياء والتي تعرض لنا في علاقته بتلك الناتاشا (التي هي فيما عدا ذلك فتاة خليقة بأن تحب)، إلى حد أني- كما يصح لي أن أقول- أسر إذا ما سنحت لي فرصة أهزأ فيها بالمسألة كلها من أولها إلى آخرها، وها هي ذي الفرصة قد سنحت. وبغض النظر عن ذلك فقد وددت- لا أدري كيف دار الأمر على هذا النحو- وددت كيف دار الأمر- أن أنفض ما في قلبي إليك، ها.. ها.. ها!».

«إنك تزيد عجبي باطراد أيها الأمير، وقد صرت أنكرك. إنك تسف

إلى لهجة المهرجين. وهذه الصراحة التي لم تكن متوقعة....».

«ها.. ها.. ها! لا ريب أن قولك لا يخلو من صواب، موازنة رائعة! ها.. ها.. ها. إنني أيها الصديق أريد أن ألهو اليوم وأطلق لأهوائي العنان فأشرب واستمتع وأترفه. إنني في هناءة وسرور. وأنت يا شاعري يجب عليك أن تظهر منتهى الحلم نحوي، ولكن هلم بنا نحتسي» قال ذلك وقد ملأ الكأسين وهو راضي النفس منبسط الأسارير، ثم أضاف قائلًا: «أتدري يا صديقي؟ إن ذلك المساء السخيف عند ناتاشا- ما زلت تذكر ذلك بالطبع؟- كان هذا المساء ضربة قاضية عليّ. نعم، إنها كانت، في ذاتها، فتاة فاتنة حبيبة إلى النفس، ولكني خرجت من هناك في سخط مروع، ولن أنسى ذلك أبدًا، لن أنساه ولن أغضي عنه، وستأتي نوبتي أنا أيضًا، ولعلها آتية قريبًا جدًّا، ولكن لنله عن ذلك الآن، إذ إنه يسرني أكثر من ذلك أن أخبرك أن بي خلة لما تعرفها فيّ حتى الآن، ، وهي مقتي لكل قصائد الرعاة والكلام الغث الذي درج الصبية على ترديده. ولقد كان من ألذّ المتع وأشهاها دائمًا إلى نفسي أن أبدو في غير حقيقتي وأن أبدأ أنا نفسي أول الأمر بالتحدث بمثل ذلك حتى أجذب إليَّ أحد أولئك الشيلريين الدائمي الشباب، فأظل أستحثه وأفعمه تحمسًا لكي أقذف به فجأة، فيهوي من بين سحبه وأنزع قناعي وأبدل ما يبدو عليَّ من فيض الحواس وذهول النفس تقطيبًا وعبوسًا وأخرج له لساني، وذلك في اللحظة التي يكون هو فيها أقل ما يكون تهيئًا لمواجهة مثل هذه المباغتة. ويحك! ألا تفهم ذلك! لعلك تجده فظيعًا سخيفًا دنيئًا، أليس كذلك؟».

«بلا شك».

«أنت على الأقل صريح، ولكن ما العمل وهم يستفزونني إلى ذلك؟ والحقيقة أنه من الخرق أن يفضي المرء بكل شيء عنه بمثل هذه الصراحة، بيد أن هذه سجية فيّ. ومع ذلك أحب أن أقص عليك شذرات من سيرتي لكي تفهمني أكثر مما تفهمني الآن. وستجد في سماعها متاعًا ولذة. أجل، إنه ليخيل إليَّ اليوم حقًّا أني مهرج، ولكن المهرجين صريحون شرفاء، أليس كذلك؟».

«اسمع أيها الأمير. لقد تأخر بنا الوقت، والواقع....».

«ماذا؟ رباه، ما أقل صبرك! إلى أين تريد أن تنصرف بهذ السرعة؟ كلا، فلنبق معًا ردحًا آخر من الوقت، ولنتحادث هنيهة في ثقة واستقامة كما يتحادث صديقان حميمان بين أيديهما زجاجة خمر. لعلك حسبتني مخمورًا، بيد أنه لا شأن لذلك بالأمر، بل هو أدعى أن يكون خيرًا لك، ها... ها... ها. حقًّا إن هذه المحادثات الودية تظل خالدة في الذاكرة لا تمحوها الأيام، ويظل المرء يستعيد ذكراها مغتبطًا مسرورًا. إنك امرؤ سوء يا إيفان بتروفتش، فلست بالمرهف الحس ولا بالمتقد العاطفة، فما قيمة ساعة أو ساعتين تمنحهما مرة صديقًا صدوقًا مثلي؟ يضاف إلى ذلك أن الأمر يتعلق بموضوعنا... كيف يغيب عنك ذلك وأنت الكاتب الأديب؟ يجب أن تحمد المصادفة فإنها هي التي تتيح لك أن تخلق مني نموذجًا رائعًا، ها.. ها... ها! رباه! ما أشد صراحتي اليوم!».

لقد كان باديًا عليه السكر، وقد تبدلت ملامح وجهه فأصبح يشف عن معان خبيثة، وكان من الواضح أن الأمير في حاجة إلى شخص يصب هو عليه سخريته ويهينه ويلذعه بل يخزه وخزًا. وقلت في نفسي لعل

الخير في أن يكون سكرانًا، فالسكران يهرف بأشياء كثيرة، ولكنه كان يعي ما يقول.

وبدأ يقول، وكان من الواضح أن كلماته تهيئ له متعة عظيمة: «أي صديقي. لقد اعترفت لك منذ هنيهة اعترافًا ربما كان الإفضاء به في غير موضعه، وهو أني أحس في بعض الأحيان حاجة لا تقاوم إلى أن أخرج لساني لشخص ما في الأحوال آنفة الذكر، وأنت أردت أن تعرب عن شكرك لي على هذه الصراحة الطفلية البريئة، فوازنت بيني وبين المهرج، وهي موازنة وجدت فيها تسلية وسررت بها في أعماق نفسي، فأما إن كنت تنقم مني، أو كنت تدهش أني كنت جلفًا فظًّا معك، أو- إن صح التعبير- غير مهذب كما يكون الفلاح، وبلفظ آخر، أني غيرت لهجتي في حديثي معك، فإنك تكون في هذه الحالة غير منصف مطلقًا، وذلك أولًا لأني قد وجدت في هذا لذّة لي، وثانيًا لأني لست في منزلي، وإنما كل ما في الأمر أني خرجت معك... أعني أننا نشرب هنا بوصف أننا صديقان حميمان، وثالثًا لأني متقلب المزاج كثيرًا كما ترى. واعلم أن مزاجي قد زين لي مرة أن أكون فيلسوفًا في ما وراء الطبيعة ومحبًّا للإنسانية وأخذت أفكر في مثل ما تفكر فيه أنت. على أن ذلك كان منذ أمد بعيد بعيد، كان ذلك في أيام شبابي الذهبية. وأذكر أني سافرت في تلك الفترة عينها إلى بلدتنا في الريف ورأسي مكتظ بالمشروعات الإنسانية، فتولاني الضجر هناك بالطبع وفترت حدتي. فهل تدري ما قمت به هناك؟ لقد أخذت لفرط سأمي أتعرف إلى بعض النسوة الحسان... ولكني أراك عدت تقطب وجهك وتجنح إلى العبوس، فلم هذا أيها الصديق الصغير؟ إننا

إنما نتحدث الآن حديث صديقين، ولِمَ لا نفرّج عن صدورنا ونفضي بمكنونات قلوبنا ونرخي لأنفسنا العنان. إن لي طبيعة روسية ومزاجًا روسيًّا صرفًا. إنني وطني متحمس وأجد أكبر اللذّة في أن أتجرد من كل شيء، فهلم نغتنم اللحظة الراهنة ونتمتع بالحياة فما أقرب ما يعصف الموت بحياة الإنسان، وعندئذ، يكون كل شيء قد ولى وانقضى. لقد كنت في ذلك الحين زير نساء مندفعًا وراءهن، وما زلت أذكر، لقد كانت هناك راعية حسناء، غير أنه كان لها بعل، بعل شاب ظريف، فانهلت عليه ضربًا، وأردت أن أبعث به إلى الجندية (ولكن الوقت كان قد فات يا شاعري) فلم يتهيأ لي ذلك إذ كانت المنية قد اخترمته في مستوصفي عقب إثخاني له بالضرب.... إذ كنت قد أعددت في قريتي مستوصفًا ذا اثني عشر سريرًا، وكان فخمًا مكتمل النظافة، فرشت أرضه (بالباركيه) وبه كل ما يلزمه، لقد ذهبت أيامه وعفى عليه الزمن، بيد أني كنت إذ ذاك فخورًا به، إذ كنت محبًا للإنسانية، على أن ذلك لم يمنعني من ضرب الراعي حتى الموت من أجل امرأته.... ما لك؟ لِمَ تقطب وجهك؟ لعله يضايقك أن تسمع شيئًا مثل هذا؟ إنه ليجرح مشاعرك النبيلة؟ هدئ من روعك، فإن ذلك كان منذ أمد مديد، كان أيام كنت في الطور الخيالي من العمر، حينما كنت أعتزم أن أصير محسنًا على البشرية وأن أؤلف جماعة محبة للإنسانية... لقد كنت موثقًا بمثل هذه الآراء والأفكار وكنت أجلد إذ ذاك فلاحي، أما الآن فإني لا أفعل ذلك، بل يحملني هذا العمل الآن على التقطيب لأنه يحمل الناس جميعًا على ذلك، هذه هي الأوقات التي نعيش فيها... ولكن الذي أتاح لي أعظم تسلية هو ذلك الخروف

إشمنيف، فإني مقتنع بأنه كان على علم بقصتي كلها مع ذلك الراعي... فماذا عمل؟ إنه لطيبة قلبه الذي لعله قد خلق من شهد، ولأنه كان في ذلك الحين كلفًا بي يعمد في كل مناسبة إلى عمل ما يكسبه رضاي، صح رأيه على ألا يصدق هذه القصة، وفعلًا لم يصدق كلمة منها، ومعنى ذلك أنه أبى أن يصدق ما كان حقًّا، وظل اثني عشر عامًا يذود عني كالطود الراسخ حتى دهمته هو نفسه الكارثة، ها... ها... ها. غير أن هذا كله هراء، فدعنا نشرب أيها الصديق الصغير، لنشرب! وأنت؟ أمغرم أنت أيضًا بالنساء؟».

فلم أجب بل بقيت أسمع، وكان قد بدأ الشرب من الزجاجة الثانية.

«أحب ما يكون إليَّ الحديث عنهن، حين أكون على مائدة العشاء وقد يتسنى لي، بعد أن ننتهي من العشاء أن أعرفك إلى إحداهن، إلى مدام فيليبير، فماذا ترى في ذلك؟ ولكن ويحك، ماذا بك؟ إنك لا ترفع طرفك إليّ؟ أوه!».

وأطرق إطراق من يكدّ ذهنه، ثم سرعان ما رفع رأسه ونظر إليَّ نظرة مفعمة بالمعاني، وتابع حديثه:

«انظر أيها الصديق الشاعر، أود أن أبوح لك بسر من أسرار الطبيعة يلوح لي أنك لا تعرف منه شيئًا. وإني على ثقة أنك في هذه اللحظة تعدني نذلًا آثمًا، بل مسخًا خلق من الرذيلة والفساد، بيد أني أقول لك الآن شيئًا، لو أنه كان من الممكن (ولكنه بمقتضى سنن الطبيعة الإنسانية غير ممكن البتة) أن يفصح كل منا ذات مرة عما في دخيلة نفسه، وأن يبدي ما يفكر فيه فيكشف في غير تهيب أو تردد، لا عما يأبى بأي ثمن

أن يطلع عليه أي شخص فحسب، ولا عما يحجم عن الإدلاء به لأخص أصفيائه فحسب، بل أيضًا عما لا يجسر على البوح به إلى نفسه هو، إذن لبعث هذا التكاشف في العالم من النتن ما يجعلنا نختنق جميعًا. ولهذا أقول في جملة اعتراضية، إن قواعدنا ومصطلحاتنا الاجتماعية عميمة الخير، إذ هي تنطوي على معنى عميق، ولست أريد أن أقول إنها خلقية أدبية، بل هي بكل بساطة إجراء تقتضيه حماية النفس، ومن شأنه أن يجعل الحياة ميسورة هينة، وفي هذا بالبديهة خير كثير. أجل إن القواعد الخلقية إنما هي في جوهر الأمر، قد اخترعت لهذا الغرض وحده، ألا وهو أن تجعل الحياة هينة مقبولة قدر الإمكان. ولكن لندع الكلام في ذلك إلى ما بعد، وإلا أفلتت مني خيوط الحديث وحدت عن الموضوع. فذكرني بذلك فيما بعد. وإنما أردت أن أبين لك أنك ترميني بالرذيلة والفساد والانحطاط الخلقي، على حين أن كل ذنبي في هذه الساعة قد لا يعدو أني أصرح من غيري، أي أني لا أكتم ما يكتمه الآخرون حتى عن أنفسهم كما قلت منذ قليل...» ثم تابع كلامه وقد علت فمه ابتسامة ساخرة: «أجل إن في هذا لعارًا عليَّ، بيد أن هذا هو ما قصدت الآن إلى فعله ولكن لا تجزع، فإذا كنت قد اعترفت بخطيئتي فلن أسألك غفرانها. وأرجوك أن تذكر شيئًا آخر، ذلك أنه ليست عندي رغبة في أن أخجلك بسؤالك عما إذ كنت أنت أيضًا تنطوي في دخيلة نفسك على أسرار من هذا القبيل، كيما أبرر بأسرارك سلوكي ومنهجي في الحياة... كلا، فإني أعامل الناس بنبل وشرف. وإني لدائمًا...».

فقاطعته، وقد نظرت إليه في ازدراء، قائلًا: «كثير الهراء، ثم لا شيء».

«كثير الهراء! ها... ها... ها! أتحب أن أنبئك بما يجول بخلدك؟ إنك تسأل نفسك: لم استدرجني واستجرني إلى هذا المكان ثم انقلب فجأة ودون سبب يكشف لي عن سوءاته؟ ألست مصيبًا؟».

«بلى».

«حسن، ستعلم ذلك فيما بعد».

«الأمر بسيط كل البساطة، فقد شربت ما يقرب من زجاجتين من الخمر، فأنت الآن منتعش بعض الشيء».

«تعني أني سكران، قد يكون ذلك! منتعش بعض الشيء تعبير ألطف من كلمة «سكران» واهًا لك أيها الشاب المفعم رقة وظرفًا! ولكن... أرانا قد رجعنا إلى بداءاتنا وقد كنا على وشك أن نعالج موضوعًا مهمًّا. أجل، أيها الصديق الشاعر، إذا كان في العالم شيء حلو ظريف فهو النساء».

«أتدري أيها الأمير؟ إنني ما زلت غير مستطيع أن أفهم كيف وقع اختيارك عليَّ دون غيري لتتخذ مني أمينًا على أسرارك و... ميولك الشهوانية!».

«ويحك... لقد قلت إنك ستعلم ذلك فيما بعد، فلا تقلق، ومع ذلك فربما لم تكن لديّ أسباب خاصة. أنت شاعر وفي وسعك أن تفهمني، على أننا قد تحدثنا عن ذلك آنفًا. هنالك لذة خاصة في أن يخلع المرء النقاب عن نفسه فجأة، في الكلبية التي يكشف بها امرؤ عن نفسه أمام آخر على صورة تدل على أنه لا يرى للآخر من القدر ما يجعله قمينًا

بأن يخجل منه، سأقص عليك حادثة: كان في باريس موظف، وكان معتوهًا، وقد أدخل، فيما بعد، أحد مستشفيات المجاذيب حين ثبت أنه ذاهب اللب تمامًا. فلما بدأ يفقد عقله عنّ له أن يلتمس المتعة فيما يأتي: ينضو عنه ملابسه كلها في المنزل فيصبح على نحو ما كان عليه آدم في الجنة، ولا يحتفظ بغير الحذاء والجورب، ثم يرتدي معطفًا فضفاضًا يصل إلى عرقوبه، ويروح يسير به في الطريق في جد ووقار، فإذا نظرت إليه نظرة عارضة وجدته رجلًا ككل الرجال يستمتع بالتنزه في معطف طويل. على أنه كان لا يكاد يلقى أحد السابلة في ناحية منعزلة ليس بها عابرون آخرون، حتى يقصد إليه صامتًا في ملامح الجاد المشغول الفكر، وإذا به يقف أمامه فجأة ويفتح معطفه ويعري نفسه قبالته في.... طبيعته الخالصة، ولا يدوم ذلك إلا لحظة، ثم يجمع طرفي المعطف ثانية وينثني في صمت ومن دون أن يحرك عضلة من عضلات وجهه، تاركًا الناظر إليه وقد تصلب من الرعب، ويمضي مختفيًا في هدوء وعظمة كأنه الشبح في مسرحية «هاملت». كان يفعل ذلك مع الجميع، رجالًا ونساء وأطفالًا، وتلك كانت متعته الوحيدة. وبعد فإن المرء يستطيع أن يهيئ لنفسه المتعة عينها عندما يهوي بشيلري بغتة من بين السحب ويخرج له لسانه حين يكون هذا الشيلري أقل ما يكون توقعًا لهذه المفاجأة «من بين السحب» تعبير قوي، أليس كذلك؟ لقد وقع نظري عليه في كتاب ما من كتب أحد مؤلفيكم المحدثين».

«حسن. لقد كان ذلك مدخول العقل على حين أنك....».

«سليم العقل؟».

«أجل».

فقهقه الأمير قهقهة مرتفعة.

وأضاف وقد ارتسمت على وجهه أوقح التعابير: «أنت تحسن الفراسة يا عزيزي».

فقلت وقد أثارتني وقاحته: «أيها الأمير، إنك تبغضنا وتجد علينا جميعًا دون استثناء. فالآن تريد أن تقتص في شخصي من كل امرئ وكل شيء. وكل ذلك مبعثه أثرتك التي تسف إلى درك الصغائر. أنت حقود ولكن ما أتفه حقدك وأشده صغارًا. ونحن قد أغضبناك، وقد يكون ذلك المساء خاصة هو الذي أذكى فيك نار الغضب. ولم يكن في وسعك، بالطبع، أن ترد على ذلك في مواجهتي بأبلغ من هذا الاحتقار المتناهي الذي تبديه لي الآن، بل إنك نبذت حتى أول قواعد الأدب اليومي التي يجب على كل امرئ أن يلاحظها نحو غيره. إنك تريد أن تبرهن لي بكل ما تقدر عليه من إيضاح أنك لا تراني قمينًا بأن تخجل مني، وذلك بأن تنزع قناعك المقزز فجأة وفي غير مواربة وتعرض نفسك أمامي في منتهى كلبيتك الخلقية....».

فسألني في وقاحة وهو ينظر إليَّ نظرًا خبيثًا: «ولم تقول لي كل ذلك، لعلك تقوله لتثبت لي وفرة ذكائك؟».

«لكيما أريك أني أستشف حقيقتك ولكي أفهّمك ذلك بوضوح».

فتابع حديثه تاركًا لهجته هذه إلى ما كان فيه من لهجة منشرحة ومجون مرح، وقال: «يا لها من فكرة يا عزيزي، إنك تخرجني دائمًا من

موضوعي، لنشرب يا صاحبي، أتسمح بأن أملأ قدحك؟ كنت موشكًا في هذه اللحظة أن أقص حادثة فاتنة شائقة للغاية، وسأقصها عليك في إيجاز، فقد عرفت ذات مرة سيدة لم تكن في ميعة شبابها، ولعلها كانت إذ ذاك في السابعة أو الثامنة والعشرين، بيد أنها كانت ذات جمال من الطراز الأول. يا له من جسم، يا له من قدّ، يا لها من مشية! كانت عيناها حادتين جسورتين كعيني النسر تنظران دائمًا في صرامة وجدّ، وكانت حركاتها وطباعها ملوكية لا مثيل لها، وكان القوم يرونها باردة كيوم الشتاء، ترعب القلوب بعفتها وفضيلتها التي لا سبيل إلى النيل منها. أجل، كانت قاسية كل القسوة ولم يكن في الناحية قاضية مثلها لا ترحم، فقد كانت لا تصدر حكمها على الرذيلة فحسب، بل أيضًا على أقل ضعف يبدو من غيرها من النساء، وتحكم على هذا الضعف في إصرار ودون رحمة، وكان لها النفوذ الأوسع في مجتمعها، فكانت حتى أكثر العجائز كبرياء، أولئك اللائي يرهبهن الناس لفضيلتهن يقابلنها بتبجيل واحترام، ويتملقنها، أما هي فكانت تنظر إلى الجميع من أعلى عليين نظر الصرامة وعدم التحيز، كما كانت تفعل رئيسات الأديار في القرون الوسطى، فترتجف النساء الشابات من نظراتها ومن نقدها، إذ إن أية ملاحظة منها أو مجرد إيماءة كانت تكفي للقضاء على سمعة إحداهن.

تلك كانت قوة نفوذها في المجتمع، بل إن الرجال أيضًا كانوا يخشونها، وقد انساقت فيما بعد بجميع كيانها إلى التمذهب بمذهب صوفي روحي فيه من الهدوء والوقار مثل ما فيها... ولكن ماذا كانت نواتها من الداخل؟ لم يكن في العالم كله أكثر منها ارتماء في أحضان الشهوات، وكان لي حظ الاستحواذ على ثقتها التامة، وبلفظ آخر كنت

عشيقها السري، وكانت مضطرة إلى إخفاء هذه العلاقة بلباقة وأستاذية حتى لا يخامر أحدًا من منزلها أقل ريبة في شأنها... وإنما كانت خادمتها الخاصة الفاتنة، وهي فرنسية، متغلغلة في كل هذه الأسرار، بيد أنها كانت جديرة بأن يعتمد المرء عليها كل الاعتماد. فقد كانت شريكة في الأمر، وكيف كانت؟ ذلك ما لا أريد الإفاضة فيه الآن. فأما سيدتي تلك، فإنها كانت من جهة شهواتها الجنسية قمينة بأن يتعلم منها الماركيز دي ساد[1] نفسه. وكان أنزق ما في تلك العربدة الشهوانية وأكثره شذوذًا وانحرافًا واستفزازًا للنفس، سرِّيتها ووقاحة خداعها. فهذه السخرية من كل ما تعظ به هذه الكونتة بين الناس وتدعوهم إليه على أنه مقدّس لا يجوز له، وتلك القهقهة الشيطانية في دخيلة نفسها، وذلك الإصرار على وطء جميع القوانين التي لا يجوز أن توطأ، ثم كونها إذ تفعل ذلك كله تتمادى فيه تماديًا يتخطى أبعد الحدود وبدرجة لا تطمح أبعد الأخيلة إيغالًا في الجرأة على أن تحلم بها، ذلك كله كان لب الفتنة في هذا الاستماع. أجل، فقد كانت هي الشيطان نفسه تمثل إنسانًا، بيد أنه كان شيطانًا لا يقاوم سحره، وما زلت حتى هذه الساعة لا أستطيع أن أتذكرها إلا ويطير لبي وينتابني الذهول، وكانت تدب فيها حرارة الاستمتاع الشهواني أحيانًا فتنفجر ضاحكة كالمجنونة، فكنت أفهمها وأفهم هذا الضحك منها تمام الفهم وأشاركها فيه. وما زال يهتاجني حنين إليها كلما ذكرتها على طول

(١) هو الكونت دونا سيان ألفونس فرانسوا (ولد سنة ١٧٤٠ وتوفي سنة ١٨١٤) انتظم في السلك العسكري ثم عاد إلى باريس حيث اشتهر بفجوره، وحكم عليه أكثر من مرة بتهمة القتل وغيره من الجرائم الشاذة، وكتب وهو سجين في الباستيل قصصًا ومسرحيات فاسقة منها «جوستين» و«فلسفة المخادع» و«جريمة الحب» وقد اشتقوا من اسمه لفظ سادية «سادزم» ويعنون به نوعًا من الانحراف الجنسي المصحوب بالقسوة الشديدة.

ما مر من السنين. وقد نبذتني بعد عام واتخذت لها خدنًا غيري. ولو أني أردت أن ألحق بها أذى لما استطعت، وإلا فمن ذا الذي كان يستطيع تصديقي؟ يا لصفاتها الخلقية! ما قولك يا صديقي الصغير؟».

فأجبت: «مرحى مرحى يا للبشاعة!» وكنت قد استمعت إلى اعترافه في نفور واشمئزاز.

«لو لم تكن إجابتك كذلك لما كنت أنت إياك، يا صديقي الصغير، وقد كنت أعلم أنك ستقول ذلك، ها... ها.... ها! عش فترة أخرى يا صاحبي وتعلم كيف تعرف الحياة وتفهم كنهها، أما الآن فأنت ما زلت تستخفك قطعة من السكر. أجل، فما أنت بالشاعر إذا لم تكن تفهم ذلك. إن تلك المرأة قد فهمت الحياة وعرفت كيف تستمتع بها».

«وهل لا بد لذلك من أن ينقلب حيوانًا؟».

«كيف ينقلب حيوانًا؟».

«إن تلك المرأة قد أسفت حتى انحدرت إلى درك الحيوان، وأنت معها».

«آه. لئن كنت تدعو ذلك بالحيوانية، فليس ذلك إلا دليلًا على أنك لم تخلع حذاء الطفولة بعد، وأنك ما زلت تتعثر على دراجة الأطفال. إني أسلم بالبديهة، أنه قد يصل المرء إذا انتهج سبيلًا يضاد سبيلي كل المضادة، إلى قسط من الاستقلال الخلقي، ولكن... لنقل في صراحة تامة يا صديقي: إن هذا كله هراء! وأنت نفسك لا بد أن تسلم بذلك».

«وإذن فما هو الذي ليس بهراء؟».

«الذي ليس بهراء هو شخص الإنسان، هو شخصي أنا. كل ما في العالم ليس إلا لي. ليس إلا من أجلي. اسمع يا صديقي، إنني ما زلت أؤمن أنه في وسع الإنسان أن يعيش سعيدًا في هذا العالم، وهذا أفضل الإيمان إذ لا يتسنى للمرء بدونه أن يعيش حتى من غير سعادة، بل لا يبقى أمامه إلا أن يتناول السم. وقد قيل إن رجلًا أخرق فعل ذلك ذات مرة إذ دأب يتفلسف ويتفلسف حتى حطم كل شيء، كل شيء حتى التمسك بواجبات الإنسان الطبيعية المألوفة كلها، وقد لج في ذلك فلم يبق على شيء فكانت عاقبته لا شيء، وعندئذ أعلن أن أحسن شيء في الحياة هو الحامض الأزرق[1] ستقول: ذاك هو «هاملت» إنه يأس مروع وقصارى القول إن ذلك شيء هائل إلى حد أنه لا يهجس ببالنا حتى في الحلم، ولكنك شاعر، أما أنا فكائن فان عادي ومن ثم فإني أرى أنه يجب على المرء أن ينظر إلى جميع الأشياء من أيسر الوجوه وأكثرها ملاءمة لمقتضيات الحياة العملية، فأنا مثلًا قد حررت نفسي، منذ أمد بعيد، من ميع القيود بل من جميع الواجبات وأصبحت لا أعترف بواجب إلا إذا كان لي من ورائه مأرب. أما أنت فإنك بطبيعة الحال لا تستطيع النظر إلى الأشياء على هذا النحو؛ لأنك ما زلت تخب خببًا نحو المثل العليا البالية والفضائل العتيقة. وإني يا صديقي لمستعد أن أسلم لك بكل ما تقول، ولكن ما العمل وأنا أعلم علم اليقين أن أصل جميع الفضائل البشرية إنما هو حب النفس، وأنه كلما ازداد حظ العمل من الفضيلة كان ما يكمن وراءه من الأثرة أعظم. أحبب نفسك. تلك هي القاعدة الوحيدة

(١) يسمى بالألمانية **Blausäurê** وبالإنجليزية **Prussie aeid** أو حمض الهيدروسيانيك.

التي أدين بها. الحياة عمل تجاري فما من أحد يعطي دون مقابل، وإنما يؤدي المرء جزاء ما يسدى إليه من خدمة أو جميل، وذلك هو الواجب الوحيد على المرء نحو جيرانه، ذلك هو مذهبي الخلقي إذا لم تكن في غنى عن معرفته، وإن كنت أؤمن أن الخير ألا يؤدي المرء إلى جيرانه جزاء، بل أن يعرف كيف يحملهم على قضاء مآربه دون مقابل. ليست لي مثل عليا، ولست أريد أن تكون لي مثل هذه المثل، فإني أشعر قط بأقل عوز إليها، وإن المرء ليستطيع أن يحيا في العالم حياة رغدة مرحة دون أن تكون له مثل عليا... ومهما يكن من شيء، فإني لسعيد جد السعادة لأني أقوى على الحياة دون أن ألجأ إلى الحامض الأزرق، ولو أني كنت أشد نزوعًا إلى الفضائل بعض الشيء مما أنا الآن، لكان المحتمل ألا أستطيع الاستغناء عنه، شأن ذلك الفيلسوف المأفون (ولا ريب أنه كان ألمانيًّا) لا، إن الحياة لأجمل من أن تضيع في مثل ذلك! فما زالت فيها أشياء ممتعة، وإني لأنشد ازدياد نفوذي وشبوب منزلتي بين الناس وأشرئب إلى امتلاك قصر خاص بي، وأجد لذتي في المقامرة بالورق (فأنا مشغوف بلعب الورق شغفًا شديدًا) ولكن أشهى شيء، أشهى شيء في الوجود، هو، النســاء، ولا يزلن كذلك... النساء من جميع الأصناف والأعمـار. وإني لأحب الفسوق، وبخاصة الفسوق السري والشاذ والمنحرف، وكذلك القذر بعض الشيء، ابتغاء التغيير... ها... ها... ها! إني أشاهد في وجهك مدى ما تنظر به إليَّ الآن من ازدراء!».

فأجبت: «أصبت».

«حسن، فلنفرض أنك على حق، أليست بعض القذارة على أية حال خيرًا من الحامض الأزرق؟ أما ترى ذلك؟».

«كلا، فالحامض الأزرق هنا خير!».

«لقد سألتك هذا السؤال لأستمتع بإجابتك، وقد كنت أعلم مقدمًا ما ستقول. كلا يا صاح ولو أنك تحب للبشرية حقًّا، لتمنيت لجميع العقلاء أن يكون لهم من الذوق في الاستمتاع مثل ما لي أنا، مهما كان مشوبًا بشيء من القذارة، وإلا لم يبق للعقلاء من شيء يعملونه في العالم، ولم يبق فيه بعد ذلك غير المأفونين فيكونون بذلك أكثر حظًّا، والمثل الدارج يقول: إن أقل الفلاحين فطنة أكثرهم حظًّا من اجتناء أكبر البطاطس حجمًا. أو تدري؟ ليس هناك ما هو أروح للنفس من المعيشة بين ظهراني المأفونين ومظاهرتهم، فإن في ذلك للمرء منفعة وغنمًا. لا تعجب من تعظيمي للتقاليد والعادات المرعية، ومن نضالي لتوطيد مركزي في المجتمع، فإني وإن كنت قد عرفت من زمن مديد أني أعيش في عالم من الرؤوس الجوفاء، أجدني في الوقت الحاضر أعيش بينهم في رغد ودفء. وهكذا تراني أعاونهم وأعمل ما يجعلهم يرونني ثابتًا في الدفاع عنهم كالصخرة الراسخة، وذلك على حين أني سأكون أول من يتخلى عنهم ويدعهم في ورطتهم إذا ما دعت الأحوال والملابسات إلى ذلك. إني على تمام العلم بآرائكم الحديثة كلها، غير أني لم أدع شعرة بيضاء تنبت في رأسي من جرائها، ولست أدري كذلك لِمَ عساني أفعل. إنني لم أشعر قط بوخز الضمير لأي سبب من الأسباب، وإني لراض بأي شيء أجد راحتي ومنفعتي. وثمة فيالق من الناس أمثالي يعيشون جميعًا عيشة

راضية، فلو هلك العالم كله لبقينا نحن دون أن ينالنا أذى. وما دامت الدنيا قائمة فستظل تخرج أناسًا يفكرون تفكيرنا. ولئن غرقت الدنيا كلها لنعودن نحن فنطفو ونرتفع إلى السطح، ولاحظ- بهذه المناسبة- كيف أن الناس الذين هم على غرارنا يعمرون طويلًا، فنحن مديدو العمر لاصقون بالحياة أشد لصوق. ألم تسترع هذه الحقيقة انتباهك قط؟ نحن نعمر حتى الثمانين بل حتى التسعين، ومعنى ذلك أن الطبيعة نفسها تحابينا وتظلنا بحمايتها. إني أريد حتمًا أن أبلغ التسعين، فلست شغفًا بالموت. بل إني لأخشاه وأرهبه، والشيطان وحده يعلم كيف نموت! ولكن ما لي وما لهذا الحديث في هذا؟ نعم، لقد حفزني إليه ذلك الرجل فيلسوف الحامض الأزرق. على الفلسفة كلها اللعنة. لنشرب يا صاح. لقد كنا قد ابتدأنا نتحدث عن الفتيات الحسان... ولكن إلى أين تريد أن تذهب؟».

«إنني منصرف، وقد أزف الوقت لتعود أنت أيضًا...».

«ولكني أرجوك! لقد نفضت بين يديك ذات صدري، ويبدو أنك لم تدرك مبلغ ما يدل عليه ذلك من الصداقة والود، هيـهيـــهي. أنت ضعيف عاطفة الود أيها الصديق الشاعر. ولكن انتظر هنيهة. إني أرغب في زجاجة أخرى...».

«ثالثة؟».

«أجل، ثالثة. أما فيما يتصل بالفضيلة يا مستمعي الصغير- ولعلك تسمح بأن أناديك باسم التدليل هذا!- ومن يدري، فلعل تعاليمي تثمر فيك يومًا!... وإذن فيا عزيزي المستمع الصغير، لقد قلت الآن عن الفضيلة إنه كلما ازداد حظ العمل من الفضيلة، كان ما يكمن وراءه من

الأثرة أعظم. ولكي أبرهن لك على صحة هذا القول، أروي لك قصة جد شائقة، فقد أحببت مرة فتاة، أحببتها حبًّا أوشك أن يكون حبًّا حقيقيًّا، بل إنها قد ضحت أيضًا من أجلي بعض التضحية...».

فسألت في غلظة وقد فقدت الرغبة في أن أكبح جماح نفسي: «أتعني تلك التي سرقتها؟».

فاقشعر الأمير وتغضنت أسارير وجهه وحدّق إليَّ بعينين تقدحان شررًا، تحديقًا متواصلًا يشف عن حنق ودهشة، وقال كأنما يحدث نفسه: «مهلًا مهلًا، دعني أفكر. إنني سكران حقًّا، ومن العسير عليَّ أن أتذكر...».

وصمت ورنا إليَّ فاحصًا بتلك النظرات الخبيثة، وأمسك بيدي لا يرسلها كأنما كان يخشى أن أنصرف. وإني لواثق أنه كان يجهد ذهنه في تلك اللحظة محاولًا أن يعرف من أين علمت هذه القصة التي تكاد تكون غير معلومة لأحد كائنًا من كان، وأن يتبين هل ثمة من خطر يتهدده. على أن ذلك لم يدم إلا قليلًا حتى انبسطت أسارير وجهه فجأة، وأفصحت عيناه ثانية عن التعبير السابق نفسه المملوء تهكمًا وجذلًا وسُكرًا، وقهقه عاليًا، ثم قال:

«ها... ها... ها، لأنت أكثر دهاء من تاليران[1]، وليس لدي تعبير غير هذا. ولم لا أعترف، فقد انعقد لساني أمامها بالفعل، كما لو كانت قد بصقت في وجهي وذلك حين رمتني بأني سرقتها، وما أكثر ما صرخت وأعولت. يا لها من امرأة مختبلة ليس لنفسها ضابط، ولكن احكم أنت

(١) هو السياسي الفرنسي شارل- موريس بيريجور المتوفي سنة ١٨٣٨.

بنفسك: فأولًا أنا لم أسرقها مطلقًا كما كنت تزعم منذ لحظة، وإنما هي نفسها التي وهبت لي المال، فهو لي دون غيري، فإذا فرضنا مثلًا أن وهبت لي مثلًا حلتك «الفراك» التي هي خير حللك (وأشار بطرفه- وهو يقول هذه الكلمات- إلى حلتي الفراك الوحيدة السيئة التفصيل التي حاكها لي الحائك إيفان سكورنياجين منذ ثلاث سنوات) «فشكرت لك ذلك ولبستها، ثم حدث بعد عام أن شجر بيننا أمر على غير ما كنا نتوقع، فإذا بك تطالبني برد حلتك «الفراك» بعد أن تكون قد بليت خلال ذلك الوقت، فإن هذا لن يكون إنصافًا منك، و إلا فلم وهبتها لي قبل؟ وثانيًا: بغض النظر عن أن ذلك المال أصبح لي، فقد كنت أعتزم اعتزامًا قاطعًا أن أرده إليها، ولكن لا بد أن تسلم أنت نفسك. فمن أين كنت أستطيع أن آتي بمثل هذا القدر من المال دفعة واحدة؟ على أن المهم هو أني- كما قلت لك من قبل- لا أطيق مطلقًا هذه الشيلرية وأناشيد الدعاة، وذلك هو محور القصة كلها. إنك لا تستطيع مطلقًا أن تتصور ما لعبته أمامي من تمثيل مسرحي، فقد صرخت قائلة أمسك عليك المال فإني قد تخليت لك عنه (مع أنه كان قد أصبح ملكي فعلًا) فتولاني الغضب، وسرعان ما اهتديت إلى رأي صائب، فأنا حاضر البديهة تزايلني سرعة الخاطر في مثل هذا الموقف مطلقًا. فقد استقر رأيي على أني لن أفعل إلا أن أتعسها، إن أنا رددت إليها المال، ذلك لأني قد حبوتها لذة الشعور بأنها ترد من جرائي موارد التلف، وأن لها بذلك أن تلعنني مدى الحياة صدقني يا صديقي، إن المرء ليشعر وسط ذلك البؤس بشيء يشبه أن يكون ذهولًا ساميًا وفيضًا للمشاعر، وذلك حين يحس ويعرف أنه عامل

غيره بكرم وشهامة وأن له الحق المطلق في أن يصف من أهانه بأنه وغد. وهذا الإحساس بفيض المشاعر الناجم عن مثل هذا الحنق، لا يمكن أن يحسه بالطبع إلا من كانوا من ذوي الطبيعة الشيلرية. ولعلها قد تضورت من الجوع فيما بعد، ولكني واثق بأنها كانت سعيدة، وهذه السعادة لم أشأ أن أحرمها إياها، ولذلك لم أرد إليها المال. وفي ذلك برهان جديد يؤيد ما قلته لك آنفًا وهو أنه: كلما ازدادت شهامة المرء وعظم قدرها كان ما يستتر وراءها من الأثرة البغيضة أعظم... لا ريب في أنك ترى ذلك من الجلي الواضح؟ ولكن... قد أردت أن تنصب لي شركًا، ها... ها.... ها.... اعترف بأنك كنت تريد الإيقاع بي... أوه، ويحك يا تاليران!».

فنهضت قائلًا: «وداعًا!».

فصرخ وقد انصرف فجأة عن سخريته البغيضة إلى لهجة حادة: «لحظة واحدة! كلمتين أخريين فيهما فصل المقال. استمع كلماتي الأخيرة أيضًا. يتضح لك من كل ما قلت (وآمل أن تكون قد أدركت ذلك من تلقاء نفسك) أنني لا أدع أبدًا مغنمًا يفوتني من أجل أي إنسان، مهما كان هو الإنسان. إني أحب المال وأحتاج إليه، وكاترينا فيودوروفنا ذات مال، فقد عمل والدها في جباية مكوس الفودكا عشر سنوات، وهي تمتلك ثلاثة ملايين، وفي هذه الملايين الثلاثة غناء كبير لي. وأليوشا وكاتيا يلائم كلاهما صاحبه ملاءمة مدهشة، فكلاهما مأفون من الطراز الأول، على أن هذا بذاته هو ما أوده، ولذلك فإن رغبتي وإرادتي التي لا تتحول، يقتضيان أن يتم هذا الزواج وفي أسرع وقت ممكن، ففي أسبوعين أو ثلاثة أسابيع تسافر كاتيا مع الكونتة إلى الريف، يصحبهما

أليوشا، فهيئ ناتاليا نيكولايفنا لذلك حتى لا تفاجئني عندئذ بمشاهدة مسرحية وأفكار شيلرية، وحذرها من أن تعصيني أو تقاومني، فإني لعين ذو انتقام، وأنا عند إرادتي. إنني لست أخشاها، وسيسير كل شيء حتمًا وفق مشيئتي، وإذا كنت أنذرها الآن وأحذرها فلخيرها هي أفعل ذلك، فاعمل على ألا تقع منها حماقة وعلى أن تسلك سبيل الحكمة والرشاد، وإلا أصابها الضرر أبلغ صنوف الضرر وإنها لجديرة بأن تحمد لي أني لم ألجأ إلى القانون حيالها، فأنت تعلم أيها الصديق الشاعر، أن القوانين تحمي سلام الأسرة وتكفل للوالد طاعة ولده، وهي على عكس ذلك لا تسبغ حمايتها على أولئك اللواتي يغوين الأطفال ويصرفنهم عن القيام بأقدس واجباتهم نحو والديهم. واذكر فوق ذلك أن لي اتصالات على حين هي لا صلة لها بأحد، و... أنت تعلم يقينًا ما أستطيع أن أصنع معها... بيد أني لم أفعل شيئًا من هذا القبيل؛ لأنها كانت حتى الآن تسلك سبيل الرشاد وتنهج منهج الحكمة والسداد. ولا تشغل بالك فإن أعينًا عديدة كانت في خلال ستة الأشهر الأخيرة ترقب كل حركاتها فينتهي إليّ حتى أتفه أخبارها، ولذلك انتظرت مطمئنًا حتى يملها أليوشا، وقد أخذت بوادر هذا الملل تبدو واضحة، يضاف إلى ذلك أنه كانت له فيها تسلية وملهاة، فتركته وشأنه، وما فتئت في رأيه الوالد الإنساني الرحيم، إذ يهمني إلى أقصى حد أن يكون هذا ظنه فيّ، ها.... ها.... ها! وإني عندما أذكر أني قلت له في ذلك المساء- وكان ذلك بوجه التقريب على سبيل المجاملة- إنها كانت كريمة مؤثرة إذ لم تتزوج منه، إني عندما أذكر ذلك أتوق أن أعرف كيف كانت تصور أنه يمكن أن يقع هذا الزواج! أمّا

زيارتي تلك لها، فإنما حفزني إليها أن الأوان كان قد آن لوضع خاتمة لتلك القصة، وأنني أردت، كذلك أن أرى كل شيء بعيني وأن أخبر كل شيء بنفسي... والآن، هل أنت راض؟ أم أنت تود أن تعرف لم غررت بك واستدرجتك إلى هنا؟ ولم تحدثت إليك بهذه الصراحة، وقد كان في مقدوري أن أقول لك ما أريد دون أن أصطنع هذه الصراحة أجل؟».

فقلت: «أجل».

وقد سيطرت على نفسي، وأنصتّ إليه في فضول... ولم أكن في حاجة إلى أن أقول له شيئًا.

«لا لسبب يا صديقي إلا لأني تبينت فيك أنك أوسع فهمًا وأصفى نظرًا من مأفونينا، وربما كنت قد عرفت من قبل من أي الرجال أنا؟ وربما كنت قد أخذت تضرب في أودية الحدس والتخمين لتقف على أمري، فأردت أن أعفيك من تجشم هذا العناء واعتزمت أن أطلعك بنفسي على حقيقة هذا الشخص الذي تعامله، وإن التأثير الأول الذي يحدثه امرؤ في نفسك لأمر له خطره. أنت تفهمني يا صديقي. ها أنت ذا الآن قد عرفت الشخص الذي تعامله، أنت تحب الفتاة ولهذا آمل أن تستعمل نفوذك- فإن لك نفوذًا عليها- لكي تجنبها بعض المتاعب، وإلا لم يكن أمامها سبيل للنجاة منها. وإني لأقول لك مؤكدًا، مؤكدًا تأكيدًا حازمًا، إن ليس في الأمر مزاح. و- في النهاية- السبب الثالث لصراحتي معك هو... (على أنك لا مرية قد فطنت لذلك من قبل، يا عزيزي) هو: أنني أريد حقًّا أن أبصق على هذه القصة من أولها إلى آخرها، وأن يكون ذلك في حضرتك وبين يديك....».

فقلت وأنا أرتجف من فرط الحنق: «وفي الحق أنك قد فعلت ذلك. ولا مندوحة عن الاعتراف بأنه لم يكن في استطاعتك أن تعبر عن سخيمتك واحتقارك لي ولنا جميعًا بأبلغ من هذه الصراحة، بل إنك لم يداخلك الخجل مني... فكان شأنك شأن ذلك المخبول في معطفه، وقد عاملتني كما لو لم أكن إنسانًا».

فقال وهو ينهض من جلوسه: «لقد حزرتها يا صديقي الصغير، لقد حزرت كل شيء، ولهذا فأنت مؤلف وكاتب، وآمل أن نتعازل على وئام وصفاء. ولكن ألا تحب أن نشرب معًا شرب التعاهد على الإخوة؟».

«أنت مخمور، ولهذا وحده لا أجيبك الآن الجواب الذي تستحقه...».

«ها أنت ذا قد عدت مرة أخرى إلى الروغان وأمسكت عن التفوه ببعض ما يجيش بصدرك، فلم لا تتم حديثك؟ ما هو الجواب الذي أستحقه؟ ها.... ها.... ها! ألا يجوز لي أن أدفع ثمن ما طعمت؟».

«لا تحاول فسأدفع أنا ثمنه».

«آه... هذا لا شك فيه. أظن أننا سننصرف في طريق واحد؟».

«لن أركب معك».

«وداعًا يا صديقي الشاعر، آمل أن تكون قد فهمتني...».

وخرج بخطوات غير متزنة، دون أن يلقي إليّ بنظرة، وساعده غلام المطعم في ركوب المركبة، وعدت أدراجي، وكانت الساعة قد دانت الثالثة صباحًا، وكانت ليلة معتمة مطيرة.

القسم الرابع

الفصل الأول

لست أريد أن أصف مدى ما استولى عليَّ من حنق وموجدة. ومع أني كنت قد أعددت نفسي لكل شيء، فإن هذه الضربة كانت ساحقة ماحقة، كأن تكشفه لي بكل بشاعته لم يكن متوقعًا مطلقًا. أما ما عدا ذلك فقد أصبحت مشاعري- على ما أذكر- مضطربة مرتبكة غامضة، فشعرت بأني مهزوم مكلوم، وأخذ يجثم على صدري هم مبرح يزداد باطراد شدة وإرهاقًا: ذلك هو الخوف على ناتاشا، فقد دأب شعور غامض يوحي إليَّ أن آلامًا ممضة تنتظرها، فشرعت في غير وعي أبحث عن سبيل لتجنب ذلك، ولتلطيف ما بقي من سويعاتها الأخيرة قبل انفصام علاقتها بأليوشا انفصامًا حاسمًا، ولم يكن ثمة من شك في أن هذا الانفصام واقع لا محالة. وأخذت اللحظة تقترب وتقترب، ولم يكن من العسير أن يحدس المرء ما ستكون عليه الخاتمة.

لم ألحظ أني قطعت الطريق كلها مع أن المطر كان قد بلل ثيابي وتسرب إلى إهابي. وكانت الساعة قد بلغت الثالثة من الصباح، وما كدت أطرق باب مسكني حتى طرق سمعي تنهد وانفتح الباب سريعًا،

مما يشير إلى أن «نلي» لم تذق طعم النوم، بل باتت على عتبة الباب ترتقب عودتي. وكانت الشمعة لا تزال تضيء، وما إن نظرت وجهها حتى اعتراني الفزع: إذ كانت قد حال حالها تمامًا، كانت عيناها تتقدان كما لو كانت محمومة، ونظرت إليَّ بعنف وشراسة كأنها لا تعرفني، لقد كانت تحت وطأة الحمى.

فسألتها وقد حنوت عليها واحتويتها بين ذراعي: «نلي، ماذا بك؟ أأنت مريضة؟».

فألصقت نفسها بي وهي ترتعد كما لو كانت تخشى شيئًا، وأخذت تذكر لي أمرًا بسرعة وفي لهجة متقطعة، كأنها إنما كانت تنتظرني ليتسنى لها أن تبلغني ذلك سريعًا، بيد أن ألفاظها كانت غريبة لا ترابط بينها، فلم أفقه منها شيئًا. لقد كانت تهذي.

وبادرت فأرقدتها في فراشها، غير أنها لم ترد أن تتركني وجعلت تلتصق بي وهي ترتعد ارتعاد من يخامره الرعب، فراحت تنشد فيّ الحماية من شخص ما، بل لقد ظلت وهي راقدة في الفراش ممسكة بيدي لا ترسلها، كأنما كانت تخشى أن أخرج مرة أخرى، وكنت مهتاجًا مهزوز الأعصاب، فلما رأيتها وهي بين يدي في هذه الحال إذا بي أنخرط في البكاء، فقد كنت أنا نفسي في غاية من التعس. فلما بصرت بدموعي حدقت إليَّ هنيهة بانتباه تشنجي متوتر، وكأنها تكد في لم شتيت أفكارها وتحاول أن تفهمني. وقد كانت في العادة لا تستطيع لم أفكارها عقب نوبة عصبية ثقيلة الوطأة إلا بجهد وبعد لأيٍّ، ولا تستطيع التكلم إلا بمشقة. وكذلك كان شأنها الآن، فقد بذلت مجهودًا شاقًّا لتقول لي شيئًا،

فلما لاحظت أني لا أفهمها مدت يدها الصغيرة، فمسحت دموعي ثم طوقت عنقي بذراعها وجذبتني إليها وقبلتني.

لقد كان من الواضح أنها قد غشيتها نوبة صرع في غيابي، في لحظة كانت فيها واقفة بالباب، فلما انقضت النوبة ظلت على الراجح فترة طويلة لا تستطيع أن تملك نفسها، ولا بد أن تكون هواجس الحمى وتخيلاتها قد لابست الحقيقة في ذهنها خلال هذه الفترة، فتراءى لها من ذلك شيء مروع أوقع في نفسها هذا الرعب. ولا بد أن تكون قد أدركت في الوقت نفسه إدراكًا غامضًا أنني على وشك العودة إلى المنزل، وأنني سأقرع الباب، فأمست راقدة وراءه متوترة الأعصاب تنتظر عودتي، حتى إذا ما قرعت الباب أول قرعة وثبت تفتحه.

وسألت نفسي: «ولكن ماذا كانت تفعل عند الباب؟» ولاحظت بغتة- وشد ما أدهشني ذلك- أنها ترتدي معطف الفرو الصغير الذي ابتعته لها حديثًا من بائعة عجوز للثياب أعرفها، كانت تأتي أحيانًا إلى مسكني لتبيعني بعض الحاجات مع استطاعتي إرجاء توفية الثمن إلى أي أجل شئت. وهذا يدل على أن نلي كانت قد اعتزمت الخروج، ولعلها كانت قد أمسكت فعلًا بمزلاج الباب حين دهمتها النوبة. فأين عساها كانت تريد أن تذهب؟ أم تراها همت بالخروج بعد أن سيطرت عليها هواجس الحمى؟.

ولكن الحمى لم ترد أن تزايلها، فلم يكن إلا قليل حتى فقدت وعيها ثانية وأخذت تهذي وتضرب في أودية الخيال. وقد أصابتها مثل هذه النوبة مرتين منذ آويتها إليّ، وكانت في كلتا المرتين تنتهي بختام حسن،

أما في هذه المرة فقد لاحت لي شديدة الخطورة حقًّا. وبعد أن جلست بجوارها قرابة نصف الساعة، صففت بجوار الأريكة بضعة مقاعد متلاصقة، ثم تمددت عليها دون أن أنضو عني ملابسي؛ لكي أستطيع أن أخف إليها حين تناديني، وتركت الشمعة مشتعلة، واضطررت إلى أن أتطلع إليها بضع مرات قبل أن أستطيع النوم، فكان خداها شاحبين وشفتاها جافتين من الحمى، وكذلك كانتا داميتين بعض الشيء، وذلك في الأغلب من أثر اصطدامها بالأرض حين سقطت عليها. وكان وجهها لا يزال يبدو عليه الرعب، بل كان يبين على قسماته هم مضن يلوح أنه لم يزايلها حتى في النوم. واعتزمت أن أدعو الدكتور في الصباح مبكرًا قدر الإمكان، إذا ساءت حالها. وقد عراني الخوف أن تنتهي بحمى مخية فاتكة.

وقلت لنفسي متسائلًا، وأنا أرتجف: لا بد أن يكون الأمير هو الذي أحدث فيها هذا الرعب. وتفكرت على غير إرادة مني في حكاية تلك المرأة التي قذفت بالمال في وجهه.

* * *

الفصل الثاني

ومر أسبوعان، ودخلت نلي في طور النقاهة، وقد ثبت أنها لم تكن مصابة بالحمى المخية، ولكن مرضها كان مع ذلك جديًّا. وغادرت فراشها ذات يوم مشرق صاف من أواخر أيام أبريل، في أسبوع الآلام.

يا لها من مخلوقة صغيرة مسكينة!

لست بمستطيع أن أستمر في سرد قصتي بمثل ما كان من تتابع واتصال بين الحوادث، فقد انقضى وقت طويل قبل هذه اللحظة التي أسجل فيها كل ما حدث، ولكني ما زلت إلى اليوم لا أستطيع أن أذكر بغير ألم مبرح مشوب بالمرارة ذلك الوجه الهزيل الشاحب، وتلك النظرات العميقة المتسائلة التي كانت تنبعث من مقلتيها القاتمتين حين نكون وحيدين، إذ تنظر إليَّ من مضجعها وتطيل تحديقها فيّ كما لو كانت تتحداني أن أحدس ما يجري في دخيلة نفسها، حتى إذا لم تر مني حدسًا ورأت أنها لا تزال في عيني، كما كانت في الماضي، كثيرة الألغاز، ابتسمت في رقة وهدوء كأنما تبتسم لنفسها، ثم إذا هي تبسط إليَّ يدها الحارة ذات الأصابع النحيلة الهزيلة، لقد انقضى الآن كل ذلك

وأصبح كل شيء مكشوفًا مفهومًا، إلا لغز ذلك القلب الصغير المريض المعذب المهان. فإني لا أزال أراه مغلقًا مفعمًا بالأسرار.

أحس إني أبتعد عن موضوعي قصتي، بيد أني لا أستطيع هذه الأيام أن أفكر إلا في نلي، فما أغرب الحال الذي أنا فيه الآن، بينا أنا راقد هنا وحدي على فراش المرض مهجور من جميع أولئك الذين محضتهم ذات يوم أحر حبي، إذ بحادثة تافهة من حوادث الماضي- أغلب ظني أني لم أكن قد أعرتها التفاتًا بل سرعان ما نسيتها- تطفو فجأة في ذاكرتي وتصبح ذات شأن آخر يختلف كل الاختلاف عن شأنها الأول، وتفسر لي دفعة واحدة ما لم أستطع فهمه إذ ذاك.

فقد شغلنا عليها، أنا والدكتور، في الأيام الأربعة الأول من مرضها، وأوليناها عناية عظيمة، وفي اليوم الخامس انتحى بي الدكتور ناحية وأخبرني أنه ليس هناك الآن ما يخشى، وأنها بدأت تنقه، وقد كان هذا الطبيب هو الذي أعرفه منذ زمن مديد، ذلك الهرم الطيب القلب الغريب الطباع الذي دعوته حين مرضت نلي أول مرة، والذي أثر فيها بوسام ستانسلاوس المدلى على صدره تأثيرًا فائقًا.

فقلت مسرورًا: «وإذن فلنا ألا نخشى شيئًا!».

«نعم، فستبرأ الآن، ولكنها مع ذلك لا بد أنها ستموت بعد قليل!».

فصحت وقد أحسست أن كلامه ينقض عليَّ انقضاض الضربة الساحقة: «ماذا تقول؟ ستموت؟ ولِمَ؟».

«أجل، فلا ريب أنها ستموت في القريب العاجل، فإنها تشكو نقصًا

عضويًا في قلبها. وإن أقل تأثير سيئ يصيبها، لا بد أن يلقي بها ثانية إلى فراش الموت، وقد تبرأ ذات يوم وتتحسن حالتها، ولكنها لا بد أن تموت بهذا الداء في آخر الأمر».

«أليس من سبيل إلى إنقاذها؟ هذا محال!».

«ولكنه الواقع، ومهما يكن من شيء، فإن المرء إذا تحامى كل الأحوال والملابسات المرغوب عنها وتسنى له أن يهيئ لها حياة هادئة ساكنة كثيرة المرح، فقد يتيسر له أن يقصي الموت عن المريضة. وإنا لنشاهد في بعض الأحيان حالات غريبة غير متوقعة وغير طبيعية... وموجز القول، إنه إذا تضافرت بعض العوامل الحسنة، فقد يكون من الممكن صون حياة المريضة مدة طويلة، أما البرء التام الكامل فمحال».

«رباه، ولكن ماذا عسى أن أفعل الآن؟».

«أن تتبع مشورتي، أن تدعها تحيا حياة وادعة وتستفّ السفوف بانتظام. لقد لاحظت أن الصغيرة متغيرة الأهواء بعض الشيء، متقلبة الطباع مولعة بالضحك، وهي تكره أن تتناول السفوف بنظام في مواعيده، بل لقد أبت أن تتناوله مطلقًا».

«أجل يا دكتور، إنها في الواقع فتاة شاذة، ولكني أعزو شذوذها كله إلى حالتها المرضية، فقد كانت أمس مطيعة مذعنة، أما اليوم فإنها حين أردت أن أناولها السفوف دفعت الملعقة، كما لو كانت قد اصطدمت بها مصادفة فانتثر ما بها، فلما أردت أن أعطيها منه بدل ما انتثر، خطفت صندوق السفوف من يدي وبعثرت ما فيه على الأرض وانفجرت

باكية...» ثم أضفت بعد أن فكرت هنيهة: «على أني لا أظن أن ذلك كان بسبب اضطرارها إلى تناول السفوف».

«إن أعصابها المرهقة وبؤسها السابق» (وكنت قد قصصت على الدكتور سيرتها بإسهاب، مما أثر فيه تأثيرًا بالغًا) «ذلك هو علة مرضها، ولن ينجع معها إلا شيء واحد، هو تناول السفوف، ولا محيص من أن تفعل. سأذهب إليها الآن محاولًا مرة أخرى أن أؤثر فيها وأن أفهمها أنه يجب عليها أن تتبع المشورة الطبية بوجه عام، وبخاصة ما يتصل بالسفوف».

وذهبنا إليها معًا من المطبخ الذي كنا نتحادث فيه، ودنا الدكتور مرة أخرى من فراش المريضة، ويبدو أنها كانت قد سمعت كل شيء، أو هي على الأقل كانت طول الوقت رافعة رأسها من فوق الوسادة تسترق السمع، وذلك ما لمحته من جانب الباب، إذا كان مفتوحًا بعض الشيء. على أننا حين دنونا منها أسرعت الماكرة فاندست ثانية تحت الغطاء، وهي ترنو إلينا في ابتسامة ساخرة، وكانت المسكينة قد هزلت كثيرًا في أيام المرض الأربعة وغارت مقلتاها في تجويفين عميقين، ولم تكن حرارة الحمى قد زايلتها، وبذلك صار ما في وجهها من تعبير ماكر، وما لعينيها من نظرات براقة متحدية أكثر لفتًا للنظر، مما جعل دكتوري الهرم الطيب القلب، الذي هو خير ألماني بطرسبورج- يقع في أشد أنواع الدهشة والحدة. وانبرى يتكلم وقد اتخذ لنفسه ملامح رزينة جادة، ولكنه كان يجتهد أن يجعل لصوته رنينًا يشف عن دماثة وصداقة وود- وراح يبين لها عظم شأن هذا السفوف ومدى ما له من تأثير شاف،

ويذكر لها أنه لذلك يجب على كل مريض أن يتناوله في انتظام، فرفعت رأسها وإذا هي تصدم الملعقة بغتة بحركة من ذراعها تبدو كأنها وليدة المصادفة، فانتثر على الأرض كل ما كان بها من السفوف، وما شككت في أنها تعمدت هذه الحركة.

فقال الهرم في هدوء: «هذه قلة انتباه بالغة في القبح، وأظن أنك فعلت ذلك متعمدة، وهذا عمل غير خليق بالحمد... بيد أنه في الوسع إصلاح الأمر بأن نعد مقدارًا آخر من السفوف».

فضحكت نلي في وجهه مباشرة، فهز الدكتور رأسه مفكرًا، وقال وهو يعد لها مقدارًا آخر من السفوف: «إن هذا غير جميل، في الحق أنه معيب جدًّا».

فقالت وقد حاولت عبثًا أن تقطع ضحكها: «لا تغضب مني فسأتناوله حتمًا في هذه المرة... أتحبني؟».

«إذا سلكت مسلكًا ظريفًا أحببتك حبًّا جمًّا».

«حبًّا جمًّا؟».

«أجل، حبًّا جمًّا».

«أما الآن فأنت لا تحبني؟».

«بلى، فإني أحبك الآن أيضًا».

«فهل تمنحني قبلة إذا رغبت في تقبيلك؟».

«أجل، إذا كنت جديرة بها».

وهنا لم تستطع أن تملك نفسها فانطلقت تضحك من جديد.

فأسر إليَّ الدكتور قائلًا بملامح جادة رزينة: «يبدو أن المريضة ذات طبيعة مرحة، على أن هذا في الوقت الراهن ليس إلا من تأثير أعصابها ومزاجها».

وصاحت نلي بصوتها الضعيف: «حسن سأتناول الآن السفوف، على أني عندما أكبر وأكبر، هل تتزوج مني؟».

والظاهر أن هذا المزاج الجديد قد راقها، فلمعت عيناها واختلجت شفتاها من الضحك مقدمًا في انتظار ما سيجيب به الدكتور الذي لم تكن دهشته بالقليلة.

فأجاب: «حسن» وضحك، مضطرًا، من هذا الهوى الجديد «حسن، عندما تصبحين فتاة طيبة حسنة التربية مؤدبة طيعة و...».

فقاطعته قائلة: «تتناولين السفوف؟».

«وأن تتناوليه أيضًا بالطبع، ويحك» وأسرّ إليَّ مرة أخرى: «يا لها من طفلة طيبة. إن فيها لحظًّا كبيرًا، حظًّا كبيرًا... من الطيبة ووفور العقل ولكن.... أن تتزوج... يا لها من فكرة عجيبة!...».

وأراد مرة أخرى أن يناولها السفوف، بيد أنها في هذه المرة لم تعمد إلى الحيلة بل ضربت الملعقة، بكل بساطة، من أسفل إلى أعلى، فانتثر كل ما فيها من صفوف على صدر قميصه وعلى وجهه، ثم انفجرت مقهقهة، غير أنه لم يكن ذلك الضحك البريء المرح الذي عهدناه منها قبل ذلك، فإنه قد ارتسمت على وجهها سيما الصلابة والقسوة. وكانت

تتحامى طول الوقت نظراتي وتتجه بنظرها صوب الدكتور، بملامح ساخرة يبدو فيها شيء من الجزع، لترى ما سيفعله «الهرم المضحك».

فقال الهرم وقد مشّ بالمنديل وجهه وصدر قميصه: «أوه! لقد فعلتها ثانية! يا له من جد عاثر!... على أنه... من المستطاع إعداد سفوف آخر».

فأثر ذلك في نلي تأثيرًا كبيرًا إذ كانت تنتظر منا أن نسخط ونحنق، وأن نفرغ عليها جام لومنا وتقريعنا. وربما كانت- في غير وعي- قد تمنت تلك اللحظة لتجد مسوغًا للبكاء والنحيب والانخراط في عويل هيستيري، ولتنثر قدرًا آخر من السفوف على نحو ما فعلت منذ هنيهة، بل لتكسر أيضًا بعض الأشياء وهي في فورة الحنق، حتى تخفف بذلك كله بعض الشيء عن قلبها الصغير الهوائيّ الموجوع. وهذا المزاج المتقلب لم تخص به نلي وحدها، بل إنه يكون كذلك في أناس آخرين، حتى ممن يتمتعون بالعافية وسلامة البدن، ولطالما كنت أنا أذهب وأجيء في حجرتي تغمرني رغبة غير جلية في أن يهيننني إنسان، أو يقول كلمة أستطيع تفسيرها على أنها إهانة لي كي أستطيع التنفيس عن صدري. وعندما يرغب النساء أن يخففن عن أنفسهن يلجأن إلى البكاء حقًّا فيذرفن دموعًا سخينة، بل إن من كن منهن مفرطات في الحساسية يندفعن في إعوال هيستيري، وهذه مشاهدة من أيسر مشاهدات العالم وأكثرها تكرارًا ومسايرة للطبيعة، وهي أوضح ما يلحظها المرء في نفسه عندما يجثم على قلبه هم آخر لا يعلمه غيره، ويود أن يفضي به وأن ينفضه عن قلبه، ولكنه لا يجسر على ذلك.

فأما وقد تأثرت نلي بالشفقة الملائكية التي أبداها الطبيب الهرم،

والحلم الذي أعد به جرعة السفوف للمرة الثالثة دون أن يوجه إليها أية كلمة لوم، فقد سكنت دفعة واحدة سكوتًا تامًّا وزايل شفتيها الابتسام التهكمي، ولمعت عيناها واخضلتا بالدموع، واختلست نظرة خاطفة إليَّ، وأتى الدكتور لها بالسفوف فتناولته في وداعة واستحياء، وأمسكت يد الرجل الهرم الحمراء المكتنزة اللحم وشخصت إليه ببصرها في بطء.

«أنت غاضب عليَّ لأني بغيضة رذلة». أرادت أن تقول ذلك ولكنها لم تستطع أن تتم جملتها فتغطت بالغطاء مخفية رأسها الصغير وانفجرت تعول في تشنج.

«لا! لا تبكي لا طفلتي المحبوبة... فليس ذلك بالأمر البغيض... وإنما سببه أعصابك. هاك جرعة من الماء».

ولكنها لم تكن تنصت إليه.

فتابع الكلام وهو يكاد يشركها في إعوالها إذ كان مرهف الحس «سري عنك... ولا تهتاجي، إنني أغفر لك كل شيء، وسأتزوجك أيضًا عندما تبرهنين على أنك فتاة حسنة التربية و...».

«تتناولين السفوف!» انبعث صوتها بذلك من تحت الغطاء مختلطًا بالبكاء مصحوبًا بتلك الضحكة العصبية الرقيقة التي ترن رنين الناقوس، والتي أعرفها فيها جيدًا.

فقال الدكتور وقد أحس بالظفر: «يا لك من طفلة طيبة عاقلة! يا لك من فتاة مسكينة!» وكادت الدموع تطفر من عينيه.

ومن ذلك الوقت توثقت بينه وبين نلي عرى صداقة عجيبة مدهشة،

وعلى نقيض ذلك أصبحت معي فظة عصبية سريعة الاهتياج، ولم أدر كيف أفسر ذلك. ومما زاد من دهشتي أن هذا التبدل كان مفاجئًا، إذ كانت في الأيام الأولى من مرضها رقيقة ودودًا نحوي، وكان يبدو أنها لا تستطيع أن تشبع من النظر إليّ، فلم تكن لتدعني أنأى عنها وتظل ممسكة يدي بيدها الصغيرة المتقدة بنار الحمى فكنت أضطر أن أبقى جالسًا بجوارها، وكانت حينما تحس أني مكتئب، تعمل على أن تبهجني وتشرح قلبي فتمزح وتمرح وتضحك باذلة جهدًا ملحوظًا في التغلب على ما يخامرها من آلام، وكانت لا ترغب في أن أشتغل في الليل أو أن أقوم الليل للعناية بها ويعروها الضيق حين تراني لا أجيبها إلى ذلك. وكنت ألحظ في وجهها بعض الأحيان همًّا وقلقًا فتأخذ تسألني وتبحث عن علة كآبتي وحزني وعما يشغل بالي، ولكن كان من العجيب أنه إذا تطرق بنا الحديث إلى «ناتاشا» صمتت هي لحظة ثم شرعت تتحدث في موضوع آخر، فكان يبدو أنها تتحامى الحديث عن ناتاشا، ولطالما لفت ذلك نظري. وكان الفرح يتولها حين أعود من الخارج، فإذا أمسكت القبعة تأهبًا للخروج غشيها الكمد وشيعتني بنظرة غريبة، كما لو كانت توبخني بها.

وفي اليوم الرابع من مرضها، قضيت الأمسية كلها عند «ناتاشا»، بل مكثت عندها حتى منتصف الليل، فقد كانت لدينا أمور كثيرة تحتاج إلى التمحيص، وكنت عندما خرجت من المنزل قلت لمريضتي إنني سأعود قريبًا، وذلك ما كنت أعتزمه، فلما اضطررت إلى البقاء عند ناتاشا خلافًا لما أتوقع، كنت مطمئنًا على نلي، فإنها لم تكن وحدها بل كانت معها

ألكسندرا سيميونوفنا، فقد علمت هذه من مسلوبويف- وكان قد زارني لحظة قصيرة- أن نلي مريضة وأنني أكابد من أجلها عناء كبيرًا دون أن يعينني معين. آه يا ألله! ما أكثر ما اشتد القلق بألكسندرا سيميونوفنا الشفيقة القلب!

«وإذن فإنه، وهذه هي المرة الثانية، لن يأتي يوم الجمعة ليتغدّى معنا. آه. فليتولنا الله برحمته، ويعيش وحده المسكين، وحيدًا فريدًا، حسن، الآن نستطيع أن نريه مدى ما نكن له من ود وإخلاص. وإنها لفرصة يخلق بالمرء أن ينتهزها وألا يدعها تمر دون أن يصنع شيئًا».

وسرعان ما كانت في مسكني، وقد جلبت معها في المركبة حزمًا كثيرة، وأبانت لي منذ وصولها أنها لن تنصرف قريبًا، وأنها إنما قدمت لمساعفتي، وفكت حزمها، فأي شيء لم يكن فيها؟ كان فيها شراب وفواكه محفوظة للمريضة وفراريج ودجاجة لتأكلها حين تنقه، وتفاح للطبخ والتحمير وبرتقال وفواكه مسكرة من كييف (تتناولها إذا لم يحظر الدكتور عليها ذلك) ثم ملابس وملاءات للفراش وفوط وقمصان نسوية وأربطة ولفائف تكفي مستشفى بأكمله.

وأنشأت تقول في عجلة: «إن لدينا كل شيء وأنت تعيش عيشة العزَّاب فينقصك الكثير من هذه الأشياء، وعلى ذلك يجب أن تسمح لي... وقد دبر فيليب فليبوفتش الأمر على هذا النحو. ولكن هلم الآن... أسرع أسرع! حسن، بم يجب أن نبدأ الآن؟ وكيف حالها؟ أهي في وعيها؟ وما أسوأ رقدتها، يجب توطئة الوسادة حتى يتطامن الرأس قليلًا عما هو عليه. ألا تدري؟ أليست وسائد الأديم خيرًا؟ إنها على الأقل

تشعر بشيء من البرودة. آه ما أغباني حين لم يدر بخلدي أن أحمل معي واحدة منها. سأذهب حالًا إلى المنزل لأحضر واحدة... على أنه يجب قبل ذلك أن أوقد النار. سأبعث إليك العجوز، فإني أعرف إحدى العجائز إذ يبدو أنه ليس عندك خادمة... ولكن بماذا أبدأ؟ ماذا هناك؟ أعشاب طبيَّة... وصفها الدكتور للمريضة؟ إذن فيجب أن نغلي منها شاي الصدر؟ سأوقد النار في التو».

فهدّأت من روعها. وقد دهشت، بل لعلها شعرت بالخيبة أن رأت أشياء عدة خليقة أن تعمل، بيد أنها لم تيأس كثيرًا. وسرعان ما عقدت أواصر الصداقة مع نلي، وبلت لي خلال مرضها معاونة كبيرة، فكانت تأتي كل يوم في الغالب وتأتي مسرعة شأن من أغفل شيئًا أو نسي شيئًا فهو يبادر إليه. ولم تنس أن تقول في كل مرة إن فيليب فليبوفتش هو الذي دبر ذلك... وقد مال إليها قلب نلي كثيرًا، وأحبت كلتاهما صاحبتها حب الأخت لأختها، وأعتقد أن ألكسندرا سيميونفنا كانت تماثل في بعض نواحيها نلي تمامًا من حيث شيوع روح الطفولة فيها. وكانت تقص عليها شتى القصص وتودع قلبها المرح والسلوان حتى أصبحت تضجر ويتولاها السأم حين تنصرف ألكسندرا سيميونفنا إلى منزلها. أما في بادئ الأمر فقد أثار ظهورها أول مرة دهشة مريضتي، ولكنها ما لبثت أن فطنت إلى سبب قدوم هذه الضيفة غير المدعوة، فرجعت إلى عادتها تعبس وتصمت ولا تبدي شيئًا من الظرف والودّ.

فلما انصرفت ألكسندرا سيميونفنا، سألت نلي في استياء: «ما يبعثها على القدوم إلينا؟».

«كي تساعدك وتعتني بك يا نلي!».

«ولِمَ؟ لأي سبب؟ لم يسبق لي أن قدمت إليها شيئًا من هذا القبيل فترده إليّ».

«إن ذوي الخير والطيبة، يا نلي، لا يبالون حين يساعدون، أقدم إليهم من يساعدونه جميلًا أم لم يقدم، بل هم يبذلون مساعدتهم مسرورين مغتبطين حين تكون لازمة. ومما لا ريب فيه يا نلي أن في العالم كثيرين من ذوي الطيبة، وإنما كان من شقاوة جدك أنك لم تلقينهم حين كنت في حاجة ماسة إليهم».

فسكتت نلي وانصرفت عنها إلى عملي، غير أنها هتفت بي بعد ربع ساعة بصوت خافت أن أناولها جرعة ماء، ثم إذا بها قد طوقت عنقي بغتة بذراعيها وألقت بنفسها بقوة على صدري، وظلت فترة طويلة لا تدعني أفارقها، فلما جاءت ألكسندرا سيميونفنا في الصباح استقبلتها نلي في بشاشة وابتسام، غير أنها كانت تبدو خجلة بعض الشيء.

* * *

الفصل الثالث

قضيت أمسيّة ذلك اليوم كلها عند ناتاشا، ولما عدت إلى منزلي كان الليل قد آذن بالانصرام، وكانت نلي نائمة، وكانت ألكسندرا سيميونفنا يكاد النعاس يغلبها، بيد أنها ما فتئت جالسة بجوار المريضة ترتقب قدومي، فبادرت تقص عليّ هامسة أن نلي كانت في بادئ الأمر منشرحة الصدر جد الانشراح وأنها ضحكت كثيرًا ثم عراها الاكتئاب بعد ذلك، وأنها لما رأت أني لم أعد لزمت الصمت وبدا عليها سيما التفكير: «ثم أخذت تشكو الصداع وطفقت تبكي وتنتحب وتعول في مرارة حتى صرت لا أدري ماذا يجب أن أصنع!». وتابعت ألكسندرا سيميونفنا حديثها قائلة: «وأرادت أن تتحدث معي عن ناتاليا نيكولايفنا، ولكني لم أستطع أن أذكر لها أي خبر عنها، فأمسكت عن السؤال وطفقت تبكي وتبكي حتى نامت في دموعها. والآن وداعًا يا إيفان بتروفتش، لقد خفف ذلك عن قلبها على كل حال. أما أنا فلا أجد مناصًا من العودة إلى منزلي، فقد أمرني بذلك فيليب فليبوفتش، ولا بد من الاعتراف أنه لم يأذن لي هذه المرة إلا في ساعتين اثنتين، ولكني مكثت إلى هذا الوقت

من تلقاء نفسي، على أنه لا خطر لهذا، ولا يخامرك القلق فلن يجسر على الغضب... إلا إن كان... آه يا رب، ماذا أصنع يا عزيزي إيفان بتروفتش... إنه يعود هذه الأيام إلى المنزل مخمورًا دائمًا! إنه مشغول الآن جد الشغل بأمر ما، حتى إنه لا يكاد يتكلم معي. فهو منزعج وفي رأسه مشاغل مهمة. إنني أتبين ذلك كله. غير أنه يأتي كل مساء إلى المنزل ثملًا... وأنا الآن أفكر في أمره: من عساه يتولى حمله إلى فراشه إن كان قد آب إلى المنزل؟ حسن، ها أنا ذي ذاهبة، أنا ذاهبة، وداعًا! وداعًا يا إيفان بتروفتش، لقد شاهدت مكتبتك فما أكثر ما تقتني من الكتب، لا ريب أنها ممتازة عظيمة القيمة، أما أنا فما أشد غباوتي فإني لم أقرأ قط شيئًا... إذن فإلى غد!».

واستيقظت نلي في الصباح مضطربة المزاج متجهمة الوجه، لا تجاوبني إلا كارهة، ولا تبدأني بالحديث، بل لا توجه إليّ كلمة واحدة كما لو كانت مغضبة مني. على أنه قد أتيح لي أن ألمح بين وقت وآخر نظرات كانت تختلسها نحوي بمؤخر عينها، بيد أنه كان يكمن في هذه النظرات ألم نفسي خفي مضن، وكنت ألمح فيها رقة وحنانًا لم يكونا يبدوان لي حين تنظر إليَّ مواجهة. لقد كان كل هذا في ذلك اليوم الذي شاهدت فيه موقفها المذكور آنفًا مع الدكتور، فلم أستطع أن أعرف ماذا يجب أن أستنبط من كل ذلك.

بيد أن نلي تغيرت بإزائي تغيرًا تامًّا، فقد ظل شذوذها، وتقلب مزاجها، وكذلك بغضها لي أحيانًا، ظل كل ذلك يزداد حتى اليوم الذي فارقتني فيه، حتى تلك الكارثة التي كان فيها ختام قصتنا كلها. ولكن

لندع ذلك إلى ما بعد.

على أنه كان يحدث أن تبدي لي من آن لآخر تلك الرقة ساعة كاملة، بل لقد كان يبدو حبها في تلك اللحظات مضاعفًا، ولكنها كانت عندئذ كثيرًا ما تنتحب انتحابًا مرًّا، إلا أن تلك الساعات كانت تمضي سراعًا، فإذا هي قد غرقت مرة أخرى في تعاستها القديمة وتعقبتني بنظراتها العدائية، أو أطلقت العنان لانفعالاتها كما حدث لها مع الدكتور، أو انفجرت تقهقه عاليًا حين تلحظ أن حركة من حركاتها المشاكسة قد ساءتني، بيد أن ذلك كان ينتهي في الغالب بالدموع.

بل لقد تشاجرت مرة مع ألكسندرا سيميونفنا، وأعلنت إليها أنها أصبحت لا تريد منها شيئًا، فلما لمتها على ذلك بحضرة ألكسندرا سيميونفنا تملكها الحنق، وأجابتني بما يشف عن غيظ مكظوم يكاد ينفجر، ثم خرست فجأة وصامت[1] عن محادثتي يومين كاملين وأرادت أن تمتنع من تناول السفوف، بل من الأكل والشرب أيضًا، وما من أحد استطاع أن يثنيها عن ذلك وأن يجعلها تخجل من تصرفها غير الدكتور، وبعد لأيٍّ.

قلت فيما سبق: إنه قد توثقت بينها وبين الدكتور عرى علاقة ودية عجيبة منذ ذلك اليوم الذي رغبت فيه عن تناول الدواء، فقد مال إليه قلبها وأصبحت تستقبله في بشاشة وابتسام، مهما يكن بها قبيل مجيئه من اكتئاب، أما هو فكان من ناحيته قد عود نفسه المجيء إلينا

(١) صام الرجل: أمسك عن الطعام والشراب والكلام والسير، وأصله في الإمساك والسكون عن الفعل.

كل يوم، بل مرتين في اليوم في بعض الأحيان، ومضى على ذلك حتى عندما أبلت نلي من مرضها وانتقلت إلى طور النقه، ويلوح أنها قد فتنته وخلبت لبه حتى لم يستطع أن يحيا يومًا واحدًا دون أن يسمع ضحكها ومزاحها الذي كان في غالب الأحيان مبهجًا مسليًّا حقًّا، وقد أحضر لها بعض الكتب المصورة، وأكثرها ذو صبغة تعليمية، بل إن أحد هذه الكتب لم يكن عنده من قبل، وإنما اشتراه لها، ثم أخذ يحضر لها بعض الحلواء والمسكرات مما يباع في صناديق فاخرة. وكان يفد في مثل تلك المناسبات وعلى وجهه سيما البهجة والانشراح، حتى لكأنه عيد ميلاده، فكانت نلي تحدس في التو أنه يحمل إليها هدية. على أنه كان لا يعجل بإظهار تلك الهدية، بل كان يبتسم في خبث ويجلس إليها ويقول معرضًا إنه إذا كانت هناك فتاة صغيرة تسلك مسلكًا حسنًا وتستوجب ثناء الناس عليها في غيبتها أيضًا، فإنها تكون ولا ريب جديرة بمكافأة ثمينة، وينظر إليها طوال الحديث بسذاجة وطيبة حتى إنها وإن كانت لا تحاول أن تخفي ضحكها منه في تلك اللحظات، كانت تنظر إليه بعينين تشعان بما ينمّ عن ميل قلبي قوي. ثم ينهض أخيرًا من مقعده، فيخرج من حقيبته صندوق الحلواء ويناوله إياها، وهو يقول في كل مرة: «إلى زوجتي المستقبلة المحبوبة»، ويكون هو نفسه في تلك اللحظات أشد سعادة حتى من نلي نفسها.

ثم يبدأ بينهما الحديث، فكان في كل مرة يستحثها بالإقناع والإلحاح أن تعني بصحتها ويزوّدها بنصائح طبية مهمة.

وقد قال لها هذه المرة بلهجة تعليمية: «أول واجبات المرء عنايته

بصحته وذلك أولًا وقبل كل شيء لكي يحتفظ بحياته، وثانيًا لكي يظل دائمًا سليم البنية فيستمتع بسعادة الحياة، فإذا كانت لديك هموم وأحزان يا طفلتي المحبوبة فألقيها وراء ظهرك أو- وذلك أفضل- اعملي على ألا تفكري فيها أبدًا، وإذا لم تكن لديك هموم، فذلك أحرى ألا تفكري فيها، بل اجتهدي ألا تفكري إلا في أمور سارة... وفي أشياء مبهجة مسلية».

فقالت نلي: «وماذا عسى أن تكون تلك الأشياء المبهجة المسلية التي يجب أن أفكر فيها؟».

فبهت الدكتور واعترته الحيرة، ثم قال:

«حسن... في ألعاب بريئة تلائم سنك، أو... ما هو بسبيل من ذلك...».

فقالت نلي: «لا أريد اللعب ولا أحب أن ألعب، وإنما أحب الثياب الجديدة مثلًا».

«الثياب الجديدة! أوه! ليس ذلك حسنًا، فعلى المرء أن يقنع دائمًا بحالته التي هو فيها. ومع ذلك... لا بأس... إذ ليس ثمة ما يمنع المرء أن يولع بالثياب الجديدة».

«وهل تحضر لي كثيرًا من الثياب الجديدة عندما أتزوج منك؟».

فقال الدكتور ولم يتمالك أن عبس وقطب جبينه: «يا لها من فكرة!».

فابتسمت نلي بخبث ونسيت نفسها لحظة حدجتني فيها بنظرة باسمة، وتابع الدكتور كلامه قائلًا: «ومهما يكن من شيء... فسأوصي

لك بثوب جديد إذا استحققته بسلوكك».

«وهل يجب عليَّ أن أتناول السفوف كل يوم حينما أصبح زوجتك؟».

فقال الدكتور: «على رسلك، لعلك لا تكوني إذ ذاك في حاجة إلى تجرع دواء ما» وأخذ يبتسم.

وقاطعته نلي بضحكها، فضحك هو أيضًا وشاركها في ابتهاجها من صميم قلبه.

وقال ملاحظًا وقد التفت إليّ: «يا لها من ماكرة مرحة كثيرة الدعابة، على أنها لا تزال تبدي بعض دلائل حدة المزاج وسرعة الانفعال».

وقد كان مصيبًا، فإني لم أستطع أن أعرف ماذا يجري في أعماق نفسها... إذ كانت تلوح كأنها لا تريد مكالمتي مطلقًا، كما لو كنت قد أجرمت إزاءها في أمر من الأمور، وكان ذلك يمضني كثيرًا، فأخذت أنا نفسي أعبس، وأضربت عن الحديث معها يومًا كاملًا، ولكني شعرت بالخجل في صباح اليوم التالي، وتألمت من جرّاء ذلك.

وقد كانت تكثر من النحيب، فكنت لا أجد السبيل إلى تسليتها والترويح عنها، بيد أنها كسرت صمتها في مناسبة من المناسبات.

فإني عُدت إلى المنزل ذات يوم عند الأصيل فلمحتها تبادر إلى إخفاء كتاب تحت وسادتها، ولم يكن ذلك الكتاب إلا قصتي، وقد تناولته من فوق المنضدة تقرأ فيها في أثناء غيابي. وسألت نفسي: ولِمَ تخفيه شأن من يخجل من أمر فعله؟ بيد أني تظاهرت بأني لم ألحظ

شيئًا، ثم غادرتها بعد ربع ساعة إلى المطبخ، فوثبت من الفراش وأعادت القصة إلى موضعها القديم، فلما رجعت وجدتها في مكانها على المنضدة، وبعد دقيقة نادتني إليها، وكان صوتها يرتعش من التأثر. وكان لها إذ ذاك أربعة أيام لم تبادلني خلالها الحديث.

وسألتني بصوت مختنق: «أذاهب أنت... اليوم... إلى ناتاشا؟».

«أجل يا نلي، فمن الضروري أن أراها اليوم».

فصمتت..

وعادت تسأل بصوت واهٍ: «وهل... تحبها... كثيرًا؟».

«أجل يا نلي، إني أحبها كثيرًا».

فقالت وقد غضت من صوتها: «وأنا أيضًا أحبها».

وتلا ذلك أيضًا صمت طويل.

ثم قالت وهي تنظر إليّ في حياء وخجل: «إني أرغب في الذهاب إليها والإقامة عندها».

فأجبت وقد تملكتني الدهشة: «ليس ذلك بميسور يا نلي، أو ليست حالتك هنا على ما يرام؟».

فقالت وقد احمر وجهها: «ولم لا يكون ميسورًا؟ لقد كنت تعمل على إقناعي بأن أذهب لأقيم مع والدها، ولكني لا أحب أن أذهب إليه. أعندها خادمة؟».

«أجل».

«إذن فلتصرف هي خادمتها وأنا أتولى خدمتها، وسأقوم لها بكل ما تريد دون أجر، وسأحبها وأطهي لها الطعام، فأبلغها ذلك اليوم».

«ولكن لِمَ ذلك؟ ما هذه الأوهام التي تحكيها مخيلتك يا نلي؟ وماذا تتصورين عنها؟ أتفرضين حقًّا أنها ستجعلك طاهية لها؟ لئن أخذتك حقًّا فإنها لن تأخذك إلا على أنك نظيرتها وأخت صغيرة لها».

«كلا، لا أريد أن أكون نظيرتها. لا أريد أن يكون الأمر على هذا النحو...».

«ولِمَ لا؟».

فصمتت وارتعدت شفتاها وأوشكت أن تبكي.

ثم سألت: «أليس الشخص الذي تحبه سيرحل عنها ويدعها وحيدة فريدة؟!».

فدهشت.

«ومن أين علمت ذلك يا نلي؟!».

«لقد حدثتني أنت نفسك عن ذلك، وأول من أمس عندما قدم زوج ألكسندرا سيميونفنا في الصباح، سألته عن ذلك فأنبأني بكل شيء».

«كيف؟ أكان مسلوبويف هنا ذات مرة في الصباح؟».

فأجابت: «أجل» وغضت من طرفها.

«ولم لم تخبريني أنه كان هنا؟».

«لست أدري!».

فأخذت أفكر لحظة. الله يعلم ماذا يصنع مسلوبويف هنا خفية على الدوام، وما هي العلاقات التي يحاول أن يعقد عراها بينه وبينها؟ إذن فلا مندوحة عن مقابلته.

«حسن، وماذا يعنيك من رحيله عنها وهجره إياها؟».

فأجابت دون أن ترفع من بصرها.

«إنك تحبها حبًّا جمًّا، وبما أنك تحبها فستتزوج منها حينما يرحل الآخر».

«كلا يا نلي، فهي لا تحبني كما أحبها، ولذا... كلا، لن يحدث ذلك يا نلي».

فهمست دون أن ترفع بصرها إليّ: «وسأقوم على خدمتكما كليكما بوصفي خادمة، وستعيشان وتسعدان».

فأخذت أفكر «ما أمرها؟ ما شأنها» وعرتني حيرة وارتباك وصمتت نلي فلم تنبس طول المساء ببنت شفة، فلما خرجت جعلت تبكي وتبكي طول المساء، كما حدثتني ألكسندرا سيميونفنا فيما بعد، ثم غلب عليها النعاس فنامت ولما ترقأ دموعها. بل لقد بكت في الليل أيضًا وهي نائمة، وكانت تتلفظ ببعض الألفاظ خلال نومها.

ومنذ ذلك اليوم أخذت تزداد كآبة وصمتًا، وأضحت لا تكلمني بتاتًا. نعم لقد التقطت بين آن وآخر نظرات كانت توجهها إليّ خلسة، وما كان أكثر ما تنطوي عليه هذه النظرات من الرقة والحنان! غير أنها كانت تنقضي بانقضاء اللحظات التي أنتجت هذه الرقة وهذا الحنان.

وقد غدت نلي- وقد يكون ذلك لمقاومة هذا الضعف- تزداد كل يوم تجهمًا وشراسة، حتى حيال الدكتور الذي لم يكن قليل الدهشة من هذا التغير الذي طرأ عليها. وكانت في خلال ذلك قد أبلت من مرضها تمام الإبلال، وأباح لها الدكتور أخيرًا أن تمشي في الهواء الطليق على أن يكون ذلك لمدد غير طويلة. كان الجو صافيًا دافئًا، وكنا في أسبوع الآلام، وقد طلع علينا هذا العام في وقت متأخر جدًّا، وكنت قد خرجت مبكرًا إذ لم يكن هناك مناص من زيارة ناتاشا، بيد أني كنت معتزمًا أن أعود مبكرًا لأروّض وأتنزه مع نلي حينًا. وفي خلال ذلك تركتها وحيدة في المنزل.

ولم أكن أعلم بالضربة التي سأتلقاها عند عودتي! فقد عدت إلى المنزل بأسرع ما استطعت فوجدت المفتاح في قفل الباب من الخارج، فدخلت فلم أجد في الغرفة أحدًا، فعرتني رعدة، ونظرت فيما حواليّ فعثرت على ورقة فوق المنضدة كتب فيها بقلم الرصاص بحروف غير متسقة:

«لقد غادرتك ولن أعود إليك أبدًا، بيد أني أحبك كثيرًا.

المخلصة لك، نلي»

فصرخت من الرعب واندفعت إلى الخارج.

* * *

الفصل الرابع

وما كدت أبلغ الشارع، قبل أن أهتدي إلى ما أبدأ بعمله، حتى رأيت بغتة مركبة أمام منزلنا، وتنزل منها ألكسندرا سيميونفنا وهي تقود نلي من يدها، وكانت ممسكة بها بقوة كأنما كانت تخشى أن تفر منها ثانية، فاندفعت مسرعًا إليها.

وهتفت بها: «نلي، ماذا بك؟ أين كنت؟ ولِمَ ذلك؟».

فقالت ألكسندرا سيميونفنا برقتها المعهودة: «مهلًا، لا تعجل، ولنصعد أولًا إلى ما فوق حيث تعلم كل شيء» وأسرّت إليَّ مسرعة ونحن صاعدون: «وأي أشياء سأقصها عليك يا إيفان بتروفتش. ستدهش... ولكن أقبل... ستعلم في الحال كل شيء».

وكان مكتوبًا على وجهها أن لديها أخبارًا جديدة متناهية في الخطر.

وعندما دخلنا الغرفة قالت: «اذهبي يا نلي، اذهبي ونامي قليلًا! فأنت لا شك متعبة، وليس من المزاح في شيء أن تهرولي مثل ما هرولت عقب مرض عضال كالذي كنت مصابة به. نامي يا حبيبتي نامي وسنخرج نحن كلانا في خلال ذلك حتى لا نزعجك فيتسنى لك النوم».

ورمزت إليّ بلحظها أن اتبعني إلى المطبخ.

ولكن نلي لم تنم بل جلست على الأريكة وسترت وجهها بيديها.

وخرجنا، فقصت عليَّ ألكسندرا سيميونفنا كل ما حدث، أما التفاصيل فقد عرفتها فيما بعد. وهذا ما حدث:

عندما برحت نلي المسكن قبل عودتي إليه بنحو ساعتين، تاركة لي تلك الرقعة، هرعت أول الأمر إلى الدكتور، وكانت قد حصلت على عنوانه من قبل. وقد قص عليّ الدكتور أنه قد ارتج عليه من الدهش حين رأى نلي بغتة بين يديه، وظل طوال الوقت الذي قضته عنده لا يكاد يصدق عينيه. وقال في آخر قصصه: «بل إني لا أزال حتى الآن لا أصدق ذلك ولن أصدقه» ومع ذلك فإن نلي كانت قد ذهبت إليه حقًّا. لقد كان في غرفته جالسًا خالي البال على متكئه، وعليه سربال النوم ولم يكن قد انتهى من احتساء قهوته، وإذا بها قد اندفعت نحوه بغتة وارتمت على عنقه قبل أن يثوب إليه رشده، وبكت وانتحبت وعانقته وقبلته ولثمت يديه، وأخذت تضرع إليه في إلحاف- وإن يكن في كلام مهوش غير مترابط- أن يأخذها ويأويها إليه دائمًا، معلنة أنها لا تستطيع ولا تريد أن تبقى عندي أكثر مما بقيت، وأنها لهذا قد غادرتني وأنها تعسة وأنها لن تعود إلى التداعب عليه، ولن تحدثه عن الثياب الجديدة بل تلتزم حدود الأدب، وتقبل على التعلم وتغسل صدور قمصانه وتكويها (والراجح أنها كانت قد هيأت خطابتها هذه في الطريق وربما كانت قد هيأتها قبل ذلك) وأنها ستكون طيعة مذعانًا تتناول كل يوم من السفوف ما يريدها على تناوله، وأنها إن كان قد قالت مرة: إنها تود الزواج منه، فإن ذلك

لم يكن منها إلا هزلًا، فهي لا تفكر في ذلك مطلقًا. فعقد الرعب لسان الألماني الهرم، وظل طول الوقت جالسًا فاغرًا فاه ذاهلًا عن السيجارة التي كان ممسكًا بها حتى احترقت جميعًا.

وقال أخيرًا حين ثابت إليه قدرته على الكلام: «يا آنسة، يا آنسة، إن كنت قد أحسنت الفهم فأنت تطلبين إليّ مأوى في منزلي، ولكن ذلك محال، وها أنت ذي ترين ضيق بيتي وقلة دخلي... ثم كونك تتصرفين بهذا التهوّر دون تدبر للأمور... هذا مروّع. يضاف إلى ذلك أنك قطعت الطريق من المنزل ماشية على قدميك فيما يبدو! وهذا عمل معيب كان يجب عليك ألا تأتيه... وبخاصة أني لم أسمح لك بالتنزه إلا قليلًا في الأيام الجميلة تحت مراقبة ولي نعمتك. فأما أنت فقد هجرت المحسن إليك وفررت إليّ بكل بساطة، مهرولة في الوقت الذي كان يجب عليك فيه أن تعتصمي بالحذر وتعتني بنفسك و... و... تتناولين السفوف. والواقع... الواقع أني لا أفهم شيئًا من ذلك...».

ولم تدعه نلي يكمل حديثه، بل أخذت تبكي وتنتحب، وطفقت تتضرع إليه من جديد، ولكن على غير طائل. وقد ظل الطبيب الهرم يزداد دهشة وحيرة، وأخذت قدرته على فهم ما بين يديه تزداد ضعفًا، ويئست نلي آخر الأمر فصرخت: «آه يا رب» وخرجت مهرولة من الغرفة، وقال الدكتور في ختام قصصه: «لقد كنت في ذلك اليوم مريضًا طوال النهار واضطررت في الليل أن أتناول سفوفًا».

وانطلقت نلي إلى مسلوبويف، وكانت قد حصلت على عنوانه أيضًا، وأفلحت في الاهتداء إلى منزله وإن كان ذلك قد جشّمها عناء

كبيرًا، وكان هو في المنزل. وقد لطمت ألكسندرا سيميونفنا وجهها من الدهش حين سمعت نلي تسألهما أن يأخذاها إليهما. فلما سألاها عما يبعثها على الرغبة في تركي وهل ثمة ما يضايقها عندي؟ لم تحر جوابًا وارتمت على مقعد من المقاعد تبكي وتنتحب. وقالت لي ألكسندرا سيميونفنا: «لقد كانت تنتحب بحرقة حتى أشفقت عليها من أن تقضي من النحيب». وأخذت نلي تضرع وتتوسل إليهما أن يأخذاها لتكون لهما خادمًا أو طاهية، مبدية أنها ستمسح البلاط وتغسل الثياب (وقد كانت تعلق آمالًا كبارًا على غسل الثياب وترى لسبب ما أن ذلك سيحملهما على قبولها). وكان من رأي ألكسندرا سيميونفنا أن يحتفظا بالفتاة حتى تنجلي لهما حقيقة الأمر فيخبراني بها، ولكن فيليب فيليبوفتش كان يرى غير هذا الرأي، فأمرها أن تمضي بالهاربة إليّ في الحال. وقد طفقت تقبل نلي في الطريق وتعانقها، فكان ذلك باعثًا لنلي أن تزداد استغراقًا في النحيب، فلما رأت ألكسندرا سيميونفنا ذلك سحت دموعها هي أيضًا، وهكذا بقيتا كلتاهما تذرفان عبراتهما طول الطريق.

وسألتها ألكسندرا سيميونفنا وهي تشرق بدموعها: «ولكن لماذا يا نلي، لماذا لا ترغبين في البقاء معه؟ هل نالتك منه إهانة؟».

«كلا، لم تنلني منه إهانة...».

«حسن، فلم إذن؟».

«هكذا الأمر.. لست أريد البقاء عنده... لست أستطيع... إنني دائمًا سيئة معه... على حين أنه هو طيب وحنون... أما أنت فلن أكون سيئة معك، بل سأشتغل» وأخذت تشهق وتنتحب بتشنّج.

«ولماذا أنت سيئة معه يا نلي؟».

«هكذا».

وختمت ألكسندرا قصتها وهي تمسح عبراتها قائلة: «ولم أستطع أن أعرف منها شيئًا خلاف «هكذا» هذه، فيا لها من طفلة بائسة! لعل ذلك وليد صرعها!

وقصدنا إلى نلي فوجدناها قد تمدّدت على الأريكة مخفية وجهها في الوسادة وهي تنتحب، فجثوت بجوارها، وأخذت يديها واندفعت ألثمهما، فنترتهما مني وازداد نحيبها، فلم أدر ما أقول. وبينما نحن كذلك إذ بإشمنيف الهرم يلج الغرفة فقال: «إنني قدمت يا إيفان لأحادثك في بعض الأعمال، فعم صباحًا» وحدجنا بنظره الواحد بعد الآخر وهو دهش أن رآني جاثيًا.

كان الهرم طول الردح الأخير من الوقت مريضًا، وقد جعله المرض شاحبًا هزيلًا، بيد أنه- وكأنما كان يعاند أحدًا ما- لم يمنح مرضه أقل اهتمام ولم يستمع إلى نصائح أنّا أندريفنا، فلم يرقد، بل استمر على ممارسة أعماله اليومية جريًا على مألوفه.

وتطلعت ألكسندرا سيميونفنا في فضول إلى الهرم، وقالت: «وداعًا مؤقتًا، فقد أمرني فيليب فليبوفتش أن أعود بأسرع ما يمكن، إذ إن لدينا أمورًا كثيرة تقتضينا أن نقوم بها، ولكني سأعود إليك هذا المساء عند الغسق لأقضي هنا ساعة».

وهمس الهرم في أذني وهو- فيما يبدو- يفكر في أمر آخر: «من هذه؟».

فأوضحت له الأمر.

«أوه. إنني قدمت إليك في مسألة يا إيفان...».

وقد عرفت ما هي المسألة، بل كنت قد توقعت من قبل أن يزورني. لقد قدم ليحدثني في شأن نلي وليرجوها أن تذهب إليهما، فقد رضيت أنّا أندريفنا أخيرًا أن يأخذا إليهما اليتيمة، وكان ذلك نتيجة حديثي إليها ودأبي على إقناعها، فإني ما زلت بها حتى أقنعتها بأن مرأى هذه اليتيمة التي كانت أمها أيضًا قد حاقت بها لعنة أبيها، قد يغير من رأي الهرم. وقد شرحت لها هذه الخطة في إيضاح بالغ حتى صارت هي نفسها تلحف على زوجها في أن يأوي إليه اليتيمة، ورحب الشيخ بالأمر، أولًا ليرضي أنّا أندريفنا، وثانيًا لحاجة أخرى في نفسه... على أني سأذكر ذلك فيما بعد بتفصيل أوفى...

سبق أن ذكرت أن نلي لم تكن تطيق إشمنيف الهرم، وذلك منذ أول زيارة منه لنا، بل لقد لاحظت أن وجهها كان يضطرم بنوع من البغض كلما سمعت باسم إشمنيف. وقد اتجه الهرم نحو هدفه مباشرة دون أن يسلك إليه طرقًا ملتوية، إذ قصد إلى نلي وكانت لا تزال متمددة مخفية رأسها في الوسادة، فأخذ يدها بين يديه وسألها هل تودّ أن تأتي لتقيم معه وتحل عنده محل ابنته.

وختم حديثه قائلًا: «لقد كانت لي ابنة وكنت أحبها أكثر من كل ما في العالم، ولكنها لم تبق معي، لقد ماتت، أفلا تريدين أن تحلّي محلها في منزلي و... في قلبي؟».

وترقرق الدمع في عينيه الجافتين المضطرمتين بنار الحمى، فأجابته دون أن ترفع رأسها: «كلا، لا أود».

«ولم يا طفلتي؟ ليس لك في العالم أحد، وإيفان لا يستطيع أن يحتفظ بك دائمًا، وستكونين عندي كأنك في منزلك».

فأضافت وقد رفعت رأسها وجلست في فراشها ووجهها تجاه وجه الهرم: «لا أود لأنك شرير، أجل شرير، شرير! وأنا أيضًا شريرة، أكثر شرًّا من الجميع، أما أنت فشر مني».

وامتقع وجهها إذ قالت ذلك والتمعت عيناها، بل إن شفتيها المرتعشتين شحب لونهما أيضًا والتوتا من اضطراب نفسانيّ قوي، فنظر الشيخ إليها متحيرًا.

«أجل، أنت شر مني لأنك لا تريد أن تصفح عن ابنتك، بل تريد أن تنساها كل النسيان وتود أن تحل محلها طفلة أخرى، وهل يسع المرء أن ينسى طفلته؟ وهل في استطاعتك أن تحبني؟ ستظل كلما وقعت عليّ عيناك تذكر أني غريبة عنك، وأن لك ابنة من صلبك قد عملت على أن تنساها لأنك ظالم! ولست أريد أن أعيش عند رجل ظالم، لا أريد، لا أريد!...».

وانفجرت تبكي، ثم استرقت نظرة إليّ وقالت: «بعد غد عيد بعث المسيح، فيه يتعانق الناس جميعًا ويقبّل بعضهم بعضًا ويصفح بعضهم عن بعض، فتغتفر جميع الذنوب والخطايا... إني أعرف ذلك... إلا أنت... أنت وحدك... ويل لك أيها القاسي! إليك عني!».

وغرقت في دموعها، والظاهر أنها كانت قد أعدّت هذه الخطبة منذ زمن طويل وحفظتها عن ظهر قلب لتكون على احتياط لإشمنيف لو أنه طلب إليها مرة أخرى أن تنتقل إلى منزله. ويبس الهرم وعراه الشحوب وارتسم على وجهه ألم عميق.

وصاحت نلي كالمجنون: «ولم تعنون جميعًا بأمري؟ لست أريد ذلك! إني أوثر أن أتكفّف في الطرقات!».

فصحت على الرغم مني: «نلي، ماذا بك؟ نلي حبيبتي!» غير أني كنت بذلك قد صببت الزيت على النار.

فصاحت وهي شرقة بدمعها: «أجل إني لأوثر التكفف في الطرقات على أن أبقى هنا بعد الآن. لقد كانت أمي أيضًا تتكفف في الطرقات، وقد قالت لي عند موتها: ابقي فقيرة، ولخير لك أن تتسولي في الطريق من أن... فليس التسول عارًا، وقالت لي فتاة متسولة ولا تسألي امرأ واحدًا بل سلي الناس جميعًا، وليس الجميع كالواحد، فسؤال امرئ واحد عار، أما سؤال الجميع فليس بعارٍ. وما زلت صغيرة عن الكسب، وإذن فسأسأل الناس جميعًا. لا أريد. إنني شر الناس. ها أنتم أولاء ترون ما أنا عليه من الشر».

وأخذت فجأة من فوق المنضدة قدحًا من أقداح الشاي وقذفت به الأرض، وقالت وقد نظرت إليّ نظرة الظافر المتحدي: «ها هو ذا قد كسر. لم يكن عندك غير قدحين، وسأحطم الآخر أيضًا... فكيف تحتسي شايك بعد؟».

وكانت قد زايلها الرشد، غير أنه كان يبدو لي أن هذا الهياج يشعرها بمتعة حقيقية قوية. ومع أنها كانت تدرك أن ذلك قبيح موجب للخزي، فقد كانت تلهب نفسها لتأتي بحوادث عنف أخرى.

فقال الشيخ: «إنها لمريضة يا فانيا، هذا هو شأنها، أو... أو إني بكل بساطة لا أفهم أية طفلة هذه. وداعًا!».

وتناول قبعته وصافحني، وكان منسحق القلب، إذ جرحت نلي شعوره بشكل فظيع، وكان كل شيء مهوشًا في رأسي.

فصحت بها حين صرنا منفردين: «ألا تشفقين عليه يا نلي؟ أو لا تخجلين؟ ألا تخجلين؟ كلا، فما أنت بالفتاة الطيبة بل أنت سيئة حقًّا».

وعدوت خلف الشيخ على الحالة التي كنت عليها، حاسر الرأس، فقد أردت أن أقوم على الأقل بتشييعه إلى باب المنزل الخارجي وبالترفيه عنه ببضع كلمات. وقد ألقيت عندما أخرجت إلى السلم، نظرة على نلي، وكان تعنيفي لها قد جعل وجهها يشحب شحوبًا مروّعًا.

وأدركت الشيخ في التوّ.

فقال وقد ابتسم ابتسامة تفيض مرارة وأسى: «إن الفتاة المسكينة لفي غاية التعاسة، وإن لها لهمًّا مبرحًا يقضّ مضجعها، فصدقني يا إيفان، ثم جئت أنا أضاعف ألمها بالتحدث إليها عن همومي الخاصة. لقد نكأت جرحها. يقولون: إن الشبعان لا يستطيع أن يفهم الجياع، ولكني أحب أن أقول: بل إن الجوعان نفسه لا يفهم دائمًا الجياع. والآن وداعًا يا فانيا!».

وكنت أود أن أتحدث إليه في أمر آخر، ولكنه أسكتني بإشارة من

يده. وأضاف وعلى فمه ابتسامة مرة: «أعرف أنك تريد أن تهوّن الأمر عليّ، فخير لك أن ترقبها لئلا تفرّ منك، إذ يلوح أنها موشكة أن تفعل» وابتعد بخطى سريعة وهو يهز عصاه ويقرع بها طوار الشارع.

ولم يكن يعلم ما في نبوءته من الصدق.

فكيف كانت مشاعري حين عدت إلى مسكني فإذا بي- ويا شدّ ما فزعت- أجد نلي قد غادرته مرة أخرى! اندفعت نحو الدهليز ثانية وبحثت عنها على السلم وناديت وطرقت باب جاري سائلًا عنها، ولم أستطع، كما أني لم أشأ أن أصدق أنها قد فرت ثانية. وكيف تستطيع أن تفر وليس للمنزل إلا باب واحد، فهي مضطرة أن تمر بي حين كنت أتحدث إلى الهرم، بيد أنه سرعان ما وضح لي- ويا لفرط غمي- أنها لا بد أن تكون قد اختبأت في أحد منعرجات السلم، وانتظرت حتى مررت بها في عودتي فتسللت دون أن ألقاها، وإذا كان ذلك كذلك فإنها لا يمكن أن تكون قد ذهبت بعيدًا.

فعدوت للبحث عنها وأنا مفعم بالقلق، بيد أني تركت مسكني مفتوحًا لاحتمال أن تؤوب. وبدأت بالذهاب إلى مسلوبويف فلم أجده بالمنزل لا هو ولا ألكسندرا سيميونفنا. وبعد أن تركت رقعة أعلمهما فيها بالنازلة الجديدة وأرجوهما أن يعلماني في الحال إن عادت نلي إليهما، قصدت إلى دكتورنا الهرم، فإذا هو أيضًا ليس بالمنزل، وأكدت لي خادمته أن نلي لم تعد منذ زيارتها الأولى، فماذا أعمل إذن؟ عدوت إلى بوبنوفا أيضًا فعلمت من امرأة صانع التوابيت التي لي بها معرفة، أن صاحبة المنزل محجوزة منذ أمس في بيت الشرطة لأمر ما، وأنها لم تر

نلي ثانية منذ ذلك العهد، فعدت إلى مسلوبويف متعبًا معذبًا فوجدت الجواب نفسه: لم يجئ أحد إلى المنزل. وهما نفساهما أيضًا لم يكونا قد عادا إليه، وكانت رقعتي لا تزال على المنضدة كما تركتها، فماذا فعلت؟

عدت إلى منزلي في ساعة متأخرة من الليل وقد ساورني غم متناه، وقلق بالغ، والواقع أنه كان عليّ أن أكون هذا المساء عند ناتاشا، فقد أرسلت إليّ في الصباح ترجوني الحضور، ولكني لم أكن قد طعمت شيئًا طوال النهار؛ فإن تفكيري في نلي صرف عن بالي كل ما عداه، وسألت نفسي بِمَ أعلل ذلك.. أيكون ذلك حقًّا نتيجة عجيبة لمرضها؟ أم لعلها تكون مجنونة أو موشكة على الجنون؟ أي رب، أين عسى أن تكون الآن؟ وأين أبحث عنها؟

وما كاد ذلك يدور بخلدي حتى بصرت بنلي بغتة على قنطرة «ف»، على خطوات مني، وكانت واقفة إلى جانب مصباح الشارع ولم تبصر بي، وهممت أن أندفع نحوها، بيد أني لبثت في مكاني أسأل نفسي وأنا في غاية العجيب: وماذا عساها تفعل هنا؟ وصح رأيي، وأنا شديد الاقتناع أني لا يمكن أن أفقدها الآن ثانية، عليَّ أن أنتظر وألاحظ. ومرت نحو عشر دقائق، وهي ما فتئت واقفة ترصد المارة. وأقبل في النهاية رجل مسن حسن البزة فتقدمت نلي منه، فأخرج من جيبه شيئًا وناوله إياها دون أن يقف عن السير، فانحنت له شاكرة. ولست أستطيع أن أصف مشاعري في تلك اللحظة، فقد تقلص قلبي من فرط الألم والعذاب، وكأنما شيء عزيز أحببته ودللته وتعهدته بالرعاية قد أهين ولطخ أمام

باصرتي بالوحل والدرن، فترقرقت الدموع في عينيّ.

أجل، إنها دموع على نلي المسكينة، وإن كنت شعرت في الوقت نفسه بحنق شديد عليها، فهي لم تتكفف عن حاجة، ولم تكن قد طردت أو هجرت أو أسلم أمرها إلى القضاء والقدر، بل هي التي فرت، لا من ظالم باغ بل من صديقها الذي أحبها وتعهدها برعايته. وقد بدا لي أنها تريد، بمثل هذه الأعمال الشاذة أن توقعني في ذهول أو رعب. وكأنما هي فخورة بذلك، ولكن شيئًا مفعمًا بالأسرار كان ينضج في قلبها.. أجل، إن إشمنيف الهرم كان على حق. فقد كانت برمة متألمة مما اكتنفها في ماضي حياتها من سوء المعاملة، لم يندمل جرحها، وكانت تجتهد عمدًا بتصرفاتها التي تحيط بها الأسرار، وبقلة ثقتها بنا جميعًا أن تجعل هذا الجرح يمأر كأنها تجد في هذا الوجع، في أنانية الألم هذه، إن صح هذا التعبير، ترضية خاصة لها. إن هذه اللذة الشديدة التي يشعر بها المرء وهو يحك بقوة جرحًا قديمًا أستطيع أنا أن أفهمها، فالمستذلون المهانون الذين أخنى عليهم الدهر وأذاقهم جوره وإجحافه يبحثون جميعًا في مثل هذه اللذة عن ترضية لهم. ويبدو مع ذلك أنها كانت كأنما تريد بأفعالها وانفعالاتها ونوباتها الوحشية أن تثير فينا الدهشة وتبعث فينا الرعب، كما لو كانت تريد أن تفخر أمامنا بذلك... ولكن لا! فقد كانت الآن وحدها على القنطرة حيث لا يتسنى لأحد منا أن يراها وهي تتكفف، فهل يمكن أن تجد فيما بينها وبين نفسها ترضية لها؟ لِمَ تتسول؟ وما عساها تريد أن تصنع بالمال؟

فلما تناولت هذه الصدقة، تركت القنطرة إلى نافذة حانوت ينبعث

منها الضوء ، فظلت واقفة تعد مغانمها، وكنت على عشر خطوات منها، وكانت بيدها نقود كثيرة، فهي لا شك قد بدأت التسول مبكرة، وأطبقت يدها على النقود بقوة ثم عبرت الشارع وولجت حانوتًا للسلع الصغيرة، فتسللت حتى باب الحانوت وكان مفتوحًا على مصراعيه؛ لأرى ماذا تفعل داخله.

فرأيتها وضعت النقود على منضدة الحانوت فأعطوها في مقابلها قدحًا من أقداح الشاي، قدحًا من النوع المألوف، شبيهًا بذلك الذي كانت قد حطمته، لتريني أنا وإشمنيف الهرم أية فتاة شرسة تستطيع أن تكون. قد يبلغ ثمن هذا القدح خمسة عشرة كوبيكا، بل يغلب أن يقل ثمنه عن ذلك. ولفه البائع بالورق وربطه بخيط ثم ناوله إياها، فبرحت الحانوت في خطى حثيثة ووجهها يطفح بِشرًا وسرورًا.

فصحت بها حين أضحت في مواجهتي قائلًا: «نلي!».

فارتجفت وحملقت إليّ وسقط القدح من يدها، فوقع على بلاط الشارع فتهشم فشحب لونها، ولكنها حين شاهدتني وأدركت أني عرفت وأبصرت كل شيء، احمرت فدل احمرارها على ما خامرها من شعور بالخجل مبرّح لا يطاق، وأمسكت بيدها وقدتها إلى المنزل ولم يكن منا ببعيد، ولم ننبس في أثناء الطريق ببنت شفة، فلما صرنا في مسكننا جلست ووقفت هي قبالتي تتأمل في ارتباك، وكانت شاحبة اللون ناكسة رأسها لا تستطيع أن تنظر إليّ.

«لقد تكففت يا نلي؟».

فأجابت: «أجل» ونكست رأسها أكثر مما كان قبل.

«لقد أردت أن تجمعي نقودًا لتشتري بها قدحًا بدل القدح المكسور؟».

«أجل...».

«فهل وبختك من أجل ذلك القدح؟ هل وجهت إليك لومًا بسببه؟ أما ترين يا نلي مدى ما في عملك هذا من قبح؟ أيليق ذلك بك؟ أما تخجلين؟ لا ريب أنك....».

فهمست بصوت لا يكاد يسمع: «أخجل؟» وانحدرت دمعة على خدها.

فقلت مرددًا: «تخجلين- حبيبتي، إن كنت قد أسأت إليك أية إساءة فاغفريها لي.. ودعينا نصطلح ونعود سيرتنا الأولى».

فنظرت إليّ وانهمرت الدموع من عينيها وارتمت على صدري.

وقدمت ألكسندرا سيميونفنا في تلك اللحظة.

«ماذا؟ هل رجعت إلى المنزل؟ ثانية؟ آه يا نلي، ما هذه الأحداث التي تحدثين؟ حسن على كل حال أنها رجعت، أين وجدتها يا إيفان بتروفتش؟».

فأشرت إليها بطرف عيني أن كفي عن مثل هذه الأسئلة، ففهمت. وودعت نلي في رفق، وكانت لا تزال تبكي بحرقة، ورجوت ألكسندرا سيميونفنا الشفيقة أن تظل معها حتى أعود، ثم أسرعت إلى ناتاشا في عجل إذ كنت قد تأخرت كثيرًا.

سيبتّ هذه الليلة في مصيرنا. وكانت لديّ أمور كثيرة أرغب أن أتحدث فيها إلى ناتاشا، ولكني مع ذلك بدأت بالتحدث إليها عن نلي، فقصصت عليها كل ما كان من الفتاة مفصلًا، وقد لقيت قصتها من ناتاشا اهتمامًا وعجبًا عظيمين.

فقالت بعد أن فكرت في الأمر لحظة: «أتدري يا فانيا؟ أعتقد أنها تحبك!».

فسألتها في دهش: «ماذا؟... وكيف ذلك؟».

«نعم، فهذا أول حب لها، أول حب أنثوي لها...».

«على رسلك يا ناتاشا! إنها لا تزال طفلة!».

«طفلة توشك أن تتم الرابعة عشر من عمرها. وإنما يرجع شعورها بالمرارة إلى أنك لم تفهم حبها، وقد تكون هي نفسها لم تفهم بعد في وضوح. نعم إن في هذا الشعور بالمرارة أشياء طفلية كثيرة، ومع ذلك فهو شعور جدي مبرح. والمهم أنها تغار مني، فأنت تحبني حبًّا يجعلك في مسكنك وفي غير مسكنك لا تفكر إلا فيّ ولا تتحدث إلا عني، ولا تبدي اهتمامًا إلا بشأني، وذلك يصرفك عن أن تعني بها العناية الكافية. وقد أحست ذلك فأحست أن شعورها قد جرح، وربما كانت تتوق كثيرًا أن تتحدث إليك، وربما كانت تحس الحاجة إلى أن تنفض أمامك ما في قلبها، بيد أنها لا تعرف كيف تفعل ذلك، فهي حيية ولا تكاد تفهم نفسها، وهي تترقب فرصة لمكاشفتك بما في قلبها، أما أنت فبدلًا من أن تتيح لها هذه الفرصة، قد جعلت تزور عنها وتفرّ منها

إليّ، بل إنك تركتها وهي مريضة يومًا كاملًا وحدها دون أن يكون معها أنيس. وإنها لمن جراء ذلك تبكي، إذ هي تحس أنها في حاجة إليك. وأشد ما يؤلم أنك لا تحس من ذلك كله شيئًا. وها أنت ذا الآن قد تركتها- من أجلي- وحيدة مريضة في مثل هذه اللحظة، وستراها غدًا مريضة لهذا السبب، فكيف وسعك أن تدعها وحدها؟ ألا فعجل إذن بالعودة إليها».

«أصبت، فما كان ينبغي لي أن أدعها، ولكن...».

«أعرف، لقد رجوتك بنفسي أن تحضر، فأما الآن فاذهب إليها!».

«هأنذا ذاهب، غير أني بالبديهة لا أصدق كلمة واحدة من كل ذلك!».

«لأن حالها تخالف حال غيرها كل المخالفة، فاذكر قصتها وتأمل في دقائقها، تجد أن الحق في جانبي. لقد عاشت طفولة تخالف تلك التي عشناها نحن...».

ومع كل هذا فقد بلغت المنزل متأخرًا، فأنبأتني ألكسندرا سيميونفنا أن نلي عادت هذا المساء فانتحبت كثيرًا، كما فعلت في تلك الأمسية، وأنها نامت هذه المرة مترقرقة الدمع.

«على أنه يجب الآن يا إيفان بتروفتش أن أنصرف، فقد أمرني فيليب فليبوفتش بذلك، وهو ينتظرني، هذا المسكين».

فحمدت لها صنيعها وجلست على فراش نلي، وأحسست أنا نفسي بغم إذ تركتها في مثل تلك اللحظة. وبقيت حتى هزيع أخير من الليل

جالسًا هذه الجلسة أفكر في أمرها... لقد كان الوقت وقت البت في مصيرنا جميعًا.

على أني لا أجد مناصًا من أن أقص ما كان يحدث في أثناء هذين الأسبوعين الأخيرين.

* * *

الفصل الخامس

بعد ذلك المساء الجدير بالذكر، الذي قضيته مع الأمير في مطعم «ب» عشت عدة أيام متتابعة في قلق على ناتاشا، وما فتئت أسائل نفسي ثم أسائلها: وبم كان يتهددها هذا الأمير اللعين؟ وبأية طريقة يعتزم أن ينتقم لنفسه منها؟ وجعلت أفرض كل الفروض، وانتهيت آخر الأمر إلى أن تهديداته لم تكن مجرد دخان ورنين بل إنه قادر حقًّا، ما دامت هي تعايش أليوشا، على أن يعد لها أعظم المتاعب، وقد أصبحت الآن أعرف مدى ما ينطوي عليه من حقارة وحب للانتقام وخبث وعناية بحسبان المقدمات والنتائج، وإنه لمن العسير عليه أن ينسى مثل هذه الإهانة، ولهذا فسينتهز أول فرصة تسنح له ليثأر لنفسه. وعلى أية حال فقد نبهني بوجه خاص إلى موضع واحد في المسألة كلها، وأوضح لي فيما يتعلق بهذا الموضع إيضاحًا تامًّا أنه مصر كل الإصرار على فصم ما بين أليوشا وناتاشا من علاقة، وأنه ينتظر مني أن أعدها لهذا الفصم القريب، وأن أعدها له إعدادًا يجعله بمنأى من المشاهد المسرحية المحزنة المفعمة بالعواطف الشيلرية، وليس ثمة من ريب في أن أكثر

ما كان يرغب فيه ويعني به أن يظل هو وأليوشا في وئام وسلام، أن يظل ابنه، كعهده به، يعده الوالد الحنون. لقد كان ذلك أمرًا لا غنى له كيما يستطيع أن يتصرف في ثروة كاتيا فيما بعد وفق هواه. وعلى ذلك يكون عليّ الآن أن أعد ناتاشا للانفصال القريب، بيد أني لاحظت أن ناتاشا قد تغيرت بإزائي تغيرًا عظيمًا، إذ لم يبق ثمة أثر لما كانت تعاملني به من صراحة، بل لقد أصبحت سيئة الظن قليلة الثقة بي، وأصبحت محاولتي تسليتها وتأسيتها لا تبعث فيها غير الضجر، كما غدت أسئلتي تضايقها بل تحنقها. وصرت كثيرًا ما أجلس إليها صامتًا، على حين تظل هي تقطع الغرفة من ركن إلى ركن مشبكة الذراعين شاحبة اللون حزينة النفس، وكأنما قد نسيت كل شيء حولها ونسيت أيضًا أني بجوارها.

وكانت إذا وقع نظرها عليّ اتفاقًا (على أنها كانت تجهد أن تتجنب نظراتي) بدت على وجهها فجأة علائم السخط والضجر وإذا هي تسرع فتشيح بوجهها عني. وجال في خلدي أنها ربما كانت هي نفسها قد أعدت بنفسها خطة خاصة للانفصام القريب، وقد سبب لها ذلك، ولا شك، ألمًا وشعورًا بالمرارة لا حدّ له. لقد كنت مقتنعًا تمام الاقتناع أنها قد وطدت العزم على الانفصام، ومع هذا كان يأسها وإتمامها يبعثان فيَّ الألم والخوف. يضاف إلى ذلك أني صرت لا أجرؤ على التحدث إليها وتسليتها، فلبثت في خوف مزعج أنتظر لأرى كيف تجري هذه الأمور.

أما عن مسلكها الجافي معي فإنه كان يقلقني ويمضني حقًّا، ولكني كنت راسخ الإيمان بما تكنه لي في قلبها من الود. لقد كنت أدرك ما

تجتازه من حالة عسيرة وقنوط مرهق. لقد كان كل تدخل أجنبي يبعث فيها غيظًا وحنقًا، وإن المرء ليشعر وبخاصة في مثل هذه الحالات أن تدخّل أعز أصدقائه العالمين بجميع أسراره، إنما هو إزعاج يثير فيه الحنق. ولكني كنت أعلم يقينًا أن ناتاشا لا بد أن تأتي إليّ في اللحظة الأخيرة تلتمس في قلبي ما يسري عنها.

وقد كتمتها حديثي مع الأمير، بطبيعة الحال، إذ ليس من شأن إخبارها به إلا أن يزيد من اكتئابها وتوتّر أعصابها، وإنما ذكرت لها عرضًا أني كنت مع الأمير عند الكونتة، وأني قد اقتنعت بأنه فَشِل وضيع، على أنها لم تسألني عنه مطلقًا، وذلك ما سرني كثيرًا، بل كانت تستمع في انتباه إلى كل ما أنبئها به عن مناقشتي لكاتيا، بيد أنها لم تقل أية كلمة عن كاتيا، وإن كان وجهها الشاحب وقد اكتسى حمرة قانية، وظلت سحابة نهارها في اضطراب غير هذا، كما أني لم أخف على ناتاشا شيئًا من أمر كاتيا، بل قلت لها في صراحة إنها أحدثت فيّ أنا أيضًا أثرًا عميقًا، ولم عساني أخفي ذلك عليها؟ فلو لم أفعل ذلك لأدركت فيما بعد أني كتمتها شيئًا، فلا ينالني من جرّاء ذلك إلا غضبها، ولهذا ذكرت لها كل شيء مفصلًا بقدر ما استطعت، بل اجتهدت أن أتعرف أسئلتها مقدمًا، إذ كان من العسير عليها، وهي في تلك الحالة، أن تسأل عن شيء، فليس من اليسير أن تستنبئ المرأة عن كمال منافستها وهي تظهر مظهر من لا تبالي.

وقد كنت إخالها لم تعلم بعد أن أليوشا سيصحب الكونتة وكاتيا إلى الريف، استجابة لأمر الأمير وإصراره، فأخذت أترفق جهدي

لإبلاغها ذلك حتى لا تجيء هذه الضربة ساحقة لها، ولكن ما أشد ما تولاني الدهش حين قاطعتني عند أول كلمة وهي تقول: إنها ليست في حاجة إلى تعزيتها وتهوين الأمر عليها، فهي على علم به منذ أيام خمسة.

فصحت:

«ويحك! ومن ذا الذي أنبأك بذلك؟».

«أليوشا».

«كيف؟ أهو الذي قال لك ذلك؟».

فقالت: «أجل، وقد اتخذت قراري في كل شيء» وكانت ملامحها تنبئ بأن صبرها قد نفد وأنها راغبة في أن أمسك عن متابعة هذا الحديث.

كان أليوشا يكثر من الاختلاف إلى ناتاشا، غير أنه لم يكن يمكث عندها إلا لحظات قصيرة. ولكن حدث ذات مرة أن مكث عندها بضع ساعات، وذلك في وقت لم أكن أنا فيه هناك. وكان المألوف أن يأتي حزينًا أسفًا وينظر إليها في رفق وخوف، أما هي فكانت تتلقاه بحرارة ومحبة ينسيانه في التوّ كل شيء فيغمره السرور. ثم طفق دفعة واحدة يكثر من الاختلاف إليّ أنا أيضًا، كل يوم في الأغلب. والواقع أنه كان في عذاب مقيم. وكان لما به من هم ناصب لا يستطيع أن يبقى وحده لحظة واحدة، فكان يقصد إليّ دائمًا باحثًا عندي عن سلوى.

ماذا أستطيع أن أقوله له؟ إنه يشكو فتوري وقلة مبالاتي وسوء شعوري نحوه، ويعبس ويبكي، ثم يذهب آخر الأمر إلى كاتيا حيث يظفر عندها بالعزاء المنشود.

كان في اليوم الذي أعربت لي فيه ناتاشا عن علمها بأمر سفره (وقد حدث ذلك بعد حديثي مع الأمير بنحو ثمانية أيام) قد هرول إليّ يائسًا فعانقني وارتمى على صدري وأخذ يشهق وينتحب كما ينتحب الطفل، فلبثت صامتًا أنتظر ما يقول.

ثم ابتدأ يقول: «إنني امرؤ حقير تعس يا فانيا، فأنقذني من نفسي! وليس بكائي لأني حقير تعس، بل لأن ناتاشا سيحل بها البؤس بسببي، فإني سأتركها للبؤس والشقاء....

فانيا يا صديقي، خبرني واقض لي في الأمر، أيهما أحب إليّ من الأخرى: كاتيا أم ناتاشا؟».

فأجبت: «هذا ما لست أستطيع أن أقضي فيه، وهذا ما يجب أن يكون علمك به خيرًا مني...».

«كلا يا فانيا، فالأمر على النقيض من ذلك. ولست من الغباء بحيث أسأل سؤالًا كهذا عبثًا، فجلية الأمر أني أنا نفسي لست أدري أيتهما أحب إليّ، ولطالما سألت نفسي هذا السؤال فلم أستطع أن أجد له جوابًا. أما أنت فتستطيع أن تتبين المسألة في وضوح لأنك تنظر إليها من خارجها، فقد يكون في مقدورك أن ترى خيرًا مما أرى... وحتى إذا لم تكن تعرف ذلك تمام المعرفة، فقل لي كيف يبدو لك الأمر».

«أعتقد أن كاتيا أحب إليك».

«أتعتقد ذلك؟ كلا كلا على الإطلاق! لقد أخطأت الصواب. إني أحب ناتاشا إلى غير حد ولا أستطيع التخلي عنها ولو بكل ما في

العالم، وقد قلت ذلك أيضًا لكاتيا، وهي توافقني عليه. وأنت، ما لك لا تقول شيئًا؟ ولكني لمحتك وأنت تبتسم الآن. آه يا فانيا، إنك لا تدخل على قلبي السلوة حين أكون متناهيًا في التعاسة كما هو شأني الآن... فوداعًا!».

وخرج من الغرفة وقد ترك في نلي المدهوشة أثرًا غير مألوف. وكانت تسمع حديثنا صامتة. لقد كانت إذ ذاك لا تزال مريضة في فراشها تتناول السفوف. ولم يتبادل أليوشا معها كلمة واحدة في زيارة من زياراته ولم يمنحها أية حفاوة.

وعاد بعد ساعتين، فعجبت لطلعته المشرقة، وارتمى عليّ ثانية يعانقني.

وصاح: «الآن قد استقر الرأي على كل شيء، وانتفى كل شك، وسأذهب من هنا في التو إلى ناتاشا لا ألوي على شيء. لقد كنت في غاية الضجر وأشعر أني لا أستطيع العيش بدونها، فلما ذهبت إليها جثوت بين يديها وجعلت أقبل قدميها. لقد كنت مقسورًا على أن أفعل ذلك، إذ كانت تدفعني إليه رغبة ملحّة، ولو أني لم أفعل ذلك لمتّ كمدًا. وقد عانقتني صامتة وطفقت تبكي، وإذ ذاك صارحتها بأن كاتيا أحبّ إليّ منها...».

«وماذا قالت هي؟».

«لم تقل شيئًا، بل أخذت تدللني وتؤسيني، أنا الذي قلت لها منذ لحظة ما قلت. إنها تعرف يا إيفان بتروفتش كيف تفرّج الهم! أواه، لقد بكيت بين يديها كل همي وغمي واعترفت لها بكل شيء. قلت لها في صراحة: إني أحب كاتيا حبًّا جمًّا، وإني مع ذلك لا أستطيع العيش من

دونها هي، من دون ناتاشا، إذ لا محيص لي من دونها عن الوقوع في أوخم العواقب، وليس في وسع أية فتاة أخرى أن تغني غناءها مهما كانت هذه الفتاة ومهما بلغ حبي لها. أجل يا فانيا، إني لن أستطيع الحياة يومًا واحدًا بدونها، إني أحس ذلك، ولهذا أجمعنا الرأي على أن نرتبط معًا في الحال برباط الزواج. ولما كان ذلك قد غدا مستحيل التنفيذ قبل رحلتي لأننا الآن في الصوم الكبير وليس في الإمكان أن يعقد قران قبل انقضائه، فقد أرجأناه إلى ما بعد عودتي، أي إلى أول يونية. ولن يعترض والدي على ذلك مطلقًا، هذا ما لا شك فيه. أما كاتيا فلن أستطيع لها شيئًا، إذ إني لن أستطيع العيش بدون ناتاشا. وإذن فسأتزوج منها ثم نرحل معًا إلى كاتيا...».

يا لناتاشا المسكينة! ما أفدح ما لا بد أن تكون قد جشّمتها تأسيتها لهذا الغلام وحنوّها عليه وسماعها لاعترافاته، واختراعها خرافة الزواج الوشيك لتهدئته، لتهدئة هذا الأثر الطفلي. ومهما يكن من شيء فقد سكن جأش أليوشا بضعة أيام. والواقع أنه إنما كان يلجأ إلى ناتاشا، لأن قلبه اللين لم يكن قادرًا على أن يحتمل وحده عبء هم من الهموم. بيد أنه عندما أخذت ساعة البين تأزف شيئًا فشيئًا، استولى عليه ثانية ذلك القلق القديم وطفق يذرف الدمع ثم رجع إليّ مهرولًا ليخلص من همه بالنحيب. وكان إلى جانب ذلك قد أصبح في الزمن الأخير شديد الصلة بناتاشا حتى كان لا يكاد يستطيع مفارقتها يومًا واحدًا بله شهر ونصف شهر. وفيما عدا ذلك كان حتى اللحظة مقتنعًا أرسخ اقتناع أنه لن يفارقها غير شهر ونصف شهر، وأنها ستزف إليه عقب عودته دون تريث. أما عن

ناتاشا، فقد أدركت من ناحيتها تمام الإدراك أن ساعة التحول والبتّ في مصيرها قد حانت، وأن أليوشا لن يعود إليها أبدًا، وأن كل شيء قد حدث كما كان مقدرًا له أن يحدث.

وحلّ يوم البين، وكانت ناتاشا مريضة شاحبة ذات نظرات محمومة وشفتين جافتين، مشتتة الذهن تهمس بين آن وآخر بصوت خافت أو تنظر إليَّ فجأة نظرة فاحصة سريعة. لم تكن تبكي ولم تكن تجيب عن أسئلتي، وكانت ترتعد حين يرن في مسمعها صوت أليوشا الجهوري وهو داخل، ارتعاد ورقة الحور الرجراج، ثم يعلو وجهها احمرار متقد كاحمرار الشمس وقت الشفق، وتسرع إلى لقائه وتحتضنه في حركة تشنجية وتقبله وتضحك... فيتفرس فيها أليوشا ويسألها في قلق عما إذا كانت صحتها على ما يرام، ويعزيها بأنه عائد قريبًا، وأنها ستزف إليه عند عودته. وقد بذلت ناتاشا جهدًا محسوسًا لتسيطر على نفسها وتحبس دموعها، إذ إنها رغبت في ألا تبكي بمرأى منه.

وقد بدأ مرة يعرض عليها ألا تقلق من هذه الناحية إذ إن والده وعده بقدر كبير من المال ينفقه في رحلته، فقطبت ناتاشا. ولما خلوت إليها بعد ذلك ذكرت لها أني محتفظ لها عندي بخمسين ومائة روبل تستعين بها إذا أعوزها المال، فلم تسأل من أين لي هذا المال. حدث ذلك قبل رحيل أليوشا بيومين وقبل اللقاء الأول والأخير بين ناتاشا وكاتيا بيوم واحد. ذلك أن كاتيا قد أرسلت إليها برسالة مع أليوشا، رجتها فيها أن تسمح لها بأن تزورها غدًا، وكتبت إليّ أيضًا في الوقت نفسه ترجوني أن أحضر هذه المقابلة.

وعقدت العزم على أن أكون عند ناتاشا في الساعة التي ضربتها كاتيا موعدًا للمقابلة، الساعة الثانية عشرة، ضاربًا عرض الحائط بما قد يكون في طريقي من عائق أو مانع. والواقع أنه كان أمامي الكثير من ذلك، فإنه علاوة على نلي، كان آل إشمنيف في الأسبوع الأخير يستنفدون جل وقتي.

وقد بدأ ذلك منذ ثمانية أيام تقريبًا، فقد أرسلت إليّ أنّا أندريفنا ذات صباح ترجوني أن أدع كل ما في يدي وأسرع إليها قدر ما أستطيع لأمر خطير لا يحتمل الإرجاء، فلما ذهبت إليها ألفيتها وحدها تقطع الغرفة مقبلة مدبرة وهي في اضطراب محموم ورعب بالغ تنتظر وهي ترتجف عودة نيكولاي سيرجيفتش. ولم أستطع حسب العادة أن أعرف الأمر الذي بعث فيها هذا الرعب، إلا بعد فترة طويلة، مع أنه- حسبما لاح لي- كان لكل دقيقة إذ ذاك قيمتها. وأخيرًا وبعد عتاب شديد لا يتصل بما دعتني من أجله، بل كان سببه «إمساكي عن الذهاب إليها وتركي إياها وحيدة في حزنها» و«الله يعلم ماذا كان يمكن أن يحدث في أثناء غيابي»، أفصحت لي أن نيكولاي سيرجيفتش كان في خلال هذه الأيام الثلاثة الأخيرة في حالة من الاضطراب «ليس في طاقة بشر أن يفيها حقها من الوصف».

وقالت: «إنه، بكل بساطة، قد أصبح إنسانًا آخر، إذ بالليل تنتابه الحمى ويتسلل بعيدًا عني ليصلي جاثيًا بين يدي الصورة المقدسة، وتراه يهذي في نومه حتى إذا ما استيقظ في الصباح لم يكن يملك إلا بعض وعيه، فقد أردنا أمس أن نحتسي حساء الكرنب، فإذا به لا يستطيع أن يجد ملعقته التي كانت إلى جانبه، وهو إن سئل عن أمر أجاب عن آخر. وهو في هذه الأيام يغادر المنزل كل ساعة وهو يقول: «لديّ أعمال.

يجب أن أذهب إلى المحامي» وفي هذا الصباح أوصد باب غرفته عليه قائلًا: «عليّ أيضًا أن أكتب مذكرة خاصة بالقضية» فقلت في نفسي: «أية مذكرة تكتب وأنت لا تعرف أن تهتدي إلى الملعقة وهي بجانبك؟» ونظرت من خصاص المفتاح فوجدته جالسًا يكتب وهو ينتحب طول الوقت، فقلت في نفسي: «أهكذا يكتب المرء مذكرة؟ أم هو يبكي إشمنيفكا؟ وإذن فلا ريب أننا قد خسرناها إلى الأبد؟» وبينا أنا أفكر في ذلك إذا به قد وثب من كرسيه فرمى بالقلم على المكتب واحمر وجهه والتمعت عيناه وتناول قبعته واندفع إلى الخارج قائلًا: «سأعود في التو يا أنّا أندريفنا» وما كاد يخرج حتى بادرت إلى مكتبه، وقد كان منذ بدأت هذه القضية مثقلًا بأوراق شتى حظر عليّ أن أمسها. ولطالما توسلت إليه قائلة دعني على الأقل أرفع هذه الأوراق مرة لأزيل ما على المكتب من غبار، ولكن لا. فهو يصرخ ويضرب الأرض برجليه. وقصارى القول إنه صار هنا في بطرسبورج لا يحتمل شيئًا، وأضحى يكثر من الصياح وينزع إلى الشجار والمشاحنة. وإذن فقد ذهبت إلى المكتب لأرى ما هي تلك المذكرة التي كتبها منذ لحظة، إذ استبان لي أنه لم يأخذها معه، بل أخفاها تحت الأوراق الأخرى لدى قيامه من المكتب، والآن انظر يا إيفان بتروفتش يا بنيّ، ماذا وجدت».

وناولتني ورقة من أوراق الرسائل قد سطرت[1] إلى النصف، بيد أنه قد كثر فيها التنقيح أو الترقيع حتى أصبح من المحال فك خطها في بعض المواضع.

---

(١) سطر الكاتب يسطر سطرًا: كتب.

يا للهرم المسكين! لقد كان من السهل أن يتبين المرء من السطر الأول ماذا كتب ولمن كتب؟ كانت رسالة لناتاشا، لمعبودته التي يحبها أكثر من كل شيء. وتبدأ رسالته حارة رفيقة يعد فيها بالصفح ويسأل ابنته أن تعود إليه. كان من العسير قراءة الرسالة كلها، فقد كانت تحوي جملًا متقطعة لا اتصال بينها، وتنقيحًا كثيرًا، ولكن كان ثمة شيء واحد يرى بجلاء: ذلك أن الشعور الحار الذي دفعه أن يمسك باليراعة وأن يكتب الأسطر الأولى التي أفعمت حنوًّا، قد امّحى سريعًا أمام شعور آخر، فشرع الهرم يلوم ابنته ويصوّر تصرفها بأغلظ الألوان ويذكرها في حنق بما كان منها من تمرد وعصيان ويصفها ببلادة الحس، إذ إنها لم تأبه مطلقًا لما قد يصيب أباها وأمها من وراء عملها، ويهدد كبرياءها بأن يعاقبها ويلعنها، وختم رسالته طالبًا إليها أن تثوب إلى المنزل في التو خاضعة نادمة «وإذ ذاك، إذ ذاك فقط، أي حينما تستأنفين في أحضان أسرتك حياة جديدة بسيطة نقية، قد نستطيع أن ننظر في الصفح عنك».

وكان من الواضح أنه بعد أن كتب الأسطر الأولى عدّ ما بدا فيها من شعور مفعم بالشهامة والكرم خورًا، وبدأ يخجل منه، فانتهى تحت ألم الكبرياء المجروحة إلى أن يثور ثورة الغضب والتهديد. وقد وقفت أنّا أندريفنا مشبكة يديها تنتظر في خوف ورعب ما أقول بعد أن أنتهي من قراءة الرسالة.

فأعربت لها عن رأيي في صراحة تامة: «إن الهرم، بكل بساطة لا يحتمل العيش من دون ناتاشا، وإن التعجيل بالصلح بينهما قد أصبح ولا شك ضرورة لا مندوحة عنها، على أن كل شيء لا يزال مع ذلك

رهنًا بالملابسات والأحوال. وكاشفتها في الوقت نفسه بما أعتقد وهو أن خسارته للقضية قد صدمته صدمة قوية وهزت كيانه هزًّا عنيفًا، يضاف إلى ذلك أن كرامته قد ثلمت بانتصار الأمير، وأنه قد استشاط غضبًا لما اتجهت إليه القضية. وفي مثل هذه الأحوال تبحث النفس عمن يشاطرها عواطفها، وبذلك أخذ يتجه فكره ويقوى شوقه إلى تلك التي كان دائمًا يحبها أكثر من كل ما على وجه الأرض، وربما كان أيضًا قد علم (وهو يتتبع ويعلم دائمًا جميع أخبار ناتاشا) أن أليوشا سيتركها قريبًا، بل ربما كان يدرك كل ما يعتلج بصدرها الآن ويحس مدى حاجتها إلى التسرية، ولكنه مع ذلك قد عجز عن كبح جماح نفسه، إذ كان يرى أنه قد لحقته الإهانة و التحقير عن سبيل ابنته. وقد يكون سأل نفسه لِمَ لا تكون مع كل هذا هي البادئة بالعودة إليه؟ أو يكون قد هجس بباله أنها ربما كانت لا تفكر في والديها مطلقًا ولا تحس حاجة إلى الصلح. ثم قلت في ختام هذه التفصيلات: «مثل هذه الأفكار قد جرت بباله ولا ريب، ولهذا لم يتم الرسالة. وإنه من الجائز أن ينجم عنها شعوره بالإهانة من جديد فتكون أكثر إيلامًا له مما كانت من قبل، ويكون من جرّاء ذلك إرجاء الصلح والوفاق إلى أمد بعيد...».

كانت العجوز تبكي وهي تستمع إليّ. وعندما قلت لها أخيرًا: إنه لا معدى لي الآن من الذهاب إلى ناتاشا، وإني قد قضيت عندها زمنًا طويلًا فأبطأت عن الذهاب إلى ابنتها، بدأت ترتعش وأعربت لي أنها قد نسيت أن تخبرني بما هو أهم، فإنها حين سحبت الرسالة من بين الأوراق انقلبت عليها الدواة. والواقع أن أحد أركان الرسالة كان ملطخًا

بالحبر، فأنّا أندريفنا الآن في رعب وتخشى أن يتبين إشمنيف الهرم من هذه اللطخة أنها فتشت أوراقه في غيبته وأنها قرأت رسالته إلى ناتاشا. والواقع أنه كان لديها أسباب وجيهة للفزع. فإن اطلاعه على معرفتنا بسره، قد يكفي وحده لأن يبعث فيه من الخجل والغيظ ما يحمله على التمادي في غضبه، فتدفعه كبرياؤه إلى أن يأبى بعناد أية مصالحة.

فلما أعملت فكري في المسألة نصحت إلى صديقتي العجوز ألا تجعل للقلق إليها سبيلًا، فإن الهرم قد قام وترك هذه الرسالة وهو في حالة من الاضطراب لا يتسنى له معها أن يذكر في وضوح كل الدقائق والتفاصيل، ولهذا كان من المحتمل أن يظن أنه هو نفسه الذي أحدث هذه اللطخة ثم نسي ذلك. وبعد أن طمأنت العجوز وضعنا الرسالة بحذر في موضعها القديم، وفكرت في أن أحادثها قبل منصرفي، محادثة جديّة بشأن نلي، فقد رأيت أن اليتيمة المهجورة المسكينة التي انصبت اللعنة على أمها من والد لا يصفح، قد تؤثر بقصة حياتها وموت أمها، تلك القصة المحزنة المفجعة، في قلب الهرم وتحرك منه مشاعر كريمة. وكان كل شيء مهيئًا لذلك، فقد نضج قلبه، وابتدأ حنينه القديم إلى ابنته يقهر كبرياءه وأثرته المهانة، فلم يكن يحتاج الأمر إلا إلى هزة واحدة، إلا إلى فرصة ملائمة، وهذه الفرصة المنشودة قد تهيئها نلي. وأصغت إليّ العجوز في انتباه شديد، وأشرق وجهها بسنا الأمل والابتهاج، وطفقت تلومني على أني لم أخبرها بذلك من قبل، وأخذت تستنبئني عن نلي وهي نافدة الصبر، وختمت كلامها بأن وعدت في حماسة بينة أن ترجو هي نفسها الهرم أن يأتي باليتيمة إلى المنزل. وقد بدأت تحس في أعماق

نفسها حبًّا حقيقيًّا لنلي، فعراها الحزن حين علمت بشكايتها واستخبرتني عنها وحملتني لها قارورة «مربى» هرولت فأحضرتها بنفسها من مخزن المأكولات، ودست في يدي خمسة روبلات، فارضة أني لا أملك من المال ما أعطيه للدكتور، فلما أبيت أخذها ظلت مدة طويلة غاضبة. وأخيرًا وجدت العزاء في أن نلي تعوزها الثياب، وأنها هي تصبح بذلك ذات نفع لها على صورة من الصور. وسرعان ما بدأت تنهب صناديقها وتفتش ثيابها لتنتقي منها ما تحبو به «اليتيمة المهجورة».

أما أنا فقصدت إلى ناتاشا، وعندما صعدت إلى المنعطف الأخير من السلم الذي قلت فيما سبق أنه حلزوني، رأيت ببابها رجلًا يهم بقرعه، فلما سمع خفق خطواتي أمسك ثم تردد ترددًا ظاهرًا ثم انثنى عن عزمه وهرول نازلًا فاصطدم بي فوق الدرجة الأخيرة من السلم. وما أبلغ ما عراني من دهشة حين عرفت فيه إشمنيف الهرم، وكان هذا السلم فاحم الظلمة في النهار أيضًا، فالتصق إشمنيف بالجدار ليفسح لي الطريق. وما زلت أذكر إلى الآن ذلك البريق العجيب الذي لمعت به عيناه وهو يتفرس فيّ، وخيل إليّ أنه قد علت وجهه حمرة قانئة. ومهما يكن من شيء، فقد تولاه ذهول مروع وارتباك شديد، وصاح بصوت متهدج: «آه، فانيا، هذا أنت! إنني أبحث هنا عن شخص... عن كاتب... لأمر يتصل بالقضية، وقد بدل مسكنه منذ عهد قريب... لا ريب أنه مقيم هنا في هذه الناحية... ولكن يلوح لي أنه ليس في هذا المنزل... لقد ضللت إذن. وداعًا!».

وهبط الدرج مسرعًا.

ورأيت ألا أذكر لناتاشا في الوقت الحاضر شيئًا من أمر هذه الزيارة، بل أن أبقي ذلك إلى ما بعد رحيل أليوشا، حين تصبح وحيدة، إذ إنها قد غدت في الزمن الأخير في حالة من القلق والغم لم يكن من الميسور معها- وإن فهمت قيمة هذه الواقعة تمام الفهم- أن تستقبلها وتحسها كما يكون شأنها لو رويت لها فيما بعد حين تصبح في أقصى لحظات التعاسة وأبعد مراتب اليأس. إن ساعة ذلك لما يحن حينها.

وفي الحق أنه كان عليّ أن أذهب هذا اليوم ثانية إلى آل إشمنيف، وكان يطيب لي كثيرًا أن أذهب، بيد أني لم أفعل، فقد رأيت أن الهرم لا يسره كثيرًا أن يراني الآن مرة أخرى، بل قد يخيل إليه أن ذهابي لم يكن إلا نتيجة لالتقائنا، ولهذا لم أذهب إليهما إلا بعد ثلاثة أيام، فوجدته مقطبًا، غير أنه قابلني مرحبًا وتحدث إليّ طويلًا في شئونه وأعماله.

ثم فاجأني بهذا السؤال في لهجة متراخية، وإن كان قد أشاح ببصره عني: «قل لي، إلى من كنت تريد أن تصعد إذ ذاك؟ أتذكر؟ حين التقينا... متى كان ذلك؟ أول من أمس على ما أظن؟».

فأجبت دون أن أوجه إليه أنا أيضًا بصري: «لي صديق يقيم هناك».

«آه. وأنا كنت أبحث عن كاتب يدعى أستافيف. وقد أرشدوني أنه في ذلك المنزل، ولكنهم كانوا مخطئين... أما ما أريد أن أخبرك به من أمر القضية فهو أن قاعة المشورة قد فصلت فيها...» وهلم جرّا.

واحمر وجهه حين انتقل بالحديث إلى موضوع القضية.

ولقد أنبأت أنَّا أندريفنا بكل ذلك في اليوم نفسه لأسرها، غير

أني رجوتها في أثناء كلامي ألا تسدد إليه نظرات ذات معنى أو تلمح في أحاديثها تلميحًا ما، وفي إيجاز، ألا تريه بأية حال أنها على علم بصنيعه الأخير. وبلغ الدهش والفرح من العجوز إلى حد أنها لم تمل في بادئ الأمر إلى تصديقي، ثم أنبأتني هي من جانبها أنها قد لمحت فعلًا لنيكولاي سيرجيفتش بنلي فلم يحر جوابًا، مع أنه كان إلى عهد قريب يرجوها بنفسه أن يتبنيا الطفلة. فاتفقنا على أن ترجوه غدًا في الأمر في صراحة تامة، دون مقدمات وبغير لف ودوران. ولكنا في اليوم التالي ألفينا نفسينا في وجل وجزع فظيعين.

ذلك أن إشمنيف كان قد حادث، في صباح ذلك اليوم، الموظف الذي أنيطت به شئون القضية، فأعرب له هذا أنه رأى الأمير وأن الأمير أفضى إليه بأنه وإن كان يود الاحتفاظ بأشمنيفكا، فقد استقر رأيه «لبعض أسباب أسرية خاصة» أن يعوّض على الهرم فيدفع إليه عشرة آلاف روبل. وقدم إشمنيف من عند هذا الموظف إليّ توًّا، وهو شارد اللب تقدح عيناه بالشرر من الحنق، وصاح بي من على الدرج وأنا في المسكن، ولست أدري لماذا؟ وطلب إليّ بإلحاح أن أذهب إلى الأمير فأدعوه إلى المبارزة، وقد أذهلني ذلك حتى إني لم أستطع أول الأمر أن أجمع شتيت أفكاري، وأردت بادئ بدء أن أسكّن من جأشه، ولكنه كان مندفعًا مهتاجًا في حديثه حتى يكاد يغشى عليه، فأسرعت إلى داخل مسكني لآتيه بكوب ماء، فلما عدت لم يكن على الدرج وذهبت إليه في اليوم التالي فلم أجده بالمنزل فقد استخفى ثلاثة أيام كاملة.

وقد عرفنا في اليوم الثالث كل شيء، فقد ذهب من عندي مسرعًا

إلى الأمير، ولكنه لم يجده فترك له رقعة ينبئه فيها بأنه علم بالحديث الذي أفضى به إلى الموظف، وأنه يعد هذا الحديث إهانة قاتلة، كما يعد الأمير وغدًا خسيسًا، ولهذا يدعوه إلى المبارزة، محذرًا إياه من أن يجرؤ على إباء هذه الدعوة وإلا فإنه سيوجه إليه الإهانة علنًا.

وأنبأتني أنّا أندريفنا أنه قد عاد إلى المنزل في حالة من اليأس اضطر معها أن يبادر إلى فراشه. وقد كان لطيفًا معها غاية اللطف، غير أنه كان لا يكاد يجيب عما توجهه إليه من أسئلة، وكان من الواضح أنه ينتظر شيئًا ما يجزع المحموم. وحمل إليه البريد في الصباح رسالة ما كاد يقرأها حتى أمسك رأسه بيديه وعلا صراخه، أما هي فكادت يغمى عليها من الرعب، ولكنه بادر إلى قبعته وعصاه واندفع إلى الخارج.

وكانت الرسالة ردًّا على رسالته، وكانت قصيرة جافية، ولكن الأمير أعرب له فيها بصيغة مؤدبة أنه فيما يتصل بالموضوع الذي أفضى به إلى الموظف، فإنه ليس مدينًا لأحد بشيء، وأنه وإن كان يأسف كثيرًا على ما أصاب إشمنيف من خسرانه القضية، لا يزال مع ما يشعر به من عطف لا يجد من الصواب أن يكون لمن يخسر قضية أن يثأر من خصمه بأن يدعوه إلى المبارزة. أما ما تهدده به إشمنيف من «الإهانة العلنية» فإنه يرجوه ألا يحاول توجيهها إليه، إذ إنه لن توجه إليه ولا يمكن أن توجه إليه إهانة علنية، فهو سيدفع برسالته في التو إلى الجهات المختصة، وسيكون رجال الشرطة ولا شك قادرين على اتخاذ ما يلزم من الإجراءات لحفظ النظام والأمن.

واندفع إشمنيف في التو والرسالة في يده قاصدًا إلى الأمير فلم

يجده في المنزل أيضًا. غير أنه استطاع أن يعرف من الخادم أن الأمير يغلب أن يكون الآن عند الكونت ناينسكي فبادر إلى منزل الكونت دون أن يضيع من وقته لحظة واحدة. ووقف البواب في وجهه حين هم فعلًا بالصعود في السلم، فانهال عليه الهرم بالعصا وهو يكاد يتميز من الغيظ، فأخذوا بتلابيبه وجروه إلى الباب فأسلموه إلى الشرطي الذي قاده إلى دار الشرطة. ونمى الحادث إلى الكونت. فلما أوضح الأمير- وكان هناك في ذلك الوقت- للكونت الخليع أن هذا الإشمنيف هو والد تلك الناتاليا نيكولايفنا (وكان الأمير قد أسدى إلى الكونت أكثر من مرة خدمات في هذه الشئون) ضحك السيد النبيل الطاعن في السن، وانقلبت حدته رفقًا، وأبدى رغبته في أن يطلقوا إشمنيف، على أنهم لم يخلوا سبيله إلا في اليوم الثالث، وقد أبلغوا إشمنيف الهرم- إجابة لطلب الأمير غالبًا- أن الأمير نفسه هو الذي رجا الكونت في أن يعفو عنه.

وعاد الهرم إلى منزله كالمجنون، فألقى بنفسه على فراشه وظل ساعة كاملة لا يستطيع حراكًا، ثم نهض آخر الأمر وأعلن أنه يلعن ابنته لعنة أبدية ويحرمها بركته الأبوية.

ولقد بلغ الرعب بأنّا أندريفنا أقصاه، بيد أنه كان عليها أن تمد إلى الهرم يد المساعدة، فظلت- وهي لا تكاد تعلم ماذا تصنع- تعتني به طوال النهار والليل وتنضح جبهته بالخل وتبرد رأسه بضمادات مثلوجة. لقد انتابته الحمى فأخذ يهذي. ولم أفارقهما إلا نحو الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. وأصبح إشمنيف وقد أبل من مرضه، وأتى إليّ في اليوم نفسه موطّنًا النفس على أن يأخذ نلي إليه. وقد سبق أن وصفت المشهد

الذي حدث بينه وبينها. وقد رجّه حديثها رجًّا، فعاد إلى منزله وأوى إلى فراشه من جديد. كان كل ذلك يوم الجمعة الحزينة، وكان هو اليوم الذي ضرب موعدًا للقاء كاتيا لناتاشا، أي قبل رحيل أليوشا وكاتيا من بطرسبورج بيوم واحد، وقد شهدت هذا اللقاء. كان ذلك في الصباح الباكر قبل أن يجيء إليّ أشمنيف الهرم، وقبل أن تفر نلي من عندي أول مرة.

* * *

الفصل السادس

وكان أليوشا قد حضر إلى ناتاشا قبل هذا اللقاء بساعة ليؤذنها به كيما تعدّ نفسها له، وقد وصلت أنا في اللحظة التي وقفت فيها مركبة كاتيا أمام باب المنزل. وكانت بجوار كاتيا تلك الفرنسية العجوز، وقد رضيت أخيرًا بعد إباء طويل وأخذ وردّ أن تصحبها بل أن تدعها تصعد من دونها إلى ناتاشا، ولكن على شريطة أن يكون أليوشا برفقتها، أما هي فبقيت في المركبة تنتظر، ونادتني كاتيا ورجتني دون أن تنزل من المركبة أن أدعو إليها أليوشا، فلما صعدت إليه ألفيته غارقًا في البكاء هو وناتاشا. وعندما علمت ناتاشا أن كاتيا أتت حقًّا وثبت من كرسيها وكفكفت عبراتها ووقفت إزاء الباب مضطربة واجفة القلب. وكانت في ذلك الصباح مرتدية ملابس بيضاء خالصة، وكان شعرها البنيّ القاتم مرجلًا ناعمًا معقوصًا من خلف على هيئة عقدة كبيرة، وقد كان يعجبني منها أن يكون شعرها مزينًا على هذا النمط. ولما رأتني معتزمًا البقاء معها رجتني أن أذهب أنا أيضًا لاستقبال الضيفة.

وقالت لي كاتيا ونحن نصعد في الدرج: «لم يتيسر لي قبل اليوم أن أزور ناتاشا، فقد كانوا يرصدون خطواتي كالجواسيس. شيء فظيع. لقد بقيت أعمل أربعة عشر يومًا على إقناع مدام ألبير حتى رضيت في النهاية. وأنت، وأنت يا إيفان بتروفتش إنك لم تزرني حتى مرة واحدة! ولم أكن أستطيع أن أكتب إليك، كما أني لم أكن أميل إلى ذلك، إذ لا يستطيع المرء أن يعرب عما يريد في الرسائل. ولكني كنت أتوق كثيرًا إلى مشاهدتك.. ربّاه، ما أعنف خفوق قلبي!».

فقلت: «ذلك لأن السلم يكاد يكون قائمًا».

«أجل بالطبع... السلم أيضًا... ولكن ماذا ترى؟ ألا تظن أن ناتاشا ستغضب مني كثيرًا؟».

«كلا، ولِمَ؟».

«حسن. ذلك بديهي... ولم عسى أن تغضب. سأعلم ذلك بنفسي في التو، فليس من حاجة إلى الاستفهام عنه؟».

وناولتها ذراعي فتأبطتها وقد شحب وجهها وبدت وجلة أيما وجل، ثم وقفت لحظة في منعطف السلم الأخير تستعيد هدوءها، ثم رنت إليّ وصعدت في الدرجات الأخيرة وقد حزمت أمرها.

وتلبثت مرة أخرى أمام الباب وهمست في أذني: «سأدخل بكل يسر، وأقول لها إني عظيمة الثقة بها حتى لقد أتيت دون أن يخامرني خوف أو وجل... ولكن ماذا أقول؟ إني مقتنعة بأن ناتاشا أنبل إنسانة على وجه البسيطة. أليس كذلك؟».

ودخلت متهيبة تهيّب المذنب وشخصت ببصرها إلى ناتاشا منعمة فيها النظر، فأجابتها هذه في الحال بابتسامة، فأسرعت كاتيا إليها وأمسكت كلتا يديها وألصقت شفتيها الصغيرتين المكتنزتين بفم ناتاشا، ثم التفتت إلى أليوشا، دون أن توجه إلى ناتاشا كلمة واحدة، ورجته في لهجة لا تخلو من الصرامة قائلة: اتركنا وحدنا نصف ساعة.

ثم أردفت قائلة: «لا تغضب من ذلك يا أليوشا، فإنما يحفزني إلى ما طلبت رغبتي في أن أحادث ناتاشا في كثير من الأمور الجدية المهمة التي لا ينبغي لك أن تستمع إليها، فكن عاقلًا واذهب، أما أنت يا إيفان بتروفتش فأرجوك أن تبقى إذ يجب أن تسمع كل ما نتحدث به».

وقالت لناتاشا بعد خروج أليوشا: «فلنجلس، وسأجلس هكذا قبالتك، فإني أريد قبل كل شيء أن أتجلى طلعتك وأستمتع برؤيتك!».

وجلست تجاه ناتاشا وظلت بضع دقائق تتفرس فيها، فلم تتمالك ناتاشا أن ابتسمت.

وقالت كاتيا: «لقد رأيت صورتك الشمسية من قبل، أرانيها أليوشا».

«وهل ترين أني مماثلة لها؟».

فأجابت كاتيا بلهجة جادة قاطعة: «أنت أحسن وأبهى، وذلك ما كنت أتوقعه».

«حقًّا؟ وأنا لا أستطيع أن أشبع من النظر إليك، فيا لك من فتاة فاتنة!».

«لا! فأين الفتنة فيّ يا حبيبتي الطيبة؟» قالت ذلك وأمسكت كف

ناتاشا بيدين مرتعشتين، وصمتتا جميعًا، وأخذت كلتاهما تنعم النظر في الأخرى. وأخيرًا قطعت كاتيا حبل الصمت قائلة: «اعلمي يا ناتاشا أنه ليس لدينا غير نصف ساعة ولم أحظ بموافقة مدام ألبير على التجاوز عن بقائي هنا نصف الساعة هذا إلا بشقّ النفس، وإن لدينا أمورًا كثيرة نتحدث فيها.. وأحب.. لا بد لي... والآن أسألك بكل بساطة: أتحبين أليوشا كثيرًا؟».

«أجل، كثيرًا جدًّا».

فأضافت في خجل وبصوت يكاد يكون همسًا: «إذا كان الأمر كذلك.. بما أنك تحبين أليوشا كثيرًا.. فإنك.. لا محالة ترغبين في أن يكون سعيدًا».

«أجل، إني أرغب أن يكون سعيدًا».

«وبعد.. فهذا هو السؤال: أأستطيع أنا أيضًا أن أجعله سعيدًا؟ وهل يحق لي أن أسألك هذا السؤال وأنا آخذه منك؟ لئن كنت تعتقدين أنه سيكون معك أكثر هناءة، وتطابق رأيانا على ذلك، فليكن عندئذ.. ليكن عندئذ...».

فقالت ناتاشا بصوت خافت: «لقد بتّ في الأمر يا عزيزتي كاتيا، وها أنت ذي ترين بنفسك أن الأمر قد أصبح مقضيًّا فيه» وطأطأت رأسها، وكان من الجلي أنه قد أصبح من العسير عليها متابعة الحديث.

ويبدو أن كاتيا كانت قد هيأت نفسها لمجادلة مسهبة في هذا الأمر: أيتهما أصلح لإسعاد أليوشا وأيتهما التي يجب عليها أن تتخلى عنه.

وغير أنها رأت في الحال من إجابة ناتاشا أن كل شيء قد قضي فيه منذ زمن، وأنه لم يبق من شيء يحتاج إلى جدال وحجاج، فنظرت إلى ناتاشا في ذهول وأسى وشفتاها الفاتنتان منفرجتان بعض الشيء، وظلت، كما كانت، ممسكة بيدها لا ترسلها.

وسألتها ناتاشا فجأة: «وأنت، أتحبينه كثيرًا؟».

«أجل. وثمة شيء آخر أحب أن أسألك عنه، وقد كنت أعتزم ذلك منذ زمن: أنبئيني، ماذا تجدين فيه يحملك على حبه بهذه القوة؟».

فأجابت ناتاشا: «لست أدري» وكان في صوتها ضرب من المرارة ونفاد الصبر.

فسألت كاتيا: «أترينه ألمعيًّا فطنًا؟».

«كلا، ولكني بكل بساطة أحبه...».

«وأنا كذلك. وكأنما أشعر دائمًا بالأسف من أجله والرثاء له».

«وأنا أيضًا أشعر بذلك».

فصاحت كاتيا: «وماذا يجب أن نعمل له الآن؟ وكيف يستطيع أن يهجرك من أجلي، ذلك ما لست أفهمه! ولست أستطيع الآن بعد أن شاهدتك أن أفهم كيف يتأتى ذلك!».

وغضت ناتاشا من بصرها لا تحير جوابًا، وصمتت كاتيا هنيهة ثم وثبت فجأة من كرسيها وعانقتها بحنان، وأخذتا تبكيان معًا وهما متعانقتان، ثم جلست كاتيا على مسند كرسي ناتاشا ولثمت يديها فجأة دون أن تتركها من بين ذراعيها.

وقالت وهي تنتحب: «ليتك تعلمين ما أضمر لك من حب. فلنكن أختين ولتكتب كل منا إلى الأخرى... وسأحبك إلى الأبد... سأحبك هكذا..».

فسألت ناتاشا: «وهل تحدث إليك عن زفافي إليه في يونية؟».

«أجل، لقد قال إنك أنت أيضًا قد وافقت على ذلك.. ولكنك لم تقولي له ذلك إلا تأسية له، أليس كذلك؟».

«هو كذلك بالبديهة».

«وذلك ما حسبته. سأحبه حبًّا جمًّا يا ناتاشا، وسأكتب إليك دائمًا. وأعتقد أنه سيصير زوجي قريبًا، فكل شيء يدل على ذلك، وهم يتحدثون جميعًا بقرب هذا الزواج. حبيبتي ناتاشا، إنك ستعودين ولا ريب... إلى منزل والديك؟».

فلم تجب ناتاشا، بل قبلتها قبلة قلبية خالصة وقالت: «لتكوني سعيدة».

فتمتمت كاتيا: «وأنت... أنت كذلك».

وفتح الباب في هذه اللحظة ودخل أليوشا، إذ لم يطق، لم يستطع أن ينتظر نصف الساعة هذا، فلما رآهما متعانقتين منتحبتين خارت قواه فخرّ بين يديهما جاثيًا في عذاب مروّع.

فقالت له ناتاشا: «لم تبك؟ ألأنك ستنفصل عني! ولكن ذلك لن يطول فسترجع إليّ في يونية».

فبادرت كاتيا أيضًا تقول لتصبيره وقد شرقت بدموعها: «وعندئذ

تزف إليك».

«ولكني لا أستطيع، لا أستطيع أن أفارقك يومًا واحدًا يا ناتاشا، ولا أستطيع أن أحيا من دونك. إنك لست تعلمين مطلقًا ما لكِ عندي الآن من منزلة. الآن على الخصوص!».

فقالت ناتاشا وقد بدا عليها النشاط فجأة: «حسنًا، إذن، فافعل ما أقول لك، إن الكونتة باقية ولا شك في موسكو ردحًا آخر من الوقت».

فقالت كاتيا: «أجل، ستبقى أسبوعًا».

«أسبوعًا! إذن فالأفضل أن تصحبها غدًا إلى موسكو- وهذا لا يستغرق إلا يومًا واحدًا- ثم تعود في التو إلى هنا، وعندما يعتزمان مغادرة موسكو، يقوم كل منا بتوديع صاحبه وداعًا حقًّا، وداعًا لغيبة الشهر، ثم تعود أنت إلى موسكو لتكون في صحبتهما.

فصاحت كاتيا وقد فتنتها هذه الخطة: «أجل، فلنفعل ما تقولين، وبذلك يكون لديكما أربعة أيام أخرى تقضيانها معًا» وحدجتني ناتاشا بنظرة ذات معان.

وليس في وسعي أن أصف تحمس أليوشا لهذه الخطة الجديدة، فقد وجد فيها تسلية وعزاء، فسكن جأشه في الحال وأشرق محياه بنور الفرح، وارتمى على عنق ناتاشا وقبل يد كاتيا وعانقني، فنظرت إليه ناتاشا بابتسامة تفيض أسى، ولكن كاتيا لم تطق ذلك، فرنت إليّ بعينين محمومتين يشع منهما بريق، ثم نهضت من كرسيها وعانقت ناتاشا تهيئًا للانصراف. وحدث في هذه اللحظة أن أرسلت الفرنسية خادمًا يرجو

الإسراع في إنهاء هذا اللقاء، إذ إن نصف الساعة المتفق عليه كان قد انقضى منذ فترة طويلة.

ونهضت ناتاشا، ووقفت هي وكاتيا متقابلتين ويد كل منهما في يد الأخرى، ترمق كلتاهما صاحبتها كما لو كان على نظراتهما أن تفصح عما يخالج نفسيهما.

فقالت كاتيا: «أحسب أننا لن نلتقي بعد اليوم».

«لن نلتقي أبدًا يا كاتيا».

«إذن، فوداعًا!» وتعانقتا.

وهمست كاتيا تقول في سرعة: «لا تلعنيني. إنني.. إنني سأعلم دائمًا... كوني على ثقة... سيكون سعيدًا... هلم يا أليوشا فاصحبني إلى أسفل!» وأمسكت بيده.

وقالت لي ناتاشا بعد رحيلهما، وهي مكتئبة كل الاكتئاب مضطربة غاية الاضطراب: «انزل أنت أيضًا معهما يا فانيا... ولا تعد ثانية، فسيبقى أليوشا معي إلى المساء، إلى حوالي الساعة الثامنة، ولكنه لن يستطيع أن يبقى بعد ذلك، بل سيكون من الحتم عليه أن ينصرف. وأحب أن أخلو بنفسي، فتعال حوالي الساعة التاسعة، إذا تفضلت».

فلما تركت نلي في الساعة التاسعة مع ألكسندرا سيميونفنا (بعد حادث القدح المنكسر) وقصدت إلى ناتاشا ألفيتها وحدها تنتظرني في نفاد صبر. وأتت مافرا بغلاية الشاي، فصبت لي ناتاشا قدحًا وجلست على الأريكة ورجتني أن أجلس بجوارها.

فقالت وقد نظرت إليّ نظرة جوفاء: «الآن انتهى كل شيء».

إنني لن أنسى هذه النظرة أبدًا.

وتابعت كلامها: «هكذا انتهى حبنا! لقد أحببت نصف عام هو حياتي كلها» وضغطت يدي.

وكانت يدها تضطرم، فأشرت عليها أن تتدثر جيدًا وتأوي إلى فراشها.

«في التو يا فانيا، في التو يا صديقي العزيز! ولكني دعني أتحدث إليك هنيهة وأستحضر إلى ذاكرتي كل شيء... إني الآن كأني محطمة... وسأراه في الغد للمرة الأخيرة، للمرة الأخيرة التي لا لقاء بعدها!».

«ناتاشا، أنت محمومة، وستأخذك الآن حمى مروعة، ففكري في صحتك».

«لا خطر لذلك. لقد ظللت أنتظرك يا فانيا طيلة نصف الساعة الذي انقضى منذ خرج، فما الذي تظن أني كنت أفكر فيه، وما هو السؤال الذي كنت ألقيه على نفسي؟ لقد كنت أسألها: أكنت أحبه أم لا؟ وأي ضرب من الحب كان ذاك؟ يلوح ذلك لك سخيفًا يا فانيا، إنني لم أوجه هذا السؤال إلى نفسي إلا الآن؟».

«لا تهتاجي يا ناتاشا...».

«انظر يا فانيا، لقد انتهيت إلى الاقتناع بأني لم أكن أحبه حب النظير للنظير، كما تحب المرأة الرجل بوجه عام، وإنما أحببته على وجه التقريب... حب الأم، وأعتقد أنه ليس في العالم كله اثنان يحب أحدهما

الآخر حب النظير للنظير، فماذا ترى في ذلك؟».

فنظرت إليها مكروبًا مشغول الفكر، وخشيت أن تكون تلك بداية حمى مخية. وكأنما كانت تذعن لضغط داخلي، كأنما كانت تحس حاجة لا تقاوم إلى الكلام. وكانت كلماتها في بعض الأحيان غير متواصلة، بل فضلًا عن ذلك، كانت هي تنطق بها في غير وضوح. لقد اشتد كربي من أجلها.

وتابعت كلامها: «لقد كان زمامه بيدي، وحين بصرت به أول مرة أحسست رغبة قاهرة في أن يكون لي، أن يكون لي في التو وألا يرى أو يعرف إنسانة غيري، غيري أنا وحدي... وقد أصابت كاتيا اليوم في تعبيرها: لقد ظللت أحبه حقًّا طوال هذا الزمن كما لو كنت أرثي له... وقد كانت بي دائمًا رغبة مضطرمة تزداد حين أخلو إلى نفسي إلى حد العذاب، رغبة في أن يكون سعيدًا إلى الحد الأقصى وإلى الأبد. ولم أكن أستطيع أن أتطلع إلى محياه دون أن أضطرب اضطرابًا (أنت تعرف يا فانيا ما كان يرتسم على وجهه من تعبير) إنك لن ترى مثل هذا التعبير على وجه امرئ آخر. وعندما كان يضحك كانت الرعدة والقشعريرة تسريان في كل كياني.. حقًّا!».

«ولكن أصغي يا ناتاشا...».

فقاطعتني بقولها: «لقد كانوا جميعًا يقولون عنه، وأنت أيضًا قلت إنه لا شخصية له ولا مميزات خلقية، و... إنه فج العقل وإنه كالطفل. فانظر، لقد كانت هذه الخلال هي بنفسها التي أحبها فيه أكثر من أي شيء آخر. فهل يسعك أن تصدق ذلك؟ على أني مع ذلك لست أدري إن كنت

قد أحببته من أجل ذلك فقط؟ فقد أحببته بكل بساطة كما هو، ولو أنه كان على غير ما هو عليه، لو أنه كان أرجح عقلًا أو أمتن خلقًا، لكان من الممكن ألا أحبه هذا الحب مطلقًا. أتدري يا فانيا؟ سأعترف لك بشيء: أتذكر؟ لقد حدث شجار منذ ربع عام انقضى، حين كان هو عند ذلك الـ... ما اسمه...؟ المدعو مينا. وقد علمت أنا بالأمر، تقصيته فعلمته، وصدقني لقد آلمني ذلك أبلغ الألم، غير أنه سرني في الوقت نفسه... ولست أدري لم كان ذلك... مجرد التفكير أنه استطاع مرة أن يجول في ميادين الفجور... ولكن لا، لم يكن ذلك هو الأمر لعله أيضًا أنه جرى وراء الجميلات من النساء مع شبان يافعين آخرين بوصف أنه يافع، وأنه ذهب إلى مينا هذا. إنني، أواه! أية غبطة أحسستها لهذا الشجار. وعندما صفحت عنه... أواه يا صديقي!».

وحدقت إلى وجهي وضحكت ضحكة غريبة، ثم بدت مستغرقة في تفكيرها كما لو كانت تستحضر في ذاكرتها أمورًا، وظلت جالسة هذه الجلسة طويلًا، تحلم بالماضي والابتسامة لا تفارق شفتيها.

وتابعت كلامها قائلة: «ولم يكن شيء أحب إلى نفسي من أن أصفح عنه يا فانيا، أتدري؟ لقد كنت حين يتركني وحدي، أقطع الغرفة في العادة جيئة وذهابًا في عذاب ممض، فأبكي ثم ينتهي بي التفكير إلى: أنه كلما أمعن في الإساءة إليّ كان ذلك خيرًا... أجل! ثم هل تدري؟ ثم أشرع أصوّره لنفسي غلامًا حدثًا! وأتخيل أني أجلس وأنه يضع هو رأسه في حجري وينام، فأمسح على شعره في رفق وأدلّله... لقد كنت أصوره لنفسي دائمًا على هذا النحو حين لا يكون معي...» واقتضبت حديثها

فجأة قائلة: «استمع يا فانيا. إن كاتيا فتاة فاتنة!».

لقد أثرت في نفسي كما لو كانت تتعمد أن تنكأ جراحها ثم تعود فتنكؤها. أجل، إنها لتشعر بنوع من الحاجة إلى ذلك، تلك هي الحاجة إلى الإيغال في يأسها وآلامها... وما أكثر ما يستطيع المرء أن يلاحظ ذلك في القلوب التي فقدت كثيرًا.

وتابعت كلامها قائلة: «وإني لعلى تمام الثقة بأن في مقدور كاتيا أن تجعله سعيدًا فإنها ذات عزيمة، وهي تحدثه دائمًا في اتزان وجد حديث المقتنع الموقن، وتحدثه دائمًا عن آراء سامية وأفكار حكيمة، ثم هي إلى ذلك طفلة حقًّا، مخلوقة محببة فتانة! أواه، ليتها تظل سعيدة، سعيدة، سعيدة».

وإذا بها قد أوشك قلبها أن ينفطر واستسلمت للنشيج والبكاء، وظلت نصف ساعة كاملًا لا تستفيق ولا تملك من نفسها شيئًا.

إن ناتاشا ملاك كريم، فقد استطاعت حتى في هذا المساء نفسه، مع ما كان بها من ألم شديد، أن تغمرني بعطفها وحنوها عندما شرعت- بعد أن رأيتها أضحت أشد هدوءًا، أو بلفظ أصح، أشد إعياء- أرفه عنها بأن أقص عليها ما كان من أمر نلي... وفارقتها هذا المساء في ساعة متأخرة جدًّا، فقد انتظرت حتى داعب الكرى أجفانها، ورجوت مافرا ألا تبرح في هذه الليلة جانب سيدتها المريضة.

وهتفت وأنا سائر إلى منزلي: «أواه. ليت هذا العذاب والتعاسة ينقضيان بأسرع من ذلك، بأسرع من ذلك. ليكن ما يكون ولكن في سرعة».

وذهبت إليها ثانية مصبحًا، في تمام الساعة التاسعة. ووصل أليوشا في الوقت نفسه ليودعها، ولا أريد أن أصف هذا المشهد ولا أن أستحضره في ذاكرتي. والظاهر أن ناتاشا كانت قد اعتزمت الهيمنة على نفسها وأن تظهر مظهر المرح وقلة المبالاة، غير أنها لم تستطع ذلك، فعانقت أليوشا في لهفة وتألم وقد عرتها هزة تشنجية، ولم تكثر من الحديث معه، بل ظلت تحدث إليه طويلًا وبإصرار تحديق المعذبة المختبلة، وكانت تلتقط في نهم كل كلمة يتفوه بها، على أنه كان يبدو أنها لم تكن تفهم ما يقول، وأذكر أنه رجاها أن تصفح عنه وأن تغفر له هذا الحب وكل ما آلمها وآذاها به في الزمن الأخير: خيانته لها وحبه لكاتيا ورحيله... وكان يتكلم كلامًا لا اتصال بينه، والدمع يخنق صوته. وكان يحاول في بعض الأحيان تأسيتها والتهوين عليها فيقول: إنه لن يغيب إلا أربعة أسابيع أو خمسة أسابيع على الأكثر، وإنه سيعود في الصيف، وإذ ذاك يقترن بها، وإن والده لن يجد آخر الأمر مناصًا من الموافقة على ذلك وإنه- وهذا هو أهم شيء- سيعود من موسكو بعد غد فيعيشان معًا أربعة أيام كاملة، وإذن فهما إنما يفترقان الآن يومًا واحدًا ليس غير.

واعجبًا، لقد كان هو نفسه يعتقد أنه يقول حقًّا وأنه سيعود يقينًا من موسكو بعد غد. فلم إذن كان يبكي ويتعذب؟

وأخيرًا دقت الساعة الحادية عشرة فبذلت جهدًا جهيدًا حتى تمكنت من إقناعه بالانصراف إذ إن قطار موسكو يقوم في تمام الساعة الثانية عشرة فلم يبق على قيامه غير ساعة واحدة. وقد أنبأتني ناتاشا نفسها فيما بعد أنها كانت في اللحظة الأخيرة عازبة اللب، وأنها لا تذكر كيف كانت

تنظر إليه في تلك اللحظة. أما أنا فأذكر أنها لوحت عليه راسمة صورة الصليب وقبلته، ثم عادت فاندفعت إلى داخل الغرفة وقد غطت وجهها بيديها، وقد كنت مضطرًا إلى أن أصحب أليوشا إلى المركبة حتى لا ينكص على عقبيه، ولولا ذلك لما نزل في السلم.

وقال حين هبطنا أسفل السلم: «إنني أعلق عليك كل آمالي. أي صديقي فانيا! إني أشعر بأني آثم في حقك وأني لم أكن قط جديرًا بمحبتك، ولكن كن أخًا لي إلى آخر لحظة، فأحببها ولا تهجرها واكتب إليّ بكل شيء في تفصيل وإسهاب، في إسهاب قدر ما تستطيع كي تجد السبيل إلى الإكثار من الكتابة. سأكون هنا يقينا بعد غد، ولكن عندما أرحل بعد ذلك سيكون عليك أن تكتب إليّ!» وقد عاونته في ارتقاء المركبة، فلما بدأت تتحرك صاح بي: «إلى الملتقى بعد غد يقينًا!».

وصعدت إلى ناتاشا ثانية وقد فاض قلبي بالعذاب والأسى، فألفيتها واقفة وسط الغرفة مشبكة الذراعين تنظر إليّ نظرة حائرة مختبلة كأنها لا تعرفني البتة، وكان شعرها مشعثًا مائلًا إلى أحد جانبيها ونظراتها ضالة بلهاء، وكذلك كانت مافرا في حالة فظيعة، وقد وقفت بالباب تنظر إلى مولاتها في وجل ورعب.

والتمعت عينا ناتاشا فجأة وصاحت بي: «آه، هذا أنت، أنت! أنت وحدك الذي بقيت لي! لقد كنت تبغضه. لم تستطع قط ، تغفر له حبي إياه... وها أنت ذا الآن تعود إليّ! فماذا تريد مني؟ لعلك تريد تأسيتي والنصح لي أن أرجع إلى والدي، الذي نبذني وصب عليّ لعنته. إنني أعرف هذه الأنشودة، أعرفها منذ أشهر! ولكني لا أريد، لا أريد! وأنا

نفسي ألعنهما! انصرف فلست أطيق رؤيتك. اخرج، اخرج!».

لقد أدركت أن اليأس أفقدها رشادها، وأن رؤيتها إياي تثير فيها اهتياجًا يتاخم الجنون، ورأيت أن ذلك كان أمرًا لا مفر منه وأن الخير كل الخير في أن أخرج. فجلست على درجة السلم العليا أترقب، وكنت أنهض بين الفينة والفينة فأفتح الباب وأنادي مافرا لأسألها فأجدها غارقة في دموعها. وانقضت ساعة ونصف ساعة وأنا كذلك، أما ما حييته خلال هذا الزمن ففوق ما يحيط به الوصف، فقد كان قلبي يوشك أن يتمزق وتحملت عذابًا لا حد له، وإذا بالباب قد فتح فجأة واندفعت ناتاشا خارجة منه وهي مرتدية معطفها وعلى رأسها قبعة، وكانت كالمجنونة. وقد أنبأتني بنفسها فيما بعد أنها لا تكاد تذكر ذلك، وأنها لا تعرف إلى أين ولا لأي غرض كان خروجها.

وهممت بأن أخفّ لأتوارى عنها في مكان ما، ولكنها رأتني فجأة فلبثت واقفة أمامي وقد أيبستها الدهشة. وقد قالت لي فيما بعد: «لقد وضح لي بغتة أني في جنوني وقسوتي طردتك أنت صديقي الوحيد، أخي ومنقذي، فلما رأيت الآن أنك أيها المسكين الذي أهنته لم تذهب، بل لبثت جالسًا على سلمي تنتظر حتى أدعوك إليّ، آه يا إلهي، ليتك كنت تدري يا فانيا كيف كان شعوري، لقد أصابني من ذلك مثل طعنة خنجر نفذت إلى سويداء قلبي...».

لقد هتفت: «فانيا، فانيا! أنت هنا؟» وبسطت إليّ كلتا يديها وسقطت بين ذراعي.

فتلقيتها وحملتها إلى داخل الغرفة، إذ كانت قد أغمى عليها،

وفكرت «ماذا أعمل؟» لا شك أنها مقبلة على مرض خطير، وصح عزمي على أن أهرع إلى الدكتور، فلا بد من عمل شيء لوقف المرض. ولئن أسرعت لأدركته فإن الألماني الهرم يبقى في منزله عادة حتى الساعة الثانية، وعلى ذلك بادرت إليه بعد أن تضرعت إلى مافرا ألا تبرح جانب مولاتها دقيقة بل لحظة واحدة وألا تدعها تخرج كذلك. وقد تداركني الله بمعونته فلو أني توانيت قليلًا لما وجدت صديقي الهرم في المنزل، إذ إني لقيته في الشارع وهو خارج من بيته فوضعته في المركبة في التو حتى أنه لم يعرف من فرط الدهشة ماذا جرى لي. وسارت المركبة بنا إلى ناتاشا.

والواقع أن الله حباني بالتوفيق، فقد حدث شيء لناتاشا في خلال نصف الساعة الذي غبته، كان من شأنه أن يؤدي حتمًا إلى موتها لو لم أصل مع الدكتور في الوقت المناسب، ذلك أنه لم يكد يمضي على خروجي ربع ساعة حتى كان الأمير قد ظهر عند ناتاشا، وكان قد أوصل أهله إلى المحطة وأتى من هناك إلى ناتاشا توًّا. والظاهر أنه كان قد فكر في هذه الزيارة واعتزمها منذ زمن طويل. وقد حدثتني ناتاشا أنها لم تستول عليها الدهشة أول وهلة من زيارة الأمير لها: «إذ كانت روحي كأنها يكتنفها الضباب».

وقد جلس بإزائها ونظر إليها نظرات عطف وودّ.

وقال وهو يتنهد: «أي عزيزتي، إنني أحس ألمك وأعرف شدة ما تعانين في هذه اللحظة، ولذا رأيت من واجبي أن أزورك، فعزّي نفسك إذا استطعت بأنك على الأقل قد عبدت الطريق لهناءة أليوشا بتركك

إياه، على أنك تعلمين ذلك أكثر مني إذ إنك خطوت هذه الخطوة الكريمة بمحض إرادتك...».

وقالت لي ناتاشا: «كنت جالسة أستمع له دون أن أفهم أول الأمر شيئًا مما يقول، ولست أعلم إلا أني كنت أحدق إليه تحديقًا متواصلًا، فأمسك يدي وطفق يضغطها بين يديه، وكان يبدو في وضوح أن ذلك يهيئ له متعة كبيرة، ولم أكن إذ ذاك في كامل رشدي حتى لم يجر ببالي مطلقًا أن أنتزع يدي من بين يديه».

وتابع الأمير كلامه قائلًا: «لقد فطنت إلى أنك لو تزوجت أليوشا لصب عليك- فيما بعد- جام مقته، لإرغامك إياه على هذا الزواج، وقد كان لديك من الكبرياء النبيلة ما يكفي للإحساس بذلك وللبت في الأمر... على أني ما جئت إلى هنا لأطريك وأثني عليك بالخير، وإنما أردت أن أقول لك مؤكدًا إنك لن تجدي ما حييت وأنى ذهبت، صديقًا أوفى لك ولا أكثر ولاء مني. وإني لأعطف عليك العطف كله وأشعر بالأسى من أجلك. وقد اضطررت، على كره مني، أن أشترك في كل ما حدث، ولكني كنت أنهض بواجبي، وسيفطن قلبك الكبير إلى ذلك ولا شك فيتصافى هو وقلبي. وليس الأمر عليّ بأهون منه عليك. صدقيني في ذلك!».

فقالت ناتاشا: «حسبك أيها الأمير، ودعني في هدوئي!».

فقال: «يقينًا، سأدعك في التو، ولكني أحبك كأنك ابنة لي، ولا ريب أنك تأذنين لي في أن أختلف إليك كثيرًا، وعدّيني من الآن فصاعدًا أبًا لك، واسمحي لي أن أحبوك مساعدتي ونصحي».

فقاطعته ناتاشا مرة أخرى: «لست في حاجة إلى شيء من هذا، فإليك عني!».

«أعرف أنك ذات كبرياء... ولكني أتكلم بإخلاص من صميم قلبي، فماذا تنتوين أن تفعلي الآن؟ أتريدين الصلح مع والديك؟ لا شك أن هذا عمل جميل وحسن، ولكن والدك جائر متعجرف، سامحيني، ولكنه هكذا فليس ينتظرك في منزل والديك غير اللوم والعذاب... والمهم الآن هو أن تبقي مستقلة. وإنه من واجبي الحتم أن أعينك وأرعاك، وقد رجاني أليوشا نفسه ألا أنأى عنك وأن أكون لك وليًّا، على أن ثمة أيضًا آخرين غيري يشغفون بك حبًّا، فإذا سمحت فإني أقدم إليك الكونت ناينسكي و هو رجل سليم الطوية ومن ذوي قرابتنا، أعني أنه عميد الأسرة كلها، وقد أسدى إلى أليوشا كثيرًا من الخير، وأليوشا يحبه ويجله أكبر إجلال، وهو شخصية وجيهة ذات نفوذ واسع، ولقد طعن في السن، ففي استطاعتك وأنت الفتاة الصغيرة أن تستقبليه دون أن تخشي عذلًا وتثريبًا، وقد حدثته عنك فعلًا، فسيدبر لك أمرك، وإذا أردت فإنه يهيئ لك عملًا حسنًا عند أحد أقربائه. وقد أنبأته بقصتك كلها منذ حين، وفصلتها له في صراحة وشرف، فكان لها وقع عظيم في قلبه الشفيق الكريم، حتى لقد رجاني الآن بنفسه أن أقدمه إليك في أقرب وقت، فهو رجل شديد التأثر بكل ما هو جميل. صدقيني إنه شيخ هرم نديّ الكف أهل للتبجيل يعرف أن يقدرك حق قدرك. والواقع أنه قد سلك بإزاء والدك منذ عهد قريب مسلكًا هو غاية في النبل والكرم».

ونهضت ناتاشا إذ أحست أنه يهينها إهانة مميتة. لقد فهمته الآن في النهاية.

وصرخت في وجهه قائلة: «اغرب عني. زايلني في التو».

«ولكن تروي في الأمر يا عزيزتي، فإن الكونت قد يفيد والدك...».

فصرخت ناتاشا في وجهه مرة أخرى: «إن والدي لن يقبل منك شيئًا أبدًا، فاغرب عني!».

فقال الأمير وهو ينظر إليها في شيء من القلق: «يا ألله! ما أقل اصطبارك وأكثر سوء ظنك! بم استحققت منك هذا؟» وتابع كلامه وأخرج من جيبه حزمة فاخرة قائلًا: «ولكنك على أية حال، تسمحين لي أن أقدم إليك هذا دليلًا على عطفي، ثم- وهذا هو المهم- على عطف الكونت ناينسكي الذي أعمل أنا الآن حسب مشورته، وستجدين في هذه الحزمة عشرة آلاف روبل» واستطرد قائلًا إذ رآها نهضت مغضبة من مكانها: «مهلًا يا عزيزتي وأنصتي إليّ قبل كل شيء في صبر وأناة، إنك تعلمين أن والدك قد خسر قضيته معي، وهذه عشرة الآلاف من الروبلات تعد عوضًا...».

فصاحت به ناتاشا: «إليك عني. اغرب بهذا المال! الآن أتبين حقيقتك تمامًا... فأنت نذل ساقط!».

فنهض الأمير وقد انكفأ لونه من الغيظ.

وأكبر الظن أنه كان قد قدم لجس النبض وسبر الغور في الوقت الراهن، وتدل الظواهر كلها على أنه كان قد بنى آمالًا كبارًا على عشرة

آلاف الروبل هذه ، موقنًا أن أثرها لن يخطئ الفتاة المعدمة المهجورة من الجميع. ولقد طالما أدى هذا النذل البهيم للعاهر الطاعن في السن الكونت ناينسكي خدمات من هذا القبيل. وكان هو نفسه يميل إلى ناتاشا، فلما تبين له أنه لن يفلح فيها، بدل في الحال نغمته وشرع يكيل لها الإهانة تلو الإهانة في شماتة حتى لا يخرج، على الأقل، من ميدان اللعب دون نتيجة.

وقال بصوت يرتجف من نفاد الصبر، وهو ينشد التلذذ سريعًا بما ستحدثه إهانته من أثر: «ليس من سداد الرأي يا عزيزتي أن تقومي الآن بدور المغضبة الأبيَّة. فليس هذا مما يليق بك. إني أعرض عليك الحماية، فإذا بك تشمخين عني بأنفك الصغير إلى السماء... وما كان أخلقك أن تعلمي أن لديك كل ما يجعلك جديرة بإزجاء الحمد والشكر إليّ. وقد كان في إمكاني، بكوني والد الشاب الذي أغويته وسلبته لبه أن أزج بك في الإصلاحية منذ زمن مديد، ومع ذلك فقد ظللت أغض الطرف عن هذا الأمر... هيـــ ـهيـــ ـهي!».

ولكنا كنا في تلك اللحظة قد بلغنا المسكن فطرق صوته سمعي ونحن في المطبخ فوقفّت الدكتور لحظة، وإذا بي أسمع كلمة الأمير الأخيرة، ثم طرقت سمعي قهقهته البغيضة وهتاف ناتاشا اليائس: «حنانيك يا رب» فما لبثت أن فتحت الباب واندفعت نحو الأمير.

وبصقت في وجهه ولطمته بضع لطمات قوية. وكان هو قد أراد أن يبادر إلى الانقضاض عليّ، ولكنه حين رأى أننا اثنان آثر أن يفر بعد أن سارع باختطاف المال من فوق المنضدة. أجل، لقد فعل ذلك، وقد

شهدت ذلك منه بعيني رأسي، فقذفته بالأسطوانة الخشبية التي تصنع بها الإطرية (المكرونة) إذا ألفيتها بين يدي على منضدة المطبخ... ولما عدت مسرعًا إلى الغرفة بصرت بالدكتور يسند ناتاشا وهي تضرب بذراعيها كما لو كانت في نوبة عصبية وتحاول أن تفلت من يديه... وظللنا طويلًا عاجزين عن تهدئتها، ثم استطعنا أن نجعلها تأوي إلى فراشها، فأخذت تهذي هذيان المحموم.

وسألت وأنا أكاد أموت من الجزع: «ماذا ألمّ بها يا دكتور؟».

فأجاب: «مهلًا، فمن الواجب ملاحظة المرض قبل تشخيصه وتعيين كنهه... ولكن يبدو بوجه عام أن الحالة تبعث على الريبة كثيرًا، بل قد تنتهي مضاعفاتها إلى حمى مخية... ولكنا على أية حال سنعمل ما يجب أن يعمل».

بيد أن فكرة جديدة نجمت في رأسي فتوسلت إلى الدكتور أن يبقى مع ناتاشا ساعتين أو ثلاث ساعات، وأخذت منه وعدًا ألا يتركها وحدها لحظة، وأسرعت إلى منزلي.

وكانت نلي جالسة في ركن من أركان الغرفة في اهتياج واكتئاب، فنظرت إليّ نظرة غريبة، ولا ريب في أن هيئتي في تلك اللحظة كانت غريبة حقًّا.

فأمسكت بيدها وجلست على الأريكة وجذبتها فوق ركبتي وقبلتها قبلة منبعثة من صميم قلبي، فتورد وجهها.

وقلت: «نلي يا ملاكي، أتريدين أن تكوني منقذتنا؟ أتريدين إنقاذنا جميعًا؟».

فنظرت إليّ في عجب شديد.

«نلي، إن أملي الآن كله فيك، فثمة والد رأيته وتعرفينه قد لعن ابنته وجاء أمس إلى هنا ليرجوك أن تحلي محلها في منزله. فإنها، أي ناتاشا (وقد قلت ذات يوم إنك تشعرين نحوها بالحب) قد تخلى عنها ذلك الذي هامت به وهجرت أباها وأمها من أجله، وهو ابن ذلك الأمير الذي جاءني ذات ليلة، أتذكرين؟ ووجدك وحدك هنا، فهربت منه ثم اعتراك المرض بعد ذلك... أنت ولا شك تعرفينه إنه رجل شرير!».

فقالت نلي: «أعرف ذلك» وارتعدت وامتقع لونها امتقاعًا بالغًا.

«أجل، إنه رجل سوء وشرّ! وهو يبغض ناتاشا لأن ابنه أليوشا كان يعتزم الزواج منها. واليوم سافر أليوشا فلم تمض ساعة على سفره حتى كان هو عند ناتاشا فأهانها وتهددها بإرسالها إلى إحدى الإصلاحيات وأخذ يسخر منها، أأنت فاهمة يا نلي؟».

فقذفت عيناها السوداوان بشرر الغضب، ولكنها ما عتمت أن غضت منهما.

وهمست بصوت لا يكاد يسمع: «أجل».

«والآن قد صارت ناتاشا وحيدة مريضة، وقد تركتها في عناية دكتورنا الهرم وأسرعت إليك، فأرعيني سمعك يا نلي: دعينا نذهب الآن إلى والد ناتاشا، أنت لا تطيقينه وقد أبيت أن تذهبي إلى منزله، ولكن هلمي الآن نذهب إليه معًا وسأقول له ولامرأته إنك قد عدت الآن ترغبين في أن تقيمي معهما مكان ابنتهما. إن ذلك الوالد يحس الآن بالسقم لأنه

قد لعن ابنته، ولأن والد أليوشا قد ناله منذ أيام قليلة بإهانة قاتلة، فهو ما فتئ يكره سماع شيء من أمر ابنته، ولكنه مع ذلك يحبها، يحبها إلى غير حد يا نلي، ويودّ لو يتصافى وإياها. إني أعرف ذلك، أعرف ذلك كله! وليس الأمر إلا كما أقول! أسامعة أنت يا نلي؟».

فأجابت بذلك الصوت الهامس نفسه: «سامعة».

وكنت أكلمها والدموع تنهمر من مآقيّ، فنظرت إليّ في شيء من الذعر.

«أتصدقينني فيما قلت؟».

«أجل».

«إذن فهلمي نمضي معًا! سأذهب بك إليهما فيرحبان بك ويأخذان في توجيه الأسئلة إليك، وعندئذ أوجه أنا الحديث حتى يجدان نفسيهما يسألانك عما سلف من حياتك، عن أبيك وجدك، فقصي عليهما كل شيء يا نلي على نحو ما قصصته عليّ. لا بد أن تقصي كل شيء، كل شيء بكل بساطة ودون أن تكتميهما شيئًا، قصي عليهما كيف هجر ذلك الشرير والدتك، وكيف قضت نحبها في القبو عند البوبنوفا، وكيف كانت تتخبط وإياك في الطرقات تتكفف السابلة، واذكري ما قالته لك وهي في سكرات الموت... وقصي عليهما في الوقت نفسه كل ما يتعلق بجدك، وكيف أنه لم يشأ قط أن يصفح عن والدتك، وكيف أنها أرسلتك إليه وهي في ساعتها الأخيرة ليأتي إليها ويغفر لها، فأبى ذلك أيضًا... وكيف قضت بعدئذٍ نحبها وهي وحيدة، كل هذا، كل هذا يجب أن تقصيه

عليهما، فإذا قصصته عليهما، فإن الهرم سيشعر في قرارة قلبه بمثل ما تشعرين، فهو يعلم أن أليوشا قد تركها اليوم، وأنها قد أهينت وحقرت، وأنها غدت ليس لها من حام ولا نصير يكفّ عنها إهانة عدوها. هو يعلم كل ذلك... يا نلي! انقذي ناتاشا، فهل تذهبين معي؟».

فأجابت: «أجل» وعراها الانبهار ونظرت إليّ نظرة طويلة عجيبة دون أن تردّ طرفها عني، وكانت نظرتها ذات معنى كأنها عتاب صامت. لقد أحس ذلك قلبي إحساسًا قويًّا.

ولكني لم أكن أستطيع التخلي عن فكرتي هذه، فقد كنت أومن إيمانًا وطيدًا بأنها وسيلتنا إلى الفوز فأمسكت بيد نلي وخرجنا، وكانت الساعة قد بلغت الثالثة مساء، والجو يؤذن بعاصفة، وقد كان في الأيام الأخيرة قائظًا، أما الآن فقد أخذنا نسمع عن بُعد هزيم أول رعد من رعود الربيع المبكر، وكانت الريح تسفي التراب خلال الشوارع.

وركبنا مركبة، ولم تنبس نلي خلال الطريق ببنت شفة، بل كانت تنظر إليّ بين لحظة وأخرى تلك النظرة الغريبة الملغزة. وكان صدرها يعلو ويهبط، وعندما اضطررت إلى أن أمسكها مرة في المركبة، أحسست كيف ينبض قلبها تحت يدي كأنما يريد أن يثب من بدنها.

* * *

الفصل السابع

وبدا الطريق لعينيّ لا حد لطوله، بيد أنّا وصلنا آخر الأمر إلى غايتنا، وولجت غرفة إشمنيف الهرم وأنا أحس بالوجل، ولم أكن أعرف على أية حال سأفارق هذا المنزل، ولكن شيئًا واحدًا كان واضحًا جليًّا في ذهني، ذلك أنه لا ينبغي لي مطلقًا أن أنصرف من هنا دون أن أصل بالرجل إلى الغفران والصلح مهما يكن الثمن.

وكانت الساعة قد بلغت الرابعة والشيخان وحدهما كدأبهما. كان نيكولاي سيرجيفتش عليلًا مكتئبًا شاحبًا راقدًا ملقي في المقعد ذي المسندين كأنه محطم، وقد عصب رأسه بقطيلة وأنّا أندريفنا جالسة إلى جنبه تدلك صدغيه بالخل بين حين وحين وهي تنظر إليه دون انقطاع نظرات فاحصة مفعمة بالأسى، كانت على ما يبدو تثير قلق الشيخ بل تضايقه. وكان قد لزم الصمت مصرًّا عليه، فلم تجسر هي أن تبدأ بالكلام. وقد أدهشهما كليهما حضورنا، بل لقد عرى أنَّا أندريفنا بعض الانزعاج إذ رأتني ونلي قادمين ونظرت إلينا أول الأمر نظرة من تخامره الريبة وسوء الظن.

فقلت حين دخلت: «هأنذا قد أتيتكما بعزيزتي نلي، فقد راجعت نفسها في الأمر وأضحت الآن ترغب في البقاء عندكما، فتقبلاها وأحباها...».

فنظر الشيخ إليَّ نظرة ملؤها الريبة وسوء الظن، فأدركت من ذلك أنه فطن إلى كل شيء، أعني إلى أن ناتاشا قد أضحت الآن وحيدة مهجورة، وربما كان قد فطن أيضًا إلى أنها قد أهينت. ومن الواضح أنه كان يودّ لو يكشف من سر ظهورنا المباغت فقد أخذ ينظر إليّ وإلى نلي نظرات مستفهمة. وكانت نلي ترتعد من كل جسدها وتضغط يدي في تشنج، وقد أطرقت لا تنظر إلا نظرات وجلة تختلسها فيما حولها بين حين وحين كما لو كانت حيوانًا وقع في شرك. غير أننا لم نلبث إلا قليلًا حتى بدا على أنّا أندريفنا أنها قد ثاب إليها وعيها وأنها أدركت كل شيء. فأسرعت إلى نلي وقبلتها ولاطفتها وأخذت تنتحب وجذبتها إلى جانبها في رقة وحنان، وظلت محتفظة بيد الطفلة بين يديها ونلي تنظر إليها في فضول وشيء من الدهشة.

على أن السيدة العجوز بعد أن لاطفت نلي وأجلستها إلى جوارها، لم تدر ماذا ينبغي أن تصنع بعد ذلك، فأخذت تنظر إليَّ نظرات الطفل ينتظر شيئًا. أما الهرم فقد عبس وقطب حين فطن إلى سبب مجيء نلي. فلما رأى أني لاحظت أنه متسخط عابس الوجه وضع يده على رأسه وقال في جفاء وغلظة:

«أشعر بصداع في رأسي يا فانيا».

ثم لزمنا جميعًا الصمت، وأخذت أفكر كيف أبدأ الحديث. وبدأ

الظلام يسود الغرفة، إذ أخذت السحب القاتمة تتراكم وتتكاثف في الأفق، وكانت زمزمة الرعد تُسمع من بعيد.

فقال الهرم: «لقد بكرت الرعود كثيرًا في هذا العام، ولكني أذكر أنها كانت في عام سبع وثلاثين أكثر تبكيرًا حتى من هذه».

فتنهدت أنّا أندريفنا.

وسألت في حياء وخجل: «ألا أشعل النار تحت غلاية الشاي؟» فلم يجبها أحد، فالتفتت مرة أخرى نحو نلي.

وسألتها: «وما اسمك يا ملاكي الصغير؟».

فذكرت نلي اسمها بصوت خافت وطأطأت رأسها أكثر مما كان، فحدّق فيها الهرم بانتباه.

فتابعت أنّا أندريفنا حديثها وقد ازدادت حيويتها: «هذا الاسم مرادف لاسم هيلينا. أليس كذلك؟».

فأجابت نلي: «أجل».

وساد الصمت دقيقة أخرى.

ثم قال إشمنيف الهرم لزوجه: «لقد كانت ابنة شقيقك برسكفيا أندريفنا كذلك تدعى هيلينا، وكانوا ينادونها أيضًا باسم نلي. إنني أذكر ذلك».

وعادت أنّا أندريفنا تسأل: «وأنت يا ملاكي الصغير، لا أب لك ولا أم ولا قريب على الإطلاق؟».

فهمست نلي بصوت ينم عن حياء: «كلا».

«لقد بلغني ذلك. أمن عهد بعيد توفيت والدتك؟».

«كلا، من عهد قريب».

فتابعت أنّا أندريفنا أسئلتها وهي تنظر إليها في تأثر وعطف: «وإذن فأنت يتيمة أيتها الطفلة المسكينة؟».

وكان الشيخ ينقر المنضدة من فرط ما استفرغ صبره.

وتابعت العجوز أسئلتها في شيء من الخوف: «لقد كانت أمك أجنبية، أليس كذلك؟ ألم تقل لي ذلك يا إيفان بتروفتش؟».

فقلت: «لقد كانت أمها يا أنّا أندريفنا من أب إنجليزي وأم روسية، ومن ثم فهي أقرب إلى أن تكون روسية الأصل. ونلي نفسها ولدت في الخارج».

«ولِمَ رحلت أمها وزوجها ليقيما في الخارج؟».

فاصطبغ وجه نلي باحمرار ناريّ، وأدركت أنّا أندريفنا في التو أنها قد جانبت سبيل اللباقة في هذا السؤال، وارتعدت من نظرة زوجها المحنقة، فقد حدجها بنظرة قاسية ثم أشاح بوجهه عنها إلى النافذة.

وقال فجأة وقد ولى وجهه شطر أنّا أندريفنا: «لقد خدع والدتها وغد زنيم، هجرت دار والدها من أجله وسلمت إليه مال أبيها، فأما هو فقد استلب منها المال بخداعه وزين لها الرحيل معه إلى الخارج حيث سلبها كل ما تملك ثم تركها في شر حال. وكان لها صديق من أهل الخير ظل على الوفاء لها، فاستمر يواسيها حتى اخترمته المنية فعادت إلى والدها وكان ذلك منذ نحو سنتين» ثم سأل في إيجاز: «هذا ما ذكرته أنت لي يا فانيا؟».

فوثبت نلي من مكانها وهي في أشد الاهتياج وهمت بالمسير صوب الباب.

فقال الشيخ في النهاية وقد بسط إليها يده: «تعالي يا نلي. اجلسي هنا إلى جانبي، اجلسي هكذا، اجلسي».

وانحنى عليها وطبع جبينها بقبلة ومسح بيده على رأسها في رفق، فاشتملت جسدها رعدة، بيد أنها ملكت نفسها. ونظرت أنّا أندريفنا وهي متأثرة، تداعبها آمال مبهجة، إلى نيكولاي سيرجيفتش الذي قد شرع في آخر الأمر في تدليل اليتيمة الصغيرة.

وكان الشيخ قد بلغ منه التأثر أقصى حدوده، فظل يمسح على رأس نلي، فقال وكأنه يأبى إلا أن يدمغنا بهذا التحدي: «إني أعلم يا نلي أن امرأً شريرًا لا ضمير له دفع بأمك إلى الهاوية، ولكني أعلم أيضًا أنها كانت تحب أباها أشد الحب وتمحضه عظيم إجلالها» واكتسى خدّاه الشاحبان بالاحمرار، بيد أنه جهد ألا ينظر إلينا.

فقالت نلي في خفر ولكن بصوت ثابت، وهي تتحامى أن يقع بصرها على أحد: «لقد كانت أمي أحب لجدي منه لها».

وسأل الشيخ في حدة وقد غدا كالطفل لا يستطيع قمع مشاعره، ولكنه كان في الوقت نفسه خجلًا من قلة صبره: «وأنى لك علم ذلك؟».

فأجابت في إيجاز: «إنني أعلم ذلك إذ إنه أبى أن يستقبل والدتي و... نبذها ظهريًا...».

ولاحظت أن نيكولاي سيرجيفتش أراد أن يقول شيئًا، أن يجيب عن

كلامها، لعله أراد أن يقول إن الوالد كان محقًّا كل الحق في نبذها، غير أنه نظر إلينا ولزم الصمت.

فسألت أنّا أندريفنا وقد ظهرت فجأة بمظهر المصرّ على أن يستمر هذا البحث: «وأين كان مثواكما إذن وقد أبى جدك قبولكما؟».

فأجابت: «لقد ظللنا عند قدومنا إلى هنا فترة طويلة نبحث عن جدي، ولكنا لم نستطع أن نهتدي إليه في أي مكان.

وقد قصت عليّ أمي إذ ذاك أن جدي كان فيما مضى واسع الثراء، وأنه كان يعتزم إنشاء مصنع كبير، ولكنه انقلب فقيرًا معدمًا، إذ إن الشخص الذي سافر مع أمي قد اغتال بوساطتها كل أمواله، ولم يرد أن يردها إليها. لقد قصّت عليّ ذلك هي نفسها».

فتمتم الشيخ الهرم: «مرحى».

وتابعت نلي كلامها وهي لا تزداد إلا نشاطًا وتحمسًا. وكان من الواضح أنها توجه كلامها إلى نيكولاي سيرجيفتش وإن كانت متجهة شطر أنّا أندريفنا: «وقد قالت لي علاوة على ذلك إن جدي قد سخط عليها سخطًا بالغًا وإنها هي نفسها تشعر كذلك بما ارتكبت نحوه من جرم، بيد أنه لم يبق لها في العالم أحد سواه. وكانت تحدثني بذلك ويشوب حديثها الأنين والعويل... وقالت لي عندما وصلنا إلى هنا وإنه لن يصفح عني لمكاني منك. وكانت أمي تحبني أكثر من كل شيء، وقد أخذت وهي تقول ذلك تقبلني، على أنها ما فتئت تخشى أن تذهب إلى جدي. ولقد علمتني أن أصلي من أجله كما كانت هي تصلي من أجله.

وكثيرًا ما أخبرتني كيف كانت تعيش معه فيما سبق، ذاكرة أنه كان يحبها أكثر من كل شيء في العالم، وكثيرًا ما قصت عليّ كيف أنها كانت في المساء تعزف بين يديه على البيانو وتقرأ له الكتب، وكان هو يغمرها بقبلاته ويهدي إليها الهدايا الجميلة ويحقق لها كل رغباتها، حتى كاد ينجم من جراء ذلك نزاع في عيد ميلادها، ذلك أنه كان قد خيل له أن والدتي لا تعرف ما يعتزم إهداءه إليها، ولكنها كانت قد عرفت ذلك منذ زمن طويل، إذ كانت قد طلبت إليه قرطًا، فتعمد الآن أن يضللها زاعمًا أنه لم يحضر قرطًا بل آثر أن يهدي إليها «بروشًا» فلما أتى بعد ذلك بالقرط، رأى أن أمي كانت على علم أنه سيهدي إليها قرطًا لا بروشًا، فأسخط ذلك جدي حتى لبث نصف يوم لا يحدثها، بيد أنه عاد بعد ذلك من تلقاء نفسه فقبّلها ورجاها أن تصفح عنه...».

وكانت نلي تقص قصتها في حمية متفاقمة حتى لقد علت خديها المنقوفين الشاحبين حمرة خفيفة.

وكان جليًا أن أمها كثيرًا ما كانت تتحدث إليها عن أيامها الهنيئة التي انصرمت، حين كانتا تجلسان في زاويتهما بالقبو الذي يقيمان فيه، وهي تنهال بالعناق والتقبيل على ابنتها الصغيرة التي هي سلوتها الوحيدة والتي هي كل ما بقي لها في الحياة، وتبكي همومها، دون أن تدري ما ستتركه قصصها من أثر عميق في مزاج ابنتها، ذلك المزاج المريض المرهف المبكر في النضوج.

ولكن نلي عادت فجأة فهدأت من حميتها وملكت نفسها في ريبة

ثم صمتت، فقطب الشيخ وبدأ ينقر النضد من جديد، وتلألأت دمعة في عين أنّا أندريفنا فمسحتها بمنديلها في صمت.

وتابعت نلي قصصها بصوت أكثر خفوتًا قائلة: «وقد أتت أمي إلى هنا وهي مريضة تشكو آلام صدرها، فبحثنا طويلًا عن جدي دون أن نهتدي إليه، فاستبدلنا بمسكننا زاوية بأحد الأقباء».

فصاحت أنّا أندريفنا: «مريضة وفي زاوية بقبو!».

فقالت نلي: «أجل... في زاوية... فقد كانت أمي شديدة الفقر» ثم استطردت تقول في حمية: «وقد قالت لي: لا خطيئة في أن يكون المرء فقيرًا، ولكن الخطيئة أن يكون غنيًّا ويذل الآخرين... وقالت إنها تتلقى جزاءها من الله».

فسأل الشيخ وقد ولى وجهه شطري مجتهدًا أن يلقي هذا السؤال بلهجة غير المبالي. وكان يلوح أنه إنما يسأل لأنه شعر بأنه من غير اللائق أن يشهد هذا الحديث وهو صامت: «فانتقلتما توًّا إلى جزيرة فاسيلي؟ هناك عند السيدة بوبنوفا، أليس كذلك؟».

فأجابت نلي: «كلا، لم يكن إلى هناك، فقد أقمنا أول الأمر في ميشتشانسكايا» ثم تابعت القول بعد ما صمتت هنيهة: «ولكن المسكن هناك كان شديد الرطوبة متكاثف الظلمة فمرضت أمي من جرّاء ذلك مرضًا شديدًا، ولكنها كانت إذ ذاك لا تزال قادرة على الخروج من المنزل والضرب في الطرقات. وكنت أغسل لها الغسيل في حين تواصل هي البكاء. وكانت تقيم هناك كذلك امرأة عجوز هي أرملة يوزباشي، ثم

موظف سابق هو الآن في المعاش، وكان من دأبه أن يؤوب إلى المنزل سكران فيسب ويحدث فضيحة في كل ليلة، وكنت أخافه خوفًا يثير فيّ الرعب، فكانت أمي تأخذني إليها في الفراش وتطوقني بذراعيها، ولكنها كانت هي نفسها ترتعد من فرعها إلى قدمها في بعض الأحيان حين تسمع صخب الموظف وسبابه، وقد بلغ به الأمر أن شرع ذات مرة يضرب أرملة اليوزباشي، وكانت عجوزًا شمطاء تتوكأ على عصا، فرثت لها والدتي وأرادت أن تكف عنها أذاه، فضرب هو أمي أيضًا، فضربته أنا...».

وتوقفت إذ طغت عليها الذكرى، والتمعت عيناها.

وصاحت أنّا أندريفنا: «يا ألله!» وقد ملكت عليها القصة نفسها، فظلت لا ترفع طرفها عن نلي وكانت نلي متجهة إليها.

وتابعت قصتها قائلة: «فرحلت أمي من هناك وأخذتني معها، وكان رحيلنا نهارًا، وظللنا نهيم في الطرقات حتى وافى المساء، فبكت وظلت تسير وتوالي السير وهي تجرني من يدي، وكان التعب قد أنهكني، وكنا أيضًا قد طوينا سحابة النهار لم نذق طعامًا، فأما أمي فقد ظلت تكلم نفسها، ثم قالت لي: ابقي فقيرة يا نلي، فإذا متّ فلا تستمعي لأحد ولا لشيء ولا تذهبي إلى امرئ ما، بل ابقي فقيرة، ولكن اشتغلي، فإذا لم تجدي عملًا فتكففي الناس، على أنه لا ينبغي لك أن تذهبي إليه». وكانت الشمس قد غربت حين عبرنا شارعًا واسعًا، فإذا بأمي تصيح فجأة: «أزركا أزركا!» وإذا بكلب قد تساقط شعره حتى لم تبق به شعرة

واحدة، قد جرى إلى أمي وأخذ يهرّ ويثب عليها، وهلعت أمي هلعًا بالغًا وشحب وجهها وصرخت ثم خرت جاثية بين يدي رجل طويل هرم كان يسير مطرقًا متوكئًا على عصا. هذا الرجل الطويل الهرم كان جدي، وكان هزيلًا جدًّا سيئ البزة رث الثياب، وعلى هذا النحو شاهدت جدي أول مرة. وقد ارتعب هو أيضًا وشحب وجهه، وعندما رأى والدتي جاثية بين يديه مطوقة ساقيه بذراعيها، نزع نفسه ودفع أمي عنه وقرع بعصاه بلاط الشارع، وأسرع بالانصراف، ولكن أزركا بقي معنا وظل يهر ويلعق أمي ثم جرى وراء جدي فتعلق بمعطفه وأخذ يجذبه إلى ناحيتنا، فضربه جدي بعصاه فعاد أزركا يعدو نحونا، ولكن جدي صاح به فذهب يتبعه وهو مستمر في هريره، وبقيت أمي مستلقية كالميتة، فاجتمع الناس حولها وحضر رجل الشرطة، وكنت أبكي وأعمل جاهدة على إنهاضها وأخيرًا نهضت وأجالت نظرها فيما حولها ثم استأنفنا المسير فقدتها إلى المنزل وبقي الناس يتبعوننا بأبصارهم وهم يحركون رؤوسهم...».

وتوقفت نيلي لتتنفس وتستجم، وكان وجهها قد امتقع امتقاعًا شديدًا، ولكن نظراتها كانت تومض ببريق العزيمة. وكان باديًا أنها قد حزمت رأيها على أن تقول شيء، بل إنها في هذه اللحظة كانت تنطوي على شيء شبيه بالتحدي.

وقال نيكولاي سيرجيفتش بصوت مضطرب في شيء من الانفعال والحدة: «حقًّا. لقد أمرضت أمك جدك وحقرته، فله الحق كل الحق في نبذها...».

فقالت نلي بحدة: «لقد قالت لي ذلك أمي أيضًا، فقد أخذت تقول لي عندما وصلنا إلى البيت: وإن ذلك جدك يا نلي، وقد اقترفت في حقه خطيئة جسيمة فلعنني، ولهذا فإن الله يقتص مني الآن؟

وظلت طوال الليل والأيام التالية تردد هذا القول على مسمعي، وكانت تتكلم وكأنها غارقة في حلم».

فصمت الشيخ.

وسألت أنّا أندريفنا وكانت ما تنفك تبكي بصوت خافت: «وما حملكما على أن تنتقلا إلى المسكن الآخر؟».

«وفي تلك الليلة نفسها مرضت والدتي مرضًا شديدًا، وعثرت لها امرأة اليوزباشي على مسكن بوبنوفا فانتقلنا إليه بعد ثلاثة أيام نحن وامرأة اليوزباشي، وظلت أمي بعد انتقالنا فترة طويلة لا تستطيع النهوض من فراشها، ولبثت ثلاثة أسابيع طريحة الفراش وأنا دائبة على العناية بها. وكنا قد أنفقنا كل ما كان لدينا من نقود، ولكن امرأة اليوزباشي وإيفان ألكسندروفتش مدّا لنا يد المعونة».

فقلت موضحًا: «ذاك هو صانع التوابيت الذي كانا يقطنان عنده».

«فلما نهضت أمي من فراش المرض واستطاعت المشي، قصت علي كل شيء من أمر أزركا».

وتوقفت نلي عن الحديث، وسر الشيخ سرورًا جليًّا بانتقال الحديث إلى ما حدث لأزركا.

فسأل: «وماذا قصت عليك من أمر أزركا؟ وتطامن أكثر مما كان من قبل في كرسيه ذي المسند، كما لو كان يريد أن يحجب عنا وجهه جميعًا مقتصرًا على إطراقه إلى الأرض.

فأجابت نلي: «لقد استمرت لا تتكلم إلا عن جدي، بل إنها وهي مريضة بل وهي في برحاء الحمى لم تكن تتكلم إلا عنه. فلما تحسنت حالها بدأت دفعة واحدة تقص عليّ كيف كانت تعيش فيما مضى... وقصت عليّ كذلك ما يتصل بأزركا، فقد حدث أن ربطه بعض الصبية في يوم من الأيام بحبل وجروه وراءهم إلى المدينة حتى بلغوا مجرى من مجاري المياه ابتغاء إغراقه، فنفحتهم أمي بشيء من المال ثمنًا له. ولما رأى جدي أزركا ضحك وكركر في الضحك، ولكن أزركا هرب ثانية، فبكت أمي عليه كثيرًا حتى خشي جدي عليها مغبة ذلك فأعلن أن من يعيده إليه فله منه مائة روبل، فأحضر إليه بعد ثلاثة أيام، ونقد جدي من أحضره مائة روبل، وأحب أزركا من ذلك اليوم. أما أمي فقد كلفت به كلفًا شديدًا حتى كانت تأويه إليها في فراشها. وقد أخبرتني أنه كان فيما مضى يصحب بعض المهرجين في تجوالهم بالطرقات يعتلي ظهره قرد صغير، وكان هو يقوم بألعاب فنية شتى، فيمشي على قائمتين اثنتين ويحمل بندقية على كتفه، فلما هجرت والدتي جدي، احتفظ هو بأزركا ولم يكن يخرج من دونه حتى إن أمي حينما بصرت به في تلك المرة، أيقنت في الحال أن جدي لا يمكن أن يكون بمنأى عنها...».

وكان جليًّا أن إشمنيف الهرم كان يتوقع أن يسمع من أمر أزركا شيئًا

آخر، فأخذ وجهه يكفهر ويزداد عبوسًا ثم كف عن الأسئلة إطلاقًا.

وسألت أنّا أندريفنا: «أو لم تري جدكِ بعد ذلك قط؟».

«بلى، قابلته ثانية، عندما تحسنت حال أمي، فقد كنت ذاهبة إلى الخباز لأشتري خبزًا، وإذا بي أرى مع أزركا رجلًا، فحدقت فيه بإمعان، فعرفت فيه جدي فانتحيت جانبًا وألقيت بنفسي في قوة إلى الجدار، ولكنه لحظني مع ذلك فأخذ ينظر إلي شذرًا، وكان منظره فظيعًا فغشيني منه هلع عظيم، ثم مر بي في منصرفه ولكن أزركا عرفني فأخذ يثب حولي ويلعق يدي فانطلقت مسرعة إلى المنزل. والتفت مرة إلى الوراء فإذا بجدي قد ذهب إلى حانوت الخباز، فقلت في نفسي: لا شك أنه يستفهم الآن عني، فازداد هلعي. ولما عدت إلى المنزل لم أنبئ أمي بشيء من ذلك خشية أن يعاودها المرض. ولم أمض في اليوم التالي إلى حانوت الخباز زاعمة أني أعاني نوبة صداع واضطررت أن أذهب إليه في اليوم الثالث فلم ألق أحدًا، ومع ذلك فقد انتابني هلع شديد حتى ظللت أعدو طول الطريق. وذهبت مرة أخرى في اليوم التالي، وبينا أنا أنثني في المنحنى إذا بجدي ماثل قبالتي ومعه أزركا فتنكبت طريقه وعدوت في أحد الشوارع الجانبية لأصل إلى المخبز من طريق آخر، غير أني وجدت نفسي أواجه جدي ثانية، فاستولى عليّ الرعب وجمدت في مكاني لا أستطيع حراكًا كأني مشدودة إلى الأرض. وظل جدي واقفًا قبالتي يحدق إليّ طويلًا، ثم مسح على رأسي في رفق وأمسك بيدي يقودني، وأزركا يتبعنا مبصبصًا. ثم لاحظت أن جدي لا يستطيع المشي

منتصبًا، وأنه مضطر إلى أن يعتمد على عصاه، وأن يديه ترتعشان دائمًا. وقد سار بي إلى بائع على ناصية الطريق يبيع كعكًا وتفاحًا فابتاع لي كعكتين صنعتا على صورة ديك وسمكة، كما ابتاع لي ملبِّسًا وتفاحة. وعندما تناول النقود من كيسه ارتعشت يداه بشدة فسقطت منه قطعة ذات خمسة كوبيكات، فتناولتها من على الأرض فمنحنيها وناولني الكعكتين ثم مسح برأسي دون أن ينبس كذلك بكلمة ومضى لسبيله، فذهبت إلى أمي وأنبأتها بكل شيء من أمر جدي بما في ذلك خوفي منه أول مرة ومحاولتي أن أتوارى عنه، ولم ترد أمي في بادئ الأمر أن تصدقني، ولكنها بعد ذلك فرحت فرحًا شديدًا حتى ظلت سواد أمسيتها تسألني وتعيد سؤالي وتقبلني وتنتحب، فلما قصصت عليها كل شيء نصحت إليّ ألا أخشاه في المستقبل، وأخبرتني أنه لا بد أن يكون قد أحبني ما دام قد توخى المجيء لرؤيتي، وتقدمت إليّ بأن ألاينه وأن آخذ معه في الحديث. وأرسلتني في اليوم التالي خارج المنزل بضع مرات في الصباح مع أني أنبأتها بأن جدي لا يخرج إلا في المساء، وسارت في أثري بنفسها على بعد وتوارت في الناصية، وكذلك فعلت في اليوم التالي غير أن جدي لم يأت. على أن المطر كان غزيرًا في هذين اليومين فأصاب البرد أمي لطول ما وقفنا في الطريق أمام باب المنزل، فاضطرت إلى أن تلزم الفراش من جديد.

ولم يأت جدي ثانية إلا بعد ثمانية أيام، فابتاع لي سمكة وتفاحة، وكذلك لم يتحدث إليّ في هذه المرة بحديث ما، فلما انصرف تسللت

وراءه بخطى خافتة لأعرف أين يقطن لأنبئ أمي بذلك، وكنت قد بيّت النية على ذلك من قبل، فاقتفيت أثره مسافة طويلة وأنا على الجانب الآخر من الشارع حتى لا يراني، وكان يقطن بعيدًا، ليس في المنزل الذي أقام به فيما بعد وتوفي فيه، بل في جوروشوفايا، في دار كبيرة أيضًا، في الطبقة الرابعة منها. وقد تقصيت كل ذلك وعدت إلى المنزل في ساعة متأخرة جدًّا. وعظم القلق بأمي إذ لم تستطع أن تتبين سر غيابي، فلما أنبأتها بما كان، سرت كثيرًا واعتزمت أن تبادر بالذهاب إلى جدي في اليوم التالي، بيد أن الشكوك والهواجس غلبت عليها في اليوم التالي فخارت عزيمتها وزايلتها شجاعتها وظلت ثلاثة أيام في خوف وانتهى بها الأمر إلى أن قعدت عن الذهاب، ثم نادتني إليها وقالت: اسمعي يا نلي، إنني الآن مريضة وليس في مقدوري أن أمضي إلى هناك، بيد أني كتبت رسالة لجدك، فاذهبي إليه وسلميها له وارقبيه في انتباه أيقرأها أم لا، وماذا يقول في شأنها وماذا يعتزم أن يعمل؟ واجثي أمامه وقبلي يده واضرعي إليه أن يصفح عن أمك... ثم أعولت واندفعت تقبلني ولوحت عليَّ راسمة صورة الصليب حتى لا يصيبني أذى في الطريق وجثت تصلي ودعتني فجثوت بجانبها أمام صورة أم الإله. ومع ما كانت تعانيه من شدة المرض شيعتني حتى الباب، فلما تلفتّ إلى الوراء مرة أخرى ألفيتها ما تزال واقفة هناك تتبعني بنظرها وأنا ذاهبة... وأتيت جدي وفتحت الباب وقد كان بغير قفل، فألفيته جالسًا إلى المائدة يأكل خبزًا وبطاطس وأزركا واقف إلى جانبه ينظر إليه مبصبصًا بذنبه. وكانت نوافذ هذا المسكن متطامنة معتمة، ولم يكن فيه غير منضدة وكرسي،

وكان جدي يقيم به وحده، فلما دخلت عليه ذعر حتى شحب وجهه وجعل يرتعد. وأنا كذلك تولاني الخوف فلم أستطع أن أفوه بكلمة، ولذلك ذهبت إلى المنضدة فوضعت الرسالة عليها، فلما بصر بها سخط سخطًا شديدًا ووثب من مقعده وأمسك بعصاه ولوّح بها في وجهي، ولكنه لم يضربني بل أخذني إلى السلم ودفعني بعيدًا، وما كدت أهبط بضع درجات حتى كان قد فتح الباب بقوة وقذف بالرسالة من ورائي دون أن يفضها، فسرت إلى المنزل وأنبأت أمي بكل ما حدث فعاودها المرض مرة أخرى ولزمت الفراش...».

* * *

الفصل الثامن

ودوى في هذه اللحظة هزيم قاصف وأخذ المطر ينهمر فينفذ من خلال زجاج النوافذ وأظلمت الغرفة، فسرت قشعريرة في جسد الشيخ ولوح برسم الصليب على نفسه، وإذا بنا جميعًا قد صمتنا وشملنا الصمت.

وقال الشيخ وقد أطل من النافذة: «سرعان ما تنقضي هذه الحال» ثم نهض فأخذ يمشي في الغرفة ذهابًا وجيئة ونلي تتبعه بنظراتها خلسة، وكانت في حالة مرضية شاذة، وقد لحظت منها ذلك، ولكنها عملت على أن تتحامى النظر إليَّ.

وسأل الهرم وقد عاد إلى الجلوس في كرسيه ذي المسند: «حسن، ثم ماذا؟».

فتلفتت نلي فيما حولها يعروها شيء من الارتياع.

«وإذن فأنت لم تري جدك بعد ذلك؟».

«كلا، بل رأيته بعد ذلك....».

فبادرت أنّا أندريفنا تقول: «حسنًا، استمري يا عزيزتي، خذي في قصصك».

فتابعت نلي قصصها قائلة: «ولبثت لا أراه ثلاثة أسابيع كان الشتاء في خلالها قد أقبل وكان البرد قد حل وجلل البرد السبل، فلما لقيت جدي ثانية في المكان نفسه فرحت فرحًا بالغًا إذ كانت أمي حزينة لقطيعته، فلما رأيته عدوت إلى الناحية الأخرى من الطريق لكي أريه أني أهرب منه، والتفت إلى الوراء فرأيته يتبعني أول الأمر بخطوات مسرعة ثم رأيته يهرول للحاق بي وهو يصيح: «نلي، نلي!» وكان أزركا يعدو وراءه بلا انقطاع فرثيت لجدي ووقفت حتى لحق بي، وقد أمسك بيدي ولكنه حين رآني أبكي ظل واقفًا يرنو إليّ ثم انحنى وقبلني، ولحظ في أثناء ذلك أني أنتعل حذاءً ممزقًا فسألني عما إذا لم يكن لي حذاء غيره؟ فبادرت بإخباره بأنه لم يبق لدى أمي شيء من المال وأن أصحاب البيت يرثون لنا فيجودون علينا بما يحفظ علينا الحياة، فلم يقل شيئًا بل أخذني إلى السوق واشترى من أحد الدكاكين كعكة صغيرة محشوة وقطعتين من الحلواء، فلما بلغنا مسكنه طلب إلي أن آكل الكعكة وظل ينظر إليّ وأنا ألتهمها، ثم ناولني أيضًا قطعتي الحلواء. وكان أزركا واضعًا براثنه على المنضدة كأنه يسألنا قطعة من الكعك فأعطيته لقمة منه فضحك جدي من ذلك، ثم أخذني فوقفني أمامه ومسح على رأسي وسألني هل

تعلمت شيئًا وماذا تعلمت؟ فأخبرته، فقال إن عليّ أن آتي إليه كل يوم حوالي الساعة الثالثة ما استطعت الحضور، كي يتولى تعليمي، ثم طلب إليّ أن التفت ورائي وأنظر من النافذة حتى يأذن لي في أن أعود فأتجه إلى داخل الغرفة، ولكني التفتّ خلسة فرأيته ينزع الغطاء الذي يكسو طرف الوسادة ويخرج من داخله أربعة روبلات نفحني بها قائلًا: «هذه لك أنت وحدك!» فهممت أن أتناولها ولكني ترويت في الأمر ثم قلت له إن كانت لي أنا وحدي فلن آخذها، فآسفه قولي إلا أنه قال: «إذن فخذيها وافعلي بها ما تشائين وانصرفي!» فانصرفت، غير أنه لم يقبلني في هذه المرة عند انصرافي».

فلما رجعت إلى المنزل أنبأت أمي بكل ذلك، بيد أن حالتها أخذت تزداد على الأيام سوءًا، وكان ثمة طالب من طلبة الجامعة يختلف إلى صانع التوابيت في أوقات معلومة، فتولى معالجة أمي، ووصف دواء أشار عليها بتناوله.

أما أنا فكنت أكثر من الاختلاف إلى جدي تحقيقًا لرغبة أمي، وقد اشترى نسخة من العهد الجديد وكتابًا في علم تقويم البلدان وشرع يعلمني، فعلمني أسماء ما على الأرض من بلاد وبحار، وحدثني عن الشعوب التي تعمرها وعما كان في غابر الأزمان وسالف العصر والأوان، وكيف أن المسيح خلصنا جميعًا. وكنت إذا ألقيت عليه سؤالًا اشتد به الفرح فأخذت أكثر من سؤاله، فقص عليّ أشياء كثيرة كما حدثني طويلًا عن الله. وكنا في بعض الأحيان نقف الدرس فنلاعب أزركا، وقد أحبني

أزركا حبًّا جمًّا، ودربته أنا على أن يقفز فوق العصا، فكان جدي يضحك ويمسح على رأسي، على ما كان في طبعه من قلة الميل إلى الضحك. وقد تحدث إليّ ذات مرة طويلًا، ثم إذا به قد صمت فجأة وجلس ساكتًا حتى بدا كأنه نائم مع أن عينيه كانتا مفتوحتين وظل في تلك الجلسة حتى الغسق. وكان إذا ما خيم الظلام يبدو بشع الهيئة وفي أرذل العمر. ولقد وفدت عليه ذات مرة فإذا هو جالس على كرسيه غارق في أفكاره حتى كان لا يسمع، وأزركا مستلق منبطح إلى جانبه، فظللت أنتظر وأخذت أسعل وأتنحنح ولكنه لم يأبه لي فلم أجد غير الانصراف. وكانت أمي ما تزال تنتظرني في المنزل وقد نفد صبرها وكانت راقدة في فراش مرضها، فأخذت أقص عليها كل شيء حتى جنّنا الليل وأنا ما زلت أقص عليها وهي مصغية تريد المزيد من أنباء جدي: ماذا فعل اليوم؟ وما هي القصص التي قصها عليّ؟ والدروس التي علمنيها؟ فلما قصصت عليها أني دربت أزركا على القفز فوق العصا وأن جدي ضحك من ذلك أخذت تضحك هي أيضًا وظلت تضحك طويلًا، وغمرها مرح عظيم، واضطررت أن أقص عليها ذلك مرة أخرى، وإذا بها تنهض فتصلي. وأخذت أتأمل طويلًا كيف أنها تحب جدي حبًّا جمًّا، على حين أنه هو لا يضمر لها شيئًا من الحب. ولما ذهبت إليه بعد ذلك تعمدت أن أقص عليه كيف أن أمي تحبه فسمع لكل حديثي وهو متجهم الوجه ينظر ساخطًا، فسألته كيف يحدث أن تحبه أمي كل هذا الحب وتسأل عنه دائمًا، على حين أنه هو لا يعرف من أمرها شيئًا، فغاظه قولي حتى دفع بي إلى خارج الباب فظللت برهة أنتظر خارجه وإذا به يفتحه وينادي إليه، بيد أنه كان لا يزال

مغضبًا لا يفوه بكلمة. ولما قرأنا في الكتاب المقدس سألته مرة أخرى: كيف يكون عيسى المسيح قد قال تحابوا واغفروا لمن أساء إليكم! وهو لا يصفح عن أمي؟ فوثب صائحًا إن أمي هي التي لقنتني ذلك، وطردني خارج الباب للمرة الثانية وهو يقول: أرجو ألا تحدثك نفسك بالعودة إليَّ، فقلت له إنني من تلقاء نفسي لن أعود لرؤيته وانصرفت... وفي اليوم التالي انتقل جدي إلى مسكن آخر...».

فقال نيكولاي سيرجيفتش وهو ينظر من النافذة: «لقد قلت منذ هنيهة إن المطر سرعان ما يكف، وها هو ذا قد كف حقًّا وعادت الشمس إلى إشراقها... انظر يا فانيا».

فنظرت إليه أنّا أندريفنا وهي أشد ما تكون عجبًا ودهشة، ثم إذا بشيء يشبه التقزز والغضب قد بدا في عيني السيدة العجوز التي كانت حتى الآن وادعة متهيبة، فأمسكت بيد نلي صامتة وأجلستها في حجرها وقالت: «أنبئيني بقصتك يا ملاكي الصغير، أنبئيني بها أنا وحدي فأستمع إليك، ودعي أولئك القساة القلوب...».

ولم تكمل جملتها بل انفجرت بالبكاء، فنظرت نلي إليّ مستفهمة كأنما يداخلها الشك والفزع، وكذلك التفت الشيخ إليّ فهز كتفيه ثم عاد في التو فأشاح بوجهه عني.

فقلت: «امضي في حديثك يا نلي».

فاستأنفت حديثها قائلة: «وأمسكت عن زيارة جدي ثلاثة أيام، وكانت أمي خلال هذه المدة قد ساء حالها كثيرًا ونفد ما كان لدينا من

المال فلم يبق معنا ما يكفي ثمنًا للدواء، كما أنه لم يبق لدينا من الطعام ما نتبلغ به، فإن أصحاب البيت هم أنفسهم لم يبق لديهم ما يتبلغون به فأخذوا يوجهون إلينا قوارص اللوم لأننا نعيش عالة عليهم، ولكني نهضت في اليوم الثالث مبكرة وأخذت أرتدي ملابسي فسألتني أمي إلى أين أقصد فأجبت: «إلى جدي لأسأله نقودًا!» ففرحت فرحًا عظيمًا إذ إني كنت قد أخبرتها كيف طردني وأنبأتها بأني لن أرجع إليه أبدًا، رغم بكائها ومحاولتها إقناعي بالذهاب إليه. ولما جئت مسكنه علمت أنه انتقل إلى مسكن آخر، فأخذت أبحث عن مسكنه الجديد فلما ولجت عليه الغرفة وثب واندفع نحوي متعثرًا، فقلت له في سرعة ولهفة إن أمي مريضة جدًّا وإنه لم يبق لدينا من المال ما نبتاع به الدواء وثمنه خمسون كوبيكا، وإنه كذلك لم يبق لدينا ما نمسك به رمقنا، فنهرني وطردني إلى السلم وسكّ الباب بالمترس، ولكني قلت له وهو يدفعني إلى الخارج إني سأظل جالسة على الدرج لا أنصرف حتى يعطيني نقودًا، وكذلك جلست على الدرج، وفتح هو الباب بعد فترة وأطل فرآني جالسة فأقفله من جديد، وظل بضع مرات يفتح الباب وينظر إليّ، وخرج آخر الأمر هو وأزركا وأقفل الباب من الخارج وبرح المنزل، وقد مر بي دون أن يوجه إليّ كلمة وكذلك لم أوجه أنا إليه كلمة، بل لبثت جالسة على السلم حتى جن الظلام».

فصاحت أنّا أندريفنا: «أي طفلتي المسكينة! لقد كان السلم شديد البرودة من غير ريب!».

فقالت نلي: «كنت أرتدي معطفًا مبطنًا بالفرو».

«وماذا يجدي المعطف يا طفلتي المسكينة، ما أكثر ما ألمت وعانيت! ولكن ماذا فعل جدك بعد ذلك؟».

فبدأت شفتا نلي ترتجفان ولكنها بذلت جهدًا جهيدًا حتى استطاعت أن تملك مشاعرها.

«لقد عاد حين اشتدت حلكة الليل فاصطدم بي في صعوده إلى مسكنه، فسأل من هذا فأجبته إنه أنا. وكان يعتقد أني انصرفت إلى منزلي منذ حين، فلما رآني ما زلت جالسة دهش دهشة بالغة فظل فترة غير قصيرة واقفًا أمامي، ثم قرع الباب بعصاه ومر من جانبي ففتح الباب وبادر فأحضر بضع قطع نحاسية من ذوات خمسة الكوبيكات وقذف بها بين يدي على الدرج وصاح بي: هاك نقودًا فخذيها فهي كل ما أملك، وأبلغي أمك أني ألعنها! ثم أغلق الباب، أما النقود النحاسية فتدحرجت إلى أسفل الدرج، فشرعت أبحث عنها في الظلام، ولكن جدي تنبه إلى أنه قذف بالنقود وأنه أمسى من العسير عليّ أن أعثر عليها في تلك الظلمة الحالكة، ففتح الباب وأتى بنور يسّر لي أن أتلقطها جميعًا، بل لقد ساعدني بنفسه في ذلك وقال إن عُدتها جميعًا سبعون كوبيكا، ثم دخل مسكنه وعدت إلى منزلي فأعطيت أمي النقود وأنبأتها بكل شيء، بيد أن حالتها أخذت تزداد سوءًا وكذلك استولى المرض عليّ أنا طول الليل، فلما طلع نهار اليوم التالي كنت تحت وطأة حمى شديدة، غير أنه لم يكن يشغلني إلا شيء واحد، ذلك هو سخطي على جدي، فلما

نامت أمي خرجت مهرولة إلى مسكنه، بيد أني وقفت هنيهة في منتصف الطريق على القنطرة، فأتى ذلك الـــ....

فقلت: «إنها تقصد أرشيبوف، وقد ذكرت لك أمره يا نيكولاي سيرجيفتش... ذلك الذي كان مع التاجر عند بوبنوفا وضربوه عندها، وكانت نلي قد رأته هناك للمرة الأولى... امضي في حديثك يا نلي!».

«فوقفته وسألته أن يمنحني مالًا، روبلًا فضيًّا، فنظر إليّ وسألني: روبلًا فضيًّا؟ فقلت: «أجل» فطفق يضحك وقال: «تعالي معي!» فلم أدر أينبغي لي أن أذهب معه أم لا، وإذا بسيد هرم على عينيه منظار ذهبي يسمعني أسأل الرجل روبلًا، فقدم إلينا ثم انحنى عليّ وسألني لماذا أحتاج إلى كل هذا القدر، فأخبرته أن أمي مريضة وأنني محتاجة إلى مثل هذا القدر من المال للدواء، فسألني أين تقطن أمي وكتب مني العنوان ومنحني ورقة ذات روبل. أما الآخر فكان قد ابتعد حين رأى السيد الهرم ذا المنظار ولم يطلب إليّ بعد ذلك أن أصاحبه، فمضيت إلى حانوت واستبدلت بالروبل نقودًا نحاسية، ثم وضعت ثلاثين كوبيكا في ورقة ودسستها في حافظة نقودي لأحفظها لأمي، أما السبعون كوبيكا الباقية فإني لم أضعها في الورقة بل تعمدت أن أبقيها في يدي وسرت بها إلى جدي، فلما بلغت مسكنه فتحت الباب وظللت واقفة على العتبة وقذفت النقود بين قدميه فتناثرت وتدحرجت في أرجاء الغرفة، وقلت له ها هي ذي نقودك فأمسكها عليك فليست أمي في حاجة إلى نقودك لأنك لعنتها! وأقفلت الباب ورائي بعنف وعدت أدراجي».

والتمعت عينا نلي وحدجت إشمنيف الهرم بنظرة طفلية متحدية.

فقالت أنّا أندريفنا وهي تضمها إلى صدرها دون أن تنظر إلى الهرم: «لقد كان ذلك صوابًا! لقد ناله ما يستحق فقد كان امرأ شر قاسي القلب...».

فتمتم الهرم: «أوه!».

وسألت أنّا أندريفنا في نفاد صبر: «وماذا كان بعد ذلك؟ كيف سارت الأمور؟».

فأجابت نلي: «لقد أمسكت عن الذهاب إليه وأمسك هو عن الحضور إليّ».

«ولكن كيف كنتما تصيبان رزقكما بعد ذلك، أنت وأمك؟ أواه أيتها المسكينة!».

فتابعت نلي حديثها وكان صوتها يتهدج أحيانًا حتى ليستعصي عليه الخروج، قالت: «وأخذت حال والدتي تتفاقم وأصبحت لا تستطيع النهوض إلا نادرًا وكان ما لدينا من المال قد نفد ولم يبق منه شيء، وحينئذ لم يكن لي مناص من الذهاب مع أرملة اليوزباشي وكانت تطوف بالبيوت وتتعرض في الطريق لمن حسنت بزتهم فتسألهم إحسانًا، وكانت تكسب رزقها من ذلك، وقد قالت لي إنها ليست متسولة وإن لديها أوراقًا تثبت انتماءها إلى الطبقة التي تنتمي إليها، وفيها أنها فقيرة مملقة، وكانت تبرز هذه الأوراق دائمًا فينفحها الناس بالنقود. وقد كانت هي التي قالت لي:

إن استجداء الناس كافة لا عار فيه، فكنت أذهب معها فيتصدق الناس علينا بما نستعين به على العيش، ولم تلبث أمي أن علمت بالأمر، إذ أخذ سائر القاطنين في المنزل يعيرونها بأنها متسولة، وأتت بوبنوفا بنفسها إلى أمي وقالت لها إنه يجب عليها أن تسلمني إليها ليؤول إليها أمري بدلًا من إرسالي للتسول. وكانت قد أتت مرة قبل ذلك إلى أمي لتعطيها نقودًا، فلما أبت أمي قبولها قالت لها: ولِمَ هذه الكبرياء وهذا التأبي؟ ثم أرسلت إلينا بطعام. ولكنها حين قالت الآن ذلك عني، أخذت أمي تبكي بكاء مرًّا واستحوذ عليها فزع عظيم، فانهالت عليها بوبنوفا سبًّا وشتمًا وكانت في أشد حالات السُكر، قالت إن قبولك طلبي لن يزيد ابنتك سقوطًا إذ هي- من دون ذلك- قد أسفت إلى الدرك الأسفل بمضيها مع أرملة اليوزباشي للتكفف والاستجداء. وفي هذا المساء نفسه طردت الأرملة من المنزل، ولما علمت والدتي بذلك راجعها البكاء، ثم إذا بها قد خفت من فراشها فلبست ثيابها وأخذتني من يدي وخرجت بي. وقد عمل إيفان ألكسندروفتش على رجوعها ولكنها لم تستمع إليه بل برحنا المنزل. وكانت لا تكاد تستطيع أن تنصب قامتها فكانت مضطرة إلى أن تجلس في الطريق كل دقيقة أو دقيقتين، وكنت أسندها ما استطعت، وكانت لا تفتأ تقول إنها أزمعت الذهاب إلى جدي وأن عليّ أن أقودها إليه، بيد أن الليل كان قد أقبل، ووصلنا فجأة إلى شارع واسع وقفت أمام منزل من منازله عدة مركبات فاخرة كان القوم ينزلون منها، وكانت جميع نوافذ المنزل مضاءة إضاءة قوية، وصوت الموسيقى ينبعث من داخله، فتوقفت أمي عن المسير وأمسكت بي في حالة تشنجية وقالت:

أي نلي، ابقي فقيرة مدى الحياة ولا تذهبي إليهم مهما دعوك إليهم أو أتوا هم إليك! قد تستطيعين ولكني لا أحب لك ذلك، فهم أشرار قساة. وها أنا ذي أقول لك: ابقي فقيرة. اشتغلي واستجدي الناس، فإذا أتى هؤلاء إليك فقولي: «لا أريد أن أمضي معكم!» هكذا قالت لي أمي وهي مريضة، وسأظل ممتثلة لقولها ما عشت» ثم أضافت وقد اتقد وجهها وغدت ترتعد من التأثر: «سأظل حياتي أخدم وأشتغل، وإنما جئت إليكما لأخدم وأشتغل، ولست أريد مطلقًا أن أكون ابنة لكما».

فصاحت أنّا أندريفنا وهي تضم نلي إلى صدرها بحنو: «حسنًا، حسنًا، هدئي من روعك وسكني من اهتياجك، واذكري أن أمك حين قالت ذلك كانت مريضة».

وقال الهرم بغلظة: «لقد كانت في غير رشدها».

فصاحت نلي بحدة، وقد التفتت إليه: «ولو، حتى إذا لم تكن في رشدها، فإنها قد أمرتني بذلك وسأظل أئتمر أمرها طيلة حياتي. ولقد غشي عليها عقب أن قالت لي ذلك».

فهتفت أنّا أندريفنا: «يا رحمن يا رحيم! وهي مريضة وفي الطريق وفي الشتاء!».

«وقد أرادوا أن يأخذونا إلى بيت الشرطة ولكن أحد السادة دافع عنا، وسألني أين نقطن، وأعطاني عشرة روبلات وحمل أمي في مركبته إلى حيث كنا نقطن. ولم تنهض هي بعد ذلك من فراشها، و... بعد ثلاثة أسابيع قضت نحبها...».

فصاحت أنّا أندريفنا: «وأبوها؟ ألم يصفح عنها بعد كل هذا؟».

فأجابت نلي وهي تجاهد نفسها جهادًا شديدًا: «كلا، لم يصفح عنها. وقد نادتني أمي إليها قبل وفاتها بأسبوع وقالت لي: اذهبي إلى جدك مرة أخرى، المرة الأخيرة، وابتهلي في التوسل إليه أن يأتي فيصفح عني، وقولي له إني سأموت بعد أيام معدودات وأخلفك وحيدة في هذه الدنيا، وقولي له أيضًا إنه ليشقّ علي أن أموت..؟ فهرعت إليه وقرعت بابه ففتحه، فلما رآني هم بإغلاقه في وجهي ولكني تشبثت بالباب بكلتا يدي وصحت: أمي تموت، وهي تدعوك إليها فأقبل إليها مسرعًا! ولكنه دفعني عنه وأغلق الباب، فعدت إلى أمي وألقيت بنفسي بجوارها واحتضنتها دون أن أنبس بكلمة... فاحتضنتني هي كذلك دون أن توجه إليّ سؤالًا...».

وألقى نيكولاي سيرجيفتش يده بعنف على المنضدة فاعتمد عليها، ونهض وحدجنا جميعًا بنظرة عجيبة لا بريق فيها، ثم غطس في كرسيه ذي المسندين من جديد وقد خارت قوته، فصارت أنّا أندريفنا لا تجسر على النظر إليه، فأخذت نلي بين ذراعيها وطفقت تبكي وتنشج...

«وقد نادتني أمي إليها في مغرب اليوم السابق لوفاتها فأمسكت بيدي وقالت: «إني ميتة اليوم يا نلي!» وكانت تريد أن تقول شيئًا آخر بيد أنها لم تقو على التفوه به فنظرت إليها، فإذا ببصرها قد عجز عن رؤيتي، بيد أنها كانت تضغط يدي في تشنج، فسللت يدي بخفة من يديها وغادرت المنزل وظللت أعدو طوال الطريق بأسرع ما استطعت حتى بلغت جدي،

فلما بصر بي وثب من كرسيه وحدق إليّ وقد تولاه الفزع فشحب لونه حتى صار كلون الموتى وأخذ يرعد من كل جسده، فأمسكت يده وقلت له: إنها تحتضر الآن، ولم أستطع أن أزيد على ذلك حرفًا فبادر يبحث عن عصاه، ثم سار يتبعني، بل لقد نسي قبعته، وكان الجو في الخارج شديد البرودة، فتناولتها ووضعتها على رأسه وأسرعنا معًا. وكنت أستحثه على الإسراع، وطلبت إليه أن يركب زحافة لأن أمي كانت على حافة الموت، غير أنه لم يكن لديه من المال إلا سبعة كوبكات. وقد استوقف بعض الحوذيين وأخذ يساومهم فكانوا يضحكون منه ويسخرون من أزركا الذي كان يتأثرنا، وهكذا أخذنا نهرول ونعدو، فتعب جدي حتى نهج ولكنه ظل يهرول ويعدو جهده، وإذا به قد كبا وطارت القبعة بعيدًا عنه فأنهضته ووضعتها على رأسه من جديد، وأخذت أقوده من يده فلم نبلغ المنزل إلا ليلًا... فألفينا أمي راقدة هناك ولكنها كانت فاقدة الحياة، فلما رآها جدي شبك يديه وارتعد وانحنى عليها دون أن يقول شيئًا، فأمسكت يده وجذبته نحوها وصحت به: «انظر أيها الرجل الشقي القاسي، ها هي ذي فانظر إليها!» فصرخ صرخة مدوّية وسقط على الأرض كأنه فارق الحياة...».

ووثبت نلي وانسلت من بين ذراعي أنّا أندريفنا وظلت واقفة أمامنا شاحبة منهوكة القوى شديدة الانفعال، ولكن أنّا أندريفنا اندفعت إليها واحتضنتها ثانية وصاحت صياح من سلب لبه:

«سأكون لك أمًّا يا نلي وستكونين لي طفلة! هلمي يا نلي نرحل من

هنا، دعينا نفارق هؤلاء القوم القساة الأشقياء، وليهزأوا بالناس إذ شاءوا ولكن الله سيحاسبهم على ذلك... هلمي يا نلي، لنبعد من هنا، لنبعد من هنا».

لم يحدث قط، لا من قبل ولا من بعد، أن رأيت أنّا أندريفنا في مثل هذا الانفعال، ولم أكن أعتقد أنه من الممكن أن تكون في حالة كهذه. واستدار نيكولاي سيرجيفتش في كرسيه ذي المسند ثم نهض في بطء وسأل بصوت مضطرب:

«إلى أين أنت ذاهبة يا أندريفنا؟».

فصاحت وقد جذبت نلي معها إلى الباب: «إليها، إلى ابنتي، إلى ناتاشا».

«قفي، تلبثي لحظة!».

«كلا، لن أنتظر أيها الشقي! لطالما انتظرت وهي أيضًا كذلك، فالآن وداعًا!».

والتفتت وراءها وهي تقول ذلك، تنظر إلى زوجها فأيبستها الدهشة أن رأت نيكولاي سيرجيفتش يقف أمامها ممسكًا بقبعته، يحاول بيد مرتعشة خائرة القوة أن يرتدي معطفه فصاحت: «أنت... أنت ذاهب معنا» وبسطت كفيها في تضرع وهي تنظر إليه غير مصدقة، كأنها لا تجرؤ أن تعد مثل هذه السعادة العظمى حقيقة واقعة.

وانطلق الهرم يقول من صميم فؤاده: «ناتاشا! ناتاشتي!

أين هي، أين ابنتي؟ أعيدوا إليّ ناتاشتي! أين هي، أين؟».

وانتزع من يدي العصا وأنا أناوله إياها وهرع صوب الباب.

فصاحت أنّا أندريفنا: «لقد صفح عنها، لقد صفح عنها».

ولكن الهرم ما كاد يصل إلى القبعة، حتى انفتح الباب فجأة، ودخلت ناتاشا الغرفة شاحبة الوجه بعينين تلمعان كأنها في برحاء الحمى، وكان ثوبها مغضنًا قد بلله المطر، وقطعة القماش التي لفت بها رأسها قد انزلقت إلى قفاها فبدا شعرها الكثيف المتشعث تلمع فيه قطرات المطر. دخلت الغرفة فأبصرت والدها، فجثت بين يديه صارخة ترفع إليه كفيها متضرعة متوسلة.

❊ ❊ ❊

الفصل التاسع

ولكنه قد تلقاها بين ذراعيه.

فأمسك بها ورفعها إلى أعلى كما لو كانت طفلة وحملها إلى كرسيه وأجلسها فيه بعناية وحذر، على حين كان هو نفسه يجثو أمامها يلثم يديها وقدميها وهو لا يشبع من اللثم ولا يرتوي من النظر، كما لو كان لا يزال غير قادر على الإيمان بأنها آبت إليه، بأنه أصبح يسمع صوتها من جديد وأصبح يحق له من جديد أن يراها، أن يرى ابنته، ناتاشته. واحتضنتها أنّا أندريفنا وهي تنشج وكانت تضغط صدرها برأس ناتاشا، فكانت تبدو كما لو كانت لا تستطيع أن تتركها لحظة أن أن تفوه بكلمة، وقال الهرم متهتهًا وهو يمسك بيدي ناتاشا ويحدق تحديق العاشق الولهان إلى وجهها الذي كان جميلًا مع ما ناله من شحوب وهزال، وإلى عينيها اللتين تشرقان بالدمع: «أي حبيبتي!... حياتي!!... شمس هناءتي!...» ثم قال مكررًا: «أنت يا شمس هناءتي يا طفلتي!» ثم صمت بعد ذلك فجأة وهو يتابع التحديق إليها في افتتان، وقال وقد التفت نحونا وهو

لا يزال جاثيًا وقد مرت على ثغره ابتسامة طفلية سريعة: «كيف استطاعوا أن يقولوا إنها أصبحت في غاية التعاسة. نعم إنها نحفت بعض الشيء وشحب وجهها قليلًا، هذا حق، ولكن انظروا مدى ما لها من فتنة. إنها لأجمل مما كانت، أجمل كثيرًا!». قال ذلك ولكنه عاد فصمت ثانية إذ غمره الألم والسرور اللذان كانا يتقاسمان قلبه وينذران بتمزيقه.

وقالت ناتاشا: «انهض يا أبت، أناشدك أن تنهض، فإني أتوق إلى تقبيلك...».

«أوه يا حبيبتي! أسمعت يا أنيوشكا[1] بأية عذوبة قالت ذلك الآن!» وعانقها وهو متوتر الأعصاب.

«كلا يا ناتاشا، فأنا الذي يجب أن أجثو عند قدميك حتى أحسّ في قرارة قلبي بأنك سامحتني وصفحت عني، إذ إنني لن أكون يومًا جديرًا بصفحك. لقد طردتك ولعنتك، أسامعة أنت يا ناتاشا، أنا لعنتك، لقد جسرت على أن أفعل ذلك!... وأنت يا ناتاشا قد صدقت أني لعنتك! هل صدقت ذلك حقًّا، هل استطعت أن تعدي ذلك ممكنًا! ما كان ينبغي لك ذلك! ما كان ليجوز لك أن تصدقي، كان عليك بكل يسر ألا تصدقي. وأنت يا ذات القلب الصغير القاسي، لم لم تأتي إليّ؟ لقد كنت تعلمين أني كنت أرحب بك!... أوه يا ناتاشا. أما زلت تذكرين ما كنت أغمرك به فيم مضى من حب؟ فأما الآن بل طوال تلك الحقبة فقد ظللت أحبك حبًّا مضاعفًا، كلا بل حبًّا يضعف ألف مرة على ما كان قبلًا. أحبك بقلب

(١) أنيوشكا هو اسم أنّا بلهجة التدليل.

يقطر دمًا، وكنت أود أن أنتزع قلبي من بين جوانحي ممزقًا ألف فلذة لأطرحه تحت قدميك... أوه يا كل شيء عندي!».

فصاحت ناتاشا بصوت خافت متخاذل تخنقه دموع الفرح: «إذن فقبلني في ثغري أيها القاسي، وعلى جبيني كما قبلتني أمي».

وقال الهرم مكررًا بعد فترة عناق قلبي: «وفي عينيك أيضًا. في عينيك أيضًا، كما كنا من قبل، أما زلت تذكرين؟... أوه يا ناتاشا ألم تحلمي بنا مرة؟ أما أنا فقد كنت أحلم بك كل ليلة. لقد كان طيفك يزورني كل ليلة، وكنت أبكيك. وقد أتيت إليّ مرة في صورة فتاة حديثة السن جدًّا، في نحو ما كنت حين أوفيت على عشر سنوات، أتذكرين، وقد بدأت تتعلمين الإيقاع على البيانو وأتيت لابسة ثوبك القصير منتعلة حذاء صغيرًا ظريفًا، وكانت يداك جد حمراوين... لقد كانت يداها في أغلب الأحيان حمراوين. ألا تذكرين ذلك يا أنيوشكا؟ وقد أتيت إليّ فقعدت على ركبتي وعانقتني... وأنت، أنت أيتها الفتاة السيئة قد وسعك أن تصدقي أني لعنتك، وأني لن أستقبلك ثانية حين تؤوبين إليّ؟ أما أنا، أما أنا يا ناتاشا، أأنت سامعة، فكثيرًا ما كنت أذهب إليك، وذلك ما لم تعرفه أمك، ولا أحد غيرها من الناس، وكنت أقف منتظرًا تحت نوافذك. وقد وقفت في بعض المرات نصف يوم كاملًا في ناحية من الطوار على مقربة من باب بيتك لعلك تخرجين فيتسنى لي اجتلاء طلعتك من بعيد ولو مرة، وكثيرًا ما كانت تضيء شمعة في نافذتك يا ناتاشا. لقد طالما أتيت إليك حتى أستطيع أن أرى على الأقل شمعتك تضيء أو ظلك حين تمرين بإزاء النافذة، ولكي أباركك مباركة الليل، فهل كنت أنت أيضًا

تباركينني مباركة الليل؟ وهل فكرت فيّ مرة؟ ألم يحدثك قلبك أني واقف تحت نافذتك؟ ما أكثر ما صعدت في سلمك شتاء بعد موهن من الليل فوقفت في معطف السلم المظلم أسترق السمع من وراء بابك عله يتاح لي أن أسمع صوتك، والآن، أليس هذا مما يبعثك على الضحك؟ أو يقال إني لعنتك؟ وقد أتيت إليك ذات مساء راغبًا أن أغفر لك، بيد أني نكصت حين بلغت الباب.. آه يا ناتاشا!».

ونهض فرفعها من على الكرسي وضمها إلى صدره ضمة قوية.

وصاح: «ها هي ذي قد عادت إلى صدري. آه، إني أحمدك اللهم على كل شيء، على نقمتك ورحمتك! وكذلك على شمسك التي عادت تشرق علينا جميعًا بعد تلك العواصف والرعود. أحمدك على كل ما مننت به عليّ في هذه الساعة! أوه، ولئن كنا قد حُقرنا وأُهنا، فلقد اجتمع شملنا مرة أخرى. فليحتفل أولئك المتغطرسون المتكبرون الذين حقرونا وأهانونا، لظفرهم! وليرجمونا بالحجارة! لا تخشي يا ناتاشا!... فسنسير معًا يدي في يدك، وسأقول لهم: هذه هي ابنتي العزيزة التي أحبها أكثر من كل شيء، ابنتي الطاهرة التي حقرتموها وأهنتموها والتي أنا أحبها وأستنزل عليها البركة أبد الآبدين.

وصاحت ناتاشا بصوت ضعيف: «فانيا، فانيا!» وبسطت نحوي يدها وهي بين ذراعي أبيها.

أوه، ما أنسى، فلن أنسى أنها في تلك اللحظة قد فكرت فيّ وهتفت بي.

وسأل الهرم متلدّدًا: «ولكن أين نلي؟».

فصاحت العجوز أيضًا: «نعم، أين هي؟ حبة قلبي. لقد كدنا ننساها كلّ النسيان!».

ولكنها لم تكن في الغرفة، فقد تسللت إلى غرفة النوم دون أن يحسّ خروجها أحد، فمضينا جميعًا إليها، فإذا هي قد وقفت في الركن خلف الباب تستخفي منا حياء.

فقال الهرم: «نلي، ماذا بك يا طفلتي؟» وهمّ باحتضانها، ولكنها حدّقت فيه تحديقة طويلة غريبة...

وصاحت كأنما كانت في حلم: «أماه. أين أنت يا أماه؟ أين أمي» وبسطت يديها نحونا ترتعشان.

وإذا بصرخة فظيعة قد خرجت تدوّي من صدرها. وتقلص وجهها في صورة تشنجية، وسقطت على الأرض في حالة مروّعة.

* * *

خاتمة

الذكريات الأخيرة

كان ذلك في أواسط يونية في يوم قائظ خانق لم أطق فيه المكث في المدينة وما فيها من غبار وجص وصوار وألواح للبناء وبلاط متقد ورخام وبيء... وفجأة، وما كان أشد سروري بذلك، قصف الرعد في مكان ناء، وغامت السماء وجعلت تتراكم فيها الغيوم، وهبت ريح عاتية فأخذت تعقد في جو المدينة سحبًا مما تكتسحه من غبار الشوارع، وسقطت على الأرض قطرات ثقيلة من المطر، ثم إذا بالسماء كأنها قد انفطرت وإذا بالوابل ينهمر على المدينة سيولًا، فلما بزغت الشمس ثانية بعد نصف ساعة، فتحت نافذة غرفتي العلوية الصغيرة وأخذ صدري المتعب يستنشق الهواء العليل، وأحسست في غبطتي ونشوتي برغبة في أن ألقي اليراعة وأن أدع عملي، بل أن أنسى الناشر وأنطلق إلى صحبي في جزيرة فاسيلي، بيد أني تغلبت على هذه الغواية مع قوتها، وأكببت ثانية على عملي في حدة تشبه الجنون، فقد كان عليّ أن أنتهي منه اليوم مهما يكن الثمن، إذ كان ذلك طلب الناشر ومن دونه لا يعطيني مالًا.

أجل إن صحبي ينتظرونني، ولكني لقاء ذلك سأكون حرًّا في المساء، حرًّا مطلق الحرية، حرًّا كالريح، وسأعوّض نفسي في هذا المساء عوضًا كاملًا عن اليومين الأخيرين والليلتين الأخيرتين اللاتي دوّنت فيها ملء ثلاث كراسات ونصف كراسة.

وأخيرًا أنجزت العمل فألقيت باليراعة جانبًا ونهضت بظهر مقوس وصدر موجع ورأس تدور فيه الدنيا، وقد تبينت أني مُجْهَد الأعصاب إلى أقصى حد، وكنت كأني ما زلت أسمع الكلمات الأخيرة التي تحدث بها إليّ دكتوري الهرم الطيب: «كلا إن مثل هذا الجهد لينوء به أيّ إنسان بالغة ما بلغت صحته وقوته، إنه فوق طاقة البشر». ولكنه كان حتى الآن لا يزال ممكنًا. وقد دارت بي الدنيا حتى لم أكد أستطيع الوقوف مستويًا، ولكن نوعًا من الغبطة، الغبطة العظيمة غير المحدودة كانت تفعم قلبي، فقد كملت قصتي تمامًا، وسيمنحني الناشر ولا شك قدرًا من المال ولو خمسين روبلًا، مع أني مدين له بكثير، فقد مضت عليّ فترة طويلة جدًّا لم تنطبق يداي على مثل هذا القدر من المال. الحرية والمال... اختطفت قبعتي وأنا أشدّ ما أكون اغتباطًا، وتأبطت القصة المخطوطة ونهبت الدرج إلى أسفل مسرعًا جهدي حتى أعثر على ألكسندر بتروفتش العظيم الشأن في مكتبه.

وقد أدركته وهو موشك أن ينصرف. وكان هو كذلك قد أتم منذ لحظة عملًا، هو، وإن لم يكن عملًا أدبيًّا، أجدى عليه وأكثر فائدة. وقام يشيع إلى الباب يهوديًّا قصيرًا أسمر كان قد ظل مختليًا به في مكتبه ساعتين كاملتين، فصافحني في أدب وسأل بصوته الأجش اللين المحبب عن

صحتي. لقد كان طيب القلب سليم دواعي الصدر، وكنت- ودع عنك المزاح- مدينًا له بالشكر، وماذا كان يستطيع أن يفعل وقد قضى حياته كلها في عالم الأدب، ناشرًا، فحسب؟ لقد عرف أن أدبنا في حاجة إلى ناشر، وعرف ذلك في الوقت الملائم تمامًا، وذلك ما يجب الاعتراف به إنصافًا لمجده وشرفه، شرفه بوصف أنه ناشر.

وقد ابتسم لانتهاء قصتي ابتسامة ظريفة إذ ضمن بها أهم محتويات الجزء القادم من مجلته، وأبدى عجبه من أني قد أنهيت عملي في الأجل المضروب له حقًّا، وكانت منه بعض دعابات ظريفة في هذا الصدد، ثم قصد إلى خزانة نقوده الحديدية ليناولني منها الخمسين روبلًا التي وعدنيها، ووضع في يدي في الوقت نفسه مجلة خصمنا السميكة، مشيرًا إلى بضعة أسطر منها في باب النقد، وفيها تعليق على قصتي الأخيرة لا يتجاوز بضع كلمات.

فألقيت إليها نظرة فوجدتها: مقالة بقلم «نساخ»، وهو لم يحمل عليّ في نقده حملة منكرة ولكنه كذلك لم يقرّظني، فكان ذلك كافيًا لرضاي، غير أن هذا الناقد قال في تضاعيف كلامه، إن جميع كتاباتي «تفوح برائحة كريهة»، يعني أني أعرق كثيرًا في أثناء كتابتها من الجهد الشاق الذي تجشمنيه إياه هذه الكتابة وأني لا أفتأ أكتبها وأصلحها ثم أعيد كتابتها، وهكذا حتى تصبح آخر الأمر مثيرة للاشمئزاز. وضحك كلانا من ذلك وأخبرته أني كتبت قصتي الأخيرة في ليتين وأن الكراسات الثلاث ونصف الكراسة التي أحضرتها اليوم قد استغرقت كتابتها مني بياض نهارين وسواد ليلين، فليت هذا الناقد الذي يعيب عليّ العناية

المفرطة والتريث المرهق يعرف ذلك!

«ومع ذلك فالغلطة غلطتك يا إيفان بتروفتش، فلِمَ تبطئ بادئ الأمر مثل هذا الإبطاء حتى تجد نفسك آخر الأمر مضطرًا إلى العمل بالليل؟».

وكان ألكسندر بتروفتش رجلًا وافر الظرف، بيد أن به ضربًا من الضعف، ذلك هو ولعه بإصدار أحكام أدبية ولا سيما أمام أولئك الذين يعرفونه تمامًا ويعرفون ما يتوقع سماعه منه على حسب ما يخمن هو في بعض الأحيان، ولذلك لم أحس بأدنى رغبة في الخوض معه في مجادلة أدبية، فلم أكد أتناول منه النقود حتى تناولت قبعتي. وكان هو يعتزم الركوب إلى منزله الخلويّ في الجزيرة، فلما سمع أني معتزم الذهاب إلى جزيرة فاسيلي عرض عليّ في ترحيب وأريحية أن يحملني معه في مركبته. وقال: «قد اشتريت مركبة جميلة هل رأيتها؟ إنها ليس فيها أي عيب!».

وسرنا إلى مدخل البيت فألفيتها حقًّا جميلة لا عيب فيها، وكان من المفهوم أن ألكسندر بتروفتش يجد سرورًا غير عاديّ، بل يحس حاجة نفسية ملحة إلى أن يدعو معارفه إلى الركوب في عربته، ما دامت هذه العربة جديدة. فلما صعدنا في المركبة أخذنا مواضعنا فيها، أخذ هو من جديد ينقد الأدب الحديث، وانطلق على سجيته أمامي فجعل يردد في هدوء بالغ شتى الآراء الأجنبية عنه، التي سمعها في اليومين الأخيرين من بعض الأدباء الذين يؤمن هو بهم ويرى أحكامهم صائبة، فينجم عن ذلك أن يبدي في بعض الأحيان ملاحظات عجيبة جدًّا، وأنه يختلط عليه الرأي الأجنبي عنه فيبديه في غير الموضع الذي سمعه يقال فيه،

فلا ينتج عن كل ذلك إلا لغو وهراء. ولبثت جالسًا أصغي إليه في صمت وأنا أعجب من تقلب أهواء الإنسان وتشكلها بشتى الأشكال، وقلت في نفسي: «ها هو ذا إنسان لا هم له غير جمع المال ثم جمع المال، ولكن لا، فهو يسعى للمجد أيضًا، المجد الأدبي، مجد ناشر عظيم وناقد أديب!».

وبينما كنت أتأمل في ذلك، كان هو يجهد نفسه في أن يوضح لي في تفصيل رأيًا أدبيًّا لم يسمعه إلا من ثلاثة أيام مني أنا، وكان إذ ذاك يعارضه بكل قوته، أما الآن فكان يتشدق به على أنه رأيه الخاص. والحقيقة أن مثل هذا النسيان كان ظاهرة متكررة الوقوع من ألكسندر بتروفتش، فقد كان معروفًا بين أصدقائه بهذا الضعف الذي لا ضرر منه. ما كان أعظم سعادته وأرحب صدره وأكثر رضاه بقسمته وحظه في هذه الآونة التي تربع فيها في مركبته الجديدة يسمع نفسه يتكلم! لقد كان يخوض في حديث ثقافي أدبي راق، بل لقد أخذ صوته الأجش اللين المحبب يبدو فيه جرس أصوات العلماء، ثم جعل الرجل يسترسل شيئًا فشيئًا في التصريح بآراء أكثر تطرفًا في التحرر، ويدلي بذلك الزعم الساذج المتشكك من أنه لم يتح لأدبنا ولا لأي أدب آخر أن تسود فيه الأمانة والقصد، وأنه لا يمكن له أن ينطوي على شيء غير إمعان بعضهم في إلهاب ظهور بعضهم الآخر، ولا سيما بعد أن عمت عادة توقيع المقالات. وقد اعتقدت أن ألكسندر بتروفتش ينزع دون ريب إلى الحكم بأن كل كاتب شريف مستقيم لا بد أن يكون أحمق على أقل تقدير، إن لم يكن غبيًّا، وذلك بسبب هذا الشرف وهذه الاستقامة بالذات

على الأقل أحمق، وهذا الاعتقاد يرجع بطبيعة الحال إلى صفاء قلب ألكسندر بتروفتش صفاء غير مألوف.

بيد أني لم أدم الإصغاء إليه، وقد أنزلني في جزيرة فاسيلي فيممت صحبي حتى بلغت الشارع الثالث عشر حيث كان منزلهم الصغير، فلما بصرت بي أنّا أندريفنا أومأت إليّ بأصبعها ولوحت بيدها منذرة ألا أحدث جلبة أو ضوضاء.

وبادرت تسر إليّ في أذني: «لقد استولى النعاس على نلي منذ هنيهة قصيرة فقط، هذه المسكينة! فلا توقظها بالله عليك، فهي في ضعف بالغ حقًّا. يا للطفلة المسكينة! ونحن نرعاها كل الرعاية، ويقول الدكتور إن حالتها هذه لا تدل على شيء. إننا لا نستطيع أن نعرف منه شيئًا، دكتوركم هذا! ألا تخجل يا إيفان بتروفتش؟ لقد انتظرناك، انتظرناك حتى الغداء... لقد انقطعت عنا يومين كاملين!».

فهمست في أذنها: «ولكني قلت أول من أمس إني سأنقطع عن المجيء يومين إذ كان عليّ أن أنجز عملي...».

«ولكنك وعدت أن تأتي اليوم لتناول الغداء! فلم لم تأت؟ وقد نهضت نلي ملاكنا الصغير من مضجعها، من أجلك أنت. وقد وضعناها في الكرسي المريح وحملناها إلى المائدة فقالت: «إني أريد أن أنتظر فانيا معكم» غير أن فانيا لم يأت مطلقًا. وها نحن أولاء الآن في منتصف الساعة السادسة! فأين كنت تتسكع؟ إنكم جميعًا قوم لا يوثق بهم! لقد بلغ الاهتياج بنلي حدًّا لم أعرف كيف أهدئ من حدتها... والآن ولله الحمد قد غلبها النوم، الطفلة المحبوبة، وقد ذهب نيكولاي سيرجيفتش

منذ لحظة إلى المدينة- ولكنه سيكون هنا في ميعاد الشاي- فبقيت وحدي من جديد... وسيسند إليه أحد الأعمال يا إيفان بتروفتش، ولكني حين أتصور أن هذا العمل سيكون في «پرم» تشتمل جسدي رعدة باردة.

«وأين ناتاشا؟».

«في الحديقة يا بني، في الحديقة، امض إليها... وهي أيضًا تبدو لي... ولست أعرف كيف أستبطن منها أمرها... آه يا إيفان بتروفتش، إن قلبي لمثقل جدًّا! وهي لا تني عن القول بأنها جد راضية هانئة، بيد أني لا أصدق ذلك... فامض إليها يا فانيا، ثم حدثني خفية بجلية أمرها. أسامع أنت؟».

ولكني كنت قد تركت الإنصات إلى أنّا أندريفنا وهرولت إلى الحديقة، وكانت هذه الحديقة تابعة للمنزل وتبلغ مساحتها خمسًا وعشرين خطوة طولًا في مثلها عرضًا، تكسوها الخضرة وتقوم فيها ثلاث دوحات باسقة معمرة كثيرة الفروع، وبضع شجرات صغيرة من البتولا وبعض نباتات الزنبق وزهر العسل، وفيها بعض أدغال التوت العليقي في أحد الأركان وحوضان من الشليك وطريقان ضيقان متعرجان يقطعان الحديقة طولًا وعرضًا. وكان الهرم مولعًا بهذه الحديقة إلى حد الهوس، وقد زعم أنه سينجم فيها الفطر أيضًا. على أن المهم هو أن نلي، التي أصبحت معبودة هذا البيت، كانت قد أولعت بهذه الحديقة الصغيرة فكانوا يحملونها إليها في الكرسي ذي المسند. ولكن ها هي ذي ناتاشا، لقد قدمت عليّ جذلة هانئة باسطة إليّ يدها. ما أشد ما هزلت وشحبت! لقد كانت أيضًا قد بدأت تنقه من مرضها.

وسألتني: «هل أنجزت عملك تمامًا يا فانيا؟».

«إنجازًا تامًّا. وأنا حر التصرف في وقتي طول هذا المساء».

«الحمد لله! ولكن ألم تسرع في إنجازه أكثر مما يجب، فيجيء ملهوجًا يعوزه الإتقان؟».

وماذا كنت أستطيع أن أعمل؟ على أن هذا لا يضير، فإنني حين أبذل في العمل مثل هذا الجهد أجد نفسي في حالة عصبية خاصة فتكون مخيلتي أكثر صفاء وأقوى نشاطًا ومشاعري أكثر تنبهًا وأبعد غورًا، بل إن أسلوبي يغدو أقرب إلى الكمال. فالعمل بمثل هذا الجهد ينتج دائمًا نتاجًا أفضل، وذلك حسن جدًّا...».

«آه يا فانيا!».

وقد لاحظت أن ناتاشا غدت في الفترة الأخيرة ترقب باهتمام عظيم ما أظفر به من نجاح ومجد أدبي، وقد قرأت كل ما نشر لي في السنة الأخيرة، وكانت دائمة السؤال عن مشروعاتي المقبلة، وتعني بكل ما يوجه إلى كتاباتي من نقد، وتسخط من بعض هذا النقد وتريد حتمًا أن ترتفع منزلتي في عالم الأدب، وكانت تبدي رغبتها هذه بإلحاح وقوة حتى دهشت من مشاعرها هذه إلى أقصى حد. وقالت لي: «إنك تفني نفسك في الكتابة، تفرط في وقتك وتفني نفسك في الكتابة، وأنت فوق ذلك تورد صحتك مورد التلف. ألم تر إلى «س» الذي وضع قصة واحدة في مدى عامين، بل إنه أمضى عشر سنوات في كتابة قصة واحدة، ولكن آثارهما- في مقابل ذلك- تجيء متقنة مصقولة مجودة إلى الحد

الأقصى، إنها تامة بالغة في الكمال لا تجد فيها خطأً ولا تقصيرًا!».

«أجل، ولكنهما مستقلان غير مقيدين بأجل موقوت، أما أنا يا ناتاشا فإني كحصان البريد. وبعد، فهذا كله هراء فلنلقه ظهريًا. أليس ثمة من جديد؟».

«نعم، ثمة شيء كثير! فهناك أولًا رسالة منه».

«مرة أخرى».

وناولتني رسالة من أليوشا، كانت هي الثالثة بعد افتراقهما، وكان قد كتب الأولى من موسكو، وكتبها وهو في غاية الانفعال، وأكد لها فيها: أن الأحوال والملابسات قد تشكلت تشكلًا جعل من المستحيل عليه أن يعود من موسكو إلى بطرسبورج كما تعاهدا عند افتراقهما. أما الرسالة الثانية فقد أبلغها فيها بمنتهى السرعة أنه عائد على عجل ليعقد عقده عليها وشيكًا، فذلك أمر مبتوت فيه لا تستطيع أية قوة في العالم أن تحول دونه، على أنه كان يبدو بجلاء من مجموع لهجة الرسالة أنه في حالة يأس وأن التأثير الأجنبي قهره قهرًا تامًّا حتى صار هو لا يصدق نفسه. وقد ورد في عرض رسالته أن كاتيا هي العناية الإلهية الموكلة به، وأنها هي وحدها التي تعينه وتؤسيه. والآن ها هي ذي ناتاشا تفض أمامي رسالته الثالثة الراهنة.

وكانت تشغل صفحتين مكتوبتين بعبارات متفككة تعوزها اللباقة، خطت في عجل، وكان خطها مشبكًا ملطخًا بالمداد مطموسًا بالدموع. وقد بدأها قبل كل شيء بفصم علاقته بناتاشا ورجائه منها أن تنساه،

وجهد أن يبين لها أن زواجه منها أمر مستحيل إذ إن التأثيرات الأجنبية فيه أقوى من كل شيء آخر، وأن هذا في الواقع هو الخير، وبغيره يصبح كلاهما- هو وناتاشا- على السواء غير سعيدين إذ إنهما ذوا طبيعتين غير ملتئمتين. على أنه لم يستطع أن يسترسل في الكتابة بهذه اللهجة، فاطرح دفعة واحدة كل حججه وبراهينه ضاربًا بها عرض الحائط واعترف لها في صراحة ودون لف ومداورة ومن غير أن يمزق النصف الأول من رسالته أو يطرحه جانبًا، بأنه قد سلك معها مسلكًا إجراميًّا، وأنه شخص ضائع لا غناء عنده وأنه لم يبق لديه من القوة ما يقاوم به سلطان والده الذي أتى إلى الريف منذ أيام قلائل، ثم ذكر أنه ليس في وسعه أن يصف ما يعانيه من شدة وعذاب نفس، واعترف، ضمن ما اعترف، بأنه يشعر بأن فيه القدرة على إسعاد ناتاشا، ثم بدأ فجأة يثبت لها أنهما يشبهان أن يكون كل منهما قد خلق لصاحبه، وشرع يفند في حنق وعناد كل ما أدلى به إليه والده من حجج ويرسم في قنوط صورة الحياة الهنيئة التي كانت مقدرة له ولناتاشا لو أنه تزوج منها، ويسخط على جبنه ويودعها الوداع الذي لا لقاء بعده. كانت الرسالة مكتوبة خلال الآلام والعذاب، وكان باديًا أن أليوشا كان غائب الوعي وهو يكتبها، فانبثقت العبرات من عينيّ... وهنا ناولتني ناتاشا رسالة أخرى، من كاتيا، وردت مع رسالة أليوشا في غلاف واحد إلا أنها كانت مختومة بالشمع على حدة. وقد أوردت فيها بإيجاز وفي أسطر قليلة، أن أليوشا قد اغتمّ حقًّا ونال منه الكرب وأنه انتحب وأعول طويلًا، وأن اليأس كان يعصف به في بعض الأحيان، بل إن صحته قد اعتلت لهذا الأمر، ولكنها هي معه وستعمل على إسعاده.

وقد حاولت كاتيا أن تقنع ناتاشا بألا تصدق أن أليوشا سيتعزى عنها قريبًا، وأن همومه غير بالغة في الجد. وقالت: «إنه لن يسلوك أبدًا. أجل فهو غير قادر على أن يسلوك إذ لا يطاوعه قلبه الطيب على ذلك، فهو يحبك إلى غير حد وسيظل يحبك إلى الأبد. ولو أنه كفّ يومًا عن حبك وانقطع عن الحنين إليك حين تلم به ذكراك، إذن لما طاوعتني نفسي أنا من تلك اللحظة أن أوالي حبه...».

وأعدت الرسالتين إلى ناتاشا، ونظر كلانا إلى صاحبه دون أن يقول شيئًا، وهذا ما حدث عند قراءة الرسالتين الأوليين. أجل، فنحن نتحامى الآن كل التحامي أن نتحدث عن الماضي، كما لو كنا قد تعاهدنا على ذلك. والحقيقة أنها كانت تعاني آلامًا مبرحة وكان ذلك يبدو لي جليًّا، غير أنها أرادت ألا تفضي إليّ بذات نفسها. وقد رقدت بعد أوبتها إلى بيت أبويها ثلاثة أسابيع تحت وقر الحمى التي لم تبرأ منها تمامًا حتى الآن. وكذلك أقللنا من الحديث عن التحول الذي طرأ على حياتنا في الوقت الراهن، مع أنها هي أيضًا تعلم أن والدها على وشك أن يولى عملًا وأننا لا بد مفترقان، بيد أنها كانت طول الوقت حنونًا شديدة الحدب عليّ تعني أكبر العناية بكل ما يتعلق بي، وتصغي في إصرار وانتباه شديد إلى كل ما أحدثها به من شؤوني إجابة لرغبتها، حتى كنت أشعر في بادئ الأمر بالعنت من ذلك، إذ كان ذلك يبدو لي كما لو كانت تحاول أن تعوضني عن الماضي. ولكن هذا الشعور سرعان ما زال، فقد تحققت أن شعورًا آخر هو الذي يملك عليها نفسها: ذلك أنها تحبني، بكل يسر، تحبني فوق كل حد ولا تستطيع العيش من دوني، ولذلك تجد

نفسها مرغمة على أن تعني بكل ما يتعلق بي، وأعتقد أنه ما من أخت تحب أخاها كما تحبني ناتاشا. وقد تيقنت تمام اليقين أن فراقنا القريب سيكون شديد الوقع على قلبها وأنه سيسبب لها عذابًا وشقاء. وكذلك كانت هي تعلم أني لا أستطيع العيش من دونها، بيد أنه لم يتفوه أحد منا بكلمة واحدة في هذا الشأن، وذلك مع أننا نتحدث بإسهاب في الشؤون المحيطة بنا..

وسألت عن نيكولاي سيرجيفتش.

فقالت ناتاشا: «سيكون هنا في أقرب وقت. لقد وعد أن يكون حاضرًا لدى تناول الشاي».

«ألا يزال عليه أن يبذل مساعي كثيرة حتى ينال ذلك المنصب؟».

«أجل، ولكن ما من شك في أنه سيتولاه، بيد أني أعتقد أن خروجه اليوم لم يكن لهذا الأمر» ثم أضافت وكأنما هي سابحة في أفكارها: «قد يذهب لهذا الأمر غدًا».

«ولم خرج إذن؟».

«لأن الرسالة وردت على....».

ثم تابعت حديثها قائلة بعد أن صمتت فترة: «إنه يتألم من أجلي كثيرًا حتى أوشكت أن أجد في ذلك عذابًا لي. وأعتقد أنه، حتى في الحلم، لا يرى غير طيفي. وإني واثقة تمام الثقة بأنه قد صار لا يشغل ذهنه غير التفكير في أمري: كيف أشعر وكيف أعيش وفيم أفكر؟ وكل ما ينتابني من هم تجد له رجعًا في نفسه. وأراني لا أفتأ ألاحظ أنه يجتهد

أحيانًا في غير لباقة أن يكبت عواطفه ويتظاهر بأنه غير محزون من أجلي، وكيف يقسر نفسه على تكلف السرور والمرح ويجهد في أن يضحكنا ويسلينا. حتى أمي ليست تخدعها هذه اللحظات ولا تؤمن بضحكه، بل هي تبدأ تتنهد... إذ هي لا تعرف التعمل... نفسها تلك النفس الصريحة المستقيمة!» ثم أضافت مبتسمة: «عندما وردت عليّ الرسالة اليوم، بادر هو بالانصراف حتى لا يتلاقى نظره ونظري... وإني لأكثر حبًّا له مني لنفسي ولكل شيء آخر على وجه الأرض» ثم أضافت وقد طأطأت رأسها وضغطت يدي: «حتى منك أنت...».

وجُبنا الحديقة مرتين قبل أن تستأنف حديثها.

قالت: «لقد كان مسلوبويف عندنا اليوم وكذلك أمس».

«لقد كثر اختلافه إليكم في الحقبة الأخيرة».

«أتدري لم يجيء؟ إن أمي تؤمن به إيمانها بالله المحبوب، فهي تعتقد أن رأسه زاخر بكل شيء، أعني بالقانون وما إليه، وأنه قادر على تدبير كل أمر. أتدري ما هو الأمر الذي يتسلط على تفكيرها في هذه الأيام؟ هو ألمها الممض من أني لم أصبح أميرة، فإن هذه الفكرة لا تدع لها سبيلًا إلى الراحة، وأعتقد أنها أفضت بها إلى مسلوبويف، إذ هي لا تجسر على التحدث بها إلى أبي، وهي تسأل نفسها الآن عما إذا كان مسلوبويف يستطيع أن يكون لها معينًا في هذا الشأن بالالتجاء إلى القانون مثلًا» ثم أضافت ضاحكة: «والظاهر أن مسلوبويف لا يبدي على ذلك اعتراضًا بل يدعها توالي إتحافه بالخمر».

«فيها الكفاية للمحتال! ولكن كيف عرفت ذلك؟».

«لقد أخبرتني أمي نفسها بذلك... تلميحًا...».

«وأين نلي؟ وكيف هي؟».

فقالت معاتبة: «إني لأعجب يا فانيا أنك لم تسأل عنها قبل الآن!».

كانت نلي قد أصبحت معبودة أهل البيت جميعًا وأضحت ناتاشا مغرمة بها غرامًا مضنيًا، وكذلك أغرمت بها نلي في النهاية، فيا للطفلة المسكينة! وأشك في أن يكون قد جال بخلدها يومًا أن تجد مثل هؤلاء الناس وهذه المحبة الشديدة. وقد لاحظت بسرور كيف أن قلبها الموجع شرع يرق ويلين فتفتحت روحها لنا جميعًا، فقد استجابت بحمية تكاد تكون مرضية للمحبة التي تكتنفها هنا والتي هي النقيض على خط مستقيم من كل ما كان فيما مضى يبعث فيها الريبة والسخيمة والعناد، ولكنها مع ذلك قد جاهدت نفسها طويلًا، وكانت تكظم في حضرتنا دموع التأثر التي كانت توشك أن تنبثق من عينيها، حتى استسلمت لنا في النهاية روحًا وجسدًا. وقد أخذ ينمو حبها لناتاشا ثم ما لبثت أن أحبت إشمنيف الهرم. أما أنا فقد أصبحت لها امرأ لا غنى عنه، حتى كان مرضها يزداد شدة عندما تطول غيبتي عنهم. وعندما فارقتهم في المرة الأخيرة على أن أنقطع عنهم يومين كاملين كي أنجز أخيرًا عملي الذي ظللت أرجئه مرة بعد أخرى، اضطررت إلى أن أطيل الحديث إليها تسكينًا لجأشها... وكان ذلك في أسلوب غير مباشر بالطبع؛ لأنها تستحي أن تكشف عن عواطفها صراحة وتبرزها في وضح النهار.

لقد كانت تسبب الهم والكرب لنا جميعًا، فقد استقر منا الرأي، بطريق الوحي دون الكلام، على أن تبقى دائمًا في أسرة نيكولاي سيرجيفتش، ولكن يوم رحيل نيكولاي سيرجيفتش كان يأزف شيئًا فشيئًا، في حين كانت حالتها تسوء يومًا فيومًا كذلك. وقد بدأ مرضها في اليوم الأول الذي أخذتها فيه إلى الهرم، أي في يوم صلح ناتاشا مع والديها، ومع ذلك فما هذا الذي أزعم! لقد كانت من قبل ذلك دائمًا مريضة وكانت علتها تطرد شدة، غير أنها ساءت الآن كثيرًا بسرعة، ولست أدري إلى الآن ما هي علتها ولا أستطيع أن أعين مرضها، نعم إن النوبات التي تنتابها أصبحت الآن أكثر عددًا مما كانت قبل، ولكن أهم أعراض مرضها إنما هو نوع من الخور وهبوط القوى وحالة مستمرة من الانفعال المحموم، وقد أوصلها ذلك كله إلى حالة من الوهن أصبحت معها عاجزة عن النهوض من فراشها، ولكن عجبًا، كلما ازدادت دنفًا ازدادت نحونا رقة ومودة وصراحة، فمنذ ثلاثة أيام أمسكت بيدي بغتة إذ كنت أمر بجانب فراشها وجذبتني إليها، ولم يكن في الغرفة أحد سوانا. وكان وجهها قد احمر من الحمى وقد هزلت هزالًا مروعًا وأضحت عيناها تتقدان كالجمر فجذبتني إليها في ألم تشنجي، فلما انحنيت عليها طوقت عنقي بذراعيها الصغيرتين النحيفتين السمراوين وقبلتني قبلة حارة ثم أهابت بي أن أحضر لها ناتاشا، فناديتها، فألحت نلي عليها أن تجلس على فراشها وأخذت تحدق إليها...

وقالت: «أردت أن أراكما كليكما، فقد رأيتكما أمس فيما يرى النائم، ثم عدت فحلمت بكما الليلة أيضًا... وما أكثر ما حلمت بكما...

يكاد يكون ذلك كل ليلة...».

وأكثر الظن أنها أرادت أن تضيف شيئًا آخر، فعقلت لسانها عاطفة حارة ملكت عليها جنانها، بيد أنها كانت هي نفسها على غير بينة من كنه مشاعرها، ولذلك لم يكن في وسعها أن تبين عنها بالكلام...

وكان تحب إشمنيف الهرم حبًّا لا يفوقه غير حبها لي، ولا بد من القول بأن نيكولاي سيرجيفتش أيضًا كان يحبها حبًّا يكاد يعدل حبه ناتاشا، وقد عرف بحذق كيف يبعث فيها الابتهاج ويحملها على الضحك، فقد كان لا يكاد يدخل عليها الغرفة حتى يبدأ الضحك والمزاح، فإذا بالمريضة الصغيرة تبتهج ابتهاج الطفلة، بل تأخذ في مغازلة الهرم ومداعبته وتقص عليه رؤاها وتضيف إليها من اختراعها ما يعن لها، وتدعه كذلك يقص عليها مختلف القصص. وكان يشعر بالسرور والابتهاج يغمران قلبه عندما يتاح له أن يكون مع «ابنته الصغيرة نلي» التي ما فتئ حبه لها يزداد تغلغلًا إلى شغاف قلبه يومًا بعد يوم.

وقد قال لي مرة بعد أن لوح عليها برسم الصليب بالليل على مألوف عادته ثم خرجنا من غرفتها: «لقد أرسلها الله لنا جزاء على ما لقينا من آلام».

وكنا عندما نجلس كل ليلة معًا، نحملها في كرسيها ذي المسند لنضعها بجوار المنضدة، وكذلك كان مسلوبويف يأتي كل ليلة تقريبًا، وأحيانًا كذلك كان يأتي الدكتور الهرم، وقد أمحض آل إشمنيف حبه. وكان باب الشرفة يفتح على مصراعيه، فتبدو لأعيننا الحديقة الصغيرة الخضراء منبسطة في ضوء الشمس الغاربة، فيملأ علينا الغرفة شذا

الحشائش النضرة وأرج الزنبق المتفتح، فكانت نلي وهي جالسة في كرسيها ذي المسند تنظر إلينا جميعًا برفق وحنان وتصغي إلى أحاديثنا. وكانت في بعض الأحيان تنتعش وتفيض حياة فتبدأ تقص علينا قصة ما، بيد أنّا كنا نستمع إليها في كرب عظيم، إذ كان في ذكرياتها أشياء كثيرة يجب ألا تمس من جديد. وكنا جميعًا، أنا وناتاشا والزوجان إشمنيف، نشعر ونعرف مدى ما ارتكبنا نحوها من إثم في ذلك اليوم الذي قسرناها فيه على أن تقص علينا سيرتها وهي ترتعد منهوكة القوى. وكان الدكتور على الخصوص يعارض في سرد هذه الذكريات، فكنا نجتهد جميعًا في أن نحول مجرى الحديث إلى موضوع آخر، وكانت نلي تتظاهر في مثل تلك الحالة بأنها لم تفهم غرضنا وتشرع تمازح الدكتور أو نيكولاي سيرجيفتش.

ثم أخذت حالتها تسوء يومًا بعد يوم، إذ أخذ إحساسها العصبي يرهف باطراد، وقلبها ينبض نبضًا يطرد في قلة الانتظام. وقال لي الدكتور: إنها لا بد ملاقية حتفها قريبًا.

ولم أخبر آل إشمنيف بذلك حتى لا أزعجهم وأثير اضطرابهم، وقد كان نيكولاي سيرجيفتش مقتنعًا تمام الاقتناع بأنها ستكون قد عوفيت عندما يحين أوان الرحيل.

وقالت ناتاشا عندما طرق سمعها صوت إشمنيف: «ولكن ها هو ذا أبي قد عاد، فهلم يا فانيا!».

وما كاد نيكولاي سيرجيفتش يجوز العتبة حتى بدأ يتكلم بصوت جهر كعادته، فبادرت أنّا أندريفنا تلوح له بكلتا يديها أن يصمت فصمت

في التو، ولما رآني أنا وناتاشا أسر إلينا على عجل بنتيجة سعيه، فقد أسندوا إليه المنصب الذي كان يسعى إليه فسره ذلك كثيرًا بالطبع.

وقال وهو يفرك كفيه: «سيكون في وسعنا أن نرحل بعد أسبوعين» واختلس نظرة مهمومة إلى ناتاشا.

ولكنها أجابته بابتسامة وطوقته بذراعيها فشتتت شكوكه.

وقال: «إذن فسنرحل يا أعزائي، سنرحل! ولكن فراقنا لك يا فانيا هو الذي يحزنني...».

وأحب أن ألاحظ أنه لم يدعني قط إلى الرحيل معهم وهو ما كان يفعله- حسبما أعرف من خلقه- لو لم يكن ثمة عائق خاص يمنع من ذلك، أعني لو لم يكن على علم بمحبتي لناتاشا.

وأضاف وهو يرنو إلى ابنته بمؤخر عينه: «ولكن ماذا نستطيع أن نعمل يا أطفالي. إن الأمر ليحز فؤادي يا فانيا، غير أن تغيير الإقامة هذا سيجدد حياتنا جميعًا. إن تغيير المكان يستتبع تغيير جميع العادات والأحوال المعيشية».

لقد كان يعتقد ذلك وكان سعيدًا باعتقاده.

فسألت أنّا أندريفنا: «ونلي؟».

فقال مرتعبًا: «نلي؟ أجل، إنها مريضة بعض الشيء، تلك الطفلة المحبوبة، ولكنها ستكون حتى ذلك الحين قد أبلت من مرضها، وقد بدأت حالتها تتحسن. ألا تجد ذلك أنت أيضًا يا فانيا؟» ونظر إليّ في قلق كأنه كان عليّ أن أزيل ما يخامره من شكوك ووساوس.

«وكيف حالتها؟ وهل غشيها النوم؟ آمل ألا يكون قد حدث لها ما يسوء. أو لم تستيقظ بعد؟ أتدرين يا أنّا أندريفنا، تعالي الآن ننقل المنضدة الصغيرة سريعًا إلى الشرفة ونضع فوقها غلاية الشاي، حتى إذا قدم أصدقاؤنا جلسنا جميعًا في الهواء الطلق وخرجت نلي كذلك إلينا... سيكون ذلك جميلًا! وهل هي استيقظت؟ سأبادر بالذهاب إليها» ثم أردف يقول وقد رآها تلوح له بيديها ثانية: «لست أريد شيئًا غير أن أراها، فلا تخشي شيئًا، لن أوقظها!» ولكن نلي كانت قد تنبهت من نومها. وبعد ربع ساعة كنا جميعًا، كدأبنا، حول المائدة المستديرة نحتسي شاي المساء.

وحملت نلي في كرسيها وحضر الدكتور ومسلوبويف وكان مع الأخير طاقة من الزنبق، بيد أنه كان يبدو مضطرب الأعصاب مشغول البال بأمر ما.

ويلاحظ إلى جانب ذلك أن مسلوبويف كان يأتي كل مساء تقريبًا، وقد لاحظت أنهم جميعًا قد كلفوا به ولا سيما أنّا أندريفنا، ولكنه لم يحدث أن ذكر واحد منا ألكسندرا سيميونفنا بكلمة، بل إن مسلوبويف نفسه لم يحاول الكلام عنها قط، فإن أنّا أندريفنا، وقد علمت مني أن ألكسندرا سيميونفنا لم تفلح بعد في حمل مسلوبويف على أن يعقد عليها، رأت من المستحيل أن تستقبلها في بيتها، بل أن تذكرها مجرد ذكر في حديث لها وقد أخذت نفسها بالدقة في هذا الأمر وكان ذلك مما يمتاز به تفكيرها. على أنه لو لم تكن ناتاشا تقيم في المنزل ولو لم يحدث ما حدث- وهذا هو الأهم- لكان من الممكن ألا تأخذ أنّا

أندريفنا نفسها بالدقة على هذا النحو.

كانت نلي في هذا المساء حزينة مفرطة في الحزن، وكان يلوح أنها مشغولة البال بأمر ما، كما لو كانت قد حلمت حلمًا مزعجًا لا مفر لها من معاودة التفكير فيه آن بعد آن، غير أنها ابتهجت كثيرًا لهدية مسلوبويف، وكانت ترنو بافتتان صامت إلى الأزهار التي وضعناها في كوب أمامها.

فقال الهرم: «وإذن فأنت تحبين الأزهار هذا الحب الجم» ثم أضاف متحمسًا: «إذن فانتظري في الغد... سترين بنفسك!».

فقالت نلي: «أجل، إني أحب الأزهار ولا أعدل بها شيئًا، وما زلت أذكر كيف فاجأنا أمي مرة بالأزهار، فقد ظلت ذات مرة في فراش المرض شهرًا كاملًا، حين كنا هناك (وقد غدت الآن تستعمل كلمة «هناك» بمعنى في الخارج) فاتفقت أنا وهينريش على أنها حين تنهض من مرضها، وتبرح غرفة النوم التي قضت فيها أربعة أسابيع، نزين نحن سائر الغرف بالأزهار، وذلك ما فعلناه. وقد قالت أمي في الليلة السابقة إنها لا بد ناهضة في الصباح التالي لتتناول الإفطار معنا، فاستيقظنا مبكرين جدًّا وأحضر هينريش أزهارًا كثيرة وشرعنا نزين الغرف كلها بالأفنان الخضراء وأكاليل الزهر، وكان ثمة كذلك أزهار حبل المساكين، وذلك الشيء الآخر ذو الأوراق العريضة الذي لا أذكر اسمه، ثم تلك الأغصان، التي تشهدها في كل مكان، وأزهار بيضاء كبيرة ونرجس وهو أحب الأزهار إلى نفسي، وورد، يا له من ورد فاخر، وضروب شتى من الرياحين، وقد علقنا ذلك كله في الأكاليل أو وضعناه في الزهريات، ثم كان ثمة نباتات أشبه بدغل حقيقي نابتة في أصص كبيرة صففناها عن

يمين كرسي أمي وعن شماله، فلما دخلت أمي بوغتت بهذا وسرت له سرورًا كثيرًا، وكذلك ابتهج هينريش ابتهاجًا بالغًا...».

ولكن نلي كانت في هذا المساء في غاية الوهن والاضطراب، وكان الدكتور يرقبها في قلق. وكانت متعطشة إلى الكلام، فأخذت تفضي إلينا بطرف من تاريخ حياتها السالفة «هناك» فلم نقاطعها، فاسترسلت تقص علينا في انفعال شديد ذكرياتها عن السماء الزرقاء والجبال الشوامخ المجللة بالبرد والثلج، تلك الأشياء والأقاليم التي شاهدتها وجابتها، ثم عن مساقط المياه في الجبال وعن بحيرات إيطاليا وأوديتها وعن أشجارها وأزهارها وأهل ريفها وملابسهم ووجوههم السمراء وأعينهم السوداء، وتقص علينا وقائع وحوادث شتى كانت لها معهم، ثم تحدثت عن المدن الكبيرة والقصور الشاهقة، وعن كنيسة عالية... ذات قبة رأتها مرة تنار إنارة ساطعة بمصابيح ذات ألوان، ثم عن مدينة جنوبية حارة ذات سماء زرقاء تطل على البحر... ولم يسبق لنلي أن بسطت لنا ذكرياتها بمثل هذا الإسهاب، وكنا نستمع إليها في انتباه شديد. وحتى تلك الساعة لم نكن نعلم من سيرتها سوى الحوادث الأخيرة التي وقعت لها في تلك المدينة القاتمة العابسة ذات الجو الخانق المضجر والهواء الوبيء والقصور العظيمة القيمة الملطخة بالقذارة، ذات الشمس الكدرة الكامدة والسكان الشريرين المتهوسين، الذين كان عليها وعلى أمها أن يذوقا على أيديهم الأمرين. ثم أخذت أتخيلهما وقد شملتهما ليلة رطبة فراحتا تنامان متعانقتين في فراشهما الرث بزاوية القبو القذرة، وقد جعلتا تستعيدان ذكرى ما غبر من حياتهما كما تستذكران فقيدهما هينريش،

وما شاهداه في البلدان الأجنبية من عجائب.. وأخذت أتخيل أيضًا كيف كانت هذه الذكريات تنهش قلب نلي نهشًا، نلي وحدها دون أمها، حين كانت بوبنوفا تحاول كسر مقاومتها باللطمات والقسوة الحيوانية، وترغمها على امتهان مهنتها المزرية.

ولكن نلي وهنت منها القوى آخر الأمر حتى أوشكت أن يغشى عليها، فاضطررنا إلى حملها خارج الغرفة. وارتعب الهرم واستولى عليه الندم؛ لأنه سمح لها أن تتكلم طويلًا إلى هذا القدر. وانتابتها نوبة أشبه شيء بالإغماء، وكانت قد انتابتها مثل هذه النوبة عدة مرات من قبل، فلما أفاقت ألحت أن تراني، محتجة بأنها تريد أن تقول لي شيئًا على حدة، ولم تزل تلحف في طلبها هذا حتى وافق الدكتور نفسه هذه المرة على إجابة رغبتها، فخرجوا جميعًا من الغرفة.

وقالت لي حين خلوت بها: «أصغ إليّ يا فانيا. إني لأعلم أنكم تحسبون أني راحلة معهم، ولكني لن أفعل، فليس ذلك في مقدوري، وأود في الوقت الحاضر أن أقيم معك أنت. وهذا ما أردت أن أفضي به إليك».

فحاولت أن أثنيها عن عزمها وقلت لها إن آل إشمنيف يحبونها حبًّا جمًّا ويعدونها ابنة لهم، وإنهم جميعًا سيألمون لغيابها، على حين لا ينتظرها عندي إلا العيش الخشن، على أنه وإن تكن هي أحب إليّ من كل شيء، ليس ثمة ما يستطاع عمله ولا مناص إذن من الفرقة بيننا.

فأجابت بإصرار وعناد: «كلا، إن هذا محال، إني كثيرًا ما أرى أمي هذه الأيام في المنام وهي تهيب بي ألا أذهب معهم، وتقول لي إنه يجب

عليّ أن أبقى هنا، وقد قالت أيضًا: إني كنت مخطئة كل الخطأ حين تركت جدي وحيدًا هنا. وجعلت تبكي وتنتحب وهي تقول ذلك، ولهذا آثرت يا فانيا أن أبقى هنا لكي أقوم بشؤون جدي».

فقلت وقد أدهشني ما سمعته منها: «ولكن جدك قد مات يا نلي!».

ففكرت قليلًا ثم حدقت إليّ بقوة.

وقالت: «اقصص عليّ مرة أخرى يا فانيا كيف قضى نحبه. اقصص علي كل شيء ولا تنس شيئًا!».

فدهشت كثيرًا لهذا الطلب، غير أني بدأت أقص عليها كل شيء من جديد، حتى أضأل التفاصيل، وقدرت أنها تهذي من أثر الحمى، أو أنها على الأقل لم يعد إليها تمام رشدها بعد النوبة التي انتابتها.

وكانت تصغي إلى قصصي بانتباه. وما زلت أذكر كيف كانت عيناها السوداوان اللتان يشع منهما بريق الحمى مستقرتين عليّ ترقباني بإنعام. وكانت الغرفة حالكة الظلام.

وقالت مؤكدة بعد أن سمعت كل ما قصصت عليها وتروت فيه لحظة: «كلا يا فانيا، إنه لم يمت، إن أمي تتحدث عنه كثيرًا في هذه الأيام. وعندما قلت لها أمس: ولكن جدي قد قضى، حزنت حزنًا شديدًا وانفجرت بالبكاء وقالت: إن هذا ليس بصحيح، وهم إنما يختلقونه اختلاقًا، فهو ما زال يجول في الطرقات يستجدي الناس، كما كنا أنا وهي نستجديهم. قالت لي والدتي ذلك بنصه، ثم أضافت إنه ما زال يحوم حول ذلك الموضع الذي لاقيناه فيه أول مرة، عندما خررت جاثية

بين يديه وعرفني أزركا...».

فقلت: «هذه أحلام محمومة يا نلي، أحلام مبعثها الحمى لأنك مريضة الآن».

فقالت: «لقد ظننت أنا أيضًا ذلك، ولهذا لم أنبئ أحدًا بكلمة منه. ولكني أحببت أن أنبئك أنت به، غير أنه حين غشيني النعاس اليوم بعد ما لبثت طويلًا في انتظارك، رأيت جدي بنفسي، وكان جالسًا في بيته ينتظرني، وكان هزيلًا جدًّا بشع السحنة، وقد قال لي إنه لا يجد منذ يومين ما يقتات به وكذلك أزركا. وكان ساخطًا عليَّ أشد السخط، فانهال عليّ باللوم والتقريع، ثم قال لي إنه ليس لديه شيء من تبغ النشوق وإنه لا يحتمل العيش بدونه. وقد كان قال لي هذه الجملة فعلًا يا فانيا فيما مضى حين وفدت عليه بعد موت أمي، وكان إذ ذاك في شدة المرض ولا يكاد يعي شيئًا، وعندما سمعت ذلك منه اليوم فكرت قائلة يتحتم عليك أن تذهبي في الحال إلى القنطرة، فتتكففي ثم تبتاعي له بما يتصدقون به عليك خبزًا وبطاطس مسلوقًا، ونشوقًا، فلما مضيت إلى هناك وأخذت أتكفف إذا بي أبصر جدي يسير جيئة وذهابًا، وانتظر هنيهة ثم جاء إليّ ليرى مبلغ ما جمعت وأخذ مني النقود، وقال: «هذا للخبز فاستجدي الآن للتبغ!» فمضيت أتكفف ثانية فجأة إليّ مرة أخرى وأخذ مني النقود، فقلت له إني على أية حال كنت أعتزم تسليمه كل ما جمعت لا أستبقي لنفسي منه شيئًا، فقال: «كلا، إنك تسرقينني، وقد اتهمتك البوبنوفا باللصوصية من قبل، ولهذا لن آخذك لتقيمي معي. أين أخفيت القطعة ذات الخمسة الكوبيكات؟ فأخذت أبكي لأنه لم يرد أن

يصدقني، أما هو فقد أبى أن ينصت إليّ وأخذ يصيح: «لقد سرقت قطعة ذات كوبيكات خمسة!» وضربني ونحن ما نزال على القنطرة على مرأى من الناس، وكان الضرب قاسيًا فتألمت وبكيت كثيرًا. انظر يا فانيا، إني لهذا أعتقد الآن اعتقادًا جازمًا، أنه ما يزال حيًّا يسير وحده في مكان من الأمكنة يذهب فيه ويجيء، منتظرًا أن أذهب إليه...».

فبدأت من جديد أقنعها بأنها مخطئة وأثنيها عن عزمها، ولاح لي أنها اقتنعت آخر الأمر. وقد أبدت لي خشيتها أن تعاود النوم مرة أخرى؛ لأنه لن تلبث في هذه الحالة أن ترى جدها من جديد. ثم عانقتني في النهاية بحنو وحنان...

وقالت وقد ألصقت وجهها الحار بخدي: «ومع ذلك لست أستطيع أن أفارقك يا فانيا، حتى إذا كان جدي قد فارق الحياة، فلست أستطيع لك فراقًا».

وكان كل من في البيت قد ذعروا للنوبة التي انتابت نلي. وقصصت على الدكتور كل أحلامها بصوت خافت جدًّا، استرأيته باهتمام في شأنها.

فقال متأملًا: «لا يستطيع المرء حتى الآن أن يقول شيئًا. فأنا في الوقت الحاضر أخمن وأعمل فكري وأراقب، بيد أني لا أستطيع أن أزعم شيئًا زعم الواثق. ومهما يكن من شيء فإن الشفاء مستحيل على أية صورة، فليس عن الموت محيص. ولقد أمسكت عن إخبار إشمنيف بذلك لأنك رجوتني ألا أفعل، ولكن حالتها تحزنني حزنًا مؤلمًا. وأحب أن أحضر في الغد بعض الأطباء ليدلوا إليّ بما ينتهون إليه، ولعل المرض

يتجه بعد هذه الاستشارة اتجاهًا آخر. إنني حزين من أجلها، تلك الطفلة المسكينة، كأنها ابنتي وفلذة كبدي... يا لها من فتاة ظريفة محببة! ولما بين حناياها من روح مرحة».

واشتد التأثر بنيكولاي سيرجيفتش.

وقال: «اسمع يا فانيا ما يجول بخلدي. إنها تحب الأزهار حبًّا جمًّا. أتدري؟ أنهيئ لها غدًا عندما تبل من مرضها استقبالًا بالأزهار، كذلك الذي استقبلت به هي وذلك الهينريش أمها كما قصت علينا اليوم... فقد كانت متأثرة كل التأثر حين كانت تتكلم عن ذلك...».

فقلت: «أجل، فقد كانت منفعلة، ولكن الانفعال في الوقت الحاضر لا يسبب لها غير الأذى».

«حقًّا، بيد أن انفعال السرور شيء آخر، فصدقني يا بني، وآمن بخبرتي التي اكتسبتها على مر السنين، فانفعال السرور لا يكون وراءه أذى مطلقًا، بل إنه لقمين أن يشفي ويبرئ، أو على الأقل بأن يعجل بالشفاء...».

وموجز القول إن الهرم كان مفتتنًا بفكرته حتى ظل تحمسه لها يزداد ويعظم، وأضحى كل اعتراض عليها لا يجدي عنده فتيلًا، ففزعت إلى الدكتور أستشيره، على أنه قبل أن يدلي بمشورته كان الهرم قد تناول قبعته وعصاه وهرول لينفذ خطته.

وقال وهو منصرف: «أتدري! هنا على مقربة منا بيت زجاجي حار لتربية الأزهار، هو عبارة عن حانوت كبير، والبستاني يعرض الآن

أزهاره للمبيع، ففي وسعنا أن ننال شيئًا منها بثمن زهيد! حقًّا، بثمن بخس جدًّا!... فأخبر أنّا أندريفنا بذلك، فإنه يسوءها أن تكون النفقات كثيرة... إذن فقد اتفقنا على ذلك... أجل! ولكن ثمة شيئًا آخر يا بني، إلى أين تريد أن تذهب الآن؟ لقد أنجزت عملك وانتهيت منه تمامًا، فما الذي يبعثك على الرجوع إلى منزلك؟ اقض الليلة عندنا، في الغرفة الصغيرة العليا تحت السطح، حيث كنت تنام فيما مضى، ألا تذكرها؟ إن سريرك وحشيته لا يزالان حيث كانا لم يمسسهما أحد، وهناك يتيسر لك أن تنام كأنك ملك فرنسا. وإذن فأنت باق هنا، أليس كذلك؟ وسنستيقظ غدًا مبكرين جدًّا، فنحضر الأزهار ونزين بها أرجاء الغرفة حوالي الساعة الثامنة، وستساعدنا ناتاشا في ذلك، فهي أوفر منا ذوقًا في هذه الشؤون... أتوافق على ذلك؟ أتبقى هنا؟».

وهكذا استقر الرأي على أن أبيت عندهم الليلة، وذهب الهرم ليدبر ما عقد عليه عزمه، وقد ودع الدكتور ومسلوبويف وانصرف كل منهما إلى منزله، وذهب آل إشمنيف للرقاد مبكرين، في الساعة الحادية عشرة. وكان مسلوبويف وهو يودعني، غارقًا في التأمل، وقد هم أن يقول لي شيئًا، بيد أنه أرجأ ذلك إلى وقت آخر، على أني ما كدت أودع الهرم وأصعد إلى الغرفة العليا حتى استولت عليّ الدهشة، إذ وجدت بها مسلوبويف جالسًا إلى المنضدة ينتظرني وهو يعبث بتقليب صفحات أحد الكتب. فقال:

«لقد قفلت راجعًا من وسط الطريق يا فانيا، إذ رأيت أن الخير في أن أنبئك الآن بالأمر، فاجلس. إنه أمر سخيف جدًّا... مثير للحنق...».

«وما هو هذا الأمر؟».

«ذلك الوغد، الأمير، لقد أحفظني عليه منذ أسبوعين، أحفظني وبالغ في إحناقي، حتى إني لا أزال محنقًا عليه إلى هذا الوقت».

«ماذا حدث؟ ألا تزال لك صلة به؟».

«ها أنت ذا تعود مرة أخرى فتقول ماذا حدث؟ كأن شيئًا خارقًا قد حدث! إنك يا صديقي فانيا تسلك مسلك ألكسندرا سيميونفنا، ومسلك هؤلاء النسوة اللواتي لا يمكن احتمالهن على الإطلاق... إنني لا أطيق النساء، إذ لا يكاد غراب ينعق حتى يقبلن في الحال مندفعات قائلات: «ماذا حدث، ماذا حدث؟».

«حسن، لا تغضب».

«ليس بي شيء من الغضب، ولكن على المرء أن ينظر إلى كل شيء بعينه عارية لا من وراء منظار معظّم... هذا هو كل ما في الأمر».

وصمت هنيهة كما لو كان لا يزال غاضبًا مني، فلم أنبس ببنت شفة.

وعاد يقول: «أترى يا صديقي. لقد وقعت فجأة على أثر... أعني أني في الواقع لم أقع على أثر ما، إذ ليس ثمة أثر، غير أنه يلوح لي... أعني، لقد استنبطت من ملابسات شتى أن نلي... ربما كانت... بإيجاز هي الابنة الشرعية للأمير».

«ماذا تقول؟».

فصاح وهو يلوح بذراعيه ساخطًا: «ها أنت ذا تصيح في التو «ماذا تقول!» إنه لفوق طاقة المرء أن يتحادث مع قوم على شاكلتك! فهل

أخبرتك أنا بشيء على أنه يقين أيها الغر؟ هل قلت في صراحة ووضوح: لقد ثبت أنها ابنة الأمير الشرعية؟ أأنا قلت ذلك؟ نعم أو لا؟».

فقاطعته قائلًا وأنا مضطرب غاية الاضطراب: «استمع يا عزيزي ولا تصرخ هكذا بالله عليك، وأفصح لي عن كل شيء في دقة وجلاء، حتى أستطيع فهم ما تقول، واذكر خطورة هذا الأمر وما له من عواقب جسيمة...».

«آه. عواقب، عواقب ماذا؟ أين البراهين؟ إن الأمور لا تسوى على هذا النحو، وإني إنما أقول لك كل هذا على أنه سر يجب عليك أن تختم عليه بخاتم الصمت. أما سبب إخباري إياك بكل ذلك، فسأنبئك به فيما بعد، أعني أن ثمة ما يحفزني إلى إخبارك بالأمر، فاسمعني صامتًا واذكر أن كل شيء لا يزال سرًّا... وها هو ذا ما حدث فاسمع: ما كاد الأمير يعود من فارسوفيا في الشتاء حتى شرع يعني بشؤونك، والواقع أنه عني بالأمر مرة قبل ذلك في العام الماضي، ولكنه في ذلك الوقت لم يكن يبحث إلا عن شيء واحد، أما الآن فهو يبحث أيضًا بقصد الوقوف على أمر آخر. على أن المهم هو أنه كان قد فقد الأثر، حيث انقضت ثلاثة عشر عامًا منذ انفصل عن ابنة سميث في باريس وهجرها، وفي خلال هذه الثلاثة عشر عامًا لم يكف عن مراقبتها لحظة واحدة، فقد كان يعرف أنها تعيش مع هذا الهنريش الذي جاء ذكره في حديث نلي اليوم كما كان يعرف أنها مريضة. وموجز القول إنه كان يعرف كل شيء، بيد أن الخيط أفلت منه فجأة، والأرجح أن ذلك كان عقب موت هينريش مباشرة، حينما عادت ابنة سميث إلى بطرسبورج. وقد كان من

الميسور، بالبديهة، أن يعثر عليها هنا في وقت قصير، مهما يكن الاسم الذي تسمت به حين عادت إلى روسيا، لولا أن وكلاءه في الخارج قد ضللوه بمعلومات خاطئة، إذ أكدوا له أنها تعيش في مدينة صغيرة نائية في جنوب ألمانيا، وذلك لأنهم هم أنفسهم قد خدعوا بسبب إهمالهم فتشابهت عليهم بابنة سميث آخر، وانقضى عام على هذه الحال، ولكن الأمير شك في الأمر خلال ذلك العام، ولم يلبث أن استنبط من بعض وقائع مختلفة أن تلك المرأة لا يمكن أن تكن هي ابنة سميث المقصودة نفسها. وهنا نجم السؤال: وأين ذهبت ابنة سميث الحقيقية؟ هنا ساءل نفسه (دون سبب): ألا يمكن أن تكون في بطرسبورج؟ فأخذ، دون أن يكف عن تقصي أخبارها في الخارج، يبحث عنها هنا أيضًا، ولكنه على الأرجح لم يشأ أن يفعل ذلك بوساطة الطرق الرسمية؛ فتعرف إليّ إذ قدموني إليه قائلين: (كيت وكيت، وإنه يشتغل بمثل هذه المباحث عن هواية لها) وهلم جرّا...

وهكذا قدم إليّ وقص عليّ قصته، ولكنه ذلك الكلب ذكرها في تلميح وغموض، وحشاها بكثير من الأكاذيب، إذ إنه سردها بضع مرات، وكان في كل مرة يعرض الحادثة الواحدة بصورة تختلف عما قاله عنها في المرة السابقة... أجل، ولم يستطع، مع عظيم دهائه، كما هو الشأن في مثل هذه الحالات، أن يواري عني جميع الخيوط. وقد كنت، بالبديهة، أبدأ معه بإبداء اللين والخضوع، وبكلمة: الولاء والعبودية، على حين كنت في دخيلة نفسي أعمل وفق المبادئ التي ظللت أدين بها طوال حياتي، أي وفق قانون الطبيعة (فلم أكن في ذلك

إلا خاضعًا لقانون الطبيعة)، وقد كان ثمة مسألتان اجتذبتا كل عنايتي، الأولى: هل هو يريد حقًّا أن يعرف ما سألني عنه؟ والأخرى: أليس له وراء ما سألني عنه مأرب آخر لا يريد أن يفضي به؟ فإن كان الأمر كما في الحالة الأخيرة- وهذا ما تستطيع يا بني أن تفهمه برأس الشاعر الذي تحمله- فإنه يكون بكل بساطة قد أراد سرقتي؛ وذلك لأنه إن كان هناك خبر يساوي روبلًا مثلًا، فقد يكون هناك خبر آخر يساوي أربعة روبلات، وبذلك أكون خروفًا لو ثرثرت له في مقابل روبل واحد بما أستطيع أن أتقاضي عليه أربعة روبلات.

وعلى ذلك أرهفت أذني وشرعت أخمن وأحدس وأخذت أتأثره، فكنت أعرف بعض المعلومات التي تهمني منه هو نفسه، وأقف على بعضها من هذا أو ذاك، وبعضها أستنبطه بنفسي. قد تسألني ما الذي حفزني إلى أن أسلك هذا المسلك؟ فأجيبك بأن الذي حفزني إلى ذلك، أن الأمير كان معنيًّا بالأمر كل العناية، وأنه كان يسلك سلوك من يرهب أمرًا ما رهبة بالغة. ولو كانت المسألة على النحو الذي صوره لي حقًّا، فماذا عسى أن يرهب؟ لقد أغوى فتاة واختلسها من والدها حتى إذا ولدت طفلة نبذها عنه. ما من غير المألوف إنها مغامرة صغيرة طريفة، لا أكثر. وما كان لرجل كالأمير أن تستحوذ عليه الرهبة لشيء كهذا، ولكن الفزع والرعب يؤرقانه... والحقيقة أن أمره هذا قد أثار فيَّ الهواجس والريب. وهنا وقعت يا صديقي على أثر مهم عن طريق ذلك الهينريش. نعم إنه هو نفسه قد قضى نحبه حقيقة، ولكن كان ذلك بواسطة ابنة عم له تقيم الآن هنا في بطرسبورج مع زوجها، وهو أحد الخبازين، وكانت

فيما مضى غارقة حتى أذنيها في هوى ابن عمها هذا، وظلت خمسة عشر عامًا وفية له محافظة على حبه غير حافلة ببعلها الخباز البدين الذي ولدت له عن طريق السهو البحت ثمانية أطفال. وقصارى القول إني وصلت عن سبيل ابنة عمه هذه وباستخدام شتى ضروب الاحتيال المعقدة إلى معرفة حقيقة عظيمة الشأن، فقد كان هينريش يدون على طريقة الألمان رسائل مسهبة ومذكرات يومية، وقد أرسل إليها، قبيل وفاته بعض أوراقه، ولم تفهم الإوزة البلهاء الشيء المهم في هذه الرسائل، بل لم تفهم سوى الأجزاء التي كان فيها يناجي القمر أو يذكر أوجستين المحبوبة أو يتحدث، إذا شئت، عن فيلاند. أما من وجهة نظري فقد كانت هذه الرسائل أهم مصدر يزودني بالأنباء، إذ وقعت فيها على أثر جديد، فقد علمت منها بعض أشياء عن سميث الهرم، وعن مقدار المال المختلس منه، وعن الأمير الذي عرف كيف يقتنص المال ويغتاله، واستطعت في النهاية، من عبارات التوجع والأسى ومن دورانه حول الموضوع، ومن مختلف ضروب الاستعارات والكنايات أن ألمح قبسًا من الحقيقة، أعني، ولا شك أنك تفهمني جيدًا يا فانيا، أنه ليس في الأمر يقين، فإن هذا الهينريش الغبي تعمد ألا يصرح بشيء، مجتزئًا بالتعريض، ومع ذلك تكاثفت هذه التعريضات، وأخذت هي وغيرها تؤلف في رأسي موسيقى سماوية متجانسة، ذلك أن الأمير كان قد تزوج ابنة سميث الهرم! أين عقد هذا الزواج وكيف وفي أي زمن؟ وفي الخارج أم هنا؟ وكيف نعثر على الوثائق التي تثبت حقيقة هذا الزواج؟ كل ذلك لم أستطع معرفته. والحقيقة يا فانيا، أنني أخذت أشد شعري من فرط

اليأس والغيظ، وظللت أبحث وأنقب حتى حرمت الراحة ليلًا ونهارًا! وعثرت أخيرًا على سميث الهرم، بيد أني لم أكد أعثر عليه حتى كان قد قضى نحبه، فلم يتح لي أن أراه حيًّا ولو مرة واحدة. ثم علمت بغتة واتفاقًا أن امرأة، كنت ارتبت فيها منذ زمن طويل، قد ماتت في جزيرة فاسيلي، فبحثت وتقصيت وانطلقت مسرعًا إلى جزيرة فاسيلي، وهناك لقيتك كما تعرف، فاستطعت في تلك المرة أن أقف على شيء كثير، إذ ساعدتني نلي كثيرًا في ذلك...».

فقاطعته: «ويلك! لعلك لا تعني أن نلي تعلم...».

«بماذا؟».

«بأنها ابنة الأمير؟».

فقال مغضبًا وقد نظر إليّ زاجرًا: «ولكنك أنت نفسك تعلم أنها ابنة الأمير، فلم تسأل هذه الأسئلة الحمقاء أيها الغبي؟ ليس المهم أنها ابنة الأمير فحسب، بل إنها ابنته الشرعية، ألم تفهم ذلك؟».

فصحت: «هذا مستحيل!».

«أنا أيضًا قلت في نفسي بادئ الأمر: هذا مستحيل، وما زال هذا الشك يختلج في نفسي حتى الآن، ولكن الواقع أن ذلك ممكن وأنه مرجح جدًّا».

فصحت: «كلا يا مسلوبويف، لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا. لقد حلقت كثيرًا في سماء الخيال، إذ إن نلي لا تجهل كل شيء عن هذا الأمر فحسب، بل ولكنها أيضًا ليست إلا ابنة لا أب لها، ولو أن لدى أمها أي

مستند، أتظن أنها كانت تحتمل هنا في بطرسبورج تلك الحياة التي لا تطاق، ثم تترك ابنتها وسط هذا الشقاء؟ كلا، إن هذا مستحيل».

«هذا ما ظننته بادئ الأمر، وما زال ذلك حتى الآن لغزًا مستغلقًا عليّ، بيد أني أعود فأقول إن أم نلي هي أكثر نساء العالم خبلًا وأقلهم رشدًا. لقد كانت شاذة على نحو غير مألوف. راجع في ذهنك كل تفاصيل المسألة، تجد نفسك حيال طبع من أكثر الطبائع إيغالًا في الخبال، في أقصى درجاته خبالًا. ولاحظ أمرًا واحدًا، لقد كانت أول الأمر تحلم بوجود سماء على وجه الأرض وملائكة في أشكال البشر، وأحبت حبًّا لا يقف في سبيله شيء ووثقت ثقة لا حد لها. وإني لمقتنع كل الاقتناع بأن حلمها لم يزايلها فيما بعد، لمجرد أن الرجل قد كف عن حبها وصرم حبالها، بل لأنه غشها وغرر بها، لأنه استطاع خداعها، لأن ملاكها قد تكشف عن مخادع قذر سبها وأهانها، فلم تطق روحها الخيالية المتعلقة بالأوهام هذا الذي تكشف عنه، يضاف إلى ذلك ما ألحقه بها من إهانة، وإنك لتعلم مبلغ تلك الإهانة، فأعرضت عنه بكل احتقار وهي مفعمة بالرعب، بل وهي ترى كبرياءها مثخنة بالجراح، وهذا أشد وأنكى من كل ما عداه. لذلك أعرضت عنه وصرمت جميع ما كان يربط بينهما من أسباب، بل لعلها مزقت أيضًا جميع المستندات وبصقت على المال، دون أن تلاحظ أنه لم يكن مالها هي، بل مال أبيها، ونفضت يدها منه كأنه شيء وضيع قذر، لكي تلطم بتساميها النفسي وجه الرجل الذي ضللها، ولتستطيع أن تدفعه باللصوصية، ولتمنح نفسها الحق في أن تزدريه طوال حياتها، ولعلها قد قالت له إذ ذاك إنها تربأ بنفسها عن أن تكون له زوجة.

ومع أن نظام الطلاق ليس جاريًا في بلادنا فإنهما قد انفصلا، أعني أنها طلقت منه في واقع الأمر، فكيف يسعها بعد ذلك أن تسأله عونًا. اذكر ما قالته تلك المخبولة لنلي، وهي على فراش الموت: لا تذهبي إليهم واشتغلي، ولخير أن تموتي وتهلكي من أن تذهبي إليهم كائنًا من كان الشخص الذي يدعوك إليه! فهي حتى في ذلك العهد كانت تقدر أن هذا الرجل قد يدعو ابنته إليه، فأرادت أن تمنح نفسها فرصة أخرى لتقتص لنفسها من هذا الداعي بإبداء ازدرائها له، وبالاختصار لقد كانت تعتاض في غذائها بالتخيلات الحانقة عن الخبز، وقد استطعت أن أعلم من نلي أشياء كثيرة، وما زلت حتى الساعة أستفيض في سؤالها في بعض الأحايين. نعم، لا شك أن أمها كانت تشكو السل، وكثيرًا ما تنشأ عن هذا المرض مرارة في النفس واستعداد شديد للتأثر والانفعال. وقد علمت علم اليقين من إحدى خدينات البوبنوفا أن أم نلي قد كتبت إلى الأمير، أجل إلى الأمير، إلى الأمير نفسه...».

فسألته في نفاد صبر: «هل كتبت إليه حقًّا؟ وهل تسلم الرسالة؟».

«تلك هي المسألة نفسها، فلست أدري أتسلمها أم لا، فقد كان أم نلي قد اتفقت مع تلك الخدينة (أتدري، إنها هي تلك المرأة المتبرجة التي رأيتها عند بوبنوفا، والتي هي الآن نزيلة إحدى الإصلاحيات) على أن تحمل تلك الرسالة، وكتبت الرسالة، فعلًا، ولكنها لم تناولها إياها، أو لعلها ناولتها إياها ثم عادت فاستردتها منها. وكان ذلك قبل موتها بثلاثة أسابيع... ولهذا الحادث من عظم الخطر ما يتخطى كل حد، فإنه إن كان قد استقر رأيها ذات يوم على أن تكتب الرسالة، فسيان أن تكون

قد استردتها بعد ذلك أو لا تكون، ومن الممكن أن تكون قد أرسلتها في وقت آخر، لست أدري، ولكن كل ما لدي يحملني على الظن بأنها لم تفعل، فإن الأمير حسبما تدل عليه كل الظواهر لم يعلم يقينًا أنها تقيم في بطرسبورج ولا عند من تقيم إلا بعد موتها. ولا ريب في أن موتها قد سرى عنه كثيرًا».

«مهلًا إني أذكر في الحقيقة أن أليوشا قد قصّ عليّ ذات مرة أن الأمير تسلم رسالة ما فاستولى عليه فرح شديد. ولم يكن ذلك من عهد بعيد، بل منذ حوالي شهرين، ولكن قل لي، قل لي: ماذا صنعت مع الأمير؟».

«وماذا عسى أن أصنع معه؟ تدبر جيدًا هذا الذي سأقوله لك: لقد كنت في دخيلة نفسي مقتنعًا تمام الاقتناع، غير أنه لم يكن لدي برهان قاطع، لم يكن لدي برهان واحد بالرغم مما بذلت من جهد في سبيل ذلك، إنه لموقف حرج وأيم الله؟ ولعله يتحتم عليّ أن أبحث في الخارج، ولكن أين- الشيطان وحده يعلم- لقد كنت مدركًا تمام الإدراك أن ذلك الأمر سيكلفني من العنت والمشقة ما لا يعلم به إلا الله. وليس في مقدوري الآن أكثر من إرهابه بتلميحات أفهّمه بها أن لدي من المعلومات أكثر مما لدي في الواقع...».

«حسن، وبعد؟».

«لم تكن مخادعته بالأمر اليسير، ومع ذلك فقد غشيه من الرعب ما جعله يخشاني حتى هذه الساعة، وقد لقيته وناقشته عدة مرات، فكان يرتدي دائمًا رداء الرجل الشريف البريء المنكوب. وقد باح لي في لحظة من لحظات الود والصداقة بكل شيء، وكان ذلك في تلك المدة

التي كان يعتقد فيها أني عليم بكل شيء، وقد قص عليّ قصته بمهارة وبعواطف جياشة وصراحة تامة، أعني أنه كان يكذب وكأنه مطبوع على الكذب، وذلك ما جعلني أتبين مدى خوفه إياي. ثم مرت فترة تظاهرت فيها بأني أكثر البلهاء غباء، وأني أحتال للتوصل إلى معرفة شيء منه، فأخذت أتعمد إخافته ومعاملته بأسلوب جاف بل بدأت أتهدده، كل ذلك لكي أحمله على الظن بأني أبله فلا يتحفظ في حديثه معي، ولكنه قد استشف حقيقتي، هذا الوغد! وفي مرة أخرى ظهرت أمامه بمظهر الثمل، غير أني في هذه المرة أيضًا لم أصل إلى شيء ذي بال، فهو ماكر خبيث! تأمل يا صديقي فانيا، لقد كان عليّ قبل كل شيء أن أتبين مدى خوفه إياي، وأن أحمله في الوقت نفسه على الاعتقاد بأني أعرف أكثر مما أعرف في الواقع...».

«حسن، فماذا كانت النتيجة؟».

«لم أصل إلى شيء، فقد كان عليّ أن أستند إلى أدلة، إلى حقائق، وهذا ما لم أكن أملكه، بيد أن شيئًا واحدًا قد ظهر لي جليًّا، وهو أني قادر مع ذلك أن أثير حوله فضيحة، ولعله الآن لا يخشى شيئًا غير إثارة هذه الفضيحة، ولا سيما أنه قد أخذ ينشئ له هنا بعض العلاقات، فأنت تعلم ولا شك أنه سيتزوج مرة أخرى؟».

«ويحك!».

«نعم في العام المقبل، إذ إنه استطاع حين كان هنا في العام الماضي، أن يجد له عروسًا، كانت إذ ذاك قد بلغت الرابعة عشر عامًا من عمرها، فهي الآن في الخامسة عشر، ولعلها لا تزال تتخطر في ميدعتها. يا لها

من مسكينة! أما والداها فمغتبطان بهذا الزواج! ولعلك تستطيع الآن أن تفهم كيف كان من الضروري له أن تموت امرأته. أما الصغيرة فابنة قائد من القواد واسع الثراء، أي سمكة ذهبية. أما أنا وأنت يا صديقي فانيا فلن يتأتى لنا أن نوفق إلى مثل هذه الصفقة... وصاح مسلوبويف فجأة، وقد ضرب المنضدة بقبضته: «ولكن الشيء الذي لن أغتفره لنفسي مدى العمر هو أني تركته ينتصر عليّ منذ أسبوعين.... هذا الكلب!».

«وكيف كان ذلك؟».

«المسألة في غاية البساطة، فقد رأيت أنه على بينة من أني لن أستطيع بإزائه شيئًا، ثم إني كنت أشعر بأنه كلما طال الأمر استبان له مدى عجزي، فقبلت أن آخذ منه ألفي روبل».

«ألفي روبل أخذتها منه؟».

«نقودًا فضية يا فانيا، فقد ضغطت شعوري وأخذتها. ولكن ما قيمة ألفي روبل حيال مسألة حساسة كهذه! لقد أخذتها منه وأنا مجروح الفؤاد أشعر كأنه قد بصق عليّ. وقد قال لي: إني لم أوفك أجر مجهودك السالف يا مسلوبويف (مع أنه كان قد دفع لي منذ زمن طويل مبلغ الروبلات المائة والخمسين التي كنت أستحقها لديه إذ ذاك) ثم واصل كلامه قائلًا: «وإني لمزمع الرحيل في هذه الأيام، فهاك إذن ألفي روبل، وآمل أن يكون ما بيننا قد انتهى بذلك تمامًا، فأجبت: انتهى حقًّا أيها الأمير، ولم أجسر على النظر إلى وجهه القبيح، فقد خيل إليّ أني سأجد مكتوبًا على جبينه: ليست خدماتك هي التي أحلت لك هذا المال، فإن ما تأخذه الآن إنما أجود به عليك أيها الخروف سخاء مني وطيبة قلب!

ولست أذكر كيف خرجت من غرفته».

فصحت: «ولكن هذا عمل وضيع يا مسلوبويف، فماذا صنعت بنلي!».

«إنه ليس وضيعًا فحسب، بل إنه عمل إجرامي، بل مثير للتقزز، بل إنه... إنه... لا أجد كلمة أعبر بها عن ذلك!».

«رباه، لقد كان الواجب، على الأقل، أن يمنح نلي ما تحتاج إليه من مطالب».

«الواجب؟ وكيف لك أن تكرهه على ذلك؟ أتعمل على إرهابه؟ لن يكون ذلك إلا جهدًا ضائعًا، فلن تداخله أية رهبة، وإذا كنت ترى أني أخذت منه بعض النقود، فإني أنا نفسي قد سلمت بأن جميع محاولاتي لإرهابه لم تزد قيمتها على ألفي روبل، أنا نفسي سجلت هذا الثمن على نفسي، فكيف يتأتى لي إرهابه الآن؟».

فصحت وقد تملكني اليأس: «وإذن فقد خسرت نلي كل شيء؟».

فصاح متحمسًا وهو يرتعد من فرط اهتياجه: «كلا، كلا، كلا، فلن أمكّنه من ذلك، وسأحمل عليه من جديد يا فانيا، وقد دبرت الأمر في نفسي، أتظن أن ذلك في الإمكان ما دمت قد أخذت منه ألفي الروبلات؟ إني أهزأ بها، إنما هي ثمن ما ألحقه بي هذا الوغد من إهانة، فقد خدعني ولعله سخر مني. أجل، لقد كذب عليّ وخدعني وسخر مني فضلًا عن ذلك! كلا إني لا أحتمل من أحد أن يسخر مني... وسأبدأ الآن بنلي يا فانيا، فقد راقبتها واقتنعت بأنها قادرة على إيضاح المسألة كلها، إنها

تعرف كل شيء، كل شيء... لقد أنبأتها أمها بكل شيء. ربما كان ذلك في هذيان المرض، أو بدافع القنوط وانقطاع الأمل. ولما لم يكن لديها من تفضي إليه مكنون نفسها غير نلي، فقد قصت عليها كل شيء، فلعل ذلك يصل بنا إلى العثور على المستندات»، ثم أضاف بلهجة الظافر وهو يفرك كفيه: «أفهمت الآن يا فانيا لماذا تراني أجول هنا دائمًا؟ لا شك أن الذي يحفزني إلى ذلك أولًا وقبل كل شيء إنما هي صداقتك، هذا مفهوم. على أن المهم عندي هو أن أتمكن من مراقبة نلي. وإنه ليتحتم عليك الآن يا صديقي فانيا أن تؤازرني في هذه المسألة، أردت أو لم ترد، فإن لك على نلي سلطانًا عظيمًا!».

فصحت: «هذا شيء لا ريب فيه، إني أعدك بذلك، وإني لآمل يا مسلوبويف أن تجتهد وأن تتحمل المشاق من أجل نلي، أولًا وقبل كل شيء، من أجل اليتيمة المسكينة المهجورة، فلا تقصر تفكيرك على نفعك...».

«وفيم يهمك شخص من أبذل جهدي في سبيل نفعه أيها القديس المبارك؟ إن المهم أن يتم العمل بنجاح! لا شك في أني أعمل ذلك في المقام الأول من أجل اليتيمة، وتلك هي محبة الآخرين التي أوصينا بها، ولكن أرجو ألا تسيء الظن بي يا فانيا، يا أحب الناس إلي وخيرهم عندي، إذا كنت أتوخى في أثناء ذلك إنقاذ خروفي بإخراجه إلى الأرض اليابسة، فما أنا إلا رجل فقير، ولا ينبغي للأمير أن يتجاسر مرة أخرى على إهانة الفقراء. فهو قد سلبني بعض ما استحققته منه من مال ثم خدعني فضلًا عن ذلك. آه، يا له من وغد زنيم، فهل بعد ذلك تظن أني

أعمل لمصلحة مدلس كهذا؟ إن ذلك لن يكون».

* * *

بيد أننا لم نقم احتفال الأزهار في اليوم التالي، فقد ساءت صحة نلي كثيرًا وأصبحت لا تستطيع مبارحة الغرفة. والواقع أنها لم تبرحها بعد ذلك قط.

فقد قضت نحبها بعد أسبوعين، وكانت في خلال هذين الأسبوعين الأخيرين اللذين قضتهما في الاحتضار قلما ترجع إلى وعيها، ونادرًا ما تتحرر من تخيلاتها الغريبة. وقد بدت وكأنما القيم قد أحاط بقوتها المفكرة، فبقيت حتى آخر نفس من أنفاسها تصر على الاعتقاد بأن جدها يدعوها إليه، وأنه غاضب منها لأنها لم تنتقل إليه، ولذا فهو يهددها بالعصا، ويأمرها بأن تستجدي أولي الخير بعض الكوبيكات لكي تحضر له بها خبزًا ونشوقًا. وكانت كثيرًا ما تجهش بالبكاء وهي نائمة، حتى إذا ما هبت من نومها روت أنها رأت أمها فيما يرى النائم.

وكانت نادرًا ما تثوب إلى رشدها، وحدث ذات مرة أن كنا منفردين في الغرفة، فاستدارت نحوي وأمسكت يدي بيديها الهزيلتين المحمومتين.

وقالت: «أي فانيا، إذا مت فتزوج أنت ناتاشا!».

ويلوح لي أن هذه الفكرة قد ظلت تشغل ذهنها دهرًا طويلًا، وابتسمت لها دون أن أنبس بكلمة، فلما رأتني ابتسم ابتسمت هي أيضًا، وأشارت إليّ متوعدة بأصبعها النحيلة وأخذت تقبلني.

وفي ليلة صحو من ليالي الصيف قبل وفاتها بثلاثة أيام رجتنا أن نسدل الستائر وأن نفتح نافذة غرفتها، وهي تشرف على الحديقة، فأطلت طويلًا على الخضرة المتكاثفة، وشاهدت الشمس في مغربها، ثم أبدت بغتة رغبتها في أن أكون معها منفردين.

وقالت بصوت لا يكاد يسمع، إذ كانت قواها قد بلغ منها الخور: «فانيا، إني مائتة قريبًا، قريبًا جدًّا، ولست أسألك شيئًا غير أن تذكرني دائمًا وألا تنساني وأنا أترك لك هذه لتذكرك بي (وكشفت عن تميمة كبيرة كانت مدلاة مع الصليب على صدرها) لقد أعطتنيها أمي حين حضرتها الوفاة، فإذا ما مت أنا فخذ أنت هذه التميمة، واحتفظ بها على أنها ملك لك واقرأ ما في طيها، وسأوصيهم اليوم جميعًا بأن يسلموا هذه التميمة إليك أنت وحدك. فإذا قرأت ما فيها فاذهب إليه وأبلغه إني مت وإني لم أصفح عنه، وقل له أيضًا إني قرأت العهد الجديد، وقد ورد فيه اغفروا لمن أساء إليكم! لقد قرأت ذلك، ولكني مع ذلك لم أغفر له، فإن آخر ما سمعته من أمي وهي على فراش الموت لا تكاد تستطيع النطق هو قولها: إني ألعنه ولذلك فإني أنا أيضًا ألعنه، ليس من أجلي أنا بل من أجل أمي... وخبره أيضًا كيف ماتت أمي وكيف بقيت أنا وحدي عند بوبنوفا، وقص عليه أيضًا كيف لقيتني أنت عند بوبنوفا. خبره بكل شيء بكل شيء، ثم قل له: إني كنت أوثر أن أقضي نحبي عند البوبنوفا على أن أذهب إليه!».

وشحب وجهها حين قالت ذلك واتقدت عيناها وأخذ قلبها يخفق خفقانًا شديدًا حتى تهافتت فوق وسادتها، وظلت عليها بضع دقائق

لا تستطيع أن تنبس بكلمة.

ثم قالت بصوت ضعيف: «نادهم جميعًا يا فانيا، أريد أن أودعهم جميعًا. وداعًا يا فانيا!».

وعانقتني للمرة الأخيرة عناقًا حارًّا. وأقبل الآخرون أيضًا. ولم يرد الهرم أن يصدق أنها تموت، لم يستطع أن يقبل هذه الفكرة، فظل حتى اللحظة الأخيرة يجادلنا ويؤكد أنه لا بد من برئها. وقد برح به الهم والغم وظل جالسًا بجوار فراشها ليلًا ونهارًا... فأما في الليالي الأخيرة فلم يكن يغمض له جفن البتة، وكان يجتهد في أن يدرك من عينيها أضأل رغباتها، حتى إذا ما عاد إلينا أخذ ينتحب في مرارة، ثم لا يلبث أن يعود إلى آماله يستمسك بأذيالها، ويقول لنا مؤكدًا إن حالتها ستعود قريبًا إلى التحسن. وقد ملأ غرفتها بأكداس من طاقات الزهر، واشترى لها ذات مرة طاقة كبيرة من الورود الفاخرة البيضاء والحمراء. وقد قطع على رجليه مسافة طويلة حتى استطاع أن يأتي بها ليهديها إلى حبيبته نلي الصغيرة... وقد أثر فيها ذلك كثيرًا، وهل كان من الممكن ألا يكون لهذه المحبة الشاملة صدى في قلبها؟ ولما ألقت إلينا كلمة الوداع في ذلك المساء، لم يرد الهرم أن يودعها الوداع الأخير، فابتسمت له وجهدت طوال المساء أن تظهر بمظهر المرح، بل إنها كانت تمازحه وتضاحكه، إننا لم نغادر غرفتها حتى كان الأمل قد تطرق إلى قلوبنا من جديد، لولا أن زايلتها القدرة على النطق في اليوم التالي، وبعد يومين آخرين قضت نحبها.

وإني لأذكر كيف زين الهرم نعشها بالأزهار، وكيف كان يحدق

في يأس مروع إلى وجهها الهزيل المنهوك الذي كان لا يزال يبتسم بعد الموت، وإلى يديها الممدودتين كالصليب على صدرها. لقد بكاها كما لو كانت ابنته. وشرعت أنا وناتاشا نعزيه ونؤسيه، ولكنه لم يقبل فيها عزاء ولا تسلية! وقد مرض عقب دفن نلي مرضًا شديدًا.

وناولتني أنّا أندريفنا بيديها التميمة التي حلتها من رقبة نلي، وكانت تضم رسالة من والدة نلي إلى الأمير، قرأتها في اليوم الذي توفيت فيه ابنتها، فيها كانت تصب لعنتها عليه مكررة أنها لن تصفح عنه أبدًا، وأتت على وصف أيامها الأخيرة، ومبلغ ما سيحل بنلي بعدها من تعاسة الذي ستخلف به نلي، وراحت ترجوه أن يفعل على الأقل شيئًا لمصلحة الطفلة، وكتبت تقول: فهي طفلتك، ابنتك، وأنت تعلم أنها ابنتك الشرعية. وقد كلفتها أن تذهب إليك بعد موتي وأن تسلم إليك هذه الرسالة، فإن رأيت ألا ترد نلي خائبة فقد أصفح عنك في الدار الآخرة يوم الحساب، فأركع بين يدي الديان، وأضرع إليه أن يغفر لك خطاياك. إن نلي تعرف فحوى هذه الرسالة فقد تلوتها عليها وبينت لها كل شيء، فهي تعرف كل شيء كل شيء...».

بيد أن نلي لم تمتثل أمر والدتها، وكان تعلم كل شيء، ولكنها مع ذلك لم تقصد إلى الأمير، بل ماتت دون أن تصفح عنه. وقد سرت أنا وناتاشا في الحديقة بعد أن عدنا من دفن جثمان نلي، وكان اليوم حارًّا ساطع الشمس، وكانوا يعتزمون الرحيل بعد ثمانية أيام، فنظرت إليّ نظرة عجيبة طويلة.

وقالت: «فانيا، فانيا، لم يكن ذلك كله إلا حلمًا!».

فسألتها: «ما هذا الذي كان حلمًا؟».

فأجابت: «كل شيء، كل شيء، كل ما حدث هذا العام الأخير، أي فانيا، لماذا عملت على تحطيم سعادتك؟».

وقرأت في عينيها:

«ولقد كنا سنصير سعيدين معًا!».

* * *